مطبوعات المجمع العلمي العراقي

السفارات النبوية

تأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب
عضو المجمع العلمي العراقي



مطبعة المجمع العلمي العراقي
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



الاهـــــداء

إلى سفراء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، الذين بلّغوا رسائله النبويّة إلى ملوك وأمراء عصره الميمون ، وأدّوا الأمانة ، ولم يخشوا في سبيل أدائها إلاّ الله ، فجزاهم الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ، ورضى الله عنهم وأرضاهم كما يحبّ ويرضى .

محمود شيت خطّاب

بسم الله الرحمن الرحيم

ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وجَادِلْهُمْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وهُوَ أَعْلَمُ بالمُهْتَدِينَ .

وإنْ عاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ ، ولَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِيْنَ .

واصْبِرْ ومَا صَبْرُكَ إلاَّ باللهِ ، ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ولاَ تَكُ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ .

إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا والَّذِيْنَ هُمْ مُحْسِنُونَ .

سورة النحل (١٦ : ١٢٥ ــ ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨) .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

١ ـ المحتوى

الحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على خاتم النبيين والمرسلين ، الذى أرسله الله للناس كافة رحمة للعالمين ، ورضى الله عن أصحابه الغر الميامين أجمعين .

يضم هذا الكتاب ، أربعة فصول شاملة ، تسدّ ثغرة بارزة في مكتبة الدراسات النبويّة .

الفصل الأول في : الرسائل النبوية ، الى الملوك والأمراء والرؤساء في زمانه ، ومايتميز به هذا الفصل على أمثاله في الدراسات النبوية ، إنّ تلك الدراسات التى أوردت نصوص الرّسائل النبوية ، ذكرت أسماء مَن أُرسلت إليهم تلك الرسالة النبوية أو لم تذكر حتى أسماءهم مكتفية بذكر مناصبهم ، كالنجاشي وكسرى وقيصر ... الخ ... دون أن تذكر تفاصيل سِيَر أولئك الأشخاص ، فرأيت من الضروري تفصيل سِيَر أولئك الأشخاص الذين قصدهم السّفراء النبويون وتسلّموا الرسائل النبوية الموجّهة إليهم .

وهذا التفصيل الذي جمعته من المصادر الموثوق بها ، يفيد الباحث والقارىء في أخذ صورة كاملة عن تلك الشخصيات ، وفي تفهّم الموقف الراهن المحيط بهم ، ويعينه على الاطّلاع على أدق التفاصيل عن واقع أولئك

الرجال الذى حظوا بتوجيه الرسائل النبوية اليهم وحظوا بتسلمها في حينه ٠

والفصل الثاني في كتّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، وموادهم الكتابية ، والأسلوب الجاري في الرسائل النبويّة بخاصة ، وفي المحيط العربي والدولي بعامة ، وهو فصل قد يكون جديداً في الدراسات النبوية في موضوعه ٠

والفصل الثالث في : سمات سفراء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقد كان نجاح السفارات النبويـة نجاحاً باهراً كما هو معـروف ، وسمات السفراء النبويين يعطى الجواب المقنع على أسباب هذا النجاح ٠ انّ التوفيق والسّداد بيد الله سبحانه وتعالى ، وهذا لايمنع شرعاً وعقلاً من اتخاذ الأسباب للوصول الى التوفيق والسّداد ٠

والفصل الرابع ، في : السّفارات النبوية في الدراسات الحديثة ، مع اضافة المستجدّات في الموضوع ، من اكتشاف بعض الرسائل النبوية واجراء الفحص العلمي عليها ، فلابد من احقاق الحق وازهاق الباطل ، والحق أحق أن يُتبع ٠ وفي هذا الفصل معلومات جديدة ، تفرقت في الصحف والكتب والمجلات والدراسات ، حاولت جمعها هنا ٠

وهدفي أن يكون النبيّ عليه الصّلاة والسّلام،هو القدوة والأسوة الحسنة للحكام والمحكومين ، والرؤساء والمرءوسين كافة ، رجالاً ونساء وشيوخاً وشباباً ، بأسلوب واضح ، يُقنع كلّ دارس وقارىء وباحث ليس في قلبه مرض، ويُعين كلّ طالب علم يطلب الحقّ ويخضع له ٠

أدعو الله عزّ وجل ، أن يُحقّق أملى في هذه الدراسة نظريّاً وعمليّاً ، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وحَسْبنا الله ونِعْمَ الوكيل ٠

٢ ـ الهدف والمعني

ا ـ الهدف

كان هدف السفارات النبوية هو الدّعوة الى اعتناق الدين الاسلاميّ ، فكان سفراء النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم الذين بعثهم الى الملوك والرؤساء في زمانه دُعاة إلى الاسلام[1] ، ولكنّهم صَفوة الدُّعاة الى اللّه ، لأنّ اسلام ملك أورئيس يؤثّر تأثيراً عظيماً في أتباعه ، لذلك كان سفراء النبيّ صلى اللّه عليه وسلّم هم صَفوة الدُّعاة المسلمين من الصّحابة . واذا كان الدّعاة هم صَفوة الصّحابة ، فانّ السُّفراء هم صَفوة الصَّفوة .

وقد أطلق المؤلّفون القُدامى على أولئك السّفراء تعبير : الرُّسُل ، فقالوا : « خروج رُسُل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم الى الملوك »[2] ، ولكن المؤلفين المحدَثين أطلقوا عليهم تعبير : السُّفراء ، لأنّ الرّسول الذي يُرْسل من مسئول ما الى مسئول آخر أجنبيّ يُسمّى سفيراً ، بموجب المصطلحات السياسية الحديثة ، فهو : « مبعوث يمثّل الدولة لدى رئيس الدولة المبعوث اليها »[3] ، كما أنّ المؤلفين المحدَثين أطلقوا تعبير : السَّفير على الرّسول ، لأنّ تعبير السفير أصبح شائعاً كثير الاستعمال ، يتردد استعماله كثيراً في أجهزة الاعلام المختلفة وفي التخاطب والحوار بين الأفراد والجماعات أيضا .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢٧٨/٤) وطبقات ابن سعد (٢٥٨/١) والطبري (٦٤٤/٢) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢٨٧/٤) وطبقات ابن سعد (٢٥٨/١) والطبري (٦٤٤/٢) .

(٣) المعجم الوسيط (٤٣٣/١) ، وهذا هو التعريف المعتمد في مصادر القانون الدولي الحديث .

ب ـ المعنى

مصطلح السفير معروف في العربية الفصحى قديماً ، ففى حديث علىّ بن أبي طالب الى عثمان بن عفّان رضى الله عنهما أنه قال لعثمان : « قد استَسْفَرُونى بينك وبينهم ، أى جعلوني سفيراً ، وهو الرّسول المصلح بين القوم[٤] ، أى أنّ السّفير هو الرّسول والمصلح بين الناس[٥] ، ومعنى السّفير في العربية الفصحى ، يقارب معناه في المصطلحات السياسية الحديثة المعتمدة في القانون الدولىّ ، كما أنّ معناه قديماً يشابه معناه حديثاً ، كما يطابق في معناه هدف السّفير النبويّ في مطابقة الصّلاح والاصلاح : الدّعوة إلى الاسلام ، فهو رسول مُصلح كما جاء معناه في المعجمات العربية القديمة والحديثة .

ولكنّ تقارب المعنى وتشابهه وتطابقه من الناحيتين اللّغوية والنّظرية شيء ، وتناقضه واختلافه وتباعده من الناحيتين التّطبيقيّة والواقعيّة شيء آخر ، فالواقع أنّ السّفير الاعتيادى قديماً وحديثاً له واجباته المعروفة في الاصلاح والصّلاح وفي الافساد والفساد أيضاً ، وتلك الواجبات تتّصل بأمور الدنيا المادية وبمصالح السياسة والحرب والسّلام بخيرها وشرّها . أما السّفير النبويّ ، فلا شأن له بأمور الدنيا الماديّة ومصالحها السياسيّة والحربيّة ، وشأنه كلّه بأمور الدين الحنيف وحده ، فهو مصلح بحقّ ، يستهدف الاصلاح والصّلاح بالدعوة الى الله وحده لاشريك له ، ومعناه في اللّغة يطابق هدفه في العمل ، ولا خلاف بين معناه ومبناه في شيء ، ولا بين شطريه النظريّ والتّطبيقيّ ، فلا يريد الاّ الهداية والخير ما استطاع الى ذلك سبيلا .

---

(٤) لسان العرب (٣٥/٦) .

(٥) لسان العرب (٣٥/٦) ومعجم متن اللغة (١٦٢/٣) والصحاح في اللغة والعلوم (٥٩١/١) .

ج ـ قبل الاسلام

كان الاتّصال بين مختلف الأمم والشّعوب والدول بالسّفراء والسّفارات معروفاً منذ أقدم العصور ، وكان الاتّصال بين الدول العربية وسلطات المدن العربية وسلطات القبائل العربية معروفاً منذ أقدم العصور مع الدول الأجنبيّة بالسّفراء والسّفارات أيضاً •

والمهمّ هنا التّركيز على الاتّصال العربى بالسّفراء والسّفارات في شبه الجزيرة العربية في الجاهلية وبخاصة الاتصال بين قريش قبيلة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والقبائل العربية الأخرى واتّصالها بالدول الأجنبية ، حتى نعرف الاختلاف بين أهدف السّفراء والسّفارات العربية قُبَيْل الاسلام ، وأهدافها في السّفراء والسّفارات النبوية •

لقد عرف العرب نظام السّفارة بينهم وبين غيرهم من القبائل والأمم والشعوب والدول المجاورة ، وكان من الطبيعى أن تكثر الوفادات والسّفارات في تاريخ العرب قُبَيْل الاسلام ، للخروج من عزلتهم في شبه الجزيرة العربية، ولتبادل المصالح مع جيرانهم ، فضلاً عن حاجتهم إلى كسب الأنصار في المعارك النّاشبة بين القبائل ، أو لوضع حدّ للقتال ، فحقّقت السّفارات أغراضها في السّلام والحرب تارة ، ولم تحقّقها تارة أخرى •

وساعد على ازدهار السّفارات العربيّة ، ودخول العرب في علاقات ودّية مع جيرانهم ، الموقع السّوْقِيّ[٦] لشبه الجزيرة العربيّة الناشىء عن متاخمتها مراكز الحضارات القديمة في العالم ، وهى الحضارة الآشورية في العراق ،والحضارة الفينيقيّة في الشّام ، والحضارة الفارسية في بلاد الفُرس ، وقرب الجزيرة من الحضارة الفرعونية في مصر • وكانت أكثر الدول صلة

---

(٦) السّوقي : الاستراتيجي . والسوقية : الاستراتيجية (Stratege) انظر المعجم العسكري الموحد (١/٨٤٢) .

بالعرب دولتا الفرس والروم ، وكانتا أكبر قوتين سياسيتين وعسكريتين في العالم حينذاك ، لذلك توالت السفارات السياسية بين حكام هاتين الدولتين وبين القبائل العربية والسلطات العربية المحلية ، لعقد المحالفات والاتفاقات المختلفة .

وكما كانت وحدة اللغة باعثاً على توثيق صلة العرب ببعضهم ، فان مركزهم التجارى المتميز بين الممالك والبلاد الأخرى شرقاً وغرباً وشمالاً ، كان باعثاً على الاتصال المباشر وقيام العلاقات الودية بين العرب من جهة والأمم الأخرى من جهة أخرى . فقد كانت شبه الجزيرة العربية ممراً للقوافل التجارية التى كانت تتخذ عدة طرق أهمها طريقان حيويان أساسيان : أولهما الطريق الشرقى ، الذي يتاخم الخليج العربى ماراً بنهر دجلة مقتحماً بادية الشام الى فلسطين. والثاني الطريق الغربي ، الذى يتاخم البحر الأحمر. وعن هذين الطريقين ، كانت تنتقل صادرات الغرب الى الشرق ، وصادرات الشرق الى الغرب . وقد اقتضت هذه التجارة الدخول في محادثات لعقد الاتفاقات بين العرب وغيرهم ، وأتاح موقع شبه الجزيرة العربية لسكانها العرب مكانة تجارية متميزة في العالم المعروف يومئذ ، فلا غرابة أن تحفل كتب التاريخ بأخبار سفراء العرب الى الملوك ووفاداتهم ومفاوضاتهم ، وأخبار سفارات الملوك الى العرب تخطب ودهم وترجو معاونتهم وتعاونهم وتطلب مؤازرتهم .

والى جانب العلاقات التجارية الخارجية بين العرب وبين البلاد المجاورة، كان هناك علاقات مماثلة بين العرب داخل شبه الجزيرة العربية ، فكان هناك شريان تجاري يصل بين اليمن جنوباً ومكة شمالاً . وقد ورد في القرآن الكريم ذكر هذه الحركة التجارية بين مكة والشام شمالاً ، وبين مكة واليمن جنوباً بالاشارة الى رحلة الشتاء والصيف . ومن الطبيعي أن هذه الحركة كانت تتطلب اتصالات واتفاقات بين القبائل العربية بعضها ببعض ، وبين العرب والممالك والبلاد الخارجية الأخرى ، في سبيل توطيد العلاقات التجارية على أسس رصينة مضمونة .

ومما يسّر هذه الاتصالات ، أن بلاد الشام في الشمال ، وشبه الجزيرة العربيّة في الجنوب ، كانتا تضمّان أعظم المقدسات الدينيّة : بيت المقدس في مدينة القدس ، والكعبة بيت الله الحرام في مكّة ، يؤمهما الحجّاج والزوّار في موسم الحج ومواسم الزيارة من كل عام ، وكانت السلطات في داخل الجزيرة العربية وفي خارجها ، تنتهز فرصة حلول موسم الحج ومواسم الزيارة لعقد اللّقاءات وابرام الاتّفاقات والمصالحات والمحالفات ، وكان السّفراء ينشطون في أيام تلك المواسم لتحقيق أهداف السّلطات التي يعملون في خدمتها في تحقيق مصالحها التجارية والسياسيّة والعسكريّة .

وقد وُجد في كتابات سَدّ مَأْرب[7] ، ما يفيد قدوم سفارات ، أَبْرَهَة[8] من شتى الأمصار والممالك سنة (٥٤٣) ميلاديّة ، إثر انتصاره على الحميريين من أهل اليَمَن وتأسيسه أوّل دولة مسيحيّة في اليمن ، وهذا نصّ ما على السدّ من الكتابات في قصّة تلك السّفارات : « وجاءت اليهم سفارة النّجاشيّ ، وسفارة الرّوم ، وسفارة ملك فارس ، ومبعوث المنذر[9] ، ومبعوث الحارث بن جَبَلَة[10] ، ومبعوث أبى الخير بن جبلة[11] ، جميعهم طلبوا مودّتنا بقوّة من لدن الرّحمن »[12]، وهذا دليل على أنّ للعرب سفارات

---

(٧) سد مارب : سد مشهور في اليمن من سدود الرى القديمة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٥٤/٧ ــ ٣٦٠) ، وهناك محاولات حديثة لاستعادة بناء السد في مكانه للرى .

(٨) ابرهة : انظر سيرته في دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى (١٨/١ ــ ٢٠) .

(٩) المنذر : ملك المناذرة في الحيرة من بنى لخم ، وكان ملوكهم يسمون : المنذر ، فاطلق عليهم المناذرة .

(١٠) انظر نسبه في : جمهرة انساب العرب (٣٧٢) ، وكان من رؤساء القبائل اليمنية .

(١١) لم أجد له ذكراً في مصادر انساب العرب المتيسرة ، ومن المحتمل انه شقيق الحارث : جبلة ، وخاصة وانه من جيله وموطنه .

(١٢) حسن فتح الباب ــ مقومات السفراء في الأسلام (١٦ ــ ١٧) ــ القاهرة ــ ١٣٩٠هـ .

خارجية مقابلة للسفارات التى ترد اليهم .

وعُرف من سفارات قريش في الجاهلية ، سفارة عبد المطّلب بن هاشم جدّ رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم الى أبرهة ، عامل النّجاشي على اليمن[١٣]، وكان أبرهة على رأس جيشه من الحبشة وحلفائهم قد وصل الى ضواحي مكّة قاصداً هدم البيت الحرام الذي بمكّة ، لصرف العرب عن الحجّ من مكّة الى البيت الذي بناه في اليمن[١٤] ، ففاوض عبدالمطّلب أبرهة على ردّ الابل التي استولت عليها طلائع أبرهة ، فردّ أبرهة الى عبدالمطّلب ابله[١٥] ، وكان ذلك في عام الفيل الذي ولد فيه النبيّ صلى الله عليه وسلّم سنة (٥٧١) للميلاد[١٦] .

وعرف من سفارات قريش في الجاهليّة سفارتان لعمرو بن العاص الى النّجاشي ملك الحبشة : الأولى في السنة الخامسة للنبوّة ، لردّ – المسلمين المهاجرين الى أرض الحبشة – الى مكّة ، والثانية في السنة السّادسة الهجرية الى النّجاشى ملك الحبشة أيضاً ، لردّ المسلمين المهاجرين من ارض الحبشة الى مكة ، وقد أخفق عمرو في هاتين السّفارتين اخفاقاً كاملاً[١٧] ، اذ لم يستجب له النجاشيّ ولم يتجاوب معه ، فعاد الى قريش خائبا .

وكان عمر بن الخطّاب رضى الله عنه يذهب في سِفارات قريش الى غيرها من القبائل[١٨] ، ولانعلم أنّه تولى سفارة خارجية لقريش . وقد كانت السّفارة الى عمر بن الخطّاب : ان وقعت حرب بين قريش وغيرهم بعثوه سفيراً ، وان نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر ، بعثوه منافراً أو مفاخراً

---

(١٣) سيرة ابن هشام (١/٤٢ – ٤٣) .

(١٤) سيرة ابن هشام (١/٤٣) .

(١٥) سيرة ابن هشام (١/٥٠ – ٥١) .

(١٦) انظر كتابنا : ومضات من نور المصطفى (١٣) .

(١٧) انظر التفاصيل في سيرة عمرو بن العاص في كتابنا : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

(١٨) محمد حسنين هيكل – الفاروق عمر – (١/٣٣) – القاهرة – ١٣٦٤هـ

ورضوابه[١٩]، فكان عمر آخر سفراء قريش في الجاهلية[٢٠] .

لقد كان أهمّ هدف للسّفارات العربية هو توثيق الصّلات التجارية ، وكان من جملة أهدافها توطيد العلاقات السياسية والمجاملات السياسية ، وكان من جملتها عرقلة حريّة الدعوة الى الاسلام ، ومحاولـة التنكيل بالمسلمين وتصفية الذين يصرّون على الاسلام ويرفضون الكفر بعد الايمان .

وكان هدف السّفارات النبويـة الوحيد ، هو الـدعوة الى الاسلام . ولاعلاقة لهم بالسياسة والتجارة والاضرار بالناس من قريب أو بعيد .

وعلى ذلك ، يكون هدف السّفارات النبوية مختلفاً جداً مـع أهداف السفارات العربية قبل الاسلام وغيرها من السّفارات الأخرى .

* ★ *

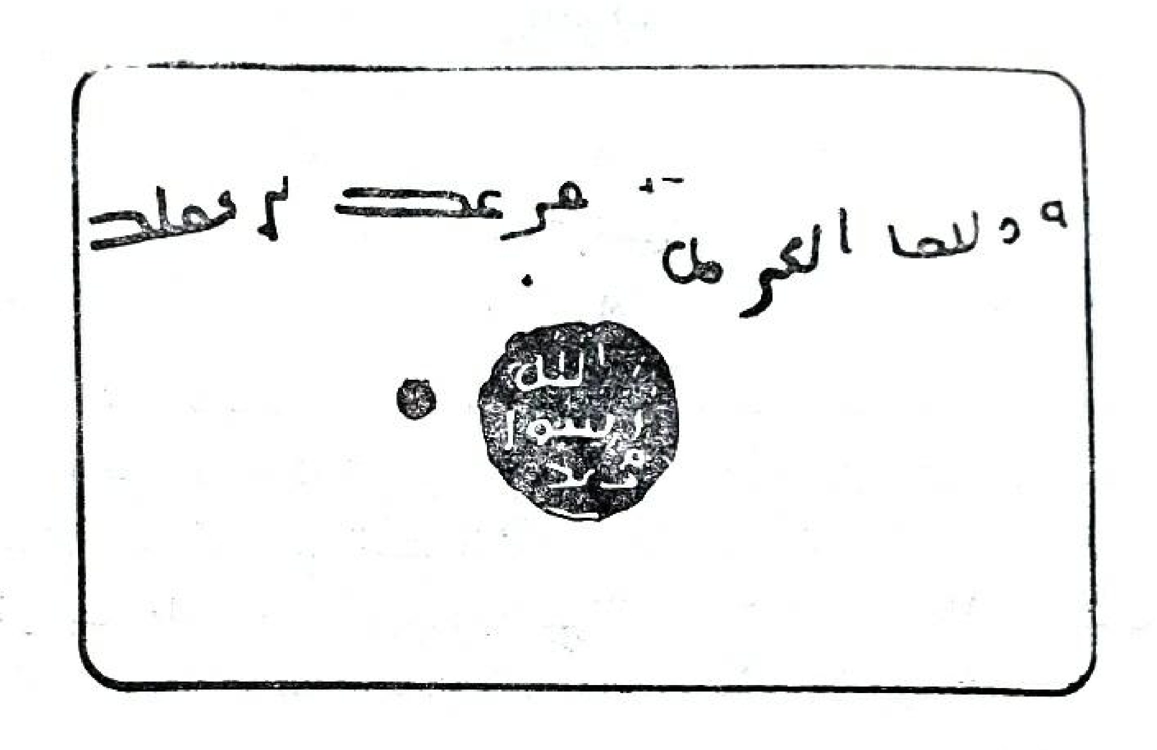
---

(١٩) ابن الجوزى ـ تاريخ عمر بن الخطاب (٦) ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .
(٢٠) مقومات السفراء في الاسلام (١٧) ، ويمكن اعتبار عمر بن الخطاب سفيراً محلياً لقريش وليس سفيراً خارجياً ، اذ لـم يعرف عن قريش أنهـا اوفدت عمر الى دولة اجنبية خارج شبه الجزيرة العربية كدولة الروم ودولة الفرس ، بل اقتصرت سفارات عمر على القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية . ولم يرد ذكر للقبائل التى قصدها عمر ، ولا لمهماته في تلك القبائل ، ولا لنتائج سفاراته .

الفصل الأول

الرسائل النبوية الى الملوك والرؤساء والأمراء

في زمانه



خاتم النبي صلى الله عليه وسلم مستدير مكون من ثلاث كلمات محفورة « محمد رسول الله »

الرسائل النبوية الى الملوك والرؤساء

غير العرب

الى النَّجَاشِيّ[1] ملك بلاد الحبشة

١ ـ النَّجاشِيّ

أ ـ عـام

كانت العلاقات بين جزيرة العرب والحبشة قديمة جداً ووثيقة ، فقد كانت أرض الحبشة سوقاً رائجة لقريش ، تتاجر في أرجائها وتكسب في أمن وسلام[2] . وكان أهمّ السّلع التّجاريّة التى تتاجر بهـا قريش : الأَدم ، والزّبيب ، والصّمغ ، والطّيب ، والتّبرْ[3] ، والبُرْد اليمانيّة[4] ، والثياب العَدَنِيّة ، والأسلحة ، ومصنوعات الحديد والمعادن الأخرى[5] .

ومن الواضح ، أنّ قسماً من هذه السّلع ، تُنتج محليّاً ، كالأَدم ،

---

(١) النجاشى : لكل من ملك الحبشة ، وكل من ملك المسلمين يقال له : أمير المؤمنين ، ومن ملك الروم : قيصر ، ومن ملك الفرس : كسرى ، ومن ملك الترك : خاقان ، ومن ملـك القبط : فرعون ، ومن ملـك مصر : العزيز ، ومن ملك اليمن : تبع ، ومن ملك حمير : قيل ، وقيل : القيل اقل درجة من الملك ، انظر شرح الامام النووى على صحيح الامام مسلم (٣٣٧/٢ ـ ٣٣٨) والروض الأنف (٢٠٤/١) .

(٢) الطبرى (٣٢٨/٢) ، وانظر الأغانى (٥٢/٨) .

(٣) التبر : فتات الذهب أو الفضة قبل أن يصاغا .

(٤) البرد كساء مخطط يلتحف به . (ج) . ابراد ، وابـرد ، وبرود . وهذا النوع من البرد يصنع في اليمن ، ويستورد منها ، ويصدر الى الحبشة

(٥) تاريخ العرب قبل الاسلام (٣٠٧/٧) .

والزبيب من عنب الطائف ، والصمغ من أشجار الطائف أيضاً . أما بقية السلع ، كالطيب فتستورد من الهند ، أما البرود اليمانية والثياب العدنية والأسلحة وبخاصة السيوف ، فتستورد من اليمن ، وكانت قريش من أنشط العاملين في التجارة ، وكان مكة مركزاً تجارياً مهماً قبل الاسلام .

وكان لتدخل الأحباش في المسائل الداخلية لليمن بخاصة ، آثاره على حياة العرب السياسية والثقافية ، فعرفهم العرب مستعمرين ، وأخذوا منهم الكثير من عاداتهم وطرقهم في التفكير ، خاصة في مجال الدين[6] . فهم يتذكرون ، أن الأحباش ، حين أقدموا على غزو اليمن ، كان يدفعهم الى ذلك حرصهم على الدفاع عن المسيحية والمسيحيين على المتجبرين من يهود اليمن ، الذين ناصبوا المسيحيين العداء[7] ، ولكنهم بعد أن انتقموا للمظلومين النصارى من الظالمين يهود اليمن ، استعمروا اليمن ردحاً طويلا ، فاستعان أهل اليمن بالفرس ، فحلوا في اليمن محل الأحباش ، حتى جاء الاسلام ، وطهر المسلمون اليمن من الدخلاء على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي حروب الردة على عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضى الله عنه .

وقد عقد بنو عبد شمس من قريش العهود التجارية مع النجاشي منذ أقدم العصور ، فحازوا على ثقة ملوك الحبشة والأحباش[8] ، وكانت لهم مكانة تجارية في أرض الحبشة ، لثقة الناس بأمانتهم واستقامتهم وحسن معاملتهم وتعاملهم مع الناس .

وفي السنة الخامسة من النبوة[9] ، أي في السنة الثامنة قبل الهجرة[10] ،

---

(٦) دبلوماسية محمد (٧٢) .
(٧) سيرة ابن هشام (١/٣٦ – ٣٧) .
(٨) المحبر (١٦٣) .
(٩) الطبرى (٦/٣٢٩) وطبقات ابن سعد (١/٢٠٤) .
(١٠) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة (٣) .

كانت هجرة المسلمين الأولى الى الحبشة ، وكان عدد المهاجرين ثلاثة وثمانين رجلاً[11] ، وفي رواية أخرى أنهم كانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة[12] ، أقاموا في أرض الحبشة بقية شهر رجب وشعبان وشهر رمضان ، ثم عادوا الى مكة من أرض الحبشة في شوّال من سنة خمس من النبوّة ، لأنّه بلغهم أنّ قريشاً أسلمت . فلما قرب المسلمون الذين كانوا بالحبشة من مكة ، بلغهم أنّ اسلام أهل مكّة باطل ، فلم يدخل أحد منهم إلاّ بجوار أو مستخفيا[13] ولكنّ المسلمين الذين عادوا من الحبشة شجّعوا المسلمين الآخرين على الهجرة الى أرض الحبشة ، لأنّهم كانوا في أمن ودعة في ظلّ حكم النّجاشي ، ولعل النّجاشيّ كان يحظى بسمعة طيبة ليس في بلاده حسب ، بل في بلاد أخرى ، يدلّنا على ذلك قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه ، حين رأى مايصيب أصحابه من البلاء : « لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فانّ بها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحد ، وهى أرض صِدْق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه[14] » .

وتكاثر المهاجرون من المسلمين الى أرض الحبشة ، بعد أن سمعوا من اخوانهم المهاجرين العائدين ، أنهم بخير وأمن واطمئنان .

ولا شكّ في أنّ أخبار الاسلام وظهور النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في مكّة ، في محيط مشركى قريش ، كانت تصل تباعاً الى الحبشة والى النّجاشى ، وهم نصارى ، اذ كانت النصرانيّة تسود الحبشة منذ القرن الرابع الميلادي[15] ، فيتطلعون الى هذا الدّين السماوي الجديد ، الذي بزغ بين حشود المشركين ، ويحبّون أن يعرفوا عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ودعوته كلّ مايمكن معرفته . وقد تهيّأ للنّجاشي وللاحباش بهجرة المسلمين

---

(11) سيرة ابن هشام (1/353) .
(12) ابن الأثير (2/77) .
(13) ابن الأثير (2/77)
(14) سيرة ابن هشام (1/343) ، وانظر جوامع السيرة (55) والدرر (50) .
(15) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام (173) .

اليهم ، أن يطّلعوا على تفاصيل شاملة عن الاسلام من المسلمين المهاجرين ، كما اطّلع النّجاشيّ على رأي المشركين في الدين الجديد ، فلم يفرّط النّجاشي بالمسلمين المهاجرين ، وبقوا في رعايته وحمايته كما كانوا من قبل[١٦] .

ويبدو أنّ النّجاشيّ ، أراد أن يعرف معلومات مفصّلة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعن الاسلام ، وعن الصورة الحقيقية لأوضاع مكّة ، فأرسل وفداً الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو مايزال بمكّة ، وكان وفد النجاشي مؤلفاً من عشرين رجلاً أو قريب من ذلك ، من النصارى ، فوجده في المسجد . وجلس الوفد اليه وكلّموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عما أرادوا ، دعاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى الله ، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدّمع ، ثم استجابوا للّه وآمنوا به ، وصدّقوه وعرفوا ما كان يُوْصف لهم في كتابهم من أمره[١٧] .

وقد اهتمّ النجاشي بالمسلمين المهاجرين ، واهتم بحمايتهم ورعايتهم بعد وصولهم الى بلاده ، فازداد اهتمامه بهم بعد سماعه أخبارهم من مثلهم وسماع حجّة أعدائهم في محاورتهم بحضوره ، ثم تضاعف اهتمامه بهم بعد عودة وفده من مكة بالخبر اليقين .

ولا أستبعد ، أنّ اتصالات مباشرة جرت بين موفد للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى الحبشة وبين النّجاشي ، انتهت بالهجرة الى الحبشة[١٨] ، فذلك أضمن لمصير المسلمين المهاجرين ، فليس من السهل الهجرة الى بلد غريب ، تحت وطأة ملاحقة المشركين للمهاجرين ، واغراء النجاشي بتسليمهم

---

(١٦) انظر التفاصيل في سيرة ابن هشام (١/٣٥٦ – ٣٦١) .
(١٧) سيرة ابن هشام (١/٤١٨ – ٤١٩) والبداية والنهاية (٣/٨٢) .
(١٨) دبلوماسية محمد (٧٣) .



(انظر محتوى الرسالة في الصفحة المقابلة)

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجا

شي عظيم الحبشة . سلام على من

اتبع الهدى . أما بعد فإني أحمد إلي

ك الله الذى لا إله إلا هو الملك

القدوس السلام المؤمن المهيمن

وأشهد أن عيسى بن مريم روح

الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتو

ل الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من ر

وحه ونفخه كما خلق آدم بيده . و

إنى أدعوك إلى الله وحده لا شر

يك له والموالاة على طاعته وأن

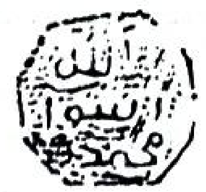
تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى فإنى ر

سول الله . و إنى أدعوك وجنو

دك إلى الله عز وجل وقد بلغ

تُ ونصحتُ فاقبلو (كذا) نصيحتى . والسلام

على من اتبع (كذا) الهدى



لأعدائهم من مشركي قريش ، كما حاول عمرو بن العاص وصاحبه ، حيث أهديا للنجاشي هدايا مما يُستَطرَف من متاع مكة ، ولم يتركا من بطارقته بطريقاً الا أهديا له هدية[19] ، ثم سألا النجاشي أن يرد المهاجرين الى مكة ، فأيدهما بطارقة النّجاشي[20] ولكن أخفق سفيرا قريش في مهمتهما، ولم يفلحا في اقناع النّجاشي بردّ المسلمين المهاجرين من بلاده الى مكّة .

ومعرفة العرب بالحبشة كثيرة ، والمصادر العربية والاسلامية طافحة بأخبار الحبشة : التاريخية منها تتحدث عن تاريخهم ، والبلدانية منها تتحدّث عن بلادهم ، والتى تتحدث عن الأنساب تتحدث عن أنسابهم ، مما يدل على أنّ علاقة العرب بالأحباش وبلاد الحبشة وطيدة منذ أقدم العصور ، قبل الاسلام وبعده أيضاً .

النّجاشي الأول

هناك اختلاف كبير حول اسم حاكم الحبشة : النّجاشي ، فتاريخ أكسوم بين سنة (٥٧٠م ـ ٦٣٠م) غامض ، ويتفاوت الدارسون في تقديرهم للأحوال السّائدة فيها في تلك المدّة من عمر الزّمن .

ويميّز المؤرخون العرب بين ملكين ، يسمّون أحدهما : (أَبْحَر) ، ويضعون مدّة حكمه قُبَيْلِ بعثة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، والآخر ابنه وكان معاصراً للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم اسمه : (أَصْحَمَة)[21] .

ويذهبون الى القول ، بأنّ الحبشة قتلوا أَبْحَر ، وتوجّوا أخاه في مكان ابنه أَصْحَمَة الذى باعوه في جزيرة العرب ، حيث بيع الى رجل من العرب من بني ضَمْرة[22] .

---

(١٩) سيرة ابن هشام (٣٥٧/١) .
(٢٠) سيرة ابن هشام (٣٥٨/١) .
(٢١) ابن كثير (٧٧/٣) ، وانظر شرح النووى على مسلم (٣٣٧/٢ ـ ٣٣٨) .
(٢٢) بنو ضمرة : هم بنو ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، يسكنون قرب =

واستمرّ الابن في جزيرة العرب ، حتى توفى عمّه ، فطلب منه الرجوع الى وطنه ، حيث أُعيد الى عرش أبيه ، فظلّ حاكماً الى أن توفى في السنة التاسعة من الهجرة[٢٣] (٦٣٠م) .

أما الباحثون المحدثون ، فيميلون ، برغم اختلافات وجهات نظرهم ، الى تعيين أرماح الثانى أو أرمحة (Armah) كاسم للملك الذى كان معاصراً للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٢٤] .

وتذكر بعض المصادر العربيّة ، أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، راسل نجاشياً آخر بعد وفاة النّجاشيّ السابق ، الذى كان مسلما[٢٥] .

ويبدو أنّ الاختلافات في الأسماء ليست مهمة ، كالاتفاق على الحوادث ، فقد كان على الحبشة أيام هجرة المسلمين اليها نجاشيّ ، وهو أخو النجاشيّ المقتول : أبحر . وفي الرسائل النبويّة أنّ اسمه الأَصْحَم بن أبْجر وهو أخو أَبْحَر ، فيكون اسم أبحر الكامل : أبْحَر بن أَبْجَر .

وقد كان هذا النّجاشي ، كما وصفه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « لايُظلم عنده أحد[٢٦] » ، وكان ملكاً صالحاً لايُظلم أحد بأرضه ، وكان يُثنى عليه[٢٧] ، وكان نصرانيا .

= موقع بدر ، وكان عمارة بن مخشى بن خويلد بن عبدنهم بن يعمر بن عوف ابن جدى بن ضمرة هو الذى وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه ، وانظر جمهرة انساب العرب (١٨٥) ، وانظر ماجاء حول بيع اصحمة في : الروض الانف (٢١٥/١) وعيون الأثر (١١٩/١) .

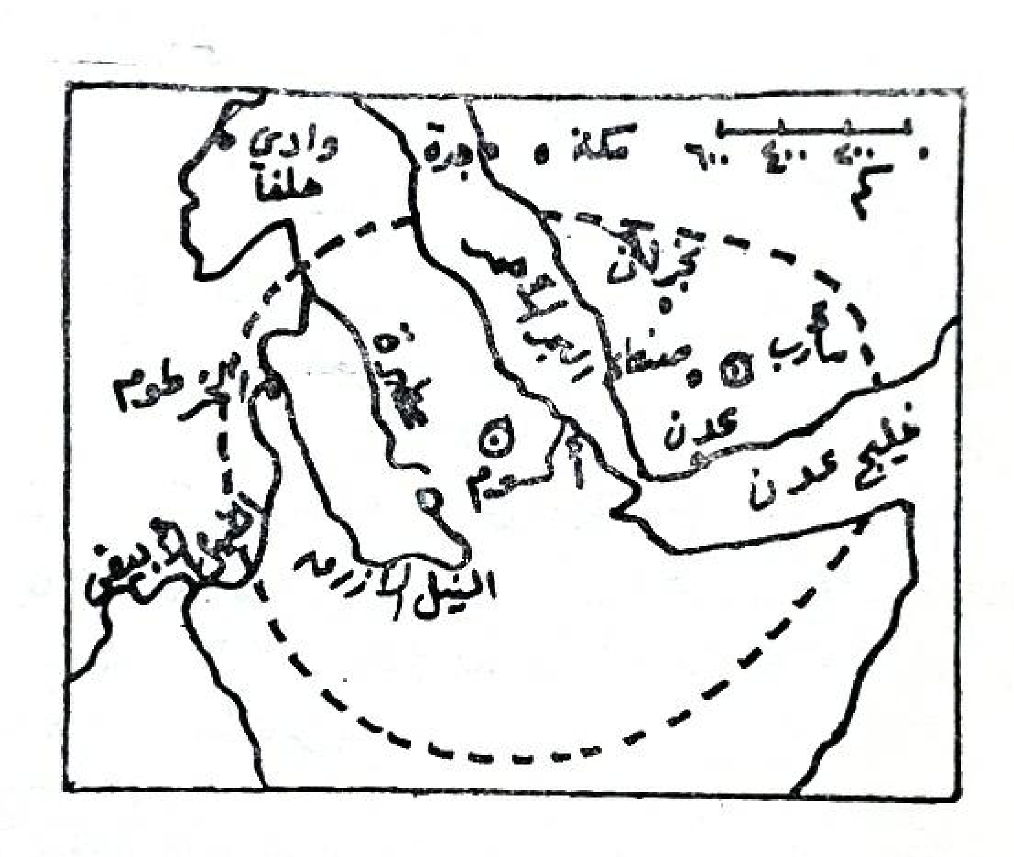
(٢٣) الروض الأنف (٢١٥/١) وعيون الأثر (١١٩/١) والجواهر الحسان (١٥٨ ـ ١٦٢) وبين الحبشة والعرب لعابدين (٧١ ـ ٧٢) وما بعدها ودبلوماسية محمد (٧٣)

(٢٤) بدج ـ تاريخ أثيوبيا (١٣٧/١) وبين الحبشة والعرب (٧١ ـ ٧٢) .

(٢٥) ابن كثير (٨٣/٣) والزرقاني (٣٤٦/٣) .

(٢٦) سيرة ابن هشام (٣٤٣/١) وانظر جوامع السيرة (٥٥) والدرر (٥٠) .

(٢٧) الطبري (٣٢٨/٢) .



بلاد النجاشي

وجرت هجرة المسلمين المتعاقبة في عهد هذا النّجاشي الى الحبشة ، وكانت بداية الهجرة الى الحبشة في السنة الخامسة من النبوّة كما ذكرنا ، وكان الامير على المسلمين المهاجرين الى أرض الحبشة جعفر بن أبى طالب ، وهو ابن عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم[٢٨] .

وقد حمل جعفر الى النّجاشيّ الرسالة النبويّة الرقم (١) التى سيرد ذكرها وشيكاً تحت عنوان : السّفارة الأولى ، ولا فائدة من اعادة الرأى حول تلك الرسالة منعاً للتكرار .

ولكنّ مشركى قريش بعثوا عبدالله بن أبى ربيعة[٢٩] وعمرو بن العاص[٣٠] ، وجمعوالهما هدايا للنجاشيّ ولبطارقته (وزرائه) ليردّا عليهم المهاجرين من أرض الحبشة الى مكّة .

وخرج عمرو وصاحبه ، حتى قدما على النّجاشيّ ، فلم يبق بطريق من بطارقته الاّ دفعا اليه هديّته قبل أن يُكلّما النّجاشيّ . وقالا لكل بطريق : «انه قد ضَوَى[٣١] الى بلد الملك منّا غِلْمَان سُفَهاء،فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مُبْتَدَع لانعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردّهم اليهم ، فاذا كلّمنا الملك ، فأشيروا عليه أن يسلّمهم الينا ، ولا يكلّمهم ، فانّ قومهم أعلى بهم عَيْناً وأعلم بما عابوا عليهم » . ووافق البطارقة على ذلك ، ثم انّهما قدّما هداياهما الى النجاشي فقبلها منهما ، فقالا له « أيّها الملك ! انه قد ضَوَى الى بلدك منّا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين

---

(٢٨) انظر التفاصيل في سيرة ابن هشام (١/٣٥٨ ـ ٣٥٩) .
(٢٩) عبدالله بن ابي ربيعة المخزومي : انظر سيرته المفصلة في اسد الغابة (٣/١٥٥) .
(٣٠) انظر سيرته المفصلة : في قادة فتح الشام ومصر (١٢٣ ـ ١٦٢) وسفراء النبي صلى الله عليه وسلم (مخطوط) .
(٣١) ضوى : اوى ولجأ ولصق .

ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت ، وقد بَعَثَنا اليكَ فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم عليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه » ، فقالت بطارقته حوله : « صَدَقا أيّها الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسْلِمْهم اليهما ، فَلْيَرُدّاهم الى بلادهم وقومهم » ، فغضب النّجاشيّ ، ثم قال : « لاها الله ، اذاً لا أسلمهم اليهما ، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على مَن سواي حتى أدعوهم فأسألهم عمّا يقول هذان في امرهم : فان كانوا كما يقولان ، أسلمتهم اليهما ، ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ماجاوروني » .

وأرسل النّجاشيّ الى أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثمّ قال بعضهم لبعض : « ماتقولون للرجل اذا جئتموه »؟ قالوا : « نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبيّنا ، كائناً في ذلك ماهو كائن » . فلما جاءوا ، وقد دعا النّجاشيّ أساقفته[٣٢] ، سألهم فقال لهم : « ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا ديني ولادين أحد من هذه الملل ؟ » ، فكان الذى أجابه جعفر بن أبى طالب فقال : « أيّها الملك ، كنّا قوماً أهل جاهليّة ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القويّ منّا الضعيف ، فكنّا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منّا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحّدَه ونعبده ، ونخلعَ ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصِدْق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرّحم ، وحُسْن الجوار ، والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزّور ، وأكل مال اليتيم ، وقَذْف المُحْصَنَة ، وأمرَنَا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئا ، وأمرنا بالصّلاة والزّكاة والصّيام ...

---

(٣٢) الاساقفة : جمع اسقف ، وهو العالم الديني في النصرانية .

وعَدّد أمور الاسلام ، فصدّقناه وآمنّا به واتَّبَعْناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله فلم نشرك به شيئاً ، وحَرَّمْنَا ماحرّم علينا ، وأحللنا ما أحلّ لنا ، فَعَدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردّونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحلّ ماكنّا نستحلّ من الخبائثِ ، فلما قهروناوضَيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك ، واخترناك على مَن سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألاّ نُظْلَمَ عندك أيّها الملك ! » .

قال النّجاشي : « هل معك مما جاء به عن الله من شيءٍ » ؟ . قال جعفر : «نعم» ، فقال له النّجاشيّ ، «فاقرأه عليّ» ، فقرأ عليه صدراً من سورة (كهيعص) ، فبكى النّجاشي حتى اخْضَلَتْ[٣٣] لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشي : « انّ هذا والذى جاء به عيسى ليَخْرُجُ من مِشْكَاة[٣٤] واحدة ، انطلقا فلاوالله لاأسلمهم اليكما ولايكادون » .

ولما خرجا من عنده ، قال عمرو بن العاص : « والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل خَضْراءَهم[٣٥] » ، فقال عبدالله بن أبى ربيعة ، وكان أتقى الرجلين في المسلمين : « لاتفعل فانّ لهم أرحاماً ، وان كانوا قد خالفونا » ، فقال عمرو : « والله لأخبرنّه أنّهم يزعمون أنّ عيسى بن مريم عبد » .

وغدا عمرو الى النّجاشى من الغد ، فقال : « أيّها الملك ! انّهم يقولون في عيسى بن مريم قَوْلاً عظيما ، فأرسل اليهم فَسَلْهُم عمّا يقولون فيه » ، فأرسل اليهم النّجاشيّ ليسألهم عنه . واجتمع المسلمون المهاجرون ، فقال

---

(٣٣) اخضلت : ابتلت وفي بعض النسخ : أخضل لحيته ، كما هو في النهاية ، فاخضل على هذا مثل اكرم ، ومعناه بلها ، ولحيته على هذا مفعول ، مثل قوله : أخضلوا مصاحفهم . نقول : أخضل المطر الأرض ، اذا بلها .

(٣٤) المشكاة : الثقب الذى يوضع فيه الفتيل والمصباح ، وهي الكوة غير النافذة .

(٣٥) استأصل خضراءهم : يعنى جماعتهم ومعظمهم .

بعضهم لبعض : « ماذا تقولون في عيسى بن مريم اذا سألكم عنه ؟ » ، فقالوا : « نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبيّنا كائناً في ذلك ما هو كائن » .

فلما دخل المسلمون المهاجرون على النّجاشيّ ، قال لهم : « ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ » ، فقال جعفر بن أبي طالب : « نقول فيه الذي جاءنا به نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم : هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العَذْراء البَتُوْل » ، فضرب النّجاشيّ بيده الى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثمّ قال : « والله ما عَدَا عيسى بن مريم ما قلت هذا[٣٦] العود » ، ثم خاطب المسلمين المهاجرين بقوله : « اذهبوا فأنتم الآمنون بأرضي ، مَن سبّكم غرم ، مَن سبّكم غرم ، مَن سبّكم غرم ، ما أحبّ أنّ لي جبلاً من ذهب وأنّي آذيت رجلاً منكم » ، ثمّ خاطب رجاله قائلاً : « ردّوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لي بها » ، فخرجا من عنده مقبوحين ، مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقام المسلمون المهاجرون عند النّجاشيّ بخير دار مع خير جار[٣٧] .

ويبدو أنّ الأوضاع الداخليّة لم تكن مستقرّة في أرض الحبشة ، اذ لم يلبث النّجاشي أن نشبت ثورة في بلاده ، فظهر رجل من الحبشة على رأس رجاله ، ينازع النجاشي ملكه ، فاجتاح المسلمين المهاجرين في الحبشة حزن شديد على مصير النّجاشيّ الذي أحسن اليهم ، وخافوا من ذلك الرجل الثائر على النّجاشيّ ، وخشوا من أن ينتصر عليه ، فيأتي رجل لا يعرف من حقهم ما كان النّجاشيّ يعرف منه .

ولما انتصر النّجاشيّ على عدوّه ، فرح المسلمون المهاجرون بهذا النصر فرحاً عظيما[٣٨] . وقد اعتنق هذا النّجاشي الاسلام على يدي جعفر بن أبي

---

(٣٦) تقديره : ما جاوز مقدار هذا العود او قدر هذا العود .
(٣٧) سيرة ابن هشام (١/٣٥٦ — ٣٦١) .
(٣٨) سيرة ابن هشام (١/٣٦١) .

طالب[٣٩] ولا نعلم متى أرسل هذا النجاشي وفداً من نصارى الحبشة الى مكة ، والنبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بمكّة ، ومن الواضح أنّه أرسل وفده بعد هجرة المسلمين الاولى الى الحبشة في السنة الخامسة من النبوّة ، ولكن لا نعلم متى أرسل هذا الوفد بالضبط ، كما لا نعلم هل أسلم بعد عودة وفده من مكّة الى الحبشة واطلاعه على حال النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم وكنه دعوته ، أم أسلم قبل ارسال وفده ، وأرجّح أنه أسلم بعد عودة وفده من مكة الى الحبشة واعلان اسلامهم[٤٠] ، فذلك أدعى الى اطمئنانه بوضوح الرؤية أمامه تفصيلاً واطّلاعه على الخبر اليقين .

ولكن الأحباش لم يسكتوا على اسلام النجاشيّ ، فخرجوا عليه ، لأنّه فارق دينهم ، فأرسل الى جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وهيّأ لهم سُفناً ، وقال لهم : « اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فان هُزِمتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وان ظَفِرت فاثبتوا » ، ولكنّه استطاع التخلّص من محنته بدهائه ، وبقي على قومه حتى مات[٤١] .

و بقدر غزارة المعلومات في المصادر العربية الاسلامية عن الحبشة والنّجاشيّ ، بقدر قلّة المعلومات في المصادر الاجنبية عامة عن الحبشة والنّجاشي وتناقضها وتفاهتها غالباً ، وحتى المؤلّفات الكاملة الصادرة عن الحبشة القديمة تقود الى التيه لا الى العلم الرصين . وكمثال على ذلك ، فقد ورد في دائرة المعارف البريطانية حول تدهور أكسوم : « .... خلال السنوات الأولى من الاسلام ، شهدت العلاقات بين الأحباش وجيرانهم المسلمين عبر البحر ، قدراً عظيماً من التعاطف المتبادل . وتفسير ذلك سهل ، اذ أنّ الكنيسة الحبشية حافظت على مسيحيّة قديمة ذات صفات ساميّة شديدة ...

---

(٣٩) الاصابة (١/٢٤٨) وتهذيب الاسماء واللغات (١/١٤٨) .
(٤٠) سيرة ابن هشام (١/٤١٨ - ٤١٩) والبداية والنهاية (٣/٨٢) .
(٤١) سيرة ابن هشام (١/٣٦٣ - ٣٦٤) .

وعندما هاجر أصحاب محمد (صلّى اللّه عليه وسلّم) من شبه الجزيرة العربية الى أكسوم في سنة (٦١٥م) ، فقد استقبلوا بحفاوة ، ومن ثمّ عادوا الى أوطانهم مُعجبين غاية الاعجاب بالنّجاشيّ ودينه . وقد عبّر محمّد (صلّى اللّه عليه وسلّم) عن عواطف عظيمة عندما سمع بموت الامبراطور الأكسومى أرماح (Armah) ، وأشار على أتباعه بألاّ يُخاصموا الحبشة ابدا .... »[٤٢] .

وقد نقلت أهم ما ورد في ذلك المرجع ، وتبدو تفاهته بالنسبة للمعلومات الواردة في المصادر العربية والاسلامية ، وقد وردت فيه معلومات خاطئة للغاية لم أجد ضرورة لذكرها . وكلّ المراجع الأجنبية تقريباً ، تشكو قلة المعلومات المتيسرة عن الحبشة قُبيل البعثة النبويّة وفي أيامها ، لأنّ الأجانب من المؤلفين يقفون موقفاً معادياً من المصادر العربية الاسلاميّة متظاهرين بالمنهج العلمي ، والواقع أنّهم يعادون الاسلام ، فلا يتقبلون مَن يصف واقعه وحقيقته ، ويُقبِلون على مَن يطعنه ويتّهمه . فاذا كان للأجانب عذرهم في التشكيك بمصادرنا العربية الاسلامية ، فما عذر العرب والمسلمين ؟!

النجاشي الثاني

تُوفى النّجاشى الأوّل الأصحم بن أَبجر ، فارتبكت أمور الحبشة من بعده ، فلم يكن أمام الأحباش خيار غير استعادة اصحمة بن أبجر بن أبجر من سيده في بنى ضَمرَة ، فخرج الاحباش في طلبه ، واستردوه من سيده الذي باعوه له بعد قتل أبيه أبجر بن أبجر ، وأعاد الاحباش أصحمة الى عرش أبيه ملكاً على الحبشة[٤٣] .

---

(٤٢) دائرة المعارف البريطانية المفصلة — (١٠٠٨/٦) — طبعة ١٩٧٤م ، بقلم :
Lean p. Doresse - Research Master - French National Center for scientific Resvarch - Auttor of Ethiopia.

ولا ندري سنة اعادة أصحمه الى عرش الحبشة ، لاننا لا ندرى سنة وفاة عمّه ، ولكن يمكن أن نستنتج أنّ أصحمة كان على عرش الحبشة قبل غزوة بدر الكبرى التى كانت في شهر رمضان من السنة الثانية الهجريّة (٦٢٣م) كما هو معروف ، لأنّ أصحمة علم بانتصار المسلمين على مشركي قريش في هذه الغزوة ، قبل أن يعرف المسلمون المهاجرون الى الحبشة بهذا الانتصار ، فأرسل النّجاشي الى مَن عنده من المسلمين المهاجرين ، وقال لهم فيما قاله : « ..... أنّ النبيّ محمداً صلّى اللّه عليه وسلّم ، بلغني أنّه التقى هو وأعداؤه بوادٍ يقال له : بَدر ، كثير الاراك ، كنت أرعى فيه الغنم على سيدى ، وهو من بنى ضَمْرَة ، وأنّ اللّه قد هزم أعداءه فيه ونصر دينه » ، فدلّ هذا الخبر على طول مكث أصحمة في بلاد العرب ، فمن هنا تعلّم لسان العرب[٤٤] .

ومن المعلوم ، أنّ ديار قبيلة بنى ضَمْرَة العربية ، كانت في منطقة وادى بَدْر ، كما ذكرنا ذلك قبل قليل .

وفرح المسلمون المهاجرون الى الحبشة بانتصار المسلمين على مشركي قريش فرحاً عظيما ، وشاركهم في فرحتهم النجاشيّ ، فهو مع المسلمين على المشركين ، لأنّ المسلمين في عقيدتهم أقرب الى عقيدته من المشركين .

ويذكر الباحثون المحدثون أنّ اسم هذا النّجاشي ، هو : أرماح أو أرمحة[٤٥] ، وهو قريب من الاسم العربيّ : أصْحَمَة كلّ القرب ، ويمكن أن يحصل مثل هذا الاختلاف في نقل الأسماء من لغة الى لغة أخرى ، أو من لغة ثالثة نقل منها الاسم الحبشي كاللّغة الانكليزية أو الفرنسية مثلاً الى اللّغة العربية ، أو نقل هذا الاسم من اللّغة العربية الى احدى اللّغات الأوروبية .

---

(٤٣) الروض الانف (٢١٥/١) وعيون الاثر (١١٩/١) .
(٤٤) الروض الانف (٢١٥/١) .
(٤٥) دبلوماسية محمد (٧٣) .

ونرجّح أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، لم يستقدم المسلمين المهاجرين الى الحبشة منها الى المدينة بعد هجرة المسلمين اليها . لأنّ استقرار المسلمين وأمنهم لم يكونا كما ينبغي ، فكان بقاؤهم في الحبشة أفضل من هجرتهم الى المدينة .

وليس هناك أيّ نصّ يدلّ على أنّ المسلمين المهاجرين الى الحبشة ، كانوا يعاونون اخوانهم المسلمين المهاجرين الى المدينة ، ولكن يبدو أنّ مهاجرى الحبشة كانوا لا ينسون مهاجرى المدينة ، وكانوا يمدّونهم بالمؤن ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، كما كان المسلمون يعتبرون النجاشى حليفاً طبيعياً لهم .

ولكنّ سبيل المعلومات بين مهاجري المدينة ومهاجري الحبشة كان موصولاً ، بالتجّار الذين يتنقّلون بين الطرفين ، وبالسفن التي تمخر عباب البحر باستمرار ، فكان حال المسلمين معروفاً تجمع بينهم الآمال والآلام .

وقد سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، أنّ قريشاً بعثت عمرو بن العاص وصاحبه الى النّجاشيّ ، لمحاولة الحاق الأذى بالمسلمين المهاجرين الى الحبشة ، فبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عمرو بن أُمَيّة الضَمْرِى وكتب معه الى النّجاشى كتاباً[٤٦] ـ أنظر الكتاب النبوى الرقم (٣) الذي سيرد وشيكا ـ ، فأخفق عمرو بن العاص في سفارته الثانية[٤٧] ، كما أخفق في سفارته الأولى ، الى النجاشي ، وعاد من حيث أتى دون أن يصنع شيئاً .

وسبب ايفاد عمرو بن أُمَيّة الضَمْرِىّ سفيراً الى النّجاشى ، هو أنّ النّجاشى كان مملوكاً في بنى ضَمْرة ، وكان عمرو من سادات تلك القبيلة ومن أبرز شخصياتها قبل الاسلام وبعد الاسلام ، وكانت الفرصة المتاحة

---

(٤٦) امتاع الاسماع (١/٢٢) .
(٤٧) انظر سيرة ابن هشام (٣/٣١٨) وانظر مغازى الواقدى (٢/٧٤٢ ـ ٧٤٤) والدرر (١٣٩ ـ ١٤٦) .

له للتأثير في النجاشي الذي يعرفه أكبر من الفرصة المتاحة للتأثير في النجاشي لرجل لا يعرفه .

وحمل عمرو بن أُميّة كتابَيْ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم الى النّجاشي ، يدعوه في أحدهما الى الاسلام ، ويتلو عليه القرآن ، فأسلم النّجاشيّ وشهد شهادة الحق . وفي الكتاب الآخر ، يأمره أن يزوّجه أُمّ حَبِيْبَة بنت أبي سُفيان بن حَرْب ، وأمره أن يبعث اليه بمن قِبَله من أصحابه ، ويحملهم ، ففعل النّجاشي ، وزوّجه أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان ، وأصدق عنه أربع مائة دينار ، وأمر بجهاز المسلمين وما يُصلحهم ، وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أُميّة الضّمريّ[٤٨] .

كما كتب النّجاشي رسالة الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ انظر الرسالة الرقم (٤) التي ترد قريبا .

كما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بكسوة : قميص ، وسراويل ، وعمامة ، وعِطاف[٤٩] أسوانيّ من قرية يقال لها : أسْوَان ، وهي آخر مدينة بمصر ، وخُفَّيْن ساذجين[٥٠] .

واسلام النّجاشي أصحمة لا شك فيه ، والتّشكيك في اسلامه ان دلّ على شيء فانّما يدلّ على انحراف المشكّك به عن طريق الحق والصواب ، لأنّ المصادر العربيّة الاسلاميّة كافة بدون استثناء مجمعة على اسلامه ، ومحاولة انكار اسلامه أو التشكيك فيه من المؤلفين الأجانب معروف الأهداف ، فهم لا يطيقون أن يعترفوا باسلام ملك دولة مسيحيّة قبل خمسة عشر قرناً ، والطريقة التي ينكرون بها اسلامه ويشكّكون بها ، على الرغم من الادّعاء

---

(٤٨) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨ ـ ٢٥٩) ، وانظر الطبري (٢/٦٥٣) .
(٤٩) عطاف : رداء .
(٥٠) المحبر (٧٦) .

بأنّها أسلوب من أساليب المناهج العلمية ، ليس في واقعه منهجاً علمياً ، لأنّه يؤدى الى نتائج خاطئة واضحة الخطأ ، والمفروض أنّ المنهج العلمي يؤدى الى نتائج سليمة تتّفق مع العقل وتساير المنطق وتطابق الواقع ، وأستطيع شخصياً باستعمال منهجهم العلميّ المزعوم ، أن أثبت أنّنى شخصية خيالية ، لم تولد ولم تعش ، ولم يكن لها وجود في الواقع ، وقد ذكرت ذلك لقسم من المبهورين بهذا المنهج ، فبُهتوا وضربوا أخماساً بأسداس دون أن يحيروا جواباً مقنعا .

فقد نصّ البخارى ومسلم على اسلام هذا النجاشى[٥١] ، كما نصّ على اسلامه صاحب كتاب : (اللؤلؤ والمرجان ، فيما اتفق عليه الشيخان)[٥٢] ، وصاحب كتاب : (تيسير الوصول الى جامع الاصول)[٥٣] ، وحديث اسلامه أخرجه الستة : البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، ومالك[٥٤] ، كما أخرج حديث اسلامه الشيخان : البخارى ، ومسلم ، وأخرجه النسائي أيضاً[٥٥] .

وجاء في كتاب : (المنتقى من أخبار المصطفى) في الصّلاة على الغائب . النيّة ، عن جابر ، أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم صلّى على أصحمة النّجاشيّ ، فكبّر عليه أربعاً ، وفي لفظ قال : « قد توفّى اليوم رجل صالح من الحَبَش ، فَهَلُمَّ فصلّوا عليه » ، قال : « فصلّى عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فصففنا ونحن صفوف » ، متّفق عليهما ، أى رواهما البخارى ومسلم وأحمد[٥٦] .

---

(٥١) فتح البارى بشرح البخارى (٣/٩٢) و (٣/١٦٤) وشرح النووى على مسلم ٣٣٧/٢) .

(٥٢) اللؤلؤ والمرجان (١٩٣) و ١٩٣) .

(٥٣) تيسير الوصول (١/١) و (٢/٣١٢) .

(٥٤) تيسير الوصول (١/١) .

(٥٥) تيسير الوصول (٢/٣١٢) .

(٥٦) المنتقى (١/٣) .

وعـن أبي هريرة رضى الله عنـه ، أن النبي صلى الله عليه وسـلم ، نعى النّجاشيّ في اليوم الذى مات فيه ، وخرج بهم الى المصلّى ، فصفّ بهم ، وكبّر عليه أربع تكبيرات ، رواه الجماعة[٥٧] : البخارى ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى وأبو داود وابن ماجه[٥٨] .

أما كتب الفقه الاسلامى ، فتنصّ على اسلام النجاشى ، وصلاة النبيّ صلى الله عليه وسلّم عليه صلاة الغائب ، وليس هنـاك أي مصـدر فقهى لاينص على اسلام النجاشي[٥٩] ، كما نصّت المصادر التاريخية وكتب السّير وكتب الرجال على اسلامه[٦٠] .

واسلام النجاشى أصحمة ، مع كلّ هذا الاجماع ، لا يمكن التشكيك فيه ، وقد توفّى سنة تسع الهجرية[٦١] (٦٣٠م) ، رضى اللّه عنه ، جزاء ما قدّم للاسلام والمسلمين ، من خدمات صادقة ، وجهود مثمرة .

---

(٥٧) المنتقى (٢/٨٢) .
(٥٨) المنتقى (١/٣) .
(٥٩) انظر على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر ، الفقه على المذاهب الاربعة (٢٧٨) والمدونـة الكبرى لسحنون (١/١٧٦) والام للشـافعي (١/٢٣٩) والقواعد النورانية الفقهية لابن تيمية (٨٧) والاختيار لتعليل المختار (١/٩٤) وفقـه الامـام الاوزاعى (١/٣١٠) والدرارى المضية للشوكانى (١/٢٣٠) والمحلى (٥/١٢٤) و (٥/١٦٥) وفقـه السـنه للسيد سـابق (٤/٨٨) و (٤/١١٠) .
(٦٠) انظر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر : أسد الغابة (٤/٨٦) والاصابة (١/٢٤٨) وتهذيب الاسماء واللغات (١/١٤٨) والطبري (٢/٦٥٣) وابن الاثير (٢/٢١٣) ، هذا بالاضافة الى المصادر الاخرى التي مر ذكرها .
(٦١) الروض الانف (١/٢١٥) وعيون الاثر (١/١١٩) .

الخلاصة

أ ـ خلاصة أسماء ملوك الحبشة

قبيل البعثة النبوية وفي أيامها

١	أبجر بن أبجر	قتله الاحباش قبل البعثة النبوية
٢	الأصحم بن أبجر	أخو أبجر ، أسلم على يدى جعفر ، وفي عهده كانت هجرات المسلمين الى الحبشة .
٣	أصحمة بن أبجر بن أبجر	هو الذى أسلم وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب .

٢ ـ الرسائل النبوية الى النجاشي

واجوبة النجاشي عليها(٦٢)

أ ـ الرسائل النبوية

١	١	جعفر بن أبى طالب
٢	٣	عمرو بن أمية الضمرى

الأصحم بن أبجر

أصحمة بن أبجر بن أبجر

---

(٦٢) انظر نصوص الرسائل والاجوبة عليها في البحث التالى

(٦٣) الى النجاشي ملك الحبشة .

ب ـ الاجوبة

١	٢	يحتمل أن يكون وفد النجاشي الى النبي صلى الله عليه وسلم أو أرسلت مع أحد رجال النجاشي

الأصحم بن أبجر

٢	٤	عمرو بن أمية الضمري سفير النبي صلى الله عليه وسلم الى النجاشي أصحمة بن أبجر بن أبجر

أصحمة بن أبجر بن أبجر

٢ ـ الى النجاشي[٣٦]

أ ـ السفارة الأولى

لما رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، مايصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، وأنّه لايقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فانّ بها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحد ، وهى أرض صِدْقٍ ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه[٣٧] » ، وكان بالحبشة ملك صالح لايُظْلَم أحد بأرضه ، وكان يُثْنَى عليه وفيه صلاح[٣٨] ، وكان النّجاشيّ ملك الحبشة نصرانياً ، وكانت النّصرانيّة تسود الحبشة منذ القرن الرابع الميلادى[٣٩] .

وخرج عند ذاك المسلمون من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى أرض الحبشة[٤٠] ، وكان ذلك في السنة الخامسة من النبوة[٤١] ، أى في السنة الثامنة قبل الهجرة[٤٢] . مخافة الفتنة ، وفراراً الى الله بدينهم ، فكانت هذه الهجرة أوّل هجرة في الاسلام[٤٣] ، وهى الهجرة الأولى الى أرض الحبشة[٤٤] ، فكان جميع مَنْ لحقَ بأرض الحبشة وهاجر اليها من المسلمين ـ

---

(٣٦) النجاشي : لقب لكل من ملك الحبشة ، انظر الروض الانف (١/٢٠٤) وشرح الأمام النووى على صحيح الأمام مسلم (٢/٣٣٧ ـ ٣٣٨) .

(٣٧) سيرة ابن هشام (١/٣٤٣) ، وانظر جوامع السيرة (٥٥) والدرر (٥٠) .

(٣٨) الطبري (٢/٣٢٨) .

(٣٩) عنان ـ محمد عبدالله عنان ـ مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام (١٧٣) ـ ط ـ القاهرة ـ ١٩٥٢م .

(٤٠) سيرة ابن هشام (١/٣٤٣) .

(٤١) الطبري (٦/٣٢٩) وطبقات ابن سعد (١/٢٤٠) .

(٤٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة (٣) .

(٤٣) سيرة ابن هشام (١/٣٤٣) .

(٤٤) سيرة ابن هشام (١/٣٤٣) .

سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولـدوا بها ــ ثلاثـة وثمانين رجلاً[٤٥] ، وكان الامـير على المهـاجرين الى أرض الحبشـة جعفـر بن أبي طالب ابن عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٤٦] .

وبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع جعفر بن أبي طالب الى النّجاشيّ ، كتاباً هذا نصّه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمّد رسول الله .

الى : النّجاشي الأصْحَم[٤٧] ملك الحبشة .

سِلْمٌ أنت ، فانّي أحمـد اليك اللهَ الذي لا اله الاّ هو ، الملك القدّوس ، السّلام ، المؤمن ، المهيمن ، وأشهد أنّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها الى مريـم البتول الطيّبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه اللهُ من روحه ونَفْخِهِ ، كما خلق آدم بيده ونَفْخِهِ .

اني أدعوك الى الله وحده لاشريك له ، والموالاة له على طاعته ، وأن تَتّبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فانّي رسول الله .

وقد بعثتُ اليك ابن عمّي جعفـراً ، ونفراً معـه من المسلمين ، فاذا جاءك ، فأقْرِهِم ، ودَعْ التّجبُّر ، فانّي أدعوكَ وجنودَك الى الله ، فقد بلّغْتُ ونصحتُ ، فاقبلوا نُصحي .

والسّلام على مَنْ اتّبَعَ الهُدَى »[٤٨] .

وذكر العبارة : « ... وقد بعثت اليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من

---

(٤٥) سيرة ابن هشام (٣٥٣/١) .

(٤٦) انظر التفاصيل في سيرة ابن هشام (٣٥٨/١ ــ ٣٥٩) .

(٤٧) اسم النجاشي هو : أصحمة وليس الأصحم ، انظر البداية والنهاية (٧٧/٣) وشرح النووي على صحيح مسلم (٣٣٧/٢ ــ ٣٣٨) .

(٤٨) الطبري (٦٥٢/٢) وصبح الأعشى (٣٧٩/٦) ، وانظر تفاصيل المصادر في : مجموعة الوثائق السياسية (٤٣ ــ ٤٤) في الوثيقة رقم (٢١) .

المسلمين ، فاذا جاءك ، فأقرهم ...» ، الواردة في كتاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، لايمكن أن تتعلّق بالكتاب النبوى المرسل الى النّجاشى في السنة السّادسة الهجريّة مع عمرو بن أُميّة الضّمْري ، حيث كان قد مضى خمسة عشر عاماً على هجرة جعفر الى الحبشة ، ويومها كان على وشك الرجوع الى دار الاسلام ، مما يدل على أنّ هذا الكتاب النبوى حمله جعفر الى النجاشيّ ، ولم يحمله اليه عمرو بن أُميّة الضّمْري .

ولكنّ قسماً من المصادر لم تذكر تلك العبارة في متن الكتاب النبويّ كما ذكرها الطبريّ في تاريخه[٤٩] ، وتلك المصادر متأخّرة عن الطبري ، مما يدلّ على أنّ ذكرها في تاريخ الطبري ليس سهواً من الطبريّ ، بل هو سهو من المتأخرين الذين أغفلوا ذكرها .

وقد نسبت المصادر القديمة الى عمرو بن أُميّة أنّه هو الذى حمل تلك الرسالة النبويّة الى النّجاشيّ ، وجعلت المصادر المحدثة تظنّ أنّ جعفر بن أبى طالب هو الذي حمل تلك الرسالة النبويّة الى النجاشيّ : «فنظنّ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان قد أعطى ابن عمّه جعفراً كتاباً الى النّجاشي وقت هجرته الى الحبشة طالباً من النّجاشي العادل ، الاعتناء بحال اللاجئين الغرباء في بلاده[٥٠]» .

وأرجح بدورى أن جعفراً هو الذى حمل هذه الرسالة النبوية الى النّجاشى ، لأنّ النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم ، ماكان ليرسل صفوة أصحابه الى الحبشة التى كان يحكمها ملك عادل من أهل الكتاب ، بدون أن يزوّدهم

---

(٤٩) لم يذكر هذه العبارة الحلبى والقسطلانى ، انظر مجموعة الوثائق السياسية (٣) .

(٥٠) مجموعة الوثائق السياسية (٣) ، وقد ذكر نص الكتاب النبوى كثير من المصادر والمراجع العربية وغير العربية ، ويبدو أن المصادر التى أغفلت ماجاء عن جعفر في الكتاب النبوى ، ارادت اثبات ان هذا الكتاب حمله الى النجاشى عمرو بن امية مع من حمل الكتب النبوية الى الملوك شرقاً وغرباً

بكتاب نبوي يوصي بهم النجاشي خيرا .

وكان جواب النجاشي الى النبي صلى الله عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم

الى : محمد رسول الله .

من : النجاشي الأَصْحَم بن أَبْجَر .

سلام عليك يانبي الله ورحمة الله وبركاته ، من الله الذى لا اله الا هو الذي هدانى الى الاسلام .

أما بعد ، فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرتَ من عيسى ، فورب السماء والأرض ، ان عيسى مايزيد على ماذكرتَ ثفروقاً[٥١] ، انه كما قلتَ وقد عرفنا ما بُعِثْتَ به الينا ، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين .

وقد بعثتُ اليك بابني أَرها بن الأصحم بن أبجر ، فانّي لا أملك الا نفسي ، وان شئت آتيكَ فعلتُ يارسول الله ، فانّي أشهد أن ما تقوله حق .

والسلام عليك يارسول الله[٥٢] » .

توقيع النجاشي

---

(٥١) يقال : ماله ثفروق ، أى شيء ، واصله قمع التمر ، أو مايلتزق به قمعها .

(٥٢) الطبري (٢/٦٥٣) وصبح الاعشى (٦/٤٦٦ – ٤٦٧) والبداية والنهاية (٣/٨٤) وزاد المعاد . (٣/٦٠ – ٦١) وانظر تفاصيل المصادر والمراجع الاخرى في : مجموعة الوثائق السياسية (٤٦) .

كانت اجابة النّجاشي صريحة واضحة ، وقد كان الكتاب النبوي الى النجاشيّ والى جنوده والملأ من قومه ، فأسلم هو ، ودعا مَنْ معه ولم يكرههم على الايمان ، ولكن اكتفى بالدعوة من غير اكراه(٥٣) ، اذ لا اكراه في الدين .

وقد أغفل قسم من المؤلفين المحدثين عبارة : « وقد بعثت اليك بـابني أُرها .... » الى « فاني أشهد أنّ ما تقوله حق » من رسالة النجاشي الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم(٥٤) ، ويحتمل أنّ هذه العبارة أُقحمت اقحاماً في تلك الرسالة ، نقلاً عن رسالة النّجاشي الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم التى حملها عمرو بن أميّة الضّمرى ، والتى سترد وشيكا ، كما أنّ ما بقى من تلك العبارة تكرار لامُسَوّغ له ، ورد في صلب الرسالة ، فلا مسوّغ لتكراره .

وكان النّجاشيّ ، عبداً صالحاً لبيباً زكيّاً عادلاً عالماً(٥٥) ، لذلك آثره النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على غيره من ملوك زمانه في هجرة المسلمين الى بلاده ، فكان عند حسن ظنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم به ، اذ أَمِنَ المسلمون المهاجرون واطمأنّوا بأرض الحبشة(٥٦) ، وكان لهم النّجاشيّ خير جـار ، فأمنوا على دينهم ، وعبدوا الله تعالى لايـؤذَون ولايسمعون شيئاً يكرهونه(٥٧) ، وأقاموا عنده بخير دار مع خير جار(٥٨) .

واذا كان الاختلاف قائماً بين الباحثين القُدامى والجُدد أو قسم الباحثين الجُدد على الأصح ، في أمر حامل الكتاب النبويّ الذى ذكرناه الى النّجاشيّ : هل كان جعفر بن أبى طالب ، أم كان عمرو بن أُميّة الضّمْريّ ،

---

(٥٣) ابو زهرة (الشيخ محمد ابو زهرة ـ خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم (١١٦٦/٢) ـ طبعة دولة قطر ـ ١٩٧٩ .
(٥٤) خاتم النبيين (١١٦٦/٢) .
(٥٥) البداية والنهاية (٧٧/٣) .
(٥٦) سيرة ابن هشام (٣٥٦/١) .
(٥٧) سيرة ابن هشام (٣٥٦/١) .
(٥٨) سيرة ابن هشام (٣٦١/١) .

فانَّ سفارة جعفر الى النّجاشي لا يمكن أن تكون محلّ اختلاف بين الباحثين القدامى والجدد ، ولاعبرة بغياب النص على سفارته هذه في المصادر العربية وغير العربية القديمة والجديدة •وعلى الرّغم من أنّ اعتباره سفيراً نبوياًفيعداد سفراء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد يكون جديداً في الدراسات الحديثة يُنَوَّه به في دراسة خاصة بالسّفارات النبويّة ، فقد كان جعفر بحق أوّل سفير نبويّ مقيم في دولة أجنبيّة :يرعى مصالح اخوانه من المسلمين المهاجرين الى أرض الحبشة ، ويدافع عنهم وعن الاسلام في مجلس النّجاشيّ وبحضوره ردّاً على سفيرى مشركى قريش القادمَين من مكّة ، كما حدث في سفارة عمرو بن العاص وصاحبه المشركَين اللذين أوفدتهما قُريش الى النّجاشي في السنة الثامنة قبل الهجرة ، في محاولة مدروسة مدبّرة لاخراج المسلمين المهاجرين من أرض الحبشة وتسليمهم الى مشركى مكّة ، فدافع جعفر عن الاسلام والمسلمين المهاجرين دفاعاً منطقياً مجيداً بحماسة وايمان ، أدّى الى اخفاق سفارة عمرو بن العاص وصاحبه في سفارتهما ، فعادا من أرض الحبشة الى مشركى مكة خائبين[٥٩] •

بل لم يقتصر جعفر في سفارته على رعاية مصالح المسلمين المهاجرين في أرض الحبشة ، والدّفاع عن الاسلام والمسلمين ضدّ كلّ مَنْ يريد بهم شرّاً ، بل كان داعية من دعاة المسلمين الأولين ، فأسلم النّجاشيّ على يديه[٦٠] ، كما أسلم على يديه عدد لانعرف مقداره من الأحباش •

ب ـ السفارة الثانية

أرسل النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيّ الى

---

(٥٩) انظر التفاصيل في : سيرة ابن هشام (١/٣٥٨ ـ ٣٦١) وحلية الأولياء (١/١١٤ ـ ١١٦) وانظر عيون الأثر (١/١١٨ ـ ١١٩) .
(٦٠) ابن الأثير (٢/١١٣) .

النجاشي أَصْحَمَة[٦١] يدعوه الى الاسلام ، سنة ست الهجريّة (٦٢٧م) .
فأسلم النّجاشي . وأمره أن يزوّجه أُمّ حَبِيْبَة[٦٢] ، ويرسلها ويرسل مَنْ
عنده من المسلمين[٦٣] الى المدينة المنوّرة .

وكانت أمّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حَرْب مهاجرةً بالحبشة مع
زوجها عُبَيْدالله بن جَحْش ، فتنصّر عبيدالله زوج أمّ حبيبة وتوفّي
بالحبشة ، فخطبها النجاشي الى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فوكّلت
أم حبيبة بتزويجها خالد بن سعيد بن العاص[٦٤] ، وكان وأخوه أقرب مَنْ
بالحبشة اليها ، فزوّجها أياه[٦٥] ، ونقد النّجاشيّ عن النّبيّ صلّى الله
عليه وسلّم مهر أمّ حبيبة أربع مائة دينار[٦٦] ، وبعث بكسوة الى رسول الله
صلّى الله عليه وسلّم : قميص ، وسراويل ، وعمامة ، وعِطاف[٦٧] أَسْوَانِيّ

---

(٦١) اصحمة : بفتح الهمزة ، واسكان الصاد ، وفتح الحاء والميم ، وهذا هو الذي وقع في رواية الامام مسلم في صحيحه هو الصواب المعروف فيه، وهكذا هو في كتب الحديث والمغازي وغيرها . ووقع في مسند ابي شيبة تسمية : (صَحْمَة) ـ بفتح الصاد ، واسكان الحاء ، وفتح الميم ـ وقال : « هكذا قال لنا يزيد ، وانما هو صَمْحَة » ، يعني بتقديم الميم على الحاء ،وهذان هما شاذان ، والصواب : (أَصْحَمَة) بالألف ، قال ابن قتيبة وغيره : « ومعناه بالعربية : عطية » .
انظر شرح الامام النووي على صحيح الامام مسلم (٢/٢٣٧ ـ ٢٣٨) .

(٦٢) أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب : انظر سيرتها المفصلة في طبقات ابن سعد (٨/٩٦) وأسد الغابة (٥/٥٧٣) والاصابة (٨/٨٤) والاستيعاب (٤/١٨٤٣) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٥٨) .

(٦٣) أسد الغابة (٤/٨٦) .

(٦٤) خالد بن سعيد بن العاص : انظر سيرته المفصلة في أسد الغابة (٢/٨٢) والاصابة (٢/٩١) والاستيعاب (٢/٤٢٠) .

(٦٥) أنساب الأشراف (١/١٩٩ ـ ٢٠٠) وابن الأثير (٢/١١٣) ، وانظر ما جاء حول ذلك في سيرة أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، الواردة في : طبقات ابن سعد (٨/٩٦) وأسد الغابة (٥/٥٧٣) والاصابة (٨/٨٤) والاستيعاب (٤/١٨٤٣) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٥٨) .

(٦٦) انساب الأشراف (١/٢٢٩) وابن الأثير (٢/١١٣) .

(٦٧) عطاف : رداء .

من قرية يقال لها : أُسْوان[٦٨] وهي آخر مدينة بمصر ، وخفّتين ساذجين[٦٩] .

وأرسل النّجاشيّ الى النّواتيّ[٧٠] ، فقال : « انظروا ما يحتاج فيه هؤلاء القوم من السُّفن ؟ » ، فقالوا : « يحتاجون الى سفينتين » ؛ فجهّزهم . وكلّم قوم من الحبشة أسلموا ، في أن يبعث بهم الى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُسلّموا عليه ، فقالوا : « نصاحب أصحاب هؤلاء ، فنجذف بهم في البحر ونغنّيهم » فأذن لهم ، فشخصوا مع عمرو بن أُميّة الضَّمْرِيّ والمسلمين ، وأمّر عليهم جعفر بن أبى طالب[٧١] .

ويبدو أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، أرسل عمرو بن أُمية الضَّمْرِيّ الى النّجاشي سنة ست الهجرية ، فعاد من سفارته الى المدينة سنة سبع الهجرية (٦٢٨م) ، لأنّ مهاجري الحبشة المسلمين وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب ، عادوا من أرض الحبشة الى المدينة في أعقاب غزوة خَيْبَر التى كانت في شهر محرّم من سنة سبع الهجرية .

كما أنّ عمرو بن العاص الذى أوفده مشركو قريش في مكة الى النّجاشيّ ، قد غادر الى أرض الحبشة بعد غزو الحُدَيْبِيَة التى كانت في شهر ذى القَعْدة من السّنة السّادسة الهجريّة ، فقد ذكر أنّه لم يحضر الحُدَيْبِيَة ولاصلحها ، وسافر الى أرض الحبشة[٧٢] .

---

(٦٨) أسوان : مدينة كبيرة وكورة في آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه ، وانظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٢٤٨ – ٢٤٩) ومراصد الاطلاع (٣/٧٨) .
(٦٩) المحبر (٧٦) .
(٧٠) النواتى : مفردها نوتى ، وهو الملاح الذى يدير السفينة في البحر .
(٧١) جوامع السيرة (٢١١) والدرر (٢١٨) عن قدوم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة الى المدينة المنورة ، وانظر أنساب الأشراف (١/٢٢٩) .
(٧٢) مغازى الواقدى (٢/٧٤٢) .

لقد أوفد النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم عمرو بن أُميّة في أواخر السّنة السّادسة الهجريّة الى أرض الحبشة ، وعاد منها في أوائل السّنة السّابعة ، ومن هنا حدث الاختلاف بين المؤرخين في سنة ايفاد عمرو بن أميّة : فمنهم مَن قال : سنة ست الهجرية ، ومنهم مَنْ قال : سنة سبع الهجرية .

وروى عمرو بن العاص قصّة لقائه عمرو بن أُميّة الضّمْريّ في بلاد الحبشة ، فقال : « فأجمعوا لنا ما نهديه له — أى للنّجاشيّ — وكان أحبّ مايُهدى اليه من أرضنا الأَدَم[٧٣] ، فجمعنا له أَدَماً كثيرا ، ثمّ خرجنا حتى قدمنا عليه ، فوالله انّا لعنده اذ جاءه عمرو بن أُميّة الضّمْريّ ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد بعثه اليه في شأن جعفر وأصحابه ، فدخل عليه ، ثمّ خرج من عنده ، فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أُميّة الضّمْرى ، لو دخلت على النّجاشي لسألته اياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فاذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزَأْتُ عنها[٧٤] حين قتلت رسول محمّد . فدخلت عليه ، فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال : مرحباً بصديقى ! أهدَيْتَ الىَّ من بلادك شيئاً ؟ قلت : نعم أيّها الملك ! انى قد رأيت رجلاً خرج من عندك ، وهو رسول رجل عدوّ لنا فأَعطِنيه لأقتله ، فانّه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ! فغضب ، ثمّ مدّ يده فضرب بها أنفه ضربةً ظننتُ أنّه قد كسره[٧٥] ، فلو انشقّت لى الأرض لدخلتُ فيها فَرَقاً منه ! ثمّ قلت : أيّها الملك ! والله لو ظننتُ أَنّك تكره هذا ماسألتُكَه . قال : أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه النّاموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟! قلت : أيّها الملك ! أكذاك هو ؟ فقال : ويحك ياعمرو ! أطعنى واتّبعه ، فانه

---

(٧٣) الأدم : الجلود . والأديم : الجلد .

(٧٤) اجزات عنها : قمت مقامها فيه وكفيتها شأنه .

(٧٥) وفى مغازى الواقدى (٢/٧٤٢) : « فرفع يده ، فضرب انفى ضربة ظننت انه كسره » .

والله لعلى الحق ، وليظهرنّ على مَنْ خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ! قلت : أتبايعني له على الاسلام ؟ قال : نعم . فبسط يده ، فبايعته على الاسلام ، ثمّ خرجت الى أصحابي وقد حال رأيي[٧٦] عما كان عليه ، وكتمت أصحابي اسلامي[٧٧] » .

وكان نصّ كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذى حمله عمرو بن أميّة الضَّمْرِي الى النّجاشي ، كما جاء في قسم من المصادر التاريخية[٧٨] ، هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمّد رسول الله .

الى : النجاشي الأصحم ملك الحبشة .

سلم أنت ، فانّي أحمد اليك الله الذى لا اله الاّ هو ، الملك ، القدّوس ، السّلام ، المؤمن ، المُهَيْمِنُ ، وأشهد أنّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها الِى مريم البتول الطيّبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونَفْخِهِ ، كما خلق آدم بيده ونَفْخِهِ .

انِى أدعوك الِى الله وحده لاشريك له ، والموالاة له على طاعته ، وأن تَتّبعني وتؤمن بالذى جاءني ، فانّي رسول الله

---

(٧٦) حال رأيي : تحول وتغير .

(٧٧) سيرة ابن هشام (٣/٣١٨) وانظر مغازي الواقدي (٢/٧٤٢ ـ ٧٤٤) والدرر (١٣٩ ـ ١٤٦) .

(٧٨) انظر الطبري (٢/٦٥٢) وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (٤٣ ـ ٤٦) وفيها التفاصيل الخاصة بهذا الكتاب النبوي .

وقد بعثت إليك ابن عمّي جعفراً ، ونفراً معه من المسلمين فاذا جاءك فاقْرِهِم ، ودَعْ التجبّر ، فانّي أدعوك وجنودك الى الله ، فقد بلّغت ونصحتُ ، فاقبلوا نُصحي .

والسّلام على مَن اتّبع الهدى[79] » .

وقد أعدت ذكر هذا الكتاب النبويّ منسوباً إلى عمرو بن أُميّة الضمرى ، بعد أن ذكرته في السفارة الأولى إلى النّجاشى منسوباً إلى جعفر بن أبى طالب ، وسبب إعادة ذكره هنا ، لأنّ الطبرى في تاريخه وغيره من المؤرخين نسبوه الى عمرو بن أُميّة الضّمْرِىّ ، وليس من الأمانة العلمية إغفال رأى الطبرى وغيره ، وحتى أتبيّن الرأى الذى أرجّحه بوضوح وجلاء وشيكا .

فقد أورد الامام البَيْهَقِيّ في كتابه دلائل النبوّة نص كتاب نبوى آخر ، حمله عمرو بن أُميّة الضّمْرِىّ إلى النّجاشى ، هذا نصه :

من : محمدّ النبيّ .

الى : النّجاشىّ الأصحم عظيم الحبشة .

سلام على مَنْ اتّبع الهدى وآمن باللّه ورسوله ، وأشهد أن لا اله الاّ الله وحده لا شريك له ، لم يتّخذ صاحبة ولا ولدا ، وأنّ محمّداً عبده ورسوله .

---

(79) الطبرى (٢/٦٥٢) وصبح الاعشى (٦/٣٧٩) ، وانظر تفاصيل المصادر في مجموعة الوثائق السياسية (٤٣ - ٤٤) في الوثيقة الرقم (٢١) .

وأدعوكَ بدعاية الاسلام ، فاني رسول الله ، فأسلِم تَسْلَم : (ياأَهلَ الكِتَابِ ، تَعَالَوْا الى كلمةٍ سواءٍ بيْنَنَا وبينكُم ، ألاّ نَعبُدَ إلاّ اللهَ ولا نشرِكَ به شيئاً ، ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْباباً من دونِ اللهِ ، فانْ تَوَلَّوْا فقولوا اشْهَدوا بأنّا مسلمون)[٨٠]، فان أبَيْتَ فعليك اثمُ النّصارى من قومك »[٨١] .

الختم : محمد رسول الله

ولعلّ الأصحم مقحم من الراوى حسب ما فهم[٨٢] ، والصواب أنّ اسم النّجاشىّ هو : أَصْحَمَة[٨٣] .

وأرجّح أن يكون الكتاب الأول قد حمله جعفر بن أبي طالب ، والكتاب الثاني هو الذي حمله عمرو بن أُمَيّة الضَّمْرى لأسباب كثيرة منها :

فقد ورد في الكتاب الأول ذكر جعفر ، : « وقد بعثت اليك ابن عمى جعفراً .... » ، وهذه العبارة بهذا النّص الواضح الصريح ، لا يمكن أن تتعلق بالكتاب النبـوىّ المرسل الى النّجاشى في السنة السادسـة الهجرية مع عمرو بن أُميّة الضَّمْرِى ، حيث كان قد مضى خمس عشرة سنة على هجرة جعفر الى الحبشة ، ويومها كان جعفر على وشك الرجوع الى المدينة ، مما يدلّ على أنّ هذا الكتاب النبوي حمله جعفر الى النّجاشي ، ولم يحمله عمرو بن أميّة اليه .

وقد ذكر البيهقيّ الكتاب النبوي الثاني في كتابه : دلائل النبوّة بعد قصة هجرة المسلمين الى الحبشة ، وفي ذكره هنا نظر ، فالظّاهر أنّ هـذا

---

(٨٠) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ٦٤) .

(٨١) البداية والنهاية (٣/٨٣) نقلا عن البيهقى في دلائل النبوة ، وانظر مجموعة الوثائق السياسية .
الوثائق السياسية (٤٦) للاطلاع على بقية المصادر والمراجع .

(٨٢) البداية والنهاية (٣/٨٣) . (٨٣) البداية والنهاية (٣/٧٧) .

الكتاب انمّا هو للنجاشيّ الذى كان بعد المسلم صاحب جعفر ، وذلك حين كتب الى ملوك الأرض يدعوهم الى اللّه عزّ وجلّ قبيل الفتح ، كما كتب الى هِرَقْل عظيم الرّوم قيصر الشّام ، والى كسرى ملك الفُرس ، والى صاحب مصر ، والى النّجاشي ، وكان جعفر يومئذ مهاجراً في أرض الحبشة ، والذى بعثه النبيّ صلىّ اللّه عليه وسلّم في ذلك الوقت هو عمرو بن أُميّة ، فيكون عمرو هو الذى حمل هذا الكتاب الى النجّاشي(٨٤) .

قال الزُهْرِي : « كانت كتب النبى صلى اللّه عليه وسلّم اليهم واحدة ـ يعني نسخة واحدة ـ وكلّها فيها هذه الآية : (يا أهل الكتاب تَعَالَوْا الى كلمةٍ سواء .....) الآية ، وهى من سورة آل عمران ، وهى مدنية بلا خلاف ، وقد نزل ثلاث وثمانون آية من أوّلها في وفد نَجْران »(٨٥) ، وهذه الكتب النبوية هى التى حملها السفراء في السنة السّادسة الهجرية الى ملوك الأرض ومنهم النّجاشي ، ومنها الكتاب النبوي الثاني ، فلابدّ من أن يكون الذى حمله الى النّجاشي ، هو عمرو بن أمية .

ولما كان النبيّ يحرص على أصحابه في حاضرهم ومستقبلهم ، فلا يمكن أن يتوجّهوا مهاجرين الى أرض الحبشة بدون كتاب نبوي يوصى بهم النّجاشيّ خيرا ، فكان الكتاب الأول الذى حمله جعفر الى النجاشي ؛ كذلك لا يمكن أن يوجّه كتابين نبويّيْن للدعوة الى الاسلام مرة واحدة مع رسول واحد ، فيكفى أن يبعث كتاباً واحداً للدعوة الى الاسلام ، والكتاب الثاني أشبه بالكتب النبويّة التى بعث بها الى ملوك الأرض يومئذ ، والفرق واضح وكبير بين الكتاب الأول والكتاب الثاني من حيث المبنى والمعنى نظراً للفرق الزمنيّ بين الكتابين .

وقد كان الكتاب الأول للمسلم النّجاشي صاحب جعفر ، والكتاب الثاني للمسلم النجاشي صاحب عمرو(٨٦) .

---

(٨٤) البداية والنهاية (٨٣/٣) .

(٨٥) البداية والنهاية (٨٣/٣) .

(٨٦) البداية والنهاية (٨٣/٣) .

ويبدو أنّ النّجاشي صاحب جعفر قد انتقل الى رحمة الله ، فخلف من بعده النجاشي صاحب عمرو .

وسبب ارسال عمرو بن أُميّة الى النّجاشي ، أنّ قريشاً بعثت عمرو بن العاص وصاحبه الى النّجاشيّ لمحاولة الحاق الأذى بالمسلمين ، بعد وفاة النّجاشي صاحب جعفر ، فلما سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ببعث قريش عَمْراً وصاحبه ، بعث عمرو بن أُمية وكتب معه الى النجاشيّ ، وهذا قول سعيد بن المُسَيّب وعُرْوَة بن الزبير[87] ، فقد كان عمرو بطلاً فاتكا لا يجهله أحد .

ولما سلّم عمرو بن أُميّة الضّمْرِي كتاب النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم الى النّجاشي ، قال له : « يا أَصْحَمَة ! انّ عليّ القول وعليك الاستماع . انّك كأنك في الرِقّة علينا منّا ، وكأنّا في الثّقة بك ، منك . لأنا لم نظنّ بك خيراً قط الاّ نلناه ، ولم نَخَفْكَ على شيءٍ الا أمنّاه . وقد أخذنا الحجّة عليك من فِيْكَ : الانجيل بيننا وبينك شاهد لا يُردّ ، وقاضٍ لا يجور ، وفي ذلك الموقع الحزّ ، واصابة المِفْصَل ، والاّ فأنت في هذا النبيّ الأميّ كاليهود في عيسى بن مريم ، وقد فرّق النبيّ صلّى اللّه عليه وسلم رسله في الناس ، فرجاك لما لم يرجُهم ، وأمنك على ما خافهم عليه ، بخيرٍ سالفٍ ، وأجْر ينتظر »[88] .

وأجابه النّجاشيّ اجابة المؤمن فقال : « أشهد أَنّه النبيّ الأُميّ الذي ينتظره أهل الكتاب ، وأنّ بشارة موسى براكب الحمار ، كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأنّ العيان ليس أشفى من الخبر »[89] .

وأردف ذلك بأن حمّل عمرو بن أُميّة كتاباً الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم هذا نصّه :

---

(٨٧) امتاع الأسماع للمقريزي (١/٢٢)

(٨٨) خاتم النبيين (٢/١١٦٥) .

(٨٩) خاتم النبيين (٢/١١٦٦) .

« بسم الله الرحمن الرحيم

الى : محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم .

من : النّجاشيّ أصحمة .

سلام عليك يارسول الله من الله ورحمته وبركاته .

أما بعد ، فانّي قد زوّجتك امرأة من قومك ، وعلى دينك ، وهي السيّدة أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأهديتك هدية جامعة : قميصاً ، وسراويل ، وعِطافاً ، وخفّين ساذجين .

والسلام عليك ورحمة اللّه وبركاته »(٩٠)

توقيع النّجاشيّ

وأردف النّجاشيّ هذا الكتاب بكتاب آخر ، الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم هذا نصّه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

الى : محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم

من : النّجاشيّ أصحمة .

سلام عليك يارسول اللّه من اللّه ورحمة اللّه وبركاته . لا اله الاّ اللّه الذى هدانى للاسلام .

أما بعد ، فقد أرسلت اليك يارسول الله مَنْ كان عندى من أصحابك المهاجرين من مكّة الى بلادى ، وها أنا أرسلتُ اليك ابني أُريحا في ستين رجلاً من أهل الحبشة ، وان شئتَ أن آتيك بنفسى فعلتُ

---

(٩٠) انظر تفاصيل المصادر والمراجع في : محموعة الوثائق السياسية (٤٨) .

يارسول الله ، فاني أشهد أنّ ما تقوله حقّ .

والسلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته »[٩١] .

توقيع النّجاشى

وكان أول سفير بعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم — من مجموعة السفراء الذين أرسلهم الى ملوك العالم المعروفين يومئذ — هو عمرو بن أُميّة الضمرى ، الى النّجاشى ، وكتب اليه كتابين : يدعوه في أحدهما الى الاسلام ، ويتلو عليه القرآن ، فأخذ النّجاشي كتاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فوضعه على عينيه ، ونزل من سريره وجلس على الأرض تواضعاً ، ثمّ أسلم وشهد شهادة الحق ، وقال : « لو كنتُ أستطيع أن آتيه لأتيته » ، وكتب الى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأجابته وتصديقه واسلامه . وفي الكتاب الآخر يأمره أن يزوّجه أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حَرْب ، وكانت قد هاجرت الى الحبشة مع زوجها عُبَيْدالله بن جَحْش الأسدي ، فتنصر هناك ومات ، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث اليه بمن قِبَلَهُ من أصحابه ويحملهم ، ففعل ، فزوّجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وأصدق عنه أربع مائة دينار ، وأمر بجهاز المسلمين وما يُصلحهم ، وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أُميّة الضَّمرىّ ، ودعا بِحُقٍّ[٩٢] من عاج ، وجعل فيه كتابى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وقال : « لن تزال الحبشة بخيرٍ ، ما كان هذان الكتابان بين أظهرها »[٩٣] .

وقد مرّت بنا الكتب النبويّة التي حفظتها لنا المصادر المعتمدة ، وليس بينها كتابه عليه الصّلاة والسّلام الى النّجاشى الذى يأمره به أن يزوّجه

---

(٩١) الطبرى (٦٥٣/٢) وصبح الأعشى (٤٦٦/٦ — ٤٦٧) والبداية والنهاية (٨٤/٣) وزاد المعاد (٦٠/٣ — ٦١) ، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع الاخرى في : مجموعة الوثائق السياسية (٤٦) .

(٩٢) الحق : وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج او زجاج أو غيرهما .

(٩٣) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١ — ٢٥٩) ، وانظر الطبري (٦٥٣/٢) .

أم حبيبة بنت أبى سفيان ، ويحمل اليه مَنْ عنده من أصحابه[٩٤] ، ومن المحتمل أنّ هذا الكتاب قد فُقِد ولم يُسجّل ، ولكن النّجاشى تسلّمه ونفّذ ما جاء فيه وأجاب عليه ، كما هو واضح من كتاب النّجاشيّ الجوابىّ الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم .

لقد حقّق عمرو بن أُمَيّة الضَّمْرِىّ : جميع أهداف سنارته الى النّجاشىّ : اسلام النّجاشىّ ، واسلام غير النّجاشىّ من الأحباش ، واستقدام المسلمين المهاجرين الى أرض الحبشة ، من أرض الحبشة الى المدينة المنوّرة قاعدة المسلمين الرئيسة في حينه ، وزواج النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم أُمّ حبيبة بنت أبى سفيان رضى اللّه عنها .

وهذا النّجاشىّ الذى خلف النّجاشى الذى أسلم على يد جعفر بن أبي طالب رضى اللّه عنه ، قد أسلم هو أيضاً كما أسلم سلفه من قبله ، فيكون الخلف والسلف قد أسلما[٩٥] .

ولا مجال للشكّ في اسلام هذا النّجاشىّ ، كما لا مجال للتشكيك في اسلامه[٩٦] ، فلا يقبل الشك في اسلامه ولا التشكيك فيه باحث منصف من المسلمين وغيرهم ، لأنّ اسلامه ثابت في المصادر العربية الاسلاميّة ، فقد صلّى عليه النبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم صلاة الغائب حين بلغه موته ، كما

---

(٩٤) شرح المواهب للزرقاني (٣٤٦/٣) وامتاع الاسماع للمقريزي (٣٢٥/١) ، وانظر : مجموعة الوثائق السياسية (٤٧ ـ ٤٨) .

(٩٥) البداية والنهاية (٨٣/٣) .

(٩٦) وقع التشكيك من المؤرخين الأجانب المغرضين اولا ، فانتقل هذا التشكيك بالعدوى الى قسم من المؤلفين العرب والمسلمين ، انظر مثلا مواقف حاسمة (١٧٣) ، ولا سند لهذا التشكيك في المصادر العربية والاسلامية المعتمدة ولا في غيرها ، وخطورة هذا التشكيك ، انه ينقل حرفيا من بعض الكتاب العرب والمسلمين دون تحقيق ولا تمحيص . انظر التفاصيل في بحث : اسلام النجاشي ، في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

ثبت ذلك في صحيح الامام البخاري[٩٧] ، وصحيح الامام مسلم[٩٨] ، والنسائي[٩٩] ، وفي جميع مصادر الحديث الشريف والفقه الاسلامي[١٠٠] ، وفي كتب الرجال[١٠١] ، والتاريخ[١٠٢] ، ولا تُصلّى صلاة الغائب الاّ على المسلم المُتَوفى حسب .

ويعجبني بهذا الصَدد ، ما كتبه الامام ابن حَزْم الأندلسيّ ، في كتاب : (المحلّى) ، وهو مَنْ هو علماً وعملا ، وديناً ، وقوّة حُجَّة ، ورجاحة عقل ، ورصانة منطق ، ورفضاً لكل ما لا يقتنع به ، ونقداً لآراء الفقهاء مجتهداً ، وسلاطة لسان ـ أيضاً ، عند ذكر النجاشي ونعيه ، وصلاة الغائب عليه ، فقد كتب ما نصّه : « صلّى رسول اللّه صلّى لله عليه وسلّم ، على النّجاشيّ رضى اللّه عنه »[١٠٣] . ولن يستحقّ مثل هذا التّعبير : « رضى الله عنه » ، من مثل ابن حزم ، الاّ المسلم الذى حَسُنَ اسلامه ، وأحسن في عمله ، وكان مؤمناً عاملاً مخلصاً في عمله ، لا غبار على ايمانه وعمله واخلاصه في عمله .

---

(٩٧) فتح الباري بشرح البخاري (٣/٩٢) و (٣/١٦٤) في باب الرجل ينعى الى أهل الميت نفسه ، وباب التكبير على الجنازة أربعا .

(٩٨) صحيح مسلم (٣/٥٤) في باب التكبير على الجنازة ، وانظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١٩٣) .

(٩٩) النسائي (٢/٣٣٧) باب التكبير على الجنازة .

(١٠٠) انظر مثلا : تيسير الوصول الى جامع الاصول في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (٢/٣١٢) والمنتقى من أخبار المصطفى صلى الله عليه وسلم (١/٣) و (٢/٨٢) والفقه على المذاهب الاربعة (٢٧٨) والمدونة الكبرى لسحنون (١/١٧٨) والقواعد النورانية الفقهية لابن تيمية (٨٧) والاختيار لتعليل المختار (١/٩٤) وفقه الاوزاعي (١/٣١٠) والدرارى المضيئة للشوكانى (١/٢٣٠) والمحلى لابن حزم (٥/١٢٤) .

(١٠١) انظر مثلا : اسد الغابة في معرفة الصحابة (٤/٨٦) وتهذيب الاسماء واللغات (١/١٤٨) والاصابة في تمييز الصحابة (١/٢٨٤) .

(١٠٢) انظر مثلا : الطبرى (٢/٦٥٣) وابن الاثير (٢/٢١٣) والبداية والنهاية (٣/٧٧) .

(١٠٣) المحلى (٥/١٦٥) .

والتّشكيك باسلام النّجاشيّ ، بحجّة أنّه : « لو أسلم يومئذ ، لكان الاسلام قد غمر الحبشة كلّها ، ولكانت النّصْرانيّة قد غاضت منها »[١٠٤]، لا يقول به الاّ جاهل بروح الاسلام ، فلم يُكره النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلم ولا خلفاؤه الراشدون على الاسلام أحداً : (لا إكراه في الدين ، قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ)[١٠٥] ، وقد بقى كثير من أهل الكتاب على دينهم بعد الفتح الاسلاميّ ، في البلاد الاسلامية المفتوحة ، كالعراق وبلاد الشّام ومصر مثلاً ، ولا يزالون على دينهم حتى اليوم ، لأنّ الحاكم المسلم لا يُجبر أحداً على اعتناق الاسلام كرها .

وهذه الحقيقة ، تسامح الاسلام ، لا يفهمها كما ينبغي ، غير المسلم حقّاً ، فلا عجب أن يقع الأجانب بمثل هذا الخطأ ، فهم يظنون أنّ الحاكم المسلم هو كالحاكم غير المسلم ، في اكراه رعيّته على اعتناق الدين الذى يعتنقه ، والواقع هو أنّ الحاكم غير المسلم يُكْرِه رعيّته على اعتناق دينه قسراً ، بخلاف الحاكم المسلم الذى لا يُكره أحداً من غير المسلمين على اعتناق الاسلام .

انّ الحاكم المسلم ليس كالحاكم غير المسلم في هذا المجال ، فهما ليسا سواء في حرية الاعتقاد ، بل هما على طرفي نقيض : الحاكم المسلم يطبّق المبدأ القرآني : (لا اكراه في الدين) ، والحاكم غير المسلم يطبق مبدأ « الاكراه بالدين » ، والنّجاشيّ الذى لم يُكره شعبه على الاسلام ، دليل على أنه أسلم وحَسُنَ اسلامه ، وليس دليلا على أنه لم يُسلم ، وعذر الذى فهم فهماً معكوساً ، أنّه طبق تعاليم دينه على تعاليم الاسلام !! .

---

(١٠٤) مواقف حاسمة (١٧٣) .

(١٠٥) الاية الكريمة من سورة البقرة (٢/٢٥٦) ، وانظر تفسير هذه الاية في تفسير الكشاف للزمخشري (١/٢٧٩) وتفسير الجامع لاحكام القرآن للقرطبي (٣/٢٧٩ ــ ٢٨١) وتفسير ابن كثير (٢/٢٥ ــ ١٦) وتفسير البغوى (٢/١٥ ــ ١٧) وتفسير انوار التنزيل للبيضاوي (١/٢٥٩ ــ ٢٦٠) وتفسير في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/٢٩ ــ ٣١) .

٣ ـ الى قيصر(١) ملك الروم
والى اسقف الروم الاكبر
ا ـ الى هِرَقْل عظيم الروم

(أ) حكم هِرَقل قيصر الدولة البيزنطية الشرقية بلاد الروم يومئذ ، من سنة (٦١٠م ـ ٦٤١م) ، أى من السنة الثانية عشرة قبل الهجرة، الى سنة احدى وعشرين الهجريّة ، باعتبار أنّ الهجرة النبويّة كانت سنة اثنتين وعشرين وستمائة الميلاديّة .

وتولى هرقل الحكم بعد فوكاس ، فقد بعث هرقل حاكم افريقية للروم ابن هرقل ، على رأس أُسطول بيزنطيّ الى القُسْطَنْطِيْنِيّة ، فتوقّفت السّفن أثناء سيرها ببعض الجزر ، ولقى هرقل الترحيب من جميع الناس . وفي يوم ٣ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة (٦١٠م) ، ظهر أسطوله أمام أسوار القسطنطينية ، فتعالى الهتاف له على أنه مُخلّص البلاد ومنقذها ، فعمل هرقل على التّعجيل بانهاء حكم فوكاس . وفي يوم ٥ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة (٦١٠م) ، تلقّى هرقل التّاج من البطريرك ، ثمّ أمر باعدام فوكاس وتحطيم تمثاله المقام في ميدان السّباق .

وألّف هرقل ومَن جاء بعده مباشرة من الأباطرة ، أسرة حاكمة ترجع ترجيحاً الى أصلٍ أرمنيّ .

---

(١) قيصر : لقب كل من ملك الروم ، والنجاشي لقب كل من ملك الحبشة ، وكسرى لقب كل من ملك الفرس ، وخاقان لقب كل من ملك الترك ، انظر الروض الأنف (١/٢٠٤) وشرح الامام النووى على صحيح الامام مسلم (٢/٣٣٧ ـ ٣٣٨) .

ويعتبر هرقل ، من أعظم الأباطرة في التاريخ البيزنطي ، فهو على حد قول أحد المؤرخين : الذى أنشأ بيزنطة العصور الوسطى ، والذي اتخذ (رومة) عاصمة الرومان مثالاً في الحكم ، واتخذ اللغة والثقافة اليونانية ، واتخذ المسيحية دينا ومذهبا ، وأجرى في داخل الامبراطورية حركة تجديدية ناشطة ، وكانت بيزنطة قد ادخرت في داخلها من المواهب والموارد ما أسهمت بها في خلق نهضة اجتماعية سياسية ثقافية عسكرية .

وكان الصقالبة(٢) قد استولوا على معظم الامبراطورية في أوروبا ، فأصبح الجزء الأكبر من شبه جزيرة البلقان ، لاسيما داخلها ، اقليماً صقلبياً .

أما الفرس ، فأخذوا يتوغلون في الشرق الأدنى منذ سنة (٦١٠م) ، فاستولوا على أنطاكية التي تعتبر من أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للدولة البيزنطية ، ولم يلبثوا ان استولوا على دمشق ، وشقوا طريقهم شمالاً فاستولوا على حصن طرسوس وطردوا البيزنطيين من إرمينية . وجزعت نفوس المسيحيين وانهارت معنوياتهم حين استولى الفرس على بيت المقدس بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع ، فجعلوا المدينة المقدسة نهباً للحريق والمذابح ثلاثة أيام ، فدمر الحريق كنيسة القيامة التي شيدها قسطنطين الكبير ، وكان لهذا العمل رد فعل خطير في بيزنطة ، لاسيما أن الصليب المقدس (صليب الصلبون) الذى يعتبره المسيحيون أثمن المقدسات الدينية ، قد استولى عليه الفرس ونقلوه الى عاصمتهم المدائن .

ولم تقتصر غارة الفرس على الشام وفلسطين ، بل امتدت سنة (٦١٣م) الى آسيا الصغرى حتى بلغت مضيق البسفور ، وعسكر الفرس تجاه القسطنطينية ، وبذلك تعرضت العاصمة لزحف العدو من جهتين : اذ زحف عليها الفرس من الشرق ، وزحف عليها الصقالبة والآفار من الشمال .

---

(٢) الصقالبة : مفردها صقلبي . والصقالبة هم السلاف وهم الروس ، انظر القاموس الاسلامي (٤/٢٩٧ ـ ٢٩٨) .

وشرع الفرس بغزو مصر ، فسقطت بأيديهم الاسكندرية سنة (٦١٩م) ، ولم تلبث مصر بأسرها أن أصبحت بأيدى الفرس .

وبدأ هرقل باجراء اصلاحات عسكرية وادارية شاملة ، وكان من نتائج هذه الاصلاحات تغلّب الصفة العسكرية على ادارة الامبراطورية واعادة تنظيم القوّات المسلّحة . وكانت نتائج هذه الاصلاحات واضحة ملموسة ، فنهضت الامبراطورية من جديد ، وهُزم الفرس هزيمة ساحقة منكرة بفضل جهود هرقل التنظيميّة وقيادته المتميزة .

كما أن الكنيسة البيزنطيّة أسهمت بقدر كبير فيما أحرزته الامبراطورية من الفوز والنّجاح ، اذ جعلت كلّ ما لديها من ثروة تحت تصرّف الحكومة ، وما كان في كنائس العاصمة والأقاليم من التحف المصنوعة من الذهب والفضّة جرى صهرها وسكّها نقوداً .

وقرّر هرقل أن يقود بنفسه الحرب على الفرس ، وطغى على الحرب في مُستهلّها جوّ من الحماسة الدينية التى لم تكن معروفة في العصور الماضية ، فكانت حرباً صليبيّة سابقة على الحرب الصّليبية المعروفة .

وفي يوم الاثنين ٣ نيسان (ابريل) سنة (٦٢٢م) ، غادر هرقل القائد العام للجيش البيزنطىّ العاصمة وعبر البسفور الى آسيا الصغرى حيث لجأ الى الثّغور البيزنطية ، فاجتمع له عدد كبير من الجند . وأمضى الصيف في تدريب الجند ، وعكف على دراسة الخطط العسكرية ، فابتكر أساليب جديدة منها ، فازدادت أهميّة استخدام الفرسان في القتال ، وأبدى هرقل اهتماماً كبيراً بالرُّماة من الفرسان .

وبدأ هرقل في الخريف من سنة (٦٢٢م) حملته ، فشقّ طريقه الى ارمينية ، وتقابل الجيشان البيزنطىّ والفارسى على أرضها ، فانتصر الرُّوم على الفرس هناك انتصاراً حاسما ، وبذلك تحقّق أوّل هدف من أهداف

هرقل . وهو تخليص آسيا الصغرى من العدو .

وفي سنة (٦٢٣م) ، سار هرقل الى ارمينية ، فأحرز انتصارات على الفرس هناك ، ثـمّ توجّه نحو الجنـوب ، فزحف على (جانزاك Ganzak) التي كانت عاصمة لأردشير ـ أوّل ملوك الساسانيين ـ وتعتبر من المراكز الدينيّة الرئيسة في فارس ، فلاذ كسرى بالفرار من المدينة التي لم تلبث أن سقطت بيد الرّوم ، فأشعلوا الحرائق في معبد زرادشت انتقاما لما أنزله الفرس من قبل ببيت المقدس من نهب وتخريب ، ووقع بيد هرقل عدد لا حصر له من الأسرى .

ودارت خلال سنتى (٦٢٤م و ٦٢٥م) معارك طاحنة في أرمينيـة بين الرّوم والفرس ، كانت الكفّة راجحة فيها للرّوم على الفرس .

وفي سنة (٦٢٦م) ، تعرّضت القسطنطينيّة لهجوم مزدوج من الفرس والآفار ، ولكن لم ينجح الهجوم وانتصر الرّوم في نهاية المعارك .

وفي سنة (٦٢٧م) ، شرع هرقل بزحفه الكبير نحو الجنوب ، متجه الى قلب بلاد الفرس ، وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) من هذه السّنة ، أحرز انتصـاراً حاسـماً في معركة نِيِنْـوَى الحاسـمة التى قرّرت مصير النّزاع بين الرّوم والفرس نهائياً في مصلحة الرّوم ، اذ أحرز البيزنطيون انتصاراً باهراً على الفرس ، وحلت بالجيش الفارسىّ هزيمة ساحقة وخسائر فادحة .

وواصل هرقل زحفـه المظفّر ، وفي أوّل سنة (٦٢٨م) استولى على دَاسْتَاجِرْدَ مقر ملك فارس ، فأسرع الملك بالخروج منها ، مما أدى الى عزل كسرى وقتله ، فتولى الحكم بعده ابنه ، وعقد الصّلح مع هرقل .

وبمقتضى هذا الصّلح ، استردّ هرقل كل ما كان لبيزنطة من ممتلكات في الجزيرة وارمينية وسورية وفلسطين ومصر ، وأعلن كسرى شيرويه أثناء

مرضه الذى مات فيه ، بأن يكون هرقل وصياً على ابنه ، وكان سلفه كسرى الثاني قد أعلن أنّ الامبراطور البيزنطى ليس الا عبدا له ، فتغيّر الزمن وانعكس الوضع ، فأعلن شيرويه أن ابنه ووريثه في الحكم عبد للامبراطور البزنطيّ هرقل ، وهكذا غيّر هرقل موازين القوى من حال الى حال ، فأصبح المغلوب غالبا ، وأصبح العبد سيّدا .

وعاد هرقل الى عاصمته ، بعد أن غاب عنها ست سنوات ، فاستقبله ابنه على شواطىء آسيا الصغرى ، واستقبله البطريرك سرجيوس ورجال الدين وأعضاء مجلس الشيوخ وجموع الشعب يحملون أغصان الزّيتون والشّموع الموقدة ، يرتّلون المزامير ، ويهتفون باسمه فرحاً وسرورا .

ولما تحرّرت الأقاليم البيزنطيّة من الفرس ، ارتحل هرقل وبصحبته زوجته سنة (٦٢٩م)[٢] قاصداً بيت المقدس ، حيث أعاد في ٢١ آذار (مارس) من سنة (٦٢٩م) وسط مظاهر الفرح الغامر ، اقامة الصليب الذى كان قد غنمه الفرس في موضعه الاصليّ ، كما أعاد الى مواضعها كلّ ما سلبه الفرس من الكنيسة ، واعتبر المؤرّخون أنّ هذه الحرب هي أوّل حرب مقدّسة شنّتها العالم المسيحى على غيرهم من غير المسيحيين .

وتعتبر الحرب الفارسية البيزنطية مرحلة مهمة من مراحل التاريخ البيزنطى والفارسى أيضا ، اذ أنّ معركة نينوى الحاسمة حطّمت قوّة الفرس ، ولم يعد لفارس ما كان لها من الاهمية .

ويعتبر عهد هرقل نقطة تحوّل في تاريخ الدولة البيزنطيّة من النواحي الحضارية والسياسية والعسكرية ، اذ انتهت المرحلة الرومانية من التاريخ ، وبدأ ما يصح اعتباره التاريخ البيزنطيّ وقد اتّحد ظهور العنصر اليونانيّ وقوّة المؤثّر الكنسيّ ، فوهبا الامبراطورية مظهرا جديدا .

---

(٢) فتح العرب لمصر ـ بتلر ـ القاهره ـ ١٣٥١هـ ـ ص (١٢٠).

وحين بدأ الصِّراع بين العرب المسلمين من جهة ، والروم وحلفائهم من جهة أخرى ، كان الروم أقوى دولة في العالم دون منازع ، يقودهم هرقل أعظم أباطرة الروم وقادتهم ، وكانت معنويات الروم قادةً وجنوداً عالية جداً بعد انتصارهم على الفرس والآقار ، وكانوا أكثر حضارة من العرب المسلمين القادمين من الصحراء ، وأعرف بأساليب القتـال ، وأعظم تجربة عملية في الحرب ، وأكثر عَدَداً وأغنى مَدَدا ، ولكنّهم اندحروا أمام العرب المسلمين بالرّغم من قوّتهم في جيوشهم وقيادتهم لا من ضعف بهما كما يزعم بعض المستشرقين والمستغربين •

والى هرقل ، بعث النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم رسالته النبويّة يحملها رسوله اليه ، وكان هرقل يومها في أوج مجده وقوته ومعنوياته ، فأرسل اليه النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم يدعوه وقومه الى الاسلام •

وفي ١١ شباط (فبراير) من سنة (٦٤١م) مات هرقل فارتجت القسطنطينية لموته ، وارتجت الامبراطورية البيزنطية بخاصة والعالم المسيحيّ بعامة لرحيله، اذ فقدت المسيحيّة بموته بطـلاً من أبطالها المعدودين : منقذ القدس من الفرس(٤) •

(ب) كتب النبيّ صلّى اللّه عليـه وسلّم الى هِرَقل عظيم الرُّوم يدعوه الى الاسلام ، وبعث بكتابه مع دِحْيَة بن خليفة الكَلْبِي في هُدْنَة الحُدَيْبِية في أواخر سـنة ست الهجرية ، فآمن به هِرَقْل وامتنع عليه بطارقته ، فأخبر دحيةُ رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بذلك ، فقال :

---

(٤) المراجـع :

Baynes, N. H. : The Byzantin Empire. London 1926.
Ostrogorowski, G : History of the Byzantine, Trans Joan Hussey, Oxford 1956.
Vasiliev, A : The Byzantin Empire : Madison 1952.

« ثبّتَ اللّه ملكه »[٥] .

وفي رواية ، أنّ القيصر هرقل أخذ كتاب النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم فوضعه على خاصرته ، ووصل دحيـة وقال : « لو كان في بلادى لاتّبعته ونصرته »[٦] .

وفي رواية أنّ دحية وجد قيصر الرّوم بحِمْص يمشى راجلاً الى بيت المقدس شكراً للّه على ما منحه من الظّفر على الفرس ، وذلك وَعْد الله فيهم بقوله تعـالى : (الم . غُلِبَتِ الرّومُ في أدنى الأرضِ وهُـمْ من بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبون . في بِضْعِ سِنِيْنَ لِلّهِ الأَمْرُ من قَبْلُ ومن بَعْدُ ويَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنونَ بِنَصْرِ اللّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَـاءُ وهو العزيزُ الرّحِيْمُ)[٧] ، فوضع قيصر كتاب رسـول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على وجهه ، ودعا الناس الى اتّباعه فأبوا عليه ، فلما أخبـر دحيـة النبيّ صلّى اللّه عليـه وسـلّم قال : « بقى ملكه أو ثبت »[٨] .

وكانت الكنيسة تعضد هرقل في حربه لعبّاد النار من الفرس ، بتلك الحرب التي توغّل فيها الى قلب فارس وأحرز نصراً مؤزّراً على الفرس ، وكانت تلك الحملات في نظره عملاً دينياً ، وقد كان للدّين طيلةحكمه المنزلة الأولى[٩] .

وسورة الرّوم التى نزلت فيها هذه الآية سورة مكيّة ، وقد نزلت عند انتصار الفرس على الرّوم في أدنى الارض ، وهى أرض العرب ، لأنّ الأرض

---

(٥) اسد الغابة (٢/١٣٠) والاستيعاب (٢/٤٦١) .
(٦) المحبر (٧٥ ـ ٧٦) .
(٧) الايات الكريمة من سورة الروم (٣٠ : ١ ـ ٥) وسورة الروم مكية .
(٨) البدء والتاريخ (٤/٢٢٩) . وانظر الطبري (٢/٦٤٦) وابن الاثير (٢/٢١١) وجوامع السيرة (٢٩) .
(٩) الامبراطورية البيزنطية (٥٥) .



رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل عظيم الروم حملها اليه الصحابى

دحية بن خليفة الكلبي

نص الرسالة كما جاءت في المخطوط حسب الاسطر

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبدالله ورسوله »

« الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد »

« فانى ادعوك بدعاية الاسلام اسلم تسلم يوتك الله »

« اجرك مرتين فان توليت فعليك اثم الاريسيين ويا اهل الكتا »

« ب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله »

« ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من »

« دون الله فان تولوا فقالوا اشهدوا بأنا مس »

« لمون »

الله
رسول
محمد

المعهودة عند العرب أرضهم ، وهي أرض الجزيرة والشام والأردن وفلسطين . وطغ خبر انتصار الفرس على الرّوم مكّة ، فشقّ على النبيّ والمسلمين لأنّ فارس مجوس لاكتاب لهم ، والرّوم أهل الكتاب ، وفرح مشركو مكة وشمتوا ، وقالوا : « أنتم والنّصارى أهل كتاب ، ونحن وفارس أميّون ، وقد ظهر اخواننا على اخوانكم ، ولنظهرنّ نحن عليكم » ، فنزلت هذه الآية تبشّر المسلمين بانتصار الروم على فارس بعد بِضع سنين ، والبِضع مابين الثلاث الى التسع(١٠) . وهكذا كان ، فقد انتصر الرّوم على الفرس في بضع سنين ، ففرح المسلمون بهذا النّصر وحزن المشركون .

وهذا هو نصّ الكتاب النبويّ الى هِرَقْل عظيم الرّوم :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمدٌ بن عبدالله ورسوله

الى : هِرَقْل عظيم الرّوم .

سلام على مَن اتّبع الهدَى .

أما بعد . فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أَسْلِم

تَسْلَم ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مرّتين ،

فان تولّيتَ فعليكَ اثم الأريسيّين(١١) ، و :

(١٠) تفسير الكشاف للزمخشري (٢/٤٠٢) وانظر جميع التفاسير لاجماعها على هذا التفسير .

(١١) في الطبري (٢/٦٤٩) وابن الأثير (٢/٢١٣) ، ورد : عليك اثم الأكارين . والأريسيين : جمع أريسي والاريسي : الاكار ، اى الفلاح او الحراث ، انظر فتح الباري بشرح البخاري (١/٣٦) . وقد وردت كلمة : الاريسيين او اليريسيين ، على اختلاف في الروايات ، في الكتاب النبوى الذى وجه الى هرقل وحده ، ولم ترد في كتاب من الكتب النبوية الموجهة الى غيره .

=

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا

= واختلف علماء الحديث واللغة في مدلول هذه الكلمة ، والقول المشهور ان الاريسيين جمع أريسي ، وهم الخول والخدم والاكارون ، كما جاء في شرح النووى لصحيح مسلم ، وجاء في لسان العرب لابن منظور : (الارس) الاصل . و (الاريسى) : الاكار ، نقله عن ثعلب ، وذكر عن ابن الاعرابي انه قال : أرس يأرس ارسا ، اذا صار ارسا وارس يؤرس تاريسا : اذا صار اكارا . ونقل عن أبى عبيدة انة قال : « الاجود عندى ان يقال ان (الاريس) كبيرهم الذى يمتثل امره ويطيعونه اذا طلب الطاعة» ، انظر لسان العرب ، مادة أرس .
وهنا يتساءل القارىء اذا كان المراد من الاريسيين الفلاحين ، كان كسرى ابرويز امبراطور ايران ، احق بأن يحذر من وقوع اثمهم ومسئوليتهم عليه ، وبأن ترد هذه الكلمة في الكتاب النبوى الذى كتب اليه ، فان طبقة الفلاحين كانت أعظم وأوسع وأكثر تميزا في المملكة الساسانية الايرانية منها في المملكة البيزنطية الرومانية وكان اكثر اعتماد ايران في دخلها ومواردها على الفلاحة ، والى ذلك نبه الازهرى ، كما نقل عنه ابن منظور بقوله : « وكان أهل السواد من هو على دين كسرى أهل فلاحة واثارة للارض ، وكان أهل الروم أهل اثاث وصنعة ، فكانوا يقولون للمجوس أريسيين » ، نسبوهم الى : « الاريس » ، وهو الاكار ، وكانت العرب تسميهم : الفلاحين ، انظر لسان العرب ، مادة أرس .
ولذلك نرجح ان المراد بالاريسيين ، هم اتباع : (أريوس) المصرى Arius (٢٨٠م – ٣٣٦م) وهو ، مؤسس فرقة مسيحية كان لها دور كبير في تاريخ العقائد المسيحية والاصلاح الدينى ، وقد شغلت الدولة البيزنطية والكنيسة المسيحية زمنا طويلا . وأريوس ، هو الذى نادى بالتوحيد ، والتمييز بين الخالق والمخلوق ، والاب والابن – على حد تعبير المسيحيين . فأثار نقاشا حول الموضوع ، وكان الشغل الشاغل في المجتمع المسيحي لعدة قرون ، وآراؤه تتلخص في : انه ليس من شأن الاله الواحد ان يظهر على الارض ، لذلك هو ملأ السيد المسيح بالقوة والكلام الالهى ، وأن من صفات الله الاساسية ، الوحدانية والابدية ، وانه لم يخلق احدا من ذاته راسا ، وان الابن ليس هو الاله ، بل هو مظهر لحكمة أمر الرب ، وان الوهيته اضافية لامطلقة ، انظر التفاصل في : دائرة معارف الديانات والاخلاق (١/٧٧٧) ، مقال Arianism
ويقول James Ma ckinon في كتابه : (من المسيح الى
=

تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا

نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا

أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا

= قسطنطين) : « وكان أريوس يلح على أن الله وحده هو القديم ، كان الازلي الابدي ، وليس له شريك ، وهو الذي خلق الابن من العدم ، لذلك ليس الابن هو الازلي ، ولم يكن الله ابا من الابد ، فقد كان حين من الدهر لم يكن فيه وجود للابن ، وان الابن يحمل حقيقة خاصة لايشاركه فيها الله ، وهو خاضع للتطورات ، وليس هو الله بالمعنى الصحيح ، الا أنه يصلح لان يكون كاملا ، ولكنه على كل حال مخلوق كامل » انظر :
From Christ to Constantine, London, 1936.

وقد اقصاه رئيس الكنيسة المصرية البطريق الكسندر (Alexander) في سنة (٣٢١م) من الكنيسة الاسكندرية ، وغادر أريوس المدينة ، ولكن لم ينته النزاع بخروجه ، وحاول الامبراطور قسطنطين حسم هذا الخلاف ، ولكنه اخفق . وفي سنة (٣٢٥م) عقد مجمعا في نيقية اجتمع فيه (٢٠٣٠) أسقفا ، وكان الامبراطور يميل الى الوهية المسيح ، فحكم ضد أريوس ، ولم يوافقه الا (٣١٨) أسقفا ، فنفاه الى (اليريا Jllyria) واحرقت كتاباته ، وكان من وجدت عنده يعاقب ، ولكن هذه المحاولات لم تقلل من أهمية أريوس واقبال الناس عليه ، وكان اخر أمره أن قسطنطين لان في موقفه ورفع الحظر على عقيدته . وبعد موت منافسه الاكبر البطريق الكسندر ونفي خليفته (اثاناسيوس
عاد اريوس الى الاسكندرية ، وكان قسطنطين يوليه رئاسة الكنيسة المصرية ويدين بعقيدته ، ولكن باغتته المنية قبل ذلك ــ انظر دائرة معارف الديانات والاخلاق ، مقال (Arianism).

وقد جاء في كتاب : (الصراع بين الدين والعلم) ل « دابر » ، أن ثلاثة عشر مجمعا مسيحيا حكمت ضد أريوس في القرن الرابع المسيحي ، وخمسة عشر مجمعا حكمت في تأييده ، وسبعة عشر مجمعا أدلت برأي قريب من رأي أريوس ، وهكذا عقدت خمسة وأربعون مجمعا مسيحيا للتقرير في هذه القضية .

ودامت عقيدة اريوس ودعوته تصارعان الدعوة المكشوفة الى تأليه المسيح وتسويته بالاله الواحد الصمد ، وكانت الحرب سجالا ، وقد دان بهذه العقيدة عدد كبير من النصارى في الولايات الشرقية من الدولة البيزنطية ، الى أن عقد (ثيوسودس الكبير (Theosodivs The Great مجمعا مسيحيا في القسطنطينية ، قضى بالوهية المسيح وابنيته ، وقضى هذا الاعلان على العقيدة التي دعا اليها أريوس واختفت ، ولكنها عاشت بعد ذلك ، ودانت بها طائفة من النصارى ، اشتهرت بالفرقة الاريسية »

=

اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[١٢] .

علامة الختم

الله

رسول

محمد

وقد روى الطّبرانيّ ، أنّ دِحيـة الكلبيّ ، قال : بعثني رسول الله

أو « الاريسيين » .

اذا من المرجح المقول ، ان النبي صلى الله عليه وسلم ، انما عنى هذه الفرقة بقوله : « فأن توليت فأن عليك اثـم الاريسيين » فانها هي الفرقة القائمة بالتوحيد النسبي في العـالم المسيحي الذي تتزعمه الدولة البيزنطية ، التى كان على رأسها القيصر هرقل .

ومن المعجب ، أن بعض كبار علماء الاسلام في العصر الاول ، ذهبوا الى هذا الراى ، فقد جاء في : « مشكل الآثار للامام ابى جعفر الطحاوى، مؤلف : « شرح الآثار » المشهور ، (ت ٣٢١هـ) ، مانصه : « وقد ذكر بعض أهـل المعرفـة بهذه المعاني ، ان في رهط هرقـل ، فرقة تعرف بالاروسية ، توحد الله وتعترف بعبودية المسيح له عز وجل ، ولا تقـول شيئا ممـا يقول النصارى في ربوبيته ، وتؤمن بنبوته ، فأنها تتمسـك بدين المسيح مؤمنة بما في انجيله ، جاحدة لما يقوله النصارى سوى ذلك واذا كان ذلك كذلك ، جاز أن يقال لهذه الفرقـة : « الاريسيون » ، في الرفع و : الاريسين » و : الاريسيين » في النصب والجر ، كما ذهب اليه اصحاب الحديث » ، انظر : مشكل الآثار (٢/٣٩٩) .

وقريبا من ذلك قال محى الديـن النووى شـارح صحيح مسـلم (ت ٦٧٦هـ) ، فقال : « الثانى انهم اليهود أو النصارى ، وهم أتبـاع عبدالله بن اريس ، الذى تنسب اليه الاروسية من النصارى ، وله مقالة في كتب المقالات ، ويقال لهم : الاروسيون » ، انظر : شرح النووى على مسلم (٢/٣٩٩) .

انظر : السيرة النبوية ــ السيد أبو الحسن الندوى (٣٤٣ ــ ٣٤٩) ، ومجلة مجمع اللغة العربية ــ بحوث مؤتمر الدورة السادسة والاربعين (١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م) ــ الجزء الخامس والاربعون ــ كلمة الاريسيين ــ الدكتور احمد الحوفى (٦٩ ــ ٧٧) ــ القاهرة ــ جمادى الاخرة ١٤٠٠هـ .

(١٢) أ الآية الكريمة من سورة آلعمران (٣ : ٦٤) .

ب نص الكتاب في صحيح البخارى (١/٨) ــ التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ــ الحسين بن المبارك ــ القاهرة ــ ١٣٤٧هـ .

صلّى الله عليه وسلّم ، الى قيصر صاحب الرّوم بكتاب ، فقلت : استأذنوا لرسول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . وأتى قيصر ، فقيل له : إنّ على الباب رجلاً يزعم أنّه رسول رسول الله ، ففزعوا لذلك ، وقال : أدخله . فأدخلني عليه ، وعنده بطارقته ، فأعطيته الكتاب ، فاذا فيه : بسم الله الرحمن الرّحيم ، من : محمّد رسول الله . الى : قيصر صاحب الرّوم . فنخر ابن أخ له أحمر أزرق سَبْـطٌ[١٣] ، فقال : لاتقرأ الكتاب اليوم ، فانه بدأ بنفسه ، وكتب صاحب الرّوم ولم يكتب ملك الرّوم . قال : فقُرِىء الكتاب حتى فرغ منه ، ثمّ أمرهم فخرجوا من عنده . ثمّ بعث اليّ ، فدخلت عليه ، فسألني فأخبرته ، فبعث الى الأسقف فدخل عليه ، وكان صاحب أمرهم ، يُصدرون عن رأيه وعن قوله ، فلما قرأ الكتاب قال الأسقف : هو والله الذى بشّرنا به موسى وعيسى الذى كنّا ننتظر . قال قيصر : فما الذى تأمرني ؟ قال الأسقف : أما أنا فاني مصدّقه ومتّبعه . فقال قيصر : أعرف أنّه كذلك ، ولكن لا أستطيع أن أفعل ، ان فعلتُ ذهب ملكي وقتلني الروم »[١٤] .

وأراد هرقل استقصاء أخبار النبيّ صلى الله عليه وسلّم من العرب أبناء جلدته ، وقد روى الامام البخارى رحمه الله تفاصيل هذا الاستقصاء في صحيحه من حديث عبدالله بن عبّاس رضى الله عنه ، قال : « ان أبا سفيان أخبره أنّ هرقل أرسل اليه في رَكْبٍ من قريش كانوا تجّاراً بالشّام ، في المدّة التى كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش – أى صالحهم في صلح الحديبيّة – فأتوه وهم بإيْلِياء – القدس – فدعاهم وحوله عظماء الرّوم ، ثمّ دعاهم ودعا بالترجمان فقال : أيّكم أقرب نسباً بهذا الرّجل الذى يزعم أنّه نبيّ . قال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم . فقال : أدنوه منى ، وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظَهْرِه . ثمّ قال

---

(١٣) سبط : بفتح السين ، وسكون الباء وفتحها وكسرها ، والسبط من الرجال : الطويل .

(١٤) رواه الطبراني في الكبير ، انظر البداية والنهاية (٤/٢٦٧) .

لترجمانه : قل لهم انى سائل هذا عن هذا الرّجل ، فان كذّبنى فكذّبوه • فوالله لولا الحيـاء من أن يأثروا عنى كذبا لكذبت عليه • ثمّ كان أوّل ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب • قال : فهل قال هذا القول منكم أحـد قطّ قبلـه ؟ قلت : لا • قال : فهل كان من آبائه مِنْ مَلِكٍ ؟ قلت : لا • قال : فأشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : ضعفاؤهم • قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون • قال : فهل يرتدّ أحد منهم سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيـه ؟ قلت : لا • قال فهل تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا • قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدّة لا ندرى ما هو فاعل فيها ، ولم يمكنّى كلمةٌ أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة • قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم • قال : فكيف كان قتالكم اياه ؟ قلت :الحرب بيننا وبينه سِجَال ، ينال منّا وننال منه • قال : فماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولاتشركوا به شيئاً ، واتركوا ما كان يعبد آباؤكـم ، ويأمرنا بالصّلاة والصّدق والعفاف والصّلة • فقال للترجمان : قل له : انى سألتك عن نسبه ، فذكرت أنّه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرّسل تبعث في نسب قومها • وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحدٌ قال هذا القول قبلهُ لقلت : رجـل يتأسىّ بقول قيل قبلـه • وسألتك : هل كان من آبائه من ملكٍ ، فذكرت أن لا ، فقلت لو كان من آبائه من ملكٍ ، قلت رجلٌ يطلب ملك أبيه • وسألتك : هـل كنتم تتّهمونه بالكـذب قبل أن يقول ماقال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنّه لم يكن ليذر الكذب على النّاس ويكذب على الله • وسألتك : هل أشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهـم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتّبعوه وهـم أتباع الرّسل • وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنّهم يزيدون ، وكذلك أمر الايمان حتى يتمّ • وسألتك : أيرتدّ : احد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب • وسألتك : هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل

لاتغدر . وسألتك : بما يأمركم ، فذكرت أنّه يأمركم أن تعبدوا اللهَ وحده ولاتشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصّلاة والصّدق والعفاف ، فان كان ماتقول حقاً ، فسيملك موضع قدمىّ هاتين . وقد كنت أعلم أنّه خارج ، لـم أكن أظنّ أنّه منكم ، فلو أعلم أنى أَخْلُص اليـه لتجشّمتُ لقاءَه ولو كنت عنـده لغسلتُ عن قَدَميه . ثم دعـا بكتاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الذى بُعث به دحية الى عظيم بُصْرى فدفعه الى هرقل ، فقرأه ـ ونصّه كما ذكرناه في أعلاه ـ قال أبو سفيان فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب ، كثـر عنـده الصّخب وارتفعت الأصوات ، وأُخرجنا فقلت لأصحابي : انّه يخافه ملك بنى الأصفر ! فمازلتُ موقناً أنّه سيظهر ، حتى أدخل الله عليّ الاسلام »[15] .

ولم يكتفِ هرقل باستقصاء خبر النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم من أبناء قومه قريش ، بل كتب الى رجل برومة في ايطاليا كان يقرأ الكتب ، يخبره شأن الكتاب الذى حمله اليه رسول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فكتب اليه صاحبه الذى برومة : « انّه النبيّ الذى كنّا ننتظره لا شكّ فيه ، فاتّبِعْه وصدِّقْه » ، فجمع هرقل بطارقة الرّوم في الدَّسْكَرَة[16] وغُلّقت أبوابها، ثمّ اطّلع عليهم من عِلِيّة وخافهم على نفسه ، وقال لهم : « قد أتانى كتاب هذا الرّجل يدعوني الى دينه ، وانّه واللّه النبيّ الذى نجده في كتابنا ، فهلمّ فلنتبعه ونصدّقه ، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا » ، فنخروا نخرة رجل واحد ، ثمّ ابتدروا الأبواب ليخرجوا ، فقال : « ردّوهم عليّ » ، وخافهم على

---

(15) التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح (1/7 ـ 8) وفتح البارى بشرح البخارى (1/30 ـ 38) ، وانظر البداية والنهاية (4/264 ـ 265) .

(16) الدسكرة : بناء كالقصر ، حوله بيوت للاعاجم ، فيها الشراب والملاهي ، يكون للملوك (معربة) .

نفسه وقال لهم : « انّما قلت لكم ما قلت لأنظر كيف صلابتكم في دينكم .
وقد رأيت منكم ما سرّني » ، فسجدوا له ، وأمر بأبواب الدسكرة
ففتحت لهم ، فانطلقوا[17] .

(ج) والذى يستعرض ما جاء حول سفارة دحية ، يمكن أن يستنتج
أنّ دحية قصد أمير بُصْرى وهو من العرب ، فرافقه أمير بُصرى الى هرقل
ليكون باستقبال قيصر في رحلته الى بيت المقدس ، وليحمل اليه كتاب النبيّ
صلّى اللّه عليه وسلّم . ولم يكن بمقدور أمير بُصرى أن يحجب كتاب
النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم عن هرقل ولا بمقدوره أن يحجب دحية عن
هرقل ، لأنّ الكتاب النبوىّ موجّه الى هرقل لا اليه ، ولأنّ السفير النبوى
يريد هرقل لا أمير بصرى ، وكلّ دور أمير بُصرى هو ايصال الكتاب النبوىّ
والسفير النبوى الى مثابتهما ، فكان صلة العقد بين السفير النبوى وكتاب
النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بين هرقل .

ويبدو أنّ أمير بُصرى لم يستطع أن يحجب السفير النبوى والكتاب
الذى يحمله عن هرقل ، بالاضافة الى ما ذكرنا ، لمعرفة الأمير أنّ هرقل متديّن
جداً ، وهو يميل الى مثل ذلك السفير والى مثل كتابه الذى معه .

ومهما يكن من أمر ، فانّ الكتاب النبوي قد وصل الى هرقل ، وأنّ
الذى أوصل الكتاب الى هرقل هو دحية بعد أن سهّل له أمير بصرى هذا
التلقاء ، وأنّ هرقل تسلّم الكتاب وهو في حِمْص في طريقه الى بيت المقدس
حاجّاً وشاكرا ، فقد تأخّر ركب هرقل حتى وصل الى بيت المقدس لكثرة
مالاقاه من حفاوة وتكريم في كلّ مدينة اجتازها ، واستغرق ذلك عدّة أشهر ،
ومعنى ذلك أنّ دحية لاقى هرقل في سنة سبع الهجرية (٦٢٩م – ٦٣٠م) ،
فحمل هرقل كتاب النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم معه . ولما استقرّ به المقام

---

(١٧) الطبرى (٢/٦٤٩ – ٦٥٠) وابن الاثير (٢/٢١١) .

ي القدس وأكمل واجباته الدينية والادارية فيها ، ثمّ علم أنّ تجاراً من العرب
ًهل مكّة بلد النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم في بيت المقدس ، فدعاهم اليه
وناقشهم في أمر الكتاب النبويّ وفي أمر النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ،
ليزداد علماً وليطمئنّ قلبه ، فظنّ بعض الباحثين أنّ دحية قابل هرقل في بيت
المقدس ، بينما تاريخ زيارة هرقل للقدس هى في السنة الثامنة الهجرية ، ومن
الصعب ان يمضى دحية أكثر من سنة في سفارته ، كما أنّه ليس من المعقول
أن يبقى أكثر من سنة بعد أن أدىّ رسالته كما ينبغي ، اذ لا مسوّغ لهذا
الانتظـار .

وقد اجمعت المصادر الاجنبية المعتمدة على أنّ هرقل كان شديد التديّن
عظيم الايمان ، فليس من الغريب أن يستهويه الكتاب النبوىّ وما جاء فيه ـــ
بالرغم من ايجازه ـــ من رفق الدعّوة وحكمة النبّوة ، بل الغريب ألاّ يستهويه
وهو الذى يميل بطبعه الى التديّن ويبحث عن الحق .

وليس من المبالغ فيه ، ما جاء حول تجاوبه مع الكتاب النبوىّ تجاوباً
واضحاً ، وتصريحه لدحية بهذا التّجاوب ، ولكنّ تجاوبه لم يخرج أبداً الى
حيّز التنفيذ ، اذ كان ملكه ومصيره في حاضره ومستقبله أغلى عليه من الايمان،
فآثر الدنيا على الآخرة ، وما عند الناس على ما عند اللّه . وقد حاول أن
يجد طريقاً لاخطر فيه على ملكه وحاضره ومستقبله ، فوارب في ميله الى
الاسلام ، فقوبلت مواربته بالرفض الشّديد العنيف من حاشيته ورجاله وأهل
دولته وقساوسته ، فتخلى عن تلك المحاولة الى الأبـد ، ومضى مع التيـار
السّائد الذى كان قوياً عارما ، وآثر السّلامة على ما يمكن أن يحيق به من
أخطار .

ولم يكن سكوته عن الحق الاّ هدنة مؤقتة ، فبعد سنة من لقائه بدحية
اشتبكت قوات المسلمين بقوات الرّوم في مُؤتَة التى كانت في جمادى الأولى
من السنة الثامنة الهجريّة ، كما اشتبك الطرفان في غزوة تَبوك التي كانت

في رجب من السنة التاسعة الهجرية .

فلما التحق النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بالرّفيق الأعلى ، اشتبك المسلمون بالرّوم في معركة اليرموك بعد سنتين من التحاقه عليه الصّلاة والسّلام بالرّفيق الأعلى ، ثم توالت انتصارات المسلمين على الرّوم وساروا من نصر الى نصر ، حتى فتحوا أرض الشّام كلّها : سورية ولبنان والأردن وفلسطين ، فغادر هرقل أرض الشّام الى القسطنطينيّة ، فلما اجتاز حدودها سنة خمس عشرة الهجريّة أو سنة ست عشرة الهجرية[18] ، انسابت كلماته دموعاً وهو يودّع سوريّة وداعه الأخير : « عليك السّلام ياسوريّة سلاماً لا اجتماع بعده ، ولا يعود اليك روميّ الاّ خائفاً »[19] .

لقد كان بين تسلّم هرقل الكتاب النبويّ ، وبين اندحار الرّوم في أرض الشّام وفتح المسلمين لها ثماني سنين حسب ، وما أقلّها في عمر الزمن ، وهكذا جاء الحق وزهق الباطل ، انّ الباطل كان زهوقا .

(د) وكان نصّ جواب قيصر الرّوم هرقل الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم :

« الى : أحمد رسول اللّه الذى بشّر به عيسى .

من : قيصر ملك الرّوم .

انّه جاءنى كتابك مع رسولك ، وانى أشهد أنّك رسول اللّه ، نجدك عندنا في الانجيل ، بشّرنا بك عيسى بن مريم ، وانى دعوت الرّوم الى أن يؤمنوا بك ، فأبوا . ولو أطاعونى لكان خيراً لهم ، ولوددت أنى عندك أخدمك وأغسل قدميك »

(توقيع هرقل)

---

(١٨) الطبرى (٦٠٢/٣) وابن الأثير (٤٩٤/٢) .
(١٩) الطبرى (٦٠٣/٣) وابن الأثير (٤٩٤/٢) .

وأكثر المصادر العربية الاسلاميّة لا تذكر رسالة هرقل الجوابية الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بهذا النصّ المذكور هنا ، ولكنّها تجمع على أنّ فحوى جواب هرقل الى النبيّ صلّى اللّه عليم وسلّم الذى حمله دحية في عودته من أرض الشّام الى المدينــة المنوّرة يطابق نصّ هــذه الرسالة الجوابيــة •

والذى أرجّحه ، أنّ رسالة هرقل الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم كانت رسالة شفهية ، حمّلها دحية الكلبيّ في طريق عودته من أرض الشّام الى المدينة المنوّرة ، وكانت صورة لما استقرّ عليه هرقل من ايمان بالاسلام سرّاً لا علنا ، وكان خوفه العظيم من رجال الدّين المسيحىّ والرّوم يحول بينه وبين الجّهر بايمانه ، وكان رجال الدّين المسيحى الرّوم بدرجة من القوّة والتأثير في الرّوم ما تعدّ قوة هرقل بجانب قوّتهم شيئاً ضئيلا ، لذلك لم يرد أن يكتب جواباً خطيّاً الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم يعلن فيــه ما استقرّ في قلبه من أثر ايجابي للكتاب النبوىّ خوفاً من احتمال انكشاف نص جوابــه الى رجال الدّين الرّوم بخاصــة والرّوم كافة ، فتقع عليه الطامّة الكبرى ، فيُقتل ويخسر ملكه ، وهذا ما لا يستطيع قبوله وتقبّله وتحمّل نتائجه القاسية ، لذلك كانت رسالته شفهية الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، لأنّ السّفير النبوىّ لا يمكن أن يبوح بها لرجال الدّين الرّوم وللروّم من غير رجال الدين مهما تكن الظروف والأحوال ، وتبقى سرّاً مصوناً لا شك فيه ، ويكون وصولها الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم مضمونا •

وبلّغ دحية جواب هرقل الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بعد عودته من سفارته الى قيصر الرّوم ، وعلى طريقه المحدّثين في التوثيق ، نقلوا رسالة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى هرقل عن الثقات من رواة الحديث النبوىّ الشريف،فلما فتح المسلمون أرض الشّام على عهد عمر بن الخطّاب رضى الله عنه ، نقلوا أخبارها عن رجال الدّين المسيحىّ الذين عاصروا هرقل وأحاطوا

علماً بأخبار الكتاب النبويّ اليه وردّ الفعل الذى يدر منه بعد تسلم ذلك الكتاب .

ومن الطبيعي أن تكون هناك بعض الاختلافات في الروايات المنقولة ، ولكن ذلك الاختلاف لا يغيّر من الواقع شيئا ، لأنّه اختلاف في المباني وليس اختلافا في المعاني ، واختلاف في المحتوى وليس اختلافا في الفحوى .

٢ ـ الى ضغاطر

أسقف الروم الأعظم

حين قدم دحية بكتاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على هِرَقل ، قال له : « إني لأعلم أنّ صاحبك نبيّ مرسل ، وأنّه هو الذى كنّا ننتظره ونجده في كتابنا ، ولكنى أخاف الرّوم على نفسى ، ولولا ذلك لاتبعته ، فاذهب إلى ضغاطر (صغاطر)[٢٠] الأسقف الأعظم في الرّوم ، واذكر له أمر صاحبك ، وانظر مايقول لك ، فهو أعظم والله وأجوز قولاً عندهم منى .

وجاءه دحية وأخبره بما جاء به من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى هرقل ، وبما يدعوه إليه ، فقال له ضغاطر : « صاحبك والله نبىّ مُرْسل ، نعرفه بصفته ، ونجده في كتبنا باسمه » ، ثمّ دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداً ، ولبس ثياباً بيضاً ، ثمّ أخذ عصاه ، فخرج على الرّوم وهم في الكنيسة ، فقال : « يامعشر الرّوم ! إنّه قد جاءنا كتاب من أحمد ، يدعونا فيه إلى الله عزّ وجلّ ، وإنى أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ أحمد عبده ورسوله »[٢١] .

---

(٢٠) ورد كذلك في الطبرى (٢/ ٦٥٠) ، أما في طبقات ابن سعد (١/ ٢٧٦) وابن الاثير (٢/ ٢١١) ، فورد : ضغاطر .

(٢١) الطبرى (٢/ ٦٥٠) وابن الاثير (٢/ ٢١١) .

وهذا هو نصّ الكتاب النبويّ الذى حمله دحية من النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم إلى ضغاطر ، يدعوه فيه إلى الاسلام .

« بسم الله الرحمن الرحيم

إلى : ضغاطر الأسقف .

سلام على مَنْ آمن .

أما بعد على أثر ذلك ، فانّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم الزّكيّة ، وإنى أؤمن بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أُوتِيَ موسى وعيسى ، وما أُوتى النبيّون من ربّهم ، لانفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مُسلمون . والسّلام على مَنْ اتّبع الهدى »[٢٢] .

علامة الختم : الله

رسول

محمد

ولم يكد رجال الدّين المسيحىّ يجدون أنّ ضغاطر الأسقف الأعظم في الرّوم قد أسلم ، الا وثبوا عليه وثبة رجل واحد ، فضربوه حتى قتلوه . فلما رجع دحية الى هرقل وأخبره الخبر ، قال : « قد قلت لك انا نخافهم على أنفسنا ، فضغاطر والله كان أعظم عندهم وأجوز قولاً منى »[٢٣] .

ولم يكن ضغاطر حينذاك أسقف الرّوم الأعظم ، بل كان سرجيوس الأول (٦١٠م ــ ٦٣٨م)[٢٤] ، وقد تُوفى سنة (٦٣٨م) على فراشه ولم يُقْتَل،

---

(٢٢) طبقات ابن سعد (٢٧٦/١) .

(٢٣) الطبرى (٦٥٠/٢ ــ ٦٥١) وابن الاثير (٢١١/٢) .

(٢٤) رستم ــ أسد رستم ــ الروم ــ (٣٠١/٢) ــ ط ١ ــ بيروت ــ ١٩٥٦م .

ويحتمل أن يكون ضغاطر أكبر أساقفة الروم الذين كانوا برفقة هرقل في مسيرته من القسطنطينية الى بيت المقدس للشكر والحج ، بمناسبة انتصاره الحاسم على الفرس واسترجاعه الصليب المقدس من الفرس ، والمصادر العربية الاسلامية وحدها تنص على كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى ضغاطر ، وتنص على اسلامه واستشهاده ، ومهما يكن من أمر ، فان الكتب النبوية الى ملوك العالم في حينه هي الموثقة بالدرجة الأولى ، أما الكتب الى غيرهم فليست مهمة كالكتب الى الملوك ولم توثق توثيقاً لايتطرق اليه الشك ، وللباحث أن يفكر بها ويحقق في أمرها كما يشاء ويرضى •

لقد نهض دحية بأعباء سفارته على أحسن وجه ، فبلغ رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل والى الأسقف الذى كان برفقته •

واذا أحجم هرقل والروم يوم ذاك عن الاستجابة للدعوة الاسلامية بصورة فردية أو جماعية ، الا أن أثر الدعوة في نفوسهم كان عظيما •

الى كسرى

ملك الفرس

١ ـ كِسْرَى وكَسْرَى ، اسم ملك الفُرس مُعَرَّب ، وهو بالفارسيَّة : خُسْرَو ، أي واسع المُلْك ، فعربته العرب ، فقالت : كِسْرَى وكَسْرَى[٢٥] ، ويطلق على ملوك فارس الساسانيين[٢٦] ، وقد ولد النبي صلى الله عليه وسلم على عهد كسرى الأول أنوشروان (٥٣١م ـ ٥٧٩م)[٢٧] ،

---

(٢٥) لسان العرب (٦/٤٥٧) وترتيب القاموس المحيط (٤/٤٤) .
(٢٦) الموسوعة العربية الميسرة (١٤٦٣) .
(٢٧) الروم (٢/٣١٢) وانظر تفاصيل حياته في : ايران في عهد الساسانيين (٣٤٨ ـ ٤٢٤) .

اذ كان مولده عليه الصلاة والسلام يوم ٢٠ نيسان (أبريل) من سنة (٥٧١م)[٢٨] .

وتولى الملك بعد أنوشروان ابنه هرمز الرابع (٥٧٩م ــ ٥٩٠م) ، فلما توفي هرمز خلفه ابنه كسرى الثانى أَبَرْوِيزْ (٥٩٠م ــ ٦٢٨) وهو الذى وجه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اليه كتابه[٢٨أ] النبويّ الذى سيرد ذكره وشيكا .

ولعلّ من المفيد أن نعرف شيئاً عن كسرى الثانى أَبَرْوِيزْ (برويز بالفارسية) ، وأبرزويز لقبه لا اسمه ، ومعناه : المظفّر .

تولى كسرى الثانى العرش بعد مقتل أبيه في أعقاب ثورة عارمة عليه ، ولكن القائد بهرام جوبين لم يكن مستعداً لمبايعة الملك الجديد ، لأنه نفسه كان يطمع بالعرش . وولى كسرى فراراً أمام قوّات بهرام المتفوّقة ، فدخل بهرام مظفّراً الى المدائن عاصمة كسرى ، ووضع التّاج على مفرقه رغم معارضة فريق من عظماء الفرس له ، ثمّ سكّ النقود باسمه ، بينما كان كسرى يعبر الحدود البيزنطيّة ، ويحتمي بالامبراطور موريس (موريقيوس = موريق) الذى حكم الرّوم (٥٨٢م ــ ٦٠٢م) .

وقد عمل الامبراطور موريس على مناصرة كسرى ، وأمدّه بالعون الحربيّ ، على أن ينزل له كسرى عن مدينتي : دَارَا[٢٩] ومَيَّافارِقِيْن[٣٠] ، وكان الرّوم قد استولوا عليهما في الحرب . وقد أدّى هذا التحوّل في مجرى الحوادث الى الأثر المطلوب ، فان كثيراً من العظماء الذين كانوا يؤيّدون بهرام حتى ذلك الوقت قد انفضّوا من حوله . وبعد معارك بين قوّات

---

(٢٨) ومضات من نور المصطفى (١٥) ــ ط ــ القاهرة ــ ١٣٩٩هـ .
(٢٨أ) ابن الاثير (٤٨١/١) .
(٢٩) دارا : بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٤) .

كسرى المؤلفة من الايرانيين والروم والأرمن وبين قوات بهرام ، هزم بهرام قرب مدينة جنزل في أذربيجان ولجأ بهرام الى بلاد الترك حيث قتل بعد قليل .

ولم يكن رجال الدين الفرس سعداء بعودة كسرى الى العرش ، فقد تأثر أثناء اقامته في بلاد الروم بالمسيحية ومال الى الاديان بجميع أنواع الاوهام والخرافات المسيحية ، وقد لبث على هذه الميول تصرفه اليها امرأة نصرانية اختصها بحبه هي شيرين ، كما لم يكن الخطر الذي يهدد عرشه من عظماء الفرس بعيدا .

وبعد سنوات اتخذ كسرى من مقتل الامبراطور موريس امبراطور الروم الذي أعانه في استعادة عرشه ، على يد فوكاس (فوقاس) الذي حكم الروم من سنة (٦٠٢م الى سنة ٦١٠م) ذريعة لبدء حرب جديدة مع بيزنطة . وقد طرد هرقل فوكاس سنة (٦١٠م) وقتله ، ولكن الحرب استمرت ، وغزا قواد الفرس جيات في آسيا الصغرى والرهاء[٣١] وأنطاكية[٣٢] ودمشق ، ثم بيت المقدس حيث انتزعوا الصليب وبعثوا به الى المدائن ، ثم استولوا على الاسكندرية وأجزاء أخرى من مصر . وفي ذلك الوقت ، حوالى سنة (٦١٥م) ، بلغت قوة كسرى أوجها .

وقد أوقف هرقل (٦١٠م – ٦٤١م) آخر الأمر الزحف المظفر للقوات الفارسية ، ثم استعاد ما خسره الروم من أصقاع ، واستعد لحصار المدائن ،

---

(٣٠) ميافارقين : مدينة بديار بكر في الجزيرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢١٤ – ٢١٨) .

(٣١) الرهاء : مدينة بالجزيرة ، بين الموصل والشام ، وانظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٥) .

(٣٢) انطاكية : مدينة مشهورة تعتبر قصبة العواصم في الثغور الشامية ، وهي من اعيان البلاد وامامتها ، وفيها سور له ثلاثة وستون برجا من ابراج المراقبة ، وبين انطاكية والبحر نحو فرسخين ، ولها مرسى على البحر في بليد يقال له : السويدية ، ترسى فيه المراكب ، فترفع الامتعة الى انطاكية على الدواب . انظر بحث : بلاد الروم .

فغادر كسرى العاصمة ليأمن على نفسه ، ولكنه لقى حتفه بعد قليل .

هذا هو اجمال ما جرى من حوادث أيام كسـرى الثانى الذى سمّى نفسه : « الرّجل الخالد بين الآلهة ، والاله العظيم جداً بين الرّجال ، صاحب الصّيت الذائع ، الذى يصحو مـع الشّمس ، والذى يهب عينيه للنيل » . وأحيط كسرى بجلال لم يبلغه ملك قبله ، وقد ذكره الطبرى فقال : « كان من أشدّ ملوكهم بطشاً وأنفذهم رأياً وأبعدهم غورا ، وبلغ فيما ذُكر من البأس والنّجدة والنّصر والظّفر وجمع الأموال والكنوز ومساعدة القَدر ومساعفة الدّهر اياه مالم يتهيأ لملكٍ أكثر منه ، ولذلك سُمّي : أَبَرْوِيْز ، وتفسيره بالعربيّة المظّفر »[٣٣] . « وكان كسرى قد طغى ، لكثرة ماقد جمع من الأموال وأنواع الجواهر والأمتعة والكُراع وافتتح من بلاد العدو ، وساعده من الأمور ، ورُزِق من مؤاتاته وبَطِرَ ، وشره شرها فاسداً ، وحسد الناس على مافى أيديهم من الأموال ... »[٣٤] .

وبعد حكم دام سبعاً وثلاثين سنة لقى كسرى الثانى المصير الذى أعدّه لأبيه من قبل ، فانه بعد اندحاره أمام هرقل وهروبه من المدائن ، ثار قوّاده عليه وكانوا ساخطين على اصرار كسرى على مواصلة الحرب التى لا أمل فيها ، وأخيراً قتله ابنه شيرويه وتولّى الملك مكانه[٣٥] ، وكان مقتل كسرى الثانى سنة (٦٢٨م) أى في السنة السّابعة الهجرية .

٢ ـ أرسل النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم الرّسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام وكتب اليهم كتباً ، فقيل : يارسول الله ! إنّ الملوك لايقرأون كتاباً الا مختوما » فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسـلم يومئذ خاتماً من فضة ،

---

(٣٣) الطبرى (٢/١٧٦) .
(٣٤) الطبرى (٢/٢١٥) .
(٣٥) انظر : ايران في عهد الساسانيين (٤٢٧ ـ ٤٧٧) ، والطبرى (٢/٢١٥ ـ ٢٢٩) وتاريخ سنى ملوك الارض والانبياء (٥٣ ـ ٥٤) .





كسرى انوشروان

ـ رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى كسرى أنو شروان حملها اليه الصحابي عبدالله بن حذافة السهمي .

فصه منه ، نقشه ثلاثة أسطر : محمد سطر في الأسفل ، ورسول سطر في الوسط ، والله سطر في الأعلى ، وختم به الكتب ، وكان الخاتم بهذا الشكل :

الله
رسول
محمد

وكان سفير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى كسرى ، هو عبدالله بن حذافة القرشيّ السهمي ، فخرج في شهر المحرّم من السنة السابعة الهجريّة الى كسرى يدعوه الى الاسلام ، ومعه كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٣٦] الى كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس الذي حكم سبعاً وثلاثين سنة كما ذكرنا قبل سطور ، أو ثمانياً وثلاثين سنة ولمضيّ اثنتين وثلاثين سنة من ملكه وخمسة أشهر وخمسة عشر يوماً هاجر النبيّ صلّى الله عليه وسلم من مكّة الى المدينة[٣٧] ؛ وفي أيّامه بُعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالرسالة[٣٨] .

وكان نصّ كتاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى كسرى أبرويز :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمّد رسول الله .

الى : كسرى عظيم فارس .

سلام على مَنْ اتّبع الهُدى وآمَن بالله ورسوله ؛ وشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأني رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر مَنْ كان حيّاً ، فان أبيتَ فعليك إثم المجوس »[٣٩] .

علامة الختم : الله

رسول

محمد

---

(٣٦) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨ ـ ٢٥٩) . (٣٧) الطبري (٢/٢١٨) .

(٣٨) البدء والتاريخ (٣/١٧٠) . (٣٩) الطبري (٢/٦٥٤) .

وفي رواية أخرى ، أنّ نص الكتاب النبويّ كان :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمد رسول الله

إلى : كسرى عظيم فارس .

سلام على مَن اتّبع الهُدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لاإلــه إلاّ الله وحده لاشريك لــه ، وأنّ محمّداً عبده ورسوله .

وأدعوك بدُعاء الله ، فانى أنا رسول الله إلى الناس كافــة ، لأُنــذر مَن كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين .

فأسْلِمْ تَسْلَم ، فان أبيتَ ، فان إثم المجوس عليك »[٤٠] .

علامة الختم : الله
رسول
محمد

ومعنى الكتابين في الرواية الأولى والثانية واحد ، لااختلاف فيه ، ولكنّ الروايــة الثانية هى المعتمدة ، لاجماع أكثر المصادر المعتَمدة عليهـا[٤١] ،

---

(٤٠) الطبرى (٢/٦٥٤ ــ ٦٥٥) وابــن الاثـير (٢/٢١٣) وصبــح الاعشــى (٦/٢٩٦) والقسطلانى (١/٢٩١) ، وانظر تفاصيل المصادر والمراجــع في : مجموعة الوثائق السياسية (٧٦ ــ ٧٧) .

(٤١) وجاء في تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (١/١٣٢) : أبو معشر عن بعض المشيخة : « كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن حذافة الى كسرى : من محمد رسول الله . الى كسرى عظيم فارس : اســلم تسلم . من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا ، فله ذمة اللــه وذمة رسوله » . وجاء في مجموعة الوثائق السياسية : « والظاهر انه سهو من الراوى وادغام بين كتابين : كتاب كسرى المذكور في اعــلاه ، وكتاب المنذر بن ساوى حسب رواية القلقشندي » .

ولوضوح الكتاب النبوى وشموله وبلاغته ، على الرّغم من أن الكتاب النبوي الأول يشاطر الكتاب النبوي الثاني بوضوحه وشموله وبلاغته .

قال عبدالله بن حُذَافة : « فدفعتُ اليه كتاب رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقرئ عليه ، ثمّ أخذه فمزّقه . فلما بلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : اللّهمّ مَزّق ملكه » .

وكتب كسرى الى باذان[٤٢] عامله على اليمن : « أنْ ابعث من عندك رجلين جَلْدَين الى هذا الرّجل الذى بالحجاز ، فليأتيانى بخبره » ، فبعث باذانُ قَهْرَمانه[٤٣] ورجلاً آخر معه ، وكتب معهما كتاباً ، فقدما المدينة المنوّرة . ودفعا كتاب باذان الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، فتبسّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ودعاهما الى الاسلام ، وفرائصهما تُرعد وقال : « ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغدَ ، فأُخبركما بما أُريد » .

وجاءاه من الغد ، فقال لهما : « أبلغا صاحبكما أنّ ربّي قد قتل ربّه كسرى في هذه اللّيلة لسبع ساعات منها ، وهى ليلة الثلاثاء لعشر ليالٍ مضينَ من جمادى الأولى سنة سبع ، وأنّ اللّه تبارك وتعالى سلّط عليه ابنه شِيرَوَيْه فقتله » ، فرجعا الى باذان بذلك ، فأسلم هو والأبناء الذين باليمن[٤٤] .

وفي رواية أخرى ، أنّ كسرى مزّق كتاب النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم واستخفّ به ، وكتب الى باذان : « أنّ عبداً من عبيدى قد كتب يدعونى الى

---

(٤٢) باذان الفارسى : من الابناء ، وهم من أولاد الفرس الذين سيرهم كسرى انوشروان مع سيف ذي يزن الى اليمن لقتال الحبشة ، فأقاموا باليمن ، وكان باذان بصنعاء ، فأسلم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان له اثر كبير في قتل المرتد الاسود العنسى ، انظر أسد الغابة (١/١٦٣) والاصابة (١/١٧٦) .
(٤٣) القهرمان : أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه (فارسي معرب) .
(٤٤) طبقات ابن سعد (١/٢٦٠) .

دينه ، فابعث اليه رجلين جَلْدَين يأتياني به مربوطاً ، وإنْ أبا عليهما فليضربا عنقه » ، فلما بلغ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم تمزيقه كتابه قال : « مزّق كتابي ، مزّق الله ملكه »(٤٥) .

وفي رواية ثالثة أنّ كسرى لما قرأ كتاب النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « بدأ بنفسه قبلي ، وقدّ كتابه شتوراً(٤٦) ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « مزّق اللّه ملك فارس كلّ ممزّق » ، فما أفلحوا بعد دعوته(٤٧) .

وفي رواية رابعة ، أن كسرى لما قرأ الكتاب النبويّ ، قال : « بدأ بنفسه قبلي ! » ، وكان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، قد أمر عبداللّه بن حُذافة أن يدفع كتابه الى كسرى الى عظيم البَحْرَين(٤٨) ، فدفعه عظيم البحرين الى كسرى ، فلما قرأه خرّقه ، فدعا عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يُمَزّقوا شرّ مُمَزّق(٤٩) .

وذكروا أنّ كسرى كتب الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم جواباً على الكتاب النبويّ الذي تسلّمه من عبداللّه بن حذافة ، جعله بين سَرْقتي حرير ، جعل فيهما مِسْكاً . ولما دفع رسول كسرى جوابه الى

---

(٤٥) البدء والتاريخ (١٧٠/٣) .
(٤٦) شتره ـ شترا : قطعه . ويقال : شتر ثوبه : مزقه .
(٤٧) المحبر (٧٧) .
(٤٨) البحرين : هكذا يتلفظ بها في حال الرفع والنصب والجر ، ولم يسمع على لفظ المرفوع من احد منهم ، الا أن الزمخشري قد حكى بأنه بلفظ التثنية ، فيقولون : هذه البحران ، وانتهينا الى البحرين ، ولم ير هذا الراى غير الزمخشري . وهو اسم جامع لبلاد على الخليج العربي ، وهجر قصبة البحرين ، وفيها عيون ومياه وبلاد واسعة ، انظر معجم البلدان (٧٢/٢ ـ ٦) .
(٤٩) طبقات ابن سعد (١٨٩/٤) ، وانظر ماجاء في سفارة عبدالله بن حذافة في الطبرى (٦٥٤/٢ ـ ٦٥٥) وابن الاثير (٢١٣/٢ ـ ٢١٥) وانساب الاشراف (٥٣١/١) وتاريخ خليفة بن خياط (٦٣/١) .

النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم فتحه وأخذ قبضة من المسك وشمّه وناوله أصحابه وقال : « لا حاجة لنا في هذا الحرير ، ليس من لباسنا » ، وقال لرسول كسرى : « لتدخلنّ في أمري أو لآتينك بنفسي ومن معي ، وأمر اللّه أسرع من ذلك ، فأما كتابك فأنا أعلم به منك : فيه كذا وكذا » ، ولم يفتحه ولم يقرأه ، ورجع الرّسول الى كسرى وأخبره[٥٠] .

ومن الواضح ، أنّ كسرى لم يكتب جواباً على كتاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولم يرسل اليه رسولاً خاصاً ، بل كتب الى عامله باليمن باذان . وقضى كسرى نحبه ، وأسلم باذان ومَنْ معه من الأبناء ، وقد حملت كسرى عنجهيته على تمزيق كتاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولو كان أبعد نظراً وأرجح عقلا ، لما مزّق كتاب النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولتريّث حتى يستبين له أمر النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم وحتى يتوثّق من دعوته . أما أن يخضع لعاطفته ولا يخضع لعقله ، فأدى الى تهوّره الذى لا مسوّغ له ، وكان الخاسر الوحيد في هذا المجال .

لقد بلّغ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم الرّسالة ، وأدّى الأمانة ، وكان نجاح عبداللّه بن حذافة نجاحاً معنوياً ، دون أن يقصّر في أداء واجبه ، فما كان غيره قادراً على أن يعمل عملاً أفضل مما عمله أو ينجز انجازاً أقوم مما أنجزه ، فقد كان كسرى لا يعتبر نفسه ملكاً حسب ، بل ملك الملوك ، وأسمى من البشر ونداً للآلهة التي كان يعبدها ، وكان الغرور قد أعمى بصره وبصيرته ، فلا يرى الا نفسه ، فليس الى هدايته من سبيل ، لذلك أصرّ على كفره ، وعزم على معاقبة النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأخفق في ايمانه كما أخفق في عقابه ، ثمّ قضى نحبه بيد ابنه لابيد غريب عليه أو عدوّ له من أعدائه

---

(٥٠) اليعقوبى (احمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الاخبارى) ـ تاريخ اليعقوبى (٢/٦١) ـ مطبعة الغرى بالنجف ـ ١٣٥٨هـ .

وانظر : مجموعة الوثائق .

الكثيرين ، ولم يأسف أحد على رحيله من أبناء شعبه ولا من أبناء الشّعوب الأخرى .

واذا كان كتاب النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم قد أثر في كسرى تأثيراً معنويا حسب ، فقد أثّر في باذان الفارسي وغيره في اليمن من الأبناء تأثيرا معنوياً ومادياً ، فأسلم وأسلم مَنْ معه من الأَبْناء ، وبقوا مسلمين في أيام رِدَّة مَن ارتدّ من أهل اليمن ، وقاتلوا المرتدين قتالاً شديداً ، وكان لباذان أثر كبير في مقتل الأسود العنسيّ الذى تولى كِبر رِدَّة مَن ارتدّ من أهل اليمن ، فأفلح باذان ومَن معه ، حيث أخفق كسرى ومَن معه من المجوس .

الى المقوقس

عظيم مصر

١ ــ المقوقس :

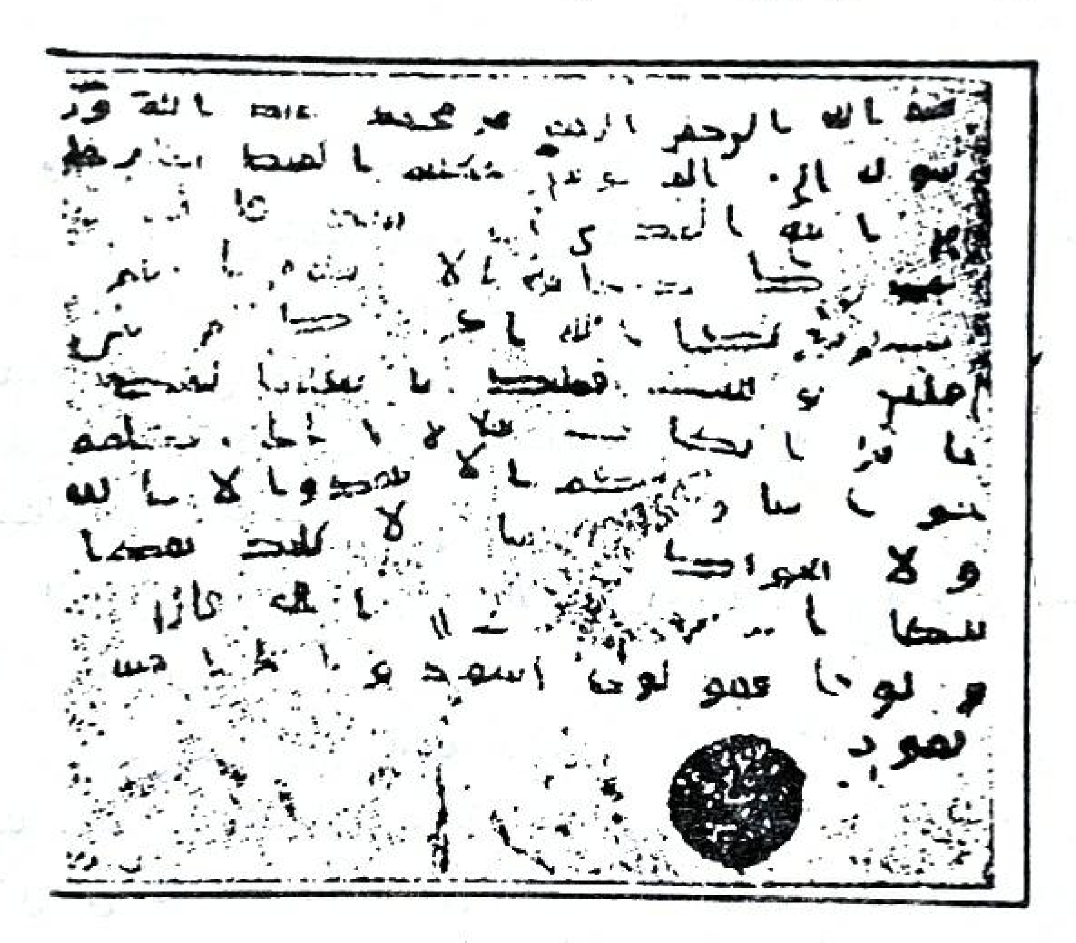
كان الكتاب النبوىّ الذى حمله حاطِب بن أبى بَلْتَعَة اللَّخْمِى إلى المُقَوْقَس (بفتح القاف الثانية وكسرها) ، فمن هو المقوقس ؟

ليس في كلّ تاريخ مصر شخص جمع بين الشّهرة والخفاء ، مثل الرجل الذى يُطْلَق عليه الاسم العربىّ : المقوقس . ولاخلاف بأنّ هذا الرّجل بالاضافة إلى تسلّمه الكتاب النبوىّ كان أعظم الرّوم أثراً في أزمة الفتح الاسلامىّ لمصر ، وأنّه كان العامل على تسليم مصر للمسلمين الفاتحين .

أما حقيقة المقوقس إنساناً ، واسمه ، وجنسه ، وعمله الذى كان يعمله في الدّولة ، وبلاؤه الذى أبلاه ، ومعنى لقبه نفسه الذى اشتهر به وعُرف به ، كلّ تلك الأمور مختلف فيها اختلافا كبيراً .

وكما كان الاختلاف في حقيقة المقوقس كبيراً في المصادر العربية القديمة ، فقد كان الاختلاف كبيراً في حقيقته في المصادر غير العربية القديمة أيضاً .

رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط حملها اليه الصحابي حاطب ابن ابى بلتعة اللخمى



نص الرسالة كما جاءت في المخطوط حسب الاسطر

«بسم الله الرحمن الرحيم (من) محمد عبدالله (ور) »
« سوله (الى المقوقس) عظيم القبط (سلام) على »
« من اتبع الهدى (اما) بعد (فانى اد) »
« عوك بدعاية (الا) سلام اسلم »
« (تسلم) يوتك الله اجرك (مرتين) »

أما المؤلفون المحدثون من الأجانب بخاصة والعرب والمسلمين بعامة ، فقد ضاعفوا الاختلاف القديم في حقيقة المقوقس ، فلا يكاد يتّفق مؤلفان محدثان على حقيقة المقوقس في شيء إلاّ نادرا ، وما يثبته أحدهم يرفضه الآخر ، كأنّهم قد اتفّقوا على ألاّ يتّفقوا ، واتّفقوا على أن يُلقوا بالمقوقس إنساناً في مهامه التيه الى الابد .

ولستُ أطمح في وضع صورة متكاملة لشخصيّة المقوقس لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فذلك ليس بمقدوري ولابمقدور أحد ؛ لأنّ مواد تكوين تلك الصورة غير متيسّرة في المصادر القديمة ولا في المراجع الحديثة ، ولكنّني أحاول أن أبرز صورته التي تتيح للدارسين التعرّف على الخطوط العامة لشخصيته ، معتمداً على مااتّفقت عليه المصادر والمراجع مااستطعت إلى ذلك سبيلا .

المقوقس ، هو قيرس البطريق الامبراطوريّ وحاكم مصر من قِبَل هِرَقل ملك الرّوم .

والمقوس لقب قيرس ، أطلقه عليه الأقباط ، لأنّ موطنه الأصلي من مدينة فاسيس ببلاد القوقاز ، فكان يُسمّى قفقاسيوس باللّغة اليونانية ، فنُقِل إلى اللّغة العبريّة إما على صورة : قفقاسيوس ، وإما على صورة قلخيوس ، ونشأ عن هذه الصورة القليلة التّحريف الاسم العربيّ : المقوقس .

وكان هرقل معنياً بتوحيد المذاهب المسيحيّة وجعلها مذهباً مسيحياً واحداً هو مذهب الدولة ، فزار إرْمِينِيَة سنة ٦٢٣م (٢هـ) ووحّد كنيسة الدولة وكنيسة إرمينية ، وبعد أربع سنوات زار القوقاز ، ودعاقيرس مطران فاسيس إلى مذهبه الجديد ، فوجد منه تجاوباً وقبولا ، فولاّه هرقل بطرقة الدّين في الاسكندرية ، وأمره أن يجمع المذهبين القبطيّ والملكانيّ في

---

(٥١) لامجال لشرح تلك المذاهب المسيحية هنا ، خوفا من الدخول في تفصيلات لامسوغ لها . وهي مشروحة في كثير من المصادر .

المذهب الموفق[٥١] الذى ابتدعته حكمة المجلس الامبراطورى ، فسعى قيرس سعياً حثيثاً لتحقيق مهمته ، ووصف نجاحه في تحقيقها وصفاً بليغا ، ولكنه في الواقع لم ينجح أبداً ، لأن القبط تمسكوا بمذهبهم ، وخالفه زعيم المذهب الملكانى وشيعته ، وخالفه القبط قسوسهم وعامتهم ، ولم يكن قيرس صاحب كياسة وأناة في سعيه لتحقيق توحيد المذاهب المسيحية في مصر وجعلها مذهباً واحداً هو مذهب هرقل ، ولاذ البطريق بنيامين بطريق القبط بدير في صحراء قوص[٥٢] بالصعيد[٥٣] المصرى ، فأخفق قيرس في توحيد المذاهب المسيحية بمصر .

وقصد المقوقس سفير النبي صلى الله عليه وسلم في الاسكندرية ، فاكرمه المقوقس ، وبعث معه هدية عظيمة الى النبي صلى الله عليه وسلم[٥٤] ، وسترد تفاصيل هذه السفارة النبوية قريبا .

ولما علم المقوقس بتوجه المسلمين الى مصر لفتحها ، أنذر أهل مصر باتجاه المسلمين لفتح بلادهم ، وكان قبل ذلك قد أعد شيئاً من وسائل الدفاع ، فحفر خندقاً حول حصن بابليون بقرب منفيس ، وزاد في تحصين الحصون الأخرى ، ورمم أسوار كثير من المدائن التى كان غزوة الفرس لها هدمت منها كثيرا .

ولما وصل عمرو بن العاص على رأس جيش المسلمين الى منطقة قريبة من

---

(٥٢) قوص : مدينة كبيرة عظيمة واسعة ، قصبة صعيد مصر ، وهى مدينة شديدة الحر ، بينها وبين قفط فرسخ واحد ، تقع شرقى النيل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٨٣/٧) .

(٥٣) الصعيد : بمصر بلاد واسعة كبيرة فيها عدة من مدن عظام منها : اسوان وهى اوله من ناحية الجنوب ، ثم قوص وقفط واخميم والبهنسا وغير ذلك ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٠/٥ ــ ٣٦١) .

(٥٤) انظر ــ فتح العرب لمصر ــ عربه محمد فريد ابو حديد ــ القاهرة ــ ١٣٥١هـ ــ ص (١٢٥ ــ ١٢٦) .

حصن بابليون ، أسرع قيرس الى حصن بابليون ، وجمع فيه جنداً لحرب المسلمين ، وأعاد حفر خندق الحصن واتّخذ قنطرة متحرّكة .

وقد كان قيرس في حصن بابليون عند ابتداء حصار المسلمين لهذا الحصن ، ولكنّه غادره الى جزيرة الروضة حين اشتدّ الحصار ، وجزيرة الروضة في القاهرة اليوم .

وبعث المقوقس (قيرس) الى عمرو بن العاص : « أن ابعثوا الينا رسلاً منكم ، نعاملهم ونتداعى نحن وهم الى ماعساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم » ، وحمل رسالة المقوقس الى عمرو جماعة كان منهم أسقف بابليون . فلقيهم عمرو وأكرمهم فأدّوا رسالتهم اليه وقالوا : « انكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا ، وانما أنتم عصبة يسيرة قد أظلتكم الرّوم وجهّزوا اليكم ومعهم من العدّة والسّلاح ، وقد أحاط بكم هذا النّيل ، وانما أنتم أُسارى في أيدينا ، فابعثوا الينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم ، فلعلّه أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ماتحبّون ونحبّ ، وينقطع عنّا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الرّوم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلّكم أن تندموا ان كان الأمر مخالفاً لطلبتكم » ، فلم يبعث عمرو جواب ما أتوا به ، وحبس الرّسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين ، اذ أُبيح لهم أن يسيروا في العسكر ويروا مافيه ؛ ثمّ بعث عمرو بردّه مع الرّسل ، وقال : « ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال : اما أن دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا ، وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون ، واما أن جاهدناكم بالصّبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين » .

وفرح المقوقس بعودة الرّسل ، اذ كان قد خاف عليهم عندما حبسهم عمرو ، وجعل يقول لأصحابه : « أترون أنّ العرب يقتلون الرّسل ويستحلّون ذلك في دينهم ؟ ! » .

ولما جاء الرسل ، جاؤوا وقد وقع في نفوسهم ماعند العرب من بساطة وايمان ، فقالوا : « رأينا قوماً الموت أحبّ الى أحدهم من الحياة ، والتّواضع أحبّ الى أحدهم من الرّفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولانهمة ، انّما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم . مايُعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السّيد منهم من العبد ، واذا حضرت الصّلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم » .

وقد رأى قيرس — مع ما اشترطه المسلمون من الشروط التي لاهوادة فيها ولا مفاوضة — أن يبدأ في ذلك الوقت بعقد الصّلح ، اذ كان المسلمون تحصرهم مياه النّيل قبل أن يهبط النّهر ويستطيعوا السّير والانتقال ، فيجوسوا خلال البلاد ، فأرسل الى عمرو : « أن يبعث اليه جماعة من ذوي الرأي ليعاملهم ويتداعى معهم الى ماعساه يكون فيه صُلح » ، فبعث عمرو عشرة نفر ، أحدهم عُبَادة بن الصّامت[55] ، وكان عُبَادة أسود شديد السّواد ، أمره عمرو أن يكون متكلّم القوم ، ولا يجيب الرّوم الى شيء دعوه اليه الا الى احدى هذه الخصال الثلاث : الاسلام ، أو الجزية ، أو القتال .

وركب العرب السّفن الى جزيرة الرّوضة المعروفة في القاهرة ، فلما دخل عُبادة على المقوقس هابه المقوقس وقال : « نَحّوا عني ذلك الأسود وقدّموا غيره يُكلّمني » فقالوا جميعاً : « إنّ هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيّدنا وخيرنا والمُقَدّم علينا ، وانّما نرجع جميعاً الى قوله ورأيه ، وانّما أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألاّ نخالف رأيه وقوله » .

وكان قولهم عجيباً عند المقوقس : انّ الأسود والأبيض سواء عندهم ، لا يفضل أحدٌ أحدا !

---

(55) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (٢٥٣ — ٢٦٣) .

وقال المقوقس الرّقيق لعبادة أن يتكلّم برفقٍ حتى لا يزعجه ، فقال له عبادة : « انّ فيمن خلّفتُ من أصحابى ألف رجل أسود ، كلّهم أشدّ سواداً منى ... وانى ما أهاب مائة رجل من عدوّى لو استقبلونى جميعاً ، وكذلك أصحابى . وذلك انّما رغبتنا وهمّتنا في الجهاد في اللّه واتّباع رضوانه ، وليس غزونا عدوّنا ممن حارب اللّه لرغبة في دنيا ولا طلب للاستكثار منها .... لأنّ غايــة أحدنا من الدّنيا أكلة يأكلها يســد بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ..... لأنّ نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، انّما النّعيم والرّخاء في الآخرة » .

ووقع هذا القول في نفس المقوقس وقال لأصحابه : « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل ؟! انّ هذا وأصحابه ، قد أخرجهم اللّه لخراب الأرض » .

وأقبل المقوقس على عُبادة فقال : « أيّها الرّجل الصّالح ! قد سمعت مقالتك وما ذكرتَ عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم وما ظهرتم على مَن ظهرتم الاّ لحبّهم الدّنيا ورغبتهم فيها . وقد توجّه لقتالكم من جمع الرّوم ما لا يُحصى عدده : قوم معرفون بالنّجدة والشِدّة ما يبالى أحدهم مَن قاتل ، وانّا لنعلم أنّكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلّتكم .... ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكلّ رجل منكم دينارين دينارين ، ولأميركم مائة دينـار ، ولخليفتكم ألف دينـار ، فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم » .

قال عُبادة : « ياهذا ! لا تغرنّ نفسك ولا أصحابك . أما ما تخوّفنا به من جمع الرّوم وعددهم وكثرتهم وأنّا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما كان هذا بالذي تخوّفنا به .... وان كان ما قلتم حقا ، فذلك والله أرغب مايكون في قتالكم وأشدّ لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربّنا اذا قدمنا عليه ، ان قُتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنّته ، وما شيء أقرّ لأعيننا ولا أحبّ لنا من ذلك ، وانّا منكم حينئذٍ لعلى احدى الحُسْنَيَيْن : اما

أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، ولأنها أحبّ الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وانّ اللّه عزّ وجلّ قال لنا في كتابه : (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بإذن اللّه ، واللّهُ مع الصابرين)[155أ] ، وما منا رجل الا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشّهادة ، وأن لا يردّه الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده ، وليس لأحدٍ منّا همٌ فيما خلّفه ، وقد استودع كلّ واحد منّا ربّه أهله وولده ، وانما همّنا ما أمامنا .... فانظر الذى تريد فبينه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الاّ خصلة من ثلاث ، فاختر أيّها شئت ، ولا تطمع نفسك بالباطل ، وبذلك أمرنى الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من قبل الينا ...» .

وأراد قيرس أن يستنزله عن شيءٍ أو يجعله يقبل شيئاً مما عرضه عليه ، فلم يقدر على شيء ، بل وقع قوله على آذانٍ صمّاء لما يقول .

وقال عبادة يردّ عليه بعد أن نفد صبره ، ورفع يديه الى السّماء : « لا وربّ هذه السماء وربّ هذه الأرض ، وربّ كلّ شيء ، ما لكم عندنا من خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم » .

وعاد المقوقس ليجتمع بأصحابه ، فقالوا : « أما الأمر الأول فلا نجيب اليه أبداً ، فلن نترك دين المسيح الى دين لا نعرفه » ، فلم يبق الاّ الجزية أو الحرب . وقالوا : « انّا اذا أذعنّا للمسلمين ودفعنا الجزية ، لم نَعْدُ أن نكون عبيداً ، ولَلْمَوْت خير من هذا » ، فقال لهم عبادة : « انّهم ان دفعوا الجزية كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم ، مسلّطين في بلادهم على ما في أيديهم وما يتوارثونه فيما بينهم ، وحُفظت لهم كنائسهم لا يتعرّض لهم أحد في أمور دينهم » .

(155أ) سورة البقرة : 249 .

ولما قال عبادة ما قال ، مالت نفس المقوقس (قيرس) الى الاذعان ، فقد وقع في نفسه أن المسلمين لابدّ منتصرون ، فذهب بجرأته وقوّة نفسه[٥٦] .

ولكنّ جند الرّوم أصرّوا على قتال المسلمين ، أما المقوقس فانّه مازال رأيه من الاذعان والتّسليم للمسلمين مستقرّاً في قلبه ، فلما قاتل الرّومُ المسلمين هُزموا شرّ هزيمة ، فضعفت نفوس الرّوم ، ولم يلق منهم المقوقس بعد هزيمتهم عصياناً ، وأذعنوا له مرغمين .

وأعاد المقوقس الكرّة على عمرو في أمر الصّلح ، ولكن شروط عمرو لم تتبدّل ، فكانت الخصلة التي اختارها الروم هي الجزية والاذعان ، فعقد الصلح على أن يبعث به الى الامبراطور ، فاذا أقرّه نفّذ والاّ فلا . واتفق الروم والمسلمون على أن تبقى الجيوش حيث هي الى أن يجيء ردّ هرقل ، وسافر المقوقس عند ذلك مسرعاً في النهر ، حتى بلغ الاسكندرية ، وبادر بأن بعث الى الامبراطور كتاباًيبيّن فيها ما كان منه ، ويسوّغ ما قام به بأن الحاجة ألجأته الى ما لجأ اليه من صلح المسلمين ، ويسأله أن يُقِرّ الصّلح حتى يكفى مصر شرّ الحرب ووبالها .

ولكنّ هرقل كتب الى المقوقس أن يأتي اليه على عجل .

---

(٥٦) فتح العرب لمصر (٢٢٣ ــ ٢٢٧) ، وان المؤلف نقل ذلك عن المقريزى ، وانظر فتوح مصر والمغرب (٩٧ ــ ٩٨) و (٩٧ ــ ١٠٢) ،والفاروق عمر للدكتور هيكل (١١٦/٢) . وينبغي أن نلاحظ تعصب المؤلف (تيلر) على العرب والمسلمين ودفاعه عن المسيحيين دفاعا حمله على تكذيب المصادر العربية الاسلامية بدون استثناء ، واعتماده على مراجع بنى دينه مهما تكن تافهة ، لذلك اوردت ما اوردته اعلاه لانه سجله في كتابه مضطرا ، ولان مراجعه التافهة سكتت عنه ، كما يسكت هو واضرابه عن كل ما يرفع شأن العرب والمسلمين ، ويرفع صوته لابراز كل مايغمط شأن العرب والمسلمين ، ويفعل ذلك باسم الموضوعية والبحث العلمي ، وهكذا تكون الموضوعية وهكذا يكون البحث العلمى والافلا .
وكتابه بعد ذلك مغمور بالدس والتشكيك والكذب الصريح والتناقض الواضح والاخطاء .

ولم تكن رسالة هرقل الى المقوقس مما يطمئنّ اليه القلب ، فسافر على مضض الى القسطنطينيّة . ولقى هرقل ، فجعل يدافع عن أعماله في مصر ، وقال للامبراطور : « لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم في القتال ، لعرفت أنّهم قوم لا يُغلبون ، فليس لنا من سبيل خير من الصّلح مع عمرو قبل أن يفتح حصن بابليون عَنْوَةً وتصبح البلاد غنيمة له » .

وثارت ثائرة هرقل واشتدّ غضبه ، وعظم غيظه أن ينهزم جنده وهم مائة ألف أمام اثنى عشر ألفاً من المسلمين ، فاتهم المقوقس بخيانة الدولة وتخلّيه للمسلمين عنها ، ثمّ حكم عليه بأنه مرتكب مجرم ليس دون الموت جزاء ذنبه . ثم شرع يُقرّعه ويؤنّبه على ما كان منه ، ونعته بالجبن والكفر ، وأسلمه الى حاكم المدينة فشهّره وأوقع به المهانة ثم نفاه من بلاده ، وكان ذلك قرب نهاية سنة ٦٤٠م (٢٠هـ) .

وبلغ رفضُ الامبراطور المسلمين ، فانتهت بذلك الهدنة ، وعاد القتال بين المسلمين والرّوم .

ومات هرقل سنة ٦٤١م (٢١هـ) ، فعاد قيرس الى الاسكندرية من منفاه ، وقضى مدّة قصيرة بعد مقدمه يعالج طائفة من أمور الدين والدولة كان لابدّ له من الاسراع في معالجتها في الاسكندرية ، ثم توجّه الى عمرو في منطقة حصن بابليون حاملاً معه عقد الصّلح ، فرحّب به عمرو وأكرم وفادته . ولما علم عمرو بما جاء به قيرس من أمر الصلح ، قال له : «لقد أحسنت في الشخوص الينا » ، فقال البطريق : « انّ الناس قد عوّلوا على دفع الجزية كيما تقف رحى الحرب » ، ثمّ قال : « انّ اللّه قد أعطاكم هذه الأرض ، فلا تدخلوا بعد اليوم في حرب مع الرّوم » .

وكُتب عقد الصّلح في الثامن من تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ٦٤١م (٢١هـ) ، ولنطلق على هذا الصّلح اسم : (صلح الاسكندرية) ، كى نميّز بينه وبين الصّلح السابق الذى عقد في بابليون ، فانّ هذا الصّلح الجديد

انما كان خاصاً في معظم شروطه بالاسكندرية وشروطها في تسليمها للمسلمين، وقد تم به فتح المسلمين لبلاد مصر •

وبالطبع ، اعتبر المؤلفون الأجانب صلح المقوقس مع المسلمين استسلاماً لهم وتسليماً لمصر بهذا الصلح للمسلمين •

وربما يكون أولئك المؤلفون الأجانب من المدنيين ، فلا يعلمون أن وضع المدافعين عن مصر كان يائساً ، ويجهلون أن المسلك الوحيد أمام المقوقس لمعالجة الموقف العسكرى للروم المتدهور بسرعة فائقة في عقد الصلح ، حتى تضع الحرب التى لا طائل فيها أوزارها •

واذا لم يستطع المؤلفون الأجانب من المدنيين أن يعلموا من سير الحوادث حقيقة الموقف العسكرى بالنسبة للروم والمسلمين ، فما عذر المؤلفين الأجانب العسكريين في الحربين العالميتين الأولى والثانية في تغافلهم عن حقيقة الموقف العسكري للروم والمسلمين في مصر ، الا أن صلح المقوقس كان : « سبباً في القضاء على آمال المسيحيين بالفوز في مصر » ، فوصموه بالخيانة ، ووصموا صلحه بالخيانة[٥٧] ، وما كانوا على حق في وصمهم المقوقس بالخيانة ولا في وصمهم الصلح بالخيانة ، فما كان بمقدور المقوقس أن يفعل أفضل مما فعله ، ولا كان بمقدور غيره من القادة وغير القادة أن يفعلوا أفضل مما فعله المقوقس في معالجة الموقف الحرج الذى عاناه وعانته مصر حكومة وشعبا •

وقد كان المقوقس نائب الامبراطور في مصر ، وكان حاكمها الأوحد في مجالى الدين والدنيا ، فهل من المعقول أن يتخلى عن هاتين السلطتين الا مكرهاً مضطراً ؟!

لقد كان المقوقس خطيباً بليغا مفوهاً ، وكان صاحب منطق ودهاء

---

(٥٧) فتح العرب لمصر (٣٠٩) •

وسياسة ، ولكنه كان امبراطوريّاً أكثر من الامبراطور ، وملكياً أكثر من الملك ، وكان في سلطته الدينية من بطارقة السّلطان لا من بطارقة الرحمن ، كما كان في سلطته الزمنيّة ينفّذ خطّة القيصر وسياسته ، فكان متّبعاً لا مبتدعا ، وكان موظّفاً مثالياً في تطبيق سياسة الرّوم ، لا يدع منها شيئاً ، بل يُضيف اليها من عنده أشياء متطوعاً ، ليثبت لقيصر أنّه ليس أقلّ منه اخلاصاً للرّوم وتفانيا .

ومثل هذا الرّجل الذى خسر عقيدته ومبادءه ومُثله العليا من أجل منصبه ، لا يمكن أن يفرّط بهذا المنصب بسهولة ويُسر ، فيخون القيصر ، ويخون دينه ، ويخون شعبه ، لمصلحة حكّام غرباء عنه ، ومن أجل دين غير دينه ، ومن أجل المسلمين الفاتحين ، فما يمكن أن يتهّمه بهذا التّفريط عاقل ولا عالم ولا باحث ولا أريب .

وقد كان المقوقس ، في آخر حياته حين عقد الصّلح مع المسلمين ، وكان يومها قد بلغ من الكِبَر عِتيّاً ، وأصبح شيخاً هِمّا ، اذ كان عقدُ الصّلح سنة ٦٤١م (٢١هـ) ، وكان عقد الصّلح في الثامن من تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ٦٤١م . وأصيب المقوقس بمرض الزّحار واثقلته الهجوم ، فرحل يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر آذار (مارس) من سنة ٦٤١م ، أى بعد ثلاثة أشهر من عقده الصلح مع المسلمين ، وما كان مثل المقوقس في اخلاصه ليخون وهو في أواخر أيامه من الدنيا ، وأوائل أيامه من الآخرة .

٢ ــ السّفارة النبوية :

بعث النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم رسله الى الملوك والأمراء قبل الفتح ــ فتح مكّة ــ وبعد الحُدَيْبِيَة[٥٨] ، وكتب معهم اليهم يدعوهم الى الاسلام .

فقد خرج النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم الى أصحابه بعد عُمْرَته التى

---

(٥٨) جوامع السيرة (٣٩) .

صُدُّ عنها يوم الحُدَيْبِيَة ، فقال : « أيّها الناس ! انّ اللّه قد بعثني رحمةً وكافةً ، فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريّون على عيسى بن مَرْيَم » . فقال أصحابه : « وكيف اختلف الحواريّون يارسول اللّه؟! » ، قال : «دعاهم الى الذي دعوتكم اليه ، فأما مَن بعثه مَبعثاً قريباً فرضي وسلم ، وأما مَن بعثه مَبْعَثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل ، فشكا ذلك عيسى الى اللّه ، فأصبح المتثاقلون وكلّ واحد منهم يتكلّم بلغة الأُمّة التي بُعثَ اليها » ، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم رُسُلاً من أصحابه ، وكتب معهم كتباً الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام ، وبعث حاطِب بن أبي بَلْتَعَة الى المقَوقَس[59] ملك الاسكندرية[60] سنة ست الهجرية[61] (٦٢٧م — ٦٢٨) .

ويقصد هنا بتعبير : ملك الاسكندريّة ، ملك مصر كلّها ، لأنّ المقوقس جعل الاسكندريّة عاصمة لمصر في أيامه ، فأذا أُطلق عليه : ملك الاسكندريّة باعتبارها عاصمة مصر ، فانما يراد بذلك ، ملك مصر كلّها ، فقد كان عامل هرقل على مصر ، فهو ملك مصر غير المتوّج ، وهو أيضا بطريق الاسكندرية فكان على السّلطتين الدينيّة والدنيويّة في مصر .

ومضى حاطب بكتاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلما انتهى الى الاسكندريّة ، وجد المقوقس في مجلس مشرف على البحر ، فركب البحر ، فلما حاذى مجلسه ، أشار بكتاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بين اصبعيه . ورآه المقوقس ، فأمر بالكتاب فقُبِض ، وأمر بحاطب فأُوصل اليه .

وقرأ المقوقس كتاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال :

---

(٥٩) المقوقس : المقصود به قيرس بطريق الاسكندرية الملكاني الذي جعل له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بمصر ، انظر الهامش (١) من ص (٦٥) من كتاب : فتوح مصر والمغرب .

(٦٠) سيرة ابن هشام (٢٧٨/٢ — ٢٧٩) .

(٦١) تاريخ خليفة بن خياط (٤١/١) وتهذيب الاسماء واللغات (١٥١/١) ، وانظر الطبري (٦٤٤/٢) وابن الاثير (٢١٠/٢) .

« ما منعه ان كان نبياً أن يدعو عليّ ، فيُسلّط عليّ ؟! » ، فقال له حاطب : « ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على مَن أبىَ عليه أن يفعل ويُفعَل ؟» .

ووجم المقوقس ساعة ، ثمّ استعادها ، فأعادها عليه حاطب ، فسكت[٦٢] .

وسأل المقوقس حاطباً : « أخبرني عن صاحبك ، أليس هو نبيّاً ؟ » ، قال : « بلى ! » ، قال : «فما له لم يَدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلدته ؟! » ، فأجابه حاطب : « فعيسى بن مريم رسول الله حين أراد قومه صلبه ، لم يَدْعُ عليهم حتى رفعه الله » ، قال : « أحسنت ، أنت حكيم جئت من عند حكيم»[٦٣] .

وقال حاطب : « انّه قد كان قبلك رجل زعم أنّه الربّ الأعلى ، فانتقم الله به ، ثمّ انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يُعتبر بك . وانّه لك ديناً لن تَدَعه الاّ لما هو خير منه ، وهو الاسلام الكافي به اللهُ فَقْدَ ما سواه ، وما بشارة موسى بعيسى الاّ كبشارة عيسى بمحمّد ، وما دعاؤنا ايّاك الى القرآن الاّ كدعائك أهل التوراة الى الانجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به »[٦٤] ، فأجاب المقوقس : « انّ القِبْطَ لا يتابعني على اتّباعك ، وأنا أظنّ بمُلْكِي »[٦٥] ، والقِبْط يطلق على مسيحيّ مصر ، وهم من ذريّة المصريين القدماء[٦٦] .

وقبّل المقوقس كتاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٦٧] ، وأخذه

---

(٦٢) فتوح مصر والمغرب (٦٥) .
(٦٣) تهذيب الاسماء واللغات (١/١٥١) .
(٦٤) فتوح مصر والمغرب (٦٥) .
(٦٥) البدء والتاريخ (٤/٢٢٩) .
(٦٦) القبط : انظر دائرة معارف القرن العشرين (القرن الرابع عشر) — محمد فريد وجدي — (٧/٦١٢ — ٦٢٣) ، والقبط : جيل من النصارى بمصر ، الواحد قبطي ، وهي قبطية ، جمعها : أقباط والقبطي ايضا لسان الاقباط يكتبونه من الشمال الى اليمين كالافرنج .
(٦٧) فتوح مصر والمغرب (٦٦) وابن الاثير (٢/٢١٠) .

وجعله في حق[٦٨] من عاج ، وختم عليه[٦٩] ، وأكرم حاطباً وأحسن نزله[٧٠] ، ولا عجب ، فقد كان بطريقاً من رجال الدين .

وكان نص كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس :

بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمد رسول الله .

الى : المقوقس عظيم القبط .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد . فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فعليك اثم القبط : « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[٧١] .

الله
علامة الختم : رسول
محمد

وهناك رواية أخرى عن نص كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى

---

(٦٨) الحق : وعاء صغير ذو غطاء ، يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما من المواد .
(٦٩) فتوح مصر والمغرب (٦٦) .
(٧٠) فتوح مصر والمغرب (٦٧) .
(٧١) الاية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ٦٤) ، وانظر نص الكتاب النبوى في : فتوح مصر والمغرب (٦٥ ــ ٦٦) والقسطلانى (١/٢٩٢ ــ ٢٩٣) وصبح الاعشى للقلقشندى (٦/٣٧٨) ، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع فى مجموعة الوثائق السياسية (٧٢) .

المقوقس هذا نصّه :

« من : محمد رسول اللّه .

الى : صاحب مصــــر .

أما بعــد فانّ اللّه أرسلني رســـولاً ، وأمرني بالاعذار والانذار ومقاتلة الكفّار ، حتى يدينوا بديني ويدخل الناس في ملّتي ، وقــد دعوتك الى الاقرار بوحدانيّته ، فان فعلت سعدت ، وان أبيت شقيت ، والسلام »[٧٢] .

علامة الختم : اللــه
رسول
محمد

وأرجح النصّ الأول ، كما يرجّحه غيري ، لأنّ المصــادر المعتمدة نصّت عليه ، وهو أشبه بأسلوب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم البليغ ، خلافاً للنصّ الثاني الذي يبدو أسلوبه اعتيادياً لا بلاغة فيه ولا بيان .

كما أنّ النصّ الأول ، هو على غرار نصوص كتب النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم الى ملوك النّصارى في حينه : النّجاشيّ ملك بلاد الحبشة ، وهِرَقْل قيصر الرّوم ، ، والمقوقس كان من حكّام النّصارى كذلك .

وقد أوردت نص الكتاب الثاني ، للاطلاع عليه ، ومقارنته بنصّ الكتاب الأول الذي اعتمدناه واعتمده غيري أيضا .

وحين عزم حاطب العودة الى المدينة المنوّرة من سفارته الى مصر ، بعث المقوقس معه هدايا النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم : ثلاث جوارٍ ، احداهنّ مارية القبطية أم ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشيرين[٧٣]

---

(٧٢) فتوح مصر للواقدي (١٠) وصبح الاعشى للقلقشندي (٦/٣٧٨) ، وانظر تفاصيل المراجع الاخرى في : مجموعة الوثائق السياسية (٧٤) .

(٧٣) وردت كذلك في ابن الاثير (٢/٢٢٥) ، وهو الصحيح ، ومعناه : الحلو ، الحلوة ، ولايزال هذا الاسم شائعا في مصر والبلاد العربية الاخرى . وقد وردت في المصادر الاخرى : سيرين .

أخت مارية ، وهبها لحسّان بن ثابت شاعر النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأسلمت مارية وأختها التي ولدت عبدالرحمن بن حسّان بن ثابت وكان حاطب قد دعاهما الى الاسلام قبل أن يقدم بهما المدينة . ووهب النبيّ صلّى الله عليه وسلم الجارية الثالثة الى جَهْم بن قيس العبدري[٧٤] ، فهي أم زكريا بن جهم الذى كان خليفة عمرو بن العاص على مصر ، وأهدى بغلةً للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم هى دُلْدُل ، وحماراً هو يَعْفُور ، وكُسَاً ، وبعث مع الجوارى بخصيّ فكان معهم[٧٥] ، وألف مثقال ذهبا ، وعشرين ثوباً ، ووهب لحاطب مالاً عظيماً[٧٦] ، وكانت عودة حاطب من سفارته في مصر الى المدينة سنة سبع الهجرية[٧٧] (٦٢٨م) .

لقد توجّه حاطب سفيراً نبوياً في أواخر سنة ست الهجرية ، وعاد الى المدينة المنورة في أوائل سنة سبع الهجريّة ، واستغرقت سفارته نحو ثلاثة أشهر تقريبا .

وقد اختلط هذان التاريخان : سنة ست الهجريّة ، وسنة سبع الهجريّة ، فزعم بعض المؤرخين أنّه قصد مصر سنة سبع الهجرية[٧٨] ، وهذا وَهْمٌ لاجماع المصادر على أنّ سفره الى مصر سفيراً كان في أواخر سنة ست الهجريّة بعد غزوة الحُدَيْبيّة .

---

(٧٤) هكذا ورد في : فتوح مصر والمغرب (٦٧) ، أما في الاستيعاب (٣١٥/١) ، فورد اسمه جهم بن حذيفة العدوى .

(٧٥) في الطبرى (٤٦٥/٢) وابن الاثير (٢١١/٢) ، ان المقوقس اهدى الى النبي صلى الله عليه وسلم اربع جوار ، وفي الطبرى (٢١/٣) وابن الاثير (٢٢٥/٢) انهما جاريتان ، وكذلك في فتوح مصر والمغرب (٦٧) . أما في الاستيعاب (٣١٥/١) فذكر ان عدد الجوارى ثلاث ، وكذلك في تهذيب الاسماء واللغات (١٥١/١) ، فأخذنا بذلك ، لان أصحاب الحديث ادق من المؤرخين في تسجيل الاخبار ونقلها .

(٧٦) البدء والتاريخ (٢٢٩/٤) .

(٧٧) الطبرى (٢٠/٣) وابن الاثير (٢٢٥/٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٤٩/١) .

(٧٨) انساب الاشراف (٥٣١/١) .

وحمّل المقوقس حاطباً رسالة جوابيّة الى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، هذا نصّها :

لمحمّد بن عبداللّه .

من : المقوقس .

ســــلام .

أما بعد ، فقد قرأتُ كتابك ، وفهمتُ ماذكرتَ وما تدعو اليه . وقد علمتُ أنّ نبيّاً قد بقي ، وقد كنتُ أظنّ أنّه يخرج بالشّام ، وقد أكرمتُ رسلك ، وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان في القبْط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها .

والسّــــلام »[79] .

التوقيع

وهناك رواية ثانية عن رسالة جوابية ثانية حمّلها المقوقس حاطباً الى النبيّ صلّ اللّه عليه وسلّم ، هذا نصها :

« باسمك اللّهم

من : المقوقس .

الى : محمّد .

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وقرأته وفهمتُ ما فيه .

---

(٧٩) فتوح مصر والمغرب (٦٧) وصبح الاعشى للقلقشندى (٤٦٧/٦) والقسطلاني (٢٩٢/٢ – ٢٩٣) ، وانظر المصادر والمراجع في مجموعة الوثائق السياسية (٧٣) .

(٨٠) صبح الاعشى للقلقشندى (٤٦٧/٦) ، وانظر تفاصيل المراجع في : مجموعة الوثائق السياسية (٧٥) .

أنت تقول : انَّ اللّه تعالى أرسلك رسولاً ، وفضّلك تفضيلاً ، وأنزل عليك قرآناً مبينا ، فكشفنا يا محمّد في علمنا عن خبرك ، فوجدناك أقرب داعٍ الى اللّه ، وأصدق مَنْ تكلّم بالصدق • ولولا أني ملكت ملكاً عظيماً ، لكنتُ أوّل مَن سار اليك ، لعلمي أنّك خاتم الأنبياء ، وسيّد المرسلين ، وامام المتّقين •

والسّلام عليك ورحمة اللّه وبركاته الى يوم الدين »(٨٠)

التوقيع

وقد وردت هاتان الرسالتان في بعض المصادر التاريخية والأدبية ، أما المصادر المعتمدة فلم تتطرّق اليهما ولم تذكر عنهما شيئا • والذى يبدو أنّ الجواب الأول أقرب الى التصديق ، اذ يُتَوقّع من المقوقس ، وهو رجل دين وعالم وعاقل وحصيف ، أن يرد على الكتاب النبوي بجواب في رسالة جوابية ، كما أن الرسالة الجوابية الاولى تصف الواقع ببساطة وبدون تكلف • أما الجواب الثاني ، فمن الواضح أنّ أسلوبه اسلامي قد كتبه مسلم ونسبه الى المقوقس ، كما أنّه كُتب بعد ما لا يقلّ عن قرن من عهد الرسالة ، فما هو بأسلوب الصدر الاول للاسلام المتميّز بالايجاز والبلاغة والبيان ، وقد اقتصر الواقدي على ذكره من القدماء ، فنُقل عنه بعد ذلك من بعض المؤرخين والأدباء لا من المحدّثين ، والمحدثون لا يروون ولا ينقلون الا بعد التثبّت القاسي الشّديد حسب منهجهم الواضح السديد في الرواية والنّقل ، بعكس بعض المؤرخين والأدباء الذين ينقلون المعجب المطرب الذى يرفّه عن الناس ويسلّيهم ، دون التثبّت من درجة الثّقة بالخبر المنقول والمنقول عنه صادقاً •

لقد كان المقوقس مؤدباً غاية الأدب في رسالته الجوابية ، وفي معاملته

---

(٨١) تهذيب الاسماء واللغات (١/١٥٢) .

للسفير النبوى ، اذ أحسن استقباله وضيافته وأكرم وفادته ، وأهدى اليه عند رحيله ، وأرسل معه من يوصله مأمنه[٨١] . ويمكن أن يتبيّن الباحث بوضوح أن المقوقس كسيده هرقل اقتنع بالرسالة والرسول ، ولكنه لم يُسلم خوفاً من خذلان القِبْط له وانتقاضهم عليه ، خوفاً على ملكه وسلطانه ، وعلى حدّ قوله : « ملكتُ ملكاً عظيما » ، فهو يخاف عليه ، فاذا صحَّ أنّه كتب هذا الكلام حول ملكه العظيم في رسالته الجوابيّة أو لم يصحَّ أنّه كتبها ، فهذا هو الواقع الذى حرمه من اعلان اسلامه ، وطالما حرف السلطان وحرفت السلطة الراغبين فيها عن طريق الحقّ والصواب في مختلف الامم والشعوب والعصور .

ومهما يكن من أمرٍ ، فانّ حاطب بن بلتعة أدى واجبه بأمانة وحكمة واخلاص ، وكان أثر السفارة النبويّة معنويا بالدرجة الأولى ، ولكن تأثيره تنامى بالتدريج ، حتى أصبح بعد ثلاث عشرة سنة ماديا ومعنويا ، وأصبحت مصر للاسلام والمسلمين ، ولم تبق للرّوم والمقوقس .

فبعد أن التحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وتولى أبى بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة، بعث حاطباً الى المقوقس، فالتقاه بناحية قرى (الشرقية) ، فأعطوهُ . ولم يزالوا على ذلك حتى دخل عمرو بن العاص مصرَ سنة عشرين الهجريّة ، فقاتل المقوقس ، فانتقض ذلك الصّلح[٨٢] المحدود الذي كان بين المقوقس وحاطب ، وفتح المسلمون مصر ، وخسرها الروم الى الأبد .

---

(٨٢) تاريخ خليفة بن خياط (١/١١٥) والاستيعاب (١/٣١٤) .

الرسائل النبوية

الى ملوك وأمراء العرب

الى الحارث بن أبى شمر الغسانى
ملك الغساسنة

١ ـ الحارث بن أبي شمر :

والحـارث بـن أبى شـمر الغسـاني ، نسـبة الى عَدِي بن عمرو بن مازن بن الأزْد ، هذا حقيقة نسبه ، وقوم يظنّون أنّه جَفْنِي ، وليس كذلك ، انّما أمّه جَفْنِيّة[1] .

والحارث بن أبى شَمِر الغَسّاني ، نسبه الى غسّان ، وهم طوائف نزلوا بماء يقال له : غَسّان[2] ، فنسبوا اليه[3] ، وهم من الأَزْد ، وقيل : انّ فيهم أيضاً من غير الأَزْد بن الغَوْث بن نَبْت ابن مالك بن زيد بن سَبَأ[5] . وقد هاجر بنو غَسّان من اليمن الى الشام لتهدّم سَدّ مَأْرَب في اليمن بسيل العَرِم ، فنزلوا في مشارف الشّام وحاربوا قوماً بها من قُضَاعَة وأخذوا ما بأيديهم ، وأسّسوا هناك دولة تحت

---

(١) جمهرة انساب العرب (٣٧٤) .
(٢) غسان : اسم ماء بسد مأرب باليمن كان شرباً لبنى مازن بن الازد بن الغوث ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٢٩١ ـ ٢٩٢) .
(٣) جمهرة انساب العرب (٤٦٢) ودائرة معارف القرن العشرين (٧/٧٣) .
(٤) انظر التفاصيل في : جمهرة انساب العرب (٤٧٢ ـ ٤٧٤) .
(٥) جمهرة انساب العرب (٤٧٣) .

حماية الرُّوم في البلقاء[٦] وحوران[٧] ، وبلغوا درجة من الحضارة والمدنية ، فبنوا القصور ومصَّروا الأمصار ، واتخذوا لهم عاصمة في بُصْرَى[٨] بحوران • وقد بلغ عدد ملوكهم اثنين وثلاثين ملكاً حكموا نحو ستّة قرون كما ورد في المصادر العربية ، وكان أوّلهم جَفْنَة بن عمرو ، وآخرهم جَبَلَة بن الأَيْهم الذى فتح المسلمون ملكه ، فأسلم ثم ارتدّ وهرب الى قيصر الرُّوم • ولكن المراجع الأجنبية تزعم أنّ عدد ملوك الغساسنة لا يتجاوز العشرة ، وأنّ أوّلهم جَبَلَة بن شَمِر وآخرهم جَبَلَة بن الأَيْهَم ، وقد اعتمدت المصادر اليونانيّة والسّريانية من قبل مؤلفى المراجع الأجنبيّة[٩] • والمصادر العربية تذكر أسماء ملوك الغساسنة ، وتسجّل أنسابهم ، وتتحدّث عن أعمالهم ، فهى أوثق من المصادر اليونانيّة والسّريانيّة، والعرب أعرف بتاريخهم من غيرهم ، وأهل مكّة أدرى بشِعابها كما يقول المثل العربي القديم •

وكان الحارث من ملوك الغساسنة ، ورد ذكره في أيام العرب ، فقد حارب بنى تَغْلِب الذين كانوا بأرض الشام ، وسبب هذه الحرب ، أنّه مَرَّ ببعض قبيلة تغلب فلم يستقبلوه وركب عمرو بن كلثوم التَّغْلِبىّ ، فلقيه الحارث، وقال له : «مامنع قومك أن يتلقّونى» ؟ ، فقال : «لم يعلموا بمرورك» فقال : «لئن رجعت لاغزونهم غزوة تتركهم ايقاظاً لقدومي» فقال عمرو: «ما استيقظ قوم قطّ الا نَبُلَ رأيهم وعَزّت جماعتهم ، فلا توقظنّ نائمهم » ، فقال : «كأنك

---

(٦) البلقاء : كورة من اعمال دمشق بين الشام ووادي القرى ، قصبتها عمان ، انظر معجم البلدان (٢/٢٧٦ – ٧٧) ، وهى بلاد الاردن .

(٧) حوران : كورة واسعة من اعمال دمشق ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣٦٠ – ٣٦١) ، ومكانها معروف اليوم في سورية .

(٨) بصرى : مدينة بالشام من اعمال دمشق ، وهى قصبة كورة حوران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٠٨ – ٢٠٩) ، وموقعها معروف وآثارها باقية .

(٩) دائرة معارف القرن العشرين (٦/٢٤٢ – ٢٤٣) .

تتوعّدني بهم ، أما واللّه لتعلمنّ اذا جالت غَطاريف[10] غَسَّان الخيل في دياركم ،أنّ أيقاظ قومك سينامون نومةً لا حُلْمَ فيها ، ، تُجْتَثّ أصولهم ، ويُنْفَى فلّهم الى اليابس الجُدُدِ[11] والنّازح[12] الثَّمَد»[13].

ورجع عمرو بن كُلثوم عنه ، وجمع قومه ، وقال :

ألا فاعلمْ أَبَيْتَ اللّعْنَ أنّا

أَبيتَ اللّعنَ نأبى ما تُريدُ

تعلّم أنّ مَحْمِلنا ثقيلٌ

وأنّ دِبار كَبَّتنا شديد[14]

وأنّا ليس حَيٌّ من مَعَدّ

يُقاومنا اذا لُبِسَ الحديدُ

فلمّا عاد الحارث غزا بني تَغْلِب ، فاقتتلوا واشتدّ القتال بينهم ، ثمّ انهزم الحارث وبنو غَسّان ، وقُتل أخو الحارث في عدد كثير[15] .

كما شهد الحارث يوم عَيْن أُبَاغ[16] ، وهو يوم من أيام العرب المشهورة في الجاهلية ، وكان بين المُنْذِر بن ماء السّماء وبين الحارث ، أي

---

(١٠) الغطاريف : جمع غطريف ، وهو السيد الكريم .

(١١) الجدد : جمع جديد ، وهو وجه الارض . واليابس الجدد : يريد الارض القاحلة الياب .

(١٢) النازح : يقال بلد نازح : بعيد ، وبئر نازح : قليلة الماء .

(١٣) الثمد ـ الثمد : الماء القليل الذى ليس له مدد . والنازح الثمد : يريد الارض البعيدة القليلة الماء .

(١٤) المحمل : الهودج ، والعدلان على جانبى الدابة يحمل فيهما ، جمعها : محامل . والدبار : من كل شيء آخره . والكبة : الجماعة من الناس وغيرهم ، والدفعة في القتال والجرى . يريد : أن الذى يقاتلنا يحمل نفسه مالايطيق ، وانه في آخر الامر سيهزم هزيمة شنعاء امام جماعتنا المحاربين بعنف وشدة .

(١٥) ابن الاثير (٥٣٩/١ ـ ٥٤٠) .

(١٦) عين اباغ : ليست عيناً من عيون الماء ، وانما هو واد وراء الانبار على طريق الفرات الى الشام ، انظر معجم البلدان (٦٨/١) و (٢٥١/٦) .

بين المناذرة حلفاء الساسانيين وبين الغساسنة حلفاء الرّوم .

وسبب ذلك أنّ المنذر بن ماء السّماء مَلِك العرب ، سار من الحيْرة في مَعَدّ كلّها ، حتى نزل بعين أُباغ بذات الخيار ، وأرسل الى الحارث الأعرج الغسّاني مَلِك العرب بالشّام : « امّا أن تعطيني الفِدْية فأنصرف عنك بجنودي ، وامّا أن تأذن بحرب » .

وأرسل اليه الحارث : « أَنْظِرْنا نَنْظُرْ في أمرنا » ، وجمع عساكره وسار الى المنذر . وأرسل اليه يقول : « انّا شيخان ، فلا نُهلك جنودي وجنودك ، ولكن يخرج رجل من ولدي ويخرج رجل من ولدك ، فمَن قُتل خرج عوضه آخر ، واذا فني أولادنا خرجتُ أنا اليك ، فمن قتل صاحبه ذهب بالمُلْكِ » .

وتعاهدا على ذلك ، فعمد المنذر الى رجل من شجعان أصحابه ، فأمره أن يخرج فيقف بين الصَّفَّيْن ويُظهر أنّه ابن المنذر ، فلماخرج أخرج اليه الحارث ابنه أبا كَرِب ، فلما رآه رجع الى أبيه وقال : « انّ هذا ليس بابن المنذر ، انّما هو عبده أو بعض شجعان أصحابه » ، فقال : « يابُنَيّ ! أجزعتَ من الموت ؟ ما كان الشّيخ ليغدر » ، فعاد اليه وقاتله ، فقتله الفارس وألقى رأسه بين يدي المنذر .

وعاد فأمر الحارث ابناً له آخر بقتاله والطّلب بثأر أخيه ، فخرج اليه ، فلمّا واقفه ، رجع الى أبيه وقال : « يا أبَتِ ! هذا واللّه عبد المنذر » ، فقال : « يابنيّ ! ما كان الشيخ ليغدر » ، فعاد اليه ، فشدّ عليه ، فقتله .

ولما رأى شَمِرْ بن عمرو الحَنَفِيّ ، وكانت أُمّه غَسّانِيّة ، وهو مع المنذر ، قال : « ايّها الملك ! انّ الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام ، وقد غدرت بابن عمّك مرّتين » ، فغضب المنذر وأمر باخراجه ، فلحق بعسكر الحارث وأخبره بغدر المنذر .

فلمّا كان الغد ، عَبّى الحارث أصحابه وحرّضهم ، وكان في أربعين

ألفاً ، واصطفّوا للقتـال ، فاقتتلوا قتـالاً شديداً ، فقتل المنذر وهُزمت جيوشه .

وأمر الحارث بابْنَيْه القتيلَيْن فحُملا على بعير بمنزلة العِدْلَيْن ، وجعل المنذر فرعهما ، فَوْداً[17] ، وقال : « يالَعِلاوة دون العِدْلَيْن ! » ، فذهبت مثلاً . وسـار الى الحيرة فأنهبها وأحرقها ودفن ابنيه بها ، وبنى الغَرِيَّيْن[18] عليهما في قول بعضهم ، وفي ذلك يقـول ابن أبي الرَّعلاء الضَّبْيانيّ :

كم تركنا بالعَيْن عَيْن أُبَاغٍ
من ملوكٍ وسُوقَةٍ أَكْفَاءِ
أَمطرتْهُمْ سحائب الموت تَتْرَى
إنّ في الموت راحةَ الأشقياء
ليس مَنْ ماتَ فاستراحَ بميْتٍ
انّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ[19]

ثم شـهد الحارث يـوم مُرْج حَلِيْمَة[20] ، وهو من أيام العرب المشهورة في الجاهليّة أيضا .

ولما قُتـل المنـذر بن ماء السَّماء ، ملك ابنه المنذر بعده ، وتلقّب : الأسود ، ولما استقرّ وثبّت قدمه ، جمع عساكره ، وسار الى الحارث الأعرج طالباً بثأر أبيـه عنده وبعث اليه : « انّنى قد أعددت لك الكُهُول ، على

---

(17) الفود : العدل ، يقال : قعد بين الفودين : العدلين .
(18) الغريان : بناءان كالصومعتين ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٨١ ـ ٢٨٦) .
(19) ابن الأثير (١/٥٤٠ ـ ٥٤٢) .
(20) مرج حليمة : موضع في الشـام ، انظر التفاصيل في معجم البلـدان (٣/٣٣٠ ـ ٣٣١) .

الفحول[٢١] ، فأجابه الحارث : « قد أعددتُ لك المُرْد ، على الجُرْد»[٢٢]، حتى نزل المنذر بمرج حَلِيْمَة ، فتركه مَنْ به من غسّان للأسود ، وانّما سُمِّي : مرج حليمة بحليمة ابنة الحارث الغسّانيّ .

وزحف الناس واقتتلوا قتالاً شديداً ، وذكر أنّ الغبار في هذا اليوم اشتدّ وكثر حتى ستر الشّمس ، وحتى ظهرت الكواكب المتباعدة عن الشّمس ، لكثرة العساكر ، لأنّ المنذر بن المنذر سار بعرب العراق أجمع ، وسار الحارث بعرب الشّام أجمع ، فدارت الدائرة على المنذر ، وقُتل في المعركة ، وانهزم أصحابه في كلّ وجه ، وتكبّد المناذرة خسائر فادحة بالأرواح والأموال وانصرفت غسّان بأحسن ظَفَر .

وهذا اليوم من أشهر أيام العرب ، وقيل في قتل المنذر غير ذلك ، والنتيجة المتّفق عليها أنّ الحارث انتصر على المناذرة في هذا اليوم العصيب[٢٣] .

والحارث هو الذى أوصل امرأ القيس الشّاعر المشهور بقيصر الرّوم هرقل ، وكان امرؤ القيس قد قصد السَّمَوْأَل بن عادياء ، فأكرمه وأنزله ، فنزل عنده مدّة من الزّمن ، ثمّ طلب منه أن يكتب الى الحارث ليوصله الى قيصر ، ففعل ذلك وسار امرؤ القيس الى الحارث ، وأودع اهله وماله وأدراعه عند السموأل .

ولما وصل امرؤ القيس الى قيصر ، أكرمه ، وسيّر معه جيشاً كثيفاً فيهم جماعة من أبناء الملوك ، ولكنّه مات في أَنْقِرَة[٢٤] ، ودُفن في جبل عَسِيْب

---

(٢١) الفحول : جمع فحل ، وهو الذكر القوى من كل حيوان .
(٢٢) جرد : جمع اجرد ، يقال فرس اجرد : سباق .
(٢٣) انظر التفاصيل في : ابن الاثير (١/٥٤٢ ـ ٥٤٧) .
(٢٤) انقرة : اسم للمدينة التى اسمها انكورية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٦١ ـ ٣٦٢) وهى عاصمة الجمهورية التركية في الوقت الحاضر .

بالقرب من أنقرة . وحين كان يحتضر أمرؤ القيس ، رأى قبر امرأة من بنات ملوك الرّوم ، وقد دفنت بجنب جبل عَسِيب ، فقال :

أجارتنا انّ الخطوب تنوبُ
وانّى مُقيمٌ ما أقام عَسِيبُ
أجارتنا انّا غريبان هاهُنا
وكلّ غريبٍ للغريب نسيب

ومات امرؤ القيس ، فدُفن الى جنب المرأة ، فقبره هناك .

ولما مات امرؤ القيس ، سار الحارث الى السّموأل بن عادياء وطالبه بأدراع امرىء القيس ، وكانت مائة درع ، وبما له عنده ، فلم يَعْطِه ، فأخذ الحارث ابناً للسموأل ، وقال : « اما ان تسلم الأدراع ، وامّا قتلتُ ابنك » ، فأبى السّموأل أن يُسْلِم اليه شيئاً ، فقتل ابنه ، فقال السّموأل في ذلك :

وفيْتُ بأدرُع الكِنْدِيّ انىّ
اذا ماذُمّ أقوامٌ وفيتُ
وأوصى عادياً يوماً بأن لا
تُهَدّمَ ياسموألُ مابنيتُ
بنى لى عادياً حِصْناً حَصِيْناً
وماءً كلّما شِئتُ استَقيتُ

وقد ذكر الأعشى هذه الحادثة فقال :

كُنْ كالسّموأل اذ طافَ الهُمَامُ به
في جَحْفَلٍ كسوادِ اللّيل جرّارِ
اذ سامه خُطّتَيْ خَسْفٍ فقال له
قُلْ ماتشاءُ فاني سامع حارِ

فقال : غَدْرٌ وثُكْلٌ أنت بينهما

فاخْتَرْ فما فيهما حظٌ لمُخْتارِ

فَشَكَّ غيرَ طويلٍ ثمَّ قال له :

أَقْتُلْ أسيرَكَ انيَّ مانعٌ جاري[٢٥]

وكان حُجر قد قُتل ، فأراد ابنه امرؤ القيس أن يأخذ بثأر أبيه ، فقصد قيصر الرّوم ليستعين به على الذين قتلوا أباه ، فمات دون أن يحقّق هدفه[٢٦] .

وقد اشتهر الحارث في التاريخ الاسلاميّ ، بأنّه أحد الملوك الذين وجّه اليهم النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم كتاباً يدعوه فيه وقومه الى الاسلام ، فلمّا استمع الى كتاب النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم قال : « مَنْ ينزع ملكي مني ! أنا سائر اليه » ، ولم يُسْلِم . ومات الحارث سنة ثمان الهجرية (٦٣٠م) ، أي في عام فتح مكّة[٢٧] .

نستطيع أن نستنتج ، أنّ الحارث كان متكبّراً مغرورا ، والدليل على ذلك أنّه حارب تَغْلِب لأنّ جماعة منهم لم يستقبلوه حين مرّ بهم مرورا عابرا .

وأنّه كان غِرّاً ساذجا ، والدليل أنّه صدّق خصمه في ميدان القتال ، فقُتل ولداه بخديعة خصمه وغدره ، دون أن يتذكر أن الحرب خدعة .

وأنّه يفتقر الى المرونة والحكمة ، والدّليل أنّه قاتل يوم مرج حليمة ، دون أن يفاوض عدوّه ويحاول اقرار السّلام والابتعاد عن الحرب ، ودون

---

(٢٥) ابن الاثير (١/٥١٨ ــ ٥٢٠) ، وحار في البيت الرابع من شعر الاعشى : ترخيم حارث ، انظر الاغاني (٢٢/١٢٠) .

(٢٦) انظر التفاصيل في : ابن الاثير (١/٥١١ ــ ٥٢٠) .

(٢٧) تاريخ الخميس (٢/٣٩) ، انظر الاعلام للزركلي (٢/١٥٧) ــ ط ٢ ، والقاموس الاسلامي (٢/٨) .

أن يستنفد كل جهوده للصلح مع عدوه .

وأنّه بعيد عن الأمانة والحنان ، والدليل على ذلك أنّه أراد أن يتخلّى المؤتمنُ عن أمانته ، والا قتل ولد المؤتمن جزاء أمانته . فلما أصرّ المؤتمن على التّمسك بأمانته التي في حوزته ؛ قتل الحارث أحد أبناء المؤتمن الذي أسره صبرا ، وهذا دليل على قوته وبغيه أيضا .

وأنّه كان يميل الى الحرب ولايميل الى السّلام ، والدليل على ذلك ، أنه قضى معظم أيامه في القتال مع أبناء عمه وقومه ، لا مع الروم والفرس الذين يستعبدون قومه ويستعمرون بلادهم .

وهذا المتكبّر المغرور ، الغرّ السّاذَج ، المتعصّب الأحمق ، الغادر ، المغتال ، المتعطّش الى الدّماء ، الهاوي للحرب الكاره للسّلام ، لايمكن أن يعتنق الاسلام بما فيه من سماحة ومُثُل عُليا واقرار للسّلام .

٢ ـ السفارة النبوية :

بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبل الفتح ـ فتح مكّة ـ وبعد الحُدَيْبِيَة رسله الى الملوك[٢٨] والرؤساء ، وذلك في شهر ذي الحجّة سنة ست الهجريّة[٢٩] ، أي في نهاية السنة السّادسة الهجريّة ، فبعث من جملة مَنْ بعث اليهم شُجَاع بن وَهْب الأَسَدِيّ الى الحارث بن أبي شَمِر الغَسّانِيّ يدعوهم الى الاسلام ، وكتب كتابا .

قال شجاع : « فأتيتُ اليه وهو في غُوْطَة دِمشق ، وهو مشغول بتهيئة الانزال والأَلطاف لقيصر (هِرَقْل) وهو في طريقه من حِمْص الى

---

(٢٨) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١) وجوامع السيرة (٢٩) .
(٢٩) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١) والطبري (٦٤٤/٦) ، وانظر سيرة ابن هشام (٢٧٨/٤) .

إيلياء (بيت المقدس) ، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة ، فقلت لحاجبه : اني رسول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اليه ، فقال : لاتصل اليه حتى يخرج يوم كذا وكذا ، وجعل حاجبه وكان رومياً يقال له : مُرّى يسألني عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فكنت أحدثه عن صفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما يدعو اليه ، فيرق حتى يغلبه البكاء ، ويقول : اني قد قرأت الانجيل ، فأجد صفة هذا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعينه ، فأنا أؤمن به وأصدّقه وأخاف من الحارث أن يقتلني ، وكان يكرمني ويحسن ضيافتي .

« وخرج الحارث يوماً ، فجلس ووضع التّاج على رأسه ، فأذن لي عليه ، فدفعت اليه كتاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقرأه ، ثمّ رمى به ، وقال : مَنْ ينتزع منيّ مُلكي ؟ أنا سائر اليه ، ولو كان باليَمَن جئتُه ، عَلَيّ بالنّاس ! فلم يزل يفرض حتى قام ، وأمر بالخيول تُنْعَل ، ثمّ قال : أخبر صاحبك ماترى !

« وكتب الى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه ، فكتب اليه قيصر : ألاّ تسير اليه والْهُ عنه ووافني بايلياء . فلما جاءه جواب كتابه ، دعاني فقال : متى تريد أن تخرج الى صاحبك ؟ فقلت غداً ! فأمر لي بمائة مثقال ذهب ، ووصلني مُرّى وأمر لي بنفقة وكسوة ، وقال : أقرِىءْ رسول الله صلّى الله عليه وسلم مني السلام ، فقدمت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته ، فقال : بادَ ملكه ! وأقرأته السّلام من مُرّى ، وأخبرته بما قال ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : صَدَق » ، ومات الحارث بن شَمِر عام الفتح[30] ، كما ذكرنا .

وفي رواية ثانية ، أنّ شُجاع بن وَهْب قد بعثه النبيّ صلّى الله عليه

---

(٣٠) طبقات ابن سعد (١/٢٦١) وانظر ابن الاثير (٢/٢١٣) والبداية والنهاية (٤/٢٦٨) ، وانظر طبقات ابن سعد (٣/٩٤ ــ ٩٥) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٦٣) .

وسلّم الى الحارث بن ابي شَمِر الغسّانيّ وابن عمّه جَبَلَة بن الأَيْهَم ملكى البَلْقَاء من أعمال دمشق[٣١] ، وكانوا بِغُوطَة دِمشق[٣٢] .

وفي رواية ثالثة ، أنّ النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم بعث شجاعاً الى جَبَلَة بن الأَيْهَم الغسّانى[٣٣] .

والرواية الأولى أصحّ ، لأنّ الحارث بن أبى شَمِر هو الذى كان على الغساسنة حينذاك وكان ابن عمّه جَبَلَة من أبرز شخصيّات العائلة المالكة في حينه ، ولكنّه لم يكن ملك الغساسنة .

وكما أنّ الحارث لم يُسْلِم ، كذلك لم يُسْلِم جَبَلَة يومئذٍ ، وقد تولىّ المُلْكَ بعد موت ابن عمّه الحارث سنة ثمانٍ الهجريّة ، فكان جَبَلَة آخر ملوك غسّان . وقد أسلم في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثمّ ارتدّ وتنصّر بعد ذلك ولحق بالرُّوم . وكان سبب تنصّره ، أنّه مرّ في سوق دمشق ، فأوطأ رجلاً فرسَه ، فوثب الرّجل ولطمه ، فأخذه الغسّانيّون وأدخلوه على أبى عُبَيْدَة بن الجرّاح رضى الله عنه[٣٤] ، فقالوا : « هذا لطم سيّدنا » ، فقال أبو عُبَيْدَة : « البيّنة أنّ هذا لطمك ؟ ! » ، فقال جَبَلَة : « وما تصنع بالبيّنة ! » ، فقال : « انْ كان لطمكَ لَطَمْتَه بلطمتك » ، قال : « ولا يُقْتَل ؟ » ، قال : « لا ! » ، قال : « ولا تُقْطَع يَدُه ؟ ! » ، قال : « لا ! انّما أمرَ اللهُ بالقِصاص ، فهى لطمة بلطمة» ، فخرج جَبَلَة ، ولحق بأرض الرّوم ، وتنصّر ، ولم يزل

---

(٣١) جوامع السيرة (٢٩ – ٣٠) وانظر سيرة ابن هشام (٢٧٩/٤) والمحبر (٧٦) وابن الاثير (٢١٠/٢) .
(٣٢) ابن الاثير (٢١٣/٢) .
(٣٣) سيرة ابن هشام (٢٧٩/٤) .
(٣٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (٥٤ – ٨١) .

هناك الى أن هلك[٣٥] .

ويبدو أنّ تصرّف الحارث مع السّفير النبوى بعد تسلّمه الكتاب النبوي منه ، وتوعده بالسير الى النبي صلى الله عليه وسلم لقتاله ، كان مظاهرة لارضاء هرقل ، لأنّه توقّع أنّ هرقل يرفض الاسلام ولايقبل بلقاء السفير النبوىّ ، ولايبدو أنّه عازم على تنفيذ وعيده الغاضب ، وانّما أرسل تهديده الشّديد ارضاءً لهرقل وللرّوم أسياده .

فلما تكشّفت نيّات هرقل في قبوله شخصيّاً السفير النبوىّ الذى قصده بكياسة وتعقّل ولين ، وانكشف منعه الحارث من السّير الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، والتوجّه لمقابلته واستقباله في بيت المقدس ، نكص الحارث على عقبيه ، وانقلبت حدّته لينا ، وقسوته رحمة ، وشدّته سماحة ، ووعيده وَعْدا ، فأكرم السّفير النبوىّ ووصله وعامله بالحُسْنى .

وهكذا كان الحارث ملكيّاً أكثر من الملك ، وقيصريّاً أكثر من القيصر ، وبرزت عمالته للرُّوم بشكل واضح جَلِيّ ، فهو كالقيصر حيث مال يميل ، وكلّ مايُرْضى القيصر فهو عند الحارث جميل .

واذا كان متكبّراً على أبناء جلدته ، فهو عبد للرُّوم وللقيصر ، كأنّه أسدٌ هصور على قومه ، ونعامة مستخذية على الأجانب .

أما جَبَلَة ، فقد أسلم مضطرّاً كما يبدو ، لأنّ المسلمين فتحوا بلاده ، فأصبح رجلاً من المسلمين له مالهم وعليه ماعليهم ، ولم يبق ملكا . ولكنّه عاش مع المسلمين بعقليّة جاهليّة ، فكان مسلماً من قوارير ، ولم يحسن

---

(٣٥) المعارف (٦٤٤) ، وقد ورد في بعض المصادر ، ان جبلة ارتد في المدينة المنورة .
ولاخلاف في انه ارتد وعاد الى النصرانية ، وكان الغساسنة قبل ان يسلم منهم من اسلم على دين النصارى .

اسلامه أبدا ، لذلك ارتدّ حين تأثّرت مصالحه ، ولم يُطبق عدل الاسلام ، ولم يستطع أن يتحمّله .

لقد كان جبلة مثلاً حياً من أمثلة الجاهلية الذى جاء الاسلام لاجتثاثها من جذورها ، فهى عصبيّة وتعصّب ، وعمل للفرد والقبيلة ، لالله والمجتمع الاسلامي ، كما يأمر به الدين الحنيف .

وكان نصّ كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى الحارث :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمّد رسول الله

الى الحارث بن أبى شَمِر .

سلام على مَنْ اتّبَعَ الهُدَى وآمَنَ بالله

وصَدّق . فانى أدعوكَ الى أن تؤمن بالله وحدَه ،

لا شريكَ له يبقى ملكك[٣٦]

الله
علامة الختم : رسول
محمد

فقدم عليه شُجاع بن وَهْب ، فقرأه عليه ، فقال : « ومَنْ ينتزع ملكى ؟! انّى سأسير اليه »[٣٧] .

لقد استطاع شجاع بن وهب ، أن يصل الى ملك الغساسنة ، الحارث بن

---

(٣٦) البداية والنهاية (٢٦٨/٤) ، وانظر : مجموعة الوثائق السياسية (٦٢ ــ ٦٣) للاطلاع على مصادر ومراجع نص الكتاب النبوى فيها .

(٣٧) البداية والنهاية (٢٦٨/٤) .

أبي شَمِر ، وفي ظروف صعبة للغاية ، اذ كان الحارث في شغل شاغل عن شجاع بالتحضيرات الدائبة لاستقبال قيصر الرّوم هرقل ، وهو في طريقه الى بيت المقدس ، شكراً لله تعالى على نصره المؤزر له على الفُرس في معارك طاحنة استمرّت بضع سنين بدون هوادة ، فقدّم شجاع كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى الحارث ملك الغساسنة ، ودعاه الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فبلّغ الرّسالة وأدىّ الأمانة ، ونجح بالتأثير على أحد حاشية الملك :فأسلم حاجب الملك وهو من أقرب المقرّبين الى الملك وأعلن اسلامه .
ولابدّ أنّ شجاعاً بأسلوبه الحصيف في الدّعوة الى اللّه ، أثر في غير هذا الحاجب الذى أعلن اسلامه .

أما الحارث ، فلم يستجب للدعوة يومئذٍ ، خوفاً على مُلكه ، وخوفاً من الرّوم النّصارى الذين كانوا يحتلّون بلاد الشّام حينذاك ، وخوفاً من قيصر الرّوم هرقل ، وكان الغساسنة من رعايا هرقل ، يدينون له وللرّوم بالطّاعة والولاء .

لقد كان الحارث مسلوب الارادة بالنسبة لهرقل والرّوم ، فارادته تبع لارادتهم ، ولا مجال له للاختيار ، فهو تابع لا متبوع ، لا يعمل عملاً يرفضه هرقل ، بل يعمل ما يريده هرقل لمصلحة الرّوم أولاً وأخيراً وقبل كلّ شيء ، أما مصلحة الغساسنة والعرب فكانت يومئذٍ غائبة عن الميدان .

الى هَوْذَة بن عَلِيّ الحَنَفِيّ ملك اليَمامَة[٣٨]

١ ـ هَوْذَة بن عليّ الحنفيّ :

هو هَوْذة بن عليّ بن ثُمامة بن عمرو بن عبدالعُزّى بن سُحَيْم بن مُرّة بن الدُّوْل بن حَنِيْفَة[٣٩] .

وحَنِيْفة بن لُجَيْم بن صَعْب بن عليّ بن بَكْر بن وائل[٤٠] بن قاسِط بن هِنْب بن أَفْصَى بن دُعميّ بن جَدِيلة بن أَسَد بن ربيعة بن نِزار[٤١] .

كان على بني حَنِيفة في اليمامة من نَجْد ، وكان شاعرها وخطيبها قبل الاسلام وفي العهد النبويّ .

توجّه الى كسرى[٤٢] ، وسبب ذلك ، أنّ عامل كسرى على اليمن بعث بأموالٍ وطُرَف من طُرَف اليمن الى كسرى ، فلما صارت ببلاد بني تميم انتهبوها . وسار أصحاب العِير الى هوذة بن عليّ الحنفيّ باليمامة ، فكساهم وزوّدهم وحملهم ، وسار معهم حتى دخل على كسرى . وكان لهوذة جمال وبيان ، فأعجب به كسرى وحَفِظَ له ما كان منه ، ودعا بعِقْد درّ فعقد

---

(٣٨) اليمامة : معدودة من نجد ، وكانت تسمى قديماً : جواً والعروض ، وقاعدتها حجر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٥١٥ ـ ٥٢٢) .
(٣٩) جمهرة انساب العرب (٣١٠) .
(٤٠) جمهرة انساب العرب (٣٠٩) .
(٤١) جمهرة انساب العرب (٣٠٢) .
(٤٢) جمهرة انساب العرب (٣١٠) .

على رأسه وكساه قَباء[٤٣] ديباج مع كسوة كثيرة ، فمن ثَمَّ سُمّيَ هوذة : ذا التاج .

وقال كسرى لهوذة : « أرأيتَ هؤلاء القوم الذين صنعوا ما صنعوا ، من قومك هم ؟ » ، قال : «لا» ، قال : « أصلحٌ هم لك » ، قال : «بيننا الموت ! » ، قال : « قد أدركتَ بعض حاجتك ، ونلتَ ثأرك » .

وعزم كسرى على توجيه الخيل الى بنى تميم ، فقيل له : « انَّ بلادهم بلاد سوء ، انّما هي مفاوز وصحارى لا يُهتَدَى لمسالكها ، وماؤهم من الآبار ، ولا يؤمن أن يعوّروها فيهلك جندك » ، وأُشير عليه أن يكتب الى عامله في البحرين الذى كان العرب يسمّونه : المُكَعبِرْ ، وانّما سُمّى المكعبر ، لأنه كان يقطع الأيدى والأرْجُل ، وآلى كسرى ألاّ يدع في بنى تميم عَيْناً تطرِف ، ففعل ووجّه لعامله على البحرين رسولا .

ودعا كسرى بهوذة ، فجدّد له كرامةً وصِلَةً ، وقال : « سِرْ مع رسولى هذا ، فاشْفِنِي واشْتَفِ » .

وأقبل هوذة والرّسول معه حتى صار الى المكعبر ، وذلك قريب أيّام اللّقاط[٤٤] ، وكان بنو تميم يسيرون في ذلك الوقت الى هَجَر[٤٥] للميرة واللّقاط ، فنادى منادي المكعبر : « من كان هاهنا من تميم فلْيَحْضر ، فانّ الملك قد أمر لهم بميرة وطعام يُقَسَّم فيهم ، فحضروا ، فأدخلهم المُشَقَّر — وهو حصن — وقتل رجالهم واستبقى يومئذ الغلمان ، وجعل الغلمان في السّفن ، وعبر بهم الى فارس .

---

(٤٣) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب او القميص ويتمنطق عليه ، انظر المعجم الوسيط (٢/٧١٣) .
(٤٤) اللقاط بالضم : جمع اللقاطة ، وهو ما التقط من كرب النخل بعد الصرام
(٤٥) هجر : قاعدة البحرين ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤٤٥ — ٤٤٧) .

وكلّم هوذةُ المكعبر يومئذٍ في مائة من أسرى بني تميم ، فوهبهم له يوم الفِصْح ـ من أعياد النّصارى ـ فأعتقهم ، ففي ذلك يقول الأعشى :

سائل تَميماً بـه أيّامَ صَفْقَتِهِمْ
كما أتَوْهُ أسارى كلّهم ضَرَعا[٤٦]
وَسْطَ المُشَقَّرِ في غَبْراءَ مُظْلِمَةٍ
لا يستطيعون بعد الضُّرِّ مُنْتَفَعا
فقال للمَلْكِ أطْلِقْ منهمُ مائةً[٤٧]
رِسْلاً من القَوْلِ مَخْفُوضاً وما رَفَعا
فَفَكّ عن مائةٍ منهم اسارَهُمُ[٤٨]
وأصبحوا كلّهم من غلّه خُلِعا
بهم تَقَرّبَ يومَ الفِصْحِ ضاحِيَةً[٤٩]
يرجو الالهَ بما أسدى وما صَنَعا[٥٠]
فلا يَرَوْنَ بذاكُمْ نِعْمَةً سَبَقَتْ
ان قال قائلها حَقّاً بها وسِعا

يصف بني تميم بالكفر لنعمته[٥١] .

وفي رواية ، أن كسرى بعث الى عامله باليمن بعِيرٍ ، وكان باذان على الجيش الذى بعثه كسرى الى اليمن ، فكانت العير تُخْفَرَ من المدائن ، حتى تدفع الى النّعمان في الحيرة ، فيخفرها النّعمان بخفراء من بني ربيعة ومُضَر

---

(٤٦) من قصيدة في ديوانه (٧٢ ـ ٨٧) ، والضرع بفتحتين : الذليل الضعيف
(٤٧) في الديوان : « سرح منهم مائة » .
(٤٨) في الديوان : « وثاقهم » .
(٤٩) في الديوان : « يوم الفتح » .
(٥٠) في الديوان : « سدى » .
(٥١) انظر التفاصيل في : الطبرى (١٦٩/١ ـ ١٧١) وابن الاثير (٤٦٨/١ ـ ٤٦٩) .

حتى يدفعها الى هَوْذَة فيخفرها حتى يخرجها من أرض بني حنيفة ، ثم تدفع الى بني سعد من تميم وتجعل لها جِعالة ، فتسير بها ، فيدفعونها الى باذان باليمن .

فلما بعث كِسْرى بهذه العير ، قال هَوْذَة لفرسان كسرى : « انظروا الذي تجعلونه لبني تميم ، فأعطونيه ، فأنا أكفيكم أَمْرَهم ، وأسير فيها معكم ، حتى تبلغوا مَأْمنكم » .

وخرج هوذة وفرسان كسرى والعير معهم من هَجَر ، حتى اذا كانوا في أرض بني سعد في نجد ، سار بنو سعد وهم من تميم الى العير ، وأخذوا ماكان معهم واقتسموه وقتلوا عامة فرسان كسرى وسلبوهم ، وأسروا هوذة بن عليّ ، فاشترى هوذة نفسه بثلاثمائة بعير ، فساروا معه الى هَجَر ، وأخذوا منه فداءَه ، ففي ذلك يقول شاعر بني سعد :

ومنّا رئيسُ القوم ليلةَ أَدلَجُوا
بِهَوْذَة مقرونَ اليدينِ الى النَّحْرِ
وَرَدْنا به نَخْلَ اليَمامة عانياً
عليه وَثاق القِدّ والحَلَق السُّمْرِ

وعمد هوذة عند ذلك الى فرسان كسرى الذين أطلقهم بنو سعد ، وكانوا قد سُلبوا ، فكساهم وحملهم ، ثمّ انطلق معهم الى كسرى . وكان هوذة رجلاً جميلاً شجاعاً لبيباً ، فدخل على كسرى وقصّ عليه أمر بني تميم وما صنعوا ، فدعا كسرى بكأسٍ من ذهب فسقاه فيها وأعطاه اياها وكساه قباء ديباج منسوجاً بالذّهب واللّؤلؤ ، وقلنسوة قيمتها ثلاثون ألف درهم ، وهو قول الأعشى :

له أكاليل بالياقوت فصّلها
صوّاغها لاترى عَيْباً ولاطَبَعا

وذُكر انّ كسرى سأل هوذة عن ماله ومعيشته ، فأخبره أنّه في عيشٍ رَغد ، وأنّه يغزو المغازي فيُصيب . فقال كسرى : « كم ولدُك ؟» ، قال : «عشرة» ، قال : «فأيّهم أحب اليك ؟» ، قال : «غائبهم حتى يقدم ، وصغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يبرأ » ، فقال كسرى : «الذى أخرج منك هذا العقل ، حَمَلكَ على أن طلبت منى الوسيلة »(٥٢) .

لقد كان هوذة شجاعاً لبيباً شاعراً خطيباً ، وكانت صلته طيبة مع كسرى. ويبدو أنّ واجبه كان يقتصر على حراسة قوافل كسرى في طريقها من المدائن الى اليمن ، ومن اليمن الى المدائن ، وكانت حراسته لتلك القوافل ، تنحصر في منطقة اليمامة من نجد ، وكان يكتسب بهذه الحراسة وبولائه لكسرى ، وأخباره في المصادر العربية قليلة ومضطربة أيضا(٥٣) ، وكان نصرانياً ، ومات سنة ثمان الهجرية (٦٣٠م) .

٢ ـ السفارة النبوية :

بعث النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم رسله الى الملوك والأمراء قبل الفتح ـ فتح مكّة المكرّمة ـ وبعد الحديبية(٥٤) ، في شهر ذى الحجّة من السّنة السّادسة الهجرية ، بعد رجوعه من الحُدَيْبيَة الى المدينة المنوّرة ، فأرسل الرّسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وكتب اليهم كتباً ، فقيل : يارسول اللّه ! انّ الملوك لا يقرأون كتاباً الاّ مختوما ، فاتّخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذ خاتماً من فضّة ، فصّه منه ، نقشه ثلاثة أسطر ، محمد رسول الله ، لفظ الجلالة سطره الأعلى ، ورسول

---

(٥٢) الاغانى (١٧/٣١٩ ـ ٣٢١) .

(٥٣) انظر ماجاء عنه في : عيون الاثر (٢/٢٦٩) والروض الانف (٢/٢٥٣) وصفة جزيرة العرب (١٣٩) والاعلام للزركلى (٩/١١١ ـ ١١٢) .

(٥٤) الطبرى (٢/٦٤٤) وابن الاثير (٢/٢١٠) وجوامع السيرة (٢٩) .

سطره الأوسط ، ومحمّد سطره الثالث ، وختم به الكتب[٥٥] ، فبعث سَلِيْط بن عمرو ، أحد بني عامر بن لؤيّ الى ثُمَامَة بن أُثال وهَوْذَة ابن عليّ الحَنَفِيَيْن مَلِكي اليَمَامة[٥٦] .

وفي رواية أخرى ، أنّ النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم ، بعث سَلِيط بن عمرو الى هَوْذَة بن علي الحَنَفِيّ[٥٧] .

ويبدو أنّ هَوْذَة كان أشهر من ثُمَامَة وأوسع سلطانا ، وكان الرّجلَ الاول في السّلطة ، فاقتصر قسم من المؤرّخين على ذكره وحده دون سواه . أما مصادر رجال الحديث ، فقد ذكرت أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعثه الى هوذة وثمامة معاً[٥٨] ، لأنّهما كانا المسيطرين على اليمامة ، ولكن رسالة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى هَوْذة كانت تختلف عن رسالته الى ثُمامة ، لأنّ الثاني كان مسلماً كما سترد قصّة اسلامه وشيكا ، أما الاول فكان نصرانيّا .

وكان نصّ كتاب النبيّ صلّى لله عليه وسلّم الى هوذة بن عليّ الحَنَفِيّ :

---

(٥٥) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١) .

(٥٦) سيرة ابن هشام (٢٧٩/٤) وأسد الغابة (٣٤٤/٢) وجوامع السيرة (٢٩) .

(٥٧) تاريخ خليفة بن خياط (٤١/١) والطبرى (٦٤٤/٢) وابن الاثير (٢/ ٢١٠) والبداية والنهاية (٢٧٣/٤) وانساب الاشراف (٥٣١/١) وطبقات ابن سعد (٢٠٣/٤) .

(٥٨) أسد الغابة (٣٤٤/٢) والاستيعاب (٦٤٥/٢ — ٦٤٦) .

(٥٩) صبح الاعشى للقلقشندى (٣٧٩/٦) والقسطلانى (٢٩٥/١) ، وانظر مجموعة الوثائق السياسية (٩١) للاطلاع على تفاصيل المصادر والمراجع الاخرى .

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمّد رسول الله .

الى : هَوْذَة بن عَلِيّ .

سلام على مَنْ اتّبع الهُدى ، واعلم أنّ دينى سيظهر الى مُنْتَهَى الخُفّ والحافِر ، فأسْلِمْ تَسْلَم ، وأجعل لك ما تحت يديك »(٥٩) .

علامة الختم : الله رسول محمد

وقدم سليط بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى هوذة ، فانزله وحباه ، وقرأ كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وردّ عليه رَدّاً دون رد ، وكتب الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم :

« ما أحسن ماتدعو اليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمرِ أتّبِعْك » .

التوقيع

وأجاز سليط بجائزة وكساه أثواباً من نسج هَجَر(٦٠) ، فقدم بذلك كلّه على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأخبره بما قال هوذة ، فَقَرىء للنبيّ

---

(٦٠) هجر : قاعدة البحرين ، وربما قيل : الهجر ، بالالف واللام . وقيل ناحية البحرين كلها هجر ، وهو الصواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٤٥/٨ ـ ١٤٧) .

صلّى الله عليه وسلّم كتاب هوذة ، فقال : « لوسألني سَيَابَة[٦١] من الأرض ما فعلت ! بادَ وبادَ ما في يديه ! » ، فلما انصرف من عام الفتح ، جاءه جبْريل فأخبره أنّه قدمات[٦٢] .

وسكت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن هوذة ومَن معه تاركاً أمرهم للأيّام ، بعد أن بلّغهم الرّسالة وأدّى الأمانة . ويبدو أنّ هوذة أخذ المبادرة بعد أن لم يُحَقّق له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أطماعه غير المشروعة ، فبعث وفداً فيهم مُجّاعة بن مُرَارة والرجّال بن عُنْفُوَة الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول له :

« ان جعل له الأمر من بعده أسلم وسار اليه ونصره ، والاّ قصد حربه » .

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :

« لا ولاكرامة ، اللّهمّ اكفنيه »

فمات بعد قليل ، أى في السنة الثامنة الهجريّة كما ذكرنا .

وأما مجّاعَة والرّجّال ، فأسلما . وأقام الرّجّال عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، حتى قرأ سورة البقرة وغيرها ، وتفقّه ، وعاد الى اليمامة ، فارتدّ[٦٣] ، في فتنة مُسَيْلمَة الكذّاب .

وهكذا لم يسلم هوذة ، ومات على دينه نصرانياً ، وقد حرمته أطماعه في متاع الدنيا الفاني من اعتناق الدين الحنيف الباقي ، اذ أراد أن يتّخذ من اسلامه وسيلة لتحقيق تلك الأطماع ، فلم يُفلح في مسعاه .

---

(٦١) سيابة : واحدة السياب ، وهو البسر الاخضر من ثمر النخل ، لافائدة فيه . وسيابة من الارض : مالافائدة فيه من الارض .
(٦٢) طبقات ابن سعد (١/٢٦٢) .
(٦٣) ابن الاثير (٢/٢١٥) .

أما ثُمامة بن أُثال الحَنَفِيّ[٦٤] الذي كان سيّد أهل اليَمامة ، والذي روى حديثه أبو هُرَيْرَة رضى الله عنه[٦٥] ، فأمره مختلف جداً عن هَوْذَة ، فقد أسلم ثُمامة قبل هُدْنة الحُدَيْبِيَة ، وقد قصده سَليط كما قصد هَوْذَة ، لشدّ أزره في الدّعوة الى الاسلام ، ولم تذكر المصادر المعتمدة نصّ كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اليه[٦٦] .

وقصّة اسلام ثُمامة بايجاز ، هي : خرجت خيل لرسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فأخذت رجلاً من بني حَنِيفَة لايشعرون مَنْ هو ، حتى أتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : «أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثُمامة بن أُثال الحَنَفِيّ ! أحسنوا اساره ! » .

ورجع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى أهله ، فقال : « اجمعوا ماكان عندكم من طعام ، فابعثوا به اليه » ، وأمر بِلِقْحَة[٦٧] أن يُغْدى عليه بها ويُراح ، فجعل لايقع من ثمامة موقعا . ويأتيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيقول : « أسْلِمْ ياثمامة » ، فيقول : « ايْهاً يامحمّد ! انْ تَقْتُل تَقْتُل ذا دمٍ ، وانْ تُرِدِ الفِداء فَسَلْ ماشِئْتَ » ، فمكث ماشاء الله أن يمكث .

ثمّ قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يوماً : : « أَطْلِقوا ثُمامة » ، فلما أطلقوه خرج حتى أتى البَقِيْع[٦٨] ، فتطهّر فأحسن طهوره ، ثمّ أقبل

---

(٦٤) هو ثمامة بن اثال بن النعمان بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة الحنفى ، انظر جمهرة انساب العرب (٣١٢) .

(٦٥) الاستيعاب (٢١٣/١) واسد الغابة (٢٤٦/١) والاصابة (٢١١/١) .

(٦٦) امتاع الاسماع للمقريزى (٣٠٨/١) .

(٦٧) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن . (ج) : لقاح .

(٦٨) البقيع : بقيع الغرقد . والغرقد : كبار العوسج . والبقيع لغة : الموضع الذى فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، وبه سمى : بقيع الغرقد ، وهو مقبرة اهل المدينة المنورة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٣/٢ - ٢٥٤) ، ولا تزال مقبرة اهل المدينة المنورة بهذا الاسم حتى اليوم .

فبايع النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم على الاسلام .

ثمَّ خرج ثُمامة مُعْتَمِراً ، فلما قدم مكّة قالوا : « صَبَوْتَ ياثُمام ؟ ! » ، قال : « لا ، ولكنّني اتّبعتُ خير الدِّين : دين محمّد . ولا والله لاتصل اليكم حبّة من اليمامة ، حتى يأذن فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم » .

وخرج ثُمامة الى اليمامة ، فمنع أهلها أن يحملوا الى مكة شيئاً ، فكتبوا الى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « انّك تأمر بِصِلَةِ الرَّحِم ، وانّك قد قطعت أرحامنا » فكتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى ثُمامة أن يُخلّي بينهم وبين الحَمْلِ [69] ، فأخذت القَوافِل تسير من اليَمامة الى مكّة تحمل القمح وأنواع الطعام والتمر وتسير من مكّة الى اليمامة تحمل الأقمشة والجلود والتّوابل والعُطور وغيرها التي تستورد الى مكّة في رحلتي الشتاء والصّيف : من الشّام واليمن ، وتصدّر الى نجد والى غير نجد من الأقطار العربية والى الأقطار غير العربية المجاورة ، والى فارس والرّوم .

وكان أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لثمامة ، في اطلاق الحجر عن القوافل وما تحمل من حبوب وتمر ، لتعود من جديد الى حركتها الدائبة ذهاباً واياباً الى مكة، كان قبل هدنة الحديبية، مع أن الحرب كانت دائرة رحاها بشدّة وعنف بين المسلمين ومشركي قريش في مكّة ، ولكن هذه الحرب المصيريّة بين الطّرفين ، لم تكن سبباً لتجويع قريش ، ولا لقطع صِلَة الرّحم بين المسلمين ومشركي قريش ، فقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُحسن الى مَنْ يسيء اليه والى المسلمين ، أملاً في هدايتهم المرجوّة ، كما لم يكن التجويع وقطع صلة الرّحم من أساليبه في الجهاد .

---

(٦٩) سيرة ابن هشام (٤/٣١٥ ــ ٣١٧) ، وانظر الاصابة (١/٢١١) واسد الغابة (١/٢٤٦ ــ ٢٤٨) والاستيعاب (١/٢١٣ ــ ٢١٦) .

وليس هناك نصّ في المصادر المعتمدة ، يدل على نشاط ثمامة في الدعوة الى الاسلام وبخاصة نشاطه في دعوة زميله هوذة الى الاسلام واقناعه باعتناقه ، ولكن نستطيع ان نستنتج بأنّه بذل جهده في دعوة زميله هوذة الى الاسلام واقناعه باعتناقه ، ولكنّه أخفق في محاولته ، لأنّ هوذة كما ظهر من دراسة سيرته ، لايُعطى شيئا بلا ثمن، فكان يصر على قبض ثمن اسلامه، وكان دفع الثّمن الذى يريده مستحيلا ، فكانت أطماع هوذة سبباً في اخفاق ثمامة في محاولته ، دون تقصير منه في الدعوة الى الاسلام .

وقد يبدو من جهة أخرى ، أنّ سَليط بن عمرو قد أخفق في سفارته النبويّة ، لأن هوذة لجّ في عناده ، ولكن تأثير سَليط في هوذة واضح جَلي ، فلم يُطق صبرا على اعراض النبي صلى الله عليه وسلم عنه ، وجدّد الاتصال بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأبدى رغبته بالاسلام بشروط لم يوافق عليها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، تلك الشروط التى اعتبرها ثمنا لاسلامه . وتجديد هوذة اتصاله بالمسلمين ، دليل على مبلغ تأثّره بسفارة سليط وبمحاولة ثمامة لهدايته أيضا .

ومهما يكن من أمرٍ ، فقد أدّى سليط واجبه كاملاً ، ولكن نجاحه في مهمّته كان محدودا .

❋ ★ ❋

الى جَيْفَر وعَبْد ابْنَيْ الجُلَنْدَى

ملكي عُمَان[٧٠]

– جَيْفَر وعَبْد ابنا الجُلَنْدَى :

(أ) جيفر :

هو جَيْفَر بن الجُلَنْدَى بن كَرْكَر بن المُسْتَكْبِر بن مسعود بن الجُرازى عبد العُزَّى بن مَعْوَلة بن شمس ، ملك عُمَان على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٧١] .

وشمس بن عمرو بن غالب بن عثمان بن نَصْر بن زَهْران بن كَعْب بن الحارث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نَصْر بن الأَزْد الأَزْدِي[٧٢] .

وأخباره قبل سفارة عمرو بن العاص اليه نادرة جداً ، والمعروف عنه أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أرسل عمرو بن العاص اليه والى أخيه عبد ابنى الجلندى بعُمان ، فآمنا وصدّقا[٧٣] ، وكان ذلك في السنة الثامنة الهجريّة (٦٣٠م) .

وقد بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عمرو بن العاص في هذه السنة أيضاً الى جيفر وعبد ابنى الجلندى من الأَزْد بعُمان مصدّقاً ، فأخذ الصّدقة من أغنيائهم ـ أغنياء المسلمين ـ ، وأخذ الجزية من المجوس ، وقد كان المجوس أهل البلد ، وكان العرب حولها[٧٤] .

---

(٧٠) عمان : كورة باليمن ، وهى على ساحل بحر اليمن والهند ، وتشتمل على بلدان كثيرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١٥/٦) .

(٧١) جمهرة انساب العرب (٣٨٤) .

(٧٢) انظر التفاصيل في جمهرة انساب العرب (٣٧٩ ـ ٣٨٣) .

(٧٣) ابن الاثير (٢٣٢/٢) .

(٧٤) ابن الاثير (٢٧٢/٢) .

وكان ارسال عمرو الى جيفر وأخيه ومَنْ معهما من المسلمين ، ومَن في عُمَان من المجوس ، بعد منصرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من حجّة الوَداع[75] ، في السنة العاشرة الهجرية ، مصدّقاً ، فمات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعمرو في عُمان ، فأقبل عمرو من عمان الى البحرين في طريق عودته الى المدينة المنوّرة[76] والصّواب أنّ عَمْراً بقى في عُمان من السنة الثامنة حتى وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، كما سيرد ذلك وشيكا ، وارتدّ أهل عُمان سنة احدى عشرة الهجرية بعد أن التحق النبي صلّى الله عليه وسلّم بالرفيق الأعلى ، فبقى جيفر وأخوه مُسْلِمَيْن والتجأ هو وأخوه الى الجبال ، وبعث جيفر الى أبى بكر يستمدّه ، فجاءه المدد من أبى بكر رضى الله عنه ، فكان لجيفر وأخيه نشاط محمود في حرب المرتدين ، حتى عادوا الى الاسلام من جديد[77] .

ولا نعرف عن جيفر بعد ذلك شيئاً مذكورا ، ولم يقدم على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يَرَه ، ولكنّه أدركه فلم يكن صحابيا .

(ب) عبد :

هو عَبْد بن الجُلَنْدَى بن كَرْكَر بن المُسْتَكْبِر بن مسعود بن الجُراز بن عبد العُزّى بن مَعْوَلَة بن شمس بن عمرو بن غالب بن عثمان ابن زَهْران بن كَعْب بن الحارث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نَصْر ابن الأَزْد الأَزْدِيّ[78] .

واخباره قبل سفارة عمرو بن العاص اليه والى أخيه مجهولة ، ويبدأ ذكره بسفارة عمرو بن العاص اليه والى أخيه .

---

(٧٥) ابن الاثير (٢/٣٥٢) .
(٧٦) ابن الاثير (٢/٣٥٢ ـ ٣٥٣) .
(٧٧) انظر التفاصيل في : ابن الاثير (٢/٣٧٢ ـ ٣٧٣) .
(٧٨) انظر التفاصيل في : جمهرة انساب العرب (٣٧٩ ـ ٣٨٤) .

وسيرته ، في اتصاله بعمرو ، واسلامه ، وثباته على الاسـلام في أيام الرِدّة ، ومقاتلته المرتدين ، تشابه سيرة أخيه جيفر التى تحدثنا عليها قبل قليـل .

ولا نعرف عن عبد بن الجلندى بعد أن وضعت الحرب اوزارها شيئاً مذكورا . ولم يقدم على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يره أيضا ، ولكنّه أدركه دون أن يكون صحابيا .

٢ ــ السفارة النبوية :

بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عمرو بن العاص في شهر ذى القعدة من سـنة ثمـانٍ الهجريّة الى جَيْفَر بن الجُلَنْدَى وأخيه عَبْد بـن الجُلَنْدَى[٧٩] ، وهما من الأَزْد ، والملك منهما جَيْفَر ، يدعوهما الى الاسلام ، وكتب معه كتابا اليهما ، وختم الكتاب . قال عمرو : « فلما قدمت عُمان ، عمدتُ الى عَبْد ، وكان أحلـم الرّجلين وأسهلهما خلقاً ، فقلت : انى رسول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اليك والى أخيك ، فقال : أخى المقدّم عليّ بالسِن والمُلْك ، وأنا أُوصلك اليه حتى يقرأ كتابك ، فمكثت أياماً ببابه ، ثمّ انه دعانى فدخلت عليه ، فدفعت الكتاب اليه مختوماً ، ففضّ خاتمه وقرأه حتى انتهى الى آخره ، ثمّ دفعه الى أخيه فقرأه مثل قراءته ، الاّ أنى رأيتُ أخاه أرقّ منه ، فقال : دعنى يومى هذا ، وارجع اليّ غدا .

---

(٧٩) ا ــ انظر سيرة جيفر في : اسد الغابة (٣١٣/١) والاصابة (٢٧٦/١ ــ ٢٧٧) .
ب ــ انظر سيرة عبد في : اسد الغابة (٣٣٤/٣) والاصابة (١٠٠/٥) ، وورد اسمه في ابن الاثير (٢٧٢/٢) : عياذ ، وكذلك في جوامع السيرة (٢٩) .
والصواب هو : عبد ، لاجماع المصادر المعتمدة كافة عليه .
و ــ انظر البلاذرى (١٠٤) عن سفارة عمرو اليهما .

فلما كان الغد ، رجعت اليه ، قال : انّى فكّرتُ فيما دعوتنى اليه ، فاذا أنا أضعف العرب اذا ملّكتُ رجلاً ما في يدَيّ ! قلت : فانى خارج غدا ! فلما أيقن بمخرجي أصبح فأرسل اليّ ، فدخلت عليه ، فأجاب الى الاسلام هو وأخوه جميعا ، وصدّقا بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وخلّيا بينى وبين الصّدقة وبين الحُكم فيما بينهم ، وكانا لى عَوْناً على مَنْ خالفنى ، فأخذت الصدقة من أغنيائهم ، فرددتها على فقرائهم ، فلم أزل مقيماً حتى بلغنا وفاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم »(٨٠) اذ ولاّه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على عُمَان وأعمالها(٨١) ، فعاد الى المدينة المنوّرة بعد انتقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى الرّفيق الأعلى(٨٢) .

وكان نصّ الكتاب النبوى الذى حمله عمرو بن العاص الى جيفر وعبد ابنى الجلندى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمد رسول الله .

الى جَيْفَر وعَبْد ابنى الجُلَنْدَىّ .

السّـلام على مَنْ اتَّبَع الهُدَى . أما بعـد ،

---

(٨٠) طبقات ابن سعد (٢٦٢/١ ـ ٢٦٣) ، وانظر : المحبر (٧٧) وابن الاثير (٢٧٢/٢) . وفي مغازى الواقدى (٩٧٣/٣) : لمارجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة ، قدم المدينة لثلاث ليال بقين من ذى القعدة سنة ثمان الهجرية ، فبعث عمرو في هلال المحرم سنة تسع الهجرية الى فزارة مصدقا ، وهذا الخبر لا تؤيده المصادر المعتمدة كافة ، انظر مثلا سيرة ابن هشام (٢٧١/٤) والطبرى (١٤٥/٣) .

(٨١) انساب الاشراف (٥٢٩/١) وجوامع السيرة (٢٤) .

(٨٢) ابن الاثير (٣٥٢/٢) .

فانّي أدعوكُما بدعاية الاسلام ، أَسْلِما تَسْلَما ، فاني رسول الله الى النّاس كافةً ، لأُنْذِرَ مَنْ كان حيّاً ويَحقّ القولُ على الكافرين . وانكما إنْ أقررتُما بالاسلام ولّيتُكما ، وإنْ أبَيْتُما أن تُقِرّا بالاسلام ، فانّ مُلككما زائل ، وخيلي تحلّ بساحتكما ، وتظهر نُبوّتي على ملككما »[83] .

وكتب أُبَيّ بن كعب .

علامة الختم : الله
رسول
محمد

لقد كان جيفر أكبر من أخيه عبد سناً ، فكان هو الملك ، ولكن أخاه عبداً كان أكثر عقلاً واتّزاناً ورويّة من أخيه وأرحب صدراً وأوسع أُفقاً ، لذلك تأثّر بكتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبل أخيه ومال الى الاسلام .

أما جيفر ، ففكّر بملكه أولاً ، وخشي عليه من الاسلام ، فما تجاوب مع الكتاب النبوي تجاوباً سريعاً كما تجاوب أخوه ، فطلب جيفر أن يمهله عمرو يوماً واحداً ليفكّر في أمره ملياً ، وليقرّر ما يفعله بعد أن يُقلّب الأمور كما ينبغي .

وهنا برز دور أخيه عبد في حثّ جيفر على اعتناق الاسلام ، وحمل أخيه على الايمان بالله ورسوله ، وألاّ يردّ عمرو بن العاص من عمان الى المدينة المنوّرة خائبا .

---

(82) اعلام السائلين لابن طولون (1/7) والقسطلاني (1/294) وزاد المعاد لابن القيم (62/3) وصبح الاعشى للقلقشندى (380/6) والزرقاني (353/2) ، وانظر تفاصيل مصادر ومراجع الكتاب النبوى في : مجموعة الوثائق السياسية (97) ، الوثيقة الرقم (76) .

واقتنع جيفر بالاسلام ، كما اقتنع اخوه عبد ، فأسلما عن قناعة كاملة لا غبار عليها ، لذلك قدّما الصدقات طوعاً ، وعاونا عمرو بن العاص على جمع الصدقات من الأغنياء وردّها على الفقراء ، وجمع الجزية من المجوس ، وكانا له خير عون في النهوض بمهمته في واجبات الحكم والادارة في عُمَان وماحولها من البلاد •

كما أنّهما ثبّتا على الاسلام ، ولم يرتدّا كما ارتد غيرهما من أهل عُمان ، وتعاونا مع القائد الذي بعثه أبو بكر الصديق الى عُمان ، ومع جيشه في حرب المرتدّين ، حتى عادت عُمان الى الاسلام •

أما عمرو ، فقد كان بحقّ سفيراً متمرّساً ؛ مارس السفارة مرتين قبل الاسلام ، ومارسها هذه المرّة الثالثة بعد الاسلام ، فلا عجب أن يكون تصرّفه في هذه السفارة تصرّفاً حصيفاً يدلّ على الألمعيّة والذكاء الخارق ، فكان حاسماً في جوابه لجيفر بعد يوم من لقائه الأول به ، اذ أظهر له أنّه راحل غدا ، فخاف جيفر من عواقب الأمور ، وبخاصة أنّ العرب دخلوا في دين الله أفواجا ، وفتحت مكّة المكرمة ، وأصبحت وفود العرب تتقاطر الى المدينة من كلّ حدب وصوب ، معلنة اسلامها وأنّها انضوت تحت راية الوحدة والتوحيد في ظلّ الاسلام •

وقد أخفق عمرو في سفارتيه قبل الاسلام ، ولكنّه نجح أعظم النّجاح في سفارته النبويّة بعد الاسلام ، مع أنّه حشد الهدايا للنجاشي ملك الحبشة في سفارته الأولى والثانية ولرجالات النّجاشي من رجال الدين ورجال الدنيا ، أما في سفارته الثالثة التي كانت بعد الاسلام ، فلم يحشد شيئاً من متاع الدنيا يستعين به على انجاح سفارته ، فنجحت بحوافز الروح لا بحوافز المادة ، وانتصر الاسلام بمبادئه ولم ينتصر بشيءٍ آخر من مغريات الحياة •

وهكذا استطاع عمرو ، أن يضمّ عدداً ضخماً من العرب الى الاسلام ، وأن يضمّ بلاداً شاسعة الى بلاد المسلمين •

ولعلّ من المفيد أن أنقل نصّ المحاورة التي دارت بين عمرو بن العاص وعبد بن الجلندىّ ، والمحاورة التى جرت بين عمرو وجيفر ، لابراز أثـر الرجلين : عمرو وعبد في اسلام جيفر واسلام أصحابه .

يقول عمرو بن العاص : « خرجت حتى انتهيت الى عُمان ، فلما قدمتها عهدت الى عبدٍ ، وكان أحلم الرّجلين وأسهلهما خُلقا ، فقلت : انى رسول رسول الله اليك والى أخيك ،فقال:أخى المقدّم علىّ بالسنّ والملك،وأناأوصلك اليه حتى يقرأ كتابك . ثم قال لى : وما تدعو اليه ؟ قلت : أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عُبد من دونه ، وتشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله . قال ياعمرو : انّك ابن سيّد قومك ، فكيف صنع أبوك ، فانّ لنا فيه قدوة . فقلت : مات ولم يؤمن بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم ، ووددت أنّه كان أسلم وصدّق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه ، حتى هدانى الله للاسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريباً . فسألني : أين كان اسلامى ؟ فقلت : عند النّجاشِىّ ، وأخبرته أنّ النّجاشىّ قد أسلم . قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ قلت : أقرّوه واتّبعوه . قال : والأساقفة والرّهبان اتّبعوه ؟ قلت : نعم . قال : انظر ياعمرو ما تقول ! انّه ليس من خصلةٍ في رجل أفضح له من كذب . قلت : ما كذبت وما نستحلّه في ديننا . قال : ما أرى هِرَقْل قد علم باسلام النّجاشىّ ! قال : بأىّ شىءٍ علمت ذلك ؟ قلت : كان النّجاشىّ يُخرج له خَرْجاً ، فلما أسلم وصدّق بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم ، قال : لا والله ، ولو سألنى درهماً واحداً ما أعطيته . فبلغ هرقل قوله ، فقال له (يناق) أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً ويدين ديناً محدثاً ! قال هرقل : رجل رغب في دين واختاره لنفسه ، ما أصنع به ! والله لولا الضنّ بملكى لصنعت كما صنع . قال : انظر ما تقول ياعمرو ! قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرني ما الذى يأمر به وينهى عنه . قلت : يأمر بطاعة الله عزّ وجلّ ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبرّ وصِله الرّحْم .

وينهى عن الظّلم والعُدوان وعن الزّنى وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصّليب . فقال : ما أحسن هذا الذي يدعو اليه ، لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمّد ونصدّق به ، ولكن أخي أضنّ بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا ! قلت : انّه ان أسلم ملّكه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على قومه ، فأخذ الصّدقة من غنيّهم فردّها على فقيرهم . قال : انّ هذا الخُلق حسن ، وما الصّدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم من الصّدقات في الأموال ، حتى انتهيت الى الابل ، فقال : ياعمرو! تؤخذ سوائم مواشينا التي ترعى الشّجر وترد المياه ؟ قلت : نعم ! فقال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا . قال : فمكث ببابه أياماً ، وهو يصل الى أخيه فيخبره كلّ خبري . ثمّ انّه دعاني يوماً فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بَضَبْعي[84] ، فقال : دعوه ! فأُرسلت ، فذهبت لأجلس . فأبوا أن يدعوني أجلس ! فنظرت اليه ، فقال : تكلّم بحاجتك ! فدفعت اليه الكتاب مختوماً ، ففض خاتمه فقرأه حتى انتهى الى آخره ، ثمّ دفعه الى أخيه ، فقرأه مثل قراءته ، الاّ أنّني رأيت أخاه أرقّ منه . ثم قال : ألا تخبرني عن قريش ، كيف صنعت ؟ قلت : تبعوه اما راغب في الدّين ، واما مقهور بالسّيف . قال : ومَنْ معه ؟ قلت : النّاس قد رغبوا في الاسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله اياهم ، أنهم في ضلال ، فما أعرف أحداً غيرك بقي في هذه الحَرَجَة[85] ، وأنت ان لم تسْلِم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل وتُبيد خضراءك ، فأسْلِم تَسْلَمْ ويستعملك على قومك ولاتدخل عليك الخيل والرّجال . قال : دعني يومي هذا ، وارجع اليّ غداً . فرجعت الى أخيه ، فقال : ياعمرو ! انّي لأرجو أن يُسْلِم ان لم يضنّ بملكه ! حتى اذا كان الغد ، أتيت اليه ، فأبى أن يأذن لي ، فانصرفت الى

---

(٨٤) الضبع : مابين الابط الى نصف العضد من اعلاها ، وهما ضبعان .
(٨٥) الحرجة : غيضة الشجر الملتفة ، لايقدر احد ان ينفذ فيها .

أخيه ، فأخبرته أني لم أصل اليه ، فأوصلني اليه ، فقال : انّي فكّرت فيما دعوتني اليه ، فاذا أنا أضعف العرب ان ملّكتُ رجلاً ما في يديّ ، وهو لاتبلغ خيله الى هاهنا ، وان بلغت أَلْفَتْ قتالاً ليس كقتال مَنْ لاقى ! قلت : وأنا خارج غدا . فلما أيقن بمخرجي ، خلا به أخوه فقال : مانحن فيما ظَهَرَ عليه ! ! وكلّ مَنْ أرسل قد أجابه ؟ ! فأصبح فأرسل اليّ ، فأجاب الى الاسلام هو وأخوه ، وصدّقا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وخلّيا بيني وبين الصّدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لي عوناً على مَنْ خالفني »[٨٦] .

وقد نقلت هذه المحاورة التي كانت بين عمرو بن العاص والأخوين المسيطرين على عُمَان ، واللذين مال أحدهما الى الاسلام ابتداءاً ، ومال اليه الثاني انتهاءاً ، وأسلما وحَسُن اسلامهما .

وهذه المحاورة ، تدلّ على أنّ الاسلام قد تغلغل في نفس العربيّ : مابين مؤمن به ، وناظر اليه ، ومخادع فيه ، وأنّه كان موضع تفكير المفكّرين .

وهذه المحاورة ، تدلّ على أنّ الأخوين كانا من النصارى ، وأنّ هِرَقل لأنّه ملك أكبر دولة مسيحيّة ، كانت له هيمنة على نصارى الشّرق بدون استثناء ، بصورة مباشرة ، أو بصورة غير مباشرة .

وتدلّ أيضاً على ايمان النّجاشيّ ، بأنّه لا ولاية لغير المسلم على المسلم ، ولذلك رفض أن يرسل الذى كان عليه أن يؤديه للقيصر هرقل ، وقال في قوّة وحزم : « لاأدفع درهما » .

وفي المحاورة ، ما يومىء الى أنّ الكتاب النبويّ كان بعد فتح مكّة ، لأنّه سأله عن قريش : اتّبعوا محمّداً صلّى الله عليه وسلّم أم لم يتبعوه ، فأجابه عمرو : بأنّهم اتّبعوه ، وكان هذا بعد الفتح لاريب في ذلك :

---

(٨٦) عيون الاثر (٢/٢٦٧ ـ ٢٦٩) .

وأنّه يدلّ على أنّ عمرو بن العاص كان ذا فراسة قويّة ، عندما اختار الأخ الأصغر[٨٧] ، ويدلّ على حنكة عمرو في الحوار ، وأثر حواره في جيفر وفي أخيه ، وأثر عبد في حمل أخيه على اعتناق الاسلام طوعا .

الى المنـذر بن سـاوى
صـاحب البحرين (١)

١ ـ المنذر بن ساوى :

هو المنذر بن سَاوَى[٢] بن عبدالله بن زيد بن عبدالله بن دارم التَّميْمِيّ الدّارِمِيّ صاحب البحرين[٣] .

وينسب المنذر بن ساوى الى : الأسْبَذ ، قرية بِهَجَر ، فيقال : المنذر ابن سَاوَى الأسْبَذِيّ[٤] ، وكان جدّه عبدالله بن زيد بن عبدالله يُعرف بالأَسْبَذِيّ ، نسبة الى القرية المذكوره[٥] .

والمعروف أنّ العرب تنتسب الى قبائلها ، أمـا العجم فينتسبون الى

---

(٨٧) أبو زهرة (الشيخ محمد أبو زهرة) ـ خاتم النبيين (١١٧٥) ـ طبعة دولة قطر ـ ١٤٠٠هـ .

(١) البحرين : هكذا يتلفظ بها في حال الرفع والنصب والجر ، ولم يسمع على لفظ المرفوع من احد منهم ، الا ان الزمخشري قد حكى انه يلفظ بلفظ التثنية ، فيقولون : هذه البحران ، وانتهينا الى البحرين . والبحرين . اسم جامع لبلاد على ساحل الخليج العربي بين البصرة وعمان ، وهجر : قصبة البحرين ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٧٢ ـ ٧٦) .

(٢) جمهرة أنساب العرب (٢٣٢) .

(٣) أسد الغابة (٤/٤١٧) .

(٤) جمهرة أنساب العرب (٦٦٢) .

(٥) جمهرة أنساب العرب (٢٣٢) .

بلدانهم ، ولعلّ اختلاط العرب بالعجم في البحرين ، جعل العرب يأخذون هناك هذه العادة في النسبة الى بلدانهم ، مع المحافظة على النسبة لقبائلهم .

وأخبار المنذر بن ساوى قليلة للغاية قبل اسلامه في المصادر المعتمدة ، ويبدأ ذكره باستقباله العلاء بن الحَضْرَمي يحمل رسالة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، يدعوه وقومه الى الاسلام ، فأسلم المنذر وحسن اسلامه[٦] . وكان العلاء قد دعا المنذر ومَن معه بالبحرين الى الاسلام أو الجزية ، فأسلم المنذر ، وأسلم جميع العرب بالبحرين[٧] .

وفي سنة احدى عشرة الهجرية ، مات المنذر بن ساوى[٨] بعد التحاق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالرفيق الأعلى ، فلما مات المنذر ارتدّ بعده أهل البحرين[٩] ، وكان المنذر نصرانياً قبل اسلامه ، اذ كان قومه من عبد القيس نصارى[١٠] .

لقد كان المنذر عاقلاً متزنا ، فبادر الى اعلان اسلامه ، وكان وفد قومه قد قدم المدينة وأسلم سنة ثمان الهجرية[١١] ، ثمّ عاد الى البحرين ، ولكنّ اسلام المنذر كان قبل قدوم وفدهم الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، ويبدو أنّ الوفد أراد أن يرى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين في المدينة ، فأسلموا هناك في المدينة أو جدّدوا اسلامهم فيها .

وسنجد تفاصيل نشاط المنذر وأعماله بعد اسلامه من خلال الحديث على السفارة النبوية .

---

(٦) ابن الاثير (٢٩٨/٢) .
(٧) ابن الاثير (٢١٥/٢) .
(٨) ابن الاثير (٣٥٢/٢) .
(٩) ابن الاثير (٣٦٨/٢) .
(١٠) ابن الاثير (٢٩٨/٢) .
(١١) ابن الاثير (٢٣٠/٢) .



رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوى امير البحرين حملها اليه الصحابي العلاء بن الحضرمى

نص الرسالة كما جاء في المخطوط حسب الاسطر

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى »
« المنذر بن ساوى سلام عليك فانى احمد الله »
« اليك الذى لا اله غيره واشهد ان لا اله الا »
« الله وان محمدا عبده ورسوله أما بعد فانى اذكر »
« ك الله عز وجل فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه ويطع ر »
« سلى ويتبع امرهم فقد اطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى »
« وان رسلى قد اثنوا عليك خيرا وانى قد شفعتك في »
« قومك فاترك للمسلمين ما اسلموا عليه وعفوت عن اهل »
« الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن »
« أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية »

الله
علامة الختم : رسول
محمد

بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم العلاء بن الحَضْرَمِيّ مُنصرفه من الجِعِرّانَة[١٢] الى المنذر بن ساوى العَبْدِي بالبحرين ، وكتب كتاباً الى المنذر بن سَاوَى مع العلاء ، يدعوه فيه الى الاسلام[١٣] ، وخلى بين العلاء وبين الصّدقة يجتبيها . وكتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للعلاء كتاباً فيه فرائض الصّدقة في الابل والبقر والغنم والثّمار والأموال يُصدّقهم على ذلك ، وأمره أن يأخذ الصّدقة من أغنيائهم فيردّها على فقرائهم[١٤] .

وانصراف النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من الجِعِرّانة كان بعد غزوة الطّائف التي كانت في شهر شوّال من السنة الثامنة الهجرية كما هو معلوم .

وقد بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم العلاء الى المنذر بن سَاوَى أخي عبد القَيْس صاحب البحرين[١٥] سنة ثمان الهجريّة ، فصالح المنذر على : أن على المجوس الجزية ، ولاتؤكل ذبائحهم ، ولاتُنكح نساؤهم[١٦] ، فأسلم المنذر ، وأسلم جميع العرب في البحرين . أما أهل البلاد من يهود ونصارى ومجوس ، فانهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية : من كلّ حالم دينار ولم يكن بالبحرين قتال ، انّما بعضهم أسلم وبعضهم صالح[١٧] .

وكان نصّ كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذى حمله العلاء الحضرميّ الى المنذر بن سَاوَى : وهو الكتاب النبويّ الأول :

---

(١٢) الجعرانة : ماء بين الطائف ومكة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠٩/٣) .

(١٣) طبقات ابن سعد (٣٦٠/٤) وسيرة ابن هشام (٢٧١/٤) والبدء والتاريخ (٢٢٩/٤) و (١٠٢/٥) .

(١٤) طبقات ابن سعد (٣٦٠/٤) .

(١٥) الطبري (٦٤٥/٢) .

(١٦) ابن الاثير (٢٣٠/٢) .

(١٧) ابن الاثير (٢١٥/٢) .

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمَّد رسول الله .

الى : المنذر بن ساوَى .

سلام على مَنْ اتّبع الهُدَى .

أما بعد ، فانى أدعوكَ الى الاسـلام ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، يجعل اللهُ لك ماتحتَ يديك ، واعْلَمْ أَنَّ دينى سيظهر الى مُنْتَهى الخُفّ والحافِر »(١٨) .

الله
علامة الختم : رسول
محمد

وهذا نصّ كتاب آخر ، من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، الى المنذر بن ساوَى ، : وهو الكتاب النبوى الثانى .

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمَّد رسول الله .

الى : المنذر بن ساوَى .

سلام عليك ، فانى أحمد اللهَ اليك الذى لااله غيره ، وأشهد أن لااله الاّ الله ، وأنّ محمّداً عبده ورسوله .

---

(١٨) اعلام السائلين لابن طولون (٢/٤) والزرقانى (٣/٣٥١) وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في : مجموعة الوثائق السياسية (٧٩ ـ ٨٠) ، وانظر نص الكتاب النبوى في : عيون الاثر (٢/٢٧٦) .

أما بعـد ، فإني أذكـّرك الله عز وجـلّ ، فإنّه مَنْ يَنْصَح فانما ينصح نفسه ، وانّه مَنْ يُطِع رسلى ويتّبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومَنْ نصح لهم فقد نصح لى .وانّ رُسُلى قد أثنوا عليـك خيرا ، وانّى قد شفـّعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوتُ عن أهل الذّنوب ، فاقبل منهم ، وانّك مهما تصلح فلن نَعزلك عن عملك ، ومَنْ أقام على يهوديّته أو مجوسيّته فعليه الجزية »[19] .

علامة الختم : محمد رسول الله

وقد ذكر الواقدىّ في تاريخه باسناده ، عن عِكْرِمة مولى عبدالله بن العبّاس رضى الله عنه ، أنّه وجد كتاباً في كُتب عبدالله بن العبّاس بعد موته فنسخه ، فتبيّن فيه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعث العلاء بن الحضرميّ الى المنذر بن ساوَى وكتب اليه كتاباً يدعوه الى الاسلام ، ولم يذكر أنّه عثر على نصّ كتاب النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم ، ولكن وجد ردّ ابـن ساوَى ، واليك نصّ ردّ المنذر :

« أمّا بعد يارسول الله ، فانى قرأت كتابك على أهل هَجَر[20] ، فمنهم مَنْ أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم مَنْ كَرِهَهُ ، وبأرضي مجوس

---

(19) طبقات ابن سعد (٢٦٣/١) وعيون الاثر (٢٦٧/٢) والقلقشندى (٣٦٨/٦) وزاد المعاد (٦١/٣ ــ ٦٢) ، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في مجموعة الوثائق السياسية (٨٠ ــ ٨١) حول نص هذا الكتاب النبوى الكريم ، وانه اكتشف اصل الكتاب في دمشق .

(20) هجر : قاعدة البحريـن ، وقيل : ناحية البحريـن كلهـا هجر ، وهو الصواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٤٥/٨ ــ ٤٤٧) .

ويهود ، فأحدث اليّ في ذلك أمرك »[٢١] .

التوقيع

وكتاب المنذر بن ساوى ، كان جواباً للكتاب النبوى الأول الذى مرّ ذكره قبل قليل ، والكتاب النبوى الثانى جواباً على تساؤل المنذر في كتابه الجوابىّ على الكتاب النبوى الأوّل .

وكتاب المنذر هذا دلّ على أن عبدالله بن العباس ، كان حريصاً على أن يكتب كتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويحفظها في خزانة كتبه ، مما يشير الى اهتمام الصحابة بتسجيل السّنّة النبوية من عهد الرّسالة .

وتدلّ هذه الرسالة ، على أنّ الجزية تفرض على أهل الكتاب والمجوس ، كما تدلّ على ابقاء الوالي الذي يسارع الى الاسلام في إمرته ليبقى أميرهم ، وذلك ليشعر قومه الذيـن كان معهم قبل اسلامه ، أنّ أميرهم منهم وعليهم وليس غريباً عنهم . وما دام مستقيماً فانّه أجدر بالولاية ، لأنّه أعلم بنفوسهم وأخبر بأحوالهم ، يأتيهم من حيث يألفون ويعرفون .

وفي هذا الخبر ، مايدلّ على فرض الجزية على الذين لايؤمنون ، اذا كانوا في ولاية مسلم ، وهم هنا يهود ونصارى ومجوس ، وقد أجمع الفقهاء على فرض الجزية عليهم ، وأجاز أبو حنيفة رضى الله عنه فرض الجزية على الوثنيين غير العرب قياساً على المجوس[٢٢] .

وهذا نصّ كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى المنذر بن ساوى جواباً على تساؤله في كتاب له الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، لاذكر له في المصادر المعتمدة نصـاً ، والكتاب النبوىّ يلقى ضـوءاً على معنى كتاب

---

(٢١) طبقات ابن سعد (١/٢٦٣) وعيون الاثر (٢/٢٦٧) ، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في : مجموعة الوثائق السياسية (٨١ ــ ٨٢) .

(٢٢) خاتم النبيين للشيخ أبى زهرة (٢/١١٧٠ ــ ١١٧١) .

المنذر ، ومعناه لامبناه في المصادر المعتمدة ، وهذا الكتاب هو الكتاب النبوي الثالث :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمد رسول الله .

الى المنذر بن ساوى .

سلام الله عليك ، فاني أحمد الله الذي لااله الا هو .

أما بعد ! فان كتابك جاءني ، وسمعت مافيه ، فمن صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم الذي له مالنا ، وعليه ماعلينا ، ومن لم يفعل فعليه دينار من قيمة المعافري .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، يغفر الله لك »[٢٣]

علامة الختم : رسول الله محمد

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم للعلاء بن الحضرمي عن الزكاة كتاباً ، فيه فرائض الصدقة في الابل والبقر والغنم والثمار والأموال ، يصدقهم على ذلك ، وأمره أن يأخذ من أغنيائهم ، فيردها على فقرائهم[٢٤] .

ولم يرو نص الكتاب[٢٥] .

---

(٢٣) انظر الطبري (٢٩/٣) والقلقشندي (٣٧٦/٦) ، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في : مجموعة الوثائق السياسية (٨٢ ـ ٨٣) ، وانظر أيضاً : البلاذري (١١٠) .

(٢٤) طبقات ابن سعد (٢٦٣/١) .

(٢٥) مجموعة الوثائق السياسية (٨٣) .

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، قد كتب الى العلاء بن الحضرميّ : أن يقدم عليه بعشرين رجلاً من عبد القَيْس ، قوم المنذر بن ساوى ، فقدم عليه بعشرين رجلاً ، رأسهم عبدالله بن عَوْف الأشَجّ[٢٦] ، واستخلف العلاء على البحرين المنذر بن ساوى[٢٧] .

ولم يُرْوَ نصّ الكتاب[٢٨] .

واستخلاف المنذر بن ساوى على البحرين ، ليس معناه أنّه عُزِل بالعلاء ، فقد كان للعلاء واجبه في الدّعوة الى الاسلام ، وتفقيه المسلمين الجُدد بدينهم ، وتعليم القرآن الكريم والسنّة ، وجباية الصدّقات والجزية ، وتوزيع الصدقات على الفقراء من أهل البحرين . أما المنذر ، فكان يسوس قومه ويحلّ مشاكلهم ويحكم بينهم بالعدل . وكان العلاء والمنذر يتعاونان تعاوناً وثيقاً ، وكلّ واحد منهما له واجبه المعلوم في ادارة البحرين ، ولذلك لا يستطيع أحدهما الاستغناء عن الآخر ، لأنّ كلّ واحد منهما يكمّل في عمله الآخر : المنذر على أمور الدنيا ، كما كان قبل أن يعتنق الاسلام ، والعلاء على أمور الدين التي لا خبرة للمنذر فيها ، وهو بأمس الحاجة الى أن يتعلّمها . فلما رحل العلاء الى المدينة المنورة ، جمع أمور الدنيا والدين للمنذر ، ممّا يدلّ على الثقة المتبادلة بين العلاء والمنذر ، التى تزيدها الأيام ثباتاً ورسوخا ، وتولية المنذر على أمور الدين بالاضافة الى أمور الدنيا ، دليل على أنّه وصل مرحلة متقدّمة في أمور الدّين أيضاً .

وكتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى أهل هَجَر هذا الكتاب ، وهو الكتاب النبوى الرابع :

---

(٢٦) انظر سيرته في : اسد الغابة (٣/٢٤٠) والاصابة (٤/١١٦) .
(٢٧) طبقات ابن سعد (٤/٣٦٠) .
(٢٨) مجموعة الوثائق السياسية (٨٤) .

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمّد رسول الله .

الى : أهل هَجَر .

سِلْمٌ أنتم . فإني أحمد الله اليكم الذي لا إله الاّ هو .

أما بعد . فانى أوصيكم بالله وبأنفسكم أن لا تضلّوا بعد اذ هُديتم ، وأن تَغْوُوا بعد أن رشِدْتُم .

أما بعد . فقد جاءنى وفدكم ، فلم آتِ اليهم الاّ ما سرّهم ، ولو أنيّ اجتهدتُ فيكم جُهْدى كلَّه أخرجتكم من هَجَر ، فَشَفَّعْتُ غائبكم ، وأفضلتُ على شاهدكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم .

أما بعد . فانّه قد أتانى الذى صنعتم ، وانّه مَنْ يُحسِنْ منكم لا أحمل عليه ذنب المسيء ، فاذا جاءكم أُمرائى فأطيعوهم وانصروهم على أمرِ الله وفي سبيله ، وانّه مَنْ يعمل منكم صالحاً فلم يَضِلّ عند الله ولا عندى »[٢٩] .

علامة الختم : رسول الله محمد

وكتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى المنذر بن سَاوَى كتاباً هذا نصّه ، وهو الكتاب الخامس .

---

(٢٩) طبقات ابن سعد (١/٢٧٥ ــ ٢٧٦) والبلاذرى (١٠٧ ــ ١٠٨) ، وانظر تفاصيل المراجع والمصادر في : مجموعة الوثائق السياسية (٨٤ ــ ٨٥) .

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمّد رسول الله .

الى : المنذر بن ساوَى .

أما بعد . فانّ رُسُلِي قد حمدوك ، وانّك مهما تُصْلِح أُصْلِح اليك وأُثِبْكَ على عملك ، وتَنْصَح لله ولرسوله .

والسّلام عليك »[٣٠]

علامة الختم : رسول الله محمد

وبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بهذه الرّسالة مع العلاء ابن الحضرمي[٣١] ، ويبدو أنّ هذه الرسالة حملها في عودته مع وفد عبدالقيس من المدينة المنوّرة الى البحرين . وأرجّح أنّه حمل الرسالة الرقم (٤) المعنونة الى أهل هَجَر أيضا .

وكتب عليه الصّلاة والسّلام ، الى المنذر بن ساوَى في مجوس هَجَر ما نَصّه :

« إعرض عليهم الاسلام ، فإن أسلموا فلهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، ومَنْ أبَى ، فعليه الجزية من غير أكلٍ لذبائحهم ، ولا نكاح نسائهم »[٣٢] .

وكتب عليه الصّلاة والسّلام الى المنذر بن ساوى أيضاً ما نصّه :

« افرِض على كلّ رجلٍ ليس له أرض ، أربعة

---

(٣٠) طبقات ابن سعد (١/٢٧٦) ، وانظر المصادر والمراجع في : مجموعة الوثائق السياسية (٨٦) .

(٣١) طبقات ابن سعد (١/٢٧٦) .

(٣٢) طبقات ابن سعد (١/٢٦٣) ، وانظر المصادر والمراجع في : مجموعة الوثائق السياسية (٨٦) .

دراهم وعباءة »[٣٣] .

وكتب عليه الصلاة والسلام الى المنذر بن ساوى أيضاً ما نصه :

« أما بعد . فاني قد بعثت اليك قدامة وأبا هريرة ، فادفع اليهما ما اجتمع عندك من جزية أرضك ، والسلام »[٣٤] .

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العلاء بن الحضرمي ما نصه:

« أما بعد . فقد بعثت الى المنذر بن ساوى من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية ، فعجله بها ، وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور ، والسلام »[٣٥] .

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاكبر بن عبدالقيس[٣٦] ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمد رسول الله .

الى : الاكبر بن عبدالقيس .

---

(٣٣) انظر تفاصيل المصادر والمراجع في : مجموعة الوثائق السياسية ـ ٨٧) .

(٣٤) طبقات ابن سعد (١/٢٧٦) ، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في : مجموعة الوثائق السياسية (٨٧) ، وقدامة الذى ورد ذكره في الكتاب النبوى ، هو قدامة بن مظعون ، انظر سيرته في : أسد الغابة (٤/١٩٨ ـ ٢٠٠) .

(٣٥) طبقات ابن سعد (١/٢٧٦) ، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في : مجموعة الوثائق السياسية (٨٧ ـ ٨٨) .

(٣٦) لم اجد سيرته في المصادر المتيسرة ، ويحتمل أن الكتاب موجه الى اكبر بني عبدالقيس ، فهو الاكبر بن عبدالقيس ، انظر الهامش ٣٧ في الصفحة التالية .

إنكم أتيتموني مسلمين ، مؤمنين بالله ورسوله ، في الجاهليّة من القُحَم ، وعليهم الوفاء بما عاهدوا ، ولهم ألاّ يُحبَسوا عن طريق المِيرَة ولا يُمْنَعوا صَوْب القَطْر ، ولا يُحرَموا حريم الثمار عند بلوغه .

والعلاء الحضرميّ أمينُ رسول الله على برّها وبَحْرِها ، وحاضِرِها ، وسراياها ، وما خرج منها . وأهل البحرين خفراؤه من الضَّيْم وأعوانه على الظّالم ، وأنصاره في الملاحم ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ، لا يُبَدّلون قولاً ولا يُريدون فُرْقَةً ، ولهم على جند المسلمين الشّركة في الفيء والعَدْل في الحُكْم ، والقصد في السِّيرة ، حُكْمٌ لا تبديلَ له في الفريقين كِلَيْهِما ، والله ورسوله يشهد عليهم »[٣٧] .

وهذا نصٌّ آخر ، لكتاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى بني عبدالقَيْس :

---

(٣٧) طبقات ابن سعد (٢٨٣/١) ، وانظر تفاصيل المراجع في : مجموعة الوثائق السياسية (٩٤ ــ ٩٥) ، والاكبر بن عبد القيس لايعرفه اهل الانساب ، ولعل الصواب : الاكبر من عبد القيس . ولعل الصواب في : جريم الثمار ، هو : جريم الثمار ، والجريم والصريم والجديد كله التمر اذا صرم ، يريد انهم ينتفعون بثمارهم حين الجذ ، ولا ينتظرون مجيء المصدق الى بلادهم ، ويؤدون الزكاة بالامانة (نقلا من : مجموعة الوثائق السياسية ص (٩٥ و ٤١٣) .

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من : محمّد رسول الله.

لعبدالقيس وحاشيتها في البحرين وما حولها .

انّكم أتيتموني مسلمين ، مؤمنين بالله ورسوله ، وعاهدتم على دينه ، فقبلتُ ، على أن تطيعوا الله ورسوله فيما أحببتم وكرهتم ، وتقيموا الصّلاة ، وتؤتوا الزّكاة ، وتحجّوا البيت ، وتصوموا رمضان ، وكونوا قائمين لله بالقسط ولو على أنفسكم ، وعلى أن تؤخذ من حواشي أموال أغنيائكم ، فتردّ على فقرائكم ، على فريضة الله ورسوله في أموال المسلمين »[٣٨]

كما كتب عليه الصّلاة والسّلام ، كتاباً الى شَبِيْب بن قُرّة[٣٩] من وفد عبدالقيس ، وكتاباً الى صُحَار بن العبّاس[٤٠] من وفد عبدالقيس أيضاً ، وكتاباً الى المُشَمْرَخ بن خالد السَّعْدِيّ[٤١] من وفد عبدالقيس أيضاً .

ولم تُرْوَ نصوص هذه الكتب[٤٢] .

لقد بدأ اتّصال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالبحرين ، بارساله العلاء ابن الحضرميّ سفيراً نبويّاً وداعياً من دعاته الى الاسلام، فنجح العلاء في سفارته

---

(٣٨) عمر الموصلي ــ الجزء الثامن ــ ورقة (٣١ ــ ١٣٢) ، نقلا من : مجموعة الوثائق السياسية (٩٥) .

(٣٩) الاصابة (١٩٣/٣) واسد الغابة (٣٨٦/٢) .

(٤٠) الاصابة (٢٣٥/٣ ــ ٢٣٦) واسد الغابة (١١/٣) والاستيعاب (٧٣٥/٢ ــ ٧٣٦) .

(٤١) أسد الغابة (٣٦٧/٤ ــ ٣٦٨) والاصابة (١٠٠/٦) .

(٤٢) انظر : مجموعة الوثائق السياسية (٩٦) .

وفي دعوته أعظم النّجاح ، واستطاع أن ينقذ البحرين من السّيطرة الفارسية باسلام عامل الفرس عليها المنذر بن ساوى الذى أسلم وحسن اسلامه وبقى مخلصاً للاسلام حتى توفاه الله ، والعلاء معه أميراً لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم على البحرين[٤٣] ، ثم أصبح عامل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الصّدقات في البحرين[٤٤] ، فنجح العلاء أعظم النّجاح أميراً وجابيا ، كما نجح سفيراً وداعيا .

كما أسلم عرب البحرين ، وقسم من غير العرب ، فوطّدوا أركان الدّين الحنيف في تلك البلاد .

ويبدو من دراسة الرّسائل النبوية : الى الأفراد من عامة الناس البعيدين عن السّلطة والسلطان ، والى القبائل العربية المسلمة ، والى الذين لم يسلموا ويتحدّون الاسلام والمسلمين في المقاومة سراً وعلنا ، والى الحاكم في أمور الدين ، والى الحاكم في أمور الدنيا ، أنّ تلك الرّسائل النبويّة أدّت واجبين حيويين : التّوجيه الذى لا يقتصر على الجماعة دون الفرد ، والمسلمين دون غيرهم ، والحاكم دون المحكوم ، والسيّد دون المسود ، والعرب دون العجم ، بل شمل الفرد والجماعة ، والمسلمين وغير المسلمين ، والحاكم والمحكوم ، والسيّد والمسود ، والعرب والعجم ، فالكلّ في التوجيه النبوي سواء ، هو توجيههم الى الاسلام بما فيه من عقيدة وشريعة ومثُل عليا .

والمهمّة الثانية في الرّسائل النبوية ، هى التنسيق ، ليعرف كلّ واحد واجبه ، ويتعاون مع غيره في نطاق ذلك الواجب ، أفراداً وجماعات ، ومسلماً وغير مسلم ، وحاكما ومحكوما ، وسيّداً ومسودا ، وعرباً وعجما .

ويبدو من دراسة تلك الرّسائل النبويّة ، ومن الاجراءات المتّخذة من

---

(٤٣) سيرة ابن هشام (٢٤٣/٤) والدرر (٢٧٢) وجوامع السيرة (٢٤) وابن الاثير (٢٩٨/٢) .

(٤٤) سيرة ابن هشام (٢٧١/٤) والطبرى (١٤٧/٣) وابن الاثير (٣٠١/٢) .

قبل الذين تسلّموا تلك الرسائل ، فهماً وتنفيذاً وعملا ، النّظامُ السائد الدّقيق من الناحية التطبيقيّة للدولة الاسلامية الوليدة،بدون تعقيد أو تسويف أو تعطيل ، بالاضافة الى الناحية الانسانية الرفيعة في التنفيذ والتطبيق : العفو، والعدل،والتّسامح،والرأفة،والتّواصل ، والتراحم ، والتّعاون ، وما يؤخذ من أغنياء البلد يُرَدّ على فقرائهم ، مما يزيل الفوارق بين الطبقات ، ويحول دون حقد طبقة على أخرى ، وفقير على غني ، ويؤدى الى أن يعطف الغنيّ على الفقير ، والحاكم على المحكوم ، والأمير على المأمور •

انّ تلك الرسائل النبوية في توجيهها وتنسيقها ، تطبيق عمليّ لتعاليم الاسلام في الحكم والادارة ، فهو عدل السّماء الذى يجعل العدل في الأرض ممكناً ، وهذا العدل المطلق ، هو الذى جعل المنذر بن ساوى وأضرابه ينحازون الى الاسلام ديناً ، ويتخلّون طوعاً عن أديانهم ، وينحازون الى نبيّ الاسلام نبيّاً ورسولا ، وحاكما وقائدا ، ويتخلّون عن حكامهم القدامى ، بالرّغم من الصّعوبة البالغة التى يعانيها المرء حين يتخلّى عن دينه ودين آبائه وأجداده الذى شبّ وشاب عليه ، وبالرّغم من التخلى عن أكبر دولة عالمية في حينه،مضمونة العواقب ، الى حكم جديد غير معروف ولا مضمون •

وكنت أعلم مبلغ التوجيه في الرّسائل النبويّة بعامة ، ولكن الرسائل النبوية الى البحرين أدهشتنى بتنسيق التوجيه ليصبح تعاوناً وثيقاً بين الأفراد والجماعات والحكّام والمحكومين وبين الحكّام أنفسهم ، وهذا التّنسيق الفاعل برز في الرّسائل النبوية الى البحرين بخاصة •

ومهما يقال في الامبراطورية السّاسّانية في تلك العهور السّحيقة من عمر الزّمن ، الاّ أنّ ذلك لا يسوّغ استبدال دولة ناشئة غير مضمونة ، بدولة عريقة مضمونة ، وانتقال الولاء في البحرين من دولة عريقة ذات كيان ، الى دولة جديدة ليست ذات كيان •

وما حدث في البحرين يناقض كلّ المقاييس الماديّة ، ويناقض حسابات الحكّام الذين يهتمّون بسلطانهم ولا يفرّطون به ويحرصون على بقائه عادةً ، ولا يسمحون لأنفسهم أن يجعلوه عرضة للأخطار .

ولا يستطيع أحد أن يعلّل ما حدث في البحرين من عواصف التغيير الجذرى من حال الى حال ، الاّ اذا أدخل حوافز الايمان في حسابه أولاً وقبل كلّ شيء ، فالايمان وحده يكتسح العقبات والصعاب ، ويقلب الحسابات المادية المعروفة الى حسابات أخرى غير ماديّة .

* * *

الى الحارث بن عبد كلال الحميري
ملك اليمن

١ ـ الحارث بن عبد كلال الحميري :

هو الحارث بن عبد كُلال بن نَصْر بـن سَهْل بن عَرِيْب بن عبد كُلال بن عُبَيْد بن فَهْد بن زَيْد الحِمْيَري[١] .

وبنو حِمْيَر ، ينتسبون الى : حِمْيَر بن سَبَأ بن يَشْجُب بـن يَعْرُب بن قَحْطَان[٢] ، فهم قَحْطَانِيُّون من أهل اليَمَن .

وكان الحارث أحد أقيال اليمن[٣] ، ومفـرد الأَقيال : قَيْل ، وهو الملك النَّافِذ القول والأمر[٤] ، والأقيال ملوك باليمن دون الملك الأعظم ، ويكون القيل ملكاً على قومه ومخلافه[٥] ومحجره[٦] .

وقد أسلم الحارث ، وأرسل باسلامه الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأقام باليمن ، فقد قدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد عودته من غزوة تَبوك بكتاب ملوك حِمْيَر باسلامهم منهم الحارث بن عبد كُلال ، وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أرسل الى الحارث المهاجرَ بن أبي أُمَيَّة فأسلم الحارث ، وكتب الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كتاباً يقول فيه :

---

(١) الاصابة (١/٢٩٦) .
(٢) جمهرة انساب العرب (٤٣٢) .
(٣) الاصابة (١/٢٩٦) وجوامع السيرة (٢٢٦) .
(٤) لسان العرب (٤/٩٤) .
(٥) المخلاف : الكورة ، وهى كالمديرية او المحافظة او الولاية في الاصطلاح الحديث .
(٦) المحجر : المكان في الجبل يقطع منـه الحجارة ، وانظر هذا التعريف : الاقيال ملوك اليمن ... الخ في لسان العرب (١٤/٩٤) .

ودينُكَ دينُ الحقِّ فيه طَهَارةٌ
وأنت بما فيه من الحقِّ آمرُ[7]

والحارث ليست له صُحْبَة ولا رؤية للنبيِّ صلّى الله عليه وسلّم ، وانما كان موجوداً[8] في عهده عليه الصّلاة والسّلام .

ومما ذكرنا ، يظهر أنّ اسلام الحارث كان على يدى المهاجر بن أبى أميّة ، ولا نعلم شيئاً عن أيامه قبل اسلامه ، كما أنّ أخباره بعد اسلامه قليلة جدا .

وكان اسلام الحارث في السّنة التّاسعة الهجريّة ، لأنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كاتَبَ أهل اليمن في هذه السنة[9] لاقبلها ، وأرسل ملوك اليمن باسلامهم الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد رجوعه من غزوة تَبوك التى كانت في السنة التاسعة أيضا .

وله اخوة من الأقيال أيضاً ، هم: شُرَحْبِيْل بن عبد كُلال[10]، ونُعَيْم ابن عبد كلال[11] قَيْل ذى رُعَيْن[12] ومَعَافِر[13] وهَمْدان[14]، وقد أسلم

---

(7) الاصابة (١/٢٩٦ — ٢٩٧) . (8) أسد الغابة (١/٣٣٩) .
(9) أسد الغابة (٢/٣٦٨) .
(10) انظر سيرته في : أسد الغابة (٢/٣٩٢ — ٣٩٣) .
(11) انظر سيرته في : أسد الغابة (٥/٢٩) ، وفيه ورد اسمه : النعمان . بينما ورد اسمه في : أسد الغابة (٢/٣٩٣) : نعيم ، عند ذكره مع اخوته في سيرة شرحبيل اخيه ، لذلك أخذنا به لانه تكرر في مصادر اخرى . وقد ورد في بعض المصادر : نعيم ونعمان ايضا ، انظر الطبرى (٣/١٢٠) واليعقوبى (٢/٦٣) .
(12) رعين : مخلاف (محافظة) من مخاليف اليمن ، سمى بالقبيلة ، وهو ذو رعين ، واسمه : (يرين) بياءين مثناتين ، انظر التفاصيل في : معجم البلدان (٤/٢٦٣) .
(13) معافر : مخلاف باليمن ، تنسب اليه الثياب المعافريه ، سمى القبيلة اليمنية : معافر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرة ويمتد نسبه الى سبا ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٩٢) .
(14) همدان : قبيلة يمنية مشهورة ، النسبة اليها : همداني ، انظر التفاصيل في جمهرة انساب العرب (٣٩٣ — ٣٩٥) و (٤٧٥ — ٤٧٦) .

هؤلاء الاخوة ، وبعثوا باسلامهم الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في السنة التاسعة الهجريّة كماذكرنا .

وأخبار اخوة الحارث قليلة جداً كأخبار الحارث أيضاً ، على الرّغم من منزلتهم العالية في بلادهم وعند قومهم ، بينما كان ذوو السّلطان من عرب الشمال : العراق وأرض الشّام ونجِدْ أكثرأخباراً من ذوى السّلطان من عرب الجنوب وأعزر ، ولكنّ تلك الأخبار الكثيرة الغزيرة كما مرّ بنا في الحديث عنهم بمناسبة الكُتب النّبويّة الموجّهة لهم ، تقتصر على الحروب حسب ولا تشمل الأخبار المختلفة الأخرى .

ويبدو أنّ عرب الجنوب كانوا أكثر حضارة من عرب الشّمال ، وكان الاستقرار من أحد ثمرات تلك الحضارة ، لذلك كانت أخبار الحروب بالنسبة لذوى السّلطان من عرب الجنوب قليلة ان لم تكن نادرة .

والذى نستنتجه من اخبار الحارث القليلة ، أنّه كان عاقلاً متّزناً ، والدليل على ذلك اسلامه وثباته على الاسلام . وأنّه كان شاعراً أوله قابلية شعريّة ، والدليل هو البيت الشّعرى الذى ورد في رسالته الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم .

وأخبار إخوة الحارث لا تزيد في شيء عن أخبار الحارث ، فهم أبناء الاسلام ،بدأ ذكرهم بعد اسلامهم ، ولم يكن لهم ذكر قبل اعتناقهم الأسلام .

٢ ـ **السفارة النبوية :**

أ ـ أرسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المهاجر بن أبى أُمَيَّة الى الحارث بن عبد كُلاَل الحِمْيَرِى ملك اليَمَن[١٥] ، يدعوه الى الاسلام[١٦] .

---

(١٥) سيرة ابن هشام (٢٧٩/٤) وانظر : اسد الغابة (٤٢٢/٤) وتهذيب الأسماء واللغات (١١٦/٢) .

(١٦) سيرة ابن هشام (٢٧٨/٤) .

فقد خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم بعد عُمْرَته التي صُدَّ عنها يوم الحُدَيْبِيَة ، فقال « أيّها الناس ! انّ الله قد بعثني رحمةً وكافة ، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريّون على عيسى بن مريم » . فقال أصحابه : « وكيف اختلف الحواريّون يارسول الله ! » ، قال : « دعاهم الى الذي دعوتكم اليه ، فأمامَنْ بعثه مَبْعَثاً قريباً ، فرضي ، وأمامَنْ بعثه مبعثاً بعيداً ، فكره وجهه وتثاقل ، فشكا ذلك عيسى الى الله ، فأصبح المتثاقلون وكلّ واحد منهم يتكلّم بلغة الأُمة التي بُعث اليها » ، فبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رُسُلاً من أصحابه ، وكتب معهم كتُباً الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام ، وكان من رسله المهاجر بن أبي أُميّة المخزومي الى الحارث بن عبد كُلال الحِمْيَرِيّ ملك اليمن[17] دون أن يختلف عليه أحد من صحابته كما اختلف الحواريون على عيسى عليه السّلام .

وقد أرسل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم رسله في المحرّم من سنة سبع الهجريّة ، اذ رجع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الحديبية الى المدينة المنورة في ذي الحجة من سنة ست الهجرية ، فأرسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وكتب اليهم كتبا ، فخرج رسله في المحرم سنة سبع الهجرية[18] .

وأكثر المصادر المعتمدة ، تعدد رسله الذين أرسلهم يومئذ ، وهم ستة رسل ، ليس بينهم المهاجر ، كما أن اليمن تفصل بينه وبين قاعدة المسلمين في المدينة خطوط مناهضة للاسلام من المشركين في قاعدة المشركين مكة حينذاك ، ولم تفتح مكة الا في السنة الثامنة الهجرية[19] ، لهذا لم تكن اليمن ولا الطرق المؤدية اليها آمنة قبل فتح مكّة .

والخلاف ليس على إرسال المهاجر الى الحارث بن عبد كُلال ، بل

---

(17) سيرة ابن هشام (٤/٢٧٨ ـ ٢٧٩) ، وانظر طبقات ابن سعد (١/٢٦٤)
(18) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨) .
(19) طبقات ابن سعد (٢/١٣٤) وجوامع السيرة (٢٢٦) .

الخلاف على توقيت ارساله حسب ، وأرجّح أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ارسل المهاجر بعد فتح مكّة لا قبل فتحها ، أسوة بالرّسل الذين بعثهم الى الملوك بعد الفتح[٢٠] ، فقد كاتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أهل اليمن سنة تسع الهجريّة[٢١] ، ولم يكاتبهم قبلها .

ولم يكن الحارث ملكاً ، بل كان قَيْلاً من أقيال اليمن[٢٢] ، ولكنّه كان من أبرز ذوى السّلطان اليمنيين ، لهذا بعث اليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم المهاجر بن أبى أُمَيّة ، ثمّ مُعاذ بن جَبَل[٢٣] .

وللحارث بن عبد كُلاَل ذكر في حديث عمرو بن حَزْم[٢٤] ، الذى بعثه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى الحارث أيضاً ، وكتب اليه كتاباً فيه فرائض الصّدقات والدّيات[٢٥] .

ولم تنسب المصادر المعتمدة المتيسّرة بين أيدينا رسالة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى المهاجر بن أُميّة المخزوميّ ، ولكنّها نسبتها الى عيّاش ابن أبى ربيعة المخزومى[٢٦] ، وقد نسبها اليه ابن سعد وحده في طبقاته[٢٧]

---

(٢٠) انظر التفاصيل في : طبقات ابن سعد (١/٢٦٢ – ٢٩١) .
(٢١) أسد الغابة (٣/٣٦٨) .
(٢٢) جوامع السيرة (٣٠) .
(٢٣) طبقات ابن سعد (١/٢٦٤) .
(٢٤) عمرو بن حزم : انظر سيرته في : أسد الغابة (٤/٩٨ – ٩٩) والاصابة (٤/٢٩٣) والاستيعاب (٣/١١٧٢ – ١١٧٣) والاستبصار (٧٣) وتهذيب التهذيب (٨/٢٠ – ٢١) ، وانظر سيرته المفصلة في كتابنا : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .
(٢٥) أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان والدارمى ، انظر الاصابة (٤/ ٢٩٣) ، وانظر أسد الغابة (٢/٢٠٣) وكنز العمال (٢/٤٩٤ – ٤٩٦) على هامش مسند الامام أحمد بن حنبل ، والطبرى (٣/١٢٠ – ١٢٢) واليعقوبى (٢/٦٤ – ٦٥) والقسطلانى (١/٢٧٩) ، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في : مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤ – ١٤٨) .
(٢٦) عياش بن أبى ربيعة المخزومى : انظر سيرته في : طبقات ابن سعد (٤/ ١٢٩) وأسد الغابة (٤/١٦١) والاصابة (٥/٤٧) .
(٢٧) طبقات ابن سعد (١/٢٨٢ – ٢٨٣) .

ولم ينسبها اليه غير ابن سعد في المصادر الأخرى ، وقد نقلها عن ابن سعد مرجان فقط فيما أعلم .

وعدت الى المصادر المعتمدة التي ذكرت سيرة عَيَّاش ، فلم أجدها تنسب هذه الرّسالة النبويّة اليه ، ولو أنّ هذه الرّسالة حُمِلت من عياش الى الحارث بن عبد كلال ، لذكرها الذين تحدثوا عن سيرته ، لأنّ حمل الرّسائل النبوية حدث مهم جداً ، لا يسكت عنه المحدّثون والمؤرخون وأصحاب السِّير وكتب الرّجال .

كما أنّ ابن سعد الذى نسبها الى عيّاش في : (ذكر بعثة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الرّسل بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وما كتب به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لناس من العرب وغيرهم)[٢٨] ، لم ينسبها الى عيّاش عند ذكر سيرة عياش ، بل ذكر في سيرة عياش : «..... فقدم المدينة ، فلم يزل بها الى أن قُبِض رسول الله عليه وسلّم ، فخرج الى الشّام فجاهد ، ثمّ رجع الى مكّة فاقام بها الى أن مات »[٢٩] ، ولو أنّه حمل الرسالة النبويّة الى الحارث بن عبد كُلال كما نسبها اليه في موضع آخر من طبقاته ، لكان سجّلها له في سيرته ، كما فعل في أقرانه الذين حملوا الكُتب النبويّة .

وأرجّح أنّ النّساخ أو أحدهم ، أخطأ في نسبة تلك الرسالة الى عيّاش المخزومي ، وهى في الواقع للمهاجر المخزومى ، الذى بعثه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى الحارث بن عبد كُلال لدعوته الى الاسلام كما نصّت على ذلك المصادر المعتمدة كافة ، دون أن تنص على أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بعث عياش المخزومى الى الحارث بن عبد كُلال ، فالخطأ خطأ النّسّاخ أو أحدهم في نسبتها الى عيّاش ، وليس الخطأ من ابن سعد ، لأنّه لو كان

---

(٢٨) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١) ، وانظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٢٥٨/١ - ٢٩١) .

(٢٩) طبقات ابن سعد (١٢٩/٤) .

هو المخطىء ، لنسب الرّسالة النبويّة الى عياش في سيرة عيّاش ، ولكنّه لم يفعل .

وهذه هي نص الرّسالة النبويّة التى حملها المهاجر بن أبى أُميّة المخزوميّ .

« بسم الله الرحمن الرحيم

الى : الحارث ومسروح (الصواب شُرَحْبِيْل)

ونُعَيْم بن عبد كُلال .

سِلْمٌ أنتم ما آمَنْتُم بالله ورسوله ، وأنّ الله

وحده لا شريك له ، بعث موسى بآياته ، وخلق عيسى

بكلماته .

قالت اليهود : عُزَيْرٌ ابن الله ، قالت النّصارى :

الله ثالث ثلاثة ، عيسى ابن الله .

علامة الختم : الله رسول محمد

وقال عليه الصّلاة والسّلام لمن حمل كتابه النبويّ الى الحارث واخوته : « اذا جئت أرضهم ، فلا تدخلنّ ليلاً حتى تُصبح ، ثمّ تطهّر فأحسن طُهورك ، وصلّ ركعتين ، وسَل الله النّجاح والقَبول ، واستعذ بالله ، وخُذ كتابى بيمينك ، وادفعه بيمينك في أيْمانِهم ، فانّهم قابلون . واقرأ عليهم (لَمْ يَكُنِ الَّذينَ كَفَرُوا من أَهْلِ الكِتَابِ والمُشْرِكِيْنَ مُنْفَكِّيْنَ)[٣٠] ، فاذا فرغت فقل : آمن محمّد وأنا أوّل المؤمنين ، فلن تأتيكَ حُجَّةَ الاّ دُحِضَت ، ولا كتابٌ زُخْرِفَ الاّ ذهب نورُه . وهم قارئون عليك ، فاذا رَطَنُوا فقل : تَرْجِمُوا ، وقل : حَسْبِيَ اللّهُ ،

(٣٠) السورة الكريمة هى سورة البينة ، وهى سورة مدنية ، آياتها (٨) ، نزلت بعد الطلاق .

آمنتُ بما أنزل الله من كتاب ، وأُمرتُ لأَعْدِل بينكم ، الله ربنّا وربّكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ولا حُجَّة بيننا وبينكم ، اللهُ يَجْمع بيننا واليه المصير . فاذا أسلموا فَسَلْهُم قُضُبَهُم الثلاثة التى اذا حضروا بها سجدوا ، وهي من الأَثَل : قَضِيْبٌ مُلَمَّعٌ ببياضٍ وصُفْرَة ، وقضيب ذو عُجَر كأنّه خَيْزُران ، والأسودُ البَهيمُ كأنّه من سَاسَم ثمّ أخرجها فحرّقها بسُوقهم » .

وقال المبعوث النبوي : « فخرجت أفعل ما أمرني رسول اللّه صلّى الله عليه وسلّم ، حتى اذا دخلت اذا الناس قد لبسوا زينتهم ، فمررت أنظر اليهم حتى انتهيت الى سُتُور عِظام على أبواب دور ثلاثة ، فكشفت الستر ودخلت الباب الأوسط ، فانتهيت الى قومٍ في قاعة الدّار ، فقلتُ أنا رسول رسـول الله ، وفعلت ما أمرني ، فقبلوا ، وكان كما قال صلّى الله عليه وسـلّم »[٣١] .

وهكذا أسـلم الحارث ومَنْ معـه على يدي المهاجر بن أبي أمية المخزوميّ .

لقد كان أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى سفيره واضحاً جداً وقد يبدو أنّ التفصيلات في هذه الأمر النبويّ كانت شاملة شافية ، والفرق بين ما جاء في هذا الأمر النبويّ الذي شفع به هذه الرّسالة النبويّة ، وبين ما جاء في الرّسائل النبويّة الأخرى التى لا تشمل على أوامر نبويّة مفصّلة ، هو أن الذين دوّنوا تلك الرّسـالة النبوية دوّنوها مع الأمـر النبويّ لوضعها في حيّـز التنفيذ ، ولم يسجّلوا الأوامر النبويّة المشفوعة مـع الرّسائل النبويّة الأخرى بهذا الشّكل من التّوضيح والتّفصيل ، اذ ليس من المتوقّع أن يبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سفراءه الى الملوك دون أن يزوّدهم بأوامره التّفصيليّة الجازمة التي تعينهم على تأدية واجباتهم كما ينبغي ، بحيث تقودهم الى النّجاح والتّوفيق .

---

(٣١) طبقات ابن سعد (١/٢٨٢ – ٢٨٣) .

ومما يُلاحظ في هذه الرّسالة النبوية والأمر النبوي ، هو تعليم سفير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، على أساوب حمل الرّسالة النبويّة ، وأسلوب تقديمها الى الملك ، وهو نفس الأسلوب المعمول به حديثاً في الجيش وفي وزارة الخارجيّة ، وقد ذكّرنى الأمر النبوي الخاص بحمل الرسالة وتقديمها ، بما يتعلّمه الجنود والضّباط في الجيش ، وما يتعلّمه السفراء في وزارة الخارجية ، فلا فرق بين الأسلوبين في شيء أبدا .

لقد نجح المهاجر في سفارته الى الحارث في اليمن أعظم النّجاح ، وكان أثر وتأثير هذا السفير في الحارث واخوته ومَنْ معه عظيما .

وقد كانت سفارة المهاجر بن أبى أُمَيّة الى الحارث بن عبد كلال واخوته ومَن يلوذ بهم ، من أقدم السّفارات النبويّة الى اليمن السّعيد ، من أجل الدّعوة الى الاسلام ، ومن أجل اجتثاث العقائد المنحرفة من أصولها ، إن لم تكن تلك السّفارة أقدمها على الاطلاق .

وهذا ما نرجّحه ، نظراً للنصوص الواردة في المصادر المعتمدة ، حول هذا الموضوع . ومنذ ذلك الوقت أصبحت اليمن العربية ، تدين بالاسلام ، ولا تزال تدين بالدين الحنيف حتى اليوم .

وستبقى كذلك حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها : ركناً من أركان العرب ، وحصناً من حصونهم ، وقوّة للاسلام والمسلمين .

(ب) وفي شهر رمضان من السنّة التاسعة الهجريّة ، قدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتاب ملوك حِمْيَر مُقِرّين بالاسلام مع رسولهم مالك بن مُرارة الرّهاوِيّ ، وهم : الحارث بن عبد كُلال ، ونُعَيْم بن عبد كلال ، والنّعمان بن عبد كلال ، وزُرعة ذويَزَن ، ومفارقتهم الشّرك وأهله[٣٢] ، فكتب اليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما نصّه :

---

(٣٢) طبقات ابن سعد (٣٥٦/١) وسيرة ابـن هشام (٢٥٨/٤) والطبرى (١٢٠/٣) واعلام السائلين لابن طولون (١٥) واليعقوبى (٨٧/٢) وامتاع الاسماع للمقريزي (٤٩٥/١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمّد رسول الله النبيّ .

الى : الحارث بن عبد كُلال ، والى نُعَيْم بن عبد كلال ، والى النُّعمان قَيْل ذى رُعَيْن ومَعَافِر وهَمْدان .

أما بعد ذلكم ، فانّى أحْمَدُ اليكم اللهَ الذى لا اله الاّ هو .

أما بعد ، فانّه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا[٣٣] من أرض الرّوم ، فلقينا بالمدينة ، فبلّغ ما أرسلتم ، وخَبَّرَ ما قِبَلَكم ، وأنبأنا باسلامكم وقتلكم المشركين ، وانّ الله قد هداكم بهدايته[٣٤] . ان أصلحتم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصّلاة ، وآتيتم الزّكاة ، وأعطيتم من المغانم خُمس الله وسهم نبيّه وصفيّه ،[٣٥] ، وما كُتِبَ على المؤمنين من الصّدقة من العَقار[٣٦] عُشْر ما سَقَت العَيْن وما سَقَت السّماءُ ، وكلّ ما سُقِي بالغَرْب[٣٧] نصف العُشر ، وفي الابل في الاربعين ابنة لَبُون[٣٨] ،

---

(٣٣) سيرة ابن هشام : « منقلبنا » .

(٣٤) سيرة ابن هشام : « بهداه » .

(٣٥) الصفى : نصيب الرئيس من الغنيمة .

(٣٦) العقار : الارض التى تزرع .

(٣٧) الغرب : الدلو .

(٣٨) ابن اللبون : ولد الناقة اذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة ، لأن أمه ولدت غيره ، فصار لها لبن . وهى ابنة لبون ، وبنت لبون . (ج) : بنات لبون (للذكر والاناث) .

وفي ثلاثين من الابل ابن لَبون ذكر ، وفي كل خمس من الابل شاة ، وفي كلّ عشر من الابل شاتان ، وفي كلّ أربعين من البقر بقرة ، وفي كلّ ثلاثين من البقر تَبِيْع جَذَع أو جَذَعة[٣٩] ، وفي كلّ أربعين من الغنم سائمةً وحدها شاة .

وانّها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصّدقة ، فمن زاد خيراً فهو خير له ، ومَنْ أدّى ذلك وأشهد على اسلامه ، وظاهر[٤٠] المؤمنين على المشركين ، فانّه من المؤمنين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، وله ذمّة الله وذمّة رسوله .

وانّه مَن أسلم من يهوديّ أو نَصْرانيّ ، فانّه له مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومَنْ كان على يهوديّته أو نصرانيّته فانّه لا يُفْتَنُ[٤١] عنها ، وعليه الجِزية : على كلّ حالم ذكر أو أنثى ، حرّ أو عبد ، دينار وافٍ أو قيمته من المعَافِر[٤٢] أو عَرْضه[٤٣] ثياباً ، فمن أدّى ذلك الى رسول الله ، فانّ له ذمّة الله وذمّة رسوله ، ومَنْ منعه فانّه عدوّ لله ولرسوله .

أما بعد ، فانّ رسول الله محمّداً النبيّ أرسل الى

---

(٣٩) التبيع : ولد البقرة ، (ج) : تباع ، تبائع ، واتبعة ، (جج) : اتابع ، واتابيع . والجذع : من الخيل والبقر ما استكمل سنتين ودخل في الثالثة . وجذعة : مؤنث جذع .

(٤٠) ظاهر : عاون وآزر .

(٤١) في سيرة ابن هشام : « لايرد عنها » .

(٤٢) المعافر : ثياب اليمن .

(٤٣) في سيرة ابن هشام : « او عرضه » .

زُرْعَة ذي يَزَن[٤٤]، اذا أتتكم[٤٥] رُسُلي فأوصيكم بهم[٤٦] خيراً : مُعَاذ بن جَبَل[٤٧] ، وعبدالله بن زيـد[٤٨] ، ومالك بـن عُبَادَة[٤٩] ، وعُقْبَة بن نَمِر[٥٠] ، ومالك بن مُرَّة[٥١] وأصحابهم ، وأن اجْمَعُـوا ما عنـدكم من الصَّدقة والجِزْيَة من مخاليفكم وبلّغوها[٥٢] رُسُلي ، وانّ أميرهم مُعاذ ، فلا ينقلبنّ الاّ راضيا .

أما بعد،فانّ محمّداً يشهد ألاّ اله الاّ الله،وأنّه عبده ورسوله ، ثمّ انّ مالك بن مُرَّة الرَّهاويّ قـد حدّثني أنّك أسلمت مـن أوّل حِمْيَر ، وقتلت المشركين ، فأبشر بخير ، وآمرك بِحِمْيَر خيراً ، ولا تخونوا ولا تَخاذلوا ، فـإنّ رسول الله مولى غَنِيِّكم وفقيركم ، وانّ الصَّدقة لا تحلّ لمحمّد

---

(٤٤) زرعة ذويزن : انظر سيرته في أسد الغابة (٢/٢٠٣ ـ ٢٠٤) والاصابة (٣/٤٠) والاستيعاب (٢/٥١٩) .

(٤٥) في سيرة ابن هشام : « أتاكم » .

(٤٦) كذا في سيرة ابن هشام ، وفي طبعة اخرى : « بها » .

(٤٧) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

(٤٨) عبدالله بن زيد : انظر سيرته في الاصابة (٤/٧٣) : عبدالله بن زيد الضمري .

(٤٩) مالك بن عبادة الهمداني : انظر سيرته في أسد الغابة (٤/٢٨٣) والاصابة (٦/٢٦) والاستيعاب (٣/١٣٥٣) .

(٥٠) عقبة بن نمر الهمداني : انظر سيرته في أسد الغابة (٣/٤٢١) والاصابة (٤/٢٥٣) والاستيعاب (٣/١٠٧٧) .

(٥١) مالك بن مرة الرهاوي : انظر سيرته في أسد الغابة (٤/٢٩٣) والاصابة (٦/٣٣ ـ ٣٤) والاستيعاب (٣ ـ ١٣٥٩) ، منسوب الى رهاء بن منبه ابن حرب قبيلة من مذحج ، انظر الاصابة (٦/٣١) ، وورد في قسم من المصادر : مالك بن مرارة لا مالك بن مرة .

(٥٢) في سيرة ابن هشام : « ابلغوها » .

ولا لأهله ، انّما هي زكاة يتزكّى بها على فقراء المؤمنين وأبنـاء السّبيل ، وانّ مالكاً قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا ، واني قد بعثت اليكم من صـالحي أهلي وأولي ديني[٥٣] ، وأولي علمهم ، فآمركم بهم خيراً فانّه منظور اليهم .

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[٥٤] .

الله
علامة الختم : رسول
محمد

وفي هذه الرّسالة النبويّة دروس قيّمة ، فهي تؤكّد على أهميّة الطّاعة لله ولرسوله ، مما يؤدي الى ضبط المجتمع ونظامه . وهي تشير الى أركان الاسلام ، الواجب اتّباعها ، ممّا يؤدي الى الانسجام الفكري في المجتمع الاسلامي الذي يجعل التعاون بين الأفراد والجماعات ممكناً وواجبا . وهي تنظّم الاقتصاد الاسلامي في الزّكاة والصدقات ، وأسلوب وضعها في مجال التطبيق العملي ، ومواساة الفقراء بأموال الزكاة والصدقة ، وأسلوب فرض الجزية كميّةً ونوعـا ، وطريقة جبايتهـا . وهي تؤكد على حريّة العقيدة بالنسبة الى أهل الكتاب من يهود ونصارى ، فلا اكراه في الدين اذا بقـوا على دينهـم وأدّوا الجزيـة . وهي توظّف المسئولين عن الزّكاة والصّدقة والجزية ، وتحدّد مسئولياتهم ، وتجعل عليهم أميراً يوجّههم

---

(٥٣) في سيرة ابن هشام : « دينهم » .

(٥٤) الطبري (٣/١٢١ ـ ١٢٢) وسيرة ابن هشام (٤/٢٥٩ ـ ٢٦٠) واليعقوبي (٢/٨٧ ـ ٨٩) واسد الغابة (١/٢٠٣) والاصابة (٤/٢٩٣) والقسطلاني (١/٢٧٦) ، وقد اخرجه ابو داود وابن حبان والدارمي ، انظر الاصابة (٤/٢٩٣) ، وانظر النص في كنز العمال (٢/٤٩٤ ـ ٤٩٦) على هامش مسند الامام احمد بن حنبل ، وانظر تفاصيل المراجع والمصادر في : مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤ ـ ١٤٨) .

ويعودون اليه في معضلاتهم ، ثم توصى أهل اليمن الموفدين اليهم بهؤلاء المسئولين خيراً ، لتكون لهذا المسئول هيبته التى تعينه على أداء مهمّته على احسن وجه وفي أحسن الظروف .

تلك بعض الدروس القيّمة في هذه الرّسالة النبويّة أشير اليها اشارة عابرة ، فقد شرحها كثير من العلماء ، واستفادوا منها فوائد عظيمة .

وكتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، الى أقيال اليمن في الزّكاة والدّيات وغيرها ، وهذا هو نصّ الرّسالة النبويّة :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمّد رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) .

الى : شُرَحْبِيْل بن عبد كُلال ، والحارث بن عبد كُلال ، ونُعَيْم بن عبد كُلال قَيْل ذى رُعَيْن ومَعَافِر وهَمْدان .

أما بعد ، فقد رجع رسولكم ، وأعطيتم من المغانِم خُمس الله ، وما كُتب على المؤمنين من العُشر في العَقار ، ما سقت السّماء أو كان سَيْحاً أو كان بَعْلاً[55] ففيه العشر اذا بلغت خمسة أَوْسُق[56] ، وما سقى بالرشاء[57] والدّالية[58] ففيه نصف عُشْرٍ اذا بلغ خمسة أَوْسُق .

وفي كلّ خمس من الابل سائمة ، شاة ، الى أن

---

(٥٥) البعل : الارض المرتفعة التى لايسقيها الا المطر . والزرع يشرب بعروقه فيستغنى عن السقى .

(٥٦) الوسق : مكيلة معلومة ، وهى ستون صاعا ، والصاع خمسة أرطال وثلث . وحمل البعير او السفينة ، (ج) : أو ساق ووسوق واوسق .

(٥٧) الرشاء : الحبل ، أو حبل الدلو ونحوها .

(٥٨) الدالية : الدلو ونحوها ، وخشبة تثبت براس الدلو ، ثم يشد بها طرف حبل ، وطرفه الاخر بجذع قائم على رأس البئر يستقى بها .

تبلغ أربعاً وعشرين ، فان زادت واحدة على أربع وعشرين ، ففيها بنت مخاض[٥٩] ، فان لم توحد ابنة مخاض فابن لَبون[٦٠] ذَكَر الى أن تبلغ خمساً وثلاثين • فان زادت واحدة على خمسة وثلاثين ، ففيها ابنة لَبون ، الى أن تبلغ خمسة وأربعين ، فان زادت واحدة على خمسة وأربعين ، ففيها حِقَّة[٦١] — طروقة الفحل — الى أن تبلغ ستّين • فان زادت واحدة ، ففيها جَذَعَة[٦٢] ، الى أن تبلغ خمساً وسبعين • فان زادت واحدة ، ففيها ابنتا لَبون الى أن تبلغ تسعين • فان زادت واحدة على تسعين ، ففيها حِقَّتان — طروقتا الفحل — الى أن تبلغ عشرين ومائة • فما زاد عن عشرين ومائة ، ففى كل أربعين ابنة لَبون ، وفي كلّ خمسين حقّة طروقة الفحل •

وفي كلّ ثلاثين باقورة[٦٣] تَبِيْع ، جَذَع أو جَذَعَة ، وفي كلّ أربعين باقورة بقرة •

---

(٥٩) بنت مخاض : هى التى دخلت في الثانية وان لم تكن امها حامل ، وابن مخاض : الذكر من الابل الذى دخل في الثانية وان لم تكن امه حاملا ، والجمع : بنات مخاض للذكور والاناث ، انظر الافصاح (٢/٧٢٠) .

(٦٠) ابن اللبون : ولد الناقة اذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة ، لأن امه ولدت غيره ، فصار لها لبن ، وهى ابنة لبون ، وبنت لبون . (ج) : بنات لبون للذكر والاناث .

(٦١) الحقة : من الابل هو الحق ، مادخل في السنة الرابعة وامكن ركوبه او الحمل عليه (ج) : حقق ، وحقاق .

(٦٢) الجذع : من الخيل والبقر ، ما استكمل سنتين ودخل الثالثة ، ومن الضان : مابلغ ثمانية اشهر او تسعة ، ومن الابل : الذى اتت عليه الخامسة ، وهى جذعة . (ج) : جذاع ، واجذاع ، وجذعان .

(٦٣) الباقورة : بلغة اهل اليمن البقرة ، انظر النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير (١/١٠٧) .

وفي كلّ أربعين شاة سائمة ، شاة ، الى أن تبلغ عشرين ومائة . فان زادت واحدة ففيها شاتان ، الى أن تبلغ مائتين . فان زادت واحدة ، ففيها ثلاث شياه ، الى أن تبلغ ثلاث مائة . فان زادت ، ففى كلّ مائة ، شـــاة .

ولا تؤخذ في الصّدقة هَرِمَة ولا عَجْفَاء ولا ذات عُوَار[٦٤] ، ولا تَيْس[٦٥] الغنـم الاّ أن يشـاء المصـدّق .

ولا يُجمع بين متفرّق ، ولا يُفرّق بين مُجْتَمِع خشية الصّـدقة ، وما أُخِـذ من الخليطين فانّهما يراجعان بالسويّة .

وليس في رَقيقٍ ولا مزرعة ولا عُمّالها شىء ، اذا كانت تؤدى صدقتها من العُشر ، وليس في عبدٍ مسلم ولا في فرسه شىء .

(قال : وكان في الكتاب)

انّ أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الشّرك ، وقتل النّفس المؤمن بغير حقّ ، والفرار في سبيل الله يوم الزّحف ، وعقوق الوالدين ، ورمى المحصنات ، وتعلّم السّحر ، وأكل الرّبا ، وأكل مال اليتيم .

وانّ العُمْرَة الحجّ الأصغر ، ولا يَمَسّ القرآن الاّ طاهر ، ولا طلاق قبل الامـلاك[٦٦] ،

---

(٦٤) العوار : العيب والخرق والشق في الثوب .

(٦٥) التيس : الذكر من المعز والظباء والوعول اذا اتى عليه حول .

(٦٦) أملك المراة : تزوجها . ولاطلاق قبل الاملاك : قبل الزواج .

ولا عِتَاق[٦٧] حتى يُبتاع ، ولا يُصَلِّينَّ أحدكم في ثوب واحد ليس على منكبه شيء منه .

(وكان في الكتاب) :

انَّ مَن اعتبط[٦٨] مؤمناً ، قتله عن بيّنةٍ ، فانّه قَوَد[٦٩] الاّ أن يرضى أولياء المقتول .

وانَّ في النفس الديّة ، مائة من الابل ، وفي الأنف الذى أُوعِبَ[٧٠] جَدْعَه[٧١] الديّة ، وفي الصُّلْب الديّة ، وفي العينين الديّة ، وفي الرّجلين الديّة ، والواحدة نصف الديّة ، في المأمومة[٧٢] ثلث الديّة ، وفي الجائفة[٧٣] ثلث الديّة ، وفي المُنَقّلة[٧٤] خمس عشرة من الابل ، وفي كلّ اصبع من أصابع اليد والرّجل عَشْر من الابل ، وفي السِّنّ خمس من الابل ، وفي المُوضِحَة[٧٥] خمس من الابل ، وانّ

---

(٦٧) اعتق العبد : حرره . ولا عتاق : لاتحرير .

(٦٨) اعتبط مؤمنا : ذبحه بلا جناية ولا جريرة .

(٦٩) القود : القصاص ، ومعناه ان القاتل يقتل به ويقاد ، انظر شرح السيوطى على سنن النسائى (٢٥٢/٢) .

(٧٠) أوعب جدعه : استأصله ، قطعه جميعه ، انظر شرح السيوطى على سنن النسائي (٢٥٢/٢) .

(٧١) جدعه : قطعه .

(٧٢) المأمومة : الشجة التى بلغت أم الراس ، وهى الجلدة التى تجمع الدماغ ، انظر النهاية (٥٣/١) .

(٧٣) الجائفة : الطعنة التى تبلغ جوف الراس او جوف البطن ، انظر شرح السيوطى على سنن النسائي (٢٥٣/٢) .

(٧٤) المنقلة : الشجة التى تنقل منها فراش العظام ، وهى قشور تكون على العظم دون اللحم ، انظر ترتيب القاموس المحيط (٣٨٧/٤) . والمنقلة من الجراح : ماينقل العظم من موضعه ، وهى شجة يخرج منها صغار العظم وينقل عن اماكنها ، وقيل : هى التى تنقل العظم ، اى تكسره ، انظر شرح السيوطى على سنن الامام النسائي (٢٥٢/٢) .

(٧٥) الموضحة : الشجة كشطت عن العظم ، وهى جراحة بلغت العظم فاوضحت عنه .

الرّجل يُقتل بالمرأة »[٧٦] .

علامة الختم : رسول الله محمد

وفي هذه الرّسالة النبويّة دروس قيّمة جداً كسابقتها ، وفيها ما يشير الى تطبيق ما جاء في رسالته السابقة حول تنظيم الزّكاة والصدقة والجزية .

ومن دروس هذه الرّسالة ، تنظيم جباية الأرض المزروعة السّيح منها والتى تُروى بالمجهود الذاتي ، وزكاة الابل بالتفصيل ، وزكاة البقر بالتفصيل أيضا ، وزكاة الغنم .

ثم يذكر الذين يعفون من الزكاة ، ويخصّ منهم الرّقيق والعبيد ، فهم أحقّ بالرأفة من غيرهم ، وهم أجدر بأن يشملهم الاعفاء .

ثم يحذّر من الكبائر ، ويُعدّدها ، ويذكّر بأنّها من أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة .

ثم يسلّط الأضواء على قسم من العبادات ، وقسم من القضايا الاجتماعية التى تخصّ الفرد والمجتمع ، لتنظيم تلك العبادات والقضايا الاجتماعية الأخرى .

وأخيراً ينصّ على العقوبات الرادعة للذين يُقدمون على اقترافها ممّا لا يفسح المجال لممارستها ، وممّا يجعل الفرد والمجتمع يرفل بالأمان والاطمئنان والسّلام .

تلك هى الخطوط العريضة للأهداف الرفيعة التى حملتها هذه الرّسالة النبويـة الى أهل اليمن أفراداً وجماعات ، وفقراء وأغنياء ، وحكّاماً ومحكومين ، من أجل تنظيم المجتمع الاسلامى على هدى وبصيرة ، فالكلّ يعرف ما عليه من واجب تجاه نفسه وتجاه أخيه المسلم وتجاه المجتمع

---

(٧٦) الاهدل ـ نشر الدرر المكنون في فضائل اليمن الميمون (٦٧) عن صحيح ابن حبان ج ٥ ومجمع الزوائد ج ٣ ، وانظر الزرقانى (٣/٣٣٣) والدارمى (٢٩٣) ، وانظر النص في مجموعة الوثائق السياسية (١٤٩ ـ ١٥٢) .

الاســلامى ، ومــن المعلوم أنّ الفــرد والجماعــة ، والغنيّ والفقير ، والحاكــم والمحكوم ، اذا عرفوا واجبهــم وحقوقهــم ، فأدّوا واجبهــم كاملا ، وأخذوا حقوقهم كاملة ، فانّ التّعاون يسودهم ، والمحبّة تقودهم ، والسّلام يشملهم ، والسّعادة ترفل عليهم ، والرّخاء ينتشر بينهم ، ومن ثمّ يكون النّصر حليفهم في ميدان الفكر وفي ميدان الجهاد .

مما تقدّم ، يظهر أنّ الحارث بن عبد كُلال واخوته بخاصة وغيرهم من أقيال اليمن بعامة تسلّموا ثلاث رسائل نبويّة في أوقات متفاوتة ، حملها لهم عدّة سفراء نبويّيْن ، فَمَنْ حمل تلك الرّسائل ، ومتى ؟

لقد حمل الرّسالة الأولى المهاجر بن أبى أمَيَّة المخزوميّ ، كما ذكرنا ذلك من قبل ، وقد أوفده النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد عودته من غزوة تَبُوك التى كانت في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية كما هو معلوم ، فكاتب أهل اليمن سنة تسع الهجرية(٧٧) ، ومعنى ذلك أنّ المهاجر حمل الرّسالة النبويّة الى الحارث واخوته في نحو شهر شعبان من السّنة التاسعة الهجريّة ، باعتبار المدّة التى استغرقتها الرحلة من المدينة المنورة الى تبوك ذهاباً ، وبقاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عشرين يوماً في تبوك(٧٨) ، فقدم مُوفد الحارث بن عبد كلال وصحبه المدينة في شهر رمضان باسلامهم(٧٩) .

أما الذى حمل الرّسالة الثانية ، فهو مُعَاذ بن جَبَل ، وكان ذلك بعــد شهر رمضــان من السنة التّاســعة الهجريّة ، لأنّ موفد الحارث ابن عبد كُلال وصحبه باسلامهم قدم المدينة في شهر رمضان كما ذكرنا .

أمّا الرسالة الثالثة ، فقد حملها الى اليمن عمرو بن حَزْم ، فقد روى

---

(٧٧) أسد الغابة (٣٩٨/٣) .
(٧٨) طبقات ابن سعد (١٦٨/٢) .
(٧٩) طبقات ابن سعد (٣٥٦/١) وسيرة ابـن هشام (٢٥٨/٤) والطبرى (١٢٠/٣) .

رسالته منسوبة اليه كثير من المحدّثين ، منهم أبو داود والنّسائيّ وابن حبّان والدّارميّ »[٨٠] ، وقد ذكر النسائي هذه الرسالة في سُنَنِه بعنوان : « ذكر حديث عمرو بن حَزْم »[٨١] ، فلا شكّ في أنّ حامل الرّسالة النبويّة الثالثة هو عمرو بن حَزْم الأنصارى ، وقد حملها الى اليمن في بقية شهر شوّال أو في صدر شهر ذى القعدة من السّنة العاشرة الهجرية[٨٢] ، كما سيرد تفصيل ذلك في سيرة عمرو بن حزم[٨٣] .

تلك هى مجمل قصّة السّفارات النبوية الى اليمن ، ومَن حمل الرسائل النبويّة اليهم ، وموعد حمل الرسائل النبويّة والتوجّه بها الى اليمن .

انّ الرّسالة النبويّة الأولى ، حملها الى الحارث بن عبد كلال في حوالى شهر شعبان من سنة تسع الهجرية المهاجر بن أبى أُميّة . وحمل الرّسالة النبويّة الثانية الى الحارث وغيره من أقيال اليمن مُعَاذ بن جبل بعد شهر رمضان من سنة تسع الهجرية : في شوال أو ذى القعدة . وحمل الرّسالة النبويّة الثالثة الى الحارث بن عبد كلال واخوته في اليمن عمرو بن حَزْم الأنصارى ، في بقية شهر شوّال أو في صدر شهر ذى القعدة من سنة عشر الهجريّة .

---

(٨٠) انظر الاصابة (٢٩٣/٤) واسد الغابة (٢٠٣/٢) وكنز العمال على هامش مسند الامام احمد بن حنبل (٤٩٤/٢ ـ ٤٩٦) .

(٨١) سنن النسائي (٢٥٢/٢) .

(٨٢) الطبرى (١٢٨/٣) وانظر ابن الاثير (٢٩٣/٢) .

(٨٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

الى ذى الكلاع وذى عمرو
باليمن

١ ـ ذو الكلاع وذو عمرو :

(أ) ذو : هو الأمير صاحب الدّويلة الصّغيرة في اليمن قبل الاسلام ، والأذواء : جمع ذى ، والأذواء هو اصطلاح في التاريخ اليمنىّ قبل الاسلام ، يُقصد به الأُمراء أصحاب الدّويلات الصّغرى التى قامت باليمن الى جانب الدّولة اليمنيّة الكبرى كدولة سَبَأ وحِمْيَر ، والأَذواء كالأقيال ، وهم أصحاب الاقطاعات[١] أو الدّويلات الصّغيرة •

وذو الكَلاَع ، وهو ذو الكَلاَع بن ناكور بن حبيب بن مالك بن حَسّان بن تُبّع[٢] ، في رواية • وفي رواية أخرى ، هو ذو الكَلاَع بن ناكور بن عمرو بن يَعْفُر بن يزيد ، وهو ذو الكَلاَع الأكبر ، ابن النّعمان[٣] ، وهناك روايات أخرى •

واسم ذى الكَلاَع : سَمَيْفَع[٤] أو أَسْمَيْفَع[٥] ، ويقال غير ذلك • يُكنى : أبا شُرَحْبِيل ويقال : أبا شَرَاحِيل[٦] ، وهو حِمْيَرِى[٧] •

---

(١) القاموس الاسلامى ـ احمد عطية الله (٢/٤٤٤ ـ ٤٤٥) ـ القاهرة ـ ١٣٨٦هـ .

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٦٦) .

(٣) جمهرة انساب العرب (٤٣٤) .

(٤) جمهرة انساب العرب (٤٣٤ والاصابة (٢/١٨٣) وتهذيب ابن عساكر (٥/٢٦٩) .

(٥) اسد الغابة (٢/١٤٣) وتهذيب ابن عساكر (٥/٢٦٩) .

(٦) اسد الغابة (٢/١٤٣) والاصابة (٢/١٨٣) .

وكان ذو الكَلاَع رئيساً في قومه متبوعاً[٨] ، فبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم جَرِير بن عبدالله البَجَلِيّ اليه سفيراً يحمل كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأسلمت زوجته ضُرَيْبَة بنت أَبْرَهَة بن الصَّبَّاح[٩] .

قال جرير : « بعثني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى ذي الكَلاَع وذي عمرو ، فأما ذو الكَلاَع فقال : « ادخل على أم شُرَحْبِيْل ، والله ما دخل أحد بعد أبي شرحبيل عليها قبلك ، ثم أسلما »[١٠] ، وهذا دليل على ثقة ذي الكلاع بجرير بن عبدالله البَجَلِيّ ثقة مطلقة ، بحيث أدخله على زوجه استثناءً ، ولم يسمح لغيره قبله بالدّخول عليها .

وأعتق ذو الكَلاَع أربعة آلاف مولى من مواليه لاسلامه[١١] ، مما يدلّ على فرحه الغامر باسلامه وغناه الباذخ ، حتى لو كان عدد مَنْ أعتق في هذه المناسبة مبالغاً فيه .

وأقبل ذو الكلاع وصاحبه ذو عمرو مع جرير للقاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في المدينة المنوّرة ، فصادفهم في طريقهم من اليمن الى المدينة رَكْبٌ وأخبروهم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قُبض واستُخلف أبو بَكرٍ الصِدِّيق رضي الله عنه ، فقال ذو الكَلاَع : « أخبر صاحبك أنا سنعودُ ان شاء الله تعالى » ، فقال أبو بكر لجرير بعد وصول جرير الى المدينة وسماعه خبر ذي الكلاع وذي عمرو : « أفلا جئت بهم !! »[١٢] .

ولا صُحبة لذي الكلاع ، ولكنّه أسلم واتّبع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في حياته[١٣] ، ولم يَرَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، لذلك فهو من

---

(٧) اسد الغابة (١٤٣/٢) .
(٨) اسد الغابة (١٤٣/٢) .
(٩) طبقات ابن سعد (٢٦٦/١) .
(١٠) تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٥) .
(١١) الاصابة (١٨٣/٢) وتهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٥) .
(١٢) الاصابة (١٨٢/٢) وتهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٥) وفيه : « افلاجئتم بهما !! » .

تابعي أهل الشام[14] وليس صحابيا .

وحين ارتدّ قسم من أهل اليمن مع الأسود العَنْسِيّ ، وظهر الأسود على اليمن ، كان ذو الكلاع من الذين ثبتوا على الاسلام ولم يرتدّوا ، وكان له نشاط محمود في القضاء على فتنة الأسود ومَنْ معه وقتل الأسود وعودة المرتدين الى الاسلام[15] .

ولما تولّى أبو بكر الصدّيق الخلافة ، كتب الى ذى الكلاع وغير من الأذواء يأمرهم بالتمسّك بدينهم والقيام بأمر الله ، ويأمرهم باعانة الأَبْناء[16] على مَنْ ناوأهم . فلما سمع قَيْس بن عبد يَغُوث بن مَكْشُوح الذى ارتدّ ثانيةً بعد مقتل الأسود العَنْسِيّ وبعد ما بلغه موت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، بكتاب أبى بكر الصدّيق الى أذواء اليمن وغيرهم ، كتب الى ذى الكلاع وأصحابه يدعوهم الى قتل الأبناء واخراج أهلهم من اليمن ، فلم يجيبوه ولم ينصروا الأبناء[17] ، ولكنّهم عموماً كانوا مع المسلمين لا عليهم .

وبعث أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه أَنَس بن مالك[18] رضى الله عنه خادم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى اليمن يحمل كتاباً يحثّ فيه الأذواء والمسلمين على مجاهدة المرتدين خارج اليمن ، بعد أن عاد اليمنيّون

---

(13) أسد الغابة (١٤٣/٢ – ١٤٤) .

(14) طبقات ابن سعد (٤٤٠/٧) ، وانظر تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٥) .

(15) انظر التفاصيل في : الطبرى (٣١٨/٣ – ٣٢٠) وابن الاثير (٣٣٦/٢ – ٣٤٢) .

(16) الأبناء : ابناء الفرس ، أو ابناء الفرس الاحرار – كما يطلق عليهم أيضا ، أو بني احرار ، بسم يطلق على سلالة الفرس الذين استوطنوا اليمن بعد أن استولوا عليها من سيف ذىيزن الحميرى وتزوجو وتناسلوا ورزقوا الاولاد ، ويطلق كذلك على سلالة الفرس الذين دخلوا في الاسلام وانتصروا له . انظر : القاموس الاسلامى (١٦/١) .

(17) انظر التفاصيل في : ابن الاثير (٣٧٤/٢ – ٣٧٨) .

(18) انظر سيرته في : أسد الغابة (١٢٧/١) والاستيعاب (١٠٩/١) وتهذيب الاسماء واللغات (١٢٧/١) . والاصابة (٧١/١) .

المرتدّون الى الاسلام من جديد ، وعلى مجاهدة المشركين أيضا .

قال أنس : « أتيت اليمن ، فبدأت بهم حياً حياً ، أقرأ عليهم كتاب أبي بكر ، فاذا فرغت ، قلت : الحمدلله ، وأشهد أن لا اله الاّ الله ، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله . أما بعد ، فاني رسول خليفة رسول الله ، ورسول أمير المؤمنين . ألا وراثي تركتهم مُعَسْكِرين ليس يثقلهم عن الشخوص الى عدوّهم الاّ انتظاركم ، فاحتملوا الى اخوانكم بالنّصر رحمة الله عليكم . أيّها المسلمون ! فكلّ مَنْ نقرأ عليه ذلك الكتاب ويسمع هذا القول ، يردّ أحسن الردّ ، ويقول : نحن سائرون الى اخواننا ، حتى انتهينا الى ذي الكلاع، فلما قرأت عليه الكتاب وقلت له هذا القول ، دعا بفرسه وسلاحه ، ثمّ نهض في قومه ، وأمر بالعسكر ، فما برحنا حتى عسكر . وقام فيهم خطيباً ، فقال : أيّها الناس ! انّ من رحمة الله عليكم ونعمته فيكم أن بعث منكم نبيّاً ، أنزل عليه الكتاب ، وأحسن عنه البلاغ ، فعلّمكم ما يرشدكم ، ونهاكم عمّا يفسدكم ، حتى علّمكم مالم تكونوا تعلمون ، ورغّبكم فيما لم تكونوا ترغبون فيه من الخير ، وقد دعاكم اخوانكم الصّالحون الى جهاد المشركين ، واكتساب الأجر العظيم ، فلينفر مَنْ أراد النّفر معي . قال : فنفر معه عدّة من الناس ، فأقبل بهم الى أبي بكر ، فرجعنا نحن ، فسبقناهم بأيام ، فوجدنا أبا بكر بالمدينة ، ووجدنا ذلك العسكر على حاله ، وأبو عُبَيْدَة يُصليّ بالناس ، فلما قدمت حِمْيَر معها أولادها ونساؤها قال أبو بكر : عباد الله ! ألم نكن نتحدّث فنقول : اذا جاءت حِمْيَر معها نساؤها وأولادها، نصر اللّهُ المسلمين ، وخذل المشركين ؟! أبشروا أيّها الناس ، فقد جاءكم النّصر »[19] .

ولا ندري بالضبط جهاد ذي الكلاع في المدة من قدومه الى المدينة ، الى أن لحق بأرض الشّام على رأس رجاله من حِمْيَر ، فقد بعثه أبو بكر

---

(١٩) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧١) .

في السَّنة الثالثة عشرة الهجرية الى أرض الشَّام مَدَداً للمسلمين هناك[٢٠] ، كما بعث غيره على رأس قواتهم الى أرض الشَّام مدداً لخالد بن سعيد بن العاص[٢١] .

واقتحم خالد بن سعيد على الرُّوم طلب الحَظْوَة ، فكشف ظهره بدون تدابير أَمْنِيَّة كافية ، وكان معه ذو الكلاع ، فتكبدّ جيش خالد أمام الرّوم خسائر فادحة ، فعزل أبو بكر خالد بن سعيد[٢٢] .

واقبالُ ذي الكلاع ومَنْ معه على الجهاد ، بسرعة خاطفة ، وتلبية دعوة أبي بكر الصدّيق للنّفير خِفافاً ، دليل على ايمانهم الرّاسخ ، حيث خلّفوا وطنهم اليمن ، وأقبلوا على عَجَل ، تلبية لنداء الجهاد .

كما أنّهم توجّهوا حيث أمرهم أبو بكر ، دون تردّد ولا اعتراض ، وليس التوجّه لقتال الرُّوم في حينه سهلاً ولا هيّنا .

وربّما يتبادر الى الأذهان ، أنّ الحافز الذي دفع ذا الكَلاع ومَنْ معه والمجاهدين من المسلمين في كلّ قبيلة للجهاد دافع اقتصادي بحت ، كالفوز بالغنائم وغيرها من القضايا الماديّة الأخرى ، ولكنّ الأمر ليس كذلك ، لأنّ الرّوح لا تباع بالمادة ، ولا أحد يُلقي بنفسه الى التهلكة من أجل المال حسب ، وقد كانت خسائر المجاهدين المسلمين بالأرواح فادحة جداً بلغت ثمانين بالمائة من تَعداد المجاهدين ، وهذه الخسائر بالأرواح لا تعوّض بالمادة أبدا . أما ذو الكلاع مثلاً ، فقد كان ميسور الحال الى أبعد الحدود ، فهل يُعقل أن يزجّ نفسه في المهالك من أجل المادة ، وهو ليس بحاجة الى هذه المادة ، وما عنده يكفي ويفيض على حاجته ، بل كان يوزّع ما عنده على الفقراء والمحتاجين وعلى قومه وأهله ، وعلى الكرم والضيافة ، ويجهّز المجاهدين في سبيل الله ، وينفق أمواله في الجهاد وفي سبيل الله ، والقول بأنّ

---

(٢٠) ابن الاثير (٢/٤٠٣) .
(٢١) الطبري (٣/٣٨٩) .
(٢٢) الطبري (٣/٣٩٠) .

مثله يجاهد لأسباب ماديّة لا يقبله العقل ويرفضه المنطق السليم .

انّ الحافز الذى دفع المجاهدين للجهاد هو حافز الايمان العميق ، الذى يجعل الرّوح رخيصة في سبيل الله ، وبخاصة في مجابهة الرّوم والفرس ، أعظم دولتين عالميتين في حينه ، ولن تكون المادة عوضاً عن الرّوح في مجابهة خطر داهم أكيد وقوم ذوى بأس شديد .

ومن النادر أن نجد انساناً لا يُحب المال حبّاً جمّاً ، ولكن من المستحيل أن نجد انساناً يبيع روحه بالمال طوعاً لا كرها .

وفي معركة اليرموك الحاسمة ، التى كانت في السنة الثالثة عشرة الهجرية ، كان ذو الكلاع قائداً لأحد الكراديس ، بقيادة خالد بن الوليد ، وكان مجموع قوات المسلمين التي اشتبكت بالرّوم والتى نظّمت كراديس في ستة وثلاثين كُرْدوسا الى الأربعين ، كلّ كردوس في ألف مجاهد ، فيكون مجموع المسلمين بين ستة وثلاثين ألفاً الى أربعين ألفا(٢٣) وكانوا يؤمّرون كلّ قائد على قبيلته ، اذا كان قادراً على قيادتهم كما ينبغي ، لأنّه يعرف رجاله أكثر من غيره ، ويعرف أحسن الطّرق والأساليب للتّعامل معهم لأنّه منهم ، ويعرف كيف يوجّههم لأداء واجباتهم كاملةً على أحسن وجه .

وشهد ذو الكلاع فتح دمشق ، فبعث أبو عُبَيْدَة بن الجرّاح رضى الله عنه ذا الكلاع على رأس قوّة من المسلمين ، فكان ردءاً (حاجزاً) بين دمشق وحِمْص ، لأنّ هِرَقل وقوّات الرّوم الضّاربة كانت يومئذ في حمص(٢٤) ، فحصر المسلمون دمشق ، وحرم أهل دمشق في حصارهم من معاونة هرقل لهم ، وهكذا فتح المسلمون دمشق ، وكان لذى الكلاع ورجاله نصيبهم من الغنائم(٢٥) .

لقد كان موقف ذى الكلاع في خطّة فتح دمشق سنة ثلاث عشرة الهجرية

---

(٢٣) الطبرى (٣/٣٩٦ ـ ٣٩٧) .
(٢٤) الطبرى (٣/٤٣٨) .
(٢٥) الطبرى (٣/٤٤٠) .

بارزاً جداً ، فقد حال دون تعاون قوّات الرّوم في حمص بقيادة هرقل مع قوّات الرّوم المحاصَرة في دمشق ، ممّا سهّل فتح دمشق على المسلمين . ولو استطاع هرقل بقوّاته الضّاربة معاونة الرّوم في دمشق ، لاختلف الموقف العسكريّ تماماً ، ولكان فتح دمشق غالي التّكاليف على المسلمين في الخسائر الماديّة والمعنوية .

وفي خطّة فتح دمشق والتّعجيل في فتحها ، برز دور ذي الكلاع لأوّل مرة قائداً متميّزاً في أيام الفتوح .

وشهد ذو الكلاع فتح فِحْل[٢٦] ، فلما انتهت معركة فِحْل لصالح المسلمين ، انصرف أبو عُبَيْدَة ومعه خالد بن الوليد وذو الكلاع ومَنْ معه باتّجاه حِمْص ، وخلّف شُرَحْبِيْل بن حَسَنَة في الأُردن ، وكان ذلك سنة ثلاث عشرة الهجريّة[٢٧] أيضا .

وأتّخذ ذو الكلاع على رأس رجاله موضعاً بين دمشق وحِمْص ليكون قاعدة متقدّمة للمسلمين ، فنزل ابو عُبَيْدَة بن الجرّاح ومَنْ معه من القادة والقوّات على ذي الكلاع . وبلغ الخبر هرقل في حمص ، فبعث أحد قادته حتى نزل بمرْج دمشق وغربها ، وبدأ أبو عُبَيْدَة بمرْج الرّوم ، وتعاون معه القادة الآخرون ، وأحرزوا في معركة مرج الرّوم على قوّات الرّوم نصراً ساحقاً ، وكبدّوا الرّوم خسائر فادحة بالأرواح والأموال ، وكان ذلك سنة خمس عشرة الهجريّة[٢٨] .

وكان واجب ذي الكلاع في هذه المرحلة من الفتوح : تكوين قاعدة متقدّمة يلجأ اليها المسلمون وتحمى ظهورهم ، وحرمان قوّات الرّوم في حمص وفي مرج الرّوم من التعاون بينها على المسلمين ، مما أدىّ الى أن

---

(٢٦) فحل : اسم موضع بالشام ، انظر معجم البلدان (٦/٣٤٠) ، وهو في منطقة الاردن .

(٢٧) انظر التفاصيل في الطبرى (٣/٤٤٢ ـ ٤٤٣) .

(٢٨) انظر التفاصيل في الطبرى (٣/٥٩٨ ـ ٥٩٩) وابن الاثير (٢/٤٩٠ ـ ٤٩١) .

تقاتل قوّات الرّوم منفردة . كلّ واحدة من تلك القوّات مستقلّة عن غيرها وغير متعاونة ، مما يسّر أمر القضاء عليها منفردة لا مجتمعة ، فكان مثلها مثل الطّعام يؤكل بلقم منفردة واحدة بعد الأخرى ، مما يسهل تناوله دون عناء .

وكان الفضل في ذلك ، لقيادة ذي الكلاع القادرة .

وسكت المؤرخون عن دور ذي الكلاع في فتوح أرض الشّام ، ولابدّ أن يكون له دور قياديّ بارز فيها ، وقد سكن حمص بعد فتحها ، وكانت له بدمشق حوانيت ، وشهد معركة صفّين بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وكان مع معاوية قائداً لأهل حمص ، وكان على ميمنة جيش معاوية في صفّين[٢٩] .

ومن المعلوم ، أنّ معركة صفّين كانت سنة سبع وثلاثين الهجرية ، وكان ذو الكلاع على ميمنة معاوية ، وكانت تلك الميمنة مؤلّفة من أهل حمص وحِمْيَر ومَنْ معهم في أربعة آلاف بينهم عُبَيْدالله بن عمر بن الخطّاب . وحملت ميمنة أهل الشّام على مسيرة أهل العراق المؤلّفة من ربيعة وعليها عبدالله بن العبّاس ، حملة شديدة بخيلهم ورَجِلهم ، فتضعضعت ربيعة الاّ قليلاً من الأخيار والأبدال[٣١] . وانصرف أهل الشّام ولكنهم لم يمكثوا الاّ قليلاً حتى كرّوا ، وشدّوا على ربيعة شدّة عظيمة ، فثبتت له ربيعة وصبروا صبراً حسناً الاّ قليلاً من الضّعفاء والفشلة[٣١] .

واشتدّ قتال حِمْيَر وربيعة ، حتى كثرت بينهم القتلى ، وأصيب ذو الكلاع[٣٢] ، فكان قتل ذي الكلاع موضع فخر شاعر أهل العراق[٣٣] .

وقد كان ذو الكلاع سمع عمرو بن العاص يقول : « قال رسول الله

---

(٢٩) تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٥) .
(٣٠) الابدال : الزهاد .
(٣١) الطبرى (٣٤/٥) وانظر ابن الاثير (٣٠٧/٣) .
(٣٢) الطبرى (٣٦/٥) وابن الاثير (٣٠٨/٣) .
(٣٣) الطبري (٤٤/٥) وابن الاثير (٣١٤/٣) .

صلّى الله عليه وسلّم لعَمّار بن ياسِر : تقتلك الفئة الباغية ، وآخر شربة تشربها ضَياح[34] من لَبن » ، فكان ذو الكَلاع يقول لعمرو : « ما هذا ويحك ياعمرو؟! » ، فيقول عمرو : « انّه سيرجع الينا » ، فقُتل ذو الكلاع قبل عَمّار مع معاوية ، وأُصيب بعده عَمّار مع عَلِيّ ، فقال عمرو لمعاوية : « ما أدرى بقتل أيّهما أنا أشدّ فرحا ، بقتل عمّار أو بقتل ذى الكلاع . والله لو بقى ذو الكلاع بعد قتل عمّار ، لمال بعامّة أهل الشّام مع علىّ »[35] .

وقد ذكر عبدالرحمن بن زياد الافْرِيقيّ[36] في كتابه : (أهل صِفّيْن) فقال : « كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهلية ، والتقوا في الأسلام ومعهم تلك الحميّة ونيّة الاسلام ، فتصابروا واستحيوا من الفرار ، وكانوا اذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء ، وهؤلاء في عسكر هؤلاء ، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم . فلما اصبحوا يوماً ، وكان يوم الثلاثاء ، خرج الناس الى مصافهم ، وكنت في خيل عليّ ، فبينا أنا واقف اذ نادى رجل من أهل الشّام : مَنْ يدلّنى على أبى نوح الحميرى ؟ فقالوا : أيّهم تريد ؟ فقال : الكَلاعى . فقال أبو نوح : أنا ، فمن أنت ؟ فقال : أنا ذو الكلاع ، فَسِر اليّ . فقال أبو نوح : معاذ الله أن أسير اليك ، الاّ في كتيبة ! فقال : سِرْ ،

---

(34) الضياح : الممزوج بالماء من اللبن .
(35) ابن الاثير (٣/٣١٠) .
(36) عبدالرحمن بن زياد الافريقي : أبو خالد ، قاض من العلماء ، اشتهر بالجرأة وزجر العلماء ، وولد ببرقة ، وهو اول مولود في الاسلام بافريقية ، ونشأ بها ، وولى قضاء القيروان مرتين ، ثم رحل الى بغداد واتصل بالمنصور قبل أن يلي الخلافة ، وجمعت بينهما جامعة الاشتغال بالعلم ، واحبه المنصور فكان رفيقه . ولما ولى المنصور الخلافة دعاه اليه ، فوعظه الافريقي وحذره من ارتكاب المظالم وانتقد بعض اعماله ، ثم استأذنه بالعودة الى القيروان ، فأذن له ، ولم يجئه بعد ذلك ، ولد سنة ٧٥هـ ومات سنة ١٦١هـ (٦٩٤م ـ ٧٧٨م) ، وله عدة مؤلفات في الحديث وغيره ، انظر الطبقات علماء افريقية (٢٧ ـ ٣٣) ورياض النفوس (١/٩٦) وتاريخ بغداد (١٠/٢١٤) والاعلام للزركلى (٤/٧٨) ـ ط د .

ولك ذمّة الله ورسوله وذمّة ذى الكَلاَع حتى ترجع ، فانما أريد أن أسألك من أمر فيكم • وسار كلّ منهما الى صاحبه . فلما التقيا ، قال ذو الكلاع : انما دعوتك لأحدّثك حديثاً حدّثناه عمرو بن العاص في امارة عمر • فقال أبو نوح : وما هو • فقال ذو الكلاع : حدّثنا عمرو أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : يلتقى أهل الشّام وأهل العراق ، في احدى اللّتين الحق والهدى ومعهما عمّار بن ياسر • فقال أبو نوح : نعم والله ، انّ عمّاراً لمعنا وفينا ! فقال : أجاء هو على قتالنا ؟ فقال نوح : نعم وربّ الكعبة لهو آحَدُ على قتالكم منى ، ولوددت أنكم خلق واحد فذبحته »[٣٧] •

لقد كانت الدعاية السّائدة في الشّام ، أنّ عثمان بن عفّان رضى الله عنه قُتل مظلوماً ، وهذا ما لا يختلف عليه المسلمون في الشّام وفي العراق • ولكن الدعاية الشامية تضيف : أنّ قتلة عثمان في صفوف أهل العراق وبحمايتهم ، وأنّ على أهل الشّام واجباً هو الأخذ بثأر عثمان من قتلته • وكان ذو الكلاع ممّن اقتنع بهذه الدعاية الشّاميّة التى ظاهرها الحق وباطنها الباطل • فاذا كان قتلة عثمان في صفوف أهل العراق ، فانّ أهل العراق يستنكرون قتل عثمان كما يستنكر قتله أهل الشّام ، ولكن محاسبة قتلة عثمان ـ وعددهم كبير ـ يحتاج الى السّلام لاجراء التحقيق والمحاكمة وانزال العقاب العادل ، ومن المستحيل محاسبة القتلة في الحرب ، والسّلطه في العراق مشغولة بهذه الحرب ومشاكلها وليست في موقف يتحمّل أن تقاتل في جبهتين : جبهة خارجية على أهل الشّام ، وجبهة داخلية على قتلة عثمان ومَنْ يؤيّدهم من قبائلهم التى لا تُسلمهم بسهولة ويسر وبخاصة في ظروف حربيّة ومَنْ يؤيّدهم من غير قبائلهم أيضا •

ولعلّ موقف ذى الكلاع قبل نشوب القتال بين أهل الشّام وأهل العراق ، يلقى الضوء على حماسة ذى الكلاع في الأخذ بثار عثمان بن عفان

---

(٣٧) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٣ ـ ٢٧٤) .

رضي الله عنه . فلما ظهر أمر معاوية بالشام وبايعوه ، دعا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً ، وأمره أن يأتي دمشق ويقول لأهلها : « تركتُ علياً وقد نَهَدَ[38] اليكم » ، فلما وصل الى دمشق وفعل ما أُمر به ، قام معاوية خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : « أيّها الناس ! انّ علياً قد نَهَدَ اليكم في أهل العراق ، فما الرأي ؟ » ، فقام ذو الكلاع فقال : « عليك الرأي وعلينا الأفعال » . وأمره معاوية أن يخطب النّاس ويحرّضهم على قتال عليّ ومَنْ معه من أهل العراق ، فقعد على فرسه ، وكان من أعظم أصحاب معاوية خطراً ، فقال : « الحمدلله حمداً كثيراً نامياً جزيلاً واضحاً منيراً بكرةً وأصيلا ، أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكّل عليه ، وكفى بالله وكيلا . ثمّ اني أشهد أن لا اله الاّ الله وحده لا شريك له ، وأنّ محمّداً عبده ورسوله ، أرسله بالفرقان اماماً وبالهدى ودين الحقّ حين ظهرت المعاصي ودرست الطّاعة وامتلأت الأرض جوراً وضلالة واضطرمت الدنيا كلّها نيراناً وفتنة ، وودّ عدوّ الله ابليس أن يكون قد عبد في أكنافها واستولى على جميع أهلها ، فكان الذى أطفأ نيرانها ونزع أوبارها وأوهن به قوى ابليس وآيَسَ ما كان قد طمع من ظفره بهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم محمّد بن عبدالله ، فأظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون ، صلّى الله على محمّد والسّلام عليه ورحمة الله وبركاته . وقد كان . فيما قضى الله أن ضمّ بيننا وبين أهل ديننا مَنْ جعلنا نِصفين ، وانّا لنعلم أنّ منهم قوماً كانت لهم مع رسول الله سابقة ذات شأن وخطر عظيم ، ولكنّي قلّبت هذا الأمر ظهراً وبطناً ، فلم أرَ أن يسعنا أن يُهدر دم ابن عفّان صهر نبينا ومجهّز جيش العُسرة واللاّحق في مسجد رسول الله بيننا ، وباني سِقاية المسلمين ، والمبايع له رسول الله بيده اليُمنى على اليُسرى ، واختصّه رسول الله بكريمتيه : أمّ كلثوم ورُقيّة ، فان كان أذنب ذنباً فقد أَذنبَ مَنْ هو خيرٌ منه ، فقد قال عزّ من قائل :

---

[38] نهد فلان : نهض ومضى . ونهد لعدوه أو الى عدوه : ثبت له وشرع في قتاله .

(لِيَغْفِرَ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ)[٣٩] ؛ وقتل موسى نفساً فاستغفر الله فغفر له ، وقد أذنب نوح ثمَّ استغفر الله فغفر له ، وأذنب أبوكم آدم ثمَّ استغفر الله فغفر له ، فلم يَعْرَ أحد من الذنوب . وانا لنعلم أنَّه كانت لابن أبي طالب سابقة حسنة مع رسول الله ، فان لم يكن مالأَ على قتل عثمان فقد خذله ، وانَّه لأخوه في دينه وابن عمِّه وسلفه وابن عمَّته ، وقد اقبلوا من عراقهم حتى نزلوا شامكم وبلادكم وبيضتكم ، وانَّما عامتهم بين قاتل وخاذل ، فاستعينوا بالله واصبروا ، فقد ابتليتم أيَّتها الأمَّة ، والله لقد رأيت في منامي في ليلتي هذه لكأني وأهل العراق قد اعْتَوَرْنا »[٤٠] مصحفاً نضربه بأسيافنا ، ونحن في ذلك نتادى : وَيْحَكُم الله ، مع أنَّا والله ما نحن بمفارقي العَرْصَة[٤١] حتى نموت . عليكم بتقوى الله ، ولتكن النيَّات لله ، فاني سمعت عمر بن الخطَّاب يقول : انَّما يُبْعث المقتتلون على النيَّات ، أَفْرَغَ الله علينا الصَّبر ، وأعدَّ لنا ولكم النَّصر ، وكان لكم وليَّاً وناصراً وحافظاً في كلِّ أمْرٍ ، وأستغفر الله لي ولكم »[٤٢] .

ولم يُمالِىء علي بن أبي طالب رضي الله عنه على قتل عثمان رضي الله عنه ولا خذله ، فقد بذل قصارى جهده في وضع حدٍّ للفتنة التي راح ضحيَّتها عثمان ، ودافع عن عثمان دفاعاً عظيماً ، ولكنَّ الأحداث كانت أقوى منه ، وكان تيار الغاضبين على عثمان جارفا ، فتغلَّبت الأحداث وجرف التيَّار ، وكان ذلك قدراً مقدورا .

ولكن خطاب ذي الكلاع ، يظهر الاتِّجاه الدعائي السَّائد يومئذ في بلاد الشَّام ، والذي آمن به ذو الكلاع وغيره من أهل الشَّام ، ويبدو أنَّ ذا الكلاع غيَّر رأيه ، بعد لقائه بأهل العراق ، واطِّلاعه على حقيقتهم التي

---

(٣٩) الآية الكريمة من سورة الفتح (٤٨ : ٢) .

(٤٠) اعتور الشيء : تداوله . واعتوروا الشيء : تداولوه فيما بينهم .

(٤١) العرصة : ساحة الدار ، والبقعة الواسعة بين الدور .

(٤٢) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٢ – ٢٧٣) .

تثبت أنهم ليسوا أقل من أهل الشام غضباً لعثمان وحزناً على مقتله ومطالبة بثأره ، وبعد تأكده من وجود عمار بن ياسر في صفوف العراقيين يقاتل الشاميين ، وكاد يتخلى عن هذه الفتنة الكبرى ويحمل مَنْ يطيعه على التخلي عنها ، لولا أن قُتل في صِفِّين قبل أن يُقتل عمار ، لذلك قال معاوية حين بلغه قتل ذي الكلاع : « لأَنا أشد فرحاً بقتل ذي الكلاع مني بفتح مصر لو افتتحتها » ، وذلك لأنه كان يعرض له في أشياء كان يأمر بها[٤٣] ، وهذا يدل على قوة شخصيته ، فانه كان ذا رأي مستقل ومبادرة ، وكان مبتدعاً لا مُتّبعاً ، ولم يكن إمّعَةً اذا الريح مالت مال حيث تميل .

وقد صح عند ذي الكلاع بعد لقائه مع العراقيين في صفين ، أن عَلِيّاً بريء من دم عثمان ، ولما قُتل عمار بن ياسر قال معاوية : « لو كان ذو الكلاع حياً ، لمال بنصف الناس الى عَلِيّ »[٤٤] ، مما يدل على مبلغ ثقته بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

والذي أراه أن ذا الكلاع اجتهد فأخطأ ، وانما الأعمال بالنيات .

وكان في الجاهلية ذا سلطان عظيم ، فقد ذكر أحدهم أن أهله أرسلوه بهدية الى ذي الكلاع في الجاهلية ، فلبث على بابه حولاً لا يصل اليه ، فلما أشرف ذات يوم من القصر ، لم يبق أحد حول القصر الا خرّ له ساجدا ، ثم أمر بالهدية فقُبلت . ثم رآه الذي ذكر هذا الحديث بعدُ في الاسلام ، وقد اشترى لحماً بدرهم ، فسمّطه على فرسه وهو يقول :

أُفٍّ للدنيا اذا كانت كذا
أنا منها كل يوم في أذى
ولقد كنتُ اذا ما قيل : مَنْ
أَنعم الناس معاشاً ؟ قيل : ذا !

---

(٤٣) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٤) .
(٤٤) أسد الغابة (٢/١٤٣) .

ثم بُدِّلت بعيشٍ شقوة

حبّذا هذا شقاءٌ حبّذا

وبمناسبة ذكر شيء من شعره ، فانّه يُروى أنّ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه لما بلغه كثرة سرف بعض الناس في الخمر بالشّام واقامة الحدود عليهم ، أمر أن يُطبخ كلّ عصير بالشّام حتى يذهب ثلثاه ، فقال ذو الكلاع .

صبرت ولم أجْزع وقد مات اخوتى

ولستُ من الصّهباء يوماً بصابر

رماها أمير المؤمنين بحتفها

فخلاّنها يبكون حول المعاصرِ

فلا تجلدوهم واجلدوها فانّها

هى العيش للباقى ومَنْ في المقابر

وكان يدخل مكّة رجال متعمّمون من جمالهم مخافة أن يُفْتتن بهم ، منهم ذو الكلاع وامرؤالقيس بن حجر الكِنْدِى وجرير بن عبدالله البجلىّ ، فقد كان ذو الكلاع جسيماً وسيما وقد اعتق عدداً عظيماً من الرّقيق[٤٥] .

وحين قصد عمر بن الخطّاب رضى الله عنه ، كان معه أربعة آلاف من الرّقيق ، فسأله عمر في بيعهم ، فأصبح وقد أعتقهم ، فسأله عمر عن ذلك ، فقال : « انى أذنبت ذنباً عظيماً ، فعسى أن يكون ذلك كفّارة ، وذلك أنى تواريت مرة ثم أشرفت فسجد لى مائة ألف » . وكان عند ذى الكلاع اثنا عشر ألف بيت من المسلمين ، فبعث اليه عمر فقال : « بِعْنَا هؤلاء نستعين بهم على عدوّ المسلمين » ، فقال : « لا ، هم أحرار » ، فأعتقهم كلّهم في ساعة واحدة[٤٦] .

ولذى الكلاع مع عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أخبار ، وقد روى عن عمر بن الخطّاب وعمرو بن العاص وعوف بن مالك ، وروى عنه أزهر بن

---

(٤٥) انظر التفاصيل في : تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠ – ٢٧٤) .
(٤٦) الاصابة (٢/١٨٣) والعبر (١/٤٠) .

سعيد وزامل الجذامي وأبو نوح الحميري ، وروى عن عمر بن الخطّاب أنّ رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : « انّما يُبعث المقتتلون على النيّات »[47] .

لقد كان من أعظم أصحاب معاوية خطراً لشرفه ودينه[48] ، وقبل ذلك كان سيّداً من سادات العرب في الجاهلية ، وبقي سيّداً من سادات العرب والمسلمين في الاسـلام .

لقد كان ذو الكلاع رجلاً حقا .

(ب) وبقدر ما كانت أخبار ذى الكلاع كثيرة دسمة ، كانت أخبار ذى عمرو قليلة هزيلة ، فكلاهما عُرفا بعد اسلامهما ، فهما ابنا الاسلام ، عُرفا بعد اعتناق الاسلام لا قبله ، وقد كان في اليمن كثير من الأذواء والأقيال في الجاهلية ، ماتت أخبار مَنْ لم يدرك الاسلام منهم ، والذين أدركوا الاسلام وبقوا على دينهم ولم يُسلموا ، ماتت أخبارهم معهم ، فلا نعرف من أخبارهم الاّ نادرا ، أما الذين أدركوا الاسلام وأسلموا وحسن اسلامهم ، فقد بقى ذكرهم حتى اليوم ، ولكن التفاوت في تفاصيل أخبارهم كبير جداً ، كما هو الحال في أخبار ذى الكلاع وذى عمرو ، فأخبار ذى الكلاع وافية ، وأخبار ذى عمرو قليلة غير وافية .

ويبدو أنّ ذا عمرو قضى بعد اسلامه بعد مدّة قصيرة أو طويلة ، فلا أحد يعرف متى انتقل الى رحمة الله ، ولا أحـد يعرف أسباب قِلّة أخباره في المصادر المتيسّرة ، وأرجّح أنّه توفى مبكّراً ، فانقطعت أخباره .

وهذه هى أخباره في تلك المصادر ، فقد بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم جرير بن عبدالله البَجَلِيّ الى اليمن لدعوة ذى الكلاع وذى عمرو الى الاسلام ، فأسلما ، وقال ذو عمرو لجرير : « هل شعرتَ أنّ من بادئى

---

(47) تهذيب ان عساكر (٥/٢٧٠) .
(48) العبر (١/٣٩) .

كرامة الله على العبد أن يُحسن صورته ! »[٤٩] ، وكان جرير جميل الصّورة[٥٠] ، وكان عمر بن الخطّاب رضى الله عنه يقول : « جرير يوسف هذه الأمّة » ، لجماله وكماله وحسن فِعاله[٥١] ، ورآه عبدالملك بن عُمَيْر فقال : « رأيت جريراً كأن وجهه شقّة قمر »[٥٢] ، فكان أحد المتعممين بمكّة مخافة النساء على أنفسهم من جمالهم[٥٣] ، فقد كان يدخل مكّة رجال متعمّمون من جمالهم مخافة أن يُفتتن بهم ، منهم جرير بن عبدالله البَجَلِي[٥٤] .

وبعد اسلام ذي عمرو ، أقبل وصاحبه ذو الكَلاع مع جرير للقاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في المدينة المنوّرة ، فصادفهم في طريقهم من اليمن الى المدينة رَكْبٌ قادم من المدينة ، أخبرهم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قُبِض واستُخلف أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فقالا : ذو الكلاع ، وذو عمرو لجرير : « أخبر صاحبك أنّا سنعود ان شاء الله تعالى » ، فقال أبو بكر الصدّيق لجرير ، بعد وصول جرير الى المدينة المنوّرة : « أفلا جئت بهم !! »[٥٥] .

ولما علم ذو عمرو بتولّي أبى بكر الصدّيق الخلافة بعد انتقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى الرّفيق الأعلى قال لجرير : « ياجرير ، انّ بك كرامة ، واني مخبرك خبرا : انّكم معاشر العرب ، لن تزالوا بخيرٍ مادمتم اذا هلك أمير أمّرْتم آخر ، فاذا كان السيّف كانوا ملوكاً يغضبون غضب

---

(٤٩) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠) .
(٥٠) البداية والنهاية (٨/٥٥) .
(٥١) البدء والتاريخ (٥/١٠٣) ، وانظر تهذيب الاسماء واللغات (١/١٤٧) .
(٥٢) البداية والنهاية (٧/٥٦) .
(٥٣) المحبر (٢٣٢) .
(٥٤) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧١) .
(٥٥) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠) ، وفيه : « افلا جئت بهما)) » ، وانظر الاصابة (٢/١٨٢) .

الملوك ، ويرضون رضاء الملوك »[٥٦] .

ويريد ، أنّ الخليفة الذي يختاره المسلمون بأنفسهم منهم ، لابدّ أن يكون خيِّراً صالحاً قادراً ذا كفاية متميِّزة ، يفيد المسلمين ولا يضرّهم ، فلا يزالون بخير مادمتم أنتم الذين تختارون . أما اذا أصبحت الخلافة غِلاباً تؤخذ بالسيف وتكون للقويّ بقوته لا بكفايته ، فانّها تصبح ملكيّة يتولاها ملوك لا خلفاء ، والملوك يغضبون غضب الملوك ، ويرضون رضاء الملوك ، تبعاً لأطماعهم ومصالحهم الشخصيّة .

واختيار المسلمين لخليفتهم قضيّة حضارية متقدّمة ، لا عهد للعرب بها من قبل ، فقد كانت السلطة تكون بالوراثة تبعاً للحسب والنسب أو بالقوّة القاهرة ، وما كان والد أبي بكر سيّداً من سادات قريش ليخلفه أبو بكر في سلطته ، ولا تولّى أبو بكر بالقوّة القاهرة ، بل تولىّ بسابقته وكفايته وخدمته للاسلام والمسلمين واختيار المسلمين له من بين صفوة المسلمين .

ولكن اكتشاف ذي عمرو هذه الظّاهرة في تولية الخليفة ، دليل على رجاحة عقله ، وبُعد نظره ، وتمتّعه بالذكاء الخارق اللمّاح .

وهناك ما ينمّ على أنّ ذا الكلاع وذا عمرو كانا من أهل الكتاب ، فقد ذُكر أنّ ذا الكلاع كان ابن عمّ كعب الأحبار[٥٧] الذي كان من أهل الكتاب ، كما ذُكر أنّ ذا عمرو قال لجرير : « انّ صاحبك الذي جئت من عنده ان كان نبيّاً فقد مات اليوم »[٥٨] ، كأنّه كان من الذين درسوا الكتب المقدّسة واطّلع على ما فيها من تنبّؤات ، أو أنّه أطّلع على نعي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من الركبان قبل أن يطلع عليه جرير وذو الكلاع .

وقد بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى ذي عمرو وذي الكَلاَع في

---

(٥٦) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠) وانظر أسد الغابة (٢/١٤٢) .
(٥٧) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٦٩) .
(٥٨) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠) وأسد الغابة (٢/١٤٢) والاصابة (٢/١٨٢).

قتل الأسود العَنْسِيّ مع جرير[٥٩] ، فنهض بواجبه ، وثبت على اسلامه ، ولم يتغيّر ، بل قاتل المرتدين مع المسلمين الذى ثبتوا على دينهم ولم يرتدّوا .

لقد كان ذو عمرو رجلاً من أهل اليمن[٦٠] ، ولكنه كان أحد الأذواء المتنفذين في اليمن وذا مكانة مرموقة في بلاده وبين قومه ، لذلك بعث اليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سفيراً لدعوته الى الاسلام ورسولاً لقتال المرتدين ، فأدّى واجبه كما ينبغي . ولا رواية له ولا رؤية ، فهو من التابعين لا من الصّحابة عليهم رضوان الله .

٢ ــ السفارة النبوية :

بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جرير بن عبدالله البَجَليّ الى ذى الكَلاَع وذى عمرو باليمن يدعوهما الى الاسلام ، فأسلما ، وأسلمت ضُرَيْبَة بنت أَبْرَهَة بن الصَّبَّاح امرأة ذى الكَلاَع[٦١] .

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، قد كتب الى ذى الكلاع كتاباً مع جرير[٦٢] ، ولم يُرْوَ نصّ الكتاب[٦٣] .

وما يقال عن كتاب ذى الكَلاع ، يقال عن كتاب ذى عمرو ، ولم يُرْوَ نصّ الكتاب ، ولا نصّ في المصادر المتيسّرة على ارسال الكتاب النبوىّ الى ذى عمرو ، كالنصّ على ارسال الكتاب النبوىّ الى ذى الكلاع ، ولكن جرير بن عبدالله البَجَليّ بُعِثَ الى ذى الكَلاع وذى عمرو ، فاذا لم يُوَجّه كتاب نبوىّ خاص الى ذى عمرو ، فمن المعقول أنّ الكتاب النبوىّ موجّه الى الرجلين في آن واحد ، أى أنّ الكتاب النبوىّ الموجّه الى ذى

---

(٥٩) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠) .
(٦٠) أسد الغابة (٢/١٤٢) .
(٦١) طبقات ابن سعد (١/٢٦٥ ــ ٢٦٦) .
(٦٢) الاشتقاق لابن دريد (٣٠٨) .
(٦٣) مجموعة الوثائق السياسية (٢٥٧) في الوثيقة (٢٤٥) .

الكلاع ، موجّه الى ذى عمرو وأيضا .

وكان ذو عمرو يهودياً ، كما كان ذو الكلاع يهودياً أيضاً ، لأنّه ابن عمّ كعب الأحبار الذى كان يهودياً أيضـا .

فمتى اتّصل جرير بن عبدالله البجلىّ حاملاً الكتاب النبوىّ الى ذى الكلاع وذى عمرو باليمن ؟

لا نصّ حول توقيت هذا الاتّصال ، ويمكن استنتاج هذا التّوقيت ، وقد اختلفوا في موعد اسلام جرير ، فهناك مَنْ يذكر أنّه أسلم قبل أربعين يوماً من وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٦٤] ، وهذا خطأ بدون شك ، لما ثبت في الصّحيحين : البخارى ومُسلم ، أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لجرير : « استنصت الناس » ، في حَجّة الوَداع ، وذلك قبل التحاق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالرّفيق الأعلى بأكثر من ثمانين يوما[٦٥] .

وقد جزم الواقدىّ بأنّ جريراً وفد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في شهر رمضان من سنة عشر الهجريّة ، وهذا خطأ أيضاً ، لأنّ جريراً يروى : أنّه سمع الرسول صلّى الله عليه وسلّم ينعى النّجاشىّ » ، ملك الحبشة وهذا يدلّ على أنّ اسـلام جرير كان قبـل سنة عشر الهجرية[٦٦] ، لأنّ النّجاشىّ مات قبل ذلك[٦٧] .

والصّـواب ، هو أنّ جريراً أسلم سنة تسـع الهجريّة ، وهى سنة الوفود[٦٨] ، أو عام الوفود ، كما هو معلوم .

---

(٦٤) أسد الغابة (١/٢٧٩) والاستيعاب (١/٢٣٧) .
(٦٥) الاصابة (١/٢٤٢) .
(٦٦) الاصابة (١/٢٤٢) .
(٦٧) انظر بحث : اسلام النجاشي في : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .
(٦٨) فتح البارى بشرح البخارى (٧/٩٩) ، وفى طبقات ابن سعد (١/٣٢٧) يذكر أنه وفد على النبى صلى الله عليه وسلم سنة عشر الهجرية ، مع وفد بجيلة ، وانظر : طبقات ابن سعد (٦/٢٢) ، ويومها كانت بجيلة متفرقة ولم تكن مجتمعة ، والوفد الذى جاء المدينة يمثل طائفة منها حسب .

وقد كاتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أهل اليمن سنة تسع الهجريّة[٦٩] ، ولم يكاتبهم قبلها ، وقصد اليمن المهاجر بن ابي أُمية المخزوميّ في نحو شهر شعبان من السنة التّاسعة الهجريّة ، وقدم وفد الحارث بن عبد كُلال وغيره من الأقيال المدينة باسلامهم في شهر رمضان من السنة التّاسعة الهجريّة[٧٠] ، وبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُعَاذ بن جَبَل بعد رمضان من سنة تسع الهجرية : في شوال أو ذى القعدة من السنة التّاسعة الهجرية .

فمن المعقول أنّ جرير بن عبدالله البَجَلِيّ قصد اليمن في سفارته الى ذى الكُلاع وذى عمرو في شوّال أو ذى القعدة من سنة تسع الهجرية ، كما فعل مُعَاذ بن جَبَل ، وكان حرّياً بجرير أن يُعين مُعاذاً ومَنْ معه في مهمّة الدّعوة الى الاسلام ، لأنّه يمنيّ أعرف بأهل اليمن من غيره الحجازيين .

ومادام جرير قد شهد حجّة الوداع مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فمن الواضح أنّه عاد من اليمن ليحمل الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخبار ذى الكُلاع وذى عمرو ومَنْ أسلم معهما ، وقد عاد من اليمن الى المدينة قبل حَجّة الوَداع التى كانت سنة عشر الهجرية[٧١] كما هو معروف .

ولما عاد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من مكّة بعد الحجّ ، مرض من السّفر غير مرض موته ، فبلغ ذلك الأسود العَنْسِيّ ، فادّعى النبوّة ، فبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من جملة مَنْ بعث الى اليمن جرير بن

---

(٦٩) أسد الغابة (٣٦٨/٣) .

(٧٠) طبقات ابن سعد (٣٥٦/١) وسيرة ابن هشام (٢٥٨/٤) والطبرى (١٢٠/٣) .

(٧١) الطبرى (١٤٨/٣) وابن الاثير (٣٠٢/٢) .

عبدالله البَجَلِيّ الى ذي الكَلاع وذي ظُلَيم[٧٢] في التعاون على الأسود العَنْسِيّ[٧٣] ، فأيدّ المسلمين وبذل لهم النصر ذو الكلاع وذو ظُلَيم[٧٤] ، وقَتل الأسود ، فكتب المسلمون الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بخبر مقتل الأسود ، وذلك في حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٧٥] .

وعاد جرير من اليمن الى المدينــة ليبسط للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم الوضع الرّاهن في اليمن بعد القضاء على فتنة الأسود والقضاء عليه ؛ وكان معه ذو الكلاع وذو عمرو ، ولكنّه لما علم بالتحاق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالرفيق الأعلى ، وهو في طريقه الى المدينة المنوّرة ، فعاد ذو الكلاع وذو عمرو الى اليمن بعد أن علما أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد قُبض ، واستمر جرير في طريق عودتــه الى المدينــة المنوّرة ، حيث أخبــر أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه بارتداد مَنْ ارتدّ في اليمن وثبات من ثبت .

وردّ أبو بكر جريراً الى بَجِيْلَة قومه ، وأمره أن يستنفر من قومه من ثبت على الاســلام ، ويقاتل بهم مَن ارتدّ عن الاســلام ، وأن يأتي خَثْعَمَ ، فيقال من خرجَ غضباً للصنم الذى يدعى : ذا الخَلَصَة[٧٦] ،

---

(٧٢) انظر سيرته في : اسد الغابة (٢/١٤٢) والاصابة (٢/٦٧) في سيرة : حوشب الذى كان اسمه ، ذات الرقم (٢٠١٤) .
(٧٣) الطبرى (٣/١٨٧) .
(٧٤) ابن الاثير (٢/٣٣٨) .
(٧٥) ابن الاثير (٢/٣٤١) .
(٧٦) ذو الخلصة : وهى من الاصنام ، بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة التاج ، وكانت بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، وهى بلدة مشهورة من ارض تهامة في طريق اليمن ، وبين تبالة ومكة اثنان وخمسون فرسخا ، اى ما يعادل سبعة ايام أو ثمانية أيام ، وبينها وبين الطائف ستة ايام (انظر معجم البلدان (٢/٣٥٧ ــ ٣٥٨) . وكان سدنة ذى الخلصة بنو أمامة من باهلة بن أعصر ، وكانت تعظمها وتهدى اليها خثعم وبجيلة وأزد السراة ، وهم أزد شنوءة ومن قاربهم من العرب من هوازن ، انظر كتاب الاصنام (٣٤ ــ ٣٥) ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث جرير لهدمها ، فهدمها وحرقها ، انظر سيرة جرير بن عبدالله البجلى .

فخرج جرير وفعل ما أمره به أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه ، فلم يقم له أحدٌ الاّ نفر يسير ، فقتلهم وتبعهم[٧٧] .

وتوجه جرير الى نَجْران[٧٨] ، فأقام بها انتظاراً لأمر أبي بكر الصدّيق[٧٩] رضي الله عنه ، في قتال المرتدّين والتّعاون مع مَنْ يقاتلهم من المسلمين .

ولما فصل المهاجر بن أبي أُميّة المخزوميّ من عند أبي بكر الصدّيق في المدينة المنوّرة ، وكان آخر مَنْ فَصَل ، متوجّهاً لحرب المرتدين في اليمن ، اتّخذ مكّة المكرّمة طريقاً ، ثم مرّ بالطائف ، ثمّ مضى قُدُماً ، حتى اذا حاذى جريراً في نَجْران ، ضَمّه اليه[٨٠] ، وبَجِيْلَة مع جرير[٨١]، فقاتل جرير ورجاله أهل الرِدّة تحت لواء المهاجر بن أبي أُمَيّة ، فسار المهاجر ومعه جرير من نصر الى نصر حتى نزل صَنْعاء ، وكتب الى أبي بكر بذلك[٨٢] .

لقد أدى جرير في سفارته داعياً للاسلام خير أداء ، وثبت على الاسلام بالرّغم من ارتداد معظم بَجِيْلَة قومه ، فكان ثباته ذا أثر عظيم في اعادة بجيلة كلّها الى الاسلام ، فأصبحوا قوّة ضاربة على المرتدّين مع المسلمين ، فكان ثبات جرير وانضمام بجيلة الى المسلمين ، من العوامل المهمّة لانتصار المسلمين السّريع الحاسم على المرتدين من أهل اليمن . كما كان لجهاد جرير المرتدين في اليمن من سمات قيادته المتميّزة أعظم الأثر في انتصار الفئة القليلة من المسلمين ، على الفئة الكبيرة من المرتدين .

---

(٧٧) الطبري (٣٢٢/٣) وابن الاثير (٣٧٥/٢) .

(٧٨) نجران : من مخاليف اليمن (محافظات) ، من ناحية مكة المكرمة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٨/٨ – ٢٦٥) .

(٨٩) الطبري (٣٢٢/٣) .

(٨٠) الطبري (٣٢٩/٣) .

(٨١) ابن الاثير (٣٧٧/٢) ، والصواب : قسم من بجيلة ، لانها كانت متفرقة يومئذ ، فجمعها عمر بن الخطاب لجرير في أيامه .

ولما عادت الوحدة الى ربوع اليمن السّعيد ضمن الدولة الاسلامية الناشئة تحت لواء الاسلام ، عاد جرير الى المدينة المنوّرة ، ليستأنف جهاده في سوح الجهاد الأخرى(٨٣) .

لقد أحسن جرير في واجبه سفيراً وقائداً ومجاهداً ، احساناً عظيما .

★ ★ ★

(٨٢) انظر التفاصيل في : الطبرى (٣/٣٢٨ ـ ٣٣٠) وابن الاثير (٢/٣٧٥ـ٣٧٨)

(٨٣) انظر سيرته في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ ـ ٣٧١) د ط بيروت ـ ١٣٩٣هـ .

الى أذواء[1] اليمن وأقيالها[2]

١ ـ الأذواء والأقيـال :

(أ) الحارث بن عبد كلال :

اظـر سيرتـه في البحث الخاص بالسّفارة النبويّة الى الحارث بن عبد كُلال الحِمْيَرِيّ ، الوارد في هذه الدّراسة .

(ب) نُعَيْم بن عبد كُلال[3] :

أخو الحارث بن عَبْد كلال ، قَيْل من أقيال اليمن ، أسلم على يد المُهَاجر بن أبي أُمَيّة ، هو واخوته ، فبعثوا باسلامهم الى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فوصل رسولهم ومعه كتاب منهم الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مقدمه من غزوة تَبوك ، وهم : الحارث بن عبد كُلال ، ونُعَيْم بن عبدكُلال ، والنّعمان قَيْل ذى رُعَيْن وهَمْدان ومَعَافِر .

---

(١) الأذواء : جمع ذى ، والذو : هو الأمير صاحب الدويلة الصغيرة في اليمن قبل الاسلام . والاذواء هو اصطلاح في التاريخ اليمني قبل الاسلام ، يقصد به الامراء اصحاب الدويلات الصغرى التى قامت باليمن الى جانب الدولة اليمنية الكبرى كدولة سبأ وحمير ، والاذواء كالاقيال وهم اصحاب الاقطاعات او الدويلات الصغيرة . انظر القاموس الاسلامى (٢/٤٤٤ ـ ٤٥) .

(٢) الاقيال : جمع قيل ، وهو الملك النافذ القول والامر ، انظر لسان العرب (٤/٩٤) . والاقيال : ملوك باليمن دون الملك الاعظم ، ويكون القيل ملكا على قومه ومخلافه ومحجره .

(٣) انظر سيرته في : أسد الغابـة (٥/٣٣) و (٢/٢٠٩) و (٢/٣٩٢) و (٢/٢٠٩) والاصابة (٦/٢٦٧) والطبرى (٣/١٢٠) .

ولا نعرف عنه شيئاً قبل اسلامه ، وأخباره بعد اسلامه قليلة جدا .

(ج) النُّعمان بن عَبْدكُلال[٤] :

لا تختلف سيرته عن سيرة أخيه نُعيم بموجب المصادر المعتمدة المتيسرة لدينا في الوقت الحاضر .

(د) شُرَحْبِيل بن عبدكُلال[٥] :

ذُكر في حديث عمرو بن حَزْم الأنصارى[٦] الذى مرّ ذكره ، فقد كتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى أهل اليمن كتاباً ، وبعث به مع عمرو بن حزم الى شرحبيل بن عبدكُلال والحارث بن عبدكُلال ، وكان قَيْلاً من اليمن .

وقد ورد في طبقات ابن سعد[٧] ، أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعث كتاباً الى الحارث و (مسروح) ونُعَيْم بن عبدكلال ، وهذا الكتاب بُعث قبل الكتاب الذى حمله عمرو بن حَزْم ، وقد ذكرنا الكتاب الوارد في طبقات ابن سعد في سفارة : المهاجر بن أبى أُمَيَّة الى اليمن .

ولم نجد في المصادر المعتمدة اسماً لمسروح بن عبدكُلال ، وأرجّح أنّ النُّسّاخ أخطأوا في نقل هذا الاسم ، فقلبوه من شُرَحْبِيل بن عبدكلال الى مسروح بن عبدكلال ، اذ لا وجود لمسروح بين أبناء عبدكلال ، والموجود بينهم هو شرحبيل التى ذكرته المصادر كافة التى نقلت رسالة عمرو بن حزم ، ولم تذكر مسروحاً ، كما أنّ شرحبيل بن عبدكلال مذكور في المصادر ، ولا ذكر لمسروح في تلك المصادر .

---

(٤) انظر سيرته في : اسد الغابة (٥/٢٩) و (٢/٣٩٢) و (٢/٢٠٩) ، والاصابة (٦/٢٦٧) والطبرى (٣/١٢٠) .

(٥) انظر سيرته في : اسد الغابة (٢/٣٩٢) والاصابة (٣/٢٢٣) و (١/٢٩٦) ، وانظر سيرة ابن هشام (٤/٢٧٩) واسد الغابة (٢/٤٢٢) وتهذيب الاسماء واللغات (٢/١١٦) .

(٦) انظر سيرته في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

(٧) طبقات ابن سعد (١/٢٨٢ – ٢٨٣) .

(هـ) شُرَيْح بن عبدكُلال :

لا ذكر له في المصادر المتيسّرة لدينا ، ولا ذكر له في سِيَر اخوته أيضاً .

(و) عَرِيْب بن عبدكُلال[8] :

كتب اليه النبي صلى الله عليه وسلم والى أخيه الحارث بن عبد كُلال ، وكان اليهما أمر حِمْيَر .

ولا أخبار عنه قبل اسلامه ، ولا بعد اسلامه أيضاً ، ويبدو أنّه ذكر بمناسبة اسلامه ، ولو لم يُسْلِم لما كان له ذكر .

(ز) فَهْد الحِمْيَرى[9] :

ذُكر فيمن كتب اليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من أقيال أهل اليمن ممن أسلم ، وفيه يقول الشّاعر :

ألا انّ خير النّاس كلّهم فَهْدُ .

وعبدُكُلال خير سائرهم بَعْدُ

وأخباره قبل اسلامه ، وبعد اسلامه ، غير متيسّرة ، ولولا اسلامه كان له ذكر في الكتب .

(ح) زُرْعَة ذى يَزَن[10] :

هو زُرْعَة بن سيف بن ذى يَزَن ، قَيْل من أقيال اليمن ، كتب اليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وقدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتاب ملوك اليمن مَقْدَمَه من تَبوك ورسولهم اليه باسلامهم ، وبعث اليه زُرْعَة باسلامه ومفارقتهم الشّرك ، فكتب اليهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كتاباً مع مُعاذ بن جَبَل ، سيرد ذكره وشيكا .

---

(8) انظر سيرته في : اسد الغابة (٣/٤٠٧) والاصابة (٥/١٠٦) .

(9) انظر سيرته في : الاصابة (٥/٢١٩) .

(10) انظر سيرته في : اسد الغابة (٢/٢٠٣) والاصابة (٣/٤٠) ، وانظر الطبرى (٣/١٢٠ – ١٢١) .

(ط) عبدالعزيز ذي يَزَن[11] :

هو عبدالعزيز بن سيف بن ذي يزن الحِمْيَرِيّ أخو زُرْعَة بن سيف بن ذي يَزَن ، كتب اليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وقدم على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم واسمه : عزيز ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « ما اسمك ؟ » ، قال : « عزيز » ، قال : « بل أنت عبدالعزيز » ، فدفع للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم حُلَلاً ، فدفع النبيّ صلّي الله عليه وسلّم لعمر بن الخطّاب منها حُلّة ، فَقُوِّمت عشرين بعيرا .

ولا معلومات اضافية عنه قبل اسلامه وبعد اسلامه أيضا .

(ى) عُمَيْر ذو مَرَّان[12] :

هو عُمَيْر ذو مَرَّان بن أَفْلَح بن شراحيل بن ربيعة وهو ناعِط ابن مَرْثَد الهَمْدانيّ النّاعِطِيّ جدّ مجالد بن سعيد المحدّث المشهور . كان مسلماً في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكاتبه ، فقد جاءه الكتاب النبويّ مع مُعاذ بن جبل رضى الله عنه الذى سيرد نصّه في سفارة معاذ بعد قليل .

ولا نعرف عنه شيئاً قبل اسلامه ، كما لا نعرف عنه شيئاً بعد اسلامه .

(ك) مالك بن مُرَارَة الرَّهَاوِيّ[13] :

وقيل : مالك بن مُرَّة وقيل : ابن فَزَارَة ، والصّحيح : مالك بن مُرَارة ، قدم الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من اليمن الى المدينة المنوّرة باسلام زُرْعَة بن سيف بن ذي يَزَن واسلام ملوك اليمن : الحارث بن عبدكُلال ، ونُعَيْم بن عبدكُلال ، والنّعمان عبدكُلال ، وكان زُرْعَة

---

(11) أسد الغابة (٣/٣٢٩) والاصابة (٤/١٨٩) .

(12) الاصابة (٥/١٢٣) .

(13) أسد الغابة (٤/٢٩٣) والاصابة (٦/٣٣ ــ ٣٤) ، وانظر طبقات ابن سعد (١/٣٥٦) وسيرة ابن هشام (٤/٢٥٨) والطبرى (٣/١٢٠ ــ ١٢١) واليعقوبى (٢/٨٧) وامتاع الاسماع للمقريزى (١/٤٩٥) .

هو الذي بعثه الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم باسلامه واسلام ملوك اليمن من ابناء عبد كلال ومفارقتهم للشرك وأهله . وقد كتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى أهل اليمن كتاباً يخبرهم فيه بشرائع الاسلام وفرائض الصّدقة والمواشي والأموال . ويوصيهم بأصحابه ورسله خيرا . وكان رسوله اليهم مُعاذ بن جَبَل ومالك بن مُرارة .

وروى مالك بن مُرارة ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : « لا يدخل الجنّة أحد في قلبه مثقال حبّة من خردل من كِبْرٍ ، ولا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبّة من ايمان » .. الحديث أخرجه الثلاثة ولا نعرف شيئاً آخر عن مالك بن مُرارة .

٢ ـ السفارة النبوية :

(أ) في شهر رمضان من السّنة التّاسعة الهجريّة ، قدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتاب ملوك اليمن مقدمه من غزوة تَبوك ، وحمل كتاب ملوك حِمْيَر باسلامهم الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : مالِك بن مُرارة الرَّهاوِيّ ، وهؤلاء الملوك الذين أسلموا هم : الحارث بن عبدكلال ، ونُعَيْم بن عبدكلال ، والنّعمان قَيْل ذي رُعَيْن[14] وهَمْدان[15] ومعافِر[16] ، كما بعث زُرْعَة ذو يَزَن الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع مالك بن مُرارة الرَّهَاوِيّ أيضاً باسلامه واسلام ملوك

---

(١٤) رعين : مخلاف (محافظة) من مخاليف اليمن ، سمي بالقبيلة اليمنية باسم : ذي رعين ، واسمه : يريم (بياءين مثناتين) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٦٣) .

(١٥) همدان : قبيلة يمنية مشهورة ، النسبة اليها : همداني ، انظر التفاصيل في جمهرة انساب العرب (٣٩٣ ـ ٣٩٥) و (٤٧٥ ـ ٤٧٦) .

(١٦) معافر : مخلاف (محافظة) من مخاليف اليمن ، تنسب اليها الثياب المعافرية ، سمي بالقبيلة اليمنية : معافر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرة ، ويمتد نسبه الى سبأ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٩٢) .

اليمن من أبناء عبدكُلال ومَن يلوذ به وبهم من الأذواء والأقيال وغيرهم من الناس ، ومفارقتهم الشِّرك وأهله[17] .

وقد كتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى أهل اليمن كتاباً يخبرهم فيه بشرائع الاسلام وفرائض الصَّدقة والمواشي والأموال ، ويوصيهم بأصحابه ورسله ، وكان رسوله اليهم مُعاذ بن جَبَل ومالك بن مُرارة[18] الرَّهاوِيّ .

وحمل معاذ ومالك الكتاب النبويّ الى أهل اليمن بعد شهر رمضان من السَّنة التّاسعة الهجريّة : في شهر شوّال أو شهر ذي القعدة من السَّنة التّاسعة الهجرية ، لأنّ كتاب أهل اليمن باسلامهم وصل الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في شهر رمضان من السَّنة التاسعة الهجريّة ، فيكون الجواب النبويّ بعد ذلك التاريخ ، وقد ذكرنا في الحديث على سفارة المهاجر بن ابي أُمَيَّة المخزومي . والصّواب أنّ اسم حامل كتاب ملوك اليمن الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم هو : مالك بن مُرارة الرَّهاوِيّ ، لامالك بن مُرَّة ، وبفتح الرّاء في الرَّهاوي لابضمّها ، لأنّ مالكاً منسوب الى رَهاء بن مُنَبِّه بن حَرْب من مَذْحِج[19] .

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عدّة أذواء وأقيال من أهل اليمن

---

(17) طبقات ابن سعد (١/٣٥٦) وسيرة ابن هشام (٤/٢٥٨) والطبرى (٢/١٢٠) واليعقوبى (٢/٨٧) واعلام السائلين لابن طولون (١٥) وامتاع الاسماع للمقريزى (١/٤٩٥) .

(18) انظر نص الكتاب النبوى في : الطبرى (٣/١٢١ - ١٢٢) وسيرة ابن هشام (٤/٢٥٩ - ٢٦٠) واليعقوبى (٢/٨٧ - ٨٩) واسد الغابة (٢/٢٠٣) والاصابة (٤/٢٩٣) والقسطلانى (١/٢٧٩) ، وقد اخرجه أبو داود وابن حبان والدارمى ، انظر الاصابة (٤/٢٩٣) ، وانظر نص الكتاب النبوى في : كنز العمال (٢/٤٩٤ - ٤٩٦) على هامش مسند الامام احمد بن حنبل ، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في : مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤ - ١٤٨) .

(19) هم : بنو معاوية بن كندة ، وهو ثور ، ابن عفير بن عدى بن الحارث بن مرة بن ادد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ ، انظر التفاصيل في : جمهرة انساب العرب (٤١٨ و ٤١٩ و ٤٢٥) .

سمّاهم ، منهم : الحارث بن عبدكُلال ، ونُعَيْم بن عبدكُلال ، ونُعْمان قَيْل ذي يَزَن ومعافِر وهَمْدان ، وزُرْعَة ذي رُعَيْن ، وكان قد أسلم من أوّل حِمْيَر ، وأمرهم عليه الصلاة والسّلام أن يجمعوا الصَّدَقة والجِزْيَة فيدفعوها الى مُعَاذ بن جَبَل ومالك بن مُرارة رسول أهل اليمن الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم باسلامهم وطاعتهم ، فكتب اليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « انّ مالك بن مُرارة قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب » ، كما ورد ذلك في نصّ الكتاب النبويّ الى أهل اليمن .

وكتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى معاوية من كِنْدَة[٢٠] بمثل ذلك .

وكتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى بني عمرو من حِمْيَر[٢١] ، يدعوهم الى الاسلام ، فلما أسلموا سرى عليهم هذا الكتاب النبويّ كما سرى على غيرهم من أهل اليمن نصّاً وروحاً .

وكان نصّ الكتاب النبويّ الى أهل اليمن الذي حمله اليهم مُعاذ بن جَبَل ومالك بن مُرارة الرّهاوي ، جواباً على كتابهم الذي بعثوه مع مالك بن مُرارة الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم باسلامهم .

« بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمّد رسول الله .

الى : الحارث بن عبدكُلال ،

والى نُعَيْم بن عبدكُلال ،

والى النّعمان بن عبدكُلال قَيْل ذي رُعَيْن ،

ومعافِر وهَمْدَان .

---

(٢٠) هم : بنو عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن الغوث بن أيمن بن الهميسع بن حمير ن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، بطن ضخم من حمير ، انظر التفاصيل في : جمهرة أنساب العرب (٤٣٢ ـ ٤٣٣) .

(٢١) طبقات ابن سعد (١/٢٦٤ ـ ٢٦٥) .

أما بعد ذلكم ، فاني أَحْمَدُ اليكم اللهَ الذى لا اله الاّ هو .

أما بعد ، فانّه قد وقع بنا رسولكم مَقْفَلَنا[٢٢] من أرض الرّوم ، فلقينا بالمدينة ، فبلّغ ما أرسلتم به ، وخبّر ما قِبَلَكُمْ ، وأنبأنا باسلامكم وقتلكم المشركين ، وأنّ الله قد هداكم بهدايته[٢٣] ، ان أصلحتم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصّلاة ، وآتيتم الزّكاة ، وأعطيتم المغانم خُمس الله وسهم نبيّه وصَفيّه[٢٤] ، وما كُتِبَ على المؤمنين من الصّدقة من العَقَار[٢٥] عُشر ما سَقَتِ العَيْن وما سقت السّماء ، وكلّ ما سُقِيَ بالغَرْب[٢٦] نصف العُشر . وفي الابل في الأربعين ابنة لَبُون[٢٧] ، وفي الثلاثين من الابل ابن لَبُون ذَكَر ، وفي كلّ خمس من الابل شاة ، وفي كلّ عشر من الابل شاتان . وفي كلّ أربعين من البقر بقرة ، وفي كلّ ثلاثين من البقر تَبِيْع جَذَع أو جَذَعة[٢٨] ، وفي كلّ

---

(٢٢) في سيرة ابن هشام : « منقلبنا » .

(٢٣) في سيرة ابن هشام « بهداه » .

(٢٤) الصفى : مايصطفيه الرئيس من الغنيمة قبل أن تقسم الغنائم ، وهو فعيل بمعنى مفعول .

(٢٥) العقار : الارض التى تزرع .

(٢٦) الغرب : بفتح وسكون ، هى الدلو العظيمة .

(٢٧) ابن اللبون : ولد الناقة اذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة ، لان امه ولدت غيره ، فصار لها لبن . وهى ابنة لبون ، وبنت لبون . (ج) : بنات لبون (للذكر والاناث) .

(٢٨) التبيع : ولد البقرة : (ج) : تباع ، وتبائع ، وأتبعة . (جج) : أتابع ، وأتابيع . والجذع من الخيل والبقر ، مااستكمل سنتين ودخل في الثالثة . وجذعة : مؤنث جذع .

أربعين من الغنم سائمة وحدَها شاة .

وانّها فريضة الله التى فرض على المؤمنين في الصَّدقة ، فمن زاد خيراً فهو خير له ، ومَنْ أدّى ذلك وأشهد على اسلامه ، وظاهر[٢٩] المؤمنين على المشركين ، فانّه من المؤمنين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وله ذِمّة الله وذِمّة رسوله .

وانّه مَنْ أسلم من يهوديّ أو نصرانيّ ، فانّ له مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومَنْ كان على يهوديّته أو نصرانيّته ، فانّه لا يُفْتَن[٣٠] عنها ، وعليه الجِزْيَة : على كلّ حالمٍ ذكر أو أُنثى ، حرّ أو عبد ، دينار وافٍ أو قيمته من المعافِر[٣١] أو عَرْضه[٣٢] ثياباً ، فمن أدّى ذلك الى رسول الله ، فانّ له ذِمّة الله وذمّة رسوله ، ومَنْ منعه فانّه عدوّ لله ولرسوله .

أما بعد ، فانّ رسول الله محمّداً النّبيّ ، أرسل الى زُرعة ذى يَزَن[٣٣] ، واذا أتتكم[٣٤] رُسُلي فأوْصيكم بهم[٣٥] خيراً ، مُعاذ بن جَبَل[٣٦] ،

---

(٢٩) ظاهره عاون وآزر .
(٣٠) في سيرة ابن هشام : « لايرد عنها » .
(٣١) المعافر : ثياب اليمن .
(٣٢) في سيرة ابن هشام : « أو عرضه » .
(٣٣) زرعة ذى يزن : سبقت ترجمته قبل قليل في هذا الفصل .
(٣٤) في سيرة ابن هشام : « أتاكم » .
(٣٥) كذا في سيرة ابن هشام ، وفي طبعة اخرى : « بها » .
(٣٦) معاذ بن جبل : انظر سيرته المفصلة في : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

وعبدالله بن زيد[٣٧] ، ومالك بن عُبَادَة[٣٨] ، وعُقْبَة بن نَمِر[٣٩] ، ومالك بن مُرَّة[٤٠] ، وأصحابهم ، وأن اجْمَعوا ما عندكم من الصَّدقة والجِزْية من مخاليفكم وبلِّغوها[٤١] رُسُلى ، وانَّ أميرهم مُعَاذ ، فلا يَنْقَلِبَنَّ الاَّ راضيا .

أما بعد ، فانَّ محمَّداً يشهد ألاَّ اله الاَّ الله وأنَّه عبده ورسوله ، ثم انَّ مالك بن مُرَّة الرَّهاوِىَّ قد حدَّثنى أنَّك أسلمتَ من أوَّل حِمْيَر ، وقتلت المشركين ، فأبْشِر بخير ، وآمرك بِحِمْيَر خيراً ، ولا تخونوا ولا تَخَاذَلوا ، فانَّ رسول الله مولى غَنِيِّكم وفقيركم ، وانَّ الصَّدقة لا تحلُّ لمحمَّد ولا لأهله ، انَّما هى زكاة يتزكَّى بها على فقراء المؤمنين وأبناء السَّبيل ، وانَّ مالكاً قد بَلَّغ الخبر وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا ، وانِّى قد بعثت اليكم من صالحى أهلى وأولى دينى[٤٢] وأولى علمهم ، فآمركم بهم خيراً ، فانَّه

---

(٣٧) عبدالله بن زيد : انظر سيرته في : الاصابة (٧٣/٤) ، وهو عبدالله بن زيد الضمرى .

(٣٨) مالك بن عبادة الهمدانى : انظر سيرته في اسد الغابة (٢٨٣/٤) والاصابة (٢٦/٦) والاستيعاب (١٣٥٣/٣) .

(٣٩) عقبة بن نمر الهمداني : انظر سيرته في اسد الغابة (٤٢١/٣) والاصابة (٢٥٣/٦) والاستيعاب (١٠٧٧/٣) .

(٤٠) مالك بن مرة : هو مالك بن مرارة الرهاوى ، انظر سيرته التى سبق ذكرها قبل قليل في هذا الفصل .

(٤١) في سيرة ابن هشام : « ابلغوها » .

(٤٢) الطبرى (١٢١/٣ ـ ١٢٢) وسيرة ابن هشام (٢٥٩/٤ ـ ٢٦٠) واليعقوبى (٨٧/٢ ـ ٨٩) واسد الغابة (٢٠٣/٢) والاصابة (٢٩٣/٤)

منظور اليهم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »(٤٢أ) .

علامة الختم : رسول الله محمد

وحين بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُعاذاً الى أهل اليمن ، أوصاه وعهد اليه ، ثمّ قال له : « يَسِّر ولا تُعَسِّر ، وبَشِّر ولا تُنَفِّر ، وانك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك : ما مفتاح الجنّة ؟ فقل : شهادة ألاّ اله الاّ الله وحده لا شريك له »(٤٣) .

كما كتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى عَرِيْبٍ بن عبدكُلال ، وهو أخو الحارث بن عبدكُلال ، وكان اليهما أمر حِمْيَر(٤٤) في اليمن .

وهذا الكتاب هو الذى ذكرناه في أعلاه ، بدون شك(٤٥) ، وقد اخطأ مَنْ توهّم بأنه لم يُرْوَ نصّ الكتاب ، فقد كتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى عدّة من أهل اليمن(٤٦) ، ذكرنا أسماء قسم منهم في صدر الكتاب ، وعَرِيب ممّن لم يُذكروا ، وهو أخ الحارث بن عبدكُلال ، واليهما أمر حِمْيَر ، فالكتاب النبوى له كما لأخيه الحارث بدون جدال .

وكما شمل الكتاب النبويّ الذى حمله عمرو بن حَزْم الأنصارى

والقسطلانى (٢٧٩/١) ، وقد أخرجه ابو داود وابن حبان والدارمى ، انظر الاصابة (٢٩٣/٤) ، وانظر النص الكامل لهذا الكتاب النبوى في كنز العمال (٤٩٤/٢ — ٤٩٦) على هامش مسند الامام احمد بن حنبل ، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في : مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤ — ١٤٨) .

(٤٣) سيرة ابن هشام (٢٦٠/٤) .

(٤٤) اسد الغابة (٤٠٧/٣) الاصابة (١٠٦/٥) .

(٤٥) اسد الغابة (٤٠٧/٣) واسد الغابة (٣٣٩/١) والاصابة (١٠٦/٥) .

(٤٦) طبقات ابن سعد (٢٦٤/١ — ٢٦٥) ، وليس من المنطق أن يشمل الكتاب النبوى جميع اخوة عريب ولايشمله وحده من دونهم .

عَرِيباً شمل اخوته ايضا[٤٧] .

وكتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى فَهْد الحِمْيَرِىّ من أقيال اليمن ، ممّن أسلم ، الذى فيه يقول الشّاعر :

ألا انّ خير الناس كلّهم فَهْدْ
وعَبْدُ كُلالٍ خيرُ سائرهم بَعْدْ

والكتاب الذى كتبه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى فهد الحِمْيَرِى ، هو الكتاب النبوىّ الذى ذكرناه قبل قليل ، والموجّه الى الحارث بن عبد كُلال واخوته ، اذ أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كتب كتابه الى عدّة من أهل اليمن[٤٨] ، ذكرنا قسماً منهم في صدر الكتاب النبوى ، وفهد ممن لم يذكروا . كما أنّ هذا الكتاب النبوىّ موجّه ليس للحكّام المعنون اليهم حسب ، بل الى بنى عمرو من حِمْيَر[٤٩] كافة ، وفهد منهم .

وقد أخطأ مَنْ توهّم بأنّه لم يُرْوَ نص الكتاب — بحسب تعبيرهم ، فالكتاب مرويّ معروف .

وكتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى عبدالعزيز بن سيف بن ذى يَزَن الحِمْيَرِىّ ، والمشهور أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كتب الى أخيه زُرْعة[٥٠] ، فالكتاب النبوىّ الموجّه الى أخيه زُرعة هو الكتاب النبوى الموجّه الى أخيه عبدالعزيز بدون شك[٥١] .

كما كتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى عُمَيْر ذى مَرّان أحد رؤساء هَمْدان ، والكتاب النبوىّ الذى كتبه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى عمير ، هو الكتاب النبوى الذى حمله مُعاذ الى الحارث بن عبدكلال بدون

---

(٤٧) الاصابة (٥/١٠٦) .
(٤٨) طبقات ابن سعد (١/٢٦٤ — ٢٦٥) .
(٤٩) طبقات ابن سعد (١/٢٦٤ — ٢٦٥) .
(٥٠) أسد الغابة (٣/٣٢٩) والاصابة (٤/١٨٩) .
(٥١) أسد الغابة (٢/٢٠٣) والاصابة (٣/٤٠) .

شك ، لأنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعث هذا الكتاب الى بني معاوية من كِنْدَة[52] ، وعُمَير ذو مَرّان منهم ، كما تسلّم عُمَيْر كتاباً نبوياً سنذكره وشيكا .

وكما شمل هذا الكتاب النبويّ الحارث بن عبدكُلال واخوته ، شمل عَرِيْب بن عبد كلال ، وفَهَد الحِمْيَرِيّ وعبدالعزيز بن سيف بن يَزَن الحِمْيَرِيّ وعُمَيْر ذي مَرّان ، وهو الذي حمله معاذ بن جبل اليهم ، وشملهم أيضاً بدون شك الكتاب النبوي الذي حمله الى اليمن عمرو بن حَزْم الأنصاري ، وليس من المعقول أن يُروى الكتابان في سيرة كلّ مَنْ وصل اليهم ، فاكتفوا بروايته في سيرة المعنون اليهم موجزاً أو كاملا ، ثم نصّوا على أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كتب الى عدّة من أهل اليمن[53] ، والى أهل اليمن[54] كافة ، وهذا يكفي لشموله الحكّام والمحكومين ، والرؤساء والقبائل ، لأنّه ينظّم لهم حياتهم الاقتصاديّة والاجتماعية ، فما من أحد في اليمن مُسلمٍ أو غير مُسلم الاّ كان له في كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذي حمله الى أهل اليمن مُعاذ بن جَبَل ، وفي كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذي حمله الى أهل اليمن عمرو بن حَزْم الأنصاري نصيب في مجال التوجيه والتنظيم ، وما من أحد من أهل اليمن الاّ كان له في حياته العملية بهذين الكتابين النبويين اقتداء وتطبيق .

لقد كان لهذين الكتابين النبويين أثر وتأثير في أهل اليمن وفي غير أهل اليمن اعتباراً من توقيت صدورهما ووضعهما في حيّز التّنفيذ حتى اليوم ، وسيبقى مفعولهما ما بقي الاسلام ، ولا عجب في ذلك ، فهما جزء من سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ومصدر عظيم للفقه الاسلاميّ والتّشريع .

وقد كان نصّ الكتاب النبويّ الموجّه الى عُمير ذي مَرّان هو :

---

(٥٢) طبقات ابن سعد (١/٢٦٤ ـ ٢٦٥) .
(٥٣) طبقات ابن سعد (٢٦٤ ـ ٢٦٥) .
(٥٤) الطبري (٣/١٢١) وسيرة ابن هشام (٤/٢٥٩) .

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من : محمّد رسول الله .

الى : عُمَيْر ذي مَرّان ومَنْ أسلم من هَمْدان .

سِلْمٌ أنتم ، فاني أحمد الله اليكم الذي لا اله الاّ هو .

أما بَعْـدُ ذلك ، فانّه بلغني اسلامكم مرجعنا من أرض الرّوم ، فابشروا فانّ الله قد هداكم بُهداه ، وانّكم اذا شهدتم أن لا اله الاّ الله ، وأنّ محمّداً عبد الله ورسوله ، وأقمتم الصّلاة ، وآتيتم الزّكاة ، فانّ لكم ذِمّة الله وذِمّة رسـوله ، على دمائكم وأموالكم وأرض البـور التى أسلمتم عليها ، سهلها وجبلها وعيونها وفروعها ، غير مظلومين ولا مضيّق عليكم .

وانّ الصّدقة لا تحلّ لمحمّد ولا لأهل بيته ، وانّما هى زكاة تزكونها عن أموالكم لفقراء المسلمين .

وانّ مالك بن مُرارة الرّهاوِيّ ، قد حفظ الغيب وبلّغ الخبر ، فآمركم به خيراً ، فانه منظور اليه .

وكتب عليّ بن أبى طالب »[٥٥] .

علامة الختم : الله رسول محمد

---

(٥٥) اسد الغابة (٤/١٤٧) واليعقوبى (٢/٦٥) ، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع الاخرى في : مجموعة الوثائق السياسية (١٥٢ ـ ١٥٣) .

ومن الواضح ، أنّ الذى حمل الكتاب النبوىّ الى عُمَيْر ذى مَرّان في اليمن ، هو مُعَاذ بن جَبَل ومالك بن مرارة الرّهاوى ، لأن الثاني ورد اسمه في نص الكتاب ، ولأنّ توقيت ارساله هو توقيت ارسال الكتاب النبوىّ الأول الذى حمله الى اليمن معاذ ومالك ، أى بعد عودة المسلمين من غزوة تبوك وقدوم كتاب ملوك اليمن في شهر رمضان من السنة التّاسعة الهجريّة باسلامهم .

لقد بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُعَاذ بن جَبَل في شهر ربيع الآخر من السّنة التّاسعة الهجريّة[٥٦] ، والصّواب أنّه بعثه[٥٧] بعد غزوة تَبوك[٥٨] التى كانت في رجب من السّنة التّاسعة الهجريّة والتي شهدها مُعاذ مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبعثه بعد شهر رمضان المبارك من السنة التّاسعة الهجريّة كما ورد في نصّ رسالة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الجوابيّة الى ملوك اليمن الذين أسلموا ، فقد قدم المدينة رسولهم في شهر رمضان المبارك باسلامهم فأجابهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وحمل رسالته اليهم مُعَاذ في شهر شوّال أو شهر ذى القعدة من السّنة التّاسعة الهجريّة كما ذكرنا .

وقد بعثه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى اليمن سفيراً ، وقاضياً ، ومرشداً[٥٩] ، يعلّم النّاس القرآن وشرائع الاسلام[٦٠] ، ويقبض الصّدقة من عُمّال اليمن[٦١] ، وداعياً ، ومجاهداً .

---

(٥٦) اسد الغابة (١٤٧/٤) واليعقوبى (٦٥/٢) ، وانظر المصادر والمراجع الأخرى في : مجموعة الوثائق السياسية (١٥٢ ــ ١٥٣) .
(٥٧) طبقات ابن سعد (٥٨٤/٣) .
(٥٨) الجامع (٤٩٢/٤) .
(٥٩) الجامع (٤٩٢/٤) .
(٦٠) الاستيعاب (١٤٠٣/٣) .
(٦١) انساب الأشراف (٥٢٩/١) .

وقد حمل ما بعث به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من رسائل الى ملوك اليمن ، فبلّغ الملوكَ الرّسائل ، وأدّى الأمانة ، فكان نعم السّفير .

كما أدّى واجباته الأخرى ، فكان قاضياً يقضى بين النّاس بالعدل ومرشداً يرشدهم الى طريق الحقّ ، ومعلّماً يعلّم القرآن والسُّنن وشرائع الاسـلام ،وواليا يجبى الزكاة والصدقة والجزية بعـد جبايتها من العمّال الآخرين .

كما أدّى واجبه مجاهدا ، فجاهد في الله حق جهاده ، حتى عاد المرتدون في اليمن الى الاسلام من جديد .

لقد أدّى مُعاذ بن جبل واجباته بالرّغم من ثقلها وصعوبتها ، على أحسن وجه ، كما يؤديها الرّجل القويّ الأمين .

(ب) بقى علينا أن نعرف شيئاً موجزاً عن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذين رافقوا مُعاذ بن جَبَل في سفارته الى اليمن ، وعاونوه في تحمّل واجباته الأخرى ، والذين قال عنهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في كتابه الذى حمله معاذ الى ملوك اليمن بخاصة وأهل اليمن بعامة : « أما بعد ، فانّ رسول الله محمّداً أرسل الى زُرْعَة ذى يَزَن ، اذا أتتكم رُسُلى فأُوصيكم بهم خيراً : مُعاذ بن جبل ، وعبدالله بن زيد ، ومالك بن عُبَادة ، وعُقْبَة بن نَمِر ، ومالك بن مُرّة ، وأصحابهم ، وأن اجْمَعوا ما عندكم من الصّدقة والجزية من مخاليفكم وبلّغوهم رُسُلى ، وانّ أميرهم معاذ ، فلا ينقلبنّ الاّ راضيا » ثم ختـم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كتابه الكريم الى أهل اليمن : « وانّ مالكاً ــ يريـد مالك بن مُرارة الرّهَاوِىّ ــ قـد بلّغ الخبر ، وحَفظ الغيب ، وآمركم به خيرا ، وانّى قد بعثتُ اليكم من صالحى أهلى وأولى دينى وأولى علمهم ، فآمركم بهم خيراً ، فانّه منظور اليهم » .

وقد تحدّثنا بايجاز على مالك بن مُرارة الرّهاوىّ في صدر هذا البحث مع اليمنيين الذين عنون باسمهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كتابه الذى

حمله اليهم مُعاذ بن جَبَل ، والذين كاتبهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من غير الذين عنون باسمهم كتابه الكريم .

وقد أفردنا بحثاً كاملاً لمعاذ بن جَبَل رضى الله عنه،في كتابنا: سفراء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فبقى علينا أن نتحدّث بايجاز على الأصحاب الذين لم نتحدّث عنهم بَعْدُ ، والذين جاء ذكرهم في كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذى ذكرناه :

عبدالله بن زيد : هو عبدالله بن زيد الضَّمْرِيّ ، نسبة الى بنى ضَمْرَة بن بكر بن عبد مَنَاة بن كِنَانة بن خُزَيْمَة بن لُؤَيّ بن غالب، وكان عبدالله من جملة الرّسل الى الحارث بن عبدكُلال وملوك اليمن الآخرين ، وقد ورد ذكره في الكتاب النبوىّ الجوابيّ الى ملوك اليمن الذى حمله اليهم معاذ بن جَبَل .

وأخباره قبل سفارته وبعدها لا وجود لها ، ولولا هذه السّفارة لما كانت له أخبار أبدا(٦٢) .

مالك بن عُبَادة الهَمْدانِيّ : قدم مالك على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في وفد هَمْدان مع مالك بن مُرارة الرّهاوى ، وكان ذلك في شهر رمضان المبارك من السنة التّاسعة الهجريّة ، فأسلموا .

وهو من قبيلة هَمْدان اليمنِيَّة ، فمالك يَمَنِيّ(٦٣) .

ولا نعرف شيئاً عنه قبل سفارته ، ولا بعد سفارته ، ولولا ورود ذكره في الكتاب النبوي لما عرفنا عنه شيئاً مذكورا .

عُقْبَة بن نَمِر الهَمْدانِيّ : وفد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع مالك بن مُرارة الرّهاوى ومالك بن عُبَادة الهَمْدانِيّ في شهر رمضان المبارك من السّنة التّاسعة الهجريّة ، وأسلموا .

---

(٦٢) الاصابة (٤/٧٣) والطبرى (٣/١٢١) وجمهرة انساب العرب (١٨٥) .
(٦٣) أسد الغابة (٤/٢٨٣) والاصابة (٦/٢٦) والاستيعاب (٣/١٣٥٣) .

وقد أعاده النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الى قومه هَمْدان في اليمن مع مُعاذ بن جبل الذى حمل كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الجوابىّ الى ملوك اليمن ، وذكر اسمه في هذا الكتاب .

ولا علم لنا بأخباره قبل اسلامه ، ولا علم لنا بأخباره بعد اسلامه ولا علم لنا بنشاطه في سفارته الى اليمن ، ولولا ذكر اسمه في الكتاب النبويّ الذى حمله معاذ بن جبل ، لما عرفنا عنه شيئاً مذكورا .

(جـ) مما يلفت النّظر في الكتاب النبوىّ المعنون الى ملوك اليمن والذى حمله اليهم مُعاذ بن جَبَل ، أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، أقرّ الأذواء والأقيال على ما كانوا عليه في الحكم بعد أن أسلموا ، والرسل الذين ورد ذكرهم مع مُعاذ وهم :

مالك بن مُرارة الرَّهاوى ــ من اليمن .

عبدالله بن زيد الضَّمْرِى ــ من الحجاز .

مالك بن عُبادة الهَمْدانِيّ ــ من اليمن .

عُقْبَة بن نَمِر الهَمْدانِيّ ــ من اليمن .

لم ينافس مُعاذ أحد الأذواء والأقيال الذين اسلموا على منصبه في السّلطة ، ولم ينتقص من سلطتهم التى كانوا يمارسونها قبل اسلامهم شيئا ، وكانت واجباته تختلف عن واجباتهم : سلطته تخصّ الدين ، وسلطتهم تخصّ الدنيا ، فهو يقضى بين الناس ، ويرشدهم الى طريق الحق ، ويعلّمهم القرآن والسُّنن والشّرائع ، ويجبى الصّدقات والزّكاة والجزية ، ويوزّع ما يجبيه على فقراء البلد ، فاذا فاض شىء من المال عن حاجة فقرائه ، أرسله الى المدينة لمعالجة شئون الفقراء في البلاد الأخرى ولتقوية المجاهدين في سبيل الله . أما الأذواء والأقيال ، فلهم واجباتهم التى كانوا يمارسونها قبل الاسلام ، فأصبحوا يمارسونها بعد الاسلام في الادارة والدّفاع والقيادة ، ولم ينتقص من واجباتهم شيئاً .

أما معاونو معاذ الأربعة ، فثلاثة منهم يمانيون ، يجمعون الصدقات والزكاة والجزية ، ويسلمونها لأميرهم معاذ ، وكل واحد منهم يتولى القضايا المالية لقومه . أما الرابع منهم الذي هو من الحجاز ، فليس من مدينة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولا من قومه قريش ، وأرجح أنّه كان متميّزاً بأمانته المطلقة ، فحمّله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم واجباً مالياً . وربما كان من الذين يحسنون القراءة والكتابة ، وهذا ما يعينه على ضبط حسابات الجباية بدقّة واتقان ، وربما كان فقيهاً كما كان معاذ بن جبل ، فتولى عملية الدّعوة والتعليم والارشاد والقضاء .

وعلى كلّ حال ، لم يستأثر أحد من المسلمين غير اليمنيين بالسّلطة أو جزء منها ، بل تولى المسلمون من أهل اليمن السّلطة على المسلمين من أهل اليمن ، ولم يحرم الاسلام أحداً من سلطته لاسلامه ، بل ازداد بعد الاسلام عزّاً ومكانة وقدرا ، ولم يرسل الى اليمن الاّ من كان أهل اليمن بحاجة ماسة الى ارساله ، ولم يكن هناك أيّ مَضرّة من ارساله ، لعدم تيسّر من يستطيع النهوض بواجباته من اليمنيين في حينه ، ولم يكن الموفدون من قريش ولا من مكّة .

ألا يحق لنا أن نطالب المسئولين المسلمين اليوم ، أن يتعلّموا هذا الدرس النافع من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؟!

الفصـــل الثاني

كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ومواردهم الكتابية



مدخل

النَّبِيّ الكريم محمّد بن عبدالله بن عبدالمُطَّلِب عليه أفضل الصّلاة وأزكى السّلام رسول الله ، نَبِيّ أُمِيّ لا يقرأ ولا يكتب . قال تعالى : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِيّ)[1] ، وقال تعالى : (فآمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيّ الأُمِيّ الَّذِي يُؤْمِنُ باللهِ وكَلِمَاتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[2] .

وجاء في تفسير : (الامي) : هو منسوب الى الأُمّة الأُمّيّة ، التي هي على أصل ولادتها ، لم تتعلّم الكتابة ولا قراءتها . وقال عبدالله بن العبّاس رضى الله عنهما : « كان نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم أُمِيّاً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسُب ، قال تعالى : (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ)[3] . وروى في الصّحيح عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : « انّا أُمّةٌ أُمِيّة لا نكتبُ ولا نحسُب »[4] .

وقال تعالى : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ في الأُمِيّينَ رَسُولاً

---

(1) الاية الكريمة من سورة الاعراف (٧ : ١٥٧) ، وانظر تفسيرها في تفسير الزمخشري (١/٥١٣) وابن كثير (٣/٥٦٤ــ٥٧٥) والبغوى (٣/٥٦٤ــ٥٧٠) بهامش ابن كثير ، وتفسير القرطبي (٧/٢٩٨ ــ ٢٩٩) وتفسير سيد قطب (٩/٥٧ ــ ١٠٠) .

(2) الاية الكريمة من سورة الاعراف (٧/١٥٨) ، وانظر تفسيرها في تفسير الزمخشرى (١/٥١٣) وابن كثير (٣/٥٧٠ ــ ٥٧٣) والبغوى (٣/٥٧٠ــ٥٧٣) بهامش ابن كثير ، وتفسير القرطبى (٧/٣٠١ ــ ٣٠٢) وتفسير سيد قطب (٩/٥٧ ــ ١٠٠) .

(3) الاية الكريمة من سورة العنكبوت (٢٩ : ٤٨) .

(4) تفسير القرطبى (٧/٢٩٨ ــ ٩٩٩) وانظر تفسير البغوى (٣/٥٦٥ ــ ٥٦٦) .

مِنْهُمْ)[٥] ، قال عبدالله بن العبّاس : « الأميّون العرب كلّهم مَن كتب منهم ومَنْ لم يكتب ، لأنّهم لم يكونوا أهل كتاب » . وقيل : الأُميّون الذين لا يكتبون ، وكذلك كانت قُريش[٦] .

لقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أُميّاً ، لا يقرأ ولا يكتب . وهذا ثابت بنصّ القرآن الكريم وباجماع الصّحابة ، لذلك اتّخذ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كُتّاباً للوحي وللرسائل النبويّة والمواثيق والعهود والقضايا الأخرى ، وهؤلاء الكتّاب معروفون في المصادر المعتمدة . وكان قومه من قريش في مكة أميين ، وليس معنى ذلك أنّ الأُميّة فاشية فيهم بدون استثناء ، فالواقع أنّ الأُميّة فيهم هي القاعدة ، ومعرفة القراءة والكتابة والحساب هي الاستثناء ، فقد كان في قريش مَنْ يُحسن القراءة والكتابة ، وحفّزهم على التّعلم عملهم في التجارة التي تحتاج الى مَنْ يُحسن القراءة والكتابة والحساب ، كما أنّ رحلة الشتاء والصّيف للتجارة : الى اليمن جنوباً ، والى الشّام شمالاً ، والى العراق شمالاً أيضاً ، جعلهم يختلطون بعرب اليمن الذين هم أكثر حضارة وعلماً من عرب الحجاز ، ويختلطون بعرب الشّام والرّوم في الشّام ، وبعرب العراق والجزيرة والفُرس في العراق والجزيرة ، وهذا الاختلاط والأسفار علّم بعضهم ما لم يكونوا يعلمون ، ومن هذا العلم القراءة والكتابة والحساب .

لقد كان مجتمع مكّة قبل الاسلام ، أقرب الى الحضارة منه الى البداوة، لأنّه كان مجتمعاً تجارياً ، يضطرّ التّجار فيه على كثرة الأسفار والاختلاط بالأمم الأخرى ، فيقتبسون من سفرهم واختلاطهم ثقافة وعلما ، وحضارة ومدنيّة .

وهاجر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من مكة الى المدينة[٧] ، وهاجر

---

(٥) الاية الكريمة من سورة الجمعة (٦٢ : ٢) .
(٦) تفسير القرطبي (١٩/٩١ — ٩٢) .

قبله وبعده أصحابه من مكة الى المدينة ، فكان مجتمع المدينة مجتمعاً زراعياً على الأكثر ، يقتضي الثبات في الأرض والاستقرار فيها ، ولا يتّصل باستمرار بالأمم الأخرى بالأسفار والاختلاط كما كان الحال في مجتمع مكّة ، لذلك كانت نسبة المتعلمين في المجتمع المكّي ــ على قلّتهم ــ أعلى بكثير من نسبة المتعلمين في المجتمع المدنيّ الذي حلّ فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه المهاجرون .

وحدثت غزوة بَدْرٍ الكبرى في السّابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة اثنتين الهجريّة ، فانتصر المسلمون على المشركين في هذه المعركة التاريخيّة الحاسمة ، ووقع أسرى من المشركين بيد المسلمين ، فكان فداء أُسارى بدر أربعة آلاف درهم لكلّ أسير الى ما دون ذلك ، فمن لم يكن عنده شيء أُمِر أن يُعَلّم غِلمان الأنصار الكتاب[8] ، وكان عدد أسرى المشركين سبعين أسيراً ، وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُفادي بهم على قدر أموالهم ، وكان أهل مكّة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن له فداء دُفع اليه عشرة غِلمان من غلمان المدينة فعلّمهم ، فاذا حذقوا فهو فداؤه ، فكان زيد بن ثابت الأنصاريّ ممن عُلّم[9] ، فصار له شأن عظيم بين كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد ذلك ، كما كان أكثر الأنصار الذين تعلّموا يومئذٍ ثم أصبحوا من كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من أولئك الغِلمان الذين تعلّموا من أسرى قُريش يوم بَدْر .

لقد كانت تلك الموجة التّعليمية العارمة ، هي أساس الطّفرة التّعليميّة الى أمام في المجتمع المدنيّ في صدر الاسلام ، وكانت طفرة لها ما بعدها في ميدان العلم والتّعليم والحضارة الاسلامية .

---

(٧) هاجر عليه الصلاة والسلام بعد ان بعثه الله عز وجل بثلاث عشرة سنة ، انظر سيرة ابن هشام (٢/٢٢٣) .

(٨) طبقات ابن سعد (٢/٢٢) .

(٩) طبقات ابن سعد (٢/٢٢) .

وأكثر كتّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الأنصار ان لم يكونوا كلّهم من تلاميذ أسرى يوم بدر ، بدأ تعليمهم بعد بَدْرٍ ، ثم تولّوا الواجبات الكتابيّة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، ودراسة سِيَرة كتّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من الأنصار تثبت ذلك بوضوح وجلاء .

وبالطّبع كان للمهاجرين المتعلمين شأن عظيم في تعليم المهاجرين والأنصار غير المتعلمين ، لأن تعلّم القرآن والسّنة وتسجيل الوحي وحمل أعباء الواجبات الكتابية الأخرى للمجتمع الاسلاميّ الجديد على عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، اقتضى أن تتوسّع ملاكات المتعلّمين ، فكان التطوّر التعليمي الذى يواكب تعاليم الاسلام في تقدّم مستمر دائب ، ظهرت ثمراته اليانعة في المجتمع المدنيّ علماً ينفع النّاس ويمكث في الأرض ، فأصبح ذلك المجتمع يجرى حثيثاً بخطوات ثابتة سريعة نحو التعلّم والعلم ، بعد أن كان راكداً مستقراً على الجهل والأُمّية قبل الهجرة .

وسيكون مجال هذا البحث مقتصراً على كُتّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، ونوعيّة الخط الذى كان شائعاً على عهد الرّسالة ، ومواد الكتابة التى كانت متيسّرة يومئذٍ ، اكمالاً للبحث في : السفارات النبويّة .

الكتّاب

كتب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم عدد من الصّحابة في كتابة الوحي والرّسائل والمواثيق والعهود .

وقد ذكر بعضهم، أنّ كُتّابه صلّى الله عليه وسلّم كانوا ستة وعشرين كاتباً على ما ثبت عن جماعة من ثقات العلماء ، وفي السّيرة للعراقي أنّهم كانوا اثنين وأربعين كاتباً[١٠] .

---

(١٠) السيرة الحلبية (٣/٣٦٤) ، وانظر نهاية الارب (١٨/٢٣٦ ــ ٢٣٧) .

وفي دراسة حديثة ، ذُكر أنّ كتّاب الوحى هم أربعة وأربعون صحابياً، ومن بين كتّاب الوحى تخصّص اربعة وعشرون كاتباً في كتابة الرّسائل والمواثيق والعهود النبويّة[11] .

وهؤلاء هم أبرز كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم :

الخليفة أبو بكر الصدّيق ، ففى حديث هجرة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من مكّة الى المدينة ، أنّ سُراقة بن مالك المُدْلِجِى أتبع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين خرج هو وأبو بكر من الغار ، فلما غشيهم سُراقة — وكان من أمر فرسه ما كان — سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يكتب له كتاب أمان ، فأمر أبا بكر أن يكتب له كتاباً ، فكتب له كتاباً ثمّ ألقاه اليه . وقد روى الامام مالك ، أنّ عامِر بن فُهَيْرة كتبه — وسيرد تفصيل ذلك في الحديث عن عامِر بن فُهَيْرَة — فيُحتمل أنّ أبا بكر كتب بعضه ، ثمّ أمر مولاه عامراً فكتب باقيه[12] .

والخليفة عمر بن الخطّاب ، كان يُحسن القراءة والكتابة والحساب ، تعلّم ذلك في صباه ، وفي حديث اسلامه أنّه قرأ الصحيفة التى كان فيها آيات من القرآن الكريم حين داهم اخته في دارها وهى تتلو الذكر الحكيم مع زوجها ، وهذا الحديث مشهور تذكره المصادر المعتمدة كافة في حديثها على سيرة عمر بن الخطّاب ، لذلك اختاره النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كاتباً من كتّابه كما هو مشهور[13] .

والخليفة عثمان بن عفّان ، كتابته بين يديه عليه السّلام مشهورة ،

---

(١١) كانو (د. عبداللطيف كانو) — مجلة الوثيقة — العدد الاول الصادر في رمضان من سنة ١٤٠٢هـ (يوليو ١٩٨٢م) — مقال : رسائل النبي صلى الله عليه وسلم — ص ٤٤ — البحرين — ١٤٠٢هـ .

(١٢) البداية والنهاية (٣٤٨/٥ و ٣٥١) .

(١٣) أسد الغابة (٥٤/١) ونهاية الارب (٢٣٦/١٨) وانظر الفاروق عمر ، هيكل (٣٢/١) .

ولما قدم نهشل بن مالك الوائلي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عثمان ، فكتب له كتاباً فيه شرائع الاسلام[14] .

والخليفة علي بن أبي طالب ، وقد كتب الصّلح بين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبين قريش يوم الحديبية : أن يأمن الناس ، وأنّه لاإسلال ولا إغلال ، وعلى وضع الحرب عشر سنين ، وقد كتب غير ذلك من الكتب النبويّة[15] .

والخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وقد روى مسلم في صحيحه أنّ أبا سفيان قال : « يارسول الله ! ثلاث أعطنيهنّ » قال : « نعم » ، قال : « تؤمّرني حتى أقاتل الكفّار كما كنتُ أقاتل المسلمين » ، قال : « نعم » ، قال : « ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك » ، قال : « نعم » ... الحديث[16] . وكان معاوية من المداويم على الكتابة مع زيد بن ثابت الأنصاري[17] .

والصّحابيّ يزيد بن أبي سفيان ، وكان أفضل بني أبي سفيان ، يقال له : يزيد الخير ، وكان من فضلاء الصّحابة ، ولم يزل يذكر بخير ، وكان أحد مَنْ كتب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم[18] .

والصّحابيّ أبو سفيان بن حرب ، كان من القلائل الذين يحسنون القراءة والكتابة والحساب ، فكان أحد مَنْ كتب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم[19] .

---

(١٤) البداية والنهاية (٣٥١/٥) .
(١٥) طبقات ابن سعد (٩٧/٢) والبداية والنهاية (٣٥١/٥) .
(١٦) البداية والنهاية (٣٥٤/٥) .
(١٧) نهاية الارب (٢٣٦/١٨) .
(١٨) انظر سيرته المفصلة في : قادة فتح الشام ومصر (٩٩–١٠٧)، وانظر عيون الاثر (٣١٦/٢) .
(١٩) عيون الاثر (٣١٦/٢) .

والصّحابيّ الزبير بن العوّام أحد العشرة المبشّرين بالجنّة ، وأحد الستّة أصحاب الشّورى الذين توفي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو عنهم راضٍ ، وحواري رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وابن عمّته صَفِيَّة بنت عبدالمطّلب ، وزوج أسماء بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ، وهو الذي كتب لبني معاوية بن جَرْوَل الكتاب الذي أمره به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يكتبه لهم[٢٠] .

والصّحابيّ عبدالله بن الأرقم بن أبي الأرقم ، أسلم عام الفتح ، وكتب للنبي صلّى الله عليه وسلّم . قال الامام مالك : « وكان ينفّذ ما يفعله ويشكره ويستجيده » ، وكان يجيب عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الملوك ، وبلغ من أمانته أنّه كان يأمره أن يكتب الى بعض الملوك ، فيكتب ويختم على ما يقرأه لأمانته عنده . وكتب لأبي بكر وجعل اليه بيت المال ، وأقرّه عليهما عمر بن الخطّاب ، فلما كان عثمان عزله عنهما[٢١] وهو من بني زُهْرَة من قريش وليس ابن أبي الأرقم المخزومي .

والصّحابيّ أرقم بن أبي الأرقم ، واسمه عبد مناف بن جُنْدُب بن عبدالله بن عمر بن مَخْزوم المخزوميّ ، أسلم قديماً ، وهو الذي كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مستخفياً في داره عند الصّفا ، وتُعرف تلك الدار بعد ذلك بالخَيْزُران ، وهو الذي كتب اقطاع عظيم بن الحارث المحاربيّ بأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بفَنَخّ ، وهو ماء أقطعه النبيّ صلّى الله عليه وسلم عظيم بن الحارث المُحاربيّ[٢٢] ، ويبدو أنّه كان في موقع باليمن ، لأنّ الذى حدّث بذلك عمرو بن حَزْم ، وكان على اليمن في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما ذكرنا في بحث : السفارات النبويّة .

---

(٢٠) البداية والنهاية (٣٤٤/٥) .
(٢١) أسد الغابة (٦٠/١) .
(٢٢) البداية والنهاية (٣٤١/٥) ومعجم البلدان (٣٤١/٦ - ٣٤٢) .

والصّحابي خالد بن الوليد ، وهو معروف جداً ، وكتب للنبيّ صلّى الله عليه وسلم بأمره كما هو مذكور في قسم من المصادر المعتمدة[٢٣] .

والصّحابي أبو سَلَمَة المخزوميّ ، وكان من القلائل الذين يُحسنون القراءة والكتابة من قريش ، فجعله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أحد كتابه ، واسم أبي سلمة : عبدالله بن عبد الأسد المخزوميّ[٢٤] .

والصّحابيّ أَبان بن العاص بن أُمَيّة بن عبد شَمْس ، أسلم بعد أخويه خالد وعمرو ، وكان اسلامه بعد الحُدَيْبِيَة ، لأنّه هو الذي أجاز عثمان بن عفّان رضي الله عنه حين بعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى أهل مكّة يوم الحُدَيْبِيَة ، وكان أوّل مَنْ كتب الوحي بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة أُبَيّ بن كَعْب ، فاذا لم يحضر كتب زيد بن ثابت ، وكتب له عثمان بن عفّان وخالد بن سعيد وأبان بن سعيد[٢٥] .

والصحابي خالد بن سعيد بن العاص بن أُمَيَّة بن عبد شَمْس ، استكتبه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وكان من كُتّاب الوحي[٢٦] أيضا . وقد روى عمرو بن حَزْم أنّ خالد بن سعيد كتب عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتاباً : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى محمّد رسول الله راشد بن عبد ربّ السُّلَمِيّ أعطاه غَلْوَتَيْن وغَلْوَة[٢٧] بِحَجْر بُرهاط[٢٨] ، فمن خافه فلا حقّ له وحقّه حق . وكتب خالد بن

---

(٢٣) البداية والنهاية (٣٤٣/٥ ـ ٣٤٤) وانظر عيون الاثر (٣١٥/٢) .
(٢٤) عيون الاثر (٣١٦/٢) ، وانظر اسد الغابة (٢١٨/٥) .
(٢٥) البداية والنهاية (٣٤٠/٥) وجمهرة أنساب العرب (٨١) .
(٢٦) البداية والنهاية (٣٤٠/٥) وجمهرة أنساب العرب (٨١) .
(٢٧) الغلوة : مقدار رمية سهم ، وتقدر بثلاثمائة ذراع الى اربعمائة .
(٢٨) حجر بني سليم : قرية لهم ، انظر معجم البلدان (٢٢٤/٣) . رهاط : موضع على ثلاث ليال من مكة ، انظر معجم البلدان (٣٤١/٢) .

سعيد » . وأقام خالد بن سعيد بعد أن قدم من أرض الحبشة بالمدينة ، وكان يكتب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وهو الذى كتب كتاب أهل الطّائف لوفد ثَقِيْف ، وسعى في الصّلح بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٢٩] .

والصّحابى سعيد بن سعيد بن العاص بن أُمَيَّة بن عبدشمس القُرشى أخو خالد بن سعيد وأبان بن سعيد اللذين استكتبهما النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما ذكرنا ذلك قبل قليل ، كما استكتب أخاهما سعيدا الذى أسلم قبل فتح مكّة بيسير ، واستعمله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على سوق مكّة يوم الفتح ، فلما خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى الطّائف ، خرج معه ، فاستُشهد يومئذٍ[٣٠] .

والصّحابى عمرو بن العاص ، وهو معروف وسيرته مشهورة ، وكان أحد كتّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد اسلامه بعد الحُدَيْبِيَة[٣١] .

والصّحابىّ المُغِيْرة بن شُعْبَة الثَّقَفِيّ ، وكان من كتّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٣٢] ومن دُهاة العرب وقادة الفتح الاسلاميّ والولاة التّابهين[٣٣] ، والمغيرة هو الذى كتب اقطاع حُصَيْن بن نَضْلَة الأسدىّ الذى أقطعه ايّاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأمره[٣٤] .

والصّحابىّ شُرَحْبِيْل بن حَسَنة الكِنْدِيّ ، حليف بنى زُهْرة من قُريش ، وأصله يَمَنيّ ولكنّه عاش في مكّة ، وكان معدوداً من وجوه

---

(٢٩) البداية والنهاية (٣٤٣/٥) .
(٣٠) أسد الغابة (٢٠٩/٢) وانظر عيون الاثر (٣١٥/٢) .
(٣١) عيون الاثر (٣١٥/٢) .
(٣٢) البداية والنهاية (٣٥٠/٥) ، وانظر أسد الغابة (٢٧/٢) .
(٣٣) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٣١-٤٥٥) .
(٣٤) البداية والنهاية (٣٥٥/٥) ، وانظر نص الكتاب النبوى الذى كتبه المغيرة في أسد الغابة (٢٧/٢) .

قريش ، وقد استكتبه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فكان أحد كتابه عليه الصّلاة والسّلام[٣٥] .

والصّحابى حُوَيْطِب بن عبدالعُزّى القُرشى العامِرى ، من مسلمة الفتح ومن المؤلّفة قلوبهم ، شهد غزوة حُنَيْن مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فأعطاه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مائة من الابل ، وكان من أشراف قريش المعدودين ، ومن كُتّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٣٦] .

والصّحابى حاطب بن عمرو القرشي العامري أخو سهيل بن عمرو ، أسلم قبل دخول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دار الأرقم بن أبى الأرقم ، فهو من المسلمين الأولين ومن البدريين وممن هاجر الى الحبشة والمدينة ، وكان من كُتّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٣٧] .

والصّحابى العلاء الحَضْرَمِي ، من حلفاء بنى أمَيّة، وكان من خيار الصّحابة ، ومن سفراء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكتّابه ، ومن قادة الفتح الاسلامىّ والولاة المشهورين[٣٨] .

والصّحابىّ العلاء بن عُقْبَة ، وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يبعثه هو والأرقم بن أبى الأرقم في دور الأنصار لتعليمهم القرآن والسنّة ، وكان العلاء والأرقم يكتبان بين الناس المداينات والعهود والمعاملات ، وكان أحد كتاب النبي صلى الله عليه وسلم . قال عمرو بن حَزْم : « ان هذه قطائع أقطعها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم » ، وذكر فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى النبيّ محمّد عبّاس بن مِرْداس السُّلَمِيّ،

---

(٣٥) عيون الاثر (٢/٣١٥) ، وانظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح الشام ومصر (١١٣ — ١١٩) .

(٣٦) عيون الاثر (٢/٣١٥) وانظر اسد الغابة (٢/٦٧) .

(٣٧) عيون الاثر (٢/٣١٦) ، وانظر اسد الغابة (١/٣٦٣) و (٥/١٦٦) .

(٣٨) البداية والنهاية (٥/٣٥٢) وعيون الاثر (٢/٣٥٠) ، وانظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح بلاد فارس (٢٤٩ — ٢٥٤) ، وكتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

مدموراً (لا ذكر لها في المصادر البلدانية المعتمدة) ، فمن خافه فيها فلا حق له ، وحقه حق ، وكتب العلاء بن عُقْبَة(٣٩) .

والصّحابي مُعَيْقِيب بن أبي فاطمة الدَّوْسِيّ ، مولى سعيد بن العاص بن أُمَيَّة بن عبد شمس ، أسلم قديماً بمكّة ، وهاجر الى الحبشة الهجرة الثانية ، ثم هاجر الى المدينة ، وكان على خاتم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، واستعمله عمر بن الخطّاب خازناً على بيت المال ، وكان من كتّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وتوفي في آخر أيام عثمان بن عفّان(٤٠) .

والصّحابي جُهَيْم بن الصَّلْت بن مَخْرَمَة بن المطّلب بن عبدمَنَاف المُطّلِبِيّ ، أسلم بعد الفتح ، وكان قد تعلّم الخطّ في الجاهلية ، وجاء الاسلام وهو يكتب ، وقد كتب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم . ولما انتهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى تبوك في غزوة تبوك ، أتاه يُحَنَّة بن رُؤْبَة ، فصالحه ، وكتب له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتاباً فهو عندهم ، وفي آخر ذلك الكتاب : « وكتب جُهَيْم بن الصَّلْت » ، وكان الزبير بن العوّام وجهيم يكتبان أموال الصّدقات(٤١) .

والصّحابيّ بُرَيْدَة بن الحُصَيْب الأَسْلَمِيّ ، أسلم حين مرّ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مهاجراً من مكّة الى المدينة ، هو ومَنْ معه وكانوا نحو ثمانين بيتاً ، فصلّى رسول الله عليه وسلّم العشاء الآخرة فصلّوا خلفه ، وأقام بريدة في أرض قومه ، ثم قدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلم بعد أحُد ، فشهد معه مشاهده ، وشهد الحديبية وبيعة الرّضوان

---

(٣٩) انظر التفاصيل في : البدية والنهاية (٥/٣٥٣) وعيون الاثر (٢/٣٥١) والاصابة (٤/٢٦٠) وأسد الغابة (٤/٩) .

(٤٠) عيون الاثر (٢/٣١٥) ، وانظر أسد الغابة (٤/٤٠٢ ـ ٤٠٣) والاصابة (٦/١٣٠) والاستيعاب (٤/١٤٧٨ ـ ١٤٧٩) .

(٤١) الاصابة (٢/٢٦٧) واسد الغابة (١/٣١١ ـ ٣١٢) والاستيعاب (١/٢٦١) وعيون الاثر (٢/٣١٥) وجمهرة انساب العرب (٧٣) ، وانظر نص الكتاب النبوي في : سيرة ابن هشام (٤/١٨٠ ـ ١٨١) .

تحت الشجرة ، وكان من ساكني المدينة ، ثمّ تحول الى البصرة ، ثمّ خرج الى غازياً الى خراسان ، فأقام بمَرْو حتى مات ، وكان من كتّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٤٢] .

والصّحابي عامر بن فُهَيْرَة ،مولى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه . كان من السّابقين الى الاسلام وعُذّب في الله ، فاشتراه أبو بكر وأعتقه . ولما خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر الى الغار بجبل ثور مهاجرين ، أمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة أن يروح بغنم أبي بكر عليهما . فكان اذا أمسى أراح غنم أبي بكر فاحتلباها ، ولما سار النبيّ صلّى الله عليه وسلم وأبو بكر من الغار ، هاجر عامر معهما . وطارد سُراقةُ بن مالك النبي صلّى الله عليه وسلّم وأبا بكر وعامر بن فهيرة ، فلما أخفق سراقة في مطاردته سأل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يكتب له كتاب موادعة يأمن به : فأمر أبا بكر وعامراً ، فكتبا في رقعة من أَدَم ، وسلّما الكتاب الى سراقة . فمضى الى سبيله ، فكان عا مر من كتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، واستشهد في سرية بئر مَعُونَة[٤٣] .

والصّحابيّ عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح العامِرِيّ من قريش ، أخو عثمان لأمّه من الرّضاعة ، كتب الوحي ثم ارتد عن الاسلام ولحق بمشركي مكّة ، ثم عاد الى الاسلام بعد فتح مكّة وحسن اسلامه جداً ، وأصبح من قادة الفتح الاسلامي ومن الولاة الجيّدين[٤٤] .

---

(٤٢) عيون الاثر (٢/٣١٦) وانظر : اسد الغابة (١/١٧٥) والاصابة (١/١٥١) والاستيعاب (١/١٨٥) وجمهرة انساب العرب (٢٤٠) .

(٤٣) البداية والنهاية (٥/٣٤٨ و ٣٥١) واسد الغابة (٣/٩٠ - ٩١) والاصابة (٤/١٤ - ١٥) والاستيعاب (٢/٧٩٦ - ٧٩٧) وطبقات ابن سعد (٣/٢٣٠- ٢٣١) .

(٤٤) البداية والنهاية (٥/٣٥٠) وعيون الاثر (٢/٣١٥ - ٣١٦) ، وانظر : اسد الغابة (٣/١٧٣ - ١٧٤) والاصابة (٤/٧٦ - ٧٨) والاستيعاب (٣/٩١٨ - ٩٢٠) ، وانظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (١/٥١ - ٧٤) .

والصَّحابيّ حَنْظَلَة بن الرَّبيع التَّمِيْمِيّ الأُسَيِّدي الكاتب ، وأخوه رَبَاح[٤٥] صحابيّ أيضاً ، وعمّه أَكْثَم بن صَيْفِيّ كان حكيم العرب . كتب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وبعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى أهل الطّائف : « أتريدون الصّلح أم لا ؟ » ، فلما توجّه اليهم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « ائْتَمُّوا بهذا وأشباهه » . وشهد مع خالد بن الوليد حروبه بالعراق وغيرها ، وأدرك أيام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان قد نزل الكوفة ، فانتقل عنها لما شُتم بها عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، ومات بعد أيام عَلِيّ . ولما مات جزعت عليه امرأته ، فلامها جاراتها وقُلْنَ لها : « يحبط أجرك » ، فقالت :

تَعَجَّبَتْ دَعْدُ لمحزونةٍ
تَبْكي على ذي شَيْبَةٍ شاحِبِ
ان تَسْأَلِيْنِي اليومَ ما شَفَّنِي
أُخْبِرْكِ قَوْلاً ليس بالكاذِبِ
انّ سَوادَ العَيْنِ أَوْدَى بِهِ
حُزْنٌ على حَنْظَلَة الكاتِبِ

وكان معتزلاً للفتنة حتى مات[٤٦] في قَرْقِيْسِيَاء[٤٧] .

والصّحابيّ حُذَيْفَة بن اليَمان[٤٨] ، ويُعتبر من الأنصار ، لأنّه سكن المدينة ولجأ الى أهلها ، وكان من كُتّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ،

---

(٤٥) انظر سيرته في : أسد الغابة (١/١٦٠) والاصابة (٢/١٩٢) والاستيعاب (٢/٤٨٦) .
(٤٦) البداية والنهاية (٥/٣٤٢) وأسد الغابة (٢/٥٨ ـ ٥٩) والاصابة (٢/٤٣ ـ ٤٤) والاستيعاب (١/٣٧٩) .
(٤٧) قرقسياء : بلد على نهر الخابور ـ خابور الفرات ـ قرب الرحبة ، وعندها مصب الخابور في الفرات ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٥٩ ـ ٦٠) ، وانظر موته في هذه المدينة في الاصابة (٢/٤٣ ـ ٤٤) .
(٤٨) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح بلاد فارس (١٠٨ ـ ١١٧) .

يكتب خَرْص[49] النخل[50] .

والصَّحابيّ أُبيّ بن كَعْب الخزرجي الأنصاري ، شهد العَقَبَة وبَدْراً ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « .... أقرأ أُمّتي أُبَيّ بن كعب » ، وقال عمر بن الخطّاب : « أُبَيّ أقرؤنا » . وهو أوّل مَن كتب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم مقدمه المدينة ، وهو أوّل مَن كتب في آخر الكتاب : وكتب فلان بن فلان » ، فاذا لم يحضر أبَيّ كتب زيد بن ثابت . وكان أحد فقهاء الصحابة وأقرأهم لكتاب الله . وكان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ستّة : عمر بن الخطّاب، وعليّ بن أبي طالب ، وعبدالله بن مسعود ، وأُبَيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأَشْعَرِيّ .

واختُلف في وقت وفاته ، فقيل : توفى سنة اثنتين وعشرين في خلافة عمر بن الخطاب ، وقيل : في سنة ثلاثين في خلافة عثمان بن عفان ، وقيل : سنة تسع عشرة ، وقيل : سنة عشرين ، وقيل سنة اثنتين وعشرين ، وقيل : انّه مات في خلافة عثمان سنة اثنتين وثلاثين ، والأكثر أنّه مات في خلافة عمر بن الخطّاب ، وكان أبيض الرأس واللّحية لا يغيّر شيبه[51] .

والصحابي زيد بن ثابت الانصاري الخزرجي ثم النجّاريّ ، [illegible] قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة ابن احدى عشرة سنة ، وقت[illegible] أبوه يوم بُعاث ـ أحد أيام القتال بين الأوس ـ واستصغره النبي صلى [illegible] عليه وسلم يوم بَدر ، ثم شهد أُحُداً وما بعدها ، وقيل : أول مشاهده الخندق . وكانت راية بني مالك بن النجّار في تَبوك مع عمارة بن حزم ، فدفعها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى زيد بن ثابت ، فقال عمارة :

---

(٤٩) الخرص : خرص النخل ، حزر ما فيه من الرطب تمرا .

(٥٠) نهاية الارب (٢٣٦/١٨) .

(٥١) طبقات ابن سعد (٤٩٨/٣) و (٣٤٠/٢) وأسد الغابة (١٦/١) والاستيعاب (٦٥/١) والاستبصار (٤٨) والبداية والنهاية (٣٤٠/٥) .

« يا رسول الله ! أبلغك عني شيء ؟ » ، قال « لا ، ولكن القرآن مُقَدَّم ، وزيد أكثر أخذاً منك للقرآن » .

وكان زيد أحد فقهاء الصحابة الجلّة الفرّاض ، وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفرض أمّتي زيد بن ثابت » .

وكانت ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم كُتب بالسريانية ، فأمر زيداً فتعلّمها في بضعة عشر يوماً .

وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره ، وكتب بعده لأبى بكر الصديق رضي الله عنه ، وأمره أبو بكر فجمع القرآن في المصحف بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما اختلف الناس في القراءة زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أمره أن يُمل المصحف على قوم من قريش جمعهم اليه ، فكتبوه وبعثوا بنسخ منه الى الأمصار .

وكانوا يقولون : «غلب زيد بن ثابت الناس على اثنين : القرآن ، والفرائض» . وقال مسروق : «قدمت المدينة فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم» ، وقال مالك بن أنس : « كان امام الناس عندنا بعد عمر بن الخطاب زيد بن ثابت ـ يعنى بالمدينة ـ وبعده عبد الله بن عمر » .

واستخلف عمر زيد بن ثابت على المدينة ثلاث مرات : في حجتين ، وفي خروجه الى الشام ، وكان عمر يقدمه ويضن به أن يخرج من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان زيد من أفكه الناس اذا خلا مع أهله ، وأزمته[٥٢] اذا جلس مع القوم . وجعله عثمان على بيت المال ، ومات سنة نيّف وأربعين ، وهو ابن تسع وخمسين سنة .

وكان حافظاً لبيباً عالماً عاقلا ، ثبت عنه في صحيح البخاري ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتعلم كتاب يهود ليقرأه على النبي

---

(٥٢) ازمته : فعل من الزمانة ، وهي الوقار والجلال .

صلى الله عليه وسلم اذا كتبوا اليه ، فتعلمه في خمسة عشر يوماً . فكان يقرأ له اذا كتبوا اليه ، ويُجيب عنه اذا كتب ، وهذا دليل على ذكائه المفرط جداً .

لقد كان زيد من علماء المسلمين الأعلام وفقهائهم الكبار ، وكان له فضل عظيم في جمع القرآن الكريم في مصحف عثمان بن عفان ، كما يطلقون عليه قديماً وحديثاً(٥٣) .

والصّحابي ثابت بن قيس الأنصاري الخزرجي ، خطيب الانصار وخطيب النبي صلى الله عليه وسلم ، كما كان حسّان بن ثابت شاعره . شهد أحُداً وما بعدها ، وقُتل يوم اليمامة سنة احدى عشرة الهجرية في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه شهيدا . وثبت في صحيح مسلم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشّر ثابت بن قيس بالجنة وأخبره أنه من أهلها ، وثبت في الترمذي باسناد صحيح ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نِعْمَ الرّجل ثابت بن قيس » .

وكتب ثابت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا لم يحضر عبدالله بن أرقم بن أبي الأرقم وزيد بن ثابت كتب مَن حضر من الناس . وقدم المدينة بعد فتح مكة وفد من الوفود على النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا وبايعوا عن قومهم ، فكتب النبي صلى الله عليه وسلم لهم كتابا بما فرض عليهم من الصدقة في أموالهم : «كَتَبه ثابت بن قيس»(٥٤) .

وكان من سادة الأنصار وحامل لوائهم يوم اليمامة(٥٥) .

---

(٥٣) طبقات ابن سعد (٣٥٨/٢ ـ ٣٦٢) واسد الغابة (٢٢١/٢ ـ ٢٢٣) والاصابة (٢٢/٣ ـ ٢٣) والاستيعاب (٥٣٧/٢ ـ ٥٤٠) وتهذيب الاسماء واللغات (٢٠٠/١ ـ ٢٠٢) والاستبصار (٧١ ـ ٧٣) والبداية والنهاية (٣٤٦/٥ و ٣٥٠) .

(٥٤) البداية والنهاية (٣٤١/٥ ـ ٣٤٢) ، وانظر اسد الغابة (٢٢٨/١ ـ ٢٣٠) والاصابة (٢٠٣/١) والاستيعاب (٢٠٠/١ ـ ٢٠٣) وتهذيب الاسماء واللغات (١٣٩/١ ـ ١٤٠) والاستبصار (١١٧ ـ ١١٩) .

(٥٥) الاستبصار (١١٩) .

والصحابي حُصَيْن بن نُمَيْر الأنصاري ، وهو من جملة من كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان المُغِيرَة بن شُعْبَة والحُصَيْن يكتبان المُداينات والمعاملات[٥٦] .

والصحابي أبو أيوب الأنصاري الخزرجي النّجاري ، وهو خالد بن زيد الأنصاري ، شهد بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزل عليه رسول الله صلى اللّه عليه وسلم حين قدم المدينة مهاجراً ، وأقام عنده شهرا ، حتى بُنيت مساكنه ومسجده ، وكان من كُتّاب النبي صلى الله عليه وسلم . وكان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن خاصّته ، وشهد معه معركة الجَمَل وصِفين والنهروان ، وكان على مقدمته يوم النهروان . ثم انه غزا أيام معاوية بن ابى سفيان أرض الروم مع يزيد بن معاوية سنة احدى وخمسين الهجرية ، فتوفى عند مدينة القسطنطينية ، وقيل : سنة خمسين ، فدفن هناك . وقيل : ان الروم قالت للمسلمين في صبيحة دفنهم لأبى أيوب : «لقد كان لكم الليلة شأن» ، قالوا : «هذا رجل من أكابر أصحاب نبيّنا وأقدمهم اسلاما ، وقد دفناه حيث رأيتم ، ووالله لئن نُبِش لاضرب لكم بناقوس في أرض العرب ، ما كانت لنا مملكة».

ولم يتخلف أبو أيوب عن غزاة في كل عام الى أن مات بأرض الروم ، وكان يقول : «قال الله عز وجل : (إنفِروا خِفافاً وثِقالا)[٥٧] ، فلا أجدني الا خفيفاً أو ثقيلا »[٥٨] .

والصحابي عبدالله بن رَواحة الانصاري الخزرجي ، شهد العقبة وكان يومئذ نقيب بني الحارث بن الخزرج ، وشهد بدرا وأحدا والخندق والحديبية

---

(٥٦) الاصابة (٢/٢١ — ٢٢) وانظر عيون الاثر (٢/٣١٦) .
(٥٧) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩/٤١) .
(٥٨) أسد الغابة (٥/١٤٣ — ١٤٤) والاصابة (٢/٨٩ — ٩٠) والاستيعاب (٤/١٦٠٦ — ١٦٠٧) والاستبصار (٦٩ — ٧١) وتهذيب الاسماء واللغات (٢/١٧٧) وعيون الاثر (٢/٣١٦) .

وخيبر وعُمرة القضاء والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الا الفتح وما بعدها ، فأنه توفي قبلها يوم مؤتة ، وهو أحد الامراء في سرية مؤتة ، وكان أول خارج الى الغزوات وآخر قادم . وكان أحد الشعراء المحسنين الذين يردون الأذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الاسلام والمسلمين . عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : « ما رأيت أحدا أجرأ ولا أسرع شعرا من ابن رواحة » . وعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال : «أعوذ بالله أن يأتي يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة ، كان اذا لقيني يقول : يا عوَيمر ! اجلس فلنؤمن ساعة ، فنجلس فنذكر الله ما شاء الله ، ثم يقول : يا عويمر ! هذا الايمان» . وهو الذي شجع المسلمين في سرية مؤتة على لقاء الكفار ، وكان المسلمون ثلاثة الاف ، والكفار مائتي ألف ، وقيل غير ذلك ، ومناقبه كثيرة مشهورة . وفي صحيحي البخاري ومسلم ، عن ابى الدرداء ، قال : «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان في حر شديد، حتى أن أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر ، وما فينا صائم الا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبدالله بن رواحة » .

استشهد في سرية مؤتة في جمادي الأولى سنة ثمان الهجرية ، ولم يعقب، وكان من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم(٥٩) .

والصحابي عبدالله بن عبدالله بن ابى الانصاري الخزرجي ، أبوه عبدالله ابن أُبَيّ بن سلول المنافق ، وكان عبدالله بن عبدالله بن ابى من فضلاء الصحابة وساداتهم ، وكان اسمه : الحُباب ، وبه كان أبوه يكنى ، فلما أسلم سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : عبدالله .

شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذن النبي عليه الصلاة والسلام في قتل أبيه على نفاقه ، فنهاه النبي صلى

---

(٥٩) طبقات ابن سعد (٦١٢/٣ ــ ٦١٣) واسد الغابة (١٥٦/٣ ــ ١٥٩) والاصابة (٦٦/٤ ــ ٦٧) والاستيعاب (٨٩٨/٣ ــ ٩٠١) والاستبصار (١٠٨ ــ ١١٢) وتهذيب الاسماء واللغات (٢٦٥/١) وعيون الاثر (٣١٥/٢) .

الله عليه وسلم عن قتله وقال له : « بل نحسن صحبته ونترفق به ما صحبنا ، ولا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، ولكن بر أباك وأحسن صحبته» ، وكانت الخزرج قد أجمعت على أن يتوجوا أباه عبدالله بن أبي ويملكوه أمرهم قبل الاسلام ، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم رجعوا عن ذلك ، فحسد النبي صلى الله عليه وسلم وأخذته العزة ، فأضمر النفاق .

واستشهد عبدالله بن عبدالله بن أبي يوم اليمامة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه سنة ثنتي عشرة الهجرية ، وكان من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم[٦٠] .

والصحابي عبدالله بن زيد بن عبد ربه الانصاري الخزرجي ، شهد العقبة مع السبعين ، وبدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي أرى الأذان ، وكانت رؤياه في السنة الاولى من الهجرة بعد أن بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده ، وكان أبوه وأمه صحابيين ، وكانت معه راية بني الحارث بن الخزرج يوم فتح مكة .

وقد توفي بالمدينة سنة ثنتين وثلاثين الهجرية ، وهو ابن اربع وستين سنة، وقد روى عبدالله بن العباس رضي الله عنه ، أن عبدالله بن زيد كتب كتابا لأهل جرش[٦١] الذين أسلموا ، فيه الأمر لهم باقامة الصلاة وايتاء الزكاة واعطاء خمس المغنم ، وكان ما كتبه بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(٦٠) طبقات ابن سعد (٣/٥٤٠ - ٥٤٢) واسد الغابة (٣/١٩٧ - ١٩٨) والاصابة (٤/٩٥ - ٩٦) والاستيعاب (٣/٩٤٠ - ٩٤٢) والاستبصار (١٨٤ - ١٨٥) وتهذيب الاسماء واللغات (١/٢٧٦ - ٢٧٧) وعيون الاثر (٢/٣١٥) .

(٦١) جرش : من مخاليف (محافظات) اليمن من جهة مكة ، انظر معجم البلدان (٣/٨٤) . وجرش : مدينة بالبلقاء (الاردن) انظر معجم البلدان (٣/٨٥) ، ولهما ذكر في الحديث ، انظر النهاية لابن الاثير (١/١٨٤) .

وصلّى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه(٦٢) .

والصحابي محمد بن مَسْلَمَة الأنصاري الاوسي ، أحد الذين قتلوا كعب بن الأشرف ، شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ تبوك ، لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم استخلفه على المدينة ، واستعمله عمر بن الخطاب على صدقات جهينة ، وكان صاحب العمال أيام عمر ، اذا اشتكى اليه عامل أرسل محمد يكشف الحال ، وهو الذي أرسله عمر الى عماله ليأخذ شطر أموالهم لثقته به . واعتزل الفتنة بعد قتل عثمان بن عفان ، واتخذ سيفاً من خشب وقال : « بذلك أمرني رسول الله » ، قال : «أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً وقال : قاتل به المشركين ، فاذا اختلف المسلمون بينهم فاكسره على صخرة ، ثم كن حِلساً(٦٣) من أحلاس بيتك » ، ولم يشهد من حروب الفتنة شيئاً ، وممن قعد عن الفتنة : سعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد وعبدالله بن عمر بن الخطاب وغيرهم . وقيل : انه هو الذي قتل مرحبا اليهودي ، والصحيح الذي عليه أكثر أهل السيّر والحديث ، أن علي ابن ابي طالب قتل مرحبا . وقال حُذيفة بن اليمان : «اني لأعلم رجلا لاتضره الفتنة : محمد بن مسلمة» ، قال الراوي : «فأتينا الربذة(٦٤) فاذا فسطاط مضروب ، واذا فيه محمد بن مسلمة ، فسألناه فقال : لانشتمل على شيء من أمصارهم حتى ينجلي الأمر عما انجلى » .

وكان محمد بن مسلمة من فضلاء الصحابة ، وهو الذي كتب لوفد مُرّة

---

(٦٢) طبقات ابن سعد (٣/٥٣٦ — ٥٣٧) واسد الغابة (٣/١٦٥ — ١٦٧) والاصابة (٤/٧٢) والاستيعاب (٣/٩١٢ — ٩١٣) والاستبصار (١٣٢ — ١٣٣) وتهذيب الاسماء واللغات (١/٢٦١ — ٢٦٩) والبداية والنهاية (٥/٣٥٠) وعيون الاثر (٢/٣١٥) .

(٦٣) الحلس : مايبسط في البيت من حصير ونحوه تحت كريم المتاع ، ويقال : هو حلس بيته لايبرحه .

(٦٤) الربذة : قرية من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز من فيد الى مكة ، انظر معجم البلدان (٤/٢٢١ — ٢٢٢) .

كتاباً عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان من كتّاب النبي صلى الله عليه وسلم .

توفي بالمدينة سنة ثلاث واربعين الهجرية على المشهور عند الجمهور ، ولم يستوطن غير المدينة ، وقيل : كان عمره سبعاً وسبعين سنة ، وكان أسمر شديد السُمرة طويلاً أصلع ، وخلّف من الولد عشرة ذكور وست بنات(٦٥) .

نستطيع أن تتبين مما ذكرناه ، أن المداومين على الكتابة زيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان بعد اسلامه عام الفتح ، وكان معاوية يكتب الى الأطراف ، وكان زيد ومعاوية يكتبان الوحى .

وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان أموال الصدقة ، وكان حذيفة بن اليمان يكتب خرص النخل . وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان المداينات والمعاملات(٦٦) .

وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، كاتب العهود ومواثيق الصلح والرسائل الى الأطراف .

وقد تعلم زيد بن ثابت الأنصارى السريانية والعبرية ، وكان من ألزم الناس للنبي صلى الله عليه وسلم في الكتابة .

وكان خالد بن سعيد بن العاص ، أول من كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عبدالله بن سعد بن أبى سرح ، وأول من كتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

وكان عبدالله بن الأرقم بن أبى الأرقم ، من المواظبين على كتابة الرسائل للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما كان معاوية بن أبى سفيان ملازماً للنبي صلى

---

(٦٥) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣) وأسد الغابة (٣٣٠/٤ ـ ٣٣١) والاصابة (٦٣/٦ ـ ٦٤) والاستيعاب (١٣٧٧/٣) والاستبصار (٢٤١ ـ ٢٤٢) وتهذيب الاسماء واللغات (٩٢/١) والبداية والنهاية (٣٥٣/٥ ـ ٣٥٤) وعيون الاثر (٣١٥/٢) .

(٦٦) نهاية الأدب (٢٣٦/١٨) .

الله عليه وسلم بعد عام الفتح ، لاعمل له غير الكتابة .

وقد كتب أبي بن كعب رسائل النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أول من كتب في آخر الكتاب : « كتب فلان » .

وأن القراءة والكتابة والحساب في الحجاز كانت قليلة جداً بين العرب . وكانت أقل انتشاراً مما هى عليه في عرب اليمن والعراق والشام والجزيرة ، وهذا ماكان عليه الموقف التعليمي للعرب في الجاهلية .

وما يقال عن عرب الحجاز ، يقال عن عرب نجد أيضا .

ولكن نسبة المتعلمين بمكة أكثر من نسبتها في يثرب قبل الاسلام ، لأن مجتمع مكة مجتمع تجارى ، ومجتمع يثرب مجتمع زراعى ، وحاجة المجتمع التجارى الى التعليم أكثر من حاجة المجتمع الزراعى اليه .

وبدأ التعليم الجدى في المدينة بعد هجرة المسلمين اليها ، بتعليم المهاجرين للأنصار ، وبتعليم أسرى بدر من المشركين لأطفال الأنصار وصبيانهم ، فكان زيد بن ثابت الأنصارى ممن علمه أسرى بدر المشركون[٦٧] ، فصار له شأن عظيم بين كتاب النبي صلى الله عليه وسلم كما مر بنا .

وبالرغم من الجهود المبذولة لتعليم أهل المدينة بعد الاسلام وبفضله الا أن كفة المكيين ظلت راجحة على كفة المدنيين من الناحية التعليمية ، يدلنا على ذلك أن كتاب النبي صلى الله عليه وسلم المكيين ثمانية وعشرون كاتباً ، وكتابه المدنيين عشرة فقط ، أى نسبة ثلاثة إلى واحد ، وهى نسبة عالية جداً تظهر البون الشاسع بين المكيين والمدنيين في مجال التعليم .

ولكن لم تمض سنوات معدودات على استقرار الاسلام في المدينة المنورة ، حتى تبدل الحال وتغير الوضع ، اذ سبقت المدينة مكة ، وأصبحت المدينة مركز العالم الاسلامي في العلوم بعامة وفي العلوم الاسلامية بخاصة ، وهكذا ظل ملاك كتاب النبي صلى الله عليه وسلم في تصاعد مستمر ،

---

(٦٧) طبقات ابن سعد (٢/٢٢) .

بعد بعثته عليه الصلاة والسلام ، الى التحاقه بالرفيق الأعلى ، فبدأ بلا كاتب ولاكتابة انما يستظهر ماينزل من القرآن في الصدور ، ثم كان للنبي كاتب واحد ، واستمر الخط البياني للكتاب في تزايد مستمر ، حتى أصبح عددهم بموجب ماسجلناهم في هذه الدراسة ثمانية وثلاثين كاتباً(٦٨) ، وحتى هذا العدد الضخم نسبياً بالنسبة للعدد المتواضع منهم في الصدر الأول للاسلام لايعتبر شيئاً مذكوراً بالنسبة لعددهم في عهد الخلفاء الراشدين ــ وبخاصة بعد تدوين الدواوين في عهد عمر بن الخطاب ، وتوسع الفتح الاسلامي العظيم .

لقد كان عدد الكتاب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أول الغيث ، ثم انهمر مدراراً طيباً مباركاً فيه ، وكان ذلك نتيجة من نتائج تشجيع الاسلام على العلم ، اذا اعتبره عبادة من أجلّ العبادات ، ونتيجة من نتائج الفتوح وتوطيد أركان الدولة وتوسع واجباتها في السلم والحرب .

الخاتم(٦٩)

لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذى الحجة سنة ست الهجرية ، أرسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وكتب اليهم كتباً ، فقيل : يارسول الله ! ان الملوك لايقرأون كتاباً الا مختوما ، فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ خاتماً من فضة ، فصه منه ، نقشه ثلاثة أسطر :

---

(٦٨) يراجع ماجاء حول كتاب النبي صلى الله عليه وسلم في : الطبرى (١٧١٣/٣) وابن الاثير (٣١٣/٢) والبداية والنهاية (٣٣٩/٥ ــ ٣٥٥) وفيه اوسع دراسة على الكتاب ، ومختصر التاريخ للكازرونى (٥٥ ــ ٥٦) واليعقوبي (٦٤/٢) وعيون الأثر (٣١٥/٢ ــ ٣١٦) والسيرة الحلبية (٣٦٤/٣) وجوامع السيرة (٢٦ ــ ٢٧) وانساب الأشراف (٥٣١/١ ــ ٥٣٢) ونهاية الأرب (٢٣٦/١٨ ــ ٢٣٧) وتهذيب الأسماء واللغات (٢٩/١) .

(٦٩) الخاتم : مايختم به ، وهو حلقة ذات فص تلبس في الاصبع . والخاتم : الخاتام ، والجمع : خواتيم .

محمد رسول الله ، وختم به الكتب[٧٠] .

وكانت أسطر الخاتم الثلاثة : محمد في سطر ، ورسول في سطر ، والله في سطر[٧١] ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس خاتمه بيساره[٧٢] .

وكان خاتم النبي صلى الله عليه وسلم في يده حتى مات ، وفي يد أبى بكر وعمر حتى ماتا ، ثم كان في يد عثمان بن عفان ست سنين ، فسقط الخاتم في بير أريس[٧٣] ، فطلبه عثمان ومن معه ثلاثة أيام في البئر ، فلم يقدروا عليه[٧٤] .

وقد ذكرنا أن معيقيب بن أبى فاطمة الدوسي كان من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان على خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى سقط من يده خاتم النبي صلى الله عليه وسلم أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه في بئر أريس فلم يوجد[٧٥] ، ويبدو أن عثمان استعمله على الخاتم كما استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ، لختم الكتب والوثائق ، فسقط الخاتم من يده ، أو من يد عثمان ، وهو الاشهر الذى عليه أكثر المصادر المعتمدة .

وكان خاتم النبي صلى الله عليه وسلم في نقشه : محمد رسول الله ، في ثلاثة أسطر ، السطر الأعلى : الله ، والسطر الأوسط : رسول ، والسطر الأخير : محمد ، وكان منقوشاً وكتابته مقلوبة ، ليطبع على الاستقامة[٧٦] ،

---

(٧٠) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١) والبداية والنهاية (٢/٦) ، رواه البخاري

(٧١) طبقات ابن سعد (٤٧٥/١) .

(٧٢) طبقات ابن سعد (٤٧٧/١) .

(٧٣) بئر اريس : بئر بالمدينة ثم بقبا مقابل مسجدها ، انظر معجم البلدان (٢/٢) .

(٧٤) طبقات ابن سعد (٤٧٦/١ ـ ٤٧٧) والبداية والنهاية (٢/٦) وجوامع السيرة (٢٨) .

(٧٥) أسد الغابة (٤٠٣/٤) .

(٧٦) البداية والنهاية (٤/٦) .

فقد حفرت الأحرف : محمد رسول الله ، على فص الخاتم ، وعندما يختم بـه فان الحبر يغطي الدائرة ماعدا الأحرف المحفورة ، فتظهر بعد الختم بيضاء تقرأ بوضوح ويسر .

والصورة الموجودة لخاتم النبي صلى الله عليه وسلم واضحة الكتابة ، دقيقة الأحرف ، متميزة الخط ، متناسقة الوضع ، متساوية الابعاد تقريباً ، لايخطىء من يقرؤها .

وكان خالد بن سعيد بن العاص الذى كان من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم والذى ذكرنا موجز سيرته في : (الكتاب) قبل قليل ، قد أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتمه الذى نقش عليه : (محمد رسول الله) فقد ذكروا أن خالد بن سعيد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي يده خاتم له ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماهذا الخاتم ؟ » ، فقال : « خاتـم اتخذته » ، فقال : « مانقشه ؟ » ، قال : « محمد رسول الله » ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبسه ، فهو الذى كان في يده[٧٧] .

وفي رواية أخرى ، أن عمرو بن سعيد بن العاص[٧٨] أخا خالد بن سعيد ابن العاص ، حين قدم من الحبشة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ماهذا الخاتم في يدك ياعمرو ؟ » ، قال : « هذه حلقة يارسول الله » ، فأخذه رسول الله صلى الله على وسلم فتختمه ، فكان في يده حتى قبض[٧٩] .

والرواية الأولى أصح ، لأن عمرو بن سعيد عاد من الحبشة في أعقاب غزوة خيبر التى كانت في شهر جمادى الأولى من السنة السابعة الهجرية ، ويومها كان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم قد غادروا الى ملوك الدول

---

(٧٧) طبقات ابن سعد (١/٤٧٤) .
(٧٨) انظر سيرته في : طبقات ابن سـعد (٤/١٠٠ ـ ١٠١) وأسـد الغابة (٤/١٠٧ ـ ١٠٨) والاصابـة (٤/٣٠٠ ـ ٣٠١) . والاسـتيعاب (٣/١١٧٧) .
(٧٩) طبقات ابن سعد (١/٤٧٤) .

الأجنبية خارج الجزيرة العربية ، ومعهم الكتب النبوية مختومة ، فلابد ان يكون خاتم النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى كان خاتم خالد بن سعيد لاخاتم عمرو بن سعيد ، وأن الخاتم الذى ختمت تلك الرسائل النبوية الى الملوك هو خاتم خالد بن سعيد .

المـــواد

في قصة اسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه وجد أخته وزوجها ورجلين معهما من المسلمين ، يقرأون القرآن في صحيفة معهم[٨٠] .

ولما جعل الاسلام يزيد ويفشو ، أجمع كفار قريش على أن يتعاقدوا على بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف ، أن لايناكحوهم ولايبايعوهم ولايكلموهم ولايجالسوهم ، وكتبوا عقدهم في صحيفة[٨١] .

لقد استعمل العرب المواد الموجودة لديهم في شبه الجزيرة العربية للكتابة ، فاستعملوا العظام والحجارة والألواح الرقيقة وأغصان النخيل من السعف والجريد والجلود ، كما أنهم استوردوا أوراق البردى[٨٢] ، الا أن للكتابة ، فاستعملوا العظام والحجارة والألواح الرقيقة وأغصان النخيل من الكتابة عليها ، ولمقاساتها المختلفة التى تتناسب مع المحتويات المطلوب كتابتها ، ولقوتها ومتانتها وخفة وزنها ، ولمروتنها التى تجعلها تطوى على شكل دائرى أو على شكل آخر ، ولمقاومتها للزمن وثباتها مع الأيام . وقد استعملت جلود الابل والحوار[٨٣] بخاصة والغزلان ، والغنم وبخاصة

---

(٨٠) اسد الغابة (٤/٥٤) .

(٨١) طبقات ابن سعد (١/٢٠٨) وجوامع السيرة (٦٤) .

(٨٢) البردى : نبات مائى من الفصيلة السعدية ، تسمو ساقه الهوائية الى نحو متر او اكثر ، ينمو بكثرة في منطقة المستنقعات بأعالى النيل ، وصنع منه المصريون القدماء ورق البردى المعروف .

(٨٣) الحوار : ولد الناقة من وقت ولادته الى ان يفطم ويفصل . (ج) . احورة .

صغارها ، وكانت تصنع بشـــكل رقيق أملس ، ولهذا سميت بالرق[٨٤] لنعومتها ورقتها المتناهية[٨٥] .

وحين جمع زيد بن ثابت القرآن الكريم بأمر أبى بكر الصديق رضى الله عنـه ، جمعـه من العسـب[٨٦] والرقـاع[٨٧] ومن الأضـلاع والأكتاف[٨٨] والأقتاب[٨٩] واللخاف[٩٠] وصدور الرجال ، كما قال زيد[٩١] ، فكانوا كما ذكرنا يكتبون على الجلود والعظام والاحجار وجريد النخل .

ولكن الكتب النبوية لأهميتها ، وضرورة وصولها الى الملوك سالمة تقرأ بسهولة ويسر ، خفيفة الوزن ، سهلة الحمل ، يمكن اخفاؤها عن الأنظار ، كانت تكتب على الجلود ، وقد كانت مكة بخاصة والحجاز بعامة مشهورة بتصنيع الجلود النفيسة ، وكانت مكـة تصدر الجلود الى الشـام ومصر والحبشة ، وحين أراد عمرو بن العاص في سفارتيه الى النجاشى قبل اسلامه ، لمحاولة حمله على تسليم المسلمين المهاجرين للحبشة الى مشركى قريش ، لم يجد هدية مناسبة للنجاشى ملك الحبشة ولرجالاته غير الجلود المدبوغة في مكة ، لأن النجاشى ورجالاته كانوا يحبون مثل هذه الهدية النفيسة . قال عمرو بن العاص : « وكان أحب ما يهدى اليه من أرضنا الأدم[٩٢] » .

---

(٨٤) الرق : جلد رقيق يكتب فيه . (ج) . رقوق .
(٨٥) كانو (د . عبد اللطيف كانو) ــ رسائل النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك والأمراء (٤٢) ــ مجلة الوثيقة ــ العدد الأول ــ السنة الأولى ــ رمضان ١٤٠٢هـ .
(٨٦) العسب : جمع عسيب ، وهو جريدة النخل المستقيمة يكشط خوصها .
(٨٧) الرقاع : قطع من الورق أو الجلد يكتب عليها ، وهى جمع : رقعة : قطعة من الورق أو الجلد يكتب عليها .
(٨٨) الاكتاف : جمع الكَتِف أو الكَتْف ، عظم عريض خلف المنكب يكتب عليها .
(٨٩) الاقتاب : جمع قتب ، وهو الرحل الصغير على قدر سنام البعير .
(٩٠) اللخاف : جمع لخافة ، وهو حجر رقيق محدد .
(٩١) السجستانى (الحافظ أبو بكر بن أبـى داود سليمان السجستانى) ــ كتاب المصاحف (٧ ــ ٩) . القاهرة ــ ١٣٥٥هـ .
(٩٢) سيرة ابن هشام (٣١٨/٣) وانظر مغازى الواقدى (٧٤٢/٢ ــ ٧٤٤) .

لقد استعمل الرق الناعم المصقول في رسائل النبي صلى الله عليه وسلم التى أرسلها الى الملوك والأمراء ، وكانت هذه الرسائل مختومة بخاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، واستعمل الحبر الأسود في كتابة مضمون الرسائل وفي الختم النبوى المستدير . كما ختمت الرسائل النبوية بعد طيها بخاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى لاتفتح تلك الرسائل الا من قبل الذين أرسلت اليهم وحدهم دون سواهم من الناس .

أما الحبر المستعمل في رسائل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد يكون من نبات العليق الاسود[93] ، أو من مـادة الكاربون الناتجة من الدخان المتراكم في المطابخ التى تعمل بالخشب وفضلات الحيوانات المجففة ، والذى يطلق عليه : السخام[94] ، حيث تجمع هذه المادة وتخلط في الماء بمادة لزجة من أجل جمعها وزيادة كثافتها وتماسكها .

ولاتزال تستخرج من بعض النباتات والازهار ، أصباغ مختلفة الالوان ، ثابتة الاشكال تستعمل في صبغ السجاد اليدوى والأغطية الصوفية ، وكان الحبر حتى عهد قريب يستخلص من عناصر نباتية ، كالعفص والـزاج[95] والصمغ وما أشبهها ، ومن دخان شيء له دهنية ، لأن دخان كل شيء مثله وراجع اليه[96] .

وحتى النصف الاول من القرن الرابع عشر الهجرى ، كان الحبر المستعمل في أكثر البلاد العربية حبراً محلياً ، يصنع من النبات ، وتكتب به المصاحف والكتب والرسائل والمعاملات ، ولاتزال المخطوطات المكتوبة بالحبر النباتى المحلى تحتفظ برونقها وخطها الثابت الجميل .

---

(٩٣) العليق : نبت يتعلق بالشجر ويتلوى عليه ، يستخرج منه مادة تكون الحبر الأسود .

(٩٤) السخام : سواد القدر ، والفحم ، ويقال : ليل سخام : اسود .

(٩٥) الزاج : ملح معروف ، يقال له : الشب اليمانى ، انظر معجم متن اللغة (٧٥/٣) .

(٩٦) صبح الأعشى (٤٧٤/٢) .

وكان الحبر القديم بطيء الجفاف ، لذلك كان الكاتب يستعمل رملاً خاصاً دقيق الذرات ناعم الملمس ، لتجفيف الحبر بعد انجاز الكتابة .

أما الأقلام المستعملة في كتابة رسائل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت أقلام القصب المسننة برؤوس دقيقة ناعمة ، وقد عرف العرب هذا النوع من الأقلام ، وسميت بأسماء مختلفة ، منها : الأرقم ، والقلم ، والمرقم[٩٧] ، والمزبر[٩٨] ، والمدبر[٩٩] ، والملقاط[١٠٠] واليراع .

والقلم أشرف آلات الكتابة وأعلاها رتبة ، اذ هو المباشر للكتابة دون غيره ، وغيره من آلات الكتابة كالأعوان ، وقد قال تعالى : (ن والقلم وما يسطرون[١٠١]) ، فأقسم به ، وذلك في غاية الشرف .

وقال تعالى : (اقرأ وربك الأكرام الذى علم بالقلم)[١٠٢] ، فأضاف التعليم بالقلم الى نفسه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ماخلق الله القلم ، فقال : اكتب ، قال : يارب ، وما أكتب ؟ قال : اكتب كل شيء كائن الى يوم القيامة ، ثم قرأ : (ن و القلم) » ، رواه الطبراني .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ماخلق الله القلم ، فقال : اكتب ، قال : يارب ، وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر وما هو كائن الى الابد » ، رواه أحمد وأبو داود والترمذى ، وقال : حسن غريب .

وفي القرآن الكريم سورة كريمة ، اسمها : سورة القلم ، وهى السورة الثامنة والستون من سور الذكر الحكيم .

---

(٩٧) الارقم : القلم (عن الزمخشرى) . والمرقم : القلم ايضاً .

(٩٨) المزبر : القلم ، اخذاً له من قولهم : « زبرت الكتاب : اذا اتقنت كتابته ، ومنه سميت الكتب زبراً : (انه لفى زبر الأولين) .

(٩٩) المدبر : القلم .

(١٠٠) الملقاط : القلم .

(١٠١) الآية الكريمة من سورة القلم (٦٨ : ١) .

(١٠١) الآية الكريمة من سورة القلم (٦٨ : ١) .

وقد قسّمت سماكة سِنّ القلم بما يوازيها من سماكة شعر البِرذون . أي مساحة عرض القلم من حيث البراية بأربع وعشرين شعرة من شَعر البرذون معترضات ، وهو أصل لما دونه من الأقلام ، فقلم الثلثين من هذه النسبة مُقَدر بست عشرة شعرة ، وقلم النصف مقدر باثنتي عشرة شعرة ، وقلم الثلث مقدر بثمان شعرات[١٠٣] .

وقد اختُلف في اشتقاق القلم ، فقيل : سُمى قلماً لاستقامته ، كما سميت القِداح أقلاما في قوله تعالى : (اذ يُلقون أقلامَهم أيُّهم يكفُلُ مريم)[١٠٤] . قال بعض المفسرين : « تشاحوا في كفالتها ، فضربوا عليها بالقداح » ؛ والقداح مما يُضرب به المثل في الاستقامة . وقيل : هو مأخوذ من القُلاّم ، وهو شجر رِخو ، فلما ضارعه القلم في الضعف سمى قلما . وقيل : سمى قلما لِقَلم رأسه ، فقد قيل انه لايسمى قلما حتى يُبرى ، أما قبل ذلك فهو قصبة . كما لايسمى الرُمح رمحا الا اذا كان عليه سِنان ، والا فهو قناة[١٠٥] .

الخط

أول من كتب الخط العربي : حِمير بن سبأ[١٠٦] ، وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمُسند ، سمى بذلك لانهم كانوا يسندونه الى هود عليه السلام[١٠٧] ، ووجد هذا الخط وفروعه في آثار أعالي الحجاز : مَدين والحِجر ، وفي العراق وبادية الشام والكويت والأحساء .

ومن الواضح أن وجود هذه الكتابات في العراق وفي الانحاء المتاخمة للعراق ، لما يدعم أقوال العرب في خطهم : (الجَزم) ، الذي قيل انه مجزوم

---

(١٠٣) صبح الأعشى (٢/٤٦٤ ـ ٤٦٥) .
(١٠٤) الآية الكريمة من سورة آل‌عمران (٣ : ٤٤) .
(١٠٥) صبح الأعشى (٢/٤٥٠) .
(١٠٦) حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، انظر : جمهرة انساب العرب (٤٣٢) .
(١٠٧) صبح الأعشى (٣/٩) .

من قلم المسند ، بتحوير رسوم حروفه المفردة أو تسويتها ووصلها وفصلها كما جاء في امهات الكتب العربية ، التي أجمعت على أن مُرامر بن مُرة ، وأسلم بن سِدرة ، وعامر بن جدرة من بولان (وبولان قبيلة من طيء) نزلوا مدينة الانبار ، فوضعوا حروفا مقطعة وموصولة ، فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الاعجام ، ثم نقل هذا العلم الى مكة وتعلمه من تعلمه وكثر في الناس وتداولوه . وذلك لان أربعة عشر حرفا من حروف المسند مشابهة للحروف الكوفية ، فيما اذا أجري تسوية أو تعديل في وضع الصور المتقاربة الشبه بينهما . ويقول الفيروزآبادي في القاموس المحيط في مادة : جزم : «والجزم في الخط تسوية الحروف» ، وقال الآلوسي في : (بلوغ الأرب) : «وسمى خط العرب بالجزم ، لان الخط الكوفي كان يسمى أولا بالجزم قبل وجود الكوفة ، لانه جزم أي اقتطع وولد من المسند الحميري» ومما يدعم هذه الأقوال في الجزم مطابقة عدد حروفه الكاملة لما جاء في الحديث النبوي الشريف المروى عن أبى ذر الغفاري : « يا أباذر ! والذي بعثني بالحق نبيا ، ما أنزل الله على آدم الا تسعة وعشرين حرفا»[١٠٨] .

وكان الخط العربي قبل الاسلام ، خاليا من الحركات والاعجام (والاعجام تعني النقاط) لعدم حاجتهم اليها ، لأنهم فصحاء انطبعوا على ملكة الاعراب بالسليقة ، ومن الواضح أن نقط الحروف العربية لم يحدث الا عند وقوع العرب في التصحيف .

وهناك رأي يقول : ان النقط في الحروف العربية قديمة ، أي منذ اختراع الكتابة ، ولا دليل يثبت ذلك ، فالكتابات القديمة التي كتبت قبل الاسلام

---

(١٠٨) صبح الأعشى (٣/٧) وانظر انساب الاشراف (١/٤٧٤) والروض الأنف للسهيلي (١/١٠) والمحكم في نقط المصاحف (٢٥) وكتاب المصاحف لأبى داود (٤ ـ ٥) والمعارف (٢٤٠) والاشتقاق لابن دريد (٢٢٣) والعقد الفريد (٤/١٥٦) ووفيات الأعيان (٢/٣٢) ، وانظر مصور الخط العربى للمهندس ناجى زين لدين المصرف (٢٩٨) ـ بغداد ـ ١٣٨٨ هـ .

غير منقوطة ، والرسائل النبوية التي عثر عليها غير منقوطة ، ومصحف عثمان بن عفان غير منقوط أيضا • وقد روى أن أول من نقط المصاحف ووضع النقط على الحروف العربية هو أبو الأسود الدؤلي من تلقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فان أريد بالنقط في ذلك الاعجام ، فيحتمل أن يكون ذلك ابتداء لوضع الاعجام ، والظاهر ماتقدم ، اذ يبعد أن الحروف قبل ذلك مع تشابه صورها كانت عرية من النقط الى حين نقط المصحف •

وقد روى أن الصحابة رضوان الله عليهم جردوا المصحف من كل شيء حتى من النقط والشكل ، على أنه يحتمل أن يكون المراد بالنقط الذي وضعه أبو الأسود الدولي والشكل ما سيأتي بيانه ان شاء الله(١٠٩) •

وبدون شك ، فان النقط شيء ، والشكل شيء آخر ، وهما مختلفان غاية الاختلاف ، كما يعرف ذلك مَن يحسن الكتابة والقراءة •

ونعود الى ماذكره القلقشندي على الشكل ، لنناقش بعد ذلك رأيه ، ونقرر ما نراه •

قال بعض أهل اللغة : الشكل مأخوذ من شكل الدابة ، لأن الحروف تُضبط بقيد فلا يلتبس اعرابها كما تضبط الدابة بالشكال فيمنعها من الهروب •

وقد اختلف الرواة في أول من وضع الشكل في ثلاث مقالات ، فذهب بعضهم الى أن المبتدىء بذلك أبو الأسود الدؤلي ، وذلك أنه أراد أن يعمل كتابا في العربية يقوّم الناس به مافسد من كلامهم ، اذ كان ذلك قد فشا في الناس •

وقال : « أرى أن ابتدىء باعراب القرآن أولاً » ، فأحضر من يُمسك المصحف ، وأحضر صبغا يخالف لون المداد • وقال للذي يمسك المصحف عليه:

---

(١٠٩) صبح الأعشى (٣/١٥١) •

« اذا فتحت فاي فاجعل نقطة فوق الحرف ، وان كسرت فاي فاجعل نقطة تحت الحرف ، وان ضممت فاي فاجعل نقطة أمام الحرف ، فان أتبعت شيئا من هذه الحركات غُنّة (يعني تنوينا) فاجعل نقطتين» ، ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف .

وذهب آخرون أن المبتدي بذلك نصر بن عاصم الليثي ، وذهب آخرون أن المبتدي بذلك يحيى بن يعمر ، وهؤلاء الثلاثة من جلة تابعي البصريين .

وأكثر العلماء أن أبا الأسود جعل الحركات والتنوين لاغير(١١٠) .

والواقع أن العرب قبل اختلاطهم بالعجم ، لم يكونوا بحاجة الى النقط ولا الى الشكل ، لأنهم كانوا فصحاء بالسليقة ، لذلك كانت الكتابة عندهم بلا نقط ولا شكل .

أما بعد انسياح العرب المسلمين في الأقطار الأعجمية ، ودخول غير العرب في الاسلام ، فقد أصبح النقط والشكل ضروريا ، لإمكان قراءة القرآن بخاصة والخط العربي بعامة على أفضل وجه كما يقرأه العرب أو قريبا منه .

وحتى العرب بعد اختلاطهم بالعجم ، فسدت سليقتهم ، فأصبحوا بحاجة الى النقط والشكل لاتقان قراءة لغتهم بما يعينهم على قراءتها سليمة فصيحة .

والصحابة رضي الله عنهم كانوا يحرصون على سلامة القرآن من التصحيف والتحريف ، والنقط والشكل يجعلان ذلك ممكنا ، فلو تيسر النقط والشكل في أيامهم لما أحجموا عن ضبط كتابة القرآن الكريم بالنقط والشكل ، كما صنع التابعون من بعدهم .

وما صنع التابعون ما صنعوا في ميداني النقط والشكل الا مضطرين ، لتفشي الخطأ واللحن والتصحيف الذي لم يقتصر على العجم وحدهم ، بل

---

(١١٠) صبح الأعشى (١٥٦/٣) .

شمل العرب أيضا ، لان اختلاطهم بالعجم أفسد سليقتهم اللغوية ، وفي الوقت الذي كان عدد الصحابة الذين يلحنون قليلا محدودا ، أصبح عدد الفصحاء من التابعين قليلا محدودا ، فانقلب الوضع اللغوي بعد اختلاط العرب بالعجم من حال الى حـــال •

ولو أن التابعين علموا ، أن النقط والشكل كانا موجودين معروفين في أيام كتابة القرآن وجمعه في عهد أبى بكر الصديق وعثمان بن عفان رضى الله عنهما ، وأحجم الصحابة عن ادخالهما في كتابة القرآن ، لوسعهم ما وسع الصحابة واقتدى التابعون بالصحابة ، ولكن النقط والشكل لم يعرفا في أيام الصحابة ، ولو عرفا لضبط القرآن بهما حتى ولو كان العرب يومئذ فصحاء يضبطون اللغة الفصحى بالسليقة ، لأن وجود النقط والشكل في القـرآن أفضل من عدم وجودهما ، ولأن حرص الصحابة على ضبط القرآن لايقل بحال من الأحوال عن حرص التابعين ، ولانزال حتى اليوم ، نعارض المطالبين بكتابة القرآن الكريم بالأسلوب الكتابي الحديث ، تسهيلاً لقراءته على الجيل الجديد الذى يجد صعوبة في قراءته كما كتب على عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وسبب هذه المعارضة هو الخوف من التحريف والتصحيف ، فليس من المعقول أن يخالف التابعون الصحابة في القضايا الدينية وعلى رأسها الحفاظ على سلامة الذكر الحكيم •

واذا كان أول من نقط المصاحف ووضع النقط على الحروف هو أبـو الأسود الدولى من تلقين أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فكيف يتفق ذلك مع الادعاء بأن الصحابة جردوا المصحف من كل شيء حتى من النقط والشكل ؟ ! أليس علي من الصحابة بل من سادة الصحابة ، فكيف يمكن أن يخالف اخوانه فيما اتفقوا عليه ؟ •

وهل النقط والشكل يضر بمبدأ الحفاظ على سلامة القرآن من قريب أو بعيد ؟ واذا كان النقط والشـــكل يفيد هذا المبدأ ، كما حـــدث فعلا ،

فكيف يمكن أن نصدق أن الصحابة جردوا المصحف من كل شيء حتى من النقط والشكل ؟ .

وحتى في حالة بقاء العرب على فصاحتهم ، فان النقط والشكل لايضر بسلامة القرآن في شيء ، بل يفيده فائدة لاسبيل الى انكارها أو التنكر لها ، ولا الى التقليل من أهميتها والتهوين من قيمتها ، ويكفي أن تتصور ماذا كان يحدث للقرآن الكريم وفي القرآن الكريم ، لو لم يضبط بالنقط والشكل ؟ .

والقضية ببساطة ، أن الخط العربي في مكة والمدينة ، في وقت ارسال الرسائل النبوية ونزول القرآن ، وفي وقت جمع القـرآن ، لم يكن منقوطاً ولا مشكولا ، بل كان خالياً من النقط والشكل ، فكتبت الرسائل النبوية ، وكتب القرآن الكريم بالخط العربي السائـد في مكة والمدينة بدون نقط ولا تشكيل .

فلما اختلط العرب بالعجم بالفتح والجوار والزواج والمعايشة ، فسدت العربية الفصحى حتى بالنسبة للعرب أنفسهم ، كما أن العجم دخلوا في دين الله أفواجاً ، فأقبلوا على قراءة القرآن وتعلّم العربية لأنها لغـة الاسلام ، فاحتاجوا الى ضبط الخط العربي والكتابة العربية ، ليسهل تعلمها على غير العرب ، ولئلا يقع العرب وغير العرب بالاخطاء اللغوية ، فكان النقط والشكل ابتكاراً جديداً ، دخلا على الخط العربي والكتابة العربية ، لسد حاجة اقتضتها الضرورة ، والحاجة أم الاختراع كما يقولون .

وأبو الأسود الدؤلي ليس أول من وضع النقط والشكل حسب ، بل أول من وضع النحو أيضاً ، قيل : ان علياً رضي الله عنه وضع له : « الكلام كله ثلاثة أضرب : اسم ، وفعـل ، وحرف » ، ثم دفعه اليه ، وقال لـه . « تمم على هذا » .

وقيل : انه كان يعلم أولاد زياد بن أبيه ، وهو والي العراقين يومئذ ، فجاءه يوماً وقال له : « أصلح الله الأمير ! اني أرى العرب قد خالطت هذه

الأعاجم وتغيرت ألسنتهم ، افتأذن لى أن أضع للعرب مايعرفون أو يقيمون به كلامهم ؟ » ، قال : « لا » . فجاء رجل الى زياد وقال : « أصلح الله الأمير ! توفى أبانا ، وترك بنون » ، فقال زياد : « ادعوا أبا الأسود » ، فلما حضر قال : « ضع للناس الذى نهيتك أن تضع لهم » .

وقيل : انه دخل بيته يوماً ، فقالت له بعض بناته : « ياأبت ! ما أحسنُ السماءِ » ، فقال : « يابنية ! نجومها » ، فقالت له : « انى لم أرد أى شى منها أحسن ، انما تعجبت من حسنها » ، فقال : « اذن فقولى : ما أحسنَ السماءَ ! » وحينئذٍ وضع النحو .

وقيل لأبى الأسود : « من آين لك هذا العلم ؟ » ، يعنون النحو ، فقال : « لقنت حدوده من على بن أبى طالب رضى الله عنه » .

وقيل : ان أبا الأسود ، كان لايخرج شيئاً أخذه عن على بن أبى طالب الى أحد ، حتى بعث اليه زياد : « أن اعمل شيئاً يكون للناس اماماً ، ويعرف به كتاب الله عز وجل » ، فاستعفاه من ذلك ، حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ : (ان الله برىء من المشركين ورسولِهِ)[111] ، بالكسر ، فقال : « ماظننت أن أمر الناس آل الى هذا » ، فرجع الى زياد فقال : « أفعل ما أمر به الأمير ، فليبغنى كاتباً لبقاً يفعل ما أقوله » ، فأتي بكاتب من عبد القيس ، فلم يرضه ، فأتي بآخر ، فقال له أبو الأسود : « اذا رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف فانقط نقطة فوقه ، وان ضممت فمى فانقط بين يدى الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت » ، ففعل ذلك .

وتوفى أبو الأسود بالبصرة سنة تسع وستين في طاعون الجارف ، وعمره خمس وثمانون سنة وقيل : انه مات قبل الطاعون بعلة الفالج ، وقيل : انه

---

(١١١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٢) .

توفى في خلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، الذى تولى الخلافة في شهر صفر من سنة تسع وتسعين للهجرة ، وتوفى في شهر رجب من سنة احدى ومائة للهجرة[113] .

وقد ذكرنا كل ذلك ، لنثبت أن الخط العربي ، وبخاصة في المدينة المنورة ومكة المكرمة ، كان بدون نقط ولا تشكيل ، والحجة التى ذكرها القلقشندى ورددها من بعده من رددها بحسن نية أو بسوء نية . وهى : « اذ يبعد أن الحروف قبل ذلك ، مع تشابه صورها ، كانت عرية من النقط الى حين نقط المصحف » ، لاتشكل معضلة لاجواب عليها ، فالجواب هو أن الحروف المتشابهة يمكن تمييزها من سياق الكلمة وسياق الجملة بسهولة ، والا فكيف استطاع المسلمون العرب الذين يقرأون ويكتبون ، أن يقرأوا القرآن الكريم قبل نقط حروفه ، يوم كانت حروفه غير منقوطة ؟ ! .

ان هذه ليست معضلة بالنسبة للعرب القدامى في الجاهلية وفي الصدر الأول للاسلام ، قبل أن يختلط العرب بالعجم اختلاطاً واسعا ، لأنهم كانوا فصحاء اطبعوا على ملكة الاعراب بالسليقة .

ولكنها أصبحت معضلة خطيرة بالنسبة للعرب وللعجم ، بعد اختلاط العرب بالعجم اختلاطاً شديداً هائلا ، وبعد أن دخل العجم في الاسلام وقرأوا القرآن وكتبوا ، فوقع العرب في التصحيف ووقع العجم بالتصحيف والتحريف ، فكان لزاماً على قادة الفكر العربي والاسلامى ، أن يضعوا حداً لهذا الانحراف

---

(112) انظر : وفيات الأعيان (٢/٢١٦ — ٢١٩) ، والدؤلى — بضم الدال المهملة ، وفتح الهمزة ، وبعدها لام — هذه النسبة الى الدئل — بكسر الهمزة ، وهى قبيلة من كنانة ، وانما فتحت الهمزة في النسبة لئلا تتوالى الكسرات ، كما قالوا في النسبة الى نَمِرة : نَمَري — بالفتح ، وهى قاعدة مطردة . والدئل : اسم دابة بين ابن عرس والثعلب .

(113) صبح الاعشى (٣/١١) .

اللغوى المستشرى بين الناس ، فوضع النقط والشكل حلاً لهذا الانحراف .

وفي دراسة المحدثين من الباحثين ، نص قسم منهم ، أن الرسائل النبوية كتبت بالخط المكى وزعم قسم منهم أنها كتبت بالخط المدنى ، وزعم قسم ثالث أنها كتبت بالخط المكى والمدنى .

ومن الصعب أن تتبين الفرق الواضح بين الخط العربي المكى ، والخط العربي المدنى ، واذا كان هناك أى فرق بينهما ، فقد جمعهما الاسلام على صورة واحدة وفي صعيد واحد .

والواقع أن الكتابة العربية كانت قليلة في الأوس والخزرج ، وجاء الاسلام وفي المدينة بضعة عشر يكتبون(١١٣) ، أما في مكة فكانت الكتابة أكثر انتشاراً(١١٤) كما ذكرنا من قبل ، فعلم أسرى المشركين في غزوة بدر المتعلمون صبيان الأنصار في المدينة القراءة والكتابة بمعدل عشرة صبيان لكل أسير مشرك متعلم فداء له من الأسر ، فكان زيد بن ثابت الأنصارى ممن تعلم من أسرى بدر المشركين(١١٥) ، وهو الذى جمع القرآن على عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكان من أبرز كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أكثر كتاب النبي صلى الله عليه وسلم من المهاجرين ، فساد في مكة والمدينة الخط المكى ، ان كان هناك أى اختلاف مهم بين الخطين ، أما بالنسبة لى وبالنسبة لمن سألتهم من الاختصاصيين بالخط ، فلم أستطع ولم يستطيعوا أن يتبينوا أى اختلاف .

لقد استعمل الخط العربي البسيط الذى كان معروفاً لدى العرب ، وهو الخط المكى المدنى . وقد كتبت الرسائل النبوية من عدة كتاب ، بخط واضح مقبول ، وبأسطر مستقيمة ، فيها التسلسل والمتابعة في خط واحد متكامل

---

(١١٤) صبح الأعشى (٣/ ١٠) .
(١١٥) طبقات ابن سعد (٢/ ٢٢) .

بقدر الامكان ، الا أن بعض الأحرف تبقى في بعض الأحيان بين سطريـــن : راجع مثلاً رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوى ، ففى السطر الرابع والخامس كلمة : (أذكرك) ، ورد : (أذكر) في السطر الرابع والـ : (ك) في السطر الخامس • وكذلك كلمــة (رسلى) ، في السطر الخامس والسادس ، الـ : (ر) في السطر الخامس ، و : (سلى) في السطر السادس •

والنسخ الموجودة لدينا صورتها هى أربع :رسالة المنذر بن ساوى ورسالة هرقل ورسالة كسرى ورسالة المقوقس • الرسالة المرسلة الى المنذر بن ساوى والرسالة المرسلة الى هرقل متقاربتان جداً ، وهما بخط جميل متناسق واضح ، وبمداد متساوى المادة والسمك • أما نوعية الخط ، فهو متقارب في الرسائل الأربع ، الا أنه من المؤكد أنه لم يكتب من كاتب واحد من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم بل تعدد كتاب تلك الرسائل النبوية •

وهناك بعض الكلمات والحروف الموجودة في الرسائل النبوية يمكن أن تميز بسهولة ، وهى متقاربة من بعضها ، على الأقل في الرسائل الثلاث : رسالة المنذر ، ورسالة هرقل ، ورسالة المقوقس ، أما رسالة كسرى فصعبة التمييز • مثلاً كلمــة : (لا) يمكن تمييزها في الرسائل الثلاث ، وكذلك كلمة : (بسم) ، وكلمة : (الله) ، وحرف الـ : (و) ، وكذلك حرف الـ : (م) •

أما أسطر الرسائل النبوية ، فقد تراوحت بين سبعة أسطر في رسالــة هرقل وخمسةعشر سطراً في رسالة كسرى ، وأربع وثلاثين كلمة في رسالة صاحب اليمامة ، وسبع كلمات ومائة كلمة في رسالة النجاشى ، وهى أطول الرسائل النبوية الى ملوك العصر في حينه •

ورسائل النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت خالية من الاعراب والتنقيط (الاعجام) بجميع أنواعه ، وكانت بسيطة سهلة بدائية الخط ، طبيعية الكتابة ،

خطت على الرق المصقول ، لم يدخل عليها التلوين والتذهيب أو الزخارف الجمالية التى كانت تستعمل في رسائل الملوك والقادة ، كما أن علامات الاعجام التعبيرية لم تستعمل ، لأنها لم تكن معروفة آنذاك ، وجميع تلك الرسائل بدأت بالبسملة ، وانتهت بخاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم المستدير .

ومع أنه مضى نحو خمسة عشر قرناً على كتابة تلك الرسائل النبوية ، غير أنه يمكن قراءتها بسرعة فائقة بعد أن يدخل عليها التنقيط ، لفك اعجام الحروف ، فهى في الواقع مثل أى كتاب أو رسالة تكتب في هذه الايام بالخط العربي الاعتيادى لأى شخص يتقن اللغة العربية وبعض أصول الخط العربى المكى والمدنى في تلك الأيام[١١٦] .

★ ★ ★

(١١٦) مجلة الوثيقة البحرانية ـ العدد الأول ـ السنة الأولى ـ رمضان ١٤٠٢ـ (٤٣ ـ ٤٤) .

الفصل الثالث

سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

مستهل :

بلغ عدد سفراء النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك والأمراء العرب والأجانب خمسة عشر سفيراً ، خمسة منهم الى ملوك الأجانب : إثنان الى النجاشي ملك الحبشة ، وواحد الى كل من هرقل قيصر الروم ، وأبرويز كسرى الفرس ، والمقوقس ملك مصر . أما السفراء الباقون ، وهم عشرة سفراء ، فكانت سفاراتهم الى ملوك العرب وأمرائها .

ولم يستشهد من سفراء النبي صلى الله عليه وسلم غير سفير واحد ، استشهد وهو في طريقه الى ملك بصرى الغساني قبل أن يصل اليه ويبلغه مضمون سفارته ، أما السفراء الباقون فقد بلغوا مضمون سفاراتهم ، وعادوا الى المدينة المنورة بعد انجاز واجباتهم سالمين .

ومزقت رسالة نبوية واحدة ، ولم تمزق غيرها من رسائل النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى من الملوك والأمراء الذين لم يعتنقوا الاسلام .

ورفض اثنان من الملوك والأمراء اعتناق الاسلام بشدة وبالتهديد : أبرويز بن هرمز ملك الفرس ، والحارث بن أبي شمر الغساني ملك الغساسنة في الشام وحليف الروم عليها .

وصرف بالحسنى السفير النبوي كل من هرقل قيصر الروم ، والمقوقس ملك مصر ، وقدم المقوقس للنبي صلى الله عليه وسلم هدية سنية ، ولكنهما بقيا على دينهما ولم يسلما .

ومعنى ذلك ، أن أربعة من الملوك بقوا على دينهم ولم يسلموا . وقد صرف ملكان منهم سفيرى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحسنى . وصرف ملكان منهم سفيرى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعنف والشدة .

وجميع الملوك الذين لم يسلموا من الأجانب ، عدا ملك الغساسنة الذى كان حليفاً للروم ، وكان يفكر بعقل القيصر لابعقله ، ويعمل مايحب القيصر أن يعمله لا مايجب عليه أن يعمله ، فكان ملكياً أكثر من الملك .

أما الملوك والأمراء الآخرون ، فقد أسلموا وحَسُن اسلامهم ، وأسلم مع قسم منهم كثير من أتباعهم ، وأسلم مع النجاشي ملك الحبشة قسم من الأحباش ، أي أن المسلمين أصبحوا الأكثرية في قسم من الأقطار التي أسلم ملوكها وأمراؤها ، بينما بقي المسلمون أقلية في بلاد الحبشة التي أسلم ملكها.

واذا أردنا أن يكون تعبيرنا أكثر دقة ووضوحا ، حول انتشار الاسلام في الأقطار التي قصدها السفراء النبويون ، فلابد من أن نذكر أن الاسلام انتشر انتشارا واسعا في تسعة أقطار عربية هي : اليمامة ، وعُمان ، والبحرين، وحضرموت ، وخمس مناطق شاسعة من اليمن ، يحكم كل منطقة منها ذو من الأذواء أو قَيْل من الأقيال . وكان انتشار الاسلام محدودا نسبيا في أرض الحبشة ، لأن اسلام النجاشي لا يؤدي بالضرورة الى اسلام شعبه كافة ، اذ : (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى)[1] ، والشك والتشكيك في اسلام النجاشي ، بحجة أن قومه لم يُسلموا جميعا ، باعتبار أنه لو أسلم حقا لأسلم قومه معه أيضا ، لا يصدران الا عن فكر لا يفهم تعاليم الاسلام حق الفهم ، أو يفهم تعاليم دينه ولايفهم تعاليم الاسلام ، فيحاول أن يطبق ما فهمه من تعاليم دينه على تعاليم الاسلام ، وهذا خطأ شنيع يدل على جهل مطبق أو تعصب مقيت ، لأن التعاليم الاسلامية في الدعوة الى الاسلام تختلف اختلافا

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٢٥٦) .

عضيا عن تعاليم الأديان الاخرى ، فالاسلام ينهى عن الدعوة الى اعتناقه بالاكراه ، وتاريخ المسلمين خير شاهد على ذلك .

ونعود الى الملوك والأمراء الأربعة الذين لم يستجيبوا للاسلام ، لنعرف أسباب عدم استجابتهم ، وهل كان من جملة تلك الأسباب تقصير السفراء النبويين المرسلين الى أولئك الملوك والأمراء في التبليغ أدى فيما أدى اليه الى بقائهم على دينهم ؟ !

ونبدأ بالملكين اللذين لم يُسلما ، وصرفا السفيرين النبويين بالعنف : أولهما كسرى أبرويز ملك الفرس ، وكان معروفا بالصلف والعنجهية[٢] والتهور ، فساقته هذه المثالب الى أن يخسر ملكه وحياته في ثورة عارمة قادها عليه ابنه ، فقتل بيد ابنه لأنه فقد عطف حتى ابنه من رعيته ، وأصبح التخلص منه انقاذا للرعية ، فكان ابنه المنقذ المرتقب . كما أنه كان يرى أن العربي يُقاد ولا يقود ، لأن الذين سبق له التعاون معهم من العرب هم من هذا الصنف الذي يُقاد ولا يقود ، ولم يسبق له التعاون مع العرب الذين يقودون ولا يُقادون ، لانهم كانوا حريصين على حريتهم وكرامتهم ، فلم يتعاونوا مع ملك ظالم مستبد مستعمر ، لايعرف للناس حقوقهم ولا للرجال قدرهم ، وابتعدوا عن السلطة نهائيا كما يبتعد الصحيح عن المريض والسليم عن الأجرب .

أما الثاني ، فهو الحارث بن شَمِر الغسّاني ملك الغساسنة بالشام ، وكان أمره ليس بيده ، بل بيد سيده هرَقل ملك الروم ، وكان لايفكر بعقله بل بعقل سيده ، فيعمل بما يتوقع أن يرضى عنه سيده لا بما يُرضي به عقله وضميره . لذلك افتعل الحماسة في مجابهة السفير النبوي ، فهدد وتوعد . فلما علم أن هرقل استنكر أسلوب معاملته للسفير النبوي في تهديده ووعيده، تبدل فورا حاله من حال الى حال ، فأصبح غضبه حلما وشدّته لينا وتشدده تساهلاً ، وأكرم السفير النبوي وأعاده الى المدينة سالما .

---

(٢) العنجهية : الكبر والعظمة والجفاء .

ولم يُخفق السفيران النبويان اللذان قصدا كسرى والحارث بن أبي شمر الغساني ، فقد أديا واجبهما كما ينبغي ، وما لقياه من اعراض كان لأسباب خارجة عن ارادتهما ، ولا سبيل لهما ولا لغيرهما الى التغلب على تلك الأسباب القاهرة .

أما هرقل والمقوقس اللذان لم يُسلما ، ولكنهما أعادا السفيرين النبويين بالحُسنى ، دليل على أن السفيرين لم يخفقا في أداء مهمتهما ، بل نجحا في أداء واجبهما نجاحا ملموسا .

واذا ثبت لدينا ، أن السفراء الأربعة ، الذين لم يُسلم الملوك والأمراء بعد الاتصال بهم ، قد نجحوا في سفاراتهم النبوية ، بما لايقل عن نجاح السفراء النبويين الآخرين ، الذين أسلم الملوك والأمراء الذين أرسلوا اليهم واتصلوا بهم ، فمعنى ذلك أن السفارات النبوية نجحت نجاحا باهرا ، وأن سفراء النبي صلى الله عليه وسلم نجحوا في أداء مهماتهم الصعبة الشاقة المعقدة في ظروف غير ملائمة . وكان من عوامل هذا النجاح الباهر المتميز ، هو اختيار الرجل المناسب للسفارة المناسبة ، وكان اختيار السفراء النبويين موفقا حقا ، وكانوا عند حسن ظن المسلمين بهم ، لهم سمات خاصة أهلتهم لتحمل أعباء واجباتهم الثقيلة الصعبة بكفاية واقتدار في أصعب الظروف والأحوال .

لقد كان هدف السفارات النبوية ، هو الدعوة الى اعتناق الاسلام . فكان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم الذين أرسلهم الى الملوك والأمراء في زمانه دعاة الى الاسلام[٣] ، وكانوا صفوة الدعاة ، لأن اسلام ملك أو أمير يؤثر تأثيرا عظيما في أتباعه ، لذلك كان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم هم صفوة الدعاة المسلمين من الصحابة ، فاذا كان الدعاة هم صفوة الصحابة ، فان السفراء النبويين هم صفوة الصفوة في سماتهم الخاصة التي

---

(٣) سيرة ابن هشام (٢٧٨/٤) وطبقات ابن سعد (٢٥٨/١) والطبري (٦٤٤/٢) .

تؤهلهم للنهوض بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والكياسة والمزايا الأخرى التي ترد تفاصيلها وشيكا .

ودراسة سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم تستحق العناية الفائقة، من أجل الأسوة الحسنة المقتبسة من النبي صلى الله عليه وسلم في أسلوب اختيار السفراء ، ومن أجل ماضي المسلمين وحاضرهم ومستقبلهم ، فالماضي عبرة للحاضر والمستقبل ، والماضي هو الأساس للحاضر والمستقبل .

والعبرة من عرض سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم للحاضر والمستقبل ، تكون للذين يملكون القرار في تولية السفراء ومن يعمل معهم في السفارات أولا ، وللسفراء ومن يعمل معهم في السفارات ثانيا ، حتى يُحسن الملوك والرؤساء والأمراء اختيار السفراء ومن يعمل معهم بهدى سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، وحتى يقتدى السفراء ومن يعمل معهم بسفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، فيُحسنوا في عملهم . والعبرة أيضا تكون لكل فرد من أفراد الأمة ، ليعرف كل فرد من أفراد الأمة ، كيف ينبغي أن تكون سمات السفير الصالح ومن يعمل معه في سفارته ، ليكونوا قادرين على النهوض بواجباتهم من أجل مصالح أمتهم وبلادهم .

وقد حاولت تعداد سمات كل سفير من سفراء النبي صلى الله عليه وسلم في أثناء تفصيل سيرته ، وكانت تلك السمات هي السمات الخاصة بكل سفير.

وهذه الدراسة ، هي السمات العامة المشتركة بين سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، جمعتها في بحث مستقل ، ليكون عبرة لمن يعتبر بماضي أمته المشرّف المجيد .

الا أن هؤلاء السفراء النبويين ، بهذا العدد غير القليل ، في مثل تلك الظروف ، لا يمكن أن يبرزوا بمثل هذه الكفاية العالية والقدرة المتميزة والاستقامة المطلقة والاخلاص النادر ، من فراغ ، بل أعِدّوا اعدادا دقيقا

ليكونوا قادرين على مهمتهم قدرة لايتطرق اليها الشك ، وهذا الاعداد هو ما أطلق عليه تعبير : بناء السفراء .

وهذا البحث يشمل : بناء سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

وأهمية عبرة بناء السفراء ، لاتقل عن عبرة سمات السفراء ، فلكل منهما عبرته البالغة لحاضر المسلمين ومستقبلهم ، يتعلمونها من ماضيهم المشرق المجيد ، في مرحلة من مراحل السيرة النبوية الغنية بالعبر والدروس .

بناء السفراء

١ ـ الدعائم الثلاث

استطاع النبي صلى الله عليه وسلم ، بناء الانسان المسلم ، والسفير المسلم انسان مسلم أيضا ، على ثلاث دعائم .

الأولى : العقيدة الاسلامية ، وهي عقيدة منشئة بناءة ، تصلح لكل زمان ومكان ، وتبدل معتنقها من حال الى حال .

والثانية : القُدوة الحسنة ، فقد كان عليه الصلاة والسلام خلقه القرآن، كما وصفته الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وكان عليه الصلاة والسلام تعاليم الاسلام يمشي على الأرض بشرا سويا ، وكان يطبق تعاليم الاسلام على نفسه قبل غيره فيكون قدوة لغيره بالعمل الصالح والمعاملة الحسنة والخُلق الكريم وبالتطبيق العملي للاسلام نصا وروحا .

والثالثة : اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب ، والتنويه بمزاياه ، والتستر على عيوبه ومحاولة تقويمها ، وعدم غمط حقوق القادرين ، والاشادة بقدراتهم وابرازها ، والتركيز على المزايا دون المثالب ، والاستفادة من تلك المزايا لمصلحة المسلمين العامة ، وجعل المسلمين أفرادا يشعر كل فرد منهم

أن حقه مُصان ، وأنه في المكان القادر على الانتاج منه ، وجعل المسلمين جماعات يشعرون أنهم يُحكمون من أفضلهم كفاية واقتدارا وعدلا ، وجعل المسلمين أمة تشعر أنها تُحكم من أفضل أبنائها صلاحا وتجربة وعلما وعملا .

ومبدأ : اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب ، استنادا الى الكفاية والايمان ، جعل القادرين من المسلمين يتنافسون تنافسا شريفا ، لتولي المنصب الذي يستحقونه بجدارة واقتدار ، من أجل خدمة الاسلام والمسلمين بعيدا عن المكاسب الشخصية ، وكانوا على يقين من أن المسلم لايتولى منصبا لايستحقه ، والسبيل الى التقدم هو في الايمان العميق والكفاية العالية ، ولا مجال للتقدم بغير هذين العاملين الحيويين ، لذلك أصبح الاجتهاد في تنميتهما هو السبيل الوحيد لتولي المناصب العامة .

والتحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، فخلّف من بعده خُلفاء وأمراء وولاة وقادة عسكريين واداريين وسياسيين ، وقضاة وعلماء ومحدثين ومفسرين وفقهاء ووعاظا ومصلحين ، وعبادا وزهادا وصالحين ، وسُفراء وحكماء ومجاهدين ، لم يخلّف أحد من قبله ولا من بعده أمثالهم كفاية ومقدرة ، وأمانة وحرصا ، واستقامة وقوة ، وتفرغا للمصلحة العليا للمسلمين ، وانكارا لذواتهم وأنفسهم ، وحبا للخير وللمؤمنين ، وبُعدا عن الفُرقة والفتنة وتمسكا بالوحدة والجماعة ، ولا يزال أكثرهم قدوة حسنة وأسوة كريمة للمسلمين ، فكان خريجو مدرسة النبي صلى الله عليه وسلم من أبرز خريجي المدارس المثالية عبر التاريخ واكثرهم عددا ، وكان قرنه خير القرون التي مرت قبله والتي مرت وتمر بعده ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال : «خير الناس قَرْني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تَسبِق شهادة أحدهم يمينَه ويمينُه شهادتَه »[٤] .

---

(٤) رواه البخاري ومسلم والترمذي واحمد بن حنبل عن ابن مسعود ، انظر : مختصر الجامع الصغير للمناوي (١٣/٢) .

تلك هي الدعائم الثلاث التي بنى النبي صلى الله عليه وسلم بها المسلمين أفرادا وجماعات وأمة ، وهو منهج متكامل في بناء الرجال ، ومنهم السفراء ؛ وأسلوب تربوي عملي أينع أحسن الثمرات •

٢ ـ العقيدة الاسلامية

أ ـ العرب :

من المعلوم أن الاسلام للعرب ولغيرهم من الأقوام والأمم وللناس جميعا ، لايميز بين جنس وآخر ولابين لون ولون ، وكما أن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، فان الاسلام خاتم الأديان ، فهو ليس لزمان معين ، بل لكل زمان ، ولا لمكان معين ، بل لكل مكان ، فهو الرسالة الخالدة الباقية التى تصلح لكل زمان ومكان •

ولكن العرب قوم النبي صلى الله عليه وسلم ، وانزل القرآن الكريم بلغتهم ، والقرآن الكريم ليس كتاب الاسلام الأول حسب ، بل هو كتاب الاسلام الأول وكتاب العربية الأول أيضا •

وقد اعتنق العرب الاسلام قبل غيرهم ، وكانوا قادة الفتح الاسلامى وجنوده ، وهم الذين نهضوا بواجب الدفاع عن حرية نشر الدعوة الاسلامية •

والعرب اذا استقاموا استقام المسلمون ، وقد بلور الاسلام طاقاتهم المادية والمعنوية ، ووحدهم بعد تفرق ، وجمعهم بعد شتات ، وجعل منهم قادة وسادة ، وكان فضل الله على العرب بالاسلام عظيما •

ونستطيع أن نصف العربى الجاهلى ، بأنه عصبى المزاج ، سريع الغضب ، وهو أشد هياجا اذا جرحت كرامته أو انتهكت حرمته أو حرمة أهله أو حرمة قبيلته ، واذا اهتاج أسرع الى السيف واحتكم اليه •

والعربي ذكى ، يظهر ذكاؤه في لفتة ، وكثيراً مايعتمد على اللمحة الدالة ؛

والاشارة البعيدة ، كما يظهر في حضور بديهته •

والعربى ميال الى الحرية الشخصية ، فلا يدين بالطاعة لرئيس ولا حاكم ، وهو يحب المساواة في حدود القبيلة ، يعتد بقبيلته ثم بجنسه ، ويشعر في أعماق نفسه بأنه من دم متميز(٥) •

وكان أكثر العرب يعبدون الأصنام والأوثان ، فكانت الوثنية هى الدين السائد في شبه جزيرة العرب •

وكان العرب في شبه الجزيرة العربية قسمين : بدواً ، وحضراً ، وكان البدو القسم الغالب من العرب • وكان البدو وما يزالون ، يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة ، يعيشون على ماتنتجه ماشيتهم ، يأكلون لحومها بعد علاج بسيط ، ويشربون ألبانها ، ويلبسون أصوافها ، ويتخذون منها مساكنهم ، وهم يعتمدون في تغذية ماشيتهم على الكلأ ، واذا احتاجوا الى غير ماتنتجه ماشيتهم تعاملوا عن طريق البدل ، فكانوا يستبدلون بالماشية ونتاجها مايتطلبون من تمر ولباس •

ونوع آخر اتخذوه أيضاً وسيلة من وسائل العيش ، وهو الغارة والسلب ، فيغيرون على قبيلة معادية ليأخذوا جمالها وماشيتها ويسبون نساءها وأولادها • وتتربص بهم القبيلة الأخرى ، لتفعل بهم مثل ما فعلوا بها ، بل هم اذا لم يجدوا عدواً من غيرهم قاتلوا أنفسهم ، ولعل خير مايمثل ذلك قول القطامى(٦) :

وأحياناً على بكر أخينا   اذا مالم نجد الا أخانا

ومن أجل ذلك ، كثيراً ماتضطر القبيلة التى ضعفت الى الاحتماء بقبيلة

---

(٥) فجر الاسلام (١/٤٦ ـ ٤٧) .
(٦) انظر ترجمته في : الشعر والشعراء لابن قتيبة (٦٠٩ ـ ٦١٢) .

قوية تذود عنها ، ولكن قل أن يدوم حلفهم أو يطول ، بل سرعان ماينتقض اجتماعهم وتنفصم وحدتهم ، فينقلب المتحالفون أعداء متحاربين .

أفراد القبيلة متضامنون أشد مايكون التضامن ، ينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

والمعن في البداوة منهم ضعيف الايمان بدين ، قل أن يؤمن الا بتقاليد قبيلته وماورثه عن آبائه .

مثلة الأعلى في الأخلاق يرتكز على ماسماه : (المروءة) ، تغنى بها في شعره وأدبه ، من الصعب أن تحدها حداً دقيقاً ، ولكن يصح أن نقول : انها تعتمد على الشجاعة والكرم . أما الشجاعة فتتجلى في كثرة من نازله وقاتله ، وفي مواقف دفاعه عن قبيلته ، وأكثر هذا نجدته . وأما كرمه فيتجلى في نحر الجزور للضيف واغاثة البائس والفقير ، وفوق هذا أن يعطى أكثر مما يأخذ، وأن يغشى الوغى ويعف عن المغنم .

لقد كانت الحروب عند البدو أساساً لحياتهم ، كانت الحرب هى القاعدة ، وكان السلام هو الاستثناء .

أما الحضر من العرب فهم أرقى من ذلك كثيرا ، يسكنون المدن ويستقرون فيها ويعيشون على التجارة والزراعة ، وقد أسسوا قبل الاسلام ممالك ذات مدنية كما في اليمن ، والغساسنة في الشام ، والمناذرة في العراق .

لقد كان العرب مواد أولية متميزة : الذكاء الفطرى ، وحب الحرية والمساواة ، والشجاعة والاقدام ، والكرم والسخاء ، فعمل الاسلام على تطويرها وصقلها والافادة منها ، ونجح في مسعاه أعظم النجاح .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خياركم في الجاهلية خياركم

في الاسلام[٧] اذا فقهوا » ، « وانما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق[٨] » .

ولكن كان في العرب مواد أولية رديئة : تفرق كلمتهم ، وفقدان الضبط والنظام بينهم ، وعبادة الأوثان والأصنام ، وسيطرة روح القبيلة عليهم ، فعمل الاسلام على محاربتها والقضاء عليها ، وكان نجاحه فيها يتناسب تناسباً طردياً مع ايمان الانسان العربى بالاسلام ، فكلما كان ايمانه عميقاً ، كان تخلصه من مثالبه المتوارثة حاسما ، والعكس صحيح .

ب ـ الاسلام :

جاء الاسلام ، الذى عماده الخضوع لله والانقياد له ، فكان في تعاليمه الدواء الناجع لعقلية الجاهلية : عقلية الأنفة والحمية والتعصب .

ان تعاليم الاسلام قسمان : عقائد ، وأعمال .

أما (العقائد) ، فان أهم أصل من أصول الاسلام ، هو الاعتقاد بالله سبحانه وتعالى .

الاسلام يصف الله سبحانه وتعالى بأوصاف ـ كما وردت في القرآن الكريم ـ بأنه ليس إله قبيلة ولا إله امة وحدها ، ولا إله الناس وحدهم ، بل هو إله كل شيء : (رب العالمين)[٩] ، وكل شيء في الوجود مخلوق له وخاضع لأمره : (لله ما في السموات وما في الارض)[١٠] .

---

(٧) حديث صحيح متفق عليه ، وفي رواية الامام مسلم : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » ، انظر كتاب : الجامع للأصول في أحاديث الرسول (٥/٨١) .

(٨) رواه البخارى في الادب والبيهقي في شعب الايمان والحاكم في المستدرك ، ورواه مالك في الموطأ بهذا اللفظ : « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » ، حديث صحيح .

(٩) الآية الكريمة من سورة الفاتحة أم الكتاب (١ : ١) .

(١٠) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٢٨٤) .

وكل شيء من مظاهر الكون خلقه الله تعالى ، وقد أحاط علمه بكل شيء ، وأحاطت قدرته بكل شيء وهو إله واحد ، وليس هناك من يشاركه في الوهيته .

وليس لأى مخلوق ولا لأية طائفة ، سلطان على الناس في عقائدهم ، ولا في أية صفة من صفات الربوبية : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله)[11] ، ولا يرضى الاسلام عن أى نوع من التعدد ، ولا أى رمز يشعر بالتعدد .

وقد اختار الله أفـراداً من خلقه ، واتصل بهم بالوحى ، ومن هؤلاء ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلوات الله وتسليمه عليهم جميعاً .

وهناك وراء هذه الحياة حياة أخرى : يوم القيامة ، واليوم الآخر ، ويوم الحساب ، ويوم الدين . وهذا اليوم هو يوم المثوبة على العمل الصالح ، والعقوبة على العمل السيىء ، وكل عمل أتاه الانسان يسجل عليه . وقد جعل للمثوبة والعقوبة دارين : دار المثوبة وهى الجنة ، ودار العقوبة وهى النار .

ثم ان وراء هذا العالم المادى ، عالما آخر روحياً فيه نوعان من الأرواح : نوع خيّر يطيع الله مايأمره ويجذب الناس الى الخير ويسمى الملائكة ، ونوع شرير يستغوى النفوس الى الشر ويسمى الشياطين .

أما (الأعمال) ، فهناك على المسلم أعمال يجب أداؤها ، وهى أساسية كالعقائد ، وهى : الصلاة ، ويقصد بها أن تكون مظهراً من مظاهر الاخلاص لله ، وتعبيراً دينياً يشرح عاطفة الاجلال لله تعالى : (أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر)[12] .

والزكاة ، وهى أن تؤخذ من مال الغنى للفقير ، وللصالح العام . ثم صوم رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا .

---

(11) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٣١) .
(12) الآية الكريمة من سورة العنكبوت (٢٩ : ٤٥) .

ولم يقتصر الاسلام على غرس هذه (العقائد) وتلك (الأعمال) ، بل أمر بالتمسك بالخلق الكريم : (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها)[١٣] و (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)[١٤] ، ووفاء بالوعد ، وصبر في الشدائد ، وعدل بين الناس ، وعفو عند المقدرة .

لقد هدم الاسلام الوحدة القبلية والوحدة الجنسية ، وعلم أن معتنقى الاسلام كلهم كتلة واحدة لاتفاضل بين أفرادها الا بطاعة الله وتنفيذ أوامره ، وحتّم الطاعة لله والطاعة للرسول ، والطاعة لأولى الأمر في الامة ، ما أطاع وليّ الأمر أوامر الله سبحانه وتعالى[١٥] .

وكانت للعرب مهارة في حرب العصابات والغارات ، ومهارة في استخدام السلاح والفروسية ، وكانت لهم قابلية متميزة على الحركة من مكان الى آخر بسهولة ويسر وسرعة وبأقل التكاليف الادارية .

فلما جاء الاسلام ، وحـّد عقيدتهم ، ووحـّد أعمالهم ، وجمع صفوفهم ، وظمهم ، وغرس فيهم الضبط والطاعة ، وطهر نفوسهم ، ونقى أرواحهم ، وأشاع فيهم انسجاماً مادياً ومعنوياً ، فأصبحت قوتهم المبعثرة ، وجهودهم المضاعة ، تعمل بنظام دقيق وضبط متين وطاعة مطلقة ، بقيادة واحدة لتحقيق هدف واحد ، وأصبح المؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها إخوة يتحابون بنور الله بينهم ، وهم أمة واحدة ، تحيتها السلام ، وغايتها السلام ، ودينها الاسلام .

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤم ألفين في عمرة القضاء التى كانت في شهر ذى الحجة من السنة السابعة الهجرية ، ومائة الف في حجة الوداع

---

(١٣) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٨٦) .
(١٤) الآية الكريمة من سورة النور (٢٤ : ٢٧) .
(١٥) فجر الاسلام (١/٨٨ ــ ٩٢) .

التى كانت في شهر ذى الحجة من السنة العاشرة الهجرية[١٦] ، يسيرون كلهم في نظام أدق نظام هرولة ومشياً واستلاماً للركن أو الحجر الأسود هذا النظام المتصل بروح الاسلام ، سبب من أسباب القوة ، بل هو مصدرها وملاكها ، وهذه الامامة ، بقيام رجل مطهر يؤمن أصحابه بصدقه ، هى روح هذه القوة وقوامها[١٧] .

ولقد بدأت منذ ظهور الاسلام الصلاة العامة ، ثم قامت صلاة الجماعة التى أداها المسلمون وراء امام واحد ، ومن يرى المسلمين وهم مجتمعون صفوفاً للصلاة ، يؤدون ركعاتها وسجداتها في تناسق مدهش وفي نظام ووقار ، لايمكن أن يغفل مالهذه الصلاة المنظمة من قيمة تربوية في نفوس المسلمين لغرض غرس النظام والضبط والطاعة .

ان العرب أباة لايخضعون لمشيئة خارجية ، ولكنهم كانوا يفتقرون الى الشعور التام بالضبط والنظام والطاعة ، فكانت لهذه الصلاة أهمية بالغة في (إيقاظ) روح النظام والضبط والطاعة في نفوس العرب المسلمين ، لذلك غدا مكان الصلاة أول ميدان حقيقى للتدريب العسكرى عند المسلمين ، ثم كان لهذا التدريب أثـره في تربيتهم على حب النظام والضبط والطاعة ، فأصبح فيهم على مر الأيام طبعاً ولم يبق تطبعاً .

ثم ان نظام المسلمين في الصلاة ، شجع روح الوحدة بينهم ، وخلق فيهم شعوراً بالمساواة التى كانت من الأفكار الجديدة على بلاد العرب ، اذ كانت الوحدة الموجودة حتى ذلك الوقت هي رابطة الدم ، كما أن المظاهر الرئيسة التى سادت حياة العرب إذ ذاك ، هي الافتخار بالاسرة والحسب والثراء ، وامتهان شأن الفقير وعديم الجاه ، لذلك فان النبي صلى الله عليه وسلم ، مهد السبيل لوحدة بلاد العرب المتنافرة ، عندما نجح في تدعيم الاتحاد الذي

---

(١٦) طبقات ابن سعد (١٧٢/٢) .
(١٧) في منزل الوحى ـ (١٠٥) ـ ط ٢ .

احتضن الفقير والغنى على أساس المساواة ، وعندما نجح كذلك في توجيه ضربة عنيفة الى العصبية القبلية والعائلية .

والى جانب الصلاة ، كانت فكرة المساواة الاجتماعية تجديداً تاماً أحدثه الاسلام ، فأصبحت مساعدة الفقير والقيام بأمره واجباً مقدساً ، ولم يعد من شأن الأفراد أن يعطوا كيفما شاءوا ، وانما غدت الزكاة فرضاً تجبى الى بيت المال وينفق منها على الفقراء[١٨] .

والحق أن الزكاة كانت وما تزال طفرة حاسمة الى الامام ، وحتى اليوم نجد أن الضرائب بمختلف أنواعها وأشكالها وغاياتها وأهدافها ، توضع على الأرباح وتعفى رأس المال ، أما الزكاة فلا تعفى رأس المال ، مع شمولها الأرباح أيضا[١٩] .

لقد وجد الاسلام ، بتعاليمه التى تغرس الطاعة والضبط والنظام في النفوس ، وتدعو الى توحيد الله وتوحيد الصفوف ، أرضاً خصبة في العرب ، الذين كانت لهم خبرة طويلة في الحروب ، والذين لا يهابون الموت ويتعشقون الحرية ، فكان من فضل الاسلام على العرب ، أنه جمع شملهم ووحّد صفوفهم وطهّر قلوبهم ، وأشاع في عقولهم الانسجام الفكري الذي بدونه يكون التعاون مستحيلاً ، كما غرس فيهم النظام والطاعة والضبط ، فأصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، أقوياء بعد ضعف ، موحدين بعد شرك ، موحدين بعد تفرق ، متعاونين بعد تقاطع ، يؤثرون المصلحة العامة على المصلحة الشخصية ، ومصلحة المسلمين على مصلحة القبائل ، بعيدين عن العصبية والتعصب ، أكرمهم عند الله أتقاهم لا أغناهم أو أقواهم أو أشرفهم حسباً ونسبا .

---

(١٨) الحضارة العربية ــ ى . هل ــ ترجمة د . ابراهيم العدوى (٢٣ ــ ٢٤) .
(١٩) الوسيط في رسالة المسجد العسكرية (٦٢) ــ ط ٧ .

لقد كانت العقيدة الاسلامية عقيدة منشئة بناءة ، وكان العرب هم الرواد الأولين لهذه العقيدة .

جـ ــ أثر الاسلام في العرب :

لاشك في أن تعاليم الاسلام ، رفعت المستوى العقلى للعرب الى درجة كبرى ، فهذه الصفات التى وصف الاسلام بها الله سبحانه وتعالى ، نقلتهم من عبادة أصنام وأوثان ، وما يقتضيه ذلك من انحطاط في النظر واسفاف في الفكر ، الى عبادة إله وراء المادة : (لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار[٢٠]).

وكان الاله عند أكثرهم إله فرد أو إله عائلة أو إله قبيلة ، وان اتسع سلطانه فإله قبائل أو إله العرب ، فإله الاسلام إله العالمين ومدبر الكون ، بيده كل شيء ، عالم بكل شيء ، فاستطاع العربي بهذه التعاليم أن يرقى الى فهم إله لامادة له ، واسع السلطان والعلم ، وأفهمهم الاسلام أن دينهم خير الأديان ، وأن العالم حولهم في ضلال ، وأن نبيهم نبي الناس جميعاً ، وأنهم ورثته في حمل دعوته الى الأمم ، فكان ذلك من البواعث لهم على حمل الدعوة للناس كافة وحماية حرية نشر الدعوة ، فمن دخل في دينهم كان كأحدهم ، له مالهم وعليه ماعليهم ، وما كان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك والأمراء في زمانه الا دعاة للاسلام ، مبشرين بتعاليمه .

وكان لعقيدة اليوم الآخر ودار الجزاء والجنة والنار ، أثر عظيم في بيع كثير منهم نفوسهم في سبيل الله ، حماية لحرية انتشار الدعوة ، ودفاعاً عن الاسلام والمسلمين : (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم)[٢١] .

---

(٢٠) الآية الكريمة من سورة الأنعام (٦ : ١٠٣) .
(٢١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ١١١) .

وكان للاسلام أثر كبير في تغيير قيمة الأشياء والاخلاق في نظر العرب ، فارتفعت قيمة أشياء ، وانخفضت قيمة أخرى ، وأصبحت مقومات الحياة في نظرهم غيرها بالامس .

ان الاسلام رسم مثلاً أعلى للانسان غير المثل الأعلى للحياة في الجاهلية ، وهذان المثلان لايتشابهان وكثيراً مايتناقضان ، فالشجاعة والكرم الى حد الاسراف ، والشهامة التى لاحد لها ، والاخلاص التام للقبيلة ، والقسوة في الانتقام ، والاخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل ، هذه التى كانت أصول الفضائل عند العرب الوثنيين ، أصبحت في الاسلام الخضوع لله ، والانقياد لأمره ، والصبر ، واخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين ، والقناعة ، وعدم التفاخر والتكاثر ، وتجنب الكبر والعظمة ، هى المثل الاعلى للمسلم في الحياة[٢٢] .

ان الاسلام عقيدة وعملاً وتشريعاً ومثلاً عليا ، صهر نفسية العربي المسلم ، ونفى عنها الخبث ، فأصبح لايكذب ولا يسرق ولا يزنى ولا يخون ولا يغش ولا يتجسس ، يخلص لعقيدته أكثر مما يخلص لنفسه وقبيلته ، ويطيع أوامر الله ورسوله وأولى الأمر ما أطاعوا الله ، وبذلك أصبح فرداً مفيداً باع نفسه لله إخلاصاً لعقيدته .

هذا العربي المسلم ، بهذه السجايا النادرة ، أصبح بدون شك عنصراً مفيداً كل الفائدة لتكوين أمة صالحة : تعبد رباً واحداً ، وتعمل بانسجام وتعاون ونكران ذات ، لتحقيق هدف واحد ، هو أن تكون كلمة الله هى العليا .

لقد تصرف العربي المسلم ـ فردا ، بعد اسلامه ، تصرفا لايزال يعتبر من الأعمال الفذة النادرة في مجال تصرف الأفراد في مختلف الملل والنحل والأجناس

---

(٢٢) فجر الاسلام (٩٣/١ ـ ٩٥) .

والألوان : تحمل التعذيب صابرا ، والموت راضيا ، وترك أهله وماله مهاجراً إلى الله ورسوله ، وضرب بمصلحة أهله الأقربين وعشيرته وقبيلته عرض الحائط حين تعارض مصلحة عقيدته العليا •

وتصرف العربي المسلم ضمن المجموع من أمته تصرفا لايزال يعتبر من الأعمال الفذة النادرة في مجال تصرف الأمم ، اندفع يجاهد في الله حق جهاده ، وحمى الدعوة وحرية نشرها بين الناس ، ودافع عن الارض والعرض والمال والنفس ، فخرجت القوة المؤمنة التى اختزنتها الصحراء عبر الاجيال ، تحمل رايات الاسلام وتبلغ دين الله عن أمره ، فتتابعت انتصاراتها الباهرة حين تمسكت بمبادىء الاسلام ، فلما تخلت عنها لم تنتصر أبدا •

وكما كان لها انتصاراتها في المجال العسكرى ، وفي المجال الادارى ، وفي المجال القضائى ، وفي المجال العلمى ، وفي المجال الاقتصادى ، وفي المجال الاجتماعي ، كان لها انتصاراتها في مجال السفراء أيضاً ، كما ذكرنا تفصيله في سير سفراء النبي صلى الله عليه وسلم •

وما كان انتصاراتهـا في شتى المجالات ، الا نتيجة من نتائج التربية الاسلامية ، وقد ذكرنا أثر العقيدة الاسلامية في التربية الاسلامية ، فلابد من ذكر أثر القدوة الحسنة في تلك التربية ، فأثرها بالغ الأهمية كما سيتضح لنا وشيكا •

لقد كان أثر العقيدة الاسلامية في سفراء النبي صلى الله عليه وسلم أثراً عظيما ، وسنرى تأثرهم بالقدوة الحسنة ، لاستكمال بنائهم وإعدادهـم للنهوض بمهماتهم في الدعوة إلى الله في محيط الملوك والأمراء ، وما أصعب أن يغير المرء عقيدته التى نشأ عليها ، وبخاصة اذا كان من الملوك والأمراء •

٣ ـ القدوة الحسنة

أ ـ في مكة المكرمة :

كان النبي صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة لأصحابه ، وكان المثال الشخصي لهم : يقتفون آثاره ، ويتأسّون بأعماله . اذ لاتأثير بكلام لم يمتلىء من نفس قائله ليكون عملا ، فيتحول في النفوس الأخرى عملا ولايبقى كلاما . ان التأثير في النفوس الأخرى لايكون بتأليف القول للسامع يسمعه ، ولكنه تأليف النفس لنفس أخرى تراها في كلامها ، فيكون هذا الكلام قرابة بين النفسين ، وقديما قالوا : «الكلام الخارج من القلب يؤثر في القلب ، والكلام الخارج من اللسان لايتجاوز الآذان» .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم من أقل الناس كلاما ، ولكنه كان اذا تكلم نطق قلبه ، واذا عمل نطقت جوارحه ، لذلك كان تأثيره هائلا في أصحابه ، وكان مثلهم الأعلى قولا وعملا وايمانا وخلقا ومعاملة واستقامة وشجاعة واقداما .

كان النبي صلى الله عليه وسلم من أشرف بيوتات قريش[٢٣] التي تعتبر من أشرف القبائل العربية على الاطلاق ، وكان رجال قريش يطلقون عليه لقب : الأمين ، قبل أن ينزل عليه الوحي[٢٤] .

وبُعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فبدأ يدعو الى الله سِرا ، ثم جهر بالدعوة ، فمشى رجال من أشراف قريش الى عمه أبي طالب ، يدعونه أن يكفه عنهم ، أو يخلي بينه وبينهم ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضى على

---

(٢٣) انظر نسبه في : سيرة ابن هشام (١/١) وطبقات ابن سعد (١/٥٥) وعيون الأثر (١ /٢١) وجوامع السيرة (٢) وجمهرة أنساب العرب (١٤ ــ ١٦) .

(٢٤) سيرة ابن هشام (١/٢١٤) .

ما هو عليه : يظهر دين الله ، ويدعو اليه[٢٥] .

ومشى أشراف قريش الى أبي طالب مرة أخرى . ولكن قناة النبي صلى الله عليه وسلم ما لانت للتهديد والوعيد ، وقال لعمه : «ياعم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته »[٢٦] .

وجعل رجال قريش يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموسم ، لايمر بهم أحد الا حذّروه اياه وذكروا له أمره[٢٧] .

وأغرى رجال قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون . ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لايستخفى به ، مُبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه اياهم على كفرهم .

وطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : «أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ ! » لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول : «نعم ، أنا الذي أقول ذلك» ، فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول : «أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله»[٢٨] .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فلم يلقه أحد من الناس الا كذّبه وآذاه ، فرجع الى منزله وتدثّر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله قوله في كتابه العزيز : (يا أيُّها المُدثّرُ ، قُم فأنذِر)[٢٩] .

---

(٢٥) سيرة ابن هشام (٢٧٦/١ — ٢٧٧) .
(٢٦) سيرة ابن هشام (٢٧٨/١) .
(٢٧) سيرة ابن هشام (٢٨٥/١) .
(٢٨) سيرة ابن هشام (٣٠٩/١ — ٣١١) .
(٢٩) سيرة ابن هشام (٣١١/١) ، والآية الكريمة من سورة المدثر (٧٤ : ١—٢) .

وذكر عبد الله بن مسعود قال : «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الحرام ، فقال أبو جَهل : ألا رجل يقوم الى هذا القذر يلقيه على محمد ؟ ، فانبعث رجل ، فألقاه عليه ، فجاءت فاطمة رضى الله عنها ، فألقته عنه »[٣٠] .

ومر أبو جَهل برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصَّفا[٣١] ، فآذاه وشتمه ونال منه بعض مايكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره[٣٢] .

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا ، وان النجاشي صاحب الحبشة قد منع من لجأ اليه منهم، وأن الاسلام جعل يفشو في القبائل ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المُطلب ، على ألا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، فكتبوا ذلك في الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم ، فاجتمع بنو هاشم وبنو المُطلِب الى أبى طالب ودخلوا معه في شِعبِه ، وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جَهدوا ، لايصل اليهم شيء الا سرا[٣٣] .

وكان نفر من قريش يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ، فكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يُصلي ، وكان أحدهم يطرحها في بُرمَته[٣٤] ، اذا نُصبت له ، حتى اتّخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرا

---

(٣٠) عيون الأثر (١/١٠٣) .

(٣١) عيون الأثر (١/١٠٤) ، والصفا والمروة : جبلان بين بطحاء مكة والمسجد ، اما الصفا ، فمكان مرتفع من جبل أبى قبيس ، بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادى ، ومن وقف بالصفا كان بحذاء الحجر الأسود ، والمشعر الحرام بين الصفا والمروة ، انظر معجم البلدان (٥/٣٦٥) .

(٣٢) عيون الأثر (١/١٠٤) .

(٣٣) سيرة ابن هشام (١/٣٧١ – ٣٧٦) وجوامع السيرة (٦٤) .

(٣٤) البرمة : بضم فسكون – القدر مطلقا ، وهى في الاصل التى تتخذ من الحجر المعروف بالحجاز واليمن .

يستتر به منهم اذا صلى ، فكانوا اذا طرحوا عليه الأذى يخرج به على العود . فيقف على بابه ، ثم يقول : «يا بني عبد مناف ! أي جوار هذا ؟! » ، ثم يلقيه في الطريق[٣٥] .

ومات أبو طالب ، وماتت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ، في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب : بموت خديجة، وكانت له وزير صدق على الاسلام ، يشكو اليها ، وكانت له زوجة صالحة على الخير ، يأوى الى حنانها ؛ وبموت عمه أبي طالب ، وكان له عضدا وحرزا ومَنَعَة وناصرا على قومه ، وكان موتهما قبل مهاجره الى المدينة المنورة بثلاث سنين . فلما توفي أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، فقامت اليه احدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : «لا تبكي لا بُنَيَّة ! فان الله مانع أباكِ »[٣٦] .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف يلتمس النصرة من ثَقيف والمَنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله عز وجل .وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف، فعمد الى نَفَر من ثَقيف وأشرافهم ، وجلس اليهم ودعاهم الى الله ، وكلمهم بما جاء له من نصرته على الاسلام والقيام معه على مَن خالفه من قومه ، فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه الى حائط لعُتبة بن ربيعة وشَيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، فعمد الى ظل شجرة العنب ، وجلس فيه يقول: «اللّهم اليك أشكو ضعف قوّتي وقِلة حيلتي وهواني

(٣٥) سيرة ابن هشام (٢/٢٥) .
(٣٦) سيرة ابن هشام (٢/٢٥ — ٢٦) .

على الناس ، يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، الى من تكلني ؟ الى بعيد تجهمني ؟ أم الى عدو ملكته أمري ؟ ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك ، لك العتبى[٣٧] حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » ، ثم انصرف من مدينة الطائف عائدا الى مكة المكرمة حين يئس من قبيلة ثقيف[٣٨] .

ثم كانت بيعة العقبة الأولى في السنة الحادية عشرة من النبوة[٣٩] ، وبيعة العقبة الثانية في السنة الثانية عشرة من النبوة[٤٠] ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى المدينة المنورة وقال : « ان الله عز وجل قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها» ، فخرجوا أرسالا ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة الى المدينة[٤١] .

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم في غير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم، وعرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم اذا خرج ، فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهم : « احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما

---

(٣٧) العتبى : الرضى .
(٣٨) سيرة ابن هشام (٢/٢٨ - ٣١) وعيون الأثر (١/١٣٤) وجوامع السيرة (٩٧) وانظر طبقات ابن سعد (١/٢١٠ - ٢١٢) .
(٣٩) البدء والتاريخ (٤/١٦٥) .
(٤٠) البدء والتاريخ (٤/١٦٥) .
(٤١) سيرة ابن هشام (٢/٧٦) .

أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله». وقال آخر: «نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فاذا أخرج عنا، فوالله لانبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، اذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت». وقال أبو جهل: «والله ان لي لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد... أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً فتى جليدا نسيبا وسيطا فتيّا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدون اليه فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل[٤٢] فعقلناه لهم»، فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون له[٤٣].

واجتمع الشباب الذين اختارهم أشراف قريش من القبائل لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم على بابه ليلاً، يرصدونه متى نام ليثبوا عليه، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه: «نم على فراشى، وتسَجّ ببردى هذا الحضرمى الأخضر، فنم فيه فإنّه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»[٤٤].

هنا تبدأ قصة من أجلّ ماعرف التاريخ من مغامرة في سبيل الحق والعقيدة والايمان قوة وروعة وشجاعة وإقداما.

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه قد أعد راحلتيه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكرٍ، وخرجا من خوخة[٤٥] لأبى بكر في ظهر بيته، ثمّ عمدا إلى غارٍ بجبل ثور أسفل مكّة، فدخلاه ليلاً، وأقاما به ثلاثاً.

---

(٤٢) العقل: الدية.
(٤٣) سيرة ابن هشام (٢/٩٢ – ٩٥).
(٤٤) سيرة ابن هشام (٢/٩٥) وطبقات ابن سعد (١/٢٢٧).
(٤٥) الخوخة: كوة في البيت تؤدى الى الضوء، وباب صغير وسط باب كبير نصب حاجزاً بين دارين.

وجعلت قريش حين فقدوه مائة ناقة لمن يردّه عليهم[٤٦] .

وطلبت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الطلب ، حتى انتهوا إلى باب الغار ، فقال بعضهم : « إنّ عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد »[٤٧] .

وفي الغار ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ، وكان أبو بكر خائفاً على النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان يقترب منه ويلصق نفسه به ، فيهمس النبي صلى الله عليه وسلم في أُذن أبي بكر الصديق : « لاتحزن ، إنّ الله معنا » . وحين شعر أبو بكر بدنو الباحثين عنهما قال هامساً : « لو نظر أحدهم تحت قدميه ، لأبصرنا » ، فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر ! ماظنّك باثنين ، الله ثالثهما ! »[٤٨] .

وخرجا بعد ثلاثة أيام من الغار ، حين عرفا أن قد سكن النّاس عنهما ، ولكن سراقة بن مالك بن جعشم[٤٩] علم بمكانهما ، فركب في أثرهما . فلما اقترب منهما ، عثر به فرسه ، وذهبت يداه في الأرض ، وسقط عنه ، فعرف سراقة حين رأى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد منع منه[٥٠] .

ب ـ في المدينة المنورة :

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهو لايملك فيها ديناراً ولا دارا ، فنزل ضيفاً على أبي أيوب الأنصاري[٥١] ستة أشهر[٥٢] ، حتى أنجز

---

(٤٦) سيرة ابن هشام (٢/٩٨ ـ ٩٩) .
(٤٧) طبقات ابن سعد (١/٢٢٨) .
(٤٨) طبقات ابن سعد (٣/١٧٣ ـ ١٧٤) .
(٤٩) انظر سيرته في : أسد الغابة (٢/٢٦٤ ـ ٢٦٦) والاصابة (٣/٦٩ ـ ٧٠) والاستيعاب (٢/٥٨١ ـ ٥٨٢) .
(٥٠) سيرة ابن هشام (٢/١٠٣) .
(٥١) انظر سيرته في : طبقات ابن سعد (٣/٤٨٤) واسد الغابة (٥/١٤٣) والاصابة (٢/٨٩) والاستيعاب (٤/١٦٠٦) والاستبصار (٦٩) وتهذيب الاسماء واللغات (٢/١٧٧) .
(٥٢) عيون الأثر (١/١٩٥) .

بناء مسجده ومساكنه ، وعمل في المسجد ليرغب المسلمين في العمل[٥٣] ، وجعل ينقل الحجارة بنفسه[٥٤] ، فتم ببناء المسجد الثكنة الأولى في الاسلام .

ولكي يتفرغ لقتال قريش دون أن تقلقه الجبهة الداخلية في المدينة المنورة ، كتب كتاباً بين المسلمين من جهة وبين يهود المدينة من جهة ثانية : وادعهم فيه وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم[٥٥] ، وقد نصت تلك المعاهدة بصراحة على : « أنه لا يجوز لمشرك من أهـل المدينة ، أن يجير مالاً لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونـه على مؤمن »[٥٦] ، فاستطاع الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام بهذه المعاهدة ، أن يجعل أهل المدينة جميعاً على اختلاف أديانهم يدا واحدة على أعدائهم[٥٧] ، وبخاصة على قومه قريش .

ولم يكـد يستقر في المدينة ، إلا نصبت أحبار يهود العداوة لـه بغيا وحسداً وضغنا ، وأضاف اليهم[٥٨] رجال من الأوس والخزرج كانوا أهل نفاق ، فظهروا بالاسلام واتخذوه جنة[٥٩] من القتل ، ونافقوا في السر ، وكان هواهم مع يهود ، لتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وجحودهم الاسلام[٦٠]

وذهب يهود إلى أبعد من ذلك ، فحاولوا الوقيعة بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد جمع الأوس والخزرج مجلس واحد يتحدثون ،

---

(٥٣) سيرة ابن هشام (١١٤/٢) والسيرة الحلبية (٧٦/٢) .
(٥٤) طبقات ابن سعد (٢٤٠/١) .
(٥٥) انظر نص المعاهدة في : سيرة ابن هشام (١١٩/٢ ــ ١٢٣) وسرح العيون (١٩٧ ــ ١٩٨) .
(٥٦) سيرة ابن هشام (١٢١/٢) .
(٥٧) الرسول القائد (٦٠) ــ ط ٣ .
(٥٨) وأضاف اليهم : يريد انه اخذ ما اخذوا به من الحسد والبغض والعداوة .
(٥٩) الجنة : وقاية يجتنون بها ، أي يستترون .
(٦٠) سيرة ابن هشام (١٣٥/٢) .

فغاظ أحد يهود مارآه من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فأمر هذا اليهودى أحد شباب يهود وقال : « اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم (بعاث)[61] وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما تقاولوا فيه من الاشعار ، وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، فتكلم القوم عند ذاك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب ، وغضب الفريقان معاً ، وقالوا : موعدكم الظاهرة[62] ...... السلاح .... السلاح » ، وخرجوا إليها . وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم ، فقال : « يامعشر المسلمين ! الله الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للاسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألّف به بين قلوبكم ؟ ! » ، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، فأنزل الله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم)[63] .

بل ذهبت يهود الى أبعد من ذلك كثيراً ، فحاولت اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج الى يهود بنى النضير يستعينهم في دية رجلين قتلهما

---

(٦١) يوم بعاث : انظر تفاصيل هذا اليوم في كتاب : أيام العرب في الجاهلية (٧٣ ــ ٨٤) ، وهو بين الاوس والخزرج في الجاهلية ، وكانوا في مدينة يثرب .

(٦٢) الظاهرة : الحرة ــ حرة المدينة المنورة .

(٦٣) سيرة ابن هشام (٢/١٨٣ ــ ١٨٥) ، والآيتان الكريمتان من سورة آلعمران (٣ : ١٠٠ ــ ١٠١) انظر تفسيرهما في البغوى (٢/١٩٨ ــ ١٩٩) والكشاف (١/٣١٧) والبيضاوى (٢/٢٢) .

خطأً أحد المسلمين ، فاختلى بعضهم ببعض وقالوا : « لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن ، فمن رجل يظهر على هذا البيت ، فيطرح عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ » ، فقال أحدهم : « أنا » . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم انصرف عنهم[٦٤] ، قبل أن ينفذوا خطة اغتياله ، ففوّت عليهم تلك الفرصة .

وبدأ الصراع بين قوات المسلمين القليلة وقوات المشركين الكثيرة . وكانت قوات المسلمين قليلة بعددها وعددها ، قوية بايمانها وقيادتها ، فكان الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام هو الأسوة الحسنة للمؤمنين من أصحابه في الجهاد ، كما كان هو الأسوة الحسنة لهم في السلم .

كان عدد الذين شهدوا غزوة بدر الكبرى الحاسمة بضعة عشر وثلاثمائة رجل[٦٥]، وكان عدد الذين شهدها من المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً[٦٦]، وكان مع المسلمين سبعون بعيراً وفرسان[٦٧] ، وكان مع المشركين مئتا فرس وعدد ضخم من الابل ، وكان المسلمون حين خرجوا الى بدر تنقصهم الضروريات الادارية ، فدعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً : « اللهم انهم حفاة فاحملهم ، اللهم انهم عراة فاكسهم ، اللهم انهم جياع فأشبعهم »[٦٨] ، أما المشركون فكانوا في حالة ادارية متميزة .

ولكن الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ، قرر أن يخوض هذه المعركة الحاسمة على الرغم من تفوق المشركين على المسلمين بالعَدد والعُدد والقضايا الادارية .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدر تمام التقدير ، ويعرف

---

(٦٤) سيرة ابن هشام (١٩٢/٢) .
(٦٥) فتح الباري بشرح البخاري (٢٢٨/٧) وطبقات ابن سعد (١٩/٢) .
(٦٦) طبقات ابن سعد (١٥/٢) .
(٦٧) طبقات ابن سعد (١٤/٢) .
(٦٨) طبقات ابن سعد (٢٠/٢) .

تمام المعرفة ، ماذا يعنيه اندحار المسلمين في هذه الغزوة الحاسمة ، في هذا الصراع الحاسم بين عقيدتين ، لذلك دأب على مناشدة ربه ماوعده من النصر ، فيقول فيما كان يقول : « اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول : « يانبي الله ! بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ماوعدك »[٦٩] .

وخرج شيبة وعتبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ودعوا الى البراز ، فخرج اليهم ثلاثة من الانصار بنو عفراء : معاذ ومعوذ وعوف بنو الحارث ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون أول قتال لقى فيه المسلمون المشركين في الانصار ، وأحب أن تكون الشوكة ببنى عمه وقومه ، فقال : « يابنى هاشم ! قوموا قاتلوا بحقكم الذى بعث الله بـه نبيكم ، اذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله » ، فقام حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف[٧٠] ، وقاتلوا أولئك المشركين الثلاثة ، وبذلك استأثر النبي صلى الله عليه وسلم لأهله الأقربين بالخطر[٧١] فاستشهد يومئذ بسبب هذه المبارزة عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب[٧٢] .

ونزل النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه يباشر القتال ، ليضرب لأصحابه أروع الأمثال في الشجاعة والتضحية والفداء ، فقد شوهد في أثر المشركين مصلتا للسيف يتلو هذه الآية الكريمة : (سيهزم الجمع ويولون الدبر)[٧٣] . قال على بن أبى طالب رضى الله عنـه : « لما كان يوم بدر وحضر البأس ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من أشد الناس بأساً يومئذٍ ؛

---

(٦٩) سيرة ابن هشام (٢٦٧/٢) .
(٧٠) طبقات ابن سعد (١٧/٢) وعيون الاثر (٢٥٤/١) وسيرة ابن هشام ٢٦٥/٢) .
(٧١) الرسول القائد (١٠٠) .
(٧٢) طبقات ابن سعد (٥١/٣) والاصابة (٢١٠/٤) واسد الغابة (٣٥٧/٣) .
(٧٣) طبقات ابن سعد (١٧/٢) ، والآية الكريمة من سورة القمر (٥٤ : ٤٥) .

وما كان أحد أقرب الى المشركين منه »[٧٤] .

وفي غزوة أحد ، جرح وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه[٧٥] ، واستشهد عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه[٧٦] ، واستشهد سبعون من أصحابه[٧٧] .

وفي غزوة ذات الرقاع[٧٨] ، حاول رجل من غطفان أن يفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال هذا الرجل لقومه : « ألا أقتل لكم محمداً ؟ » ، قالوا : « بلى ، وكيف تقتله ؟ » ، قال : « أفتك بـه » . وأقبل الرجل الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم وهو جالس وسيفه في حجره ، فقال : « يامحمد ! أنظر الى سيفك هذا ؟ » ، قال : « نعم ! » ، فأخذه واستله وجعل يهزه ، ثم قال : « يامحمد ! أما تخافني ؟ ! » ، قال : « لا ،وما أخاف منك ! » ، قال : « أما تخافني وفي يدي السيف ! » ، قال : « لا ، يمنعني الله منك ! »[٧٩] .

وفي غزوة الخندق ، عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين في حفر الخندق ، لينشط المسلمين ، وكان ينقل التراب على كاهله حتى اغبر بطنه . وكان المشركون عشرة آلاف ، وكان المسلمون ثلاثة آلاف . وازداد موقف المسلمين خطراً بعد أن نقض يهود بني قريظة العهد ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الأنصار ، فقال : « انطلقوا حتى ننظر أحق مابلغنا

---

(٧٤) طبقات ابن سعد (٢٣/٢) .
(٧٥) شرح النووي على مسلم (٢٣٩/٤ – ٢٤٠) وفتح الباري بشرح البخاري (٢٨٦/٧) .
(٧٦) فتح الباري بشرح البخاري (٢٨٣/٧) وسيرة ابن هشام (١٥/٣) .
(٧٧) فتح الباري بشرح البخاري (٨٨/٧) .
(٧٨) قيل لها غزوة ذات الرقاع ، لانهم رقعوا فيها راياتهم ، وقد غزا النبي صلى الله عليه وسلم نجدا : بدا ببني محارب وبني ثعلبة من غطفان ، انظر سيرة ابن هشام (٢١٤/٣) .
(٧٩) سيرة ابن هشام (٢١٦/٣) .

عن هؤلاء القوم ؟ ! فان كان حقاً ، فالحنوا لى لحناً أعرفه ولاتفتوا في أعضاد الناس ، وان كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » ، فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث مابلغهم عنهم : نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : « من رسول الله ؟ ! لاعهد بيننا وبين محمد ولا عقد »[٨٠] .

ونجم النفاق ، وفشل الناس ، وعظم البلاء ، واشتد الخوف ، وخيف على الذرارى والنساء ، وكان المسلمون كما قال الله تبارك وتعالى : (إذْ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر)[٨١] . وكانت القضايا الادارية للمسلمين سيئة للغاية ، إذ لبثوا ثلاثة أيام لايذوقون ذواقا ، وكان بطن النبي صلى الله عليه وسلم معصوباً بحجرٍ[٨٢] من الجوع ، ومع ذلك صبر الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام صبراً لامثيل له في التاريخ كله ، وثبت ثباتاً عظيماً ، حتى انسحب المشركون يجرون أذيال الخزى والعار ، وحينذاك فقط قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، ونحن نسير إليهم »[٨٣] .

وفي غزوة بنى المصطلق من خزاعة ، حاول أحد المشركين اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد أدركته القائلة ، فنزل تحت شجرة واستظل بها ، وعلق سيفه . وتفرق الناس في الشجر يستظلون ، فأتاه أعرابى وهو نائم ، واخترط سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستيقظ والأعرابي على

---

(٨٠) طبقات ابن سعد (٦٦/٢) وسيرة ابن هشام (٢٣٥/٣) ، فالحنوا لي لحنا : أى قولوا قولا يخالف ظاهر الكلام معناه . وفت في عضده : اذا ضعفه واوهنه ، وانظر سيرة ابن هشام (٢٣٧/٣) ، وانظر حول نقله التراب ماجاء في فتح البارى بشرح البخارى (٣٠٨/٣) .

(٨١) طبقات ابن سعد (٦٧/٢) ، والآية الكريمة من سورة الاحزاب (٣٣ : ١٠) .

(٨٢) فتح البارى بشرح البخارى (٣٠٤/٧) .

(٨٣) فتح البارى بشرح البخارى (٣١١/٣) .

رأسه صلى الله عليه وسلم مخترطاً سيفه صلتاً ، فقال : «من يمنعك مني؟!» ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الله »[٨٤] .

وفي هذه الغزوة ، ازدحم أحد الأنصار بأحد المهاجرين على الماء ، فنادى الانصارى : « ياللانصار ! » ، ونادى القرشى : « يالقريش ! يالكنانة ! » ، فأقبلت قريش سراعاً ، وأقبلت الأوس والخزرج ، وشهروا السلاح ، فقال عبدالله بن أُبَيّ رأس المنافقين : «لئن رجعنا الى المدينة ، ليخرجن الاعز منها الأذل » ، ثم أقبل على من حضر من قومه فقال : « هذا ما فعلتم بأنفسكم ! » . وخرج من ساعته وتبعه الناس ، فتقدم عبدالله بن عبدالله بن أُبَي الناس حتى وقف لأبيه على الطريق ، فقال : « لا افارقك حتى تزعم أنك الذليل ومحمد العزيز » ، فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « دعه ، فلعمرى لنحسنن صحبته مادام بين أظهرنا »[٨٥] .

وحاول أبو سفيان بن حرب قبل إسلامه ، اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قال لنفر من قريش : ألا أحد يغتال محمداً ، فانه يمشى في الأسواق ؟ » ، فأتاه رجل من الأعراب ، فقال : « قد وجدت أجمع الرجال قلباً وأشده بطشاً وأسرعه شدا ، فان أنت قويتنى خرجت إليه حتى أغتاله ، ومعى خنجر مثل خافية النسر فأسوره[٨٦] ، ثم آخذ في عير وأسبق القوم عدواً ، فاننى هاد بالطريق خريت »[٨٧] ، قال : « أنت صاحبنا ! » ، فأعطاه بعيراً ونفقةً وقال : « إطْوِ أَمرك » . وخرج ليلاً ، فسار على راحلته خمساً وصبح المدينة صبح سادسه ، وأقبل يسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دل عليه ، فعقل راحلته ثم أقبل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

---

(٨٤) فتح البارى بشرح البخارى (٣/٣٣٣) .
(٨٥) طبقات ابن سعد (٢/٦٥) وسيرة ابن هشام (٣/٣٣٤ - ٣٣٦) .
(٨٦) أسوره : ابطش به .
(٨٧) الخريت : الدليل الحاذق بالدلالة .

في مسجد بني عبد الأشهل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن هذا ليريد غدراً ! » . وذهب الرجل ليحنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجذبه أحد الأنصار ، فاذا بالخنجر ، فسقط في يديه وقال : « دمي ! دمي ! » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصدقني ، ماأنت ! ؟ » ، قال : « وأنا آمن ؟ ! » ، قال : « نعم » ، فأخبره بأمره وما جعل له أبو سفيان بن حرب ، فخلى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم الرجل[٨٨] .

وفي غزوة الحديبية[٨٩] حين أراد النبي صلى الله عليه وسلم إبرام الهدنة بين المسلمين وبين قريش ، ضاق بعض المسلمين بأمر الهدنة ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « يارسول الله ! ألست برسول الله ؟ ! » ، قال : « بلى » ، قال : « أو لسنا بالمسلمين؟! » ، قال : « بلى » قال : « أوليسوا بالمشركين ؟! » ، قال : « بلى » ، فقال : « فعلام نعطى الدنية[٩٠] في ديننا؟! » ، فقال : « انا عبدالله ورسوله ، لن اخالف أمره ، ولن يضيعنى »[٩١] .

وكان مما أثار حفيظة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وغيره ، صبر النبي صلى الله عليه وسلم على سهيل بن عمرو أثناء كتابة العهد ، يقول : « أكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، فيقول سهيل : « أمسك ، لاأعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم » . ويقول صلى الله عليه وسلم : « أكتب :

---

(٨٨) طبقات ابن سعد (٢/٩٣ ــ ٩٤) .
(٨٩) الحديبية : قرية ليست بكبيرة ، بينها وبين مكة مرحلة واحدة ، وبينها وبين المدينة تسع مراحل ، ويقال : ان بعضها في الحل وبعضها في الحرم ، وسميت بذلك لبئر فيها تسمى : الحديبية .
(٩٠) الدنية : الذل والصغار ، يريد : لماذا تقبل من المشركين مايعتبر هواناً ومذلة ؟! .
(٩١) سيرة ابن هشام (٣/٣٦٥ ــ ٣٦٦) .

هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، سهيل بن عمرو » ، فيقول سهيل : « أمسك ، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك »(٩٢) .

وفي غزوة الفتح ، رأى المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة المكرمة ، ورأسه قد انحنى على رحله ، وبدا عليه التواضع الجم ، حتى كادت لحيته تمس واسطة راحلته خشوعا ، وترقرقت في عينيه الدموع تواضعاً وشكراً لله(٩٣) .

وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب الكعبة خطيباً ، فكان مما قاله : لا إله إلاّ الله وحده ، لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدميّ هاتين ، إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاج ... يامعشر قريش ! إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء : الناس من آدم ، وآدم من تراب : (يأأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم)(٩٤) ، يامعشر قريش ! ماترون أني فاعل بكم !؟ » ، قالوا : « خيراً . أخ كريم وابن أخٍ كريم » ، فقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »(٩٥) .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لما كان يوم الفتح ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، أرسل إلى صفوان بن امية بن خلف وإلى أبى سفيان بن حرب وإلى الحارث بن هشام ، فقلت : قد أمكن الله منهم ، أعرفهم بما صنعوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهم : مثلي ومثلكم كما قال يوسف

---

(٩٢) سيرة ابن هشام (٣/٣٦٦) .
(٩٣) الرسول القائد (٣٤٧) .
(٩٤) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٣) .
(٩٥) سيرة ابن هشام (٤/٣١ ــ ٣٢) .

لاخوته : (لاتثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين)[٩٦] .

وحين كان يطوف بالبيت الحرام ، أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتله ، فلما دنا منه قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « افضالة ؟! » ، قال : « نعم ، فضالة يارسول الله ! » ، قال : « ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟! » ، قال : « لاشيء ، كنت أذكر الله عز وجل » ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « استغفر الله » ، ثم وضع يده على صدر فضالة ، فكان فضالة يقول : « والله مارفع يده عن صدري ، حتى مامن خلق لله شيء أحب إليّ منه »[٩٧] .

وفي غزوة حنين ، انهزم المسلمون لايلوي أحد على أحد ، فانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمين ، ثم قال : «أين أيها الناس ؟! هلموا إليّ ، أنا رسول الله محمد بن عبدالله » ، وقد بقي نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته[٩٨] ، فأمر عمه العباس أن ينادي : « يامعشر الأنصار ! أصحاب السمرة ! يا أصحاب سورة البقرة ! » ، فأقبلوا كانهم الأبل اذا حنت علىأولادها ، يقولون : « يالبيك ! يالبيك ! » ، وحملوا على المشركين[٩٩] .

في ذلك الموقف العصيب الحرج للغاية ، أراد شيبة بن عثمان بن طلحة أن يغتال النبي صلى اللهعليهوسلم ! قال شيبة : «قلت اليوم أدرك ثأري ... اليوم أقتل محمداً ! فأدرت برسول ! صلى الله عليه وسلم لأقتله ، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي ، فلم أطق ذلك ، فعلمت أنه ممنوع وكان أبو شيبة قد قتل يوم احد[١٠٠] .

---

(٩٦) طبقات ابن سعد (٣/١٤١ - ١٤٢) والآية الكريمة من سورة يوسف (١٢ : ٩٢) .
(٩٧) سيرة ابن هشام (٤/٢٧) .
(٩٨) سيرة ابن هشام (٤/٧١ - ٧٢) .
(٩٩) طبقات ابن سعد (٣/١٥١) وسيرة ابن هشام (٤/٧٤) .
(١٠٠) سيرة ابن هشام (٤/٧٤) .

ويوم حنين أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم من غنائم حنين في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن للانصار منها شيء . ووجد هذا الحي من الانصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة[١٠١] ، وحتى قال قائلهم : « والله رسول الله صلى الله عليه وسلم حنّ الى قومه!! » .ودخل عليه سعد بن عبادة، فقال : «يا رسول الله! ان هذا الحي من الانصار قد وجدوا عليك في انفسهم. لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت : قسمت في قومك واعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يكُ في هذا الحي من الانصار منها شيء!» قال: «فأين أنت من ذلك؟!»، قال: «يا رسول الله ! ما أنا الا من قومى»، قال : « فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة »[١٠٢] .

وخرج سعد ، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : «يا معشر الانصار، ما قالة بلغتني عنكم وجِدَة[١٠٣] وجدتموها عليّ في أنفسكم ؟ ألم آتِكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة[١٠٤] فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم ؟! قالوا : « بلى ، الله ورسوله أمنّ[١٠٥] وأفضل » .

ثم قال : « ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ! » ، قالوا : «وبماذا نجيبك يا رسول الله ؟! لله وحده المن والفضل » . فقال : « أما والله لو شئتم لقلتم فلَصدقتم ! أتيتنا مُكَذَّبا فصدقناك، واستنصرتنا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك[١٠٦] ، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لُعاعة[١٠٧] من قد تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ؟! ألا ترضون يا معشر

---

(١٠١) القالة : الكلام الرديئ .
(١٠٢) الحظيرة : هى في الاصل ، مكان يتخذ للابل والغنم يمنعها الانفلات وهجمات اللصوص الوحوش .
(١٠٣) الجدة : الموجدة وهي الغضب .
(١٠٤) عالة : فقراء .
(١٠٥) امن : هو أفعل تفضيل من المنة ، وهى النعمة .
(١٠٦) آسيناك : اعطيناك حتى جعلناك كأحدنا .
(١٠٧) اللعاعة : بقلة حمراء ناعمة ، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها .

الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله الى رحالكم؟! فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا[١٠٨] وسلك الأنصار شِعباً لسلكت شِعبَ الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الانصار ، وأبناء أبناء الأنصار» ، فبكى القوم حتى أخضلوا[١٠٩] لحاهم ، وقالوا : « رضينا برسول الله قَسماً وحَظاً »[١١٠] .

جـ ـ في نفسه :

كانت غنائم يوم حُنَين أربعة وعشرين ألف بعير ، وأربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وستة آلاف نسمة من السبي[١١١] ، وقد أعاد النبي صلى الله عليه وسلم السبايا الى بني هوازن[١١٢] .

فهل أبقى النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه شيئا من هذا المال ؟ لقد قام يومئذٍ الى بعير ، فأخذ وَبرة من سنامه[١١٣] بين اصبعيه ، ثم رفعها وقال : «أيها الناس ! والله مالي من فَيئِكُم ولا هذه الوبرة الا الخُمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط[١١٤] والمخيط ، فإنّ الغلول[١١٥] يكون على أهله عارا ونارا وشَنارا[١١٦] يوم القيامة»[١١٧] .

---

(١٠٨) الشعب : الطريق بين جبلين .
(١٠٩) أخضلوا لحاهم : بلوها بالدموع . والغصن الخضل : هو الذى بله المطر .
(١١٠) سيرة ابن هشام (٤/١٤٧ ـ ١٤٨) وعيون الاثر (٢/١٩٤ ـ ١٩٥) والسيرة الحلبية (٣/١٤١ ـ ١٤٢) وفتح البارى بشرح البخارى (٨/٣٨ ـ ٤٤) .
(١١١) الرسول القائد (٣٦١ ـ ٣٦٢) .
(١١٢) سيرة ابن هشام (٤/١٣٥) .
(١١٣) السنام : اعلى ظهر البعير .
(١١٤) الخياط : الخيط .
(١١٥) الغلول : الخيانة في المغنم .
(١١٦) الشنار : الامر المشهور بالشنعة والقبح .
(١١٧) سيرة ابن هشام (٤/١٣٨ ـ ١٣٩) .

بل هل أبقى شيئا من ماله الخاص ؟!

كان النبي صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء ، وكان عامة خبزهم الشعير .

وفي يوم من الأيام ، جاءت فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم بكسرة خبز ، فقال : «ماهذه الكسرة يا فاطمة ؟» ، قالت : «قرص خبزته ، فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة» ، فقال : «أما انه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام !! » .

وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : «ما شبع آل محمد غداء وعشاء من خبز الشعير ثلاثة أيام متتابعات ، حتى لحق بالله» .

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام ، وانها لتسعة أبيات» ، وما قالها استقلالا لرزق الله ، ولكن أراد أن تتأسّى به أمّته .

وقال عبدالله بن العباس رضي الله عنهما : «والله لقد كان يأتي على آل محمد صلى الله عليه وسلم الليالي ، ما يجدون فيها عشاء» .

وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : «ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم مرتين حتى لحق بالله ، ولا رفعنا له فضل طعام عن شبع حتى لحق بالله ، الا أن نرفعه لغائب» .

وقالت : «كان لنا جيران من الأنصار ، لهم ربائب يسقوننا من لبنها ، جزاهم الله خيرا» .

وقالت : «ان آل محمد لم يشبعوا ثلاثة أيام متوالية من طعام بُرّ ، حتى مضى النبي صلى الله عليه وسلم لسبيله» .

وقالت : «والله ،لقد كان يأتي على آل محمد صلى الله عليه وسلم شهر لا نخبز فيه» .

وقالت : «لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما شبع من خبز وزيت في يوم مرتين » .

وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودرعه مرهونة عند رجل من يهود بوسق من شعير .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : «ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يجوع» ، فقيل له : «وكيف ذلك الجوع ؟!» فقال : « لكثرة مَن يغشاه وأضيافه ، وقوم يلزمونه لذلك ، فلا يأكل طعاما أبدا الا ومعه أصحابه وأهل الحاجة يتتبعون من المسجد» .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه : حسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه ، وأن كان لا محالة ، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه »(١١٨) .

انه لم يستقر في قلبه العظيم ، ما يجعل للدينار معنى الدينار ، ولا للدرهم معنى الدرهم ، ان فقره صلى الله عليه وسلم كان ، من أنه كان يتّسع في الكون لا في المال .

انه يُفهم من فقر النبي صلى الله عليه وسلم ، أن الشهوات خُلقت مع الانسان تتحكم فيه ، ولكنه كان يتحكم فيها ولا تتحكم فيه ، وأن الانسان العاقل يجب أن يكون ذا روح تمتد فتفيض عن غايات جسمه الى ما هو أعلى فأعلى ، حتى تُصبح من حكم النور وانطلاقه وحريته .

ان الفقر وما اليه ، والزُهد وما هو بسبيل منه ، والانصراف عن

---

(١١٨) الحديث رواه احمد بن حنبل والترمذي وابن ماجة والحاكم ، انظر : مختصر شرح الجامع الصفير للمناوى (٢/٢٥٩) ، وانظر ماجاء حول شدة العيش على رسول الله صلى الله عليه وسلم في : طبقات ابن سعد (١/٤٠٠ – ٤١٠) .

الشهوات والرذائل ، كل ذلك ان هو الا تراجع النفس العالية الى ذاتها النورانيـــة .

هذا هو سيد الأمة ، يُمسكه في الحياة نبيا عظيما : ما يُخرج غيره منها ذليلا محتقرا ، وكأنما أشرق وصفاء نفسه على تراب الأرض ، فرده أشعة ونورا[119] .

لم يفكر أبدا بنفسه ، كما لم يفكر أبدا بأهله ، يُسبغ عليهم هذا الترف الذي يشيع بين ذوي الجاه والسُّلطان ، وحين نصره الله ورد عنه الأحزاب . وفتح عليه قُرَيظة والنضير ، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس يهود وذخائرهم. وكُنَّ تسع نسوة قعدن حوله وقلن : «يا رسول الله ! بنات كسرى وقيصر في الحُلي والحُلَل والإماء والخَوَل ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق». وآلمنَ قلبه بمطالبتهن له بتوسِعة الحال ، وأن يُعاملهن بما تُعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم ، فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن من تخييرهِنَّ في فراقه ، وذلك قوله : (يا أيها النبي قل لأزواجك ان كُنتُن تُردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن[120] سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فان الله أعد للمُحسنات منكن أجرا عظيما) [121] .

وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فقال لها : «اني ذاكر لك أمرا ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك »،

---

(١١٩) انظر ماجاء في مقال : سمو الفقر في المصلح الاجتماعى الاعظم ، الوارد في كتاب : وحى القلم ـ الاستاذ المرحوم مصطفى صادق الرافعى (٤٨/٢ ـ ٦٢) ـ ط ٨ ـ بيروت ـ بلا تاريخ .

(١٢٠) السراح : الطلاق . ومتعة الطلاق : ماتمطاه المطلقة ، وهو يختلف حسب السعة والاقتدار .

(١٢١) الايتان الكريمتان من سورة الاحزاب (٣٣ : ٢٨ ـ ٢٩) ، انظر تفسيرهما في تفسير ابن كثير (٥٣٨/٦ ـ ٥٤٢) وتفسير البغوى (٥٣٨/٦ ـ ٥٤٢) وتفسير الكشاف للزمخشرى (٤٢٩/٢) .

فقالت : «ماهو ؟ » ، فتلا عليها الآية ، فقالت : «أفيك أستأمر أبوي ؟! بل أختار الله تعالى ورسوله » .

ثم تتابعن كلهن على ذلك ، فسماهن الله : أمهات المؤمنين ، تعظيما لحقهن، وتأكيدا لحرمتهن ، وتفضيلا لهن على سائر النساء .

لقد أمره ربه أن يخيرهن جميعا في سراحهن ، فيكن كالنساء ويجدن ما شئن من دنيا المرأة ، وبين امساكهن فلا يكنّ معه الا في بيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدنيا وزينتها ، ولا تقتصر الآية الكريمة على نفي الدنيا وزينة الدنيا عنهن ، بل نفت الأمل في ذلك أيضا الى آخر الدهر ، وأماتت معناه في نفوسهن ، بقصر الارادة منهن على الثلاثة : الله في أمره ونهيه ، والرسول في شدائده ومكابدته ، والدار الآخرة في تكاليفها ومكارهها ، فليس هناك ظرف ولا رقة ولا عاطفة ولا سياسة لطبيعة المرأة ولا اعتبار لمزاجها ولا زلفى لأنوثتها ، بل هو تخيير بين ضدين لاتتلون بينهما حالة تكون منهما معا(١٣٢) .

وكما كان قدوة في تقشفه ، كان قدوة في خُلقه ومعاملاته ، وفي سيرته في بيته ومع أهله والناس .

وأخيرا مات النبي صلى الله عليه وسلم متأثراً بالسم ذى المفعول البطيء ، فقد أهدت امرأة يهودية من خيبر شاة مسمومة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأكل منها ، وأكل بعض من كان معه من أصحابه ، ومنهم بِشر بن البراء بن معرور ، فمات بِشر ، واحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم على كاهله من أجل الذي أكل ، وأمر أصحابه فاحتجموا أوساط رؤوسهم .

وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ثلاث سنين ، حتى كان

---

(١٣٢) انظر مقال : درس من النبوة للاستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتاب وحى القلم (٢/٦٤ ــ ٦٥) .

وجعه الذي قُبض فيه ، فجعل يقول في مرضه : «ما زلت أجد من الأكلة التي أكلتها يوم خيبر عدادا ، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري[١٢٣] » ، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيدا ، صلوات الله ورحمته وبركاته عليه[١٢٤].

لقد تحمّل التعذيب والأذى ، والتكذيب والمقاطعة ، والاضطهاد والمطاردة ، وهو الشريف الصادق الأمين الغني ، الذي كان بامكانه أن يعيش في رفاهية وعز وسؤدد .

واستهان بالوعد والوعيد والمال والمجد ، وصبر على شظف العيش والجوع والعري والمشقة ، وهو القوي الأمين ، السيد الثري ، الذي كان بامكانه أن يعيش مصانا مترفاً .

وقاتل قومه وقبيلته ، وعادى من عادى الاسلام ، وسالم من سالم الاسلام ، وعرض نفسه للقتل في ساحات الجهاد مجاهدا ، وخارج ساحات الجهاد داعيا ، وضحى بالأقربين من أهله وبنفسه ، وتحمل المسئوليات الجسام التي تنوء بها العُصبة القوية من أفذاذ الرجال ، واستأثر بنفسه لنفسه بالأخطار الفادحة ، وهو البر الرحيم الذي كان بامكانه أن يعيش مرفها مصانا بعيدا عن الأخطار .

انه كان تجسيدا حيا لتعاليم الاسلام عقيدة وتشريعا ومُثلا عُليا وعملا وتضحية وجهادا ، فهو الأسوة الحسنة للمسلمين في كل زمان ومكان : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) [١٢٥] .

---

(١٢٣) الابهر : عرق في الظهر . والعداد : يقال به مرض عداد ، يدعه زمنا ثم يعاوده .

(١٢٤) طبقات ابن سعد (٢/٢٠٢ – ٢٠٣) .

(١٢٥) الآية الكريمة من سورة الاحزاب (٣٣ : ٢١) .

انه كان مثالا حيا وبشرا سويا للخلق الكريم : (وانك لعلى خلق عظيم)[١٢٦] ، والاسلام في حقيقته وروحه عقيدة وعملا وتضحية وجهادا ، وكلها في جملتها وتفصيلها معنى من معاني الخلق الكريم .

أيبذل بشر من ذات نفسه ووقته وجهده مثل هذا البذل ؟! أيضحي انسان بماله ونفسه وأهله وقومه مثل هذه التضحية ؟! أيجاهد رجل بما يملك من مال ونفس وغال ورخيص مثل هذا الجهاد ؟! أيستطيع أحد أن يتحمل كل هذا البذل والتضحية والجهاد ؟!

وصدق الله العظيم : (الله أعلم حيث يجعل رسالته)[١٢٧] .

ان المرء حين يستمع الى مثل هذه (الأمثلة) الرائعة من بذله وتضحيته وجهاده ، يسمعها وهو مبهور الأنفاس ، يكاد يُصعق بروعتها وبهائها وجمالها وجلالها ، فكيف به لو استمع الى كل تفاصيل بذله وتضحيته وجهاده في سبيل الله ، لتكون كلمة الله هي العليا .

لقد تأسى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم به في حياته ، وبعد التحاقه بالرفيق الأعلى ، لذلك كان قرنه خير القرون ، وكان رجاله أعظم الرجال ورعا وخلقا وشجاعة واقداما ، فأصبحوا قدوة لمن حولهم من الناس ، كل حسب حاجاته وطاقاته ، ولا يُكلف الله نفسا الا وسعها .

ان القدوة الحسنة ، هي التي تؤثر في الانسان فتبنيه ، لأن القدوة عمل مخلص ينقلب في الآخرين عملا مخلصا ، ولا يبقى كلاما .

والذين يريدون أن يبنوا الانسان ، يجب أن يقدموا أعمالا باقية ، ليكونوا قدوة حسنة ، لا كلاما فارغا يتبدد ثم تذروه الرياح .

فلينظر الرعاة كيف يعملون .

---

(١٢٦) الآية الكريمة من سورة القلم (٦٨ : ٤) .
(١٢٧) الآية الكريمة من سورة الانعام (٦ : ١٢٤) .

٤ ـ اختيـار المسئولين

اختيار الرجل المناسب للعمل المنـاسب ، والمسؤول المنـاسب للواجب المناسب ، ليس سهلا ، وهو سر نجاح الحكام والمحكومين في الحياة العملية .

ليس سهلا ، لأن النفس الأمّارة بالسوء ـ الا من رحم ربك ـ تحول دون تولية من هو أفضل منها كفاية وعلما وخُلقـا ، وحتى خَلقـا في بعض الأحيان بالنسبة لبعض المسؤولين .

وهو سر نجاح الحكام والمحكومين ، لأن الحكام الصالحين هم الذين يقودون الى النصر في أيام الحرب ، والى التقـدم في أيـام السـلام ، ولأن المحكومين القادرين هم الذين يُعينون الحكام على احراز النصر في أيـام الحرب ، ويُعينونهم على التقدم والرُقي في أيام السلام .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مؤيدا من الله سبحانه وتعالى بالوحي، وكان لهذا التأييد أثر حاسم في توفيقه بشيرا ونذيرا ، ومشرعـا وقاضيـا ، وسياسيا واداريا ، وقائدا وجنديا ، ومعلما ومربيا ، وبشرا وانسانا .

وهذا التأييد الألهي ، لايمنع من أن تكون لكفاياته الشخصية أثر حاسم أيضا في توفيقه ، وهذه الكفايات هي القدوة الحسنة والأسوة والمثل ، التي باستطاعة المسلم أن يضعها نصب عينيه ، لأنها كفايات بشرية متميزة يمـكن الطموح في اقتفاء آثارها ما استطاع المُقتفي الى ذلك سبيلا .

أما التأييد الالهي بالوحي ، فيقتصر على الرسُل والانبياء وحدهم .

لقد وجدت بالدراسة المستفيضة الطويلة لسيرة النبي صلى الله عليـه وسلم ، والتفكير الطويل المتأني في أحداثها وحوادثها ، أن من ضمن كفاياتـه الفذة المتميزة ، قابليته النادرة على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسـب ، أو اختيار المسؤول المناسب للواجب المناسب .

ووجدت أن هذه القابلية التي التزم بها التزاما صارما في حياته المباركة، هي من أهم الأسباب (الدنيوية) لانتصاره في أيام الجهاد ، ونجاحه في أيام السلام .

كان عليه أفضل الصلاة والسلام ، يعرف أصحابه معرفة مفصلة ، وكان يعرف ما يتميز به كل صحابي من مزايا تفيد المجتمع الاسلامي الجديد ، وكان يسخّر تلك المزايا تسخيرا كاملا لخير ذلك المجتمع وللمصلحة العامة للمسلمين .

وكان في نفس الوقت ، يُدرك ما يعاني كل صحابي من أصحابه من مثالب ، وكان يتغاضى عن تلك المثالب ويغض الطرف عنها ، ويحاول تقويمها وتلافيها واصلاحها ، وكان يذكر أصحابه بأحسن ما فيهم من مزايا ويشيد بها ، ويأمر أصحابه أيضا بالتغاضي عن مثالب اخوانهم ، والاشادة بأحسن ما فيهم تقديرا واعجابا .

وكان عليه أفضل الصلاة والسلام ، بهذا السلوك الرائع الذي التزم به في كل حياته المباركة : يُشيد بالمزايا وينتفع بها لخير الاسلام والمسلمين ، ويغض الطرف عن المثالب ويقومها بالحُسنى ، ثم يداويها بما عُرف عنه من حكمة وموعظة حسنة وتشجيع وتربية مثالية .

بهذه الخطة الرائعة والطريقة السليمة والأسلوب الحصيف ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يبني الانسان المسلم ولا يحطمه ، ويقوّم المعوج ولا يكسره ، ويشيد للحاضر والمستقبل ، لا للحاضر وحده أو للساعة التي هو فيها .

لقد كان يعلم علم اليقين ، أن كل انسان يتّسم بمزايا حميدة مُعيّنة ، وفي نفس الوقت يُعاني من نواقص خاصة به، لأن الكمال لله وحده سبحانه وتعالى ، فكانت اشادته بالمزايا واشادة أصحابه بها ، تقوّي تلك المزايا وتشد أزرها . وكان اغضاؤه عن المثالب واغضاء أصحابه عنها ، وذكر أصحابها

باحسن ما فيهم من خصال ، يُقلل من أثر المثالب وتأثيرها ويستر عليها ، ويجعلها تتضاءل شيئا فشيئا ، حتى تتلاشى نهائيا ، أو يضعف أثرها وتأثيرها، وقد تنتهي الى الأبد .

وكان عليه الصلاة والسلام ، يدرك كل الادراك ، أن كل انسان لابد من أن يُعاني من نقص أو نواقص في ناحية من نواحيه الخُلقية — وكفى المرء نبلا أن تُعَد معايبُه — فكان يغض الطرف عن النقص أو النواقص في أصحابه ، ويستفيد لمصلحة الاسلام والمسلمين من ناحية الكمال ، فلا يكون ذلك النقص أو تلك النواقص سُبَّة أو مَثلبة ، لأنه كان يُبرز ناحية الكمال ويُنوّه بها وبصاحبها ويذكره بها ويُثنى عليه أعظم الثناء .

وكان لايبقى المزايا طاقات معطلة ، بل ينتفع بها لمصلحة الاسلام والمجتمع الاسلامى الجديد ، وهكذا تتضافر الطاقات المتميزة لشد أزر الامة وتقويتها ودفعها نحو النصر والبناء .

لقد كان من بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، من تميز بالثراء ، فأفاد المسلمون من ماله لأغراض الدعوة والجهاد ، ولمعاونة الفقراء والمحتاجين ، ولم يكلفه عليه الصلاة والسلام بمصاولة الصناديد والأبطال ، إذا لم يكن قادراً على خوض ميادين الجهاد .

وكان من بين أصحابه ، من تمييز بالقيادة العسكرية ، فولاه قيادة المجاهدين في السرايا والغزوات .

وكان من بين أصحابه من تميز بالشجاعة الفردية ، ولم تكن له قابلية قيادية ، فاستفاد منه في مبارزة الشجعان والأقران ، والنهوض بالواجبات الفدائية جندياً من جنود المسلمين ، دون أن يوليه القيادة .

وكان من بين أصحابه من تميز بالرأى السديد والتفكير العميق ، فأفاد منه عليه أفضل الصلاة والسلام في مجال الرأى والحكمة والشورى .

وكان من بين أصحابه من تميز بالقيادة الادارية ، فاستفاد منه في مجال الولاية على الأمصار .

وكان من بين أصحابه من تميز بالقيادة المالية ، فاستفاد منه في مجال جباية الأموال والسيطرة على الأمور المالية .

وكان من بين أصحابه من تميز بالقضاء بين الناس ، فاستفاد منه في المجال القضائى .

وكان من بين أصحابه من تميز بالتأثير في نفوس وعقول وقلوب الاخرين داعية إلى الله ، فأفاد منه في مجال الدعوة ، واتخذ من صفوتهم رسلاً إلى الملوك والأمراء .

وكان من بين أصحابه من تميز باتقان حفظ القرآن الكريم وترتيله وتفسيره ، فاستفاد منه في مجال تعليم القرآن الكريم وعلومه .

وكان من بين أصحابه من تميز بالفقه ، فاتخذ منهم معلمين للفقه الاسلامى وتعاليم الاسلام .

وكان من بين أصحابه من تميز بقول الشعر المتين ، فأفاد المسلمون من شعره وبيانه .

وكان من بين أصحابه من تميز بالخطابة ، فأفاد المسلمون من قابليته الخطابية .

وكان ..... وكان .....

كل تلك الكفايات المتميزة في الرجال ، استفاد منها المسلمون ، ولم تغمط كفاية ، ولم يهمل صاحب كفاية ، وبذل عليه الصلاة والسلام قصارى جهده لاضفاء التجربة العملية على تلك الكفايات .

ووضع عليه الصلاة والسلام ، كل رجل من ذوى الكفايات المتميزة ،

في المكان المناسب لكفايته ، وفسح له المجال لاضفاء التجربة العملية عليها .

سأل النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة في عمرة القضاء التي كانت في شهر ذى الحجة من السنة السابعة الهجرية الوليد بن الوليد المخزومي أخا خالد بن الوليد رضي الله عنهما قائلاً : « أين خالد ؟ » ، ثم قال : « ما مثل خالد من جهل الاسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين ، لكان خيراً له ، ولقدمناه على غيره » .

وكتب الوليد بن الوليد بذلك إلى أخيه خالد ، فكان ذلك سبب هجرته إلى المدينة المنورة وإعلان إسلامه .

وقدم خالد بن الوليد المدينة المنورة مهاجراً إلى الله ورسوله ، في أول يوم من صفر سنة ثمانٍ الهجرية .

قال خالد : « ..... فلما طلعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سلمت عليه بالنبوة ، فرد عليه الصلاة والسلام بوجه طلق ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألاّ يسلمك إلاّ إلى خير . وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلت : استغفر كل ماوضعت فيه من صد عن سبيل الله ! فقال : الاسلام يجبّ ماقبله[١٢٨] . قلت : يارسول الله ! على ذلك . قال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك .... فوالله ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما يجزئه»[١٢٩] .

وما يقال عن خالد ، يقال عن عمرو بن العاص أيضاً ، فقد ولاّه قيادة أصحابه في الجهاد بعد إسلامه مباشرة ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام عن خالد وعمرو لأصحابه الذين كانوا حوله حين قدما المدينة المنورة مسلمين :

---

(١٢٨) طبقات ابن سعد (٥٢/٤) و (٣٩٤/٧) .
(١٢٩) أسد الغابة (٣٨٢/٣) الاستيعاب (١٠٣٤/٣) .

« ألقت إليكم مكة أفلاذ كبدها »[130] .

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه غنياً ، فأفاد المسلمون من ثرائه : ابتاع للمسلمين مربداً[131] بعشرين ألفاً ، وابتاع للمسلمين بئر رومة[132] ، وجهز جيش العسرة الذى زحف شمالاً بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم لمواجهة جيش الروم في تبوك حتى مايفقد هذا الجيش عقالاً ولا خطاما[133] ، ولم نسمع أنّ الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام كلف عثمان بمنازلة الأقران يوم الطعان .

وكان حسان بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه شاعراً مجيداً ، فاستفاد المسلمون من قابليته الشعرية ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتركه مع النساء والأطفال والشيوخ العاجزين عن القتال ، عندما يتوجه للجهاد .

وكان كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدون من أشجع الشجعان ، ولكنهم بقوا جنوداً حسب في جيش المسلمين ، ولم يتولوا قيادة المجاهدين ، لانهم كانوا جنودا متميزين ولم يكونوا قادة متميزين .

وكان جميع المسلمين في حينه دعاة الى الله ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم اصطفى منهم رسله الى الملوك والأمراء في زمانه ، ولم يكلف بمثل هذا الواجب الحيوى غير المصطفين من الدعاة .

وكان من بين أصحابه عليه الصلاة والسلام ، من يحسن القراءة والكتابة ، فاختار منهم من جعله من كتّاب الوحى ومن كتّابه الى الملوك والامراء والى غيرهم من الناس .

---

(١٣٠) اسد الغابة (٣/٣٨٢) والاستيعاب (٣/١٠٣٤) .

(١٣١) المربد : موضع يجعل فيه التمر لينشف .

(١٣٢) بئر رومة : بئر في عقيق المدينة ، وهى من ضواحى المدينة المنورة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٤) .

(١٣٣) سنن النسائى (٢/١٢٤) وانظر حاشية السندى على النسائى على هامش سنن النسائى (٢/١٢٤) .

وكان من بينهم اداريون وجباة وقضاة ، فولى كل واحد منهم مايناسب قابلياته وكفاياته •

وقد سأله قسم من الصحابة أن يوليهم مناصب ادارية ، فرد الذين لايستطيعون النهوض بمثل هذا الواجب ، وذكـر لقسم منهم بصراحة تامة سبب عزوفه عن توليتهم •

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « دخلت أنا ورجلان من بنى عمى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أحد الرجلين : « يارسول الله ! أمّرنا على بعض ماولاك الله •••• وقال الاخر مثل ذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنّا لانولى هذا الامر أحدا سأله ، ولا أحداً حرص عليه » •

وطالب الولاية لايولّى •

وقال أبو ذر الغفارى رضى الله عنه : « يارسول الله ! ألا تستعملنى ؟! فضرب النبي صلى الله عليه وسـلم على منكبى ، ثم قال : يا أبا ذر ! انـك ضعيف ، وانها أمانة ، وانها يوم القيامة خزي وندامة ، الا الذى أخذهـا بحقها وأدى الذى عليها » •

ذلك هو رجل الدولة الحق ، لايولى أحداً سأله الولاية ، ولا أحداً حرص عليها ، ولا أحداً لايستحقها •

إنّه يوليها لمن يعتبر توليته تكليفاً لاتشريفاً ، ويكون قادراً على حملها ، لاقادرة على حمله •

وكان عليه الصلاة والسلام ، يتغاضى عن هنات المسلمين ، وحسبه أن ينتفع بمزاياهم لمصلحة الاسلام والمسلمين العليا ، فمزاياهم للمسلمين وهناتهم على أنفسهم •

قبل حركة جيش المسلمين بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم لفتح مكة

المكرمة(١٣٤) ، حرص عليه الصلاة والسلام على كتمان حركته من المدينة المنورة الى مكة المكرمة ، كما حرص على كتمان نياته في الفتح ، حتى يباغت قريشاً ويجبرها على الاستسلام دون اراقة دماء .

ولكن حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه ، كتب رسالة الى قريش ، وأعطاها امرأة كانت متوجهة الى مكة المكرمة ، أخبر بها قريشاً بنيات المسلمين في الحركة لفتح مكة .

وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الرسالة ، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام رضى الله عنهما ، ليدركا تلك المرأة التى تحمل تلك الرسالة ـ رسالة حاطب ـ فأدركاها في الطريق ، وأخذا منها تلك الرسالة التى كانت معها .

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم حاطباً يسأله : ماحمله على ذلك !؟ فقال حاطب : « يا رسول الله ! أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ماغيَّرت ولا بدلت ، ولكنني كنت امرأً ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم » ! فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « يا رسول الله ! دعنى فلأضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق » . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما إنّه قد صدقكم ، وما يدريك ؟! لعلّ الله قد اطلع على من شهد بدراً فقال : إعملوا ما شئتم » .

شفع لحاطب ماضيه الحافل بالجهاد ، فعفا النبي صلى الله عليه وسلم عنه ، وأمر أصحابه أن يذكروه بأفضل مافيه .

وعاش حاطب بعد ذلك في مجتمع الصحابة ، لايشنع عليه أحد ، ولا يذكره الناس إلاّ بالخير ، ولا يسمعونه إلاّ مايشتهى ، ولا يرددون عنه إلاّ أفضل مافيه من خصال .

---

(١٣٤) كان ذلك في شهر رمضان المبارك من السنة الثامنة الهجرية .

كانوا يقولون عنه حين يرونه أو حين يذكرونه : إنّه بدرى ... شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم .... وكفاه بذلك فخرا .

وبعد فتح مكة المكرمة ، أسلم عكرمة بن أبى جهل المخزومي(١٣٥) وحسن إسلامه ، ثم أصبح من أعاظم قادة الفتح الاسلامى المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

وكان أبوه من أشد الناس عداوةً للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين كافة وللدين الحنيف ، وقد لقى مصرعه في غزوة بدر الكبرى كما هو معروف ، فمات غير مأسوف عليه ، وتخلص المسلمون بموته من خصم لدود .

وكان الصحابة يذكرون أبا جهل بن هشام بما فيه ، فلما أسلم ابنه عكرمة وحسن إسلامه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لهم : « عكرمة يأتيكم ، فاذا رأيتموه فلا تسبوا أباه ، فان سب الميت يؤذي الحيّ » .

هكذا يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه الكرام ، بالكف عن سب أعدى أعداء الاسلام والمسلمين ، إكراماً لولده المسلم ، حتى لاتتأثر نفسية هذا الولد من أجل سب والده ، فتتعقد نفسيته ويضيق ذرعاً بالمجتمع الاسلامى الذى يعيش بين أفراده وجماعاته : له مالهم ، وعليه ماعليهم .

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يعرف حق المعرفة كل مزايا أصحابه ، فيفيد من تلك المزايا ويبرزها للعيان ، ويشجع أصحابها ويثنى عليهم أطيب الثناء .

وهو في الوقت نفسه ، يغض الطرف عن النواقص ويتستر عليها ، ويبذل جهده لاصلاحها ، والمهم ألاّ يذكرها ولا يرضى عن ذكرها ، بل يكتفى بذكر المزايا حسب ويأمر أصحابه بذكرها حسب أيضا .

---

(١٣٥) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (٨٥ ــ ٩٥) .

واستفادته من كل مزية ، لكل مسلم من أصحابه ، واستقطاب المزايا لبناء المجتمع الاسلامي ، فلا يضع لبنة إلا في مكانها اللائق بها والمناسب لها ، جعل هذا البناء يرتفع ويتعالى سليماً مرصوصاً يشد بعضه بعضا .

وكان ذلك سبباً من أهم أسباب انتصار النبي صلى الله عليه وسلم عسكرياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً وفي أيام السلام وأيام الحرب .

فلما التحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى ، كان بين المسلمين قادة وأمراء وولاة وقضاة وعلماء وفقهاء ومحدثون ومفسرون وسفراء وشعراء وخطباء ، قادوا الأمة عسكرياً وسياسياً وادارياً وفكرياً واقتصادياً واجتماعياً إلى المجد والسؤدد والنصر والتقدم والخير ، وإلى الفتح والتطور والتوفيق ، وإلى طريق الحق وسبيل الرشاد .

وكان أولئك القادة في شتى المجالات ، هم خريجي مدرسة النبي صلى الله عليه وسلم .

ذلك هو الدرس الذي يجب أن يتعلمه العرب والمسلمون في هذه الأيام وفي المستقبل أيضاً ، حكاماً ومحكومين ، وقادة وشعوبا : أن يبنوا الرجال ولا يحطموهم ، وأن يستفيدوا من الكفايات ولا يعطلوها ، وأن يبرزوا القدرات ولا يغمطوها ، وأن يضعوا الرجل المناسب في المكان المناسب .

والسؤال الآن : كيف يستطيع الحاكم أن يبني الكفايات ، ويضع الشخص المناسب في المنصب المناسب ؟ .

والجواب هو : ليس كل حاكم يستطيع أن يبني الكفايات ويستقطبها ويضعها في المكان المناسب .

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قمة من القمم السامقة ، نسياناً لذاته وتفكيراً في الاسلام والمسلمين ، وإخلاصاً لمصالح المسلمين العليا أفراداً وجماعات وأمة .

لذلك خرّج في مدرسته القيم من جميع أصناف الكفايات والقابليات القادرة على شغل مختلف المناصب والواجبات .

وليس ذلك بالأمر السهل ، بخاصة نسيان الذات من أجل المصلحة العامة ، فهو جدّ عسير بالنسبة للذين تأمروا من أجل مصالحهم ، لا من أجل مصالح الآخرين ، ومن أجل أنفسهم لامن أجل الأنفس الأخرى .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استعمل رجلاً[١٣٦] من عصابة[١٣٧] وفيهم مَنْ هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . عن عبدالله بن عباس ، وهو حديث صحيح[١٣٨] .

ذلك هو رجل الدولة ، وهذا هو بيانه للناس في سمة رجل الدولة . قاله عليه الصلاة والسلام ، في كلمات معدودات ، ولكنها تغني عن مؤلفات في مجلدات ، ولاعجب ، فقد اوتي جوامع الكلم .

إنّ الحاكم الذي يبني الرجال ، يولي المناصب أفضل من يستحقها . فيُشعِرُ المحكومين أنهم يحكمون من أقدرهم كفاية وتجربة ودينا ، ويشعرُ المحكومون أنهم يُحكَمون من أقدرهم وأحقهم بالحكم .

أما الحاكم الذي يحطم الرجال ، فيولي المناصب من لايستحقها ، ويُشعِرُ المحكومين أنهم يُحكَمون ممن لايستحقون الحكم .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا وُسِّدَ الأمر الى غير أهله، فانتظر الساعة »[١٣٩] ، لأن ذلك من أشراط الساعة ، ولأن ذلك هو الدليل على الخراب .

---

(١٣٦) امير أو عريف أو أمام ... الخ .

(١٣٧) عصابة : جماعة من الناس .

(١٣٨) رواه الحاكم في المستدرك ، انظر مختصر الجامع الصغير للمناوى (٢٧٨/٢) .

(١٣٩) وسد : اسند من امارة ــ قضاء ... الخ ، حديث صحيح عن ابى هريرة ، رواه البخارى ، انظر مختصر الجامع الصغير للمناوى (٥٨/١) .

سمات السفراء

١ ـ الاسلام والانتماء اليه

الداعي الأول الى الله تعالى ، هو رسوله محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام. قال تعالى : (يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهدا ومُبشّرا ونذيرا ، وداعيا الى الله بإذْنِه وسِراجا مُنيرا)[١] ، وقال تعالى : (وادعُ الى ربّك إنك لعلى هُدى مستقيم)[٢] ، وقال : (وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين)[٣] ، وقال تعالى : (قل : انما أمرت أن أعبد الله ولا أُشرك به ، اليه أدعو واليه مآب)[٤] ، وقد ظل عليه الصلاة والسلام يدعو الى ربه تبارك وتعالى حتى التحق بالرفيق الأعلى .

والدعوة الى الله هي وظيفة رسل الله جميعا ، ومن أجلها بعثهم الله تعالى الى الناس ، فكلهم بلا استثناء دعوا أقوامهم ومن أرسلوا اليهم الى الايمان بالله وحده وعبادته دون سواه .

والأمة الاسلامية شريكة لرسولها في وظيفة الدعوة الى الله ، قال تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)[٥] ، والمكلّف بالدعوة الى الله تعالى هو كل مسلم ومسلمة ، لأن الامة الاسلامية

---

(١) الآية الكريمة من سورة الاحزاب (٣٣ : ٤٦) .
(٢) الآية الكريمة من سورة الحج (٢٢ : ٦٧) .
(٣) الآية الكريمة من سورة القصص (٢٨ : ٨٧) .
(٤) الآية الكريمة من سورة الرعد (١٣ : ٣٦) .
(٥) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ١١٠) .

تتكون منهم ، فكل بالغ عاقل من الامة الاسلامية مكلف بهذا الواجب ذكرا كان أو أنثى ، فلا يختص العلماء بأصل هذا الواجب ، لأنه واجب على الجميع. وانما يختصون بتبليغ تفاصيله وأحكامه ومعـانيه ، نظرا لسـعة علمهم بـه ومعرفتهم بجزئياته • ويزيد الأمر وضوحا في أن المكلف بالدعوة الى الله تعالى هو كل مسلم ومسلمة ، هو قول الله تعالى : (قل : هذه سبيلي ، أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين)[٦] • فأتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، يدعون الى الله على بصيرة أي على علم ويقين ، كما كان رسولهم صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى الله على بصيرة ويقين • ومعنى ذلك أن من اللوازم الضرورية لإيمان المسلم أن يدعو الى الله ، فاذا تخلف عن الدعوة دل تخلفه هذا على وجود نقص أو خلل في ايمانه ، يجب تداركه بالقيام بهذا الواجب ، واجب الدعوة الى الله تعالى ، وفي الحديث الشريف الذي رواه الامام البخاري عن ابن عباس ، أن النبي صلى الله عليـه وسـلم قال : « فليُبلغ العلمَ الشاهدُ الغائبَ »[٧] •

والدعوة الى الله تعالى ، قد تؤدي بصورة جمـاعية ، قـال تعـالى : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون)[٨] ، والمقصود بهذه الآية أن تكون فرقة من هـذه الأمة متصدية للدعوة ، وان كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه •

وأسباب تكليف المسلم بالدعوة الى الله عز وجل ، هو أن الله تعـالى أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم الى الناس جميعا : (قل : يا أيهـا الناس اني رسول الله اليكم جميعا)[٩] ، ورسالته عليه الصلاة والسلام باقيـة

---

(٦) الآية الكريمة من سورة يوسف (١٢ : ١٠٨) .
(٧) صحيح البخارى (١/٦٢ – ٦٣) .
(٨) الآية الكريمة من سورة آل‌عمران (٣ : ١٠٤) .
(٩) الآية الكريمة من سورة الاعراف (٧ : ١٥٨) .

الى يوم الدين ، ومقصدها هداية الخلق أجمعين ، ولهذا كانت رسالته رحمة للعالمين : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[10] ، وكان المسلمون شهداء، على الناس ومبلغي رسالة الله تعالى اليهم بعد نبيهم : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)[11] .

كما أن بقاء الشرك والكفر في الارض ، يؤثر عاجلا أو آجلا في معاني الاسلام القائمة في أي جانب من جوانب الارض ، ولهذا يمنع الاسلام المسلم من البقاء في ديار الكفر ، ويأمره بالتحول الى ديار الاسلام ، لئلا يفتتن في دينه أو يمرض قلبه أو يسلب ايمانه ، قال تعالى : (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا فيما كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا)[12] ، وعلى هذا فقيام المسلم بدعوة أهل الشرك والكفر الى الله والى دينه يفيده ويقيه شرور الكفر .

والسبب الثالث ، هو دفع الهلاك والعذاب عن المسلمين ، قال تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب)[13] ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم ، فيعمهم العذاب ، أي يصيب الصالح والطالح» ؛ وروى الامام مسلم أن زينب بنت جحش سألت النبي صلى الله عليه وسلم : «يا رسول الله ! أنهلك وفينا الصالحون ؟! » ، قال : «نعم ، اذا كثر الخبث»[14] .

واذا تبين أن الدعوة الى الله واجب على كل مسلم ، فان هذا الواجب

---

(10) الآية الكريمة من سورة الأنبياء (٢١ : ١٠٧) .
(11) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢/١٤٣) .
(12) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٩٧) .
(13) الآية الكريمة من سورة الأنفال (٨ : ٢٥) .
(14) تفسير القرطبى (١/٣٩٠) .

يتحدد بقدر حال الداعي وقدرته ، لأن القدرة هي مناط الوجوب وقدره ، فمن لايقدر لايجب عليه ، ومن يقدر فالوجوب عليه بقدر قدرته ، ويدخل في مفهوم القدرة العلم والسلطان ، فيجب على العالم ما لا يجب على الجاهل ، ويجب على ذي السلطان ما لايجب على غيره من آحاد المسلمين • ولهذا فان الله سبحانه وتعالى خص بالانذار والوعيد أهل العلم ، وحذرهم من كتمان الحق الذي عرفوه • قال تعالى : (ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون• إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ،فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم)[١٥] •

والنوع الثاني من القدرة ، وهو السلطان والتمكين في الارض ، قال تعالى : (الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)[١٦] ، وقال المفسرون في المراد من أهل التمكين : الولاة ، ومنهم من أدخل فيهم العلماء[١٧] ، والأول أظهر • قال ابن تيميّة : «إنما نصب الامام ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهذا هو مقصود الولاية»[١٨] •

ومكانة الداعي الى الله في الاسلام مكانة عظيمة جدا ، قال تعالى : (ومَن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين)[١٩]•

واذا كان المسلمون كلهم دُعاة الى الله تعالى ، فرسل النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك والأمراء في زمانه هم صفوة الدعاة لأنهم يتميزون بسمات

---

(١٥) الآيتان الكريمتان من سورة البقرة (٢ : ١٥٩ — ١٦٠) •
(١٦) الآية الكريمة من سورة الحج (٢٢ : ٤١) •
(١٧) تفسير القرطبي (٢/٧٣) •
(١٨) السياسة الشرعية لابن تمية (٧٧) •
(١٩) الآية الكريمة من سورة فصلت (٤١ : ٣٣) •

خاصة تؤثر في الملوك والأمراء الذين يخشون على زوال سلطانهم اذا أسلموا ، والذين لايسهل اقناعهم كما يسهل اقناع غيرهم ، ويصعب لقاؤهم والحديث معهم ومناقشتهم كما يتيسر ذلك بالنسبة لغير ذوي السلطان من الناس .

وأول هذه السمات : الايمان العميق ، وهو يقين المسلم بأن الاسلام حق خالص ، لأنه هدى الله ، وما عداه باطل وضلال قطعا ، قال تعالى : (قل : ان هدى الله هو الهدى)[20] ، وايمانه العميق ثابت لايتزعزع مهما صادفته من محن وشدائد ، ومهما كان حال الكفر من قوة ومنعة .

ولا يضعف ايمان المؤمن الحق انصراف الناس عنه وعدم اجابتهم لـه ، كما لايدل انصراف الناس عنه أنه مقصر في دعوته ما دام قد أفرغ جهـده ، فالتقصير يُعرف ــ ان وجد ــ من قلة ما يقدمه الداعي للدعوة لا مـن عدم اجابة المدعو [21] .

وإيمان الصحابة رضوان الله عليهم ايمان عميق ، وولاؤهم للاسـلام مضرب الأمثال ، يكفي أن نذكر أن ثمانين بالمئة من الصحابة استشهدوا ، فقد قضى الاسلام في أيامهم على العصبية القبلـية والجنسية وأصبح الولاء للاسلام وحده ، كما كان الانتماء الكامل للاسلام وحده لا الى غـيره مـن أواصر النسب والقربى والدم والمكان ، وكان سفراء النبي صلى الله عليـه وسلم من جملة أصحابه ، فهم مثلهم في عمق ايمانهم ، وولائهم للاسلام وحده ، وانتمائهم لهذا الدين دون سواه .

والذي أردت أن أنص عليه هنا، هو أن من أول سمات السفيرالمسلم، هو الايمان العميق بالاسلام ، والولاء المطلق له ، والانتماء اليه وحده لا الى غيره،

---

(20) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ١٢٠) .
(21) أصول الدعوة ــ د. عبد الكريـم زيـدان ــ (٢٩٧ ــ ٢٢٠) ــ ط٣ ــ بغداد ــ ١٣٩٦هـ .

لكي لايتردى السفير في مزالق الانحراف ، لأنه بعيد عن العيـون ، يتعرض للاغراء المادي والمعنوي ، فيعف عن المغريات والانحراف في جميـع الظروف والأحوال •

٢ ـ الفصاحـة

كان عرب شبه الجزيرة العربية على عهد النبي صلى الله عليه وسلم معروفين بالفصاحة ، لأن اختلاطهم بالأعاجم كان قليلا جدا ، فحافظوا على سلامة لغتهم العربية ، وكانت العربية الفُصحى هي السائدة ، وكان الخطأ في اللغة صرفـا ونحوا وبلاغة قليلا جدا ، وكان هذا الخطأ اذا وقع من العيوب التي تُعزى الى من يقع فيها بكثير من التقريع واللوم والتشنيع •

وكان أكثر القادرين من العرب ، يُرسلون أطفالهم الى البادية ، لتربيتهم في جو عربي خالص ، يتلقون فيه العربيـة الفصحى الخـالية من الشوائب والدخيل ، تلك العربية الفصحى الدارجة على ألسنة الأعراب •

وقد كان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم كلهم بدون استثناء ، من عرب شبه الجزيرة العربية المعروفين بالفصاحة : خمسة منهم من قريش قوم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم جعفر بن ابى طالب ، وعبدالله بن حُذافة السهمي القُرشي ، وسَليط بن عمرو العـامري القرشي ، وعمرو بن العـاص السهمي القرشي ، والمهاجر بن أبى أمية المخزومي القرشي • وكان حاطب بن أبى بَلتعة اللخمي ، وشجاع بن وهب الأسدي ، والعـلاء بن الحضرمي ، وأبو موسى الأشعري ، حلفاء قسم من بُيوتات قريش في مكة ، وقد نشأوا وعاشوا مـع قريش ، فهم من قريش بالولاء وباللغة • أما عمرو بن أمية الضمري ، فكان من بني ضمرة التي تقطن المنطقة الكائنة بين مكة والمدينة ، حول موقع بدر ، وكان كثير التردد على مكة ، وكان بنو ضَمرة معروفين بالفصاحة • أما دِحية ابن خليفة الكلبي ، فهو من قُضاعة المشهورة بالفصاحة ، وكان عمرو بن حزم الأنصاري من أهل المدينة ، ومن بني الخزرج الأنصار الذين عُرفوا بالفصاحة،

كما انه اختلط اختلاطا وثيقا بالمهاجرين وأكثرهم من قريش ، فأصبح أكثر فصاحة وأقرب الى لهجة قريش المتميزة بالفصاحة العالية .

أما جرير بن عبدالله البجلي والحارث بن عُمير الأزدي ، فهما يمانيان ، والحكمة يمانية ، والفصاحة يمانية ، وكان أهل اليمن ولا يزالون يهتمون بالفصاحة اهتماما لايقل عن اهتمام قريش خاصة والعرب عامة بها ، ونبغ من أهل اليمن فصحاء لا يُعدون ولا يُحصون .

من هذا المجتمع العربي الأصيل ، المتميز بالفصاحة ، اختار النبي صلى الله عليه وسلم سفراءه ، من الذين برزوا في مجتمعهم بفصاحتهم ، فهذا المجتمع الفصيح ، يتفاوت في فصاحة أفراده ، فليس كلهم في الفصاحة سواء ، فكان السفراء النبويون قمة الفصاحة وقمة الفصحاء ، لأنهم خيار من خيار ، وصفوة في الفصاحة والبيان .

ولعل في دراسة حياة سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، مايدل على ذلك ، ويشير اليه ، ويثبته بالدليل القاطع ، الظاهر بوضوح في أقوالهم ومناقشاتهم وأسلوب عرضهم للمهمة التي جاءوا من أجلها ، وفي طريقة الدعوة الى الله تعالى والى الاسلام ، وبالرد على المعترضين ، ومدافعة المنحرفين ومحاورة المتشككين . وعَرضُ كل هذه الأمور على الملوك والأمراء ، بحاجة الى فصاحة والى فصيح .

وليس بالامكان ذكر أمثلة من فصاحة سفراء النبي صلى الله عليه وسلم كافة ، فقد ذكرنا مافيه الكفاية في الحديث على سيرهم ، وقد يكفي ذكر نماذج قليلة منها ، ومن يهفو الى التفصيل ، فله أن يرجع الى سيرهم المفصلة الواردة في هذا الكتاب* ان أراد ، أو الى المصادر المعتمدة التي أشرت اليها في الحديث على سيرة كل سفير .

ولعل مناقشة جعفر بن أبى طالب في أرض الحبشة بحضور النجاشي ملك

(*) كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم (مخطوط) .

الحبشة ، لعمرو بن العاص سفير مشركي قريش الى النجاشي ، في الدفاع عن الاسلام ، وشرح مبادئه ، والذب عن المسلمين ، ما يمكن اعتباره من الأمثلة الرائعة على الفصاحة ، ولكن طول المناقشة يحول دون اعادة ذكرها في مثل هذا المكان .

ومن الأمثلة على فصاحة سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، ما كتبه عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب يصف له البحر : « اني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ان رَكَن[٢٢] خرّق القلوب ، وان تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلّة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق ، وان نجا برق »[٢٣] . وكان يقول : « لا سلطان الا بالرجال ، ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل»[٢٤] .

وقال معاوية بن أبي سفيان لعمرو بن العاص : «من أبلغ الناس ؟» ، فقال : «من كان رأيه ردا لهواه» ، فقال : «من أسخى الناس ؟» ، فقال : «من بذل دنياه في صلاح دينه» ، فقال : «من أشجع الناس ؟» قال : «من رد جهله بحلمه» . ومن غُرَر أقوال عمرو : «موت ألف من العلية، أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة» . وقال : «اذا أنا أفشيت سري الى صديقي فأذاعه ، فهو في حل » ، فقيل : وكيف ذلك ؟! فقال : « أنا كنت أحق بصيانته »[٢٥] .

وكان يقول : «ما استودعت رجلا سرا فأفشاه ، فلُمته ، لأني كنت

---

(٢٢) ركن : سكن .

(٢٣) البرق : الحيرة والدهش ، انظر الطبري (٢٥٨/٤ ـ ٢٥٩) وابن الأثير (٩٥/٣) ، وانظر العقد الفريد (٨٩/١) وعيون الأخبار (١٣٧/١) .

(٢٤) العقد الفريد (٣٣/١) .

(٢٥) زعماء الاسلام ـ د. حسن ابراهيم حسن (١٣٦) ، وانظر ماجاء في فصل : (من كلامه) من كتاب : ابن العاص ـ الاستاذ عباس محمود العقاد . والعلية : جمع العلي ، ويقال : هم علية القوم ، أي وجوه الناس .

أضيق صدرا منه حين استودعته اياه حتى أفشاه»[٢٦] .

وقال عمرو حين تحكم الحكمان في الفتنة الكبرى : أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص : «أكثروا الطعام ، فوالله ما بَطِنَ[٢٧] قوم قط الا فقدوا بعض عقولهم ، وما مضت عزمة رجل بات بطينا »[٢٨] .

وكان جرير بن عبدالله البجلي شاعرا خطيبا لَسِنا ، وقد قدم على عمرو ابن الخطاب رضي الله عنه ، من عند سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ، وكان سعد يومئذ على العراق ، فقال له عمر : «كيف تركت سعدا في ولايته ؟ » ، فقال : «تركته أكرم الناس مقدرة ، وأحسنهم معذرة ، هو كالأم البَرَّة ، يجمع لها كما تجمع الذرة [٢٩] ، مع أنه ميمون الأثر مرزوق الظفر ، أشد الناس عند البأس ، وأحب قريش الى الناس»[٣٠] .

قال عمر : «فأخبرني عن الناس» ، فقال : «كسهام الجعبة[٣١] ، منها القائم الرائش[٣٢] ومنها العَضِل[٣٣] الطائش ، وابن أبى وقاص ثِقافها[٣٤] ، يغمز عَضَلها ويقيم ميلها ، والله أعلم بالسرائر يا عمر !» . قال : «أخبرني عن اسلامهم» ، قال : «يُقيمون الصلاة لأوقاتها ، ويؤتون الطاعة لولاتها » ، فقال عمر : «الحمد لله ، اذا كانت الصلاة أوتيت الزكاة ، واذا كانت الطاعة كانت الجماعة» . وجرير هو القائل : «الخرس خير من الخلابة ،

---

(٢٦) عيون الأخبار (١/ ٤٠) والعقد الفريد (١/ ٦٥) .
(٢٧) البطنة : امتلاء البطن من الطعام ، ومن أمثالهم : « البطنة تذهب الفطنة » .
(٢٨) عيون الأخبار (٣/ ٢١٩) .
(٢٩) الذر : صغار النمل ، واحدته : ذرة .
(٣٠) الاستيعاب (١/ ٢٣٩) .
(٣١) الجعبة : وعاء السهام والنبال .
(٣٢) الرائش : ذو الريش ، اشارة الى كماله واستقامته .
(٣٣) العضل من السهام : المعوج .
(٣٤) الثقاف : اداة من خشب أو حديد تثقف بها الرماح لتستوى وتعتدل .

والبُكم خير من البذاء»[٣٥] .

وكان معاذ بن جبل بليغاً فصيحاً ، ومن نماذج أقواله ، إنّه كان إذا تهجد بالليل قال : « اللهم نامت العيون ، وغارت النجوم ، وأنت حيّ قيوم . اللهم طلبى الجنة بطيء ، وهروبي من النار ضعيف . اللهم اجعل لي عندك هدى ترده إليَّ يوم القيامة ، إنّك لاتخلف المعياد»[٣٦] . وقال لابنه : « يابني ! إذ صليت صلاة ، فصل صلاة مودع ، لاتظن أنك تعود اليها أبدا ، واعلم يابنى أنّ المؤمن يموت بين حسنتين : حسنة قدمها ، وحسنة أخرها » . وأتى رجل معاذاً ومعه أصحابه يسلمون عليه ويودعونه ، فقال : « إنى أوصيك بأمرين ، إنْ حفظتهما حفظت : أنّه لاغنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت الى نصيبك من الآخرة أفقر ، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، حتى تنتظمه لك انتظاما ، فتزول به معك اينما زلت »[٣٧] .

ومن أقوال أبى موسى الأشعريّ التى تدل على فصاحته قوله : « إنّ هذا القرآن كائن لكم أجرا ، وكائن عليكم وزرا ، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم القرآن ، فانه من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة ، ومن تبعه القرآن زج في قفاه فقذفه في النار »[٣٨] .

ووصفوا حديثه الحاسم الجازم في الفصاحة والعلم ، فقالوا : « ماكنا نشبه كلام أبى موسى إلاّ بالجزار الذي يُخطىء المِفصَل »[٣٩] .

لقد كان العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، يتميّزون بالفصاحة،

---

(٣٥) الخلابة : القول ، انظر الاستيعاب (١/٢٣٩) حول ماذكرته من نصوص .
(٣٦) حلية الأولياء (١/٢٣٣) واسد الغابة (٤/٣٧٧) .
(٣٧) حلية الأولياء (١/٢٣٤) .
(٣٨) صفوة الصفوة (١/٢٢٦) وانظر حلية الأولياء (١/٢٥٧) .
(٣٩) طبقات ابن سعد (٤/١١١) .

وكانوا يومئذٍ من قمم الفصاحة ، وكان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم في فصاحتهم قمة القمم .

٣ - العلـــم

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، هو المعلم الاول لأصحابه ، يعلمهم القرآن والسنة ويفقههم في الديـن ، ويكاد يعلمهم أدق تفاصيل حيـاتهم اليومية ، من آداب وسلوك ومعاملة وتصرف ، حتى غير حياتهم من حال إلى حال بشكل جذري إلى الأحسن والأفضل ، وحتى شمل التغيير الاجتماعي العرب المسلمين ، فاندثر المجتمع الجاهلي بينهم أو كاد ، وأصبح مجتمعاً إسلامياً له دينـه وخلقه ومثله العليـا وشريعته ونظامه وضبطه وانسجامه الفكري .

وكان اهتمام الاسلام بالعلم عظيماً ، والقرآن الكريم والسنة النبوية شاهدة على ذلك، وارتفعت نسبة الذين يقرأون ويكتبون في الاسلام عنهم في الجاهلية ارتفاعاً كبيرا ، وحسبنا أن نذكر الآية الكريمة : (قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟!)[٤٠] ، وكان تعداد شهداء القـراء في معركة اليمامة بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد من جهة والمرتدين من بنى حنيفة بقيادة مسيلمة الكذاب ، وهى التى جرت سنة إحدى عشرة الهجرية ، ثلاثمائة شهيد في رواية وخمسمائة شهيد في رواية أخرى من القراء[٤١] ، وكان عدد العرب الذين يقرأون ويكتبون في الجاهليـة قليلاً في أصقاعٍ ونادراً في أصقاع أُخرى .

وقد اختار النبي صلى الله عليه وسلم سفراءه إلى الملوك والأمراء في زمانه ، فهم من صفوة الصحابة في العلم ، إن لم يكونوا صفوة صفوتهم .

---

(٤٠) الآية الكريمة من سورة الزمر (٣٩ : ٩) .
(٤١) الطبرى (٥١٦/٢) وابن الأثير (١٤٠/٢) .

كان جعفر بن أبى طالب في أرض الحبشة ، فأرسلت قريش عمرو بن العاص إلى النجاشى ملك الحبشة لرد المسلمين المهاجرين من أرض الحبشة إلى مشركى قريش في مكة . وكلم عمرو النجاشى في المسلمين المهاجرين ، فأرسل النجاشى إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : « ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟» ، فأجابه جعفر : «أيها الملك كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام — وعدد عليه أمور الاسلام — فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من الله ، فعبدنا الله وحده لانشرك به شيئا ، وحرمنا ماحرم علينا ، وأحللنا ما أحَلّ لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا الا نظلم عندك ، أيها الملك ! » ، فقال النجاشي : « هل معك مما جاء به من الله شيء ؟ » ، فقرأ عليه صدراً من سورة : (كهيعص)[42] ، فبكى النجاشى حتى أخضلت[43] لحيته ، وبكت

(٤٢) هى سورة مريم ، سورة مكية ، الا آيتى (٥٨ و ٧١) فمدنيتان ، وآياتها (٩٨) آية ، نزلت بعد سورة فاطر ، ورقم السورة (١٩) .

(٤٣) اخضلت : ابتلت . وفي بعض النسخ : اخضل لحيته ، كما هو كذلك في النهاية لابن الاثير ، فاخضل على مثل هذا مثل اكرم ، ومعناها : بلها ،

أساقفته[٤٤] حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ماتلى عليهم[٤٥] .

ثم قال النجاشي : « إنّ هذا والذى جاء به عيسى ، ليخرج من مشكاة[٤٦] واحدة ، فلا والله لاأسلمهم إليكما ولايكادون » .

ولما خرج سفيرا قريش من النجاشي ، قال عمرو بن العاص : « والله لآتينه غداً عنهم ، أستأصل به خضراءهم »[٤٧] .

وغدا عمرو الى النجاشي من الغد ، فقال : « أيها الملك ! انهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيما ، فأرسل اليهم فسلهم عما يقولون فيه ! » .

وأرسل النجاشي الى المسلمين المهاجرين ليسألهم عن عيسى ، فلما دخلوا عليه قال لهم : « ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ » ، فقال جعفر : « نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول » ، فضرب النجاشي بيده الى الارض ، فأخذ عوداً منها ، ثم قال : « والله ماعدا عيسى بن مريم ماقلت هذا[٤٨] العود . اذهبوا فأنتم الآمنون ، من سبكم غرم ، ماأحب ان لى جبلاً من ذهب ، وأنى آذيت رجلاً منكم .... »[٤٩] .

وكان عمرو بن امية الضمرى ، من رواة حديث رسول الله صلى الله

=

ولحيته على هذا مفعول ، مثل قوله : أخضلوا مصاحفهم . تقول : اخضل المطر الأرض : اذا بلها .

(٤٤) الأساقفة : جمع أسقف ، وهو العالم في النصرانية .

(٤٥) سيرة ابن هشام (٣٥٨/١ ــ ٣٥٩) .

(٤٦) المشكاة : الثقب الذى يوضع فيه الفتيل والمصباح ، وهى الكوة غير النافذة .

(٤٧) استأصل خضراءهم : يعني جماعتهم ومعظمهم .

(٤٨) قال ابو ذر : « تقديره ماجاوز مقدار هذا العود ، او قدر هذا العود » اهـ .

(٤٩) سيرة ابن هشام (٣٦٠/١ ــ ٣٦١) وحلية الأولياء (١١٤/١ ــ ١١٦) ، وانظر عيون الأثر (١١٨/١ ــ ١١٩) .

عليه وسلم ، فقد روى عشرين حديثاً[٥٠] ، كما ان حديث دحية بن خليفة الكلبي في الصحيحين[٥١] : البخاري ومسلم .

وكان عمرو بن العاص عالماً من علماء الدين ، قدمه في العلم ، على الرغم من تأخر اسلامه ذكاؤه الخارق وحرصه الشديد على التعلّم من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العلماء ، واتقانه القراءة والكتابة ، وكان إتقانهما في أيامه نادراً في امة تفشت فيها الامية ، وكان عمرو أحد كتاب النبي صلى الله عليه وسلم[٥٢] .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم تسعة وثلاثين حديثاً[٥٣] في رواية ، وسبعة وثلاثين حديثاً[٥٤] في رواية أخرى ، اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة أحاديث ، ولمسلم حديثان وللبخاري بعض حديث[٥٥] .

وكان متفقها في الدين ، مجتهداً في الدين : اجتهد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، واجتهد بعد التحاقه بالرفيق الأعلى .

ومن اجتهاده على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ماروواه الامام أحمد ابن حنبل في مسنده، قال عمرو : « احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت ان اغتسلت أن أهلك ، فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح . فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرت ذلك لـه فقال : ياعمرو ! صليت بأصحابك وأنـت جُنُب ؟ ! فقلت : نعم يارسول الله ! اني

---

(٥٠) تهذيب الأسماء واللغات (٢٤/٢) وأسماء الصحابة الرواة ملحق بجوامع السيرة لابن حزم (٢٨٣) وخلاصة تذهيب الكمال (ص) .
(٥١) تهذيب الأسماء واللغات (١٨٥/١) .
(٥٢) العقد الفريد (١٦٨/٤) .
(٥٣) أسماء الصحابة الرواة ـ ملحق بجوامع السيرة (٢٨٠) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠) .
(٥٤) تهذيب الاسماء واللغات (٣١/٢) .
(٥٥) تهذيب الاسماء واللغات (٣١/٢) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠) .

احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إنْ أنا اغتسلت أن أهلك ، وذكرت قول الله عز وجل : (ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما)[٥٦] ، فتيمت ثم صليت ! فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا »[٥٧] ، وكان ذلك في سرية ذات السلاسل التى كان من جملة جنودها أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم[٥٨] .

وكان عمرو يقول : « عقلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل »[٥٩] .

أما اجتهاده بعد التحاق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، ففى سنة ثمانى عشرة الهجرية ، كان طاعون عمواس[٦٠] ، فلما اشتعل قام أبو عبيدة بن الجراح في الناس خطيباً ، فقال : « ايها الناس ! ان هذا الوجع رحمة بكم ودعوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ، وموت الصالحين قبلكم ، وان أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظّه » ، فطعن ، فمات . واستخلف على الناس معاذ بن جبل ، فقام خطيبا ، فقال مثل ما قال أبو عبيدة من قبله ، فطعن ابنه عبدالرحمن بن معاذ ، فمات . ثم قام معاذ فدعا به لنفسه ، فطعن في راحته ، فكان ينظر اليها ثم يقبل ظهر كفه ، ثم يقول : « ماأحب ان لى بمافيك شيئاً من الدنيا » . فلما مات معاذ ، استخلف على الناس عمرو بن العاص ، فقام خطيبا في الناس ، فقال : «ايها الناس ! ان هذا الوجع اذا وقع

---

(٥٦) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٢٩) .
(٥٧) انظر : مغازى الواقدى (٨٦٩/٢ - ٧٧٤) وطبقات ابن سعد (١٣١/٢) . وانظر حديث صلاة عمرو في مسند الامام احمد بن حنبل .
(٥٨) سيرة ابن هشام (٢٩٨/٤) والطبرى (٣٢/٣ - ٣٣) والمحبر (١٢١) وانساب الأشراف (٣٨٠/١ - ٣٨١) .
(٥٩) مسند الامام احمد بن حنبل (٢٠٣/٤) .
(٦٠) عمواس : هى كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس ، وهى على أربعة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٥/٦) .

فانما يشتعل اشتعال النار، فتجبّلوا[٦١] منه في الجبال » ، فقال أبو وائلة الهذلي[٦٢] : «كذبت ! والله لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت شر من حماري هذا »[٦٣] . فقال عمرو : « والله ماأرد عليك ماتقول ! وايم الله لانقيم عليه » ، ثم خرج وخرج الناس ، فتفرقوا ، ورفعه الله عنهم ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأي عمرو بن العاص ، فما كرهه[٦٤] .

وقد كان عمرو يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذ حكم الحاكم فاجتهد ، ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم واجتهد ثم أخطأ فله أجر »[٦٥] .

وعن عمرو بن العاص ، قال : «جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خصمان يختصمان ، فقال لعمرو : اقض بينهما يا عمرو . فقال : أنت أولى بذلك مني يارسول الله ! قال : وإن كان . قال : فإذا قضيت بينهما ، فمالي ؟ قال : إن أنت قضيت بينهما فأصبت القضاء ، فلك عشر حسنات ، وإن أنت اجتهدت فأخطأت فلك حسنة »[٦٦] ، وتكليفه بالقضاء من النبي صلى الله عليه وسلم وبحضرته ، دليل على متانته في الفقه وذكائه وحصافته .

وكان عمرو بن أصحاب الفُتيا من الصحابة[٦٧] ، وكفى بذلك دليلا على مبلغ علمه في الدين .

وقد وصفه رجل فقال : « صحبتُ عمرو بن العاص ، فما رأيت رجلا

---

(٦١) تجبل القوم : دخلوا في الجبل .
(٦٢) ابو وائلة الهذلي : انظر سيرته في : الاصابة (٢١١/٧ ــ ٢١٢) .
(٦٣) يريد انه كان كافراً ولم يسلم .
(٦٤) الطبري (٦١/٤ ــ ٦٢) .
(٦٥) مسند الامام احمد بن حنبل (٢٠٤/٤) .
(٦٦) مسند الامام احمد بن حنبل (٢٠٥/٤) .
(٦٧) اصحاب الفتيا من الصحابة ــ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ــ (٣٢٠) .

أبين قرآنا ولا أكرم خُلقا ، ولا أشبه سريرة بعلانية منه»[٦٨] .

وكان العلاء بن الحَضرمي من القلائل الذين يُحسنون القراءة والكتابة، فأصبح أحد كُتاب النبي صلى الله عليه وسلم [٦٩] ، كما ساعده ذلك على تعلم القرآن والسُنة والتفقه في الدين .

وكان جرير بن عبدالله البجلي محدِّثا عالما بأمور دينه فقيها ، روى مائة حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٧٠] ، اتفق البخاري ومُسلم على ثمانية ، وانفرد البخاري بحديث ومسلم بستة أحاديث[٧١] .

وكان مُعاذ بن جَبَل ممن يُفتى في المدينة ويُقتدى به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد ذلك[٧٢] ، وكان يُصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يجيء فيؤم قومه[٧٣] بني سَلِمَة من بني الخزرج من الأنصار ومن يُصلي معهم في مسجدهم .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : «جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة ، كلهم من الأنصار : أُبَيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد» ، رواه البخاري ومسلم[٧٤] .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ، قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خذوا القرآن من أربعة : عبدالله بن مسعود ، وسالم مولى

---

(٦٨) الاصابة (٥/٢) .
(٦٩) ابن الأثير (٣١٣/٢) والسيرة الحلبية (٣٦٤/٢) .
(٧٠) أسماء الصحابة الرواة ـ ملحق بجوامع السيرة (٢٧٨) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٦١) .
(٧١) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٦١) .
(٧٢) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٣٣٤/٢ ـ ٣٥٠) .
(٧٣) طبقات ابن سعد (٣٨٦/٣) والاستبصار (١٣٧) .
(٧٤) تهذيب الأسماء واللغات (٩٩/٢) والاصابة (١٠٦/٦) .

أبي حُذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأُبَيّ بن كعب»، رواه البخاري ومسلم[٧٥].

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مائة حديث وسبعة وخمسين حديثا . اتفق البخاري ومسلم على حديثين ، وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بحديث[٧٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرحم أمتي لأُمّتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ، وأشدهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرأهم أُبَيّ ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[٧٧] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعلم أمتي بالحلال والحرام . معاذ بن جبل »[٧٨] ، وقال «معاذ بن جبل أعلم الناس بحلال الله وحرامه»[٧٩].

وقال عليه الصلاة والسلام : «يأتي معاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء برتوة»[٨٠] ، الرتوة : رمية سهم ، وقيل : ميل ، وقيل مد البصر[٨١] .

---

(٧٥) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (٦٠/١) ، وانظر تهذيب الأسماء واللغات (٩٩/٢) وأسد الغابة (٣٧٨/٤) وأنساب الأشراف (٢٦٤/١) .

(٧٦) تهذيب الأسماء واللغات (٩٨/٢) ، وانظر تهذيب التهذيب (١٨٦/١٠ - ١٨٧) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣٧٩) .

(٧٧) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة بأسانيد صحيحة حسنة ، وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » ، انظر تهذيب الأسماء واللغات (٩٩/٤) .

(٧٨) طبقات ابن سعد (٣٤٧/٢) و (٨٥٦/٣) والاستبصار (٤٨) و (١٣٦) وتهذيب التهذيب (١٨٧/١٠) والبداية والنهاية (٩٥/٧) وحلية الأولياء (٢٢٨/١) .

(٧٩) حلية الأولياء (٢٢٨/١) .

(٨٠) طبقات ابن سعد (٣٤٧/٢) وأسد الغابة (٣٧٨/٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٩٩/٢) والاستبصار (١٣٦) وتهذيب التهذيب (١٨٧/١٠) وحلية الأولياء (٢٢٩/١) .

(٨١) انظر هامش أسد الغابة (٣٧٨/٤) نقلا عن النهاية لابن الأثير .

وقال عليه الصلاة والسلام : «معاذ بن جبل ، له نبذة بين يدى العلماء يوم القيامة»[٨٢] .

وخطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه في الجابية[٨٣] فقال : « من كان يريد أن يسأل عن الفقه ، فليأت معاذ بن جبل » . وكان عمر بن الخطاب يقول حين خرج معاذ الى الشام : « لقد اخل خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة الناس اليه ، فأبى علي" : وقال : رجل أراد وجهاً يريد الشهادة ، فلا أحبسه ! فقلت : والله ان الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه وفي بيته عظيم الغنى عن مصره » . وقال كعب بن مالك : « كان معاذ بن جبل يفتى بالمدينة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر » . وقال عمر بن الخطاب : « ان العلماء اذا حضروا يوم القيامة ، كان معاذ بن جبل بين أيديهم قذفة بحجر »[٨٤] .

وذكر أبو ادريس الخولانى ، أنه دخل مسجد دمشق ، فاذا فتى براق الثنايا ، واذا ناس معه اذا اختلفوا في شيء أسندوه اليه وصدروا عن رأيه ، فسألت عنه ، فقالوا : هذا معاذ بن جبل »[٨٥] .

وذكروا ان رجلا دخل مسجد حمص ، فاذا بحلقة فيهم رجل آدم[٨٦] جميل وضاح الثنايا ، وفي القوم من هو أسن منه ، وهم مقبلون عليه يستمعون حديثه ، فقال له الرجل : « من أنت ؟ » ، فقال : « معاذ بن جبل »[٨٧] .

---

(٨٢) طبقات ابن سعد (٣٤٧/٢) .
(٨٣) الجابية : قرية من اعمال دمشق ، من ناحية الجولان ، قرب مرج الصفر ، في شمالى حوران ، انظر التفاصيل معجم البلدان (٣٣/٣) .
(٨٤) طبقات ابن سعد (٣٤٨/٢) .
(٨٥) طبقات ابن سعد (٥٨٦/٣ - ٥٨٧) .
(٨٦) آدم : شديد السمرة .
(٨٧) طبقات ابن سعد (٥٨٧/٣) .

وذكر أبو مسلم الخولانى قال : « دخلت حمص ، فاذا فيه نحو من ثلاثين كهلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، واذا فيهم شاب أكحل العينين ، براق الثنايا ، لايتكلم ، فاذا امترى القوم بشيء ، أقبلوا عليه فسألوه فقلت لجليس لى : من هذا ؟ فقال : معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه ، فوقع في نفسى حبه ، فكنت معهم حتى تفرقوا » .

وقال عائذ الله بن عبدالله[88] : « دخلت المسجد يوماً مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول امرة عمر بن الخطاب ، فجلست مجلساً فيه بضع وثلاثون كلهم يذكرون حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي الحلقة فتى شاب شديد الادمة حلو المنطق وضيء وهو أشب القوم سناً ، فاذا اشتبه عليهم من أحاديث القوم شيء ، ردوه اليه فحدثهم ، لايحدثهم شيئاً الا أن يسألوه ، قلت : من أنت ياعبد الله ؟ فقال : معاذ بن جبل » .

وروى أيضاً : أنه دخل مسجد حمص ، فاذا أنا بفتى حوله الناس ، جعد[89] ، قطط[90] ، فاذا تكلم كأنما يخرج من فيه نور ولؤلؤ ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : معاذ بن جبل رضى الله عنه » .

وقال شهر بن حوشب : « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل ، نظروا إليه هيبة له »[91] .

وكان شعار معاذ في تعلم العلم وتعليمه ، كما كان يوصى به من حوله من العلماء والمتعلمين وسائر الناس : « خذ العلم أنّى أتاك »[92] .

---

(٨٨) عائذ الله بن عبدالله : هو ابو ادريس الخولانى ، انظر ترجمته في تاريخ دمشق لابن عساكر ــ تحقيق د. شكرى فيصل (٤٨٥ ــ ٤٩٧) .
(٨٩) جعد : يقال وجه جعد ، مستدير قليل اللحم .
(٩٠) قطط : يقال شعر قطط ، قصير جعد .
(٩١) انظر التفاصيل في حلية الأولياء (١/٢٣٠ ــ ٢٣١) .
(٩٢) طبقات ابن سعد (٢/٣٥٠) .

وقال رجل لمعاذ : « علّمني » ، قال : « وهل أنت مطيعي ؟! » ، قال : « إني على طاعتك لحريص » ، قال : « صم وأفطر ، وصل ونم ، واكتسب ولا تأثم ، ولا تموتن الا وانت مسلم ، واياك ودعوة المظلوم »[٩٣] .

وكان يحث على أخذ العلم من منابعه الأصيلة ، ومن العلماء الثقات ، وينهى عن الانحراف والبدع ، ومن أقواله في ذلك : « إنّ وراءكم فتناً يكثر فيه المال ، ويفتح فيها القرآن ، حتى يأخذه المؤمن والمنافق ، والرجل والمرأة ، والصغير والكبير ، والحر والعبد . فيوشك قائل أن يقول : ماللناس لايتبعوني وقد قرأت القرآن ! ماهم بمتبعي حتى ابتدع لهم غيره فاياكم وما يبتدع ، فان ما ابتدع ضلالة ، وأحذركم زيغة الحكيم ، فان الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق » ، فقيل له : «مايدريني رحمك الله ، أن الحكيم يقول كلمة الضلالة، وان المنافق يقول كلمة الحق ؟! » ، قال : « بلى ، اجتنب من كلام الحكيم المستهترات التي يقال : ماهذه ؟! ولا يثنيك ذلك عنه ، فانه لعله يرجع ويتبع الحق إذا سمعه ، فان على الحق نورا »[٩٤] ، فهو يريد من العلماء والمتعلمين أن يستعملوا عقولهم في تلقي العلم ، وألاّ يقاطعوا العالم إذا أخطأ مرّة ، بل عليهم أن يعينوه على العودة الى الصواب ، فلا يخسره العلم ، ولايخسره العلماء والمتعلمون .

وجاء أحد طلاب معاذ اليه ، فجعل يبكي ، فقال : « مايبكيك ؟! » ، قال : « والله ما أبكي لقرابة بيني وبينك ، ولا لدنيا كنت أصيبها منك ، ولكن كنت اصيب منك علماً ، فأخاف أن يكون قد انقطع » ، فقال معاذ : « فلا تبك ، فانه من يرد العلم والايمان ، يؤته الله تعالى كما آتى ابراهيم عليه

---

(٩٣) حلية الأولياء (١/٢٣٣) .

(٩٤) حلية الأولياء (٢٣٢ — ٢٣٣) ، وورد قول معاذ في روايتين : الأولى رواها ابو ادريس الخولاني ، والثانية رواها ابو يزيد الخولاني عن يزيد ابن عميرة ، والروايتان متقاربتان في المعنى ، مختلفتان قليلا في المبنى .

السلام ، ولم يكن يومئذ علم ولا ايمان »[٩٥] ، وهذا دليل على شدة تعلق طلابه به وحبهم له ، ودليل على اسداء النصح والتوجيه لهم بما يفيدهم في حياتهم العلمية والعملية أيضا .

وقال معاذ : « تعلّموا العلم ، فان تعلمه لله تعالى خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لايعلم صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لانه معالم الحلال والحرام ، ومنار أهل الجنة ، والانس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الاعداء ، والدين عند الاجلاء ، يرفع الله به أقواماً ، ويجعلهم في الخير قادة وأئمة ، تقتبس آثارهم ، ويقتدى بفعالهم ، وينتهى الى رأيهم . ترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم . يستغفر لهم كل رطب ويابس ، حتى الحيتان في البحر وهوامه ، وسباع الطير وأنعامه . لأنّ العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصباح الأبصار من الظلم ، يبلغ بالعلم منازل الأخيار ، والدرجة العليا في الدنيا والآخرة ، والتفكير فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام . به توصل الأرحام ، ويعرف الحلال من الحرام ، إمام العمال والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء »[٩٦] .

وعن معاذ رضى الله عنه قال : « تضديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف فقلت : يارسول الله ! أرنا شر الناس . فقال : سلوا عن الخير ولا تسألوا عن الشر ، شرار الناس شرار العلماء في الناس »[٩٧] ، رواه البزار عن معاذ[٩٨] .

وقال عمر بن الخطاب : « عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ، ولولا

---

(٩٥) حلية الأولياء (١/٢٣٤) .
(٩٦) رواه عن معاذ ، رجاء بن حيوة ، انظر حلية الأولياء (١/٢٣٩) .
(٩٧) حلية الأولياء (١/٢٤٢) .
(٩٨) حديث حسن ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى (٢/٦٤) .

معاذ لهلك عمر »[٩٩] ، لأنّه كان لايتأخر عن إسداء النصح له والمشورة ، إذ كان في المدينة المنورة أو كان خارجها .

لقد كان معاذ أفقه الناس ، وأعلم امة النبي صلى الله عليه وسلم بالحلال والحرام[١٠٠] .

أما أبو موسى الأشعري ، فكان يُفتي بالمدينة المنورة ، ويُقتدى به ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد ذلك [١٠١] .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، اذا رأى أبا موسى قال : « ذكّرنا يا أبا موسى ! » ، فيقرأ عنده القرآن [١٠٢] . وقال عمر لأبي موسى : «شوّقنا الى ربّنا » ، فقرأ القرآن ، فقالوا « الصلاة ! » ، فقال عمر : « أوَلسنا في صلاة ! »[١٠٣] .

وقال أنس بن مالك: «بعثني الأشعري الى عمر — حين كان على البصرة— فقال : «كيف تركت الأشعري ؟ فقلت له : تركته يُعلّم الناس القرآن . فقال : أما إنّه كيّس ، ولا تُسمِعها إياه »[١٠٤] .

وقال الامام الشعبي : « انتهى العلم الى ستّة » ، وذكر أبا موسى فيهم [١٠٥] .

وكان دقيقا غاية الدقة في تحري العلم : في نقله بصدق ، وفي تعليمه بأمانة،

---

(٩٩) الاصابة (٦/١٠٧) .
(١٠٠) انظر مسند الامام احمد بن حنبل (٣/١٨٤) و (٣/٢٨١) والحديث الرقم (٢٠٩٦) من مسند الطيالسي وانظر مفتاح كنوز السنة (٤٧٥) .
(١٠١) انظر أسماءهم في طبقات ابن سعد (٢/٣٣٤ — ٣٥٤) ، وانظر اصحاب الفتيا لابن حزم (٣٢٠) .
(١٠٢) طبقات ابن سعد (٤/١٠٩) .
(١٠٣) طبقات ابن سعد (٤/١٠٩) .
(١٠٤) طبقات ابن سعد (٢/٣٤٥) .
(١٠٥) الاصابة (٤/١٢٠) .

وهو القائل : « مَن علَّمه الله عِلماً ، فَليُعلِّمه ، ولا يقولن ما ليس له به علم ، فيكون من المتكلفين ، ويمرق من الدين »[١٠٦] .

وحين ولاّه عمر بن الخطاب البصرة ، قال أبو موسى لأهل البصرة : «ان أمير المؤمنين عمر ، بعثني اليكم ، أعلّمكم كتاب ربّكم عز وجل ، وسُنّة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وأنظف لكم طرقكم» [١٠٧] ، وكان أبو موسى هو الذي فَقّه أهل البصرة وأقرأهم[١٠٨] القرآن الكريم ، وسكن الكوفة وتفقه به أهلها [١٠٩] .

ولأبي موسى ثلاثمائة وستون حديثاً[١١٠] ، اتفق البخاري ومسلم على خمسين حديثا ، وانفرد البخاري بأربعة أحاديث ومسلم بخمسة وعشرين حديثاً [١١١] .

وكان أحد قضاة الأمة الأربعة : عمر ، وعلي ، وأبو موسى ، وزيد بن ثابت[١١٢] ، ومن أقواله في القضاء : «لاينبغي للقاضي أن يقضي حتى يتبيَّن الليل من النهار » ، فبلغ قوله عمر بن الخطاب ، فقال : «صدق أبو موسى »[١١٣] .

وكان أبو موسى من قضاة النبي صلى الله عليه وسلم [١١٤] ، وأبي بكر ،

---

(١٠٦) طبقات ابن سعد (١٠٩/٤) .
(١٠٧) حلية الأولياء (٢٥٧/١) .
(١٠٨) الاصابة (١٢٠/٤) .
(١٠٩) الاصابة (١٢٠/٤) .
(١١٠) اسماء الصحابة الرواة لابن حزم — ملحق بجوامع السيرة (٢٧٦) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣١٠) .
(١١١) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣١٠) ، وفي تهذيب الأسماء واللغات (٢٦٩/٢) : ان البخاري انفرد بخمسة عشر ومسلم بخمسة عشر .
(١١٢) الاصابة (١٢٠/٤) والعقد الفريد (٢٣١/٢) .
(١١٣) طبقات ابن سعد (٣٤٥/٢) و (١١٣/٤) .
(١١٤) اخبار القضاة (١٠٠/١) .

وعمر[115] ، وعثمان[116] ، ولا يتولى القضاء غير العلماء .

لقد بلغ أبو موسى في القرآن الكريم وعلومه مبلغا جعله موضع ثقة النبي صلى الله عليه وسلم به والخلفاء الراشدين من بعده ، في تولي واجب الداعية المختار والمعلم الأول في ركب تعليم القرآن الكريم وعلومه ، حتى أصبحت له مدرسة تُعرف باسمه في البصرة والكوفة بخاصّة والمشرق الاسلامي بعامة .

وفضل العلم وأهله معروف ، نطق به القرآن الكريم ورفع شأنه ، وأكدته السُنّة النبوية . قال تعالى : ﴿ وقُل : ربي زِدني علما ﴾[117] وقال : ﴿ يرفَع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العِلْمَ درجات ﴾[118] . وفي السُنّة النبوية : « مَن يُرد الله به خيرا يفقهه في الدين »[119] .

ولا بد أن يتحلى العالم بالفهم الدقيق الذي يقوم على تدبر معاني القرآن والسُنّة ، حتى يستطيع عرضها على غيره واقناعه بها وتعليمها له ، فما ينبغي أن يكتم العالم علمه ، والا اقتصرت فائدة العلم على صاحبه ولم ينتشر بين طلابه من المتعلمين .

لقد كان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم من أبرز علماء الصحابة ، وكانوا من العلماء العاملين ، المخلصين في عملهم ، لذلك أينعت جهودهم وأثمرت أطيب الثمرات .

٤ ـ حسن الخلق

أخلاق السفير النبوي ، هي أخلاق الاسلام ، التي بينها الله سبحانه

---

(١١٥) اخبار القضاة (١/١٠٢) .
(١١٦) اخبار القضاة (١/٢٨٣) .
(١١٧) الآية الكريمة من سورة طه (٢٠ : ١١٤) .
(١١٨) الآية الكريمة من سورة المجادلة (٥٨ : ١١) .
(١١٩) رواه البخاري ومسلم واحمد بن حنبل عن معاوية ، ورواه الترمذي واحمد بن حنبل عن عبدالله بن عباس ، ورواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/٣٢١) .

وتعالى في القرآن الكريم ، وفصّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سُنّته . وتمسك بها صحابته الكرام في سلوكهم .

والصّدق من أول حسن الخلق ، وفي كتاب الله تعالى آيات كثيرة تتحدث عن الصدق وفضيلته ، وتأمر المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين : (يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين)[120] .

والآيات الواردة في الكتاب العزيز ، والأحاديث النبوية التي تأمر بالصدق وتحث عليه ، وتنهى عن الكذب وتُحذّر منه ، كثيرة جدا ، مما يدل على أهمية الصّدق في خُلق المسلم الحق .

والسفير الصادق ، يظهر أثر صدقه في وجهه وصوته ، ولاشك في أن ظهور أثر الصدق في وجه السفير وصوته ، يؤثّر في المخاطَب ويحمله على قبول قوله واحترامه .

والرحمة من حسن الخُلق ، فلابد أن يكون السفير ذا قلب ينبض بالرحمة والشفقة على الناس وإرادة الخير لهم والنّصح ، ومن شفقته عليهم دعوتهم الى الاسلام ، فهو يحب لهم ما يحب لنفسه وأعظم مايحبه لنفسه الايمان والهدى ، والرحمة تهوّن على الرحيم ما يلقاه من الجهلاء ، كما أن الرحمة تثمر العفو والصفح ، والفظاظة تؤدي الى انفضاض الناس وعدم الاستجابة والتجاوب .

ومن حُسن الخلق التواضع ، فلا خير في التكبر وفي المتكبّر ، قال تعالى: (سأصرِفُ عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق)[121] ، وقال : (وكذلك يَطبعُ الله على كل قلب متكبر جبار)[122] ، وقال : (واستفتحوا

---

(١٢٠) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ١١٩) .
(١٢١) الآية الكريمة من سورة الأعراف (٧ : ١٤٦) .
(١٢٢) الآية الكريمة من سورة غافر (٤٠ : ٣٥) .

وخاب كل جبار عنيد)[١٣٣] ، وقال:(إن الله لايُحبُّ المستكبرين)[١٢٤]،وقال : (إن الذين يستكبِرون عن عِبادتي سيَدخُلون جهنَّم داخِرين)[١٢٥] ، وقال : (تلك الدارُ الآخرةُ نجعلَها للذين لا يريدون عُلُـوّاً في الارض ولا فسادا ، والعاقبة للمُتقين)[١٢٦] .

وهناك عدد كبير من الأحاديث النبوية ، تأمر بالتواضع ، وتنهى عن الكِبر .

وفي التواضع قال تعالى : (واخفِض جناحَك لمن اتَّبَعَك من المؤمنين)[١٢٧] .

والسفير أحوج من غيره الى التواضع ، فهو يخالط الناس ويدعوهم الى الحق والى أخلاق الاسلام ، ثم إن من طبيعة الناس ، أنهم لايقبلون قول من يتكبر عليهم ، وان كان ما يقوله حقا وصدقا .

ومخالطة الناس ، واجبة على السفير ، لأن من واجباته الدعوة الى الاسلام ، ومن وسائلها مخالطة الناس ، فتكون المخالطة واجبة ، لأن مالايؤدى الواجب إلا به ، فهو واجب .

والمثُل العُليا الأخلاقية في القرآن الكريم كثيرة جدا ، لا أعرف كتابا مُنزلا ضم بين دفتيه ما ضمه الذكر الحكيم ، ويمكن أن يقال : إن الاسلام دين الأخلاق والفضيلة ، فقد بُعِث النبي صلى الله عليه وسلم ليُتمِّم مكارم الأخلاق ، كما وصفه الله تعالى في القرآن الكريم بقوله : (وإنَّك لعَلى خُلُق عظيم)[١٢٨] .

---

(١٢٣) الآية الكريمة من سورة ابراهيم (١٤ : ١٥) .
(١٢٤) الآية الكريمة من سورة النحل (١٦ : ٢٣) .
(١٢٥) الآية الكريمة من سورة غافر (٤٠ : ٦٠) .
(١٢٦) الآية الكريمة من سورة القصص (٢٨ : ٨٣) .
(١٢٧) الآية الكريمة من سورة الشعراء (١٥ : ٨٨) .
(١٢٨) الآية الكريمة من سورة القلم (٦٨ : ٤) .

هذه المُثُل العليا : في الوفاء ، والأمانة ، والصدق ، والاستقامة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والابتعاد عن الفحشاء والبغي ، والإيثار ، والحض على الفقير ، والعدل ، وإكرام الضيف .

إن المسلم الحق ، مطيع لايعصى ، صابر لايتخاذل ، شجاع لايجبن ، مِقدام لايتردد ، مُقبل لايُدبر ، مُندفع لايتقهقر ، ثابت لا يتزعزع ، مجاهد لايتخلّف ، مؤمن بمُثُل عُليا ، مُضح من أجلها بالمال والروح ، يخوض جهادا عادلا لإحقاق الحق وإزهاق الباطل . لايخاف الموت ، ولا يخشى الفقر ، ولا يهاب قوة في الارض ، يُسالم ولا يستسلم ، لاتُضعف عزيمته الأشاعات والأراجيف ، لايستكين لاستعمار فكري ولا غزو حضاري ، ولا يقنط أبدا ولا ييأس من رحمة الله . يقظ أشد اليقظة ، حذر أعظم الحذر ، يتأهب لعدوه ويُعد العُدّة للقائه، ولايستهين به في السّلم ولا في الحرب [١٢٩] .

تلك هي بعض معالم حسن الخُلق الذي كان عليه الصحابة ، وكان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الأصحاب المتميّزين بالخُلق الكريم ، أو كانوا من صفوة أولئك الأصحاب المتميزين بالخُلق الكريم .

والذين يتمعّنون في مناقشة جعفر بن أبي طالب أمير المؤمنين المهاجرين الى أرض الحشبة ، لعمرو بن العاص سفير مشركي قريش الى النجاشي لرد المسلمين المهاجرين الى أرض الحبشة من مستقرّهم الجديد في أرض الحبشة الى بلدهم الذي هاجروا منه فرارا من ظلم المشركين وخوفا على دينهم من الفتنة ، الى مكة التي كانت مقر مقاومة المشركين للمسلمين ، يجد أن تلك المناقشة بالاضافة الى دلاتها على فصاحة جعفر وإيمانه العميق وانتمائه العظيم للاسلام وتفقهه الكامل بالدين الحنيف ، فهي تدل كذلك على متانة أخلاقه ، فقد كان صادقا غاية الصدق في مناقشته ، فلم يخش غير الله في عرض أفكاره، دون أن يحسب حساب تناقضها مع دين النجاشي المحاط بأحباره المتعصبين ،

---

(١٢٩) ارادة القتال في الجهاد الاسلامي (٣٣) ــ ط٢ .

كما كان يتدفق رحمة للمسلمين المهاجرين ، خوفا على مصيرهم المجهول ، فقد كانت كلمة واحدة من النجاشي تؤدي الى ترحيلهم من أرض الحبشة الى مكة، حيث القتل والتعذيب والأذى والفتنة . كما أثر تواضعه الجم للمهاجرين المسلمين وللأحباش الذين أسلموا والذين لم يُسلموا ، ومخالطته المستمرة لمن حوله من الناس في أرض المهجر ، وتواضع المسلمين ومخالطتهم وحسن أخلاقهم وتواصلهم وتحابهم ، أثرت في النجاشي وفي كثير من بني قومه الأحباش ، فاعتنقوا الاسلام ، وأصبحوا مسلمين ، كما هو معروف .

وكان دِحيَة بن خليفة الكلبي من كبار الصحابة [١٣٠] ، قدمه الى مركزه المتميز جهاده وخلقه الكريم وتدينه[١٣١] .

ومن أقوال عمرو بن العاص التي تدل على تواضعه : «ثلاثة لا أملّهم : جليسي ما فَهِم عني ، ودابتي ما حملت رَحلي ، وثوبي ما سترني » ، وزاد آخر : «وامرأتي ما أحسنت عِشرتي » [١٣٢] .

وقال عنه جابر بن عبدالله : «... صحبت عمرو بن العاص ، فما رأيت رجلا انصع ظرفا منه ، ولا أكرم جليساً ، ولا أشبه سريرة بعلانية منه »[١٣٣] . ورؤي عمرو وهو على بغلة هَرِمة ، وهو إذ ذاك أمير مصر ، فقيل له : أتركب هذه وأنت أمير مصر ؟! فقال : «لا ملل عندي لدابتي ما حملتني ، ولا لامرأتي ما أحسنت عشرتي ، ولا لصديقي ما حَفِظ سِري ... إن الملل من كواذب الأخلاق »[١٣٤] .

وكان عمرو حليما ، ذُكر ، أنه جُعل لرجل ألف درهم ، على أن يسأل

---

(١٣٠) الاستيعاب (٤٦١/٢/٢) .
(١٣١) انظر سيرته المفصلة في : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .
(١٣٢) عيون الأخبار (٤٠/١) والعقد الفريد (٦٥/١) .
(١٣٣) النجوم الزاهرة (٦٤/١) ، وتستعمل النصاعة في الظرف ، والمراد ظهوره .
(١٣٤) أسد الغابة (١١٥/٤ ـ ١١٦) .

عمرو بن العاص عن أمّـه وهو على المنبر ، فسأله الرجل ، فقال عمرو : أمي سلمى بنت حَرملة ، تُلَقّب : النابغة ، من بني عنزة ، أصابتها رماح العرب . فبيعت بعُكاظ ، فاشتراها الفاكهة بن المُغيرة ، ثم اشتراهـا منـه عبدالله بن جُدعان ، ثم صارت الى العاص بن وائل ، فولدت له ، فأنجبت ، فان جُعِل لك شيء ، فخذه »[١٣٥] .

وقال رجل لعمرو : « والله لأتفرغَنَّ لك ! » ، فقال : «هنالك وقعتَ في الشُغل » ، قال : «كأنك تُهددني ، والله لئن قلتَ لي كلمة ، لأقولنّ لك عشرا » ، قال : «وأنت والله لئن قلت لي عشرا ، لم أقل لك واحدة»[١٣٦] .

وكان متواضعا ، يعترف بالفضل لأهله ويُقِرّ به ، فقد دخل مكة المكرمة ، فرأى قوما من قريش قد تحلّقوا حَلْقَةَ ، فلما رأوه رموا بأبصارهم اليه ، فعدل اليهم وقال : «أحسبُكُم كنتم في شيء من ذكرى» ، قالوا : أجل ! كنا نماثل بينك وبين أخيك هشام[١٣٧] ، أيّكما أفضل ! » ، فقال عمرو : «إن لهشام عَليّ أربعة : أمه ابنة هشام بن المغيرة ، وأمي من قد عرفتم . وكان أحب الناس الى أبيه مني ، وقد عرفتم معرفة الوالد بالولد . وأسلم قَبلي ، واستُشهد وبقيت »[١٣٨] .

وقيل لعمرو : « أنت خير ، أم أخوك هشـام بن العاص ؟ » ، قال : « أخبركم عني وعنه ، عرضنا أنفسنا على الله ، فقبله وتركني »[١٣٩] ، وقد استشهد هشام في معركة أجنادين[١٤٠] .

---

(١٣٥) النجوم الزاهرة (١/٧) .
(١٣٦) العقد الفريد (٢/٢٧٥) .
(١٣٧) هشام بن العاص : انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٤/١٩١) واسد الغابة (٥/٩٣) والاصابة (٦/٢٨٦) ، والاستيعاب (٤/١٥٣٩) .
(١٣٨) العقد الفريد (٢/٢٨٩) .
(١٣٩) طبقات ابن سعد (٤/١٩٢) .
(١٤٠) طبقات ابن سعد (٤/١٩٣) .

وقد ذكرت المصادر المعتمدة ، أنّ العلاء الحضرمي ، كان مستجاب الدعوة[١٤١] ، كدليل على تقواه وورعه وتمسكه بالخلق القويم .

أما الحارث بن عمير الازدى ، فقد دفع حياته ثمناً لصدقه المطلق الذى لو خير بين الصدق أو الموت لاختار الموت على أن يتخلى عن الصدق ولو لحظة من حياته . فقد عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني في طريقه الى بصرى من بلاد الشام ، فقال له : « أين تريد ؟ » ، قال : « الشام » ، قال : « لعلك من رسل محمد ؟ » ، قال : « نعم ، أنا رسول رسول الله » ، فأمر به ، فأوثق رباطاً ، ثم قدمه فضرب عنقه صبرا[١٤٢] ، فهو شهيد الصدق الذى هو تاج الخلق وقوامه وروحه .

أما جرير بن عبدالله البجلي ، فقد كان آلفاً مألوفاً ، أحبه النبي صلى الله عليه وسلم لحسن خلقه ، قال جرير : « ماحجبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ، ولارآنى إلاّ تبسم » ، رواه الشيخان وغيرهما[١٤٣] .

ولما جالسه النبي صلى الله عليه وسلم ، بسط له رداءه ، وقال : « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه »[١٤٤] .

وقد وجد عمر بن الخطاب رضى الله عنه في مجلسه رائحة من بعض جلسائه ، فقال عمر : « عزمت على صاحب هذه الرائحة إلاّ قام فتوضأ » ، فقال جرير : « علينا كلنا ياأمير المؤمنين فاعزم » ، فقال عمر : « عليكم كلكم عزمتُ » ، ثم التفت الى جرير وقال له : « مازلت سيداً في الجاهلية والاسلام »[١٤٥] .

---

(١٤١) الاستيعاب (١٠٨٧/٢) والمعارف (٢٨٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٣٤٢/١) .
(١٤٢) انظر التفاصيل في : مغازى الواقدى (٧٥٥/٢ ـ ٧٥٦) واسد الغابة (٣٤٢/١) والاصابة (٢٩٩/١) والاستيعاب (٢٩٨/١) .
(١٤٣) تهذيب التهذيب (٧٣/٢) .
(١٤٤) البداية والنهاية (٥٦/٨) .
(١٤٥) الاستيعاب (٢٣٨/١) .

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: « جرير منا أهل البيت »[146] .

ومناقب جرير الدالة على حسن خلقه كثيرة ، ومن مستطرفاتها أنه اشترى له وكيله فرساً بثلاثمائة درهم ، فرآها جرير فتخيل أنها تساوي أربعمائة ، فقال لصاحبها : « أتبيعها بأربعمائة ؟ » ، قال : « نعم » ، ثم تخيل أنها تساوي خمسمائة ، فقال : « أتبيعها بخمسمائة ؟ » ، قال : «نعم» ، ثم تخيل أنها تساوي ستمائة ، ثم سبعمائة ، ثم ثمانمائة ، فاشتراها بثمانمائة[147] .

وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك خادم النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « خرجت مع جرير في سفر ، فكان يخدمني . فقلت له : لاتفعل ! فقال : إني رأيت الأنصار تصنع برسول الله صلى الله عليه وسلم أشياء ، آليت الا أصحب أحداً منهم إلاّ خدمته » ، وكان جرير أكبر من أنس رضي الله عنهما[148] .

أما عن حسن أخلاق معاذ بن جبل ، فحدث عن البحر ولا حرج ، كما يقول المثل العربي المشهور . بينما كان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، يحدث أصحابه ذات يوم ، إذ قال : « ان معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين » ، فقال له رجل : « يا أبا عبد الرحمن ! نسيتها ؟! » ، وظن الرجل أنه أوهم ، فقال ابن مسعود : « هل تدرون ، ما الامة ؟ » ، قالوا : « ما الأمة ؟ » ، قال : « الذي يعلم الناس الخير » ، ثم قال : هل تدرون ، ما القانت ؟ » ، قال : «القانت المطيع لله » ، وقال : « كنا نشبه معاذاً بابراهيم »[149] .

---

(146) الاصابة (1/243) .
(147) تهذيب الأسماء واللغات (1/148) .
(148) تهذيب الأسماء واللغات (1/147) .
(149) طبقات ابن سعد (3/348) وانظر حلية الأولياء (1/230) واسد الغابة (4/378) والاصابة (6/106) والاستبصار (138) وتهذيب التهذيب (10/187) والبداية والنهاية (7/95) .

وكان معاذ يقول : « إعلموا ماشئتم أن تعلموا ، فلن يؤجركم الله بعلم حتى تعملوا » ، وكان يقول : « تعلّموا ماشئتم أن تعلّموا ، فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا »(١٥٠) ، إذ لاقيمة بالعلم بدون عمل ، والعمل هو حسن الخلق .

ولما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبعث معاذاً إلى اليمن أوصاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يامعاذ ! أوصيك وصية الأخ الشفيق ، أوصيك بتقوى الله » ، فذكر نحوه وزاد : « ... وعد المريض ، وأسرع في حوائج الأرامل والضعفاء ، وجالس الفقراء والمساكين ، وأنصف الناس من نفسك ، وقل الحق ، ولا تأخذك في الله لومة لائم »(١٥١) ، فكانت وصية النبي صلى الله عليه وسلم منهاج حياته العملية حتى ذهب إلى رحاب الله .

لقد كان معاذ من أحسن الناس وجهاً ، وأحسنه خلقاً ، وأسمحه كفاً(١٥٢) .

وكان أبو موسى الأشعري على البصرة ، فلما نزع عنها ، لم يكن معه إلا ستمائة درهم عطاء عياله(١٥٣) ، وكان الحسن البصري يقول : « ما أتاها — يعني البصرة — راكب خير لأهلها منه »(١٥٤) .

ولما عزل عن البصرة ، سار منها إلى الكوفة ، فلم يزل بها حتى أخرج أهلها عاملهم وطلبوا من الخليفة أن يستعمل أبا موسى عليهم ، فاستعمله(١٥٥) ، فكان أول أمير يختاره الناس عليهم في الاسلام ، لحسن خلقه ومعاملته واستقامته .

---

(١٥٠) حلية الاولياء (٢٣٦/١) .
(١٥١) حلية الاولياء (٢٤٠/١ — ٢٤١) .
(١٥٢) طبقات ابن سعد (٥٨٧/٣) .
(١٥٣) طبقات ابن سعد (١١١/٤) .
(١٥٤) الاصابة (١٢٠/٤) .
(١٥٥) أسد الغابة (٢٤٧/٣) و (٣٠٩/٥) والاصابة (١٢٠/٤) .

لقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتميزون بالخلق الكريم . وكان سفراؤه من جملة أصحابه عليه الصلاة والسلام في أخلاقهم الكريمة . إن لم يكونوا من المصطفين الأخيار من الصحابة عليهم رضوان الله .

ولعل التمادي في ضرب الأمثال على حسن خلق سفراء النبي صلى الله عليه وسلم سيزيد في هذه الدراسة حجماً ويضاعف صفحاتها دون ضرورة ، لأن حسن الخلق في الصحابة من المزايا التي لاتحتاج إلى دليـــل ، ولكن الشواهد التي ذكرت تفيد القدوة والاقتداء ، وما أحوج الناس إلى القدوة الحسنة في هذه الأيام .

وقديماً قالوا : « المعروف لايعرّف » .

٥ ـ الصبر

الصبر من فروض الاسلام ، وهو نصف الايمان ، وقد ذكره القرآن الكريـم في أكثر من ثمانـين موضعاً ، آمـراً بـه : (واستعينوا بالصبر والصلاة)[١] ، ونهياً عن ضده : (واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم)[٢] ، ومحبة لأهله : (والله يحب الصابرين)[٣] ، ومعيته تعالى لهم : (ان الله مع الصابرين)[٤] ، وعاقبته خير : (وان تصبروا خير لكم)[٥] ، وجزاؤه عظيم : (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)[٦] . وأهل الصبر هم المنتفعون بالآيات والعظات : (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور)[٧] ، وهو سبب لدخول الجنان : (سـلام عليكم بما صبرتم فنعم

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٤٥) .
(٢) الآية الكريمة من سورة الأحقاف (٤٦ : ٣٥) .
(٣) الآية الكريمة من سورة آلعمران (٣ : ١٤٦) .
(٤) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ١٥٣) وسورة الانفال (٨ : ٤٦) .
(٥) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٢٥) .
(٦) الآية الكريمة من سورة الزمر (٣٩ : ١٠) .
(٧) الآية الكريمة من سورة ابراهيم (٤ : ٥) .

عقبى الدار)[٨] ، وبالصبر واليقين تنال الامامة في الدين : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)[٩] .

هذا بعض مافي القرآن الكريم على الصبر .

وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة في الصبر ، منها : « ما أعطي أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصبر »[١٠] و : « عجباً لأمر المؤمن ، ان أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد الا المؤمن ، ان أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له »[١١] .

والصبر لغة : الحبس ، والكف ، والتجلّد ، وحُسن الاحتمال . والصبر عن المحبوب : حبس النفس عنه . والصبر على المكروه : احتماله دون جزع . وقالوا : قتله صبراً : حبسه حتى مات . وشهر الصبر : شهر الصوم ، لما فيه من حبس النفس عن الشهوات .

والصبر شرعا ، هو على ثلاثة أنواع : صبر على طاعة الله ، وصبر على معصية الله ، وصبر على المصائب والبلاء .

الصبر على طاعة الله ، يكون بالمحافظة عليها دوما ، والاخلاص فيها ، ووقوعها على مُقتضى الشرع ، ومما يُعين على تحصيله المعرفة بالله ، وحقه على العباد ، وحُسن الجزاء للمطيعين .

والصبر على المعصية ، يكون بهجر السيئات ، والفرار من المعاصي ، والدوام على هذا الفرار وذلك الهجر . ومما يُعين على تحصيل هذا الصبر ،

---

(٨) الآية الكريمة من سورة الرعد (١٣ : ٢٤) .
(٩) الآية الكريمة من سورة السجدة (٣٢ : ٢٤) .
(١٠) متفق عليه ، رواه ابو سعيد الخدرى ، انظر رياض الصالحين ـ باب الصبر ـ ط٣ ـ (٢٩) ـ مطبعة النهضة الحديثة بمكة المكرمة ـ ١٣٩٨هـ .
(١١) رواه مسلم ، انظر رياض الصالحين (٢٩) ، ورواه احمد بن حنبل في مسنده ايضا ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى (٢/٩٦) .

استحضار الخوف من عذاب الله ، وأعلى من هذا استحضار الحياء من الله ، والمحبة له، مع استحضار ثمرة هذا الصبر، وهي إبقاء الايمان وتقويته وإنماؤه، لأن المعصية تُنقص الايمان أو تُضعفه أو تُكدّره أو تُذهب نوره وبهاءه .

والصبر على البلاء والمصائب ، يكون بترك التسخّط ، واحتمال المؤلم المكروه ، وترك الشكوى للناس ، فان الصبر الجميل لايتفق مع الشكوى للمخلوق ، ويتفق مع الشكوى لله وحده ، قال تعالى عن يعقوب عليه السلام : (إنّما أشكو بَثّي وحُزني الى الله)[12] ، وقال عن أيوب : (ربِ إني مَسّني الضُرُّ وأنت أرحم الراحمين)[13] ، مع قوله تعالى عنه في آية أخرى : (إنّا وجدناه صابراً ، نِعمَ العَبدُ إنه أوّاب")[14] . ومما يستدعي هذا الصبر ، استحضار نِعَم الله التي لاتعد ولا تحصى ، فتهون على المصاب مصيبته ، ويَقل وقعها على نفسه ، ومما يُعين أيضا على الصبر على البلاء ، تذكر الجزاء العظيم للصابرين[15] .

والصبر الجميل ، جزء لايتجزأ من حُسن الخلق ، وقد خصصنا له هذه الفقرة التي جاءت بعد فقرة : (حُسن الخُلق) ، مباشرة ، للتركيز على أهمية الصبر بالنسبة للسفير أولا ، ولبيان الصلة العضوية بين حُسن الخُلق والصبر .

واذا كان الصبر ضروريا لكل انسان ، وبخاصة المسلم ، فان الصبر للسفير المسلم أشد ضرورة له من غيره ، لأنه يعمل في ميدانين : ميدان نفسه ، يجاهدها ، ويحملها على الطاعة ، ويمنعها من المعصية ، وميدان خارج نفسه ، وهو ميدان الدعوة الى الله ، ومخاطبة من أرسل اليهم في موضوعها ، فيحتاج الى قدر كبير في المجالين من الصبر الجميل ، حتى يستطيع تجاوز العقبات ،

---

(١٢) الآية الكريمة من سورة يوسف (١٢ : ٨٦) .
(١٣) الآية الكريمة من سورة الأنبياء (٢١ : ٨٣) .
(١٤) الآية الكريمة من سورة ص (٣٨ : ٤٤) .
(١٥) أصول الدعوة (٢٣٥ — ٢٣٦) .

وتحمل الأذى ، فإن تخلى عن الصبر وأصيب بالجزع ، انهار ، وقعد ، أو انسحب من الميدان ، فاستحق العقاب وفاته الثواب (١٦) .

وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه حول عدم الاختلاف والصبر على تنفيذ الواجبات الملقاة على عواتقهم ، فخرج على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صد عنها يوم الحديبية فقال : « أيها الناس ! ان الله قد بعثني رحمة وكافة ، فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم » ، فقال أصحابه : « وكيف اختلف الحواريون يارسول الله ! » ، قال : « دعاهم الى الذي دعوتكم اليه ، فأما من بعثه مبعثاً قريباً ، فرضي وسلم ، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً ، فكره وجهه وتثاقل » ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلّم رسلاً من أصحابه ، وكتب معهم كتباً الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام(١٧) ، وما اختلف أصحاب عيسى عليه إلاّ من جزعهم لانهم لايصبرون على السفر البعيد ، أما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فلم يختلفوا عليه ، لانهم يصبرون على السفر البعيد وعلى غيره من الصعاب ، فكل شيء بالنسبة لهم يهون مادام فيه خدمة الاسلام والمسلمين .

لقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قمة في الصبر الجميل ، فقد نجحوا نجاحاً باهراً في اجتياز الصعوبات والنوائب والمصائب التي لاقتهم في حياتهم العملية بعد إسلامهم ، إذ كانت مقاومة المشركين للاسلام والمسلمين عنيفة جدا . وكان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم هم صفوة الصابرين المحتسبين من الصحابة ، لذلك صبروا على ما أصابهم في سفاراتهم صبراً جميلا ، وأقبلوا على تنفيذ مهماتهم إقبالاً كاملاً .

ولقد هاجر جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة ، فصبر على الغربة أربع عشرة سنة فيها ، وصبر على محاولات مشركي قريش لاعادته وإعادة المسلمين

---

(١٦) أصول الدعوة (٢٣٧) .
(١٧) سيرة ابن هشام (٤/٢٧٨ - ٢٧٩) .

المهاجرين الى الحبشة من مهجرهم الى مكة ليصبوا عليهم العذاب والفتنة والتنكيل ، وصبر على صعوبة الحياة في المهجر وشدتها ، وأخيراً تكلل صبره الطويل بالنجاح ، فالتحق بالنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين المهاجرين الى المدينة المنورة ، حيث استقر هو ومن كان معه في الحبشة من المهاجرين في المدينة المنورة .

وصبر دحية بن خليفة الكلبي على محاولة تبليغ هرقل قيصر الروم الكتاب النبوى ، ولم يكن الوصول الى هرقل والاتصال به وتبليغه ودعوته الى الاسلام من الأمور السهلة ، ولكنه صبر صبراً جميلاً حتى حقق أهدافه كاملة بنجاح كبير .

وصبر عبدالله بن حذافة السهمى على محاولة تبليغ كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس الكتاب النبوى ، وكان الوصول الى كسرى من أصعب الأمور في حينه ، ولكنه بالصبر الجميل وبالاصرار الحاسم ، تحقق له ما أراد .

وشهد عبدالله بعد التحاق النبي صلى الله عليه وسلم ، معارك فتح بلاد الشام ، فأسره الروم في بعض غزواته على قيسارية[18] ، فقال له ملك الروم : « تنصر أشركك في ملكى » ، فأبى . فأمر به فصلب ، وأمر برميه بالسهام ، فلم يجزع ، فأنزل ! .

وأمر ملك الروم بقدر ، فصب فيها الماء وأغلي عليه ، وأمر بالقاء أسير فيها ، فاذا عظامه تلوح ، فأمر بالقائه بالقدر التى تغلى ان لم يتنصر ، فلما ذهبوا به بكى[19] ، فقالوا : قد جزع ! قد بكى ! ، فقال الملك :

---

(18) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام (الأبيض المتوسط) ، تعد من اعمال فلسطين ، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام ، وكانت في قديم الأيام من اعيان امهات المدن ، واسعة الرقعة ، طيبة البقعة ، كثيرة الخير والأهل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٥/٧ ــ ١٩٦) ، وانظر أسد الغابة (١٤٣/٣) حول أسره في قيسارية .

(19) الاصابة (٥٧/٤) .

« ردوه ! » ، فقال عبد الله : « لاترى أني بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بي ، ولكني بكيت حيث ليس لي إلاّ نفس واحدة ، يفعل بها هذا في الله !! كنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة فيّ، ثم تسلط عليّ، فتفعل بي هذا !» ، فقال : « تنصر وأزوجك بنتي وأقاسمك ملكي » ، قال : « ما أفعل » ، فقال : « قبّل رأسي وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين » ، فقال : « أما هذه ، فنعم » وقبل عبدالله رأس ملك الروم ، فأطلق سراحه ، وأطلق معه سراح ثمانين من أسرى المسلمين فلما قدموا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قام اليه عمر وقبل رأسه ، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمازحون عبدالله ، فيقولون : « قبلت رأس علج ؟! » ، فيقول لهم : « أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين »[٢٠].

ولايمكن أن يختلف اثنان في أن صبر عبد الله كان صبراً جميلاً مثالياً ، وكان مضرب الامثال في صبره الجميل .

وصبر حاطب بن أبي بلتعة في حله وترحاله ، حتى وصل الى الاسكندرية ، ثم صبر حتى استطاع أن يوصل الكتاب النبوي الى المقوقس ، وصبر على مناقشة المقوقس مناقشة منطقية حصيفة ، فتوج صبره الجميل باقناع المقوقس بوجهة نظره ، فعاد أدراجه محملاً بهدية المقوقس النفيسة الى النبي صلى الله عليه وسلم بسلام .

أما شجاع بن وهب الأسدي ، فقد انتظر طويلاً على باب الحارث بن أبي شمر الغساني ، وصبر على هذا الانتظار دون كلل ولا ملل ، والانتظار أحر من النار كما يقول المثل العربي المشهور . فلما قابل الحارث ، رد عليه الحارث بالتهديد والوعيد ، ولكنه صبر على كل ذلك صبراً جميلاً ، حتى زالت المحنة وعاد إلى المدينة[٢١] .

---

(٢٠) اسد الغابة (٣/١٤٣) .

(٢١) انظر : طبقات ابن سعد (١/٢٦) وابن الأثير (٢/٢١٣) والبداية والنهاية (٤/٢٦٨) وطبقات ابن سعد (٣/٩٤ ــ ٩٥) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٦٣) .

وقد صبر سليط بن عمرو العامري القرشي على هوذة بن علي الحنفي صبراً جميلاً ، فقد كان هوذة يساوم على اسلامه ، فاستعان سليط على هوذة بثمامة بن أثال الذى كان قد أسلم ، فلم تفلح وساطة ثمامة ، وأصر هوذة على أطماعه ، فلم يسلم ، ومات على دينه ، وما جزع سليط بل صبر كما يصبر الصابرون المحتسبون[٢٢] .

وكان الصبر الجميل في طبع عمرو بن العاص ، ظهر قبل إسلامه وبعد إسلامه في مواقف كثيرة ، فقد بذل محاولات لم تكلل بالنجاح في سفارته إلى النجاشي ملك الحبشة ، حين أوفده مشركو قريش لرد المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة من مهجرهم إلى مكة ، إلاّ أنّ سفارته النبوية تكللت بالنجاح .

كما أنّ أعماله العسكرية ، وبخاصة حصار بابليون أولاً ، وحصار الاسكندرية ثانياً ، تدل على تمتعه بالصبر الجميل .

وقد صبر العلاء الحضرمي في مواقف لاتعد ولا تحصى ، وخاصة في اجتياز صحراء الدهناء المخوفة على رأس المجاهدين من رجاله ، وفي مصاولة المرتدين العنيفة ، وفي اجتياز البحر الى أرض الفرس ، وما كان بقادر على تحمل ما صادف من عقبات جسام ، لو لم يعالجها بما عرف عنه من صبر جميل .

ولم يقتل للنبي صلى الله عليه وسلم رسول غير الحارث بن عمير الازدى رسوله الى ملك بصرى ، فقد قتل صبراً[٢٣] .

ولاقى المهاجر بن أبى أمية المخزومى الأمرّين في حرب ردة اليمن ، ولكنه صبر وصابر ورابط ، حتى كتب له النصر وكتب للقادة والمجاهدين الذين ثبتوا وصبروا في ثباتهم صبراً جميلا .

---

(٢٢) ابن الأثير (٢/٢١٥) .
(٢٣) اسد الغابة (١/٣٤٢) والاستيعاب (١/٢٦٨) .

وصبر جرير بن عبد الله البجلي في حرب الردة ، وفي حرب فتح العراق ، وحرب فتح بلاد الشام ، وصبر على جمع قبيلته بجيلة المشردة ، حتى تـم جمعها على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فحقق بصبره الجميل ماكان يصبو إليه من انتصارات وآمال .

وكان صبر معاذ بـن جبل على التعلم والتعليم وحـرب الردة وعلى الادارة والقضاء والجباية ، وأخيراً على الطاعون الذى اجتاح فلسطين كما تجتاح النار الغابات ، حتى استشهد بالطاعون دون أن يتخلى عن رجاله في ساعة محنتهم ، فكان سعيداً باستشهاده أكثر من سعادته ببقائه على قيد الحياة ، بدليل أنه رفض عرض عمر بن الخطاب في محاولـة استخراجه من منطقة الطاعون ، وذلك هو الصبر الجميل في أروع مظاهره : الصبر على تقبل الموت مع رجاله ، والترفع عن الحياة بعيداً عن أولئك الرجال .

أما أبو موسى ، فحديثه مع الصبر الجميل يطول ، فكل حياته صبر جميل ، وهو أسوة حسنة للصابرين المحتسبين في كل زمان ومكان .

ولم يكن عمرو بن حزم الانصاري الخزرجى ، بأقل صبراً من زملائه سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد صبر على مشقات الجهاد ، وصبر على مشاكل الحياة ، وصبر على الدعوة الى الله ، وصبر على الادارة والجباية في اليمن ، وصبر على أحداث السلام ، وأدى واجبه كاملاً في خدمة الاسـلام والمسلمين .

إنّ الصبر الجميل سمة من سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كنت بحاجة الى التدليل على صبرهم ، فما أردت بذلك اقناع من لايقتنع بأنهم يتحلون بتلك السمة ، لانني لاأتصور أن هناك من لايقتنع بأن هذه السمة واضحة المعالم بارزة الاثر في السفراء النبويين ، ولكنني ذكـرت ما ذكرت من شواهد لغرض العبرة والقدوة والاسوة ، وضرب الامثال قد يفيد في ذلك لمن يريد أن يستفيد .

٦ ـ الشجاعة

ليست الشجاعة ضرورية للمجاهدين حسب ، بل هي ضرورية للانسان في السلام كما هي ضرورية له في الجهاد .

وكما يحتمل أن يفقد الذي لايتحلى بالشجاعة حياته في ميدان القتال ، كذلك يحتمل أن يفقد الذي لايتحلى بالشجاعة حقوقه في ميدان الحياة .

وقد كان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم من صفوة الصحابة المتميزين بالشجاعة ، لذلك أثبتوا وجودهم بنجاح في ميداني الحرب والسلام .

وقد تحدث التاريخ على شجاعة السفراء النبويين في مواجهة مَن أرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم اليهم من ملوك وأمراء ، دون أن يخشوا في الله لومة لائم ، فبلّغوا الدعوة ، وسلّموا الكتب النبوية الى الذين أُرسلت لهم ، وتحدثوا معهم حديث الند للند ، وأدوا مهماتهم كما ينبغي كاملة دون خوف أو وجَل أو تردد .

وقد تحدثت على اتّصال سفراء النبي صلى الله عليه وسلم بالملوك والأمراء الذين أرسلوا اليهم بشجاعة وإقدام ، بما فيه الكفاية ، ولا بأس في الحديث على شجاعتهم في المجالات الاخرى ، لعل في الحديث عليها قدوة لمن يريد أن يقتدي وأسوة لمن يريد أن يتأسّى .

كانت شجاعة جعفر بن أبي طالب المعنوية في مناقشة عمرو بن العاص سفير مشركي قريش الى النجاشي ملك الحبشة ، وعرضُه تعاليم الاسلام عرضا موضوعيا شائقا ، ودفاعه عن حرية الدعوة وحرية المسلمين المهاجرين ، شجاعة فائقة حقا .

وعاد جعفر الى المدينة المنورة بعد بقائه نحو أربعة عشر عاما في بلاد الحبشة مهاجرا ، فولاه النبي صلى الله عليه وسلم قيادة سرية مؤتَة بعد زيد بن حارثة الكلبي ، اذ قال عليه الصلاة والسلام : «أمير الناس زيد بن حارثة ، فإن

قـتـل فجعفر بن أبي طالب ، فإن قـتـل فعبدالله بن رواحة ، فان قتــل فليرتض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم » .

وأخذ اللواء زيد بن حارثة ، فقاتل حتى قـتـل طعنا بالرماح .

وأخذ اللواء جعفر بن أبي طــالب ، فترجــل عــن فرس له شــقراء ، فعرقبها[٢٤] ، فكانت أول فرس عـُرقبت في الاسلام ، وقاتل حتى استـُشهد ، ضربه رجل من الروم ، فقطعه نصفين ، فوُجد في أحد نصفيه بضعة وثلاثــون جرحا ، ووجد فيما أقبل من بدَن جعفر مابين منكبيه تسعون ضربة بين طعنـة برمح وضربة بسيف ، وفي رواية أخرى اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنـة برمــح [٢٥] .

وكان عمرو بن أُمـَية الضَّمري من رجال العرب نجدة وجرة[٢٦] ، وأحد أبطالهم[٢٧] ، وكان شجاعا[٢٨] . ومن بطولاته ، أن مشركي قريش صلبــوا خُبـَيب بن عـَدي في ضاحية من ضواحي مكة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن أُمية أن يستنقذ جثمان الشهيد خُبـَيب من بين حـُراسه ، فحمل جثة خبيب من الخشبة التي صـُلب عليها ، وعاد بها الى المدينة المنورة .

وفي طريق عودته من مكة الى المدينة ، قتل أحد المشركين ، وقتل آخــر سمعه يهجو المسلمين ، ولقى رسولين لقريش يتجسَّسان ، فقتل أحدهما وأسر الآخر . ولما قدم المدينة ، أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك [٢٩] .

---

(٢٤) عرقبها : قطع عرقوبها . وعرقوب الدابة في رجلها .
(٢٥) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٣٨/٤ – ٣٩) .
(٢٦) تهذيب التهذيب (٦/٨) .
(٢٧) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٨٧) .
(٢٨) الاصابة (٢٨٥/٤) .
(٢٩) طبقات ابن سعد (٩٣/٢ – ٩٤) وعيون الأثر (١١٢/٢) ، وانظر سيرة ابن هشام (٣١٠/٤ – ٣١٢) وانساب الأشراف (٣٧٩/١ – ٣٨٠) .

وقد شهد دِحيَة بن خَليفة الكلبي معركة اليرموك الحاسمة التي كانت بين المسلمين من جهة والروم من جهة ، قائدا لكردوس من كراديس المسلمين في تلك المعركة[٣٠] التي كانت بقيادة خالد بن الوليد ، وكان خالد هو الذي اختار قادة الكراديس من بين أشجع المسلمين وأكثرهم اقداما وتجربة وحنكة وشجاعة .

وثبات عبدالله بن حُذافة السهمي وصبره على التهديد والوعيد الذي تعرض له من ملك الروم[٣١] ، دليل على شجاعته النادرة وصبره الجميل .

وقد أصبح بعد التحاق النبي صلى الله عليه وسلم من قادة الفتح الاسلامي في مصر ، وله فتوحات معروفة في تلك البلاد[٣٢] .

وشهد حاطب بن ابى بَلْتَعة غزوة بدر الكبرى ، وأبلى في هذه الغزوة بلاء حسنا ، وأسر فيها أحد المشركين[٣٣] ، وقتل فيها مشركا واحدا أيضا[٣٤]، كما شهد غزوة أحُد ، وكان أحد الرماة المذكورين في هذه الغزوة[٣٥] ، كما شهد غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من أمهر الرماة في الصحابة[٣٦]، وكان من المشهود لهم بالشجاعة والاقدام .

وشهد شجاع بن وهب غزوة بدر الحاسمة ، كما شهد مشاهد النبي صلى الله عليه وسلم كلها ، لم يتخلف عن مشهد من مشاهدها ، فضلاً عن شهوده بعض سراياه ، وكان قائدا من قادة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبلى في مشاهده أعظم البلاء ، واستُشهد يوم اليمامة سنة احدى عشرة الهجرية[٣٧] .

---

(٣٠) الاصابة (١٦٢/٢) .
(٣١) أسد الغابة (١٤٣/٣) .
(٣٢) انظر : فتوح البلدان (٣٠٤) .
(٣٣) مغازى الواقدى (٣٢٣/١) .
(٣٤) انساب الأشراف (٣٠٢/١) .
(٣٥) مغازى الواقدى (٢٤٣/١) وانساب الأشراف (٣٢٣/١) .
(٣٦) طبقات ابن سعد (١١٤/٣) .
(٣٧) طبقات ابن سعد (٩٥/٣) وانظر البداية والنهاية (٣٣٧/٦) والاصابة (١٩٤/٣) واسد الغابة (٣٨٦/٢) والاستيعاب (٧٠٧/٢) .

وشهد سَليط بن عمرو العامري القرشي بعض مشاهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما التحق النبي صلى الله عليه وسلم ، كان سَليط أحد قادة أبي بكر الصديق في حرب الرِدة ، فاستُشهد في معركة اليمامة سنة احدى عشرة الهجرة[٣٨] ، بعد أن أبلى في القتال بلاء حسنا .

وشجاعة عمرو بن العاص واقدامه لايحتاجان الى دليل ، فهو من قادة النبي صلى الله عليه وسلم ومن قادة الفتح الاسلامي العظيم ، وله بلاء في حروب الرِدة وفي معارك الفتوح ، وفتوحاته كثيرة معروفة ، تدل على شجاعته وإقدامه .

وكان للعلاء الحَضرمي جهاد مشهود تحت لواء النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي حرب الردة في منطقة البحرين ، وفي الفتوح في منطقة بلاد فارس وبخاصة منطقة الأهواز ، فكان في جهاده بطلا من أبطال المجاهدين المتميزين بالشجاعة والاقدام .

ودفع الحارث بن عُمَير الأزدي حياته ثمنا لصدقه ، فقدم وقُتل صبرا ، ولم يُقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره ، فكان شهيد العقيدة وشهيد الصدق ، وكان المثال الرائع للشجاعة والاقدام .

وكانت للمهاجر بن أبي أميَّة المخزومي مواقف بطولية تدل على شجاعته واقدامه في حرب الرِدة باليمن ، حتى استطاع ومَن معه من القادة والمجاهدين استعادة الوحدة الى ربوع اليمن السعيد تحت ظل الاسلام .

أما جرير بن عبدالله البجلي ، فكان من قادة النبي صلى الله عليه وسلم وسفرائه ، وقد شهد حرب الرِدة في اليمن ، فكان له أثر كبير في إعادة المرتدين الى الاسلام . وشهد فتوح العراق والشام ، وفي معركة اليرموك الحاسمة برز اسمه واحدا من الفدائيين الفرسان من المهاجرين والأنصار ، وهم مائة فارس ، اختارهم خالد بن الوليد من بين رجال جيشه في اليرموك ، كل فارس منهم

---

(٣٨) طبقات ابن سعد (٢٠٣/٤) وانساب الاشراف (٢١٩/١) .

يرد جيشا وحده [1] ، للتأثير في معنويات الروم قبيل معركة اليرموك الحاسمة.

وعاد الى ساحة الجهاد في العراق ، فقاتل تحت لواء المُثنى بن حارثة الشيباني ، وأبلى في قتاله بلاء حسنا .

وكان جرير على ميمنة الناس في معركة القادسية الحاسمة ، وكان له نصيب بارز في احراز النصر على الفُرس في تلك المعركة الحاسمة .

وشهد فتح المدائن تحت لواء سعد بن أبي وقاص ، ثم تولى القيادة وأصبح قائدا من قادة الفتح الاسلامي ، وله فتوحات في العراق وبلاد فارس معروفة .

لقد كان جرير بطلا لامعا من أبطال المسلمين .

وشهد مُعاذ بن جَبَل مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يتخلف عن أي مشهد من تلك المشاهد ، وأبلى في مشاهده كلها بلاء حسنا .

وشهد حرب الرِدة في اليمن ، وكان أبرز قائد من قادة المسلمين في حرب الردة اليمنية ، حتى استطاع إحراز النصر على المرتدين وإعادتهم الى الاسلام من جديد .

وكان من أعز أمانيه أن يموت شهيدا ، فمات في الطاعون ، والمطعون شهيد .

وقد حاول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، استخراج أبي عُبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل من المنطقة التي اجتاحها الطاعون في فلسطين ، فآثر مُعاذ أن يبقى مع رجاله في المنطقة ويموت معهم على أن يرحل عنها وينجو بنفسه دون رجاله من الموت ، وهذا وحده دليل على شجاعته الفائقة ، فضلاً عن دلالته الى أمور أخرى لاتخفى على أحد .

وكان لأبي موسى الأشعري موقف مشرّف جدا في قتله قاتل عمّه بعد غزوة حُنَين ، وكان قاتل عمه من الأبطال المعروفين .

وكان له في حرب الردة في اليمن مواقف مشهودة ، حتى انتصر على المرتدين مع مَن معه من القادة والمجاهدين .

وقد أصبح أحد قادة الفتح الاسلامي على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ففتح مناطق واسعة جدا من بلاد فارس .

وكان لشجاعته واقدامه أعظم الأثر في انتصاراته المتوالية شرقا وغربا .

لقد كانت الشجاعة في شتى صورها وأشكالها ، سمة من سمات السفراء النبويين .

٧ ـ الحكمة

وردت كلمة : (حَكَمَ) ومشتقاتها في مائتين وعشر آيات من آيات القرآن الكريم (٣٩) ، ووردت كلمة : (الحِكْمَة) في عشرين آية منها ، وكلمة : (الحَكيم) في سبع وتسعين آية منها .

ووردت كلمة : (الحِكْمَة) في الحديث النبوي في عشرين حديثا ، وكلمة : (الحَكيم) في ستة أحاديث نبوية (٤٠) .

والحِكْمَة : هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وهي العلم والتفقه ، وفي التنزيل العزيز : (ولقد آتينا لُقمان الحِكمة) (٤١) ، وهي الكلام الذي يقل لفظه ويجل معناه .

والحكيم اسم من أسماء الله الحُسنى ، والحكيم من الحكمة ، بمعنى العلم والعدل وحسن التدبير (٤٢) ، وبالرغم من كثرة ورود كلمتي : الحكمة ، والحكيم ، في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، فان معنى هاتين الكلمتين مختلف عليه ، فلكل كلمة من كلمات : الحكمة ، والحكيم ، التي

---

(٣٩) انظر التفاصيل في : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٢١٢ـ٢١٥) ـ مطبعة الشعب ـ القاهرة ـ ١٣٧٨هـ .

(٤٠) انظر التفاصيل في : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى (١/٤٩١) ـ مكتبة ليدن ـ ليدن ـ ١٩٣٦م .

(٤١) الآية الكريمة من سورة لقمان (٣١ : ١٢) .

(٤٢) القاموس الاسلامى (٢/١٢٨) ـ ط١ ـ القاهرة ـ ١٣٨٦هـ .

وردت في القرآن الكريم لهما معان خاصة بها بالنسبة لورودها في الآية الكريمة وبالنسبة لرأي المفسر ، وما يقال عن ورود هاتين الكلمتين في الذكر الحكيم وعن تفسيرهما ، يقال عن ورودهما في الحديث النبوي الشريف وعن تفسيرهما أيضا . والقرآن الكريم والسُّنة النبوية هما لكل زمان ومكان ، فمن الأفضل أن يبقى الباب مفتوحا في تفسير معنى : الحكمة ، والحكيم ، لأن المعاني تتغير بالنسبة للزمان والمكان ، وما يُقبل في زمان مُعيَّن ومكان مُعيَّن ، قد لايُقبل في زمان ومكان معينين آخرين ، ومن الحكمة أن تبقى معاني الحكمة والحكيم مرنة لتصلح لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة من الأمم ، ولكل جيل من أجيال تلك الأمم .

وقد تميَّز سفراء النبي صلى الله عليه وسلم بالحكمة ، فلابد أن يكون السفير مُقنعا ، حسن التصرف ، متزنا ، غير متهور ، عاقلا ، ذكيا ، حاضر البديهة ، قوي الحجة ، سليم المنطق ، هادىء الطبع ، مجربا ، الى غير تلك المزايا التي تجعل من السفير حكيما في تصرفه ، ينطق بالحكمة ، ويدعو الى الحكمة .

لقد كانت مناقشة جعفر بن أبي طالب في أرض الحبشة ، لعمرو بن العاص سفير مشركي قريش الى النجاشي ، بحضور النجاشي ملك الحبشة ، صورة من صور الحكمة ، استطاع بها التغلب على عمرو ، واقناع النجاشي بعدالة قضيته (٤٣) .

ولما قرأ المقوقس كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي حمله اليه حاطب بن أبي بَلتَعة ، قال : «ما منعه ان كان نبيا أن يدعو علي فيُسَلَّط علي ؟ !! » ، فقال حاطب : « ما منع عيسى بن مريم ، أن يدعو على مَن أبى عليه أن يُفعَل به ويُفعَل ؟ !! » ، فوجم المقوقس ، ثم استعادها ، فأعادها

---

(٤٣) انظر التفاصيل في : سيرة ابن هشام (١/٣٥٨ ـ ٣٦١) وحلية الأولياء (١/١١٤ ـ ١١٦) وعيون الأثر (١/١١٨ ـ ١١٩) .

عليه حاطب ، فسكت [٤٤] .

وسأل المقوقس حاطبا : «أخبرني عن صاحبك ، أليس هو نبيا ؟! » ، قال : « بلى » ، قال : «فما له لم يَدْعُ على قومه ، حيث أخرجوه من بلده ؟! » ، فأجابه حاطب : «فعيسى بن مريم حين أراد قومه صلبه ، لم يَدعُ عليهم حتى رفعه الله» ، قال : «أحسنت ، أنت حكيم ، جئت من حكيم» [٤٥] .

وقد كان عمرو بن العاص حكيما حقا في أقواله وتصرفاته . قيل لعمرو : « ما العقل ؟ » ، قال : «الاصابة بالظن ، ومعرفة مايكون بما قد كان» [٤٦] . وقال : «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، انما العاقل الذي يعرف خير الشرين » [٤٧] .

وكان يقول : « اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدا ، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدا» [٤٨] ، وقال : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » [٤٩] .

وقال معاوية بن أبي سفيان يوما لعمرو : « ما بلغ من عقلك ؟ » ، فقال : « ما دخلت في شيء قط الا خرجتُ منه.» [٥٠] ، وفي رواية أخرى أنه قال : « لم أدخل في أمر قط فكرهته الا خرجت منه » ، وكان يقول : «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذي يعرف خير الشرين » [٥١] .

لقد بلغ عدد سفراء النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر سفيرا ،

---

(٤٤) فتوح مصر والمغرب (٦٥) .
(٤٥) تهذيب الأسماء واللغات (١٥١/١) .
(٤٦) العقد الفريد (٢٤١/٢) .
(٤٧) العقد الفريد (١١/٣) .
(٤٨) العقد الفريد (٢٧/٣) .
(٤٩) العقد الفريد (٢٠٢/٦) .
(٥٠) العقد الفريد (٢٤٢/٢) .
(٥١) عيون الأخبار (٢٨٠/١) .

استُشهد واحد منهم فقط وهو في طريقه الى ملك بُصرى الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم ، قبل أن يبلغ رسالته النبوية الى ملك بُصرى .

وبلّغ اربعة عشر سفيرا من سفراء النبي صلى الله عليه وسلم الملوك والأمراء بالرسائل النبوية ، وحققوا أهدافهم من سفاراتهم تحقيقا كاملا في التبليغ ، ثم عاد من عاد منهم سالما الى المدينة المنورة ، وبقي من بقي منهم في البلاد التي أرسلوا اليها ، لإسلام الملوك والامراء وإسلام غيرهم من شعوبهم، ودخول الناس في دين الله أفواجا .

ولم يُسلِم أربعة من الملوك والأمراء : ثلاثة منهم من غير العرب ، وواحد منهم عربي ، بينما أسلم الملوك والأمراء الذين أوفد اليهم عشرة من السفراء النبويين .

وهذه النتائج ان دلت على شيء ، فإنما تدل على نجاح السفارات النبوية نجاحا عظيما .

وقد كان أولئك السفراء دعاة للاسلام كما أسلفنا ، التزموا بما جاء في القرآن الكريم حول الدعاة وتصرفهم في مجال الدعوة : (ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادِلهم بالتي هي أحسن ، ان ربَّك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)[٥٢] .

لقد كانت الحكمة من سِمات السفراء النبويين ، لذلك وُفّقوا في الدعوة ونجحوا دعاة .

٨ ـ سعة الحيلة

يجب أن يكون السفير ذكي القلب ، يفهم الايماء ، ويناظر الملوك على السواء[٥٣] ، متأنياً صبوراً ، مكيناً من عقله ، المخمّر لرأيه ، المراجع لنفسه،

---

(٥٢) الآية الكريمة من سورة النحل (١٦ : ١٢٥) .

(٥٣) رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ـ ابو علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء (٣٥) ـ تحقيق د. صلاح الدين المنجد ـ بيروت ـ ١٩٧٢م .

الذى لايمضى إلا الرأى المتعقب المنقح[٥٤] ، له جمال وعقل[٥٥] ، وهو كتوم[٥٦] .

وسعة الحيلة التى ترتكز أولاً وقبل كل شيء على الذكاء ، من أهم سمات السفير ، ويصف العرب الرجل الفطن بالحُوَّل القُلَّب ، بمعنى القادر على تقليب الأمور على أوجهها المختلفة ، واحتيال الحيل لاصابة الهدف ، وإدراك النيات الخفية التي يبيتها المرسل اليه ، والحذر من المزالق واتقاء العواقب غير الحميدة . ومثل هذا الرجل الفطن ، يأخذ دائماً بيده زمام المبادرة ، بحكم يقظته وذكائه وعلمه ، وهو سريع البديهة في مواجهة ماقد يعرض له من مفاجآت غير متوقعة ، قادر على الحركة في أى اتجاه يريد[٥٧] .

ومن مظاهر سعة الحيلة التفكير المنظم ، في معرفة الهدف ، وفي توخى هذا الهدف ، وتنظيم خطة لتحقيق الهدف ، وأن يضع الخطة البديلة في حالة إخفاق الخطة الأولى ، وأن يكون كتوماً في تعيين الهدف والخطة لتحقيقه ، وتوقيت التحقيق ، ومكان التحقيق ، فاذا تسربت النيات والخطط فالنجاح مشكوك فيه ، لذلك كان الكتمان ضرورياً للسفير .

ويمكن أن نعبر عن سعة الحيلة ، بأهم مقوماتها ، وهى الذكاء والدهاء ، وتوقع الأحداث ، والحساب لكل مايمكن أن يحدث أو يتوقع حدوثه .

والحيلة في اللغة : الحذق ، وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف في الأمور[٥٨] ، ورجل حُوَّل ، ذو حيل ، وامرأة حولة ، ويقال هو أحول

---

(٥٤) رسل الملوك (٤٠) .
(٥٥) رسل الملوك (٦٠) .
(٥٦) رسل الملوك (٦١) .
(٥٧) مقومات السفراء في الاسلام ــ حسن فتح الباب (٨٥ ــ ٨٦) ــ القاهرة ــ ١٣٩٠هـ .
(٥٨) انظر : ترتيب القاموس المحيط (٦٤٧/١) ولسان العرب (١٩٦/١٣ ــ ١٩٧) ومعجم متن اللغة (٢٠٥/٢) والوسيط (٢٠٩/١) .

منك ، أي أكثر حيلة. ورجل حُوَّل ، أي بصير بتحويل الأمور ، والحُوَّل، ذو التصرف والاحتيال في الأمور[59] .

وسعة الحيلة ، هى سعة الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف في الأمور ، وكان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم يتسمون بسمة سعة الحيلة ، فكانت تلك السمة عاملاً من عوامل نجاحهم في النهوض بواجباتهم التى أرسلوا لتحقيقها ومن أجلها .

ولعل أوضح دليل على تمتع السفراء النبويين بسعة الحيلة ، هو إسلام من أسلم من الملوك والأمراء ومن معهم من الناس ، بتوفيق الله وتسديده وهدايته .

وأبرز من سجل له المؤرخون مواقف تدل على سعة الحيلة ، هو عمرو بن العاص ، ويمكن ذكر بعض ماسجله المؤرخون لذلك السفير النبوى أمثلة على سعة الحيلة .

كان عمرو قائد المسلمين في فلسطين ، وكان الأرطبون قائد الروم ، وذلك في أيام فتح فلسطين . وقد أراد عمرو أن يحصل على معلومات مفصلة عن الروم ، فدخل على الأرطبون كأنه مبعوث من قائد المسلمين ، ولكن الأرطبون شك في أنه هو القائد ، فاستطاع عمرو التخلص من الأرطبون بعد أن انكشف أمره للارطبون ، فلما سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بخديعة عمرو للارطبون قال : « لله دَرُّ عمرو ! » ، كما قال عنه الأرطبون : « هذا أدهى الخلق »[60] .

---

(59) لسان العرب (١٣/١٩٧) .

(60) انظر التفاصيل في الطبري (٣/٦٠٥ — ٦٠٧) وابن الأثير (٢/٤٩٨) ، وانظر تفاصيلها في سيرة عمرو بن العاص في : سفراء النبي صلى الله في ص (٦٧ — ٧٠) من هذا الكتاب .

ولما فتـح عمرو قيساريـة[٦١] من أرض فلسطين ، سار حتى نـزل غزة[٦٢] ، فبعث اليه علجها : « أن ابعث إليّ رجلا أكلمه » . وفكر عمرو في الامر ، فقال : « مالهذا أحد غيرى » .

وخرج عمرو حتى دخل على العلج ، فكلمه ، فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله ، فقال العلج : « حدثنى ، هل في أصحابك أحد مثلك ؟! » ، قـال : « لاتسأل عن هذا ، انى هين عليهم اذ بعثوا بى اليك ، وعرضونى لما عرضونى له ، ولا يدرون ماتصنع بى ! » ، فأمر له بجائزة وكسوة ، وبعث الى البواب : « اذا مربك فاضرب عنقه وخذ ما معه » .

وخرج عمرو من عنده ، فمر برجل من نصارى غسان ، فعرفه . فقال : « يا عمرو ! قد أحسنت الدخول ، فأحسن الخروج » ، ففطن عمرو لما أراده ، فرجع . وقال له الملك : «ما ردّك إلينا ؟! » ، فقال : «نظرت فيما أعطيتني ، فلم أجد ذلك يسع بني عمي ، فأردت أن آتيك بعشرة منهـم تعطيهم هـذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيرا من أن يكون عند واحد» ، فقال : «صدقتَ ! اعجَل بهم » ، وبعث الى البواب : أن خَلِّ سبيله .

وخرج عمرو وهو يلتفت ، حتى اذا أمِن قال : « لا عُدتُ لمثلها أبدا» ، فلما صالحه عمرو ، ودخل عليه العِلج ، قال له : «أنت هو !!!» ، قال : «نعم، على ما كان من غَدرك» [٦٣].

---

(٦١) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) تعد من أعمال فلسطين ، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام ، وكانت قديماً من أعيان امهات المدن ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٥/٧) .

(٦٢) غزة : مدينة بأقصى الشـام من ناحية مصر ، وهى مدينـة فلسطينية مشهورة ، بينها وبين عسقلان فرسخان أو اقل في غربيها ، وفيها مات هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وبها ولد الامام الشافعى رحمه الله ، انظر مراصد الاطلاع (٩٣٣/٢ ـ ٩٩٤) .

(٦٣) العقد الفريد (١٢٤/١ ـ ١٢٥) .

وكرر عمرو هذه العملية مرة ثالثة في أيام فتح مصر[٦٤] .

وقد تسنّم سفراء النبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد التحاقه بالرفيق الأعلى مناصب ادارية وقيادية وقضائية رفيعة كما هو معروف ، مما يدل على تميزهم بسمات رفيعة ، منها سِمة : سِعة الحيلة ، ولا عبرة بسكوت قسم من المؤلفين عنها ، فقد سكتوا بدون قصد عن كثير من أمثالها .

٩ — المظهر

تميّز سفراء النبي صلى الله عليه وسلم بسِمة : رواء المظهر ، بالاضافة الى تميزهم بسمات : رواء المخبر ، فجمعوا رواء المظهر الى رواء المخبر ، فكان مظهرهم الجميل دليلا على مخبَرِهم الطاهر ، والأثر يدل على الأثير ، والبَعرة على البعير ، كما يقول المثل العربي المشهور .

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم ، على اختيار سفرائه من بين أصحابه الذين تتوافر فيهم صفات شكلية جميلة الى جانب سِماتهم العقلية والنفسية التي ذكرناها في تعداد : سِمات السفراء النبويين .

والمهم في الاسلام المَخبَر لا المظهر في تقويم المسلم ، فالاسلام لا يُقيم وزنا لوسامة الوجوه وبهاء الملامح ، ولا يحفل باختلاف الأشكال والألوان ، لأنه دين الجوهر لا المظهر ، فلا فرق بين الأبيض والاسود ، والله سبحانه وتعالى يقول : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[٦٥] ، وقال عليه الصلاة والسلام : «كلكم بنو آدم ، وآدم خُلِقَ من تراب »[٦٦] ، وقال : « رُبَّ أشعثَ أغبَرَ[٦٧] ذي طِمرَين[٦٨] تنبو عنه أعين الناس ، لو أقسم على الله

---

(٦٤) انظر التفاصيل في : فتوح مصر والمغرب (٩٣) .
(٦٥) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٣) .
(٦٦) رواه البزار عن حذيفة ، وهو حديث حسن ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى (١٥٨/٢) .
(٦٧) اغبر : غير الغبار لونه .
(٦٨) الطمران : تثنية طمر ، وهو الثوب الخلق .

لأبَرَّه »[69] ، وقال «ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم وأموالكم ، انما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم »[70] .

والواقع أنه لاتناقض بين مبادىء الاسلام في المساواة بين الناس ، وبين اشتراط اسمه المظهر في السفير ، لأن الأمر هنا لايتعلق بالحقوق أو الواجبات التي يسوّى الاسلام فيها بين الناس ولا بالموازين التي يُقاس بها المسلم ، ولكنه يتعلق بالأوضاع الوظيفية ومقتضياتها وبالقاعدة الادارية التي تقـول بضرورة وضع كل مسلم في المكان الذي تؤهله له طبيعته وصفاته ومؤهلاته ، وهذه المبادىء لاتتنافى مع مبادىء الاسلام طالما روعيت العدالة في تطبيقها . بل إنها تتفق مع أصول الحكـم والادارة في الاســلام ، وتستند الى المبدأ الاسلامي القــائل : « كل مُيَسَّر لما خُلِـق له » ، والى المبـدأ التشريعي الأساسي القائل : « لا ضَرَرَ ولا ضِرار »[71] .

إن من سِمات السفير ، أن يكون حَسن الرواء والمنظر[72] ، وسيما قسيما[73] ، ويُستحب في السفير تمام القَد ، وعَبالة الجسم ، حتى لايكون قميئا . وإن كان المرء بأصغريه ، ومخبوءا تحت لسانه ، ولكن الصورة تسبق اللسان ، والجثمان يستر الجنان[74] .

قال النبي صلى الله عليه وسلم لجعفر بن أبي طالب : « أشبَه خَلقُكَ

---

(69) حديث صحيح ، رواه مسلم واحمد بن حنبل ، انظر مختصر شرح الجامع للمناوى (٢/٣٥) .

(70) حديث صحيح ، رواه مسلم وابن ماجة ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى (١/١٢٤) .

(71) مقومات السفراء في الاسلام (٦٠) ـ حسن فتح الباب ـ المجلس الأعلى الشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ ١٣٩٠هـ .

(72) رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ـ (٣٤) ـ ابو على الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء ـ تحقيق د ـ صلاح المنجد ـ ط ٢ ـ بيروت ـ ١٩٧٢م .

(73) رسل الملوك (٣٥) .

(74) رسل الملوك (٤٧) ، والعبالـة : الفخامة وامتلاء الجسـم . والعبل : الممتلىء الجسم . والقمىء كأمير : اذا ذل وصغر في الأعين ، فهو قمىء .

خَلقي ، وخُلُقُكَ خُلقي » ، وفي رواية أخرى: «أشبَهتَ خَلقي وُخلُقي»، وفي رواية ثالثة : « إنكَ شبيهُ خَلقي وُخلُقي»[75] ، فهو أحد المعدودين من المشبَّهين برسول الله صلى الله عليه وسلم [76] .

ولم يفصِّل مَن كتبَ على جعفر بن أبى طالب مظهره ، ولكنهم فصّلوا مظهر النبي صلي الله عليه وسلم ، ووصفُ النبي صلى الله عليه وسلم في مظهره بلغة العصر اعتمادا على كتب الحديث[77] هو أنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولكنه كان وسطا ، بارع الجمال ، مدور الوجه كالقمر حين يكون بدرا أو كالشمس ، أبيض اللون مشرّبا بحُمرة ، شديد سواد العينين ، أهداب أجفانه طويلة الشعر ، عظيم رءوس العِظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين والكاهل وما يليه من جسده ، شعره بين السُرّة وما تحتها دقيق ، غليظ الكفين والقدمين ، شعره ليس سبطا ولا جعدا ، يمشي بقوة وثبات كأنه ينحدر من مرتفع عال ، يلتفت بكل رأسه ، كبير الرأس ، واسع الجبين ، في بياض عينه حُمرة ، كثيف شعر الحواجب بدون قرن ، أكحل العينين من غير كحل ، سهل الخدين ، في عظم أنفه أحديداب ، ضليع الفم ، مفلج الاسنان أبيضها ، طويل العنق ، عريض الصدر ، بعيد مابين المنكبين ، سواء البطن والصدر ، لم يُعبه عِظَم البطن ، ليس في أسفل صدره وثدييه شعر ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ، رحب الراحة ، تبرق أسارير وجهه اذا كان مسرورا ، واذا غضب ظهر الغضب على وجهه ، ضخم الرأس

---

(75) اشبهت خلقى وخلقى ، رواه الشيخان ، انظر تيسير الوصول (٣/٢٧٥) ، وطبقات ابن سعد (٤/٣٦) .

(76) انظر أسماءهم في المحبر (٤٦ ـ ٤٧) .

(77) انظر وصف على بن ابى طالب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ووصف الحسن بن على بن ابى طالب رضى الله عنهما للنبي صلى الله عليه وسلم ، ووصف أنس بن مالك رضى الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث الامام احمد بن حنبل والترمذى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم ، وانظر تلك الأوصاف في : ومضات من نور المصطفى صلى الله عليه وسلم (٢٩ ـ ٣٠) .

واللحية ، شعر رأسه بين أذنيه وعاتقه طوله الى شحمة أذنه ، حلته غالبا بيضاء وقد تكون صفراء أو حمراء ، توفى وليس في شعره ولحيته عشرون شعرة بيضاء ، لم يخضب ، طيّب الرائحة ، نظيف البدن ، والثياب ، الى أبعد الحدود ، مَن رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه[٧٨] .

وقد أشبه خَلق جعفر خلق النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو جميل المظهر حقا ، وصدقت زوجة جعفر وهي أسماء بنت عُمَيس ، حيث وصفته بعد استشهاده قائلة : « ما رأيت شابا من العرب كان خيرا من جعفر » [٧٩] .

وصدقت في رثائه حين قالت :

فآليتُ لا تنفكُّ نفسي حزينةً
عليكَ ولا ينفكُّ جِلدي أغْبرا

فلِلّهِ عَيناً مَن رأى مِثلَهُ فتىً
أكرَّ وأحمى في الهياج وأصبرا[٨٠]

وكان دِحية بن خليفة الكلبي جميلا من أجمل الناس[٨١] ، وكان أجمل الناس وجها[٨٢] ، يُضرب به المثل في حسن الصورة[٨٣] .

وكان عبدالله بن حُذافة السهمي القُرشي يتسم برواء المظهر ، فقد ذكرنا أن الروم أسرته ، وأن ابنة ملك الروم رغبت به زوجا لها ، على شرط اعتناقه النصرانية ، ولكنه رفض الوعد والوعيد ، ولم يستجب لملك الروم ، وبقى مسلما ، غير ملتفت للاغراء[٨٤] .

وكان حاطِب بن أبي بلتَعَة حسن الجسم ، خفيف اللحية ، أجنأ ، شَثْن

---

(٧٨) ومضات من نور المصطفى صلى الله عليه وسلم (٣١) — ط ٢ — القاهرة — ١٣٩٩ هـ .
(٧٩) طبقات ابن سعد (٤١/٤) .
(٨٠) البداية والنهاية (٢٥٣/٤) .
(٨١) تهذيب الأسماء واللغات (١٨٥/١) .
(٨٢) تهذيب التهذيب (٢٠٦/٣) .
(٨٣) الاصابة (١٦٢/٢) .
(٨٤) أسد الغابة (١٤٣/٣) .

الأصابع [٨٥] .

وكان شُجاع بن وهب الأسدي رجلا نحيفا طوالا أجنأ[٨٦] ، وهي ملامح تدل على رواء مظهره .

وكان عمرو بن العاص رَبْعَة ، قصير القـامة ، وافر الهـامة ، أدعج أبلج[٨٧] ، يخضب بالسواد[٨٨] ، يهتم بملبسه ومأكله [٨٩]، فـكان له رواء للمظهر ، طبيعي ، ورواء للمظهر ، اصطناعي .

ولا نص على رواء مظهر العلاء الحضرمي ، ولكنه وأهله كانوا حلفاء بني أمية ، وهم معروفون بالاهتمام بمظهرهم قبل الاسلام وبعده ، فمن المعقـول أن يقتدي الحليف بحليفه ، وبخاصة وأنهم يعيشون بتماس شديد ، متعاونين في البأساء والضراء .

والصعبة أخت العلاء ، كانت تحت أبي سُفيان بن حرب ، وكان أبو سفيان سيد قريش وقائدهم حتى يوم فتح مكة المكرمـة في السنة الثـامنة الهجرية ، فليس من المعقول أن يتزوج الصعبة وهي ليست قرشية ويتخـلى عن بنات قومه من قريش ، الا اذا كان وراء زواجه بها جمالها غير الاعتيادي ، فأغراه بها جمالها الباهر ، واختارها خليلة له . فلما طلقها أبو سفيان ، خلـف عليها عُبيدالله بن عثمان التيمي ، فولدت له طلحة بن عُبيدالله أحد العشرة المبشرين بالجنة[٩٠] ، مما يدل على جمالها حتى بعـد أن تخلى عنها ريعـان الشباب ، فما كسدت بعد طلاقها ، بل أقبل عليها أشراف قريش . وكان طلحة ابن عُبيدالله رضي الله عنه حسن الوجه ، دقيق العِرنين[٩١] ، ولا يُستبعد أن

---

(٨٥) طبقات ابـن سـعد (٣/١١٤) وأجنا : الذى على كاهلـه انحناء على صدره . والشثن : الغليظ الخشن ، يقال : شثن الأصابع .

(٨٦) طبقات ابن سعد (٣/٩٤) .

(٨٧) فتوح مصر والمغرب (١٩٠) وانظر الاصابة (٥/٢) .

(٨٨) فتوح مصر والمغرب (٢٤١) وانظر اسد الغابة (٤/١١٧) .

(٨٩) فتوح مصر والمغرب (١٩٠) و (٢٤١) وانظر اسد الغابة (٤/١١٧) .

(٩٠) طبقات ابن سعد (٤/٣٥٩) .

(٩١) طبقات ابن سعد (٣/٢١٩) ، والعرنين : ماصلب من عظم الأنف .

يكون طلحة قد حَوّل ، فورث الجمال عن أمه وأخواله ، ومنهم العلاء .

وما يقال عن العلاء ، يقال عن المهاجر بن أبى أمية[٩٢] المخزومي ، فلا نص على رواء مظهره ، ولكن المصادر تنص على أن شقيقته أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها ، كانت : «موصوفة بالجمال البارع ، والعقل البالغ ، والرأي الصائب ، ولعل اختياره سفيرا دليل على رواء مظهره ، وانه كان يشابه شقيقته في مظهرها ومخبرها أيضا .

وكان جرير بن عبدالله البجلي جميل الصورة ، وحين قدم على النبي صلى الله عليه وسلم مُسلما من اليمن ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنه يَقدم عليكم من هذا الفج من خير ذي يمن ، وان على وجهه مِسحة ملك» ، فلما دخل ، نظر الناس اليه ، فكان كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبروه بذلك ، فحمد الله تعالى[٩٣] .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : «جرير يوسف هذه الأمة»، لجماله وكماله وحسن فعاله[٩٤] .

وكان طويل القامة ، يصل الى سنام البعير ، يخضب لحيته بزعفران بالليل ، ويغسلها اذا أصبح[٩٥] .

رآه عبدالملك بن عُمَير فقال : «رأيتُ جريرا ، كأن وجهه شق قمر»[٩٦] .

وكان جرير من المتعممين بمكة المكرمة ، مخافة النساء على أنفسهم من جمالهم[٩٧] .

وكان مُعاذ بن جبل رجلا طوالا ، أبيض ، حسن الثغر ، أكحل العينين،

---

(٩٢) الاصابة (٨/٢٤١) .
(٩٣) البداية والنهاية (٨/٥٥) .
(٩٤) البدء والتاريخ (٥/١٠٣) وانظر تهذيب الأسماء واللغات (١/١٤٧) .
(٩٥) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٤٧) .
(٩٦) البداية والنهاية (٧/٥٦) .
(٩٧) المحبر (٢٣٢ .

براق الثنايا[٩٨] ، حسن الشعر ، عظيم العينين[٩٩] ، جميلا ، من أفضل سادات قومه ، سمحا لايمسك[١٠٠] ، أحسن الناس وجها[١٠١] .

وكان ابو موسى الأشعري خفيف الجسم ، قصيرا ، أثط[١٠٢] اللحية . ويبدو أنه لم يكن جميلا بالدرجة الكافية ، ولكن مظهره كان مقبولا على العموم ، وعلى كل حال كانت سفارته الى اليمن لا الى دولة أجنبية كالفرس والروم ، أو الى عرب لهم صلة مباشرة ذات جذور عريقة بالفرس والروم كالغساسنة في بلاد الشام ، والمناذرة في العراق ، فهو عربي يمني ، أرسل الى عرب اليمن بني قومه والى اليمن وطنه ، وأهل مكة أدرى بشعابها ، كما يقول المثل العربي القديم .

إن مظهر المرء يؤثر في من يراه من الناس ، فاذا كان مظهره مقبولا ، كان بداية طيبة لتقبل مايعرض ولتحقيق مايستهدف . أما اذا كان مظهره بشعا ، فقد يكون ذلك بداية للاخفاق .

وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام : «اذا أبردتم[١٠٣] إليَّ بريدا ، فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم»[١٠٤] .

★ ★ ★

---

(٩٨) طبقات ابن سعد (٥٩٠/٣) ، وانظر الاستبصار (١٤٠) .
(١٠٠) الاستيعاب (١٤٠٤/٣) .
(١٠١) أسد الغابة (٣٧٦/٤) .
(١٠٢) طبقات ابن سعد (١١٥/٤) والمعارف (٢٦٦) ، وانظر المحبر (٣٠٥) ، والثط : هو الذى لالحية له ، وهو الكوسج ، وهو السناط .
(١٠٣) ابردتم : أرسلتم رسولا .
(١٠٤) حديث حسن ، رواه البزار ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى (٢٣/١) .

نهاية المطاف

تلك هي مجمل سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، استنبطناها من سيرهم ومن دراسة المؤلفات الخاصة بالسفارات النبوية ، وضربنا على كل سمة من تلك السمات من سيرهم الأمثال .

وهناك حافزان حملاني على تأليف هذا البحث : حافز مباشر ، وحافز غير مباشر .

أما الحافز المباشر ، فهو الأمل في اقتداء المسئولين العرب والمسلمين بالنبي صلى الله عليه وسلم في اختيار السفراء ، اهتداء بسمات السفراء النبويين، الذين كان نجاحهم في سفاراتهم النبوية واضحا مشهودا ، فنشروا الاسلام في البحرين وعمان وحضرموت واليمن واليمامة وبلاد الحبشة ، نتيجة فورية لسفارات النبي صلى الله عليه وسلم الى تلك الأصقاع بالدعوة الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والاقناع بالحسنى . كما مهدوا لنشر الاسلام في العراق وأرض الشام ومصر وبلاد فارس وبلاد الروم ، وفي كل موطن وصل اليه سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم تمض سنوات معدودات على السفارات النبوية الى تلك الأصقاع ، حتى جاءها نصر الله والفتح ، ودخل الناس من أهلها في دين الله أفواجا .

كانت تلك السمات : الاسلام والانتماء اليه ، فلا انتماء الا اليه ، ولا اخلاص الا له ، ولو خُيِّر أحدهم بين التخلي عن عقيدته والتخلي عن روحه ، لاختار بدون تردد التخلي عن روحه ، اخلاصا لعقيدته ودفاعا عنها ووفاء لها.

والسمة الثانية ، هي الفصاحة ، ليُبيِّن هدفه ، والغاية التي جاء من أجلها ، ويدافع عن الاسلام ، ويرد على المعترضين ، ويناقش المتشككين، بمنطق واضح وبيان مُبين .

والسمة الثالثة ، هي العلم ، العلم بتعاليم الدين ، والعلم بتعاليم الأديان

السائدة ، والعلم بالأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في بلده وفي بلد الملك المرسل اليه ، والعلم بالملك الذي سيقابله والحاشية التي تحيط به . وللعلم أثره ، وللعالم تأثيره ، ولا يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون .

والسمة الرابعة هي حُسن الخُلُق ، فهو زينة للسفير ، ومدخل لنجاحه وسبيل الى قلوب الذين أرسل اليهم ، ووسيلة لإعطاء انطباع متميز عن الذي أرسل السفير ، وعن الأمة التي ينتسب اليها السفير .

ولانجاح لسفير لاخلاق له .

والسمة الخامسة هي الصبر الجميل ، وكل عمل السفير بحاجة الى الصبر الجميل ، وما أفلح سفير يجتاحه الجزع ، فاذا جزع السفير فقد خسر كل شيء ، واذا صبر فقد يسّر لواجبه أول عوامل النجاح .

والسمة السادسة هي الشجاعة والاقدام ، فما وُفّق جبان في عمل عام ، ولايصلح الجبان لأي عمل عام ، ولايفلح الجبان حيث أتى .

والسمة السابعة هي الحكمة ، وهيهات أن يحقق الأحمق هدفه ولو كان ظاهرا ، والحكيم هو الذي يحقق هدفه ولو كان مستعصيا ، وبالحكمة تلين القلوب وتستكين النفوس ، وبدونها تقسو القلوب وتشتد النفوس ويصبح التفاهم صعبا ان لم يكن مستحيلا .

والسمة الثامنة هي سِعة الحيلة ، فذكاء القلب يفتح ما استُغلق من القلوب ، وغباء القلب يغلق ما استُفتح من القلوب ، والسفير ذو الحيلة الواسعة يفهم مايسمع ويستنبط مما يسمع ، فاذا تعذر عليه السَّمع لم يُعجزه التوصل الى السماع . وهو على كل يعود موفقاً ، ولايعود الا بتحقيق أهدافه كاملة غير منقوصة ، مهما يصادف من مشاكل وصعوبات .

والسمة التاسعة هي المظهر الجميل ، فهو القادر على استهواء القلوب القاسية واستصفاء النفوس الصعبة ، بعكس المظهر القبيح ، فهو الكفيل

بادبار القلوب اللينة واستكبار النفوس الهينة . انها تجعل الصعب سهلاً، وغير الممكن ممكنا ، وتيسّر الأمور ، وتبسّط المعقّد ، وتفتح القلوب والنفوس على مصراعيها .

وكم أتمنى ، ويتمنى كل عربي ومسلم ، أن يضع المسئولون العرب والمسلمون هذه السمات نصب أعينهم ، في حالة اختيار السفراء الذين يمثلون بلادهم في البلاد العربية الشقيقة والدول الاسلامية والدول الأجنبية ، وبذلك تُرفع مكانة السفراء العرب والمسلمين ومكانة السفارات العربية والاسلامية في الداخل والخارج ، وتصبح لهم مكانة في المنظمات الدولية وبين الدول كافة في العالم .

فان استطعتُ أن أوجّه أنظار المسئولين العرب والمسلمين الى هذه السمات التسع الواجب أن يتحلى بها السفراء العرب والمسلمون ، أسوة بسفراء النبي صلى الله عليه وسلم في سماتهم المتميزة ، فذلك غاية ما أصبو اليه وأتمناه على الله .

وإن لم أستطع أن أوجه أنظار المسئولين العرب والمسلمين الى هذه السمات التسع ، أو استطعت أن أوجه اليها أنظارهم فقرأوها ولم يعملوا بها، ولم يقتدوا بسمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد بذلتُ جهدي وما أردت الا الاصلاح ، والتوفيق من الله سبحانه وتعالى وحده و : « إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل أمرىء مانوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر اليه » أخرجه الخمسة (١٠٥) .

أما الحافز غير المباشر ، فهو خدمة السيرة النبوية ، في ناحية مهمة جدا

---

(١٠٥) تيسير الوصول الى جامع الأصول من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (٤/٢٨٢) .

من نواحيها ، قد تسد حاجة وتملأ فراغا في المكتبة العربية والاسلامية ، ينبغي ألا يبقيان بعد اليوم بإذن الله .

وليست بي حاجة الى أن أكشف جهودي ومنهجي في تأليف هذا البحث الذي استمر ثلاث سنوات ، اتصل فيها الليل بالنهار ، وأتوقع أن يكتشف القارىء والدارس والباحث والناقد الجهد والمنهج ، والله أسأل أن يفيد بهذا الجهد ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم .

والحمد لله الذي أنعم علي بالتفرغ لخدمة السيرة النبوية ، وقادة النبي صلى الله عليه وسلم ، وسفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، وقادة الفتح الاسلامي ، والعسكرية العربية الاسلامية ، فلولا تفرغي الكامل لهذه الدراسات لما استطعت أن أفعل شيئا ، وما أصدق الشافعي رحمه الله في قولته : « لو كُلِّفتُ بشراء بَصَلة ، لما استطعت حل مسألة » .

والله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بُكرة وأصيلا .

وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين . ورضي الله عن قادة النبي صلى الله عليه وسلم وجنوده ، وسفرائه ، وكتابه ، وأمرائه ، وقضاته ، وجباته ، وولاته ، وحراسه وحماته ، وأولاده وبناته وزوجاته .

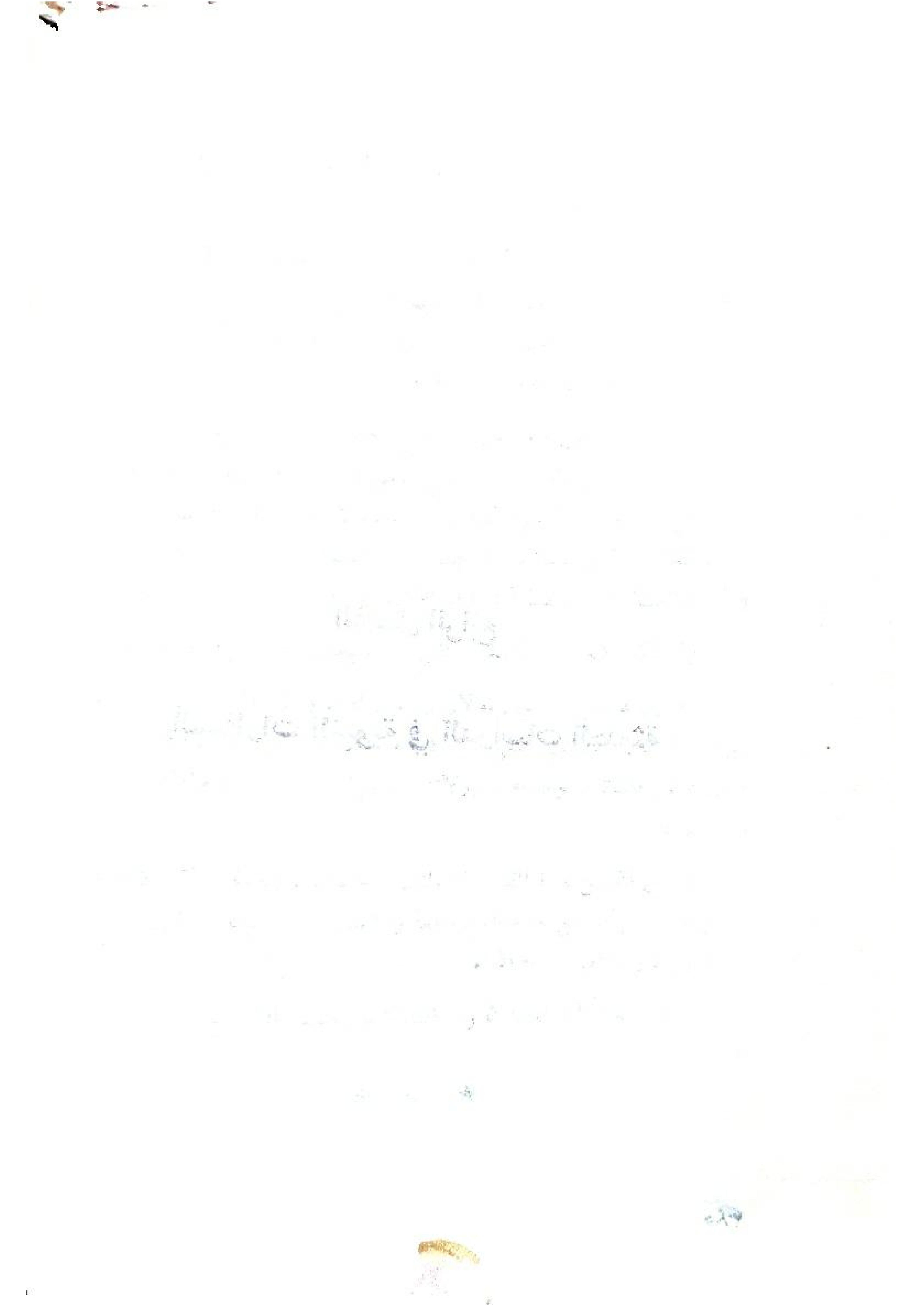
ورضي الله عن قادة الفتح الاسلامي وجنوده ، وقادة الفكر الاسلامي وجنوده ، وعن كل من خدم العربية لغة والاسلام دينا ويخدمها الى يوم الدين بأمانة وقوة وإخلاص لوجه الله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .



الفصل الرابع

السفارات النبوية في الدراسات الحديثة



مستهل

١ ـ جرت دراسات وبحوث في موضوع : (السّفارات النبوية) لاتعد ولا تحصى ، وكانت الرسائل النبوية التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك والأمراء وقادة الامم والشعوب والقبائل والجماعات في عصره ، صفحة بارزة من صفحات السيرة النبوية والتاريخ الاسلامي ، لأن تلك الرسائل تكشف عن وجه من وجوه التطبيق العملي الملموس لعالمية الدعوة الاسلامية ، باعتبارها خاتمة الأديان والهداية الالهية الى الناس كافة .

وقد حظى موضوع السّفارات النبوية والرسائل النبوية التي هي جزء من السفارات النبوية ، بما يستحقه من عناية علماء الحديث ، والسيرة ، والتاريخ ، والأدب ، قديما ووسيطا وحديثا ، في دراساتهم وبحوثهم ومؤلفاتهم . ومع ذلك يبقى المجال مفتوحا الى مزيد من الدراسات والبحوث والمؤلفات ، بخاصة فيما يتصل بتفاصيل الوفادات ، ونصوص الرسائل النبوية ، والردود على تلك الرسائل ، والآثار التي ترتبت على تلك السفارات ، والعِبَر والدروس المستنبطة منها ، توصلا الى التجويد والاتقان ، وردا على التشكيك والأوهام .

٢ ـ وقد استجد في موضوع : السفارات النبوية ، خلال النصف الثاني من القرن العشرين أمران على جانب كبير من الأهمية :

أولهما : الدراسات التي نشرها قسم من المستشرقين ، وتابعهم فيها بدون تمحيص قسم من الباحثين المستغربين من المسلمين ، وهي تشكك في السفارات النبوية وفي صحة ماورد في نصوص الرسائل النبوية ، اذ تزعم هذه الدراسات أن الرسائل والسفارات النبوية هي من اختراع المؤلفين المسلمين ، ولا صحة لها في التاريخ والواقع . وقد يترفق قسم من هؤلاء المستشرقين الباحثين ، فيتقبلون بعضا من الرسائل والسفارات النبوية وينكرون بعضها الآخر ، ولكنهم في مجموع ما دونوا من بحوث ودراسات ومؤلفات ،

يشككون في أخبار الرسائل النبوية والسفارات وما يتعلق بها من وثائق واتصالات وأحداث ومحادثات ونتائج وعِبَر .

وثانيهما : العثور على خمسة رقوق ، يُظَن أنها أصول خمس رسائل نبوية من الرسائل النبوية الرئيسة ، وهي بترتيب العثور عليها : رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القِبط في مصر ، ورسالته الى المنذر بن ساوى حاكم البحرين ، ورسالته الى النجاشي ملك الأحباش في بلاد الحبشة وكسرى عظيم فارس ، وهرقل عظيم الروم .

وقد دارت حول هذه الرقوق دراسات وبحوث ومناقشات ، شارك فيها عدد من علماء المسلمين والمستشرقين ، واختلفت الآراء حول توثيقها وصحتها ولكنها في محصلتها أضافت الى الدراسات الحديثة للسفارات والرسائل النبوية بُعدا جديدا لم يكن معروفا من قبل .

إن هذين الأمرين : تشكيك المستشرقين ، واكتشاف أصول بعض الرسائل النبوية ، يفتحان الباب على مصراعيه ، لمزيد من الدراسة والمراجعة لهذا الموضوع المهم من مواضيع السيرة النبوية العطرة[1] .

في المصادر والمراجع العربية الاسلامية

١ ــ القديمة :

أ ــ تجمع كتب الحديث الرئيسة على ذكر السفارات النبوية والرسائل النبوية ، فقد ذكر الامام البخاري (ت ٢٥٦هـ) في صحيحه في باب : اتخاذ الخاتم ليختم به الشيء ، أو ليكتب به الى أهل الكتاب وغيرهم) ما نصه :

---

(١) د. عز الدين ابراهيم ــ الدراسات المتعلقة برسائل النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك في عصره ــ مجلة المؤرخ العربي ــ العدد (٢٣) لسنة ١٩٨٥ ــ ص (٢٣٩ ــ ٢٤٠) ، وقد اعتمدنا هذا البحث النفيس في هذه الدراسة بصورة رئيسة .

«عن أنس بن مالك قال : لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يكتب الى الروم ، قيل له : إنهم لن يقرؤا كتابك اذا لم يكن مختوما ، فاتخذخاتما من فضّة ، ونقشه محمد رسول الله ، فكأنما أنظر الى بياضه في يده»[٢] ، وهذا الباب هو من كتاب : (اللّباس)[٣] من صحيح البخاري •

وأورد البخاري في صحيحه ، خبر الكتابة الى كسرى ، في باب : (كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى كسرى وقيصر) ، ونصه : «عن عبدالله بن عباس ، أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث بكتابه الى كسرى مع عبدالله ابن حُذافة السهمي ، فأمره أن يدفعه الى عظيم البحرين ، فدفعه عظيم البحرين الى كسرى ، فلما قرأ مزقه ، فحسبتُ أن ابن المُسيَّب قال : فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُمزقوا كل مُمَزَّق»[٤] ، وهذا الباب هو باب من أبواب كتاب : (المغازي)[٥] في صحيح البخاري • وقال ابن حجر العسقلاني شارح صحيح البخاري في شرح : « فلما قرأ مزقه » ، «وفيه مجاز ، فإنه لم يقرأه بنفسه ، وإنما قُرىء عليه»[٦] ، اذ كان كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى كسرى بالعربية ، ولم يكن كسرى يُحسن العربية •

وأورد البخاري في صحيحه خبر الكتابة الى هِرَقل والوفادة اليه في ثلاثة أبواب هي : (بدء الوحي) ، و : (دعوة اليهود والنصارى وعَلامَ يُقاتلون عليه) و : (تفسير سورة آل عِمران) •

ففي باب : (بدء الوحي) ورد ما نصه : «عن عبدالله بن عباس ، أن أبا سفيان بن حرب أخبره ، أن هرقل أرسل اليه في ركب من قريش كانوا

---

(٢) فتح الباري بشرح البخاري (١٠/٢٧٣) ـ الهامش للجامع الصحيح .
(٣) فتح الباري بشرح البخاري (١٠/٢١٥ ـ ٣٣٥) .
(٤) فتح الباري بشرح البخاري (٨/٩٦) .
(٥) فتح الباري بشرح البخاري (٧/٢١٧ ـ ٤٠٤) و (٨/٢ ـ ١١٧) .
(٦) فتح الباري بشرح البخاري (٨/٩٦) .

تجارا بالشام في المدة [٧] التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مادّ بها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بأيلياء [٨] . فدعاهم وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم فدعا بالترجمان ، فقال : أيّكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم . فقال : أدنوه مني وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه : قل لهم اني سائل هذا عن هذا الرجل ، فان كذبني فكذبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذبا لكذبت عنه . ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا. قال : فهل كان من آبائه مِن مَلِك ؟ قلت : لا. قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : ضعفاؤهم. قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون. قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا. قال : فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قلت : لا. قال : فهل يَغدِر ؟ قلت : لا، ونحن منه في مدة لاندري ما هو فاعل فيها — ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة — . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم. قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سِجال ، ينال منا وننال منه. قال : فماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ماكان يعبد آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان : قل له : اني سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله . وسألتك هل كان في آبائه مِن مَلِك ، فذكرت أن لا ، فقلت لو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجل يطلب مُلك أبيه.

---

(٧) في المدة : يعني مدة الصلح بالحديبية ، انظر فتح الباري بشرح البخاري (٣٠/١) .

(٨) ايلياء : بيت المقدس .

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل. وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الايمان حتى يتم. وسألتك ايرتد أحد سَخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا، وكذلك الايمان حين تُخالط بشاشته القلوب . وسألتك هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لاتغدر . وسألتك بماذا يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فان كان ما تقول حقا ، فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنتُ أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أعلم أني أخلُصُ اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنتُ عنده لغسلت عن قدمه . ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بُعِث به دِحية الى عظيم بُصرى ، فدفعه الى هِرَقل ، فقرأه ، فاذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . من : محمد عبدالله ورسوله. الى : هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد. فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلِم تَسلَم يؤتِك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك إثم اليريسين[9] ، و (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد الا الله ، ولا نُشرك به شيئا ، ولا يتخِذ بعضُنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون)[10] ، قال قال أبو سفيان : فلما قال ماقال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا ، فقلت لأصحابي : لقد أمِر أمرُ ابن ابى كبشة ، إنه يخافه ملك بنى الاصفر ، فما زلت موقنا أنه سيظهر ، حتى أدخل الله على

---

(9) اليريسين : جمع اريسى ، وهو الاكار ، اى الفلاح ، انظر فتح البارى بشرح البخارى (١/٣٦) ، وفي الطبرى (٢/٦٤٩) وابن الاثير (٢/٢١٣ ، وردت : عليك اثم الاكارين ، اي الفلاحين . وانظر ما جاء عن الأريسيين في ص (٦٧ ــ ٧٠) من هذا الكتاب .

(10) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ٦٤) .

الاسلام [11] .

ونص ما ورد في بـاب : (دعوة اليهود والنصارى وعلى مـا يقاتلون عليه ، وما كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى كسرى وقيصر والدعوة قبل القتال) : « قال أنس بن مالك : لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب الى الروم ، قيل له انهم لايقرأون كتابا الا أن يكون مختوما ، فاتخذ خاتما من فضة ، فكأنى أنظر الى بياضه في يده ، ونقش فيه : محمد رسول الله »[12] . وقد ذكرنا ذلك في باب : (اتخاذ الخاتم) الذى هو باب من أبواب كتاب : (اللباس) من صحيح البخاري .

كما تكرر حديث عبد الله بن عباس على قصة أبى سفيان بن حرب مع هرقل قيصر الروم في باب : (دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الى الاسـلام والنبوة وأن لايتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، وقوله تعالى : (ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب ... الآية)[13] ، وهو باب من أبـواب كتاب : (الجهاد)[14] من صحيح البخاري .

والتكرار يـدل على أهمية الخبر ، وفي غير كتب الحديـث الصحيحة المعروفة يدل التكرار على توثيق الخبر أيضا ، أما في كتب صحاح الحديث فالتوثيق متوفر على كل حال .

---

(11) صحيح البخاري ـ التجريـد الصريح لاحاديـث الجامـع الصحيح (1/8) ـ الحسين بن المبارك ـ القاهرة ـ 1347هـ ، وانظر هامش فتح البارى بشرح صحيح البخارى (1/30 ـ 38) . وابن ابى كبشة : اراد به النبي صلى الله عليه وسلم ، انظر التفاصيل في فتح البارى (1/37) ، وبنو الاصفر : هم الروم .

(12) صحيـح البخاري في هامش فتـح البارى بشرح صحيح البخارى (6/78) .

(13) صحيح البخاري . في هامش فتح البارى بشرح البخارى (6/78 ـ 79) .

(14) انظر التفاصيل في فتح البارى بشرح البخاري (6/2 ـ 134) .

ونص ما ورد في باب : (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ... الآيـة)[١٥] ، وهو بـاب من أبواب تفسير سورة : (آل‌عمران)[١٦] ، ونص ما جاء فيه هو تكرار حديث عبد الله بن عباس على قصة أبى سفيان بن حرب مع هرقل[١٧] .

وأورد البخاري في صحيحه بَعْثَ أبى موسى الأشعري ومعاذ بن جبل الى اليمن ، وذلك في باب : (بعث أبى موسى ومعاذ الى اليمن قبل حجـة الوداع)[١٨] ، وهو باب من أبواب الجهاد من كتاب : (الجهاد) في صحيح البخاري . كما أورد ذهـاب جرير بن عبد الله البجلى الى اليمن ، في باب : (ذهاب جرير الى اليمن) ، وهو باب من أبواب كتاب : (الجهاد) أيضا في صحيح البخارى .

ب ـ وورد في صحيح مسـلم (ت ٢٦١هـ) ، في بـاب : (كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقـل ملك الشام يدعوه الى الاسـلام) مانصه : « عن ابن عباس ، أن أبا سفيان أخبره من فيـه الى فيه ، قال : انطلقت في المدة[١٩] التى كانت بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فبينا أنا بالشام[٢٠] اذ جيء بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هرقل يعنى عظيم الروم ، قال : وكان دحية الكلبي جاء به ، فدفعه الى عظيم بصرى ، فدفعـه عظيـم بـصرى الى هرقـل ، فقـال هرقـل : هل هاهنـا أحـد مـن قـوم هـذا الرجـل الذي يزعـم أنـه نبي الله ؟ قـالوا : نعم . فدعيـت في نـفر مـن قريـش ، فدخلنـا عـلى هرقـل ، فأجلسـنا

---

(١٥) صحيح البخاري في هامش فتح البارى (١٦٠/٨) .
(١٦) فتح البارى بشرح البخاري (١٥٥/٨ ـ ٧٧) .
(١٧) صحيح البخاري في هامش فتح البارى (١٦٠/٨ ـ ١٦٧) .
(١٨) انظر صحيح البخاري في هامش فتح البارى (٤٨/٨) .
(١٩) انظر صحيح البخاري في هامش فتح البارى (٦٠/٨) .
(٢٠) قيصر الروم هرقل كان يومها ملك الشام أيضاً ، لأن بلاد الشام كانت من أملاكـه .

بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ قال أبو سفيان ، فقلت : أنا ، فأجلسونى بين يديه وأجلسوا أصحابى خلفى . ثم دعا بترجمانه ، فقال : قل لهم انى سائل هذا عن الرجل الذى يزعم أنه نبي ، فان كذبنى فكذبوه . قال فقال أبو سفيان : وايم الله لولا مخافة أن يؤثر عليّ الكذب لكذبت. ثم قال لترجمانه : سله كيف حسبه فيكم ؟ قال قلت : هو فينا ذو حسب . قال : فهل كان من آبائه ملك ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : ومن يتبعه . أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ قال قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قال قلت : لا ، بل يزيدون . قال : هل يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟ قال قلت : لا . قال : فهل قاتلتموه[٢١] ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم اياه ؟ قال قلت : يكون الحرب بيننا وبينه سجالا[٢٢] ، يصيب منا ونصيب منه . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة[٢٣] لاندري ما هو صانع فيها ، قال : فوالله ما أمكننى من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه. قال : فهل قال هذا القول أحد قبله ؟ قال قلت : لا . قال لترجمانه : قل له انى سألتك عن حسبه ، فزعمت أنه فيكم ذو حسب ، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها . وسألت : هل كان في آبائه ملك ؟ فزعمت أن لا ، فقلت لو كان من آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك آبائه . وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل . وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ فزعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يذهب فيكذب على الله . وسألتك : هل يرتد أحدهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة

---

(٢١) انطلقت في المدة : يعنى الصلح يوم الحديبية في اواخر سنة ست الهجرية ، انظر شرح النووى على مسلم (٤/٢١٥) .

(٢٢) سجالا : اى نوبا ، نوبة لنا ، ونوبة له . واصله من المستقين بالسجل ، وهي الدلو الملأى ، يكون لكل واحد منهما سجل .

له ؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الايمان اذا خالط بشاشة القلوب . وسألتك : هل يزيدون أم ينقصون ؟ فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الايمان حتى يتم . وسألتك : هل قاتلتموه ؟ فزعمت أنكم قد قاتلتموه ، فيكون الحرب بينكم وبينه سجالا ، ينال منكم وتنالون منه ، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة . وسألتك : هل يغدر ؟ فزعمت أنه لايغدر ، وكذلك الرسل لاتغدر . وسألتك : هل قال هذا القول أحد قبله ؟ فزعمت أن لا ، فقلت : لو قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم بقول قيل قبله . قال : ثم قال : بم يأمركم ؟ قلت : يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف . قال : ان يكن ما تقول فيه حقا ، فانه نبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه أنه منكم ، ولو أنى أعلم أنى أخلص اليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وليبلغن ملكه ما تحت قدمى هاتين . قال : ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأه ، فاذا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم . من : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وان توليت فان عليك اثم الاريسيين ، و : (ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لانعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون)[٢٤] . فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الاصوات عنده ، وكثر اللغط ، وأمر بنا فاخرجنا . قال فقلت لأصحابه حين خرجنا : لقد أمِرَ[٢٥] أمْرُ ابن أبى كبشة ، انه ليخافه ملك بنى الاصفر . قال : فمازلت موقناً بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الاسلام»[٢٦] ، وهذا الباب هو

---

(٢٣) في مدة : يعنى مدة الهدنة والصلح الذى جرى يوم الحديبية .

(٢٤) الآية الكريمة من سورة آل‌عمران (٣ : ٦٤) .

(٢٥) امر : بفتح الهمزة وكسر الميم ، اى عظم .

(٢٦) صحيح مسلم (٤/٢١٥ ـ ٢٢٠) وانظر شرحه في شرح النووى على مسلم في أسفل صفحات الصحيح .

باب من أبواب كتاب : (الجهاد والسير)[٣٧] في صحيح مسلم .

وورد في باب : (كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى ملوك الكفار يدعوهم الى الاسلام) ، وهو باب من أبواب كتاب : (الجهاد والسيَر) أيضا في صحيح مُسلِم ما نصه : «عن أنس أن نبي الله صلى الله عليه وسلم ، كتب الى كسرى والى قيصر والى النجاشي والى كل جبّار يدعوهم الى الله»[٣٨] .

وكما اتّفق الشيخان : البخاري ومسلم في رواية حديث أبي سفيان ابن حرب على قصة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل ، اتّفقا أيضا في : اتّخاذ النبي صلى الله عليه وسلم خاتما لما أراد أن يكتب الى العجم ، وهو حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : «كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابا ، أو أراد أن يكتب ، فقيل له : إنهم لا يقرأون كتابا الا مختوما ، فاتخذ خاتما من فضة نقشه : محمد رسول الله ، كأني أنظر الى بياضه في يده»[٣٩] .

جـ . وأورد أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) في مسنده حديثا لابن عباس في مسنده ، وهذا نصه : «إن ابن عباس قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن حُذافة بكتابه الى كسرى ، قال : فدفعه الى عظيم البحرين يدفعه عظيم البحرين الى كسرى ، فدفعه عظيم البحرين الى كسرى ، فلما قرأه مزقه ، قال : فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يُمزقوا كل مُمَزَق»[٣٠] .

وأورد أحمد بن حنبل في مسنده حديثا لابن عباس في مسنده ، فصّل فيه خبر الكتابة الى قيصر الروم هرقل ، بنحو ما ورد في البخاري ومسلم[٣١] .

وأورد في مسنده خبر الكتابة الى النجاشي وكسرى وقيصر ، تحت

---

(٢٧) انظر التفاصيل في صحيح مسلم (٤/١٨٠ ــ ٢٦٤) .
(٢٨) انظر التفاصيل في صحيح مسلم (٤/٢٢٠) .
(٢٩) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٥٤٥) .
(٣٠) مسند الامام احمد بن حنبل (١/٢٤٣ ــ ٢٤٤) .
(٣١) مسند الامام احمد بن حنبل (١/٢٦٢ ــ ٢٦٣) .

عنوان : (حديث رسول قيصر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهـذا نصه : عن سعيد بن أبى راشد مولى لآل معاوية ، قال : «قدمت الشام ، فقيل لي : في هذه الكنيسة رسول قيصر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فدخلنا الكنيسة ، فاذا أنا بشيخ كبير . فقلت له : أنت رسول قيصر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : نعم . قال قلت : فحدّثني عن ذلك . قال : إنه لما غزا تبوك كتب الى قيصر كتابا وبعث به مع رجل يقال له دِحيَة بن خليفة ، فلما قرأ كتابه وضعه معه على سريره ، وبعث الى بطارقته ورؤوس أصحابه ، فقال : إن هذا الرجل قد بعث اليكم رسولا وكتب اليكم كتابا يخيّركم احدى ثلاث : إما أن تتبعوه على دينه ، أو نُقرّ له بخراج يجري له عليكم ويُقركم على هيئتكم في بلادكم ، أو أن تلقوا له بالحرب . قال : فنخروا نخرة حتى خرج بعضهم من برانسهم ، وقالوا : لا نتبعه على دينه وندع ديننا ودين آبائنا ، ولا نقر له بخراج يجري له علينا ، ولكن نلقي اليه الحرب . فقال : قد كان ذاك . ولكني كرهتُ أن أفتات دونكم بأمر» . وبعث هرقل كتابا الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فحمله من هرقل الى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من العرب ، فتسلم النبي صلى الله عليه وسلم كتاب هرقل وهو في موقع تبوك ، في أيام غزوة تبوك [٣٢] .

د . وذكر الترمذي (ت ٢٧٩هـ) في جامعه خبر الكتابة الى النجاشي وكسرى وقيصر وكل جبار في باب : (مكاتبة المشركين) ، عن أنس بن مالك : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتب قبل موته ، الى كسرى والى قيصر والى النجاشي ، والى كل جبار في الارض ، يدعوهم الى الله ، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه» [٣٣] .

وذكر في باب : (كيف كان يكتب الى أهل الشرك) ، أن عبدالله بن

---

(٣٢) انظر التفاصيل في مسند الامام احمد بن حنبل (٤/٧٤ – ٧٥) .
(٣٣) الترمذي – جامع الترمذي (٢/٣٢٨) – مطبعة لكنو الهند – ١٣٠٩هـ .

عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره : «أن هرقل أرسل اليه في نفر من قريش ، وكانوا تجارا بالشام . فأتوه » ، فذكر الحديث[٣٤] . وهو نص حديث أبي سفيان الذي رواه عنه عبدالله بن عباس ، والذي ورد ذكره قبل قليل .

وذكر في باب : (ما جاء في ختم الكتاب) ، عن أنس بن مالك ، قال : « لما أراد نبي الله صلى الله عليه وسلم ، أن يكتب الى العجم ، قيل له : إن العجم لايقبلون كتابا الا كتابا عليه خاتم ، فاصطنع خاتما . قال : فكأني أنظر بياضه في كفه هذا»[٣٥] .

وذكر في باب : (ماجاء في نقش الخاتم) ، عن أنس بن مالك قال : «كان نقش خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أسطر : محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر »» . وعن أنس بن مالك قال : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع خاتما من وَرِق ، فنقش فيه : محمد رسول الله»[٣٦] .

وورد في باب : (ماجاء في ذكر خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم)[٣٧] ، عن أنس بن مالك ، ما يطابق ما ورد في نصّي الحديثين المذكورين في باب : (ماجاء في ختم الكتاب) ، وفي باب : (ماجاء في نقش الخاتم) في جامع الترمذي ، وقد ذكرنا هذين النّصين قبل قليل ، فلا مسوّغ لاعادة ذكرهما .

هـ . وجاء في سُنَن النسائي (ت ٣٠٣هـ) في : (صفة خاتم النبي صلى الله عليه وسلم) ، في كتاب : (الزينة وتوابعه) ، أن أنس بن مالك قال : «كان خاتم النبي صلى الله عليه وسلم من فضة، فَصّه منه» . وقال : «أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب الى الروم ، فقالوا : إنهم لا يقرأون كتابا الا مختوما ، فاتخذ خاتما من فضة ، كأني أنظر الى بياضه بيده ، ونقش فيه :

---

(٣٤) جامع الترمذي (٣٢٨/٢) .
(٣٥) جامع الترمذي (٣٢٨/٢) .
(٣٦) جامع الترمذي (٢٢٠/٢) .
(٣٧) جامع الترمذي (٥٠١/٢) .

محمد رسول الله»[38] .

أما بقية أصحاب السُّنن : أبو داود[39] (ت ٢٧٥هـ) ، وابن ماجة[40] (ت ٢٧٣هـ) ، فقد أوردا الخبر مجملا أيضا .

وصِدق المحدثين وبخاصة الذين ذكرناهم مشهور ، لايختلف فيه المنصفون من مسلمين وغيرهم ، ودقتهم في تدوين الحديث ، وشروطهم المعروفة في التدوين ، تلك الشروط التي لاتزال وستبقى مثالا للتحري والتثبت والاستقامة والصدق بمالا مثيل لها في نطاق التأليف في العالم كله ، كل ذلك يجعل الشك في السفارات النبوية والرسائل النبوية أو التشكيك فيها لاقيمة لهما موضوعيا ولا علميا ، ولايقع فيهما منصف يتحرى الحق والواقع بما يكتب أو يقول .

والعالمون المنصفون بأولئك المحدثين سيرة وتأليفا على يقين بأنهم في القمة صدقا ومنهاجا ، واذا لم يكن أولئك النفر من المحدثين المؤلفين صادقين في التدوين ، فليس هناك صدق ولا صادق بين المؤلفين ، ومع ذلك يبقى الرد واجبا على المتشككين والمشككين ، لان انحرافهم متعمد ، وحتى يُكشف زيفهم ، ولئلا يشيع انحرافهم وينتقل الى العقول بالعدوى جهلا أو بعد علم لا ينفع الناس ولايمكث في الأرض ، لانه مغلف بالتعصب والانحراف .

و . أما أمهات كُتب السيرة والتاريخ القديمة ففيها تفاصيل كثيرة ، ولايكاد يخلو مصدر مُعتمد منها من ذكر سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ورسائله الى ملوك ورؤساء عصره من العرب والأجانب .

وسأذكر ماجاء في قسم منها بحسب وفاة مؤلفيها .

جاء في سيرة ابن هشام (ت ٢١٣هـ) ، تحت عنوان : (خروج رُسُل

---

(٣٨) النسائى ـ سنن النسائى ـ (٢٩١/٢) ـ المطبعة الميمنية بمصر ـ ١٣١٢هـ .

(٣٩) ابو داود ـ الحديث الرقم (٤٢١٤) .

(٤٠) ابن ماجة ـ الحديث الرقم (٣٦٣٩/٣٦٤) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الملوك) مانصه : «وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث الى الملوك رُسلا من أصحابه ، وكتب معهم اليهم يدعوهم الى الاسلام» .

«قال ابن هشام : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : خرج على أصحابه ذات يوم بعد عُمرته التي صُدَّ عنها يوم الحديبية فقال : أيها الناس ان الله قد بعثني رحمة وكافة ، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم . فقال أصحابه : وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ قال: دعاهم الى الذي دعوتكم اليه، فأما من بَعَثَه مبعثا قريبا فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل ، فشكا ذلك عيسى الى الله ، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الامة التي بُعِث اليها . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا من أصحابه ، وكتب معهم كتبا الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام ، فبعث دحية بن خليفة الكلبي الى قيصر ملك الروم ، وبعث عبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية ، وبعث عمرو بن العاص السهمي الى جيفر وعبَّاد[٤١] ابنى الجُلندي الأزديين ملكي عُمان ، وبعث سَليط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي الى ثُمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة ، وبعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين. وبعث شجاع بن وهب الأسدي الى الحارث بن ابى شمر الغساني ملك تخوم الشام .

« وبعث شجاع بن وهب الى جبلة بن الأيهم الغساني ، وبعث المهاجر ابن ابي أمية المخزومي الى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن»[٤٢] .

---

(٤١) في معظم المصادر ، يذكر الاسمان : جيفر وعبد ابنى الجلندي .

(٤٢) سيرة ابن هشام – تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد – (٤/٢٧٨ – ٢٧٩) ، وبتحقيق السقا (٤/٢٥٤) .

قال ابن اسحق : «حدثني يزيد بن أبي حبيب المصري[٤٣] ، أنه وجد كتابا فيه ذكر مَن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى البلدان وملوك العرب والعجم وما قال لأصحابه حين بعثهم . قال : فبعثتُ به الى محمد بن شهاب الزهري [٤٤] ، فعرفه . وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج على أصحابه فقال لهم : إن الله بعثني رحمة وكافة ، فأدوا عني يرحمكم الله ، ولاتختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم . قالوا : وكيف يارسول الله كان اختلافهم ؟ قال : دعاهم لمثل ما دعوتكم له ، فأما من قرّب به فأحب وسلم ، وأما من بعّد فكره وأبى ، فشكا ذلك عيسى منهم الى الله ، فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين وجه اليهم»[٤٥].

واعتنت قسم من المصادر الأولى بجمع نصوص الرسائل النبوية ، من ذلك مادونه أبو عبيد (القاسم بن سلام ت ٢٢٤هـ) في كتابه : (الأموال)[٤٦].

أما ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) في طبقاته ، فقد أفرد للسفارات النبوية والرسائل النبوية ثلاثا وثلاثين صفحة تحت عنوان : (ذكر بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسل بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وما كتب به رسول الله صلى الله عليه وسلم لناس من العرب وغيرهم)[٤٧] ، ذكر فيها أخبار السفارات النبوية وأخبار الكتب النبوية المرسلة الى الملوك والرؤساء والى

---

(٤٣) توفى سنة (١٢٨هـ) ، انظر سيرته في : تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى (٣١٨/١١ ـ ٣١٩) .
(٤٤) توفى سنة (١٢٣هـ او سنة ١٢٤هـ أو سنة ١٢٥هـ) ، انظر سيرته في تهذيب التهذيب (٤٤٥/٩ ـ ٤٥١) .
(٤٥) سيرة ابن هشام (٢٧٩/٤ ـ ٢٨٠) .
(٤٦) انظر الطبرى (٦٤٤/٢ ـ ٦٥٧) ، وانظر مراجع كتاب الوثائق السياسية للدكتور محمد حميدالله .
(٤٧) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١ ـ ٢٩١) .

غيرهم من رؤساء الشعوب والقبائل ، نحو مائة كتاب ، غطى فيها السفارات النبوية الخارجية والداخلية ، ورسائله الى قسم من شيوخ القبائل العربية . وتفصيلات ابن سعد في طبقاته وافية للغاية ومفيدة جدا .

وأورد اليعقوبي (ت بعد ٢٩٢هـ) في تاريخه السفارة النبوية الى كسرى عظيم فارس ، والى قيصر عظيم الروم ، والى النجاشي ، والى الحارث بن أبى شَمِر الغساني ، والى المقوقس ، والى المنذر بن ساوى ، والى رؤساء بني حنيفة باليمامة ، والى الحارث بن عبد كُلال الحميري ، والى رؤساء عُمان وغيرهم[٤٨] . كما أورد أسماء رسله وقسما من رسائله النبوية الى رؤساء القبائل العربية يدعوهم الى الاسلام[٤٩] . وتفاصيل ما ذكره اليعقوبي ، حول السفارات النبوية والرسائل النبوية مفيدة جدا .

أما الطبري (ت ٣١٠هـ) في تاريخه : (تاريخ الرُسُل والملوك) ، فقد ذكر تحت عنوان : (ذكر خروج رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الملوك) في حوادث السنة السادسة الهجرية ما نصه : «وفيها — أي في السنة السادسة الهجرية — بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسُل ، فبعث في ذي الحجة ستة نفر : ثلاثة مصطحبين ، حاطِب بن أبى بلتعة من لَخم حليف بني أسد بن عبد العُزى الى المقوقس ، وشجاع بن وهب من بني أسد بن خُزيمة — حليفا لحرب بن أمية ، شهد بدرا — الى الحارث بن أبى شَمِر الغساني ، ودِحية بن خليفة الكلبي الى قيصر . وبعث سليط بن عمرو العامري عامر بني لؤي الى هوذة بن علي الحنفي ، وبعث عبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى ، وعمرو بن أمية الضمري الى النجاشي »[٥٠] . ثم ذكر ما أورد ابن هشام في سيرته ، كما ذكرناه قبل قليل . ثم أورد قصة أبى سفيان مع

---

(٤٨) تاريخ اليعقوبي (٢/٦١ — ٦٢) .
(٤٩) تاريخ اليعقوبي (٢/٦٤ — ٦٧) .
(٥٠) الطبرى (٢/٦٤٤) .

هرقل قيصر الروم برواية عبدالله بن عباس كما ذكرتها مصادر الحديث النبوي الستة نصا . كما ذكر الطبري سفارة شجاع بن وهب الى الحارث بن أبي شَمِر الغسّاني ، وسفارة عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ، وسفارة عبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى ، وسفارة حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس[٥١] .

وما جاء في تاريخ الطبري قيّم للغاية ومفيد جدا ، ولا يختلف عما جاء في كتب الحديث والمصادر الأخرى .

وذكر أبو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ) في كتابه : (المُحبَّر) تحت عنوان : (رُسُل النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك والأشراف) ما نصه : «أرسل النبي صلى الله عليه وسلم جرير بن عبدالله البجلي الى ذي الكَلاع وذي عمرو ، الى اليمن ..... فأسلما .

«ووفد ذو الكَلاع على عمر ، فأغزاه الشام ، فلم يزل بها حتى قُتل بصِفّين مع معاوية » .

«وأرسل صلى الله عليه وسلم دِحية بن خليفة الكلبي الى قيصر عظيم الروم ، فأخذ قيصر كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضعه على خاصرته ، ووصل دحية وقال : لو كان في بلادي لاتبعته وتصرته .

«وأرسل صلى الله عليه وسلم شُجاع بن وهب الأسدي الى جبَلة بن الأيهم الغسّاني .

«وأرسل حاطب بن أبي بَلتعة حليف بني أسد بن عبدالعُزّى الى المقوقس صاحب الأسكندرية ، فأكرمه ووصله ، وبعث الى النبي صلى الله عليه وسلم بمارية أم ابراهيم وأختها أم عبدالرحمن بن حسّان بن ثابت الأنصاري ، وبغلته وحماره .

---

(٥١) انظر التفاصيل في الطبرى (٢/٦٤٤ – ٦٥٧) .

«وأرسل عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي وهو أصحمة . فزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، وكانت هاجرت مع عبيدالله بن جحش زوجها فتنصر ومات على النصرانية ، وعصمها الله هي فتمسكت بالاسلام ؛ ومهرها النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار ، وبعث اليه بكسوة : قميص ، وسراويل ، وعمامة ، وعِطاف سوداني من قرية يقال لها سْوان (أسوان) وهي آخر مدينة بمصر للاسلام تلي درب النُوبة ، وخُفَّيْن ساذجين ، فتوضأ صلى الله عليه وسلم ومسح عليهما .

«وأرسل سَليط بن قيس[٥٢] أخا بني عامر بن لؤي الى أهل اليمامة» .

«وأرسل العلاء بن الحضرمي حليف بني أمية الى أهل البحرين ، فأسلموا وبعثوا بخراجهم ، فكان أول مال ورد المدينة خراج البحرين وهو سبعون ألفا» .

«وأرسل عمرو بن العاص السهمي الى جَيفر وعبد ابنى الجُلندي بن المستكبر الأزديين بعُمان ، فأسلما وغلبا على عُمان» .

«وأرسل عبدالله بن حُذافة السمي الى كسرى هرمز ، فلما قرأ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : بدأ بنفسه قبلي ! وقدّ كتابه سيورا ، فقال صلى الله عليه وسلم : مزق الله مُلك فارس كل مُمزق ، فما أفلحوا بعد دعوته»[٥٣] .

وابن حبيب في كتابه : (المُحبَّر) ، يتوخى الاختصار في المواد التي عالجها ، لذلك اقتصر في هذا الموضوع ، على ذكر السفراء النبويين ، ولم يتطرق الى الرسائل النبوية وهذا مافعله ابن حزم الاندلسي (ت ٤٥٦هـ) في كتابه : (جوامع السيرة) أيضا[٥٤] .

---

(٥٢) كذا في الاصل ، والمشهور سليط بن عمرو العامرى .

(٥٣) المحبر (٧٥ ــ ٧٧) .

(٥٤) جوامع السيرة (٢٩ ــ ٣١) .

وما يُقال عن ابن حبيب في : (المحبَّر) ، يقال عن البلاذري (ت ٢٧٩هـ) في كتابه : (أنساب الأشراف) ، فقد ذكر تحت عنوان : (أسماء الرسل الى الملوك) ، أسماء السفراء النبويين حسب دون ذكر الرسائل النبوية أيضـا ، فكان نصّ ما ذكره : «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطِب بن أبى بلتعة الى المقوقس ، وشجاع بن وهب الأسدي الى الحارث بن أبى شَمِر ، ودِحية بن خليفة الكلبي الى قيصر ، وسليط بن عمرو العامري الى هوذة بن علي الحنفي ، وعبدالله بن حُذافـة السهمي الى كسرى ، وعمرو بن أميـة الضمري الى النجاشي ، وذلك سنة سبع وهو أثبت من قول من قال في سنة ست »[٥٥] .

وكل المصادر القديمة تثبت بما لايدع الشك يخامر أحدا من الناس ، أن السفارات النبوية والرسائل النبوية جزء لايتجزأ مـن السـيرة النبوية ، وأن السفارات النبوية كانت التطبيق العملي لعالمية الاسلام .

ولا يخلو مصدر من مصادر الحديث والتاريخ والسيرة من ذكر السفارات النبوية والرسائل النبوية بالتفصيل أو بالايجاز ، بحسب خطـة المؤلـف في التأليف ، وما ذكرناه من المصادر تمثل المصادر الرئيسة ، ولكنها ليست كل المصـادر على كل حـال .

٢ ــ الوسيطة :

١ . ذكر ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) في كتابه : (الكامل في التاريخ) ما ذكره الطبري في تاريخه بشيء من الايجاز غير المُخل ، فلا مسوغ لاعـادة ذكره هنا[٥٦] .

أما النَّووي (ت ٦٧٦هـ) ، فذكر في كتابه : (تهذيب الأسماء واللُّغات) تحت عنوان : (فصل في رسله) ما نصّه : «أرسل صلى الله عليه وسلم عمرو بن

---

(٥٥) أنساب الأشراف (١/٥٣١) .

(٥٦) انظر التفاصيل [illegible]

أمية الضمري الى النجاشي ، فأخذ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعه على عينيه ، ونزل عن سريره ، فجلس على الارض ، ثم أسلم حين حضره جعفر بن أبي طالب وحسن اسلامه . وأرسل صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبي بكتاب الى هرقل عظيم الروم ، وعبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك فارس ، وحاطِب بن أبي بلتعة اللخمي الى المقوقس ملك الاسكندرية ومصر ، فقال خيرا وقارب أن يُسلم ، وأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مارية القبطية وأختها شيرين فوهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت . وأرسل عمرو بن العاص الى ملكي عُمان فأسلما وخليا بين عمرو وبين الصَّدقة والحكم فيما بينهم ، فلم يزل عندهم حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأرسل سليط بن عمرو العامري[٥٧] الى اليمامة الى هوذة بن علي الحنفي . وأرسل شجاع بن وهب الأسدي الى الحارث بن أبي شمِر الغسَّاني ملك البلقاء من أرض الشام ، وأرسل المهاجر بن أبي أمية المخزومي الى الحارث الحميري ، وأرسل العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين فصدق وأسلم . وأرسل أبا موسى الأشعري ومُعاذ بن جبَل الى جُملة اليمن داعين الى الاسلام ، فأسلم عامة أهل اليمن ملوكهم وسوقتهم»[٥٨] . وأوفى من عدد رسل النبي صلى الله عليه وسلم هو الامام النووي ، لأنه أضاف اليهم أبا موسى الأشعري ، وكان مصيبا في إضافته اليهم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أرسله ومُعاذ بن جبل الى اليمن في واجب واحد في وقت واحد ، فهما رسولا النبي صلى الله عليه وسلم الى اليمن ــ كما قرر الامام النووي ــ وأخذت بهذا الرأي المصيب ، وأضفت أبا موسى الأشعري الى قائمة الرسل النبويين.

ولكن الامام النووي لم يذكر جرير بن عبدالله البجلي مع جملة من

---

(٥٧) في الاصل : العلوى ، وهو خطا مطبعي واضح ، والصواب ماذكرناه في اعلاه .

(٥٨) تهذيب الاسماء واللغات (١/ ٣٠) .

ذكرهم من رسل النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكره بينهم غيره من ثقات المصنفين في مصادرهم المعتمدة[٥٩] ، ولاشك في أن جريرا أحد رسل النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكرته في الرسل أيضا ، وأضفت سيرته الى سيرهم .

ب. وتحدث ابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) في كتابه : (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّيَر) تحت عنوان : (ذكر بعثه صلى الله عليه وسلم الى الملوك يدعوهم الى الاسلام) ما نصّه : «بعث دِحية الكلبي الى قيصر ملك الروم ، وعبدالله بن حُذافة السهمي الى كسرى ملك فارس ، وعمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ملك الحبشة ، وحاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس صاحب الاسكندرية ، وعمرو بن العاص الى جيفر وعبد ابنى الجُلندي ملكي عُمان ، وسليط بن عمرو العامري الى ثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة ، والعلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين ، وشجاع بن وهب الأسدي الى الحارث بن أبى شمر الغساني ملك تخوم الشام ، ويقال : بعثه الى جبلة بن الأيهم الغسّاني ، والمهاجر بن ابي أمية المخزومي الى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن »[٦٠] . ثم عاد ابن سيد الناس ليفصل ما أوجزه ، فذكر تحت عنوان : (ذكر كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى قيصر وما كان من خبر دحية معه) ، فتطرق الى قصة أبى سفيان بن حرب مع هرقل برواية عبدالله بن عباس ، كما وردت في مصادر الحديث النبوي الشريف ، وقد ذكرناها من قبل ، كما تطرق الى نص الرسالة النبوية التي تسلمها هرقل قيصر الروم[٦١] .

وذكر تحت عنوان : (ذكر توجيه عبدالله بن حُذافة السهمي الى كسرى بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم) ، فتطرق الى نص الكتاب النبوي الذي حمله عبدالله بن حذافة الى كسرى ورد فعل كسرى بعد تسلمه الكتاب النبوي،

---

(٥٩) انظر مثلا : طبقات ابن سعد (١/٢٦٥ ـ ٢٦٦) والمحبر (٧٥) .

(٦٠) عيون الاثر (٢/٢٥٩) .

(٦١) انظر التفاصيل في : عيون الاثر (٢/٢٦٠ ـ ٢٦٢) .

ومصير كسرى ونهايته على يد ابنه [٦٢] .

وذكر تحت عنوان : (ذكر اسلام النجاشي وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمرو بن أمية الضمري)،فتطرق الى الكتاب النبوي الى النجاشي، وجواب النجاشي ، واسلام النجاشي ، وذكر أنه توفى سنة تسع الهجرية بالحبشة فصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب[٦٣] .

وذكر تحت عنوان : (كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس مع حاطب بن أبي بلتعة) ، فتطرق الى نص الكتاب النبوي ، ومناقشة حاطب للمقوقس ، وجواب المقوقس على الكتاب النبوي ، وهديته للنبي صلى الله عليه وسلم [٦٤] .

وذكر ابن سيد الناس في كتابه أيضا تحت عنوان : (كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوى العبدي مع العلاء الحضرمي بعد انصرافه من الحديبية) ، أن هذا الكتاب كان في كتب ابن عباس ، وقد وُجد بعد موت ابن عباس في مخلفاته ، ويشمل نص الكتاب النبوي ، وجواب المنذر على الكتاب النبوي ، وجواب النبي صلى الله عليه وسلم على جواب المنذر ، وقد أسلم المنذر وقسم من بني قومه[٦٥] .

وأتى ابن سيد الناس علي : (كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى جيفر وعبد ابنى الجلندي الازديين ملكى عمان مع عمرو بن العاص) ، فذكر نصه ، وقصة عمرو في سفارته ، واسلام ملكي عُمان وقسم من أهل عُمان[٦٦] .

وتطرق الى : (كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى هوذة بن علي الحنفي

---

(٦٢) انظر التفاصيل في : عيون الاثر (٢/٢٦٢ — ٢٦٤) .
(٦٣) انظر التفاصيل في عيون الاثر (٢/٢٦٤ — ٢٦٥) .
(٦٤) انظر التفاصيل في : عيون الاثر (٢/٢٦٥ — ٢٦٦) .
(٦٥) انظر التفاصيل في : عيون الاثر (٢/٢٦٦ — ٢٦٧) .
(٦٦) انظر التفاصيل في : عيون الاثر (٢/٢٦٧ — ٢٦٩) .

صاحب اليمامة مع سليط بن عمرو العامري) ، فذكر نص الكتاب النبوي ، وقصة سليط في سفارته ، وموت هوذة قبل اسلامه [٦٧] .

ثم تطرق الى : (كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى الحارث بن أبي شمر الغساني مع شجاع بن وهب) ، فذكر نص الكتاب النبوي ، وقصة شجاع في سفارته ، وإصرار الحارث على كفره ، وعودة شجاع الى المدينة المنورة [٦٨] .

وبهذه الرسالة النبوية اختتم ابن سيد الناس دراسته في السفارات النبوية والرسائل النبوية ، وهي دراسة مفيدة للغاية وموثقة ، خاصة وأن ابن سيد الناس محدّث فقيه ثقة ، حسن التأليف والتصنيف .

جـ • وذكر ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في كتابه : (البداية والنهاية) تحت عنوان : (كتاب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملوك الآفاق وكتبه اليهم) ، توقيت الواقدي في أن ذلك كان في آخر سنة ست (الهجرية) في ذي الحجة بعد عمرة الحديبية . كما ذكر توقيت البيهقي فقال : «وذكر البيهقي هذا الفصل في هذا الموضع بعد غزوة مؤتة» ، ثم قال : «ولا خلاف بينهم أن بدء ذلك كان قبل فتح مكة وبعد الحديبية لقول أبي سفيان لهرقل حين سأله : هل يغدر ؟ فقال : لا ، ونحن منه في مدّة لا ندري ماهو صانع فيها» . وذكر توقيت محمد بن اسحق ، وهو أنه كان مابين الحديبية ووفاته عليه السلام . ثم قال : «ونحن نذكر ذلك هاهنا وان كان قول الواقدي محتملا» .

وذكر قصة أبي سفيان بن حرب مع هرقل قيصر الروم كما رواها المحدثون وغيرهم ، وهو الحديث الذي رواه عبدالله بن عباس .

وذكر قصة الكتاب النبوي الى هرقل ، وكيف قرأه هرقل على عظماء

---

(٦٧) انظر التفاصيل في : عيون الاثر (٢/٢٦٩ — ٢٧٠) .
(٦٨) انظر التفاصيل في : عيون الاثر (٢/٢٧٠ — ٢٧١) .

الروم أو ذكر لهم مجمل ماجاء فيه ، وأظهر لهم ميله الى تصديقه ، وكيف استنكر عظماء الروم الاسلام ، وكيف تراجع هرقل خوفا على حياته وملكه منهم .

وذكر قصة أبي سفيان بن حرب مع هرقل برواية الامام البخاري في صحيحه وبروايات أخرى مستوعبة شاملة ، ثم ذكر قصة دِحية في سفارته الى هرقل ، ومقاربة هرقل للاسلام ، ورفض أتباعه متابعته .

وقد استوعب سفارة دحية بن خليفة الكلبي الى هرقل استيعابا كاملا يفيد الباحث والمتعلم فوائد بغير حدود .

ثم تطرق الى سفارة شجاع بن وهب الى المنذر بن الحارث بن ابى شمر صاحب دمشق (٦٩) ، وقصة شجاع في سفارته ، ونص الكتاب النبوي الى الحارث ، واصرار الحارث على معاندة الاسلام .

وتطرق الى بعثه عليه الصلاة والسلام الى كسرى ملك الفرس : فذكر حديث البخاري في صحيحه عن ابن عباس ، كما ذكر الروايات الأخرى حول الموضوع بالتفصيل، كما ذكر قصة السفارة النبوية الى كسرى والكتاب النبوي اليه ، ومصير كسرى ونهايته على يد ابنه بعد اصراره على الكفر .

وأخيرا ذكر ابن كثير بعثه عليه الصلاة والسلام الى المقوقس صاحب مدينة الاسكندرية ، وقصة سفارة حاطب اليه ، ومناقشة حاطب للمقوقس ، وهدية المقوقس للنبي صلى الله عليه وسلم .

واختتم بحثه بالتنويه بسفارة سليط بن عمرو الى اليمامة ، والعلاء الحضرمي الى البحرين وعمرو بن العاص الى عُمان (٧٠) .

---

(٦٩) كذا بالاصل ، وفي ابن هشام وغيره : الحارث بن ابى شمر الغساني ملك تخوم الشام ، وهذا هو الصواب .

(٧٠) انظر التفاصيل في : البداية والنهاية (٤/٣٦٢ — ٢٧٣) .

ودراسة ابن كثير في السفارات النبوية والرسائل النبوية دراسة مستوعبة شاملة ، وبخاصة في استقطاب الأحاديث النبوية الواردة في الصحاح وغيرها حول السفارات النبوية والرسائل النبوية ، ولا عجب فابن كثير محدّث مفسّر فقيه مؤرخ ، ودراسته تفيد الباحث والمتتبع والأستاذ والطالب ، بالرغم من اقتصارها على قسم من السفارات النبوية دون أن يجمع شملها جميعا ، ودراسته أشبه بدراسة ابن سيد الناس في كتابه : (عيون الأثر) ، ومن المرجح أن ابن كثير استفاد من ابن سيد الناس كثيرا ، أو أن مصادرهما واحدة •

د • وتحدث القلقشندي (ت ٨٢١هـ) في كتابه : (صبح الأعشى) ، في موضوع السفارات النبوية والرسائل النبوية ، فذكر نص الرسائل النبوية الى هرقل عظيم الروم ، والى كسرى أبرويز ملك الفرس ، والى المقوقس صاحب مصر ، والى النجاشي ملك الحبشة والى هوذة بن علي صاحب اليمامة، والى جَيفر وعبد ابنى الجُلندي [٧١] ، ونصوص تلك الرسائل مفيدة جدا للباحثين والدارسين ، وبخاصة في مقارنتها بالرسائل النبوية المماثلة الواردة في المصادر القديمة الأخرى •

والاختلاف بين ما ورد في صبح الأعشى لنصوص الرسائل النبوية ، وبين ما ورد في أمثالها من الرسائل النبوية في المصادر القديمة الأخرى قليل للغاية ، لأن مصادر القلقشندي التي اعتمدها في كتابه : (صُبح الأعشى) هي المصادر القديمة التي ذكرنا أمهاتها فيما سلف ، بالاضافة الى المصادر الوسيطة الأخرى والمصادر القديمة المعتمدة ، ومع ذلك فالرجوع الى صُبح الأعشى، لايخلو من فوائد للدارسين والباحثين .•

هـ • أما علي الحلبي (علي بن ابراهيم بن أحمد الحلبي ت ١٠٤٤هـ) في كتابه : (انسان العيون في سيرة الأمين المأمون) المعروف بالسيرة الحلبية[٧٢] ،

---

(٧١) صبح الأعشى (٣٧٦/٦ — ٣٨٠) .
(٧٢) على الحلبى — السيرة الحلبية — القاهرة — ١٣٢٠هـ .

فقد تحدث تحت عنوان : (بيان كتبه صلى الله عليه وسلم التي أرسلها الى الملوك يدعوهم الى الاسلام) عن اتخاذه صلى الله عليه وسلم الختم ، فقال : «ولما أراد صلى الله عليه وسلم أن يكتب للملوك ، قيل له : يارسول الله ! انهم لايقرأون كتابا الا اذا كان مختوما ، أي ليكون في ذلك اشعار بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن تكون مما لايطلع عليها غيرهم ، وفيه : « ان هذا واضح ، اذا كان الختم عليها بعد طيّها ، ويجعل عليها نحو شمع ، ويختم فوق ذلك . والظاهر أن ذلك لم يكن ، وحينئذ يكون الغرض من ذلك أمن التزوير لبعده مع الختم ، فاتخذ صلى الله عليه وسلم خاتما من فضة» ، والحلبي يُعلّل في ذلك أسباب اتخاذ الخاتم .

وأعاد الحلبي ما ذكره المحدثون حول خاتم النبي صلى الله عليه وسلم مع شيء من التفصيل ، كما أعاد ذكر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه عن سفارات عيسى بن مريم عليه السلام واختلاف الحواريين عليه[٧٣] ، وقد ذكرنا ذلك قبل قليل .

وتحدث تحت عنوان : (كتابه صلى الله عليه وسلم الى قيصر) ، على السفارة النبوية الى هرقل وعلى السفير النبوي ، وعلى حديث ابى سفيان ابن حرب مع قيصر ، ونص الرسالة النبوية الى هرقل مع شيء من الشرح والتفاصيل[٧٤] .

وتحدث تحت عنوان : (كتابه صلى الله عليه وسلم الى كسرى ملك فارس) ، على السفارة النبوية الى كسرى ، ونص الكتاب النبوي ، وموقف كسرى من سفير النبي صلى الله عليه وسلم ، ومصير كسرى[٧٥] ، بما لايزيد

---

(٧٣) السيرة الحلبية (٣/٢٤٠ ــ ٢٤٢) .
(٧٤) السيرة الحلبية (٣/٢٤٣ ــ ٢٤٦) .
(٧٥) السيرة الحلبية (٣/٢٤٦ ــ ٢٤٨) .

عما ذكرناه بصدد ذلك .

وتحدث تحت عناوين : (كتابه صلى الله عليه وسلم للنجاشي ملك الحبشة)[٧٦] ، و : (ذكر كتابه الى المقوقس ملك القبط)[٧٧] ، و : (ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للمنذر بن ساوى العبدي بالبحرين على يد العلاء ابن الحضرمي)[٧٨] ، و : (ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم الى جيفر وعبد ابنى الجلندي ملكي عمان)[٧٩] ، و : (ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم الى هوذة)[٨٠] ، و : (ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم الى الحارث بن ابى شمر الغساني)[٨١] .

و . وتحدث المقريزي (ت ٨٤٥هـ) في كتابه : (إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والاموال والحفدة والمتاع) على السفارات النبوية والرسائل النبوية باقتضاب ، ونص حديثه : «وفي هذه السنة السادسة (الهجرية) ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسله الى الملوك بكتبه» .

«فأرسل حاطب بن ابى بلتعة (عمرو ، وقيل راشد) بن معاذ اللخمي الى المقوقس بمصر» .

«وأرسل شجاع بن وهب (ويقال : ابن ابى وهب) بن ربيعة بن أسد ابن صهيب بن مالك بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدي الى الحارث بن أبى شمر الغساني .

وأرسل دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرىء القيس بن

---

(٧٦) السيرة الحلبية (٢٤٨/٣ - ٢٤٩) .
(٧٧) السيرة الحلبية (٢٤٩/٣ - ٢٥٢) .
(٧٨) السيرة الحلبية (٢٥٢/٣) .
(٧٩) السيرة الحلبية (٢٥٢/٣ - ٢٥٤) .
(٨٠) السيرة الحلبية (٢٥٤/٣ - ٢٥٥) .
(٨١) السيرة الحلبية (٢٥٥/٣ - ٢٥٦) .

الخزرج[٨٢] (وهو زيد مناة) بن عامر بن بكر بن عامر الأكبر بن عوف بن عُذرة ابن زيد اللات بن رُفيدة بن ثور بن كلب الكلبي ، الى قيصر الروم » .

«وأرسل سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُدّ بن نصر بن مالك ابن حِسل بن عامر بن لؤي القُرشي العامري ، الى هوذة بن علي الحنفي ، والى ثُمامة بن أثال ، وهما رئيسا اليمامة » .

«وبعث عبدالله بن حُذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القُرشي السهمي ، الى كسرى ملك فارس » .

«وأرسل عمرو بن أمية بن خويلد بن عبدالله بن إياس بن عُبيد بن ناشرة[٨٣] بن كعب الضمري ، الى النجاشي ملك الحبشة » .

«وأرسل العلاء بن الحضرمي (واسمه عبدالله) بن عباد (وقيل : عبدالله ابن عمّار ، وقيل : عبدالله بن ضِمار ، وقيل : عبدالله بن عبيدة بن ضمار) ابن مالك ، وقيل : العلاء بن عبدالله بن عمّار بن أكبر بن ربيعة بن مالك ابن أكبر بن عويف بن مالك بن الخزرج بن أبى الصَّدِف ، الى المنذر بن ساوى ملك البحرين . وقيل إن ارساله كان سنة ثمان (الهجرية) » .

«فأمّا المقوقس ، فانه قبِل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهدى اليه أربع جواري ، منهن مارية » .

«وأما قيصر (واسمه هرقل) ، فأنه قبِل أيضا الكتاب ، واعترف بالنبوة ، ثم خاف من قومه فأمسك .

«وأما الحارث بن أبى شمِر الغسّاني ، فأنه لما أتاه الكتاب قال : أنا سائر اليه (يعنى محاربا) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغه

---

(٨٢) في الاصل : « الخزرج » .
(٨٣) في الاصل : « عتيك بن باشرة » .
(٨٤) الصواب : عبيدالله بن جحش .

ذلك عنه : باد مُلكه •

«وأما النجاشي ، فأنه آمن برسول الله واتبعه ، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأرسل ابنه في ستين من الحبشة ، فغرقوا في البحر » •

«وبعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه بأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ــ وكانت مهاجرة بالحبشة مع زوجها عبدالله بن جحش[84] ، فتنصر هناك ــ فزوجه إياها ، وقام بصداقها : أربعمائة دينار من عنده » •

«وأما كسرى أبرويز بن هرمز ، فانه مزق الكتاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مزّق الله مُلكه ، فسُلّط عليه ابنه شيرويه فقتله » •

«وأما هوذة بن علي ، فبعث وفدا بأن يجعل له رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر بعده حتى يُسلِم ، والا قصده وحاربه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم اكفنيه ! فمات بعد قليل » •

«وأما المنذر بن ساوى ، فأنه أسلم وأسلم أهل البحرين»[85] •

ومن الواضح ، أن المقريزي ، اقتصر على قسم من السفارات النبوية وعلى مجمل نتائج تلك السفارات ، دون التطرق الى نصوص الرسائل النبوية، ومع ذلك فهذا المجمل المركز لايخلو من فائدة للباحثين والدارسين ، وبخاصة للذين يؤثرون الايجاز على الاطناب •

ز • أما ابن طولون (ت ٩٥٣هـ) في كتابه : (إعلام السائلين عن كُتب سيد المرسلين) ، فقد ذكر كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى النجاشي ملك الحبشة[86] في الكتاب الاول ، وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى المنذر

---

(٨٥) امتاع الاسماع ــ المقريزي ــ (١/٣٠٧ ــ ٣٠٩) .

(٨٦) ابن طولون ــ اعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين (٢ ــ ٦) ــ دمشق ــ ١٣٤٨هـ .

ابن ساوى في الكتاب الثاني[٨٧] ، وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى كسرى في الكتاب الثالث[٨٨] ، وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى قيصر في الكتاب الرابع[٨٩] ، وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس في الكتاب الخامس[٩٠] ، وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى جيفر وعبد ابني الجُلندي في الكتاب العاشر[٩١] ، وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى الحارث بن ابى شمر الغساني[٩٢] في كتابه الثاني عشر، وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى هوذة بن علي الحنفي في الكتاب الثالث عشر[٩٣] ، وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى الحارث بن عبد كُلال في الكتاب الخامس عشر[٩٤] ، فكانت الرسائل النبوية الخاصة بالسفارات النبوية التي ذكرها ابن طولون في كتابه : (إعلام السائلين) تسع رسائل نبوية حسب التسلسل المدون في الكتاب إزاء تلك الرسائل هي : (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥) . أما بقية الرسائل وعددها سبع عشرة رسالة ، فموجهة الى غير الملوك والرؤساء ، ولم يحملها سفراء نبويون ، فيكون مجموع الرسائل التي أوردها ابن طولون ستاً وعشرين رسالة نبوية .

وختم ابن طولون كتابه : (إعلام السائلين) بالرواية عن عمرو بن حزم[٩٥] رضى الله عنه لمجموعة من الوثائق النبوية حول عطايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقسم من المسلمين ، وقد أورد نصوص تلك الوثائق

---

(٨٧) اعلام السائلين (٦ ــ ٨) .
(٨٨) اعلام السائلين (٨ ــ ٩) .
(٨٩) اعلام السائلين (١٠ ــ ١٩) .
(٩٠) اعلام السائلين (١٩ ــ ٢١) .
(٩١) اعلام السائلين (٢٦ ــ ٣٠) .
(٩٢) اعلام السائلين (٣٢ ــ ٣٤) .
(٩٣) اعلام السائلين (٣٤ ــ ٣٥) .
(٩٤) اعلام السائلين (٣٧ ــ ٣٨) .
(٩٥) انظر سيرته المفصلة في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم . للمؤلف ــ مخطوط .

حول تلك العطايا(٩٦) .

وكتاب ابن طولون بالرغم من صغر حجمه ، كان فائدته كبيرة جداً ، لأنه اختص بالرسائل النبوية وتفرغ لها ، ولم يشغل نفسه بموضوع آخر أو باستطرادات لامسوغ لها ، لذلك كان كتابه مفيداً للغاية للدارسين والباحثين في الرسائل النبوية والسفارات النبوية ، لأنه جمع فأوعى ، واختصر الطريق لأولئك الدارسين والباحثين ومن المؤسف أن طبعته قديمة ، فيهما كثير من الأخطاء المطبعية وغيرها بما لايزيد في جوهره عما ذكرناه ، مع شيء من الشرح والتوضيح .

ح • ولا جديد في مجمل ماسجله الحلبي على السفارات النبوية والرسائل النبوية ، فهو قد جمع ماذكره الأقدمون من محدثين ومؤرخين ومن سبقه منهم ، ومع ذلك فالاطلاع على ماسرده لايخلو من فائدة للباحثين والدارسين والأساتذة والمتعلمين •

ومهما قيل في دقة المصادر القديمة وأمانتها ، فان المصادر الوسيطة بالرغم من تردى الحالة السياسية والعسكرية للمسلمين عامة والعرب خاصة ، فان تلك المصادر اقتبست الدقة والأمانة من المصادر القديمة ، لأنها اعتمدت عليها ، وتميزت عليها بتنظيم البحوث والدراسات والتزامها بوحدة الموضوع بحشد المعلومات المتيسرة تحت عنوان واحد واضح المعالم يدل على المحتوى والفحوى ولايكاد يخرج عنه ، بينما نجد المصادر القديمة تذكر الخبر الواحد في مواضع شتى متقاربة الموضوع أو متباينة ، مما يؤدى إلى إنهاك الدارس والمتتبع في استخراج المعلومات وتصنيفها ، بعكس المصادر الوسيطة التى حشدت المعلومات المتفرقة في صفحات متباعدة وتحت عناوين متنوعة في المصادر القديمة ، وتنسيقها تحت عنوان واضح يدل على تلك المعلومات المتشابهة التى تناسب العنوان نصاً وروحا •

---

(٩٦) اعلام السائلين (٤٨ ــ ٥٢) .

وأريد أن أذكر أن المصادر الوسيطة أكثر تنظيماً وأقرب إلى التأليف الموضوعى من المصادر القديمة ، وهذا يختصر الطريق على الباحث والمتتبع في بحوثه ودراساته ، حين يستفيد كما ينبغى من المصادر الوسيطة دون أن يهمل المصادر القديمة •

لقد ذهبت المصادر القديمة بفضل حشد المعلومات وضبطها وتوثيقها ، وذهبت المصادر الوسيطة بفضل تنسيق تلك المعلومات ، ووضعها تحت عناوين مناسبة تنمّ على محتوى المعلومات وفحواهـا ، وتبويب تلك المعلومات وإخراجها للناس في كتب تضم علماً ينفع الناس ويمكث في الارض •

وقد ظهرت في العصور الوسيطة المصادر الموسوعيـة والمؤلفات في مختلف العلوم والآداب والفنون ، وبقـدر ماكان التردى في الأوضـاع السياسية والعسكرية سائداً في تلك العصور ، كانت هناك صحوة فكريـة لاغبار عليها أثمرت مؤلفات ذات قيمة علمية وأدبية وفنية عالية جداً ، وأغنت الفكر العربى الاسلامى بما ألفته من مصادر قيمة كانت ولاتزال وستبقى ثروة لاتقدر بثمن للفكر العربى الاسلامى الأصيل •

٣ ـ الحديثة :

أ ـ من الطبيعى أن تحذو كتب التاريخ والسيرة الحديثة والمؤلفات المختصة بموضوع السفارات النبوية والسفراء النبويين والرسائل النبوية إلى الملوك حذو المصادر القديمة والوسيطة في الاهتمام بأخبار السـفارات والرسائـل النبوية ، وتتميز معظم الكتب الحديثـة بالاختيار والتلخيص والاهتمام بابراز المغزى الأساس للسفارات والرسائل النبوية ، وهو تأكيـد عالمية الدعوة الاسلامية •

ولا يخلو كتاب حديث في السيرة النبوية من التطرق الى السفارات والرسائل النبوية بشكل أو بآخر ، والحديث عما جاء في تلك المراجع الحديثة

كافة لاطائل من ورائه ، لتشابه المعلومات الواردة فيها بصورة عامة مع الاختلاف في طريقة العرض وأسلوبه .

ولعل التنويه بثلاثة كتب من المراجع الحديثة يغنى عن التنويه بسائرها الأول السفر القيم الذى أخرجه الدكتور محمد حميد الله بعنوان : (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ، جمع فيه نصوص الرسائل النبوية(٩٧) .

والثانى كتاب : (خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم) ، ذكر فيه السفارات والرسائل النبوية(٩٨) ، مع ابراز الدروس والعبر بصورة عامة ، ومؤلفه الشيخ محمد أبو زهرة .

والثالث كتاب : (السيرة النبوية) للشيخ أبى الحسن الندوى ، عرض فيه أخبار الوفادات ، وتناول بالمناقشة النقدية المستنيرة بعض التفاصيل التى تحفل بها كتب التاريخ والسيرة الاولى ، والتى لايكفى نقلها دون نظر وتمحيص كافيين(٩٩) .

وسأذكر ماجاء في تلك المراجع الثلاثة وشيكاً بايجاز .

ب ــ فقد ذكر الدكتور محمد حميدالله (ت ١٤٠٢هـ) في كتابه : (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ، نص الرسالة النبوية إلى النجاشى حول مهاجرى الحبشة من المسلمين (التسلسل ٢٠/ألف والتسلسل ٢١) ، وقد ورد في الرسالة النبوية (٢١) مانصه : « وقد بعثت

---

(٩٧) محمد حميدالله ــ مجموعة الوثائق السياسية (٣) و (٤٢ ــ ٥٢) و (٧٢ . وما بعدها) ــ القاهرة ــ ١٣٧٦هـ ــ ط ٢ .

(٩٨) محمد ابو زهرة ــ خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ــ (١١٥٥/٢ وما بعدها) ــ طبعة مؤتمر السيرة بقطر ــ ١٣٩٩هـ .

(٩٩) ابو الحسن الندوى ــ السيرة النبوية (٢٣٣ ــ ٢٥٤) ــ القاهرة ــ ١٣٩٧هـ .

إليك ابن عمى جعفراً ، ونفراً معه من المسلمين ، فاذا جاءك فاقرهم »[١٠٠] .
وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه جعفراً هذا الكتاب إلى النجاشي وقت هجرة جعفر الى الحبشة ، طالباً من النجاشي العادل الاعتناء بحال اللاجئين الغرباء في بلاده من المسلمين ، وهم المهاجرون الأولون إلى أرض الحبشة ، كما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم الى الاسلام .

وذكر العبارة : « ... وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ، ونفراً من المسلمين ، فاذا جاءك فاقرهم ... » ، لايمكن أن تتعلق بالكتاب المرسل في السنة السادسة الهجرية مع عمرو بن امية الضمرى ، حيث كان قد مضى خمس عشرة سنة على هجرة جعفر الى الحبشة[١٠١] ، وكان على وشك الرجوع الى دار الاسلام .

والمصادر التى لم تذكر هذه العبارة في متن الكتاب النبوى متأخرة عن الطبرى الذى ذكرها في تاريخه[١٠٢] ، فليس ذكرها سهواً من الطبرى ، بل عدم ذكرها سهو من الذين لم يذكروها من المتأخرين .

ولا أتفق مع الدكتور حميدالله ، في أن الطبرى الذى نص على تلك العبارة ليس على حق ، وأن الحلبى والقسطلانى والقلقشندى الذين لم ينصوا على تلك العبارة في الرسالة النبوية على حق ، لأن الطبرى متقدم على الذين لم ينصوا على تلك العبارة ، وهم متأخرون عنه ، فهو أقرب إلى سير الحوادث منهم ، والمفروض أنهم يرجعون إليه في مثل هذه الرسالة النبوية أسوة بغيرهم من المؤرخين وكتاب السيرة النبوية الذين نقلوا نص تلك العبارة حرفياً ، ومن المعقول جداً أن يوجه النبي صلى الله عليه وسلم رسالة الى

---

(١٠٠) مجموعة الوثائق السياسية (٣) وانظر نص الرسالة النبوية في الوثيقة (٢١) في مجموعة الوثائق السياسية (٤٣ ـ ٤٥) .
(١٠١) الهجرة الاولى الى الحبشة في السنة الخامسة للنبوة (السنة الثامنة قبل الهجرة) .
(١٠٢) الطبرى (٢/٦٥٢) .

النجاشي مع ابن عمه جعفر ، يوصى بها النجاشي بالمسلمين المهاجرين ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على أصحابه في حاضرهم ومستقبلهم ، فلا يمكن أن يوجه مهاجرين من أصحابه الى أرض الحبشة بدون رسالة نبوية يوصى بها النجاشي خيراً بالمسلمين المهاجرين الى أرضه .

وفي الرسالة النبوية ذات التسلسل (٢٢) ، ذكر الدكتور حميدالله الدعوة النبوية للنجاشي الى الاسلام ، وجواب النجاشي على الرسالة النبوية يعلن فيها اسلامه ، ونص الرسالة النبوية طالباً تزويجه أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، وجواب النجاشي على تلك الرسالة النبوية حول تزويجه أم حبيبة ، وجواب النجاشي على إعادة المسلمين المهاجرين من أرض الحبشة إلى المدينة المنورة(١٠٣) .

وقد حمل تلك الرسائل النبوية عمرو بن أمية الضمرى .

وقد كان الكتاب النبوى الذى حمله جعفر بن أبى طالب للنجاشي صاحب جعفر ، والكتاب الثانى (التسلسل ٢٢) للنجاشي صاحب عمرو بن أمية(١٠٤) . ويبدو أن النجاشي صاحب جعفر قد انتقل الى رحمة الله ، فخلف من بعده النجاشي صاحب عمرو .

جـ ـ وأورد كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم ، كما أورد كتاباً نبوياً آخر إلى قيصر الروم ، وجواب قيصر الروم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أسقف الروم(١٠٥) .

---

(١٠٣) راجع الرسائل التسلسل (٢٢ و ٢٣ و ٢٣/الف و ٢٤ و ٢٥) في مجموعة الوثائق السياسية (٤٦ ـ ٤٩) .

(١٠٤) البداية والنهاية (٨٣/٣) .

(١٠٥) راجع الرسائل في التسلسل (٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩) في : مجموعة الوثائق السياسية (٤٩ ـ ٥٢) .

وقد جمع هذه الرسائل من المصادر القديمة والوسيطة ، ولم ينس المراجع الحديثة . وبخاصة بحوث المستشرقين وغيرهم ، مما ييسر للباحث جوّاً علميّاً رائعا ، ويدلّ على مبلغ الجهد الذى بذله الدكتور محمد حميدالله في هذه الدراسة المستفيضة المثمرة .

كما أورد كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى الحارث بن أبى شمر الغساني[١٠٦] ، كما نوه بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جبلة بن الايهم الغساني ملك غسان يدعوه به الى الاسلام ، وجواب جبلة باسلامه[١٠٧] ، ولم يرو نص الكتابين ، لأنّ المصادر القديمة والوسيطة لم تذكر نصي الكتابين .

ثم أورد كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط ، وذكر جواب المقوقس على الكتاب النبوى . وأدرج رواية أخرى عن نص الكتاب النبوى الى المقوقس ، ورواية أخرى عن جواب المقوقس[١٠٨] . وقد تطرق الى مراجع المستشرقين وغيرهم حول ذلك ، فقدم بذلك رصيداً دسماً للباحثين والدارسين .

د ــ وذكر نص كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عظيم فارس[١٠٩] ، وذكر نص كتاب نبوي آخر الى كسرى[١٠٩] ، والكتاب الأول هو المعتمد ، لأن المصادر الرئيسة سجلته ، ولا عبرة في الكتاب الثاني ، ولكن

---

(١٠٦) راجع الرسالة في التسلسل (٣٧) في : مجموعة الوثائق السياسية (٦٢ ــ ٦٣) .

(١٠٧) راجع الرسالتين في التسلسل (٣٨ و ٣٩) في : مجموعة الوثائق السياسية (٦٤) .

(١٠٨) راجع الرسائل في التسلسل (٤٩ و ٥٠ و ٥١ و ٥٢) في : مجموعة الوثائق السياسية (٧٢ ــ ٧٥) .

(١٠٩) راجع الرسالة التسلسل (٥٣) في : مجموعة الوثائق السياسية (٧٦ ــ ٧٧) .

الأمانة العلمية اقتضت تسجيله والتنويه به ، وقد دون الدكتور حميدالله بعد الكتاب الثاني : « والظاهر أنه سهو من الراوي وإدغام بين كتابين : كتاب كسرى المذكور تحت رقم ٥٣ ، وكتاب إلى المنذر بن ساوى حسب رواية القلقشندي المذكورة تحت رقم ٥٩ ، فتنبه » .

وأورد جواب كسرى دون أن يروي نصه ، لأنّ المصدر الذي نقل عنه هذا الكتاب لم يرو نصه[111] .

كما أورد نص كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى الهرمزان احد عمال كسرى[112] ، دون أن يبدي رأيه في هذا الكتاب . ولم يثبت أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كتب الى الهرمزان ، والثابت أنّه كتب الى كسرى عظيم فارس وحده ، فهو المسئول الأول عن الأقوام التي تعيش تحت ظل حكمه ، ومخاطبة الأصل تغني عن مخاطبة الفرع .

هـ ــ وذكر نص كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوى ملك البحرين[113] ، وذكر نص كتاب نبوي ثان الى المنذر بن ساوى أيضاً[114] ، وجواب المنذر بن ساوى للنبي صلى الله عليه وسلم[115] . ثم أدرج نص كتاب نبوي ثالث الى المنذر أيضاً ، ونص كتاب نبوي الى العلاء

---

(١١٠) راجع الرسالة التسلسل (٥٣/الف) في : مجموعة الوثائق السياسية (٧٧) .

(١١١) راجع الرسالة التسلسل (٥٣/ب) في : مجموعة الوثائق السياسية

(١١٢) راجع الرسالة التسلسل (٥٤) في : مجموعة الوثائق السياسية (٧٨) .

(١١٣) راجع الرسالة التسلسل (٥٦) في : مجموعة الوثائق السياسية (٧٩ ــ ٨٠) .

(١١٤) راجع الرسالة التسلسل (٥٧) في : مجموعة الوثائق السياسية (٨٠ ــ ٨١) .

(١١٥) راجع الرسالة التسلسل (٥٨) في : مجموعة الوثائق السياسية (٨١ ــ ٨٢) .

ابن الحضرمي عن الزكاة ، وكتاباً آخر الى العلاء في استقدامه الى المدينة المنورة مع مندوبين عن أهل البحرين ، ونص كتاب نبوى الى أهل هجر في البحرين ، ونص كتاب نبوى الى المنذر بن ساوى في مجوس هجر ، ونص كتاب نبوى الى المنذر في دفع الجزية ، ونص كتاب نبوى الى عامل النبي صلى الله عليه وسلم في البحرين العلاء بن الحضرمي(١١٦)، ونص كتاب الى عامل كسرى في البحرين ، ونص كتاب الى أهل عمان والبحرين ، ونص كتاب الى الهلال صاحب البحرين(١١٧) ، وبذلك يكمل تسجيلاته المستفيضة حول الرسائل النبوية الى البحرين وماحولها ، وهى تسجيلات جمعت فأوعت بحق .

ولعل أهم ماجاء في تسجيلاته ، هو حول الكتاب النبوي الثاني (تسلسل ٥٧) ، ودراسات المستشرقين وغيرهم حوله ، بعد العثور على نسخة من الكتاب، وسنعود الى أهم ماجاء على هذا الكتاب النبوي من دراسات وشيكا .

و . وجاء الدكتور محمد حميد الله بنص كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى هوذة بن علي ، وجواب هوذة على الكتاب النبوي(١١٨) ، ونوه بالكتاب النبوي الى ثمامة بن أثال رئيس اليمامة(١١٩) .

كما دوّن الرسالة النبوية الى جيفر وعبد ابنى الجُلندي رئيسي عُمان(١٢٠) ، والكتاب النبوي الى هوذة في اليمامة والى جيفر وعبد ابنى

---

(١١٦) راجع الرسالة التسلسل (٥٩) في : مجموعة الوثائق السياسية (٨٢ ــ ٨٣) .

(١١٧) راجع الرسائل ذات التسلسل (٥٩/الف و ٥٩ ب و ٦٠ و ٦١ ، و ٦٢ ، و ٦٣ ، و ٦٤ ، و ٦٥ ، و ٦٦ و ٦٧) في : مجموعة الوثائق السياسية (٨٣ ــ ٩٠) .

(١١٨) انظر الرسالتين في التسلسلين (٦٨ و ٦٨/الف) في : مجموعة الوثائق السياسية (٩١) .

(١١٩) انظر الرسالة في التسلسل (٦٨/ب) في : مجموعة الوثائق السياسية ٩٢) .

(١٢٠) انظر الرسالة في التسلسل (٧٦) في : مجموعة الوثائق السياسية (٩٧) .

الجُلندي في عُمان ، في هذا المرجع الوثائقي ، لايختلف في شيء ذي بال عماجاء في المصادر القديمة والوسيطة المعتمدة ، وقد أفاض الدكتور حميد الله في تعداد المصادر والمراجع ، مما لايخلو من فائدة للدارس والمتتبع •

ز •. وقد أورد كتابه عليه الصلاة والسلام لعمرو بن حَزم عامله وسفيره على اليمن[(١٢١)] ، كما أورد ضميمة للنص السابق[(١٢٢)] ، وكتابه عليه الصلاة والسلام الى عمرو بن حزم أيضا في تسمية ابن عمرو بن حزم وتكنيته[(١٢٣)] ، وهو مولود جديد لعمرو •

وقد أفاض الدكتور حميد الله أيضا كعادته ، في تعداد المصادر والمراجع التي رجع اليها في تلك الرسائل النبوية ، مما لايخلو من فائدة كبيرة للدارس والمتتبع •

وقد أدرج بعد ذلك الكتاب النبوي الى ملوك اليمن (الى الحارث ، ومسروح ، ونُعَيم بن عبد كُلال من حِمير) في اليمن ، وجوابهم للنبي صلى الله عليه وسلم الذي قدم به على النبي صلى الله عليه وسلم مالك بن مرارة الرهاوي[(١٢٤)] دون أن يذكر نص الجواب ، لأن المصادر المعتمدة لم ترو نصه• كما أدرج جواب النبي صلى الله عليه وسلم على كتاب ملوك اليمن ، الذي حمله اليهم سفيره مُعاذ بن جبل وسفيره أبو موسى الأشعري الذي كان مع مُعاذ في سفرته ومهمته •

---

(١٢١) انظر الرسالة في التسلسل (١٠٥) في : مجموعة الوثائق السياسية (١٣٧ – ١٤١) •

(١٢٢) انظر التسلسل (١٠٦) في : مجموعة الوثائق السياسية (١٤١ – ١٤٢) •

(١٢٣) انظر التسلسل (١٠٦/الف ، ب) في : مجموعة الوثائق السياسية (١٤٢ – ١٤٣) •

(١٢٤) هذا هو اسمه الكامل ، مالك بن مرارة الرهاوى كما جاء في : مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤) وفي المصادر والمراجع الاخرى •

كما ذكر الكتاب النبوي الى عَريب بن عبد كُلال دون أن يروى نصه، وذكر الكتاب النبوي الى فهد الحميري دون أن يروى نصه أيضا ، والكتاب النبوي الى عبدالعزيز بن سيف بن ذي يزن الحميري دون أن يروى نصه أيضا.

كما ذكر نص الكتاب النبوي الى أقيال اليمن في الزكاة والديات وغيرها، والى عُمَير شيخ من همدان(١٢٥) .

ح . تلك هي مجمل ما أورده الدكتور محمد حميدالله في كتابه القيّم : (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة)(١٢٦) حول السفارات والرسائل النبوية واجوبة الملوك والرؤساء عليها ، مع ذكر المصادر العربية الاسلامية التي اعتمدها ، والمراجع العربية والاسلامية والأجنبية التي اعتمد عليها ، بصورة مفصلة شاملة ، لاتكاد تترك شاردة ولا واردة إلا أشارت إليها ودلّت عليها ، مع ذكر بعض التعليقات المفيدة في بعض الأحيان ، كما أن مقدمة الطبعة الأولى ومقدمة الطبعة الثانية مفيدتان للباحثين والدارسين في هذا المجال ، لتثبيت آراء قيّمة للمؤلف .

وبالرغم من أن الاعتماد على المراجع الأجنبية، وبخاصة مراجع المستشرقين بالذات لاتخلو من فائدة محدودة ، إلا أن الدارس والباحث الذي ليست له خلفية واضحة المعالم جلية القسمات في موضوع : السفارات النبوية والرسائل النبوية ، قد تورّطه مراجع المستشرقين الى الوقوع في الانحراف دون مسوّغ،

---

(١٢٥) انظر تسلسل الكتب النبوية (١٠٧ الى ملوك اليمن ، و ١٠٨ جوابهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، و ١٠٩ جواب النبي صلى الله عليه وسلم لكتابهم ، و ١١٠/الى عريب بن عبد كلال في اليمن ، و ١١٠/الف الى فهد الحميرى ، و ١١٠ ب الى عبد العزيز بن سيف بن ذى يزن الحميرى ، و ١١٠/ج الى اقيال اليمن في الزكاة والدبات وغيرها ، و ١١١ الى عمير شيخ من همدان) ، في : مجموعة الوثائق السياسية (١٤٣ – ١٥٣) .

(١٢٦) الدكتور محمد حميدالله الحيدر آبادى – مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة – مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر – القاهرة – ١٣٧٦هـ – ط ٢ .

لأن كثيرا من المستشرقين ، ولا أقول كل المستشرقين ، يدأبون على التشكيك في كل مايمت الى العربية لغة والاسلام دينا ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وقد يكون زرع هذا التشكيك متعمدا لغاية في نفس يعقوب ، حوافزه صهيونية أو تبشيرية أو سياسية أصبحت معروفة للعرب والمسلمين بخاصة ولغير العرب والمسلمين بعامة ، على الرغم من تغليفها بغلاف العلم والموضوعية والمنهجية ، ولكن قد يكون هذا التشكيك غير متعمد نتيجة لسوء الفهم في اللغة العربية أو في تعاليم الدين الحنيف ، فلا يفهم أسرار العربية كما ينبغي إلا العربي الأصيل أو المسلم الحق ، كما لايفهم تعاليم الدين الحنيف من غير المسلمين إلا من حرص على التعلم وأخلص في تعلمه ، وتخلى عن مقارنة دينه بالاسلام، لأن الاسلام ليس دينا حسب ، بل منهج حياة بكل تفاصيلها ودقائقها .

وإذا كان التشكيك متعمدا أو غير متعمد ، فالنتيجة تكاد تكون واحدة، هي تلويث العقول والقلوب بهذا التشكيك ، وانتقاله بالعدوى الى عقول الآخرين وقلوبهم من طلاب وأساتذة وقراء في أرجاء الوطن العربي ودار الاسلام .

لهذا ذكرتُ خطورة المراجع الاستشراقية وذكّرت بها ، بالنسبة لمن لاخلفية له ، واضحة المعالم جلية القسمات ، في موضوع : السفارات والرسائل النبوية ، وأقصد بذلك دراسة هذا الموضوع في مصادرنا الاسلامية أولاً دراسة متأنية عميقة مفصلة ، وبعد ذلك لابأس من الاطلاع على الدراسات الاستشراقية . أما قبل الاحاطة الشاملة بالموضوع في مصادرنا الاسلامية المعتمدة ، فقد تؤدي المراجع الاستشراقية حول : السفارات والرسائل النبوية، الى بذر الشك والتشكيك في عقل العربي والمسلم ونفسه ، وهذا مالايريده الدكتور حميدالله ولا غيره من المسلمين لأي عربي مسلم .

وسنعرض لشيء من التشكيك في مراجع المستشرقين ، وكيف تسرب الى المراجع العربية والاسلامية .

وما تأثر الدكتور حميدالله بتشكيك تلك المراجع الاستشراقية ، لأن له خلفية كاملة حول موضوع : السفارات والرسائل النبوية . ولو لم يكن محصنا بتلك الخلفية ، لما ثبت على الحق ودافع عنه ، وهذا ما نريده للدارسين والباحثين من العرب والمسلمين .

لقد أدى الدكتور حميدالله واجبه في سرد المصادر والمراجع ، وبلغ في استقصائه مبلغا يدل على حرصه وأمانته ، وبقي علي أن أذكر بالسم الذي دُسّ في العسل ، لعل الذكرى تنفع المؤمنين .

وطالما خدعت مراجع الاستشراق عن الاسلام والعربية بعض الذين صدقوا مسوح الموضوعية والمنهجية والعلمية التي تتظهر تلك المراجع وتتظاهر بها ، وهي تُخفي غير ما تُعلن . وليس المستشرقون كلهم سواء ، ولا نريد هنا غير المنحرفين منهم ، أما المنصفون فهم معروفون ، وخدماتهم للفكر والعلم والتراث لاتُقدر بثمن ، ولكن ما أكثر المنحرفين منهم ، وما أقل المنصفين !

ط . والآن يأتي دور المرجع الثاني ، وهو كتاب الشيخ محمد أبى زهرة (ت١٣٩٥هـ)[١٢٧] ، وعنوان الكتاب : (خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم)[١٢٨] .

وبدأ الشيخ أبو زهرة حديثه على الرسائل النبوية تحت عنوان: (رسائل)، فقال : «وإنه بعد الحديبية تفرغ النبي صلى الله عليه وسلم للدعوة ، فلم يرسل سرايا للقتال ، ولكن أرسل رسلا للدعوة الى الاسلام ، وتبليغ الدعوة» «قال الواقدي : في ذي الحجة من سنة ست ، بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ستة نفر مصطحبين : حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس صاحب الاسكندرية ، وبعث شجاع بن وهب الى الحارث بن شمر[١٢٩]

---

(١٢٧) توفى عليه رحمة الله في يوم الجمعة الاول من ربيع الثانى ١٣٩٥هـ ، الموافق ١٢ نيسان (ابريل ١٩٧٤م في داره بالقاهرة .

(١٢٨) محمد ابو زهرة ــ خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ــ طبعة قطر ــ الدوحة ــ ١٤٠٠هـ .

(١٢٩) الصواب : الحارث بن أبى شمر الغسانى .

الغساني ملك عرب النصارى ، ودِحية بن خليفة الكلبي الى قيصر هرقل ملك الروم ، وبعث عبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك الفرس، وبعث سليط بن عمرو العامري الى هوذة بن علي الحنفي ، وعمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ملك النصارى بالحبشة ، وهو أصحمة بن أبجر» . ثم قال : «والذي نقوله هنا ، هو أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد تفرغ للتبليغ ، ولم يَعُد مقصورا على الجزيرة العربية وما حولها ، بل تجاوزها الى الأقاليم الأخرى»[١٣٠] . وهو هنا ينص على بداية مرحلة الدعوة عالميا الى الاسلام ، وسنوجز مراحل تطور الدعوة الاسلامية بعد قليل .

وتحت عنوان : (بعث الرسائل للملوك) ، ذكر أن علماء السيرة والصحاح اتفقوا على أن الارسال الى الملوك والأمراء ، كان بعد الحديبية وقبل الفتح ، ولكن اختلفوا أكان بعد صلح الحديبية أم كان بعد عُمراة القضاء ، أم كان بعد مؤتة . ثم قال : «والذي نختاره أنه كان بعد عُمرة القضاء وقبل مؤتة»[١٣١] ، والجمهور على أنه كان بعد صلح الحديبية .

ثم جاء على ذكر كتابه الى هرقل وأثره [١٣٢] ، فلم يأت بجديد حول الموضوع .

وانتقل الى كتابه لكسرى ملك الفرس[١٣٣]، فذكر ما ذكرته المصادر السابقة ، بأسلوب عصري مبسط ، وركز على أثر الرسالة النبوية في باذان نائب كسرى على اليمن وأتباعه من الفرس في اليمن ، إذ أسلم باذان وأسلم الأبناء من فارس الذين كانوا باليمن [١٣٤] .

---

(١٣٠) خاتم النبيين (٢/١٠٣٩ ــ ١٠٤٠) .
(١٣١) خاتم النبيين (٢/١١٥٥) .
(١٣٢) خاتم النبيين (٢/١١٥٧) .
(١٣٣) خاتم النبيين (٢/١١٦١ ــ ١١٦٤) .
(١٣٤) خاتم النبيين (٢/١١٦٤) .

وتحدث بعد ذلك مباشرة عن الكتاب النبوي الى النجاشي ، وجواب النجاشي على الكتاب النبوي ، واسلام النجاشي دون أن يكره أحدا من أتباعه على الاسلام[١٣٥] .

وجاء دور الكتاب النبوي الى المقوقس ، فأورد نص الكتاب النبوي ، ومناقشة المقوقس للسفير النبوي ، وجواب المقوقس على الرسالة النبوية ، وهدية المقوقس الى النبي صلى الله عليه وسلم[١٣٦] ، دون أن يأتي بجديد أيضا .

ثم ذكر كتابه عليه الصلاة والسلام الى المنذر بن ساوى ، فأورد نص الكتاب النبوي[١٣٧] ، دون أن يذكر تفاصيل الكتب المتبادلة بين النبي صلى الله عليه وسلم والمنذر بن ساوى وغيره في البحرين ، كما فعلت المصادر القديمة والوسيطة . واستنتج أن ابن عباس كان حريصا على أن يكتب كتب النبي صلى الله عليه وسلم ويحفظها في خزانة كتبه ، وأنه يعلن للناس مايعلن وهو الأكثر ، وقد يُبقي ما لا يُعلن . كما استدل على أن الجزية تفرض على اليهود والمجوس ، ثم قال : «وفي الخبر مايدل على فرض الجزية على الذين لايؤمنون ، اذا كانوا في ولاية مسلم ، وهم هنا اليهود والنصارى والمجوس ، وقد أجمع الفقهاء على فرض الجزية عليهم ، وأجاز أبو حنيفة فرض الجزية على الوثنيين غير العرب قياسا على المجوس»[١٣٨] . وهكذا تتميز تعليقات الشيخ أبي زهرة بالناحية الفقهية ، فقد كان عليه رحمة الله من فقهاء العصر المعروفين .

وذكر بعده نص الكتاب النبوي الى ملك عُمان ، ومناقشة السفير النبوي عمرو بن العاص لملك عُمان ، واسلام الملك . ويستنتج المؤلف عدة استنتاجات من الكتاب النبوي والمناقشة ، منها : تغلغل الاسلام في نفس العربي شرقا وغربا ،

---

(١٣٥) خاتم النبيين (٢/١١٦٥ — ١١٦٦) .
(١٣٦) خاتم النبيين (٢/١١٦٧ — ١١٦٩) .
(١٣٧) خاتم النبيين (٢/١١٧٠) .
(١٣٨) خاتم النبيين (٢/١١٧١) .

وأن أهل عمان كانوا من النصارى ، وأنه لا ولاية لغير المسلم على المسلم ، وأن هرقل كان واسع التفكير حر الفكر والرأي يقدّر حرية التدين في غيره كما يقدّرها في نفسه ، وأن سفارة عمرو بن العاص كانت بعد فتح مكة ، وأن عمرو بن العاص كان ذا فراسة قوية[١٣٩] ، وهي استنتاجات فقهية وعامة مفيدة جدا للدارسين والباحثين .

وكان آخر كتاب نبوي ذكره المؤلف ، هو كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى أصحاب اليمامة ، فذكر نص الكتاب النبوي ، ونتيجة السفارة النبوية[١٤٠] .

وذكر بعده تحت عنوان : (المقصود من الرسالة المحمدية) ، ثلاثة استنتاجات[١٤١] ، تفيد الباحث والدارس كثيرا .

وختم دراسته بآراء فقهية حصيفة في الذمي والجزية وممن تؤخذ الجزية ، وأن أخذ الجزية يعفى دافعها من القتال ، وحكم المشركين العرب ، وأحكام أهل الذمة[١٤٢] ، وقد استنتج هذه الآراء من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوى ، معتمدا على دراساته الفقهية المستفيضة ، فجاء بآراء تفيد الباحثين والدارسين بعامة والفقهاء منهم بخاصة .

وقد اعتمد الشيخ أبو زهرة كتاب : (عيون الأثر) لابن سيد الناس مصدرا رئيسا لتدوين ما دونه في السفارات والرسائل النبوية ، واقتفى أثره حتى في ترتيب تبويب السفارات والرسائل النبوية وتسلسل تسجيلها أيضاً ، كما اعتمد على المصادر القديمة والوسيطة الأخرى ، ولكن بقي اعتماده بالدرجة الاولى على ابن سيد الناس ، خاصة وأنهما فقيهان يتفقان في الميول والتفكير ،

---

(١٣٩) خاتم النبيين (٢/١١٧٢ – ١١٧٦) .
(١٤٠) خاتم النبيين (٢/١١٧٧) .
(١٤١) خاتم النبيين (٢/١١٧٨ – ١١٧٩) .
(١٤٢) خاتم النبيين (/١١٨٠ – ١١٨٣) .

ومع ذلك كانت للشيخ أبى زهرة في كتابه إضافات فقهية وأفكار جديدة على ابن سيد الناس ، كما أن أسلوب أبى زهرة في عرض الأحداث والأفكار أسلوب عصري يتسم بالجزالة والبساطة والوضوح ، لذلك كان في كتاب الشيخ أبى زهرة ، إضافات جديدة للسيرة النبوية ، تستهوي القرآء المحدثين والدارسين أكثر مما تستهويهم المصادر القديمة والوسيطة على أهميتها وجلالة قدرها .

ط - أما الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه القيّم : (السيرة النبوية) ، فلابد من ذكر أن الندوي من علماء المسلمين في الهند ، وهو أمين : (ندوة العلماء بلكناو) ، وله في مجال الدراسات الاسلامية والفكر الاسلامي والدعوة الاسلامية مؤلفات وبحوث كثيرة ، وقد أغنى المكتبة الاسلامية العربية والهندية والانكليزية بمؤلفاته وبحوثه القيمة ، وهي في مختلف قضايا الفكر والثقافة والفكر الاسلامي .

وتمتاز كتابات أبى الحسن في السيرة ، كما هو الحال في كتاباته الاسلامية ، بتزامل العقل والعاطفة ، فهما يسيران معا متجاورين ، لايجور بحثه العقلي ، أو نقده التحليلي ، أو نفاذه الى الحقائق ، على أريج العاطفة والحب وحلاوة الايمان .

وبحثه في كتابه : (السيرة النبوية) ، لم يُغلّب العاطفة على العقل ، وركز في بحثه على ثلاثة عناصر ، فكان للعواطف مدخل الى النفس ، وكان لتحري الحق مدخل الى القلب ، وكان الجهد العقلي في تحليل النصوص ونقدها وسوقها سَوقاً رشيدا مدخلا طبيعيا الى العقل ، فالنفس والقلب والعقل مداخل ثلاثة نجح الباحث في تحريكها وإدارتها وتوجيهها الى حيث يريد من معرفة وتأثير واستمتاع .

تلك هي بعض سمات المؤلف ، فماذا عالج في السيرة النبوية ، عن السفارات والرسائل النبوية ؟

تحدث تحت عنوان : (دعوة الملوك والأمراء الى الاسلام)[١٤٣] ، فبدأ : بـ(دعوة وحكمة) ، فذكر أنه لما تم صلح الحديبية ، وهدأت الأحوال ، وجدت الدعوة الاسلامية متنفسا ومجالا للتقدم ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتبا الى ملوك العالم وأمراء العرب ، يدعوهم فيها الى الاسلام والى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . واهتم اهتماما كبيرا ، فاختار لكل واحد منهم رسولا يليق به[١٤٤] ، ويعرف لغته[١٤٥] . والمؤلف يبدي رأيه بأن سفراء النبي الى الملوك الأجانب من غير العرب كانوا من الذين يعرفون لغة الملك الذي حمل كل واحد منهم الرسالة النبوية اليه ، وهو رأي حصيف لولا وجود نصوص ذكرناها في مكانها، تنص على أن أولئك الملوك استعانوا بالمترجمين ، ولم يخاطبوا السفراء النبويين بصورة مباشرة .

وذكر المؤلف في الهامش الرقم (١) : « ترجح أن هذه الرسائل وجهت في شهر ذى الحجة سنة ست (الهجرية) بعد صلح الحديبية ، كما قال الواقدى ، وهو يوافق ٦٢٧م ، فان في مقدمة هؤلاء الملوك الامبراطور الايرانى « كسرى أبرويز » ، ومن المقرر أنه مات في مارس ٦٢٨م ، ومن هنا يتقرر أن صلح الحديبية في أوائل سنة ٦٢٧م ، وكان من الصعب وصول الرسالة الموجهة الى هرقل كذلك ، اذا كانت وجهت في سنة ٦٢٨م ، لأنه كان قد توجه في هذه السنة الى أرمينيا ، انظر فتح العرب لمصر ـ بتلر (١٣٩ ـ ١٤٠) »[١٤٦] ، وهو تعليل سديد لتوقيت الرسائل النبوية .

ثم يورد تحت عنوان : (الكتب التى أرسلت الى الملوك) ، نص كتاب

---

(١٤٣) انظر التفاصيل في : السيرة النبوية (٤٠٢ ـ ٤١١) ـ لبنان ـ صيدا ـ ١٣٩٩هـ .

(١٤٤) انظر بحث : سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، في هذا الكتاب (٢٦٥ ـ ٣٢٠) .

(١٤٥) السيرة النبوية للندوى (٣٢٣) .

(١٤٦) السيرة النبوية للندوى (٣٢٣) .

النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل(١٤٧)،ونص كتابه الى كسرى أبرويز(١٤٨)، ونص كتابه الى النجاشي ملك الحبشة(١٤٩) ، ونص كتابه الى المقوقس عظيم القبط(١٥٠) . وذكر الندوى أنه عثر على نصوص هذه الكتب الأربعة في فترات تاريخية مختلفة ، وظهرت في بعض الصحف والمجلات الاسلامية ، وأخذت لها صور كثيرة(١٥١) .

ثم تحدث المؤلف تحت عنوان : (من هم هؤلاء الملوك) ، على هرقل(١٥٢) ، وعلى كسرى أبرويز(١٥٣) ، وعلى المقوقس(١٥٤) ، وعلى النجاشى ، فذكر أن بلاد الحبشة لم تزل تسمى من قديم الزمان بالحبشة Abyssinia أو أثيوبيا Ethiopia ، وهى بلاد من افريقيا الشرقية ، واقعة في الجنوب الغربى من البحر الأحمر ، ولايمكن تقدير حدودها في العصر الذى نتحدث عنه .

وقال المؤلف : « ويقول De Lacy O'Leary »في كتابه : (العرب قبل محمد) : كانت الحبشة منذ ٥٢٢م حتى ظهور الاسلام مسيطرة على تجارة شرق المحيط الأحمر ، وافريقيا ، بل لعلها كانت مسيطرة على تجارة الهند أيضاً »(١٥٥) .

---

(١٤٧) السيرة النبوية للندوى (٣٢٤ ــ ٣٢٥) .
(١٤٨) السيرة النبوية للندوى (٣٢٥) .
(١٤٩) السيرة النبوية للندوى (٣٢٥ ــ ٣٢٦) .
(١٥٠) السيرة النبوية للندوى (٣٢٦) .
(١٥١) الهامش (٢) من (٣٢٦) في السيرة النبوية للندوى (٣٢٦) ، و أنه من شاء الاطلاع على هذه الصور ، فعليه بكتاب للدكتور حميدالله ، طبع حيدر آباد ــ الهند ــ ١٩٧٤م .
(١٥٢) السيرة النبوية للندوى (٣٢٧ ــ ٣٣٠) .
(١٥٣) السيرة النبوية للندوى (٣٣٠ ــ ٣٣٣) .
(١٥٤) السيرة النبوية للندوى (٣٣٣ ــ ٣٣٥) .
(١٥٥) ((Arabia Before Mohamad)) (London 1937) P. 120 .

وقال المؤلف : « وكان ملك الحبشة يلقب دائماً بـ (النجاشي) ((Nagusa, Nogashi)) » ثم تحدث عن النجاشي الذي كتب اليه رسول صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام ، فيقول : « ومما لاشك فيه ، أن هناك شخصيتين متمايزتين : الأول هو الذي هاجر اليه المسلمون من مكة ، وكان فيهم جعفر بن أبي طالب ، وذلك سنة خمس من النبوة .. أما النجاشي الذي كتب له النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً يدعوه الى الاسلام فهو كما مال اليه الحافظ ابن كثير هو النجاشي الذي ولي بعد المسلم صاحب جعفر ... وهو النجاشي الذي صلى عليه رسول الله عليه وسلم ، وذلك في رجب سنة تسع منصرف تبوك »[١٥٦] .

وقد أضاف المؤلف معلومات جديدة بذلك على ماذكره كتاب السيرة الذين سبقوه ، ولم أطلع على كتاب الندوى قبل كتابة هذه الفقرة من هذه الدراسة ، وقد كتبت على الملوك والأمراء دراسة أشمل من دارسة الندوى ، لأنها شملت الملوك والأمراء ، وكانت الدراسة عن الملوك أكثر تفصيلا[١٥٧] ، وقد أضفت المعلومات الواردة عن النجاشي الواردة في أعلاه نقلا عن الندوى ، لأنني لم أكن قد انتبهت اليها في حينه .

ويتحدث المؤلف تحت عنوان : (كيف تلقى هؤلاء الملوك هذه الرسائل الكريمة)[١٥٨] حديثاً يوجز فيه ما قاله غيره ممن سبقوه ، ولا يأتي بجديد يتميز به عنهم. ثم يتحدث تحت عنوان : (حوار بين هرقل وأبي سفيان) حديثاً يقتبسه من صحيح البخاري ، وليس فيه جديد أيضاً[١٥٩] .

---

(١٥٦) صحيح مسلم ـ طبع مصر (١٦٦/٥) ، وانظر السيرة النبوية للندوى (٣٣٥ ـ ٣٣٨) .

(١٥٧) انظر مقدمة الجزء الاول من سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ـ للمؤلف ـ مخطوط .

(١٥٨) السيرة النبوية (٣٣٨) .

(١٥٩) السيرة النبوية (٣٤٠ ـ ٣٤٣) .

ويتكلم المؤلف تحت عنوان : (من هم الأريسيون)[160] ، وقد وردت كلمة (الأريسيين) أو (اليريسيين) في الكتاب النبوى الموجه الى هرقل وحده ، ولم ترد في كتاب من الكتب التى ارسلت الى غيره .

لذلك يرجح المؤلف أن المراد بالأريسيين هم أتباع : (أريوس ٢٨٠م ـ ٣٣٦م Arius) وهو مؤسس فرقة نصرانية كان لها دور كبير في تاريخ العقائد النصرانية والاصلاح الديني ، وقد شغلت الدولة البيزنطية والكنيسة المسيحية زمناً طويلا . وآريوس هو الذى نادى بالتوحيد[161] .

ولأن هذه الدراسة جديدة ، فيها اضافة لدراسات الرسائل النبوية ، فقد اقتبستها في شرح الرسالة النبوية الى هرقل الواردة في الصفحة : (٦٧ ـ ٧٠) من هذا الكتاب، تحت عنوان : (الى قيصر الروم وأسقفهم) ، لتكون مرجعاً في شرح كلمة : (الأريسيين) أو (اليريسيين) في الرسالة النبوية الى هرقل أينما وجدت في هذا الكتاب .

ودراسة المؤلف مفيدة للغاية للباحثين والدارسين .

ويختم المؤلف هذه الدراسة بعنوان : (رسائل الى أمراء العرب)[162] ، وهى دراسة مختصرة جداً لاجديد فيها .

إنّ دراسة المؤلف في هذا الكتاب ، فيها اضافات جديدة ، وهى مفيدة للغاية بالنسبة للدارسين والباحثين والأساتذة والطلاب .

ى ـ وهكذا حشد الدكتور حميدالله الوثائق النبوية ، وسهر على حشدها وتدقيق مراجعها ومصادرها تدقيقاً موفقاً ، فقدم للدارسين والباحثين أجل الخدمات ، ويسر لهم البحث والدرس واختصر لهم الطرق والوقت

---

(١٦٠) السيرة النبوية (٣٤٣ ـ ٣٤٩) .
(١٦١) السيرة النبوية (٣٤٥) .
(١٦٢) السيرة النبوية (٣٤٩ ـ ٣٥٠) .

اختصاراً لايقدر بثمن ، عليه رحمه الله .

كما عنى أبو زهرة بالاستنباطات الفقهية بخاصة في دراسته للسيرة ، فقدم للفقهاء أولا ولغيرهم من الدارسين والباحثين ثماراً يانعة من دراساته الحصيفة السديدة ، ولا عجب ، فقد كان عليه رحمة الله من أبرز فقهاء المسلمين في عصره ، وكنت في القاهرة معاصراً لتأليف كتابه ، وكان مشغولا به مهتماً بجمع مواده ، كأنه لم يخلق الا من أجل تأليفه ، وكان يناقش كل من يتصل به في معضلاته مناقشة حماسية واعية ، وكنت أزوره بداره في حي الزيتون بالقاهرة ، فألمس ما يبذله من جهد في تأليفه ومناقشة أبحاثه .

أما الشيخ الندوي ، فهو زميلى في المجلس التأسيسى لرابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة ، وكنت أميل اليه كثيراً ويميل إليّ ، لأنني أجد عمله كله خالصاً لوجه الله تعالى وطالما حدثنى على كتابه حديث المحب الهائم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ألف كتابه الا تعبيراً لحبه العميق ووجده برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رد على المستشرقين رداً علمياً بدون أن يذكر أسماءهم ، فحسبه أن يعيد الحق الى نصابه ، وأن يرشد المتشككين . وقد أعانه على الاجادة في كتابه ، علمه الواسع ، وقراءته المستمرة ، ومعرفته باللغات الأجنبية وبخاصة الانكليزية ، فهو يؤلف بهذه اللغة كما يؤلف بالعربية والاوردية لغته الاصلية في الهند . واشهد ان الندوي لم يؤلف من أجل السمعة أو المال ، فقد كان ولا يزال يعتبر العلم عبادة من أجل العبادات ، فاذا بارك الله له في كل ماخطت يده ونفع به المسلمين وجعل عمله ينفع الناس ويمكث في الأرض ، فهذا هو سر كل ذلك : لم يكتب للسمعة ولا للمال ، بل لله وحده عز وجل . أطال الله عمره ، وأبقاه ذخراً للاسلام والمسلمين في كل مكان .

والخلاصة ، إننا نستطيع أن نتوصل بعد هذا الاستعراض للدراسات المتعلقة بالسفارات والرسائل النبوية في مصادرنا ومراجعنا الاسلامية قديمها

ووسيطها وحديثها ، الى نتيجتين واضحتين •

الأولى : هى أن موضوع السفارات والرسائل النبوية في مجموعه موثق في مصادرنا توثيقاً يرفعه الى مستوى المسلمات التاريخية والحقائق الدينية التى لاتقبل الشك ولا التشكيك • وهذا يشمل خبر الكتابة الى الملوك والأمراء في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، والسفارات النبوية التى رافقتها • وهذا لاينفى أن تشتمل هذه الأخبار على تفاصيل تستحق اعادة النظر والتمحيص الموضوعيين فيها، بقصد معرفة صحيحها من غيره، ولكن في اطار التسليم بصحة الخبر العام ، فقد أولى الدارسون هذا الموضوع اهتمامهم على مدى العصور ، وأعطي مايستحق من العناية في التدوين والتمحيص •

والثانية : هى أن المصادر القديمة اهتمت بالتدوين والتوثيق اهتماماً فائقاً ، وتوخت الصدق والأمانة في التدوين والتوثيق • بينما اهتمت المصادر الوسيطة بالتجميع والتوثيق ووضع المواد المتشابهة تحت عناوين مناسبة تعطى صورة واضحة لفحوى ومحتوى تلك المواد المتشابهة • بينما اهتمت المراجع الحديثة بالتلخيص والتحليل واستخراج الدروس والعبرتارة ، وبالشرح والتوضيح والتحليل واستخراج الدروس والعبرتارة أخرى • وما زالت الحاجة ماسة الى مزيد من الدراسات التوثيقية وجهود الترجيح وبخاصة في التفاصيل ، ويزيد من ضرورة ذلك المبحثان اللذان جدا في موضوع السفارات والرسائل النبوية[١٦٣] : مبحث التشكيك ، ومبحث الرسائل النبوية التى عثر عليها والتى جرت عليها دراسات مختلفة متفاوتة الأهمية والدقة والنتائج •

★ ★ ★

(١٦٣) د. عز الدين ابراهيم ـ الدراسات المتعلقة برسائل النبي صلى الله عليه وسلم ـ مجلة المؤرخ العربي العدد ٢٣ ـ ص (٢٤٤) .

السيرة في دراسات المستشرقين

١ ـ السيرة بصورة عامة :

سأقتصر على ماسجله المستشرقون حول السيرة النبوية ، مما يظهر انحرافهم عن الحق والصواب ، وسأذكر آراء بعض الذين لايتهمون بكره المستشرقين وبغضهم ، بل يميلون مع المستشرقين ويتقبلون أفكارهم بقبول حسن ، وآراء من يتفق معهم ديناً ويختلف عنهم انصافا .

ولن أرد عليهم هنا برأيي فيهم ، اذ لاأستطيع أن أسكت عن الذين يعادون العربية لغة والاسلام ديناً ، فالعربية لغتي والاسلام ديني ، وسأدافع عنهما ماحييت ، ولكنني سأسكت عنهم في هذه الدراسة ، دون أن أكتم شعوري الحقيقي تجاههم ، حتى تكون دراستي هذه موضوعية ماستطعت الى ذلك سبيلا ، ولأن انحراف أولئك الحاقدين على السيرة النبوية أوضح من أن يرد عليهم من لايقيم لآرائهم المتحيزة المنحازة وزنا ، بحيث لم يتقبلها حتى من كان هواه معهم أمس واليوم وغدا ، فرد عليهاردا مناسبا ، ولم يتقبلها المنصفون من المستشرقين وغيرهم من بني دينهم ، فأنصفوا السيرة النبوية ، وقالوا كلمة الحق والانصاف فيها ، فمن العبث انكار ضوء الشمس في رابعة النهار .

وأعني بالمستشرقين في هذه الدراسة ، الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية واللغة العربية ، مع علمي باتساع الدراسات الشرقية حتى شملت أدياناً ولغات وثقافات غير الاسلام وغير العربية .

وأعنى بالمستغربين في هذه الدراسة ، الكتاب العرب والمسلمين ، الذين ينقلون ما يكتبه المستشرقون الى العربية ، ويعزون ما ينقلونه الى المستشرقين تارة والى أنفسهم تارات أخرى ، دون تحقيق وتمحيص وبحث ودراسة ، فيسممون أفكار العرب والمسلمين بأخطاء ما أنزل الله بها من سلطان ، بقصد وسوء نية مرة ، وعن غير قصد وحسن نية مرات أخرى •

رأى الفونس إتيين دينيه[1] ، أنه من المتعذر ، ان لم يكن من المستحيل ، أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة ، وأنه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغاً يغشى على صورتهم الحقيقية ، من شدة التحريف فيها • ورغم مايزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ، ولقوانين البحث العلمي الجاد ، فانا نلمس من خلال كتاباتهم ، محمداً يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانياً ، ومحمد يتحدث بلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليا ، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب ، وإذا بحثنا في هذه السير عن الصورة الصحيحة ، فانا لانكاد نجد لها من أثر ![2] •

وهو يرى أن المستشرقين يقدمون إلينا صوراً خيالية ، هى أبعد ماتكون عن الحقيقة ! انها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التى يؤلفها أمثال (ولترسكوت) و (إسكندر ديماس) ، وذلك لأنّ هؤلاء يصورون أشخاصاً من أبناء قومهم ، فليس عليهم إلاّ أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة • أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص

---

(1) ولد في باريس سنة ١٨٦١م ، وعاش فناناً بطبعه ، ألف كتاب : (محمد رسول الله مع صديقه الجزائرى سليمان ابراهيم ، وترجمه الى العربية المرحوم الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الازهر الاسبق وابنه محمد عبد الحليم محمود ، واسلم دينيه ، ومات بباريس سنة ١٩٣٩م ودفن ببلدة بو سعادة في الجزائر ، انظر مقدمة كتاب : (محمد رسول الله) للشيخ عبد الحليم محمود (٥ ــ ٤٩) ــ القاهرة ــ ١٩٥٦م •

(2) محمد رسول الله ــ المقدمة (٢٨) •

السيرة ، فصوّروهم حسب منطقهم الغربي وخيالهم العصري[٣] .

ويذكر دينيه ، أن الدكتور سنوك هير غرنجة يقول بحق في نهاية نقده لكتاب المستشرق جريم : «إننا نرى أن الأستاذ جريم لو اقتصر على درس السِّيَر النبوية القديمة وبحثها في عمق ، لكان أفضل ، وإن الثمار التي يمكن أن يجنيها من مثل هذا الدرس لهي أجدر ببلوغ الغاية التي توخاها ، ولكنه ظن أن هذا عمل ليست له أهمية كبيرة ، وأراد أن يُطرف الناس بنبأ جديد ، فأخفق في وضع السيرة النبوية التي حاول فيها أن يطبع محمداً بطابع الروح الاشتراكي ، وفي جعل محمد اشتراكيا ، وفي أن تقود الاشتراكية نفسها محمداً لأن يضع الدين الذي أتى به» .

ويعلق دينيه على رأي جريم بقوله : «إن الاشتراكية الاسلامية ـ لا الاشتراكية الحديثة كما يتصورها جريم ! ـ ثمرة من ثمار الرسالة الاسلامية ، وليست الرسالة الاسلامية ثمرة الاشتراكية »[٤] .

ويتطرق دينيه الى تخبط المستشرقين ، فيذكر : «لنضرب الآن بعض الأمثلة للنتائج التي توصل اليها المستشرقون في أبحاثهم التي يزعمونها علمية صحيحة ، وسنضرب بعضا ببعض لتنهار ، ولو كانت علمية حقة لما اختلفت ، ولما تعارضت ، ولما كان مصيرها التلاشي »[٥] .

ويتساءل دينيه :

١ . كيف كان خُلق محمد ؟ وما هو السر في تأثيره العظيم على أبناء وطنه ؟

ويجيب على هذا التساؤل فيقول : يجيب عن هذا السؤال دوزي :

---

(٣) محمد رسول الله ـ المقدمة ـ (٢٨ ـ ٢٩) .
(٤) محمد رسول الله ـ المقدمة (٢٩) .
(٥) محمد رسول الله ـ المقدمة (٢٩) .

«لعل رسول الله ــ كما كان يلقب نفسه ــ لم يكن أسمى من مواطنيه ، ولكن من المؤكد أنه لم يكن يشبههم . كان صاحب خيال في حين أن العرب مجردون من الخيال ، وكان ذا طبيعة دينية ، ولم يكن العرب كذلك »(٦) .

ولا يرضي القس لامانس بهذا ، فيصرخ : «كان محمد ــ رغم معايبه (معاذ الله) يفتن البدوي الذي كان يرى ذاته في شخص النبي العربي ، كما يدعوه القرآن ، وفي هذا التفاعل ، أو في هذه المطابقة التامة بين محمد وبيئته، نجد أولا وقبل كل شيء السر في هذا السلطان الضخم الذي كان لمحمد على مواطنيه »(٧) .

٢ . سؤال آخر : ماذا كانت ميول محمد قبل البعثة ؟

يرى دوزي ، أن محمدا كان سوداوي المزاج ، يلتزم الصمت ، ويميل الى التنزهات الطويلة فريدا ، والى التأملات المستغرقة في شعاب مكة الموحشة.

ويرد القس لامانس ضاربا بكل حقيقة عرض الحائط قائلا : «كلا ، ليس هناك ما يثبت اعتكاف محمد وعزلته ، فذلك لايتفق مع نفرة محمد من الوحدة ، وكراهيته المشهورة للنسك »(٨) .

٣ . وسؤال ثالث : ماهي العوامل في بعثة محمد ورسالته ؟ إنها نوبة الصرع كما يفترى نولدكه .

ولكن المستشرق دوغويه ، يعتقد أن هذا بعيد الاحتمال ، ويعلل ذلك بأن الحافظة في المصروعين تكون معطلة ، على حين أن حافظة محمد كانت غاية في الجودة كلما هبط عليه الوحي(٩) .

---

(٦) دوزي ــ مسلمو الاندلس (١٨/١) .
(٧) لامانس ــ مهد الاسلام (٤ و ٥) .
(٨) لامانس ــ هل كان صادقا ــ ص (١) .
(٩) دوغويه ــ مباحث شرقية ــ ص (١) ، وانظر رد الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه : (حياة محمد) على مثل هذه الافتراءات حول اصابة النبي صلى الله عليه وسلم بالصرع .

ويذكر اسبرنغر ، باصابة محمد بنوع من نوبات الصرع[١٠] .

ولكن سنوك هيرغرنجه يرى أن هذه الأسس التي يراد أن تقام عليها البعثة أسس واهية ، ويقول : «يجب أن نُقر بأن قيمة محمد انما هي في مايميزه عن سائر الهستيريين » .

ويدلي المستشرق جريم بدلوه هو الآخر ، فيرى أن الآراء الاشتراكية لا الآراء الدينية هي التي قادت محمداً الى الرسالة .

أما مستنده في ذلك : فهو تشديد محمد في الزكاة التي يسميها جريم ضريبة ، ولما كان القول بذلك في مكة أسهل من التنفيذ ، فقد حاول النبي — فيما يزعم — أن يؤثر في المكيين بتخويفهم من يوم الحساب ، متخذا الاكراه الروحاني وسيلة للبذل والسخاء[١١] .

ولكن سنوك هيرغرنجه يرد على جريم ، ويرى أن رأي جريم واستشهاده، كل ذلك غريب ، سواء نظرنا الى المنقول في السيرة ، أو نظرنا الى ظروف البيئة العربية إذ ذاك ، وينهار تحت قلم سنوك — الرأي القائل بأن الاسلام في الأصل أقرب الى أن يكون اشتراكية نشأت عن بؤس ذلك الزمن وفقر بنيه من أن يكون ديناً !! .

بيد أن سنوك هيرغرنجه يزعم — ولابد له من الزعم ، لأنه لابد له من التعليل — أن الباعث على رسالة محمد إنما هو : فزعه العظيم من يوم القيامة والحساب ، وتفكيره المتواصل في مصيره ، وفي الجنة والنار .

وإرادة الاغراب في المستشرقين قوية جامحة ، وقد بلغ القمة في الاغراب المستشرق مرجليوث : لقد خَطَّأَ كل الآراء التي ذكرناها ، وأراد أن يأتي ببدع

---

(١٠) اسبرنغر — حياة محمد وعمله (١/٢٠٧) قال : « انها نوبات هيستريا باسم شوت لابن » .
(١١) جريم — محمد — ص (١٥) .

من القول يتناسب مع القرن العشرين الميلادي ، فرأى أن الباعث على بعثة الرسول هي أعمال الشعوذة[١٢]. لقد عرف محمد خدع الحواة وحيل الروحانيين ، ومارسها في دقة وفي لباقة ، وقد كان يعقد في دار الأرقم جلسات روحانية ، وكان المحيطون به يؤلفون جمعية سرية ، تشبه الماسونية ، ولهم إشارات تعارف مثل : «السلام عليكم» ، وعلامات يتميزون بها كارسال طرف العمامة بين الكتفين !! .

٤ . ماهي أسباب موت الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

يعتصر القسيس لامانس خياله حتى يخرج برأي يشفي شيئا من غليله ضد الاسلام ، ضاربا بالمعقول ، وبالتاريخ ، وبالحقيقة عرض الحائط ، فيقول: «كان لمحمد شهية قوية جيدة ، وقد كثفت جسمه الملذات وخدرت أعضاءه ، فأصبح مهددا بداء السكتة » .

وعلى الضد من ذلك تماما ، يرى المستشرق بينه سنغلة : «أن رؤى محمد كانت في بعض الأحيان أثرا لضعفه الشديد من الجوع ، ولقد كان يسمع أثناء صومه ما يشبه مواء القطط أو أصوات الأرانب... ولقد مات بحمى هاذية استمرت يومين »[١٣] .

ويعارض هذا وذاك المستشرق كليمان هيار ، فيرى أن قد ظهرت على محمد أعراض التهاب رئوي ، فخارت قواه بسرعة عظيمة ، وتوفى في الثالث

---

(١٢) كتب المستشرق مرجليوث كتاباً عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، اتى فيه بكل غريب وبكل باطل ، وظهرت كراهيته للاسلام من خلال هذا الكتاب ظهوراً بشعاً ، ومن مزاعمه المضحكة مثلا : ان محمداً صلى الله عليه وسلم سافر الى مصر ، لان كلامه عن مصر يدل على معرفة تامة بها !! ويرد عليه المستشرق نولدكه فيقول : ان محمداً لم يكن يعلم ان المطر قليل في مصر قلة مطلقة ، ولو كان سافر اليها لعلم تلك الحقيقة التى لاتخفى على احد .

(١٣) محمد رسول الله ــ المقدمة (٢٩ ــ ٣٤) .

عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هجرية[١٤] .

أما القسيس باردو ، فانه يرى أن محمدا مات مسموما بيد امرأة يهودية[١٥] .

فهل نستطيع بعد ما رأينا ماسبق ، أن نعتمد على آراء المستشرقين ، مع أن ما ذكرناه من اختلافهم قليل من كثير ، ويهدم بعضه بعضا ، ومن اليسير أن نحقق فيه المثل العربي : «لاتكسر الجوزة إلا على جوزة» ، فنبطل تراث المستشرقين كله في السيرة النبوية ، ضاربين بعضه ببعض ، فاذا هو زاهق[١٦] .

ان الرسول صلى الله عليه وسلم عند قسم من المستشرقين صاحب رقة تحرمه القدرة على القتال ، ودليلهم على ذلك أنه اشترك في حرب الفجار[١٧] بتجهيز السهام فقط ولم يشترك في الطّعان . وهو عند قسم من المستشرقين صاحب قسوة تغريه بالقتل وإهدار الدماء من غير جريرة ، وحجتهم في ذلك قتل أسيرين بعد غزوة بدر وقتل قسم من يهود بعد غزوة الأحزاب .

ولو لم يكن الهوى وحده هو الذي يثير هذا النقد المغرض ، لما حدث مثل هذا التناقض بين أقوال المستشرقين[١٨] .

ويقترح دينيه ـ وهو على حق ـ المنهج الذي يجب أن يُتّبع في دراسة السيرة ، فيقول : ان الصرح الذي شيده المستشرقون في سيرة الرسول ، انما هو صرح من الورق قد أقيم على شفا جرف هار ، والسبب في ذلك واضح، ذلك أن المستشرقين لم يتبعوا الخطة المثلى فيما ينبغي أن يعتمدوا عليه في السيرة النبوية . ان كاتب السيرة النبوية يجب عليه أولا أن يتجرد عن الشهوة

---

(١٤) كليمات هيار ـ تاريخ العرب ـ (١/١٨١) .
(١٥) الأب باردو ـ علامات محمد ما هي وما قيمتها ـ ص (١٧١) .
(١٦) محمد رسول الله ـ المقدمة (٣٥) .
(١٧) انظر التفاصيل في : ابن الاثير (١/٥٨٨ ـ ٥٩٥) وايام العرب في الجاهلية (١/٣٢٢ ـ ٣٣٠) .
(١٨) الرسول القائد (١١) ـ ط ٥ .

والهوى والعصبية ، ويبدأ في دراسة الموضوع نافضا عن رأسه كل ما أوحته اليه الكنيسة من أباطيل عن الاسلام ، وكل ما غرسته في نفسه من ترهات خاصة بمؤسس الدين الاسلامي... واذا لم يفعل ذلك ، فان مايكتبه سيكون لامحالة وهماً وباطلاً .

ويجب عليه ثانيا ، أن يعتمد على الأخبار الصحيحة التي رواها المسلمون أول عهدهم بالتدوين : يجب عليه أن يعتمد على سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وعلى البخاري ، ومسلم ، وعلى تاريخ الطبري ، وقبل ذلك وبعده على القرآن .

ويجب عليه ثالثاً ، أن يدرس البيئة العربية في مهدها الأصلي : مكة ، والمدينة ، والطائف ، وغيرها ، حتى ينجلى له الغامض ويتضح له المبهم وتستقر له الفكرة . ان البيئة العربية الحالية تكاد ترينا رأى العين أشخاص الأخبار التى رويت في السيرة : سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، بل اننا نكاد نتعرف فيها على هذه الشخصيات في أصغر اشاراتها وأبسط أفكارها . أما اذا قرأنا هذه الأشخاص في كتب المستشرقين ، فاننا لانكاد نعرفها لشدة التحريف في تصويرها ، وكثيراً ما نلقى ــ لولا الأسماء العربية ــ صعوبة في فهم أن هؤلاء المسلمين الذين يتحدث عنهم المستشرقون رجال من العرب ، وذلك لبعد العقلية التي نسبت اليهم عن العقلية التي كانوا عليها[19] . وقد قال رينان في كتابه : (حياة المسيح) : « حقاً ان لسير محمد العربية ، مثل سيرة ابن هشام ، ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل »[20] ، وهذا يكفى رداً على المستشرقين الذين يتعدون عن الصورة الواقعية التي رسمتها كتب السيرة القديمة[21] .

ويختم دينيه كتابه القيم : (الشرق كما يراه الغرب) بهذه الآراء التى

---

(١٩) محمد رسول الله ــ المقدمة ــ (٣٥ ــ ٣٦) .
(٢٠) رينان ــ حياة المسيح (٩) ــ ط ١٣ .
(٢١) محمد رسول الله ــ المقدمة (٣٦) .

نورد بعضاً منها ، فذكر أن الدكتور سنوك هيرغرنجه أصاب في قولـــه : « ان سير محمد الحديثة ، تدل على أن البحوث التاريخية مقضي عليهـا اذا سخرت لأية نظرية أورأى سابق » • ويقول : « هذه حقيقة يجمل بمستشرقى العصر جميعاً أن يضعوهـا نصب أعينهم ، فانها تشفيهم من داء الأحـكام السابقة التى تكلفهم من الجهود مايجاوز حد الطاقة ، فيصلوا الى نتائـج لاشك خاطئة !! فقـد يحتاجون في تأييد رأى من الآراء الى هـدم بعض الأخبار ، وليس هذا بالأمر الهين ، ثم الى بناء أخبار تقوم مقام ماهدموا ، وهذا أمر لاريب مستحيل »[٢٢] •

ويقول الدكتور جواد علي : « آخذ على بعض المستشرقين تسرعهم في اصدار الأحكام في تاريخ الاسلام ، وتأثرهم بعواطفهم ، لأخذهـم بالخبر الضعيف في بعض الأحيان وحكمهم بموجبه ، ولاصدارهم أحكاماً بنيت على الألفاظ المشتركة أو التشابه ، مع قولهم بوجوب استعمال النقد ، وباحتراسهم في الأمور ، ووجوب التأكيد من معرفة الآخذ قبل الحكم عليه ••• وآيـة ذلك أن معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين أو من المتخرجين من كليات (اللاهوت) ، وانهـم ان تطرقوا الى الموضوعات الحساسة من الاسلام ، حاولوا جهد امكانهم الى ردهـا الى أصل نصرانى • وطائفـة المستشرقين من يهود وخاصة بعد تأسيس (اسرائيل) وتحكم الصهيونية في غالبيتهم ، يجهدون أنفسهم لرد كل ماهو اسلامي وعربي لأصل يهودي ، وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهـواء[٢٣] •

ويمضى الدكتور جواد علي فيقول : « ان كثيراً من المستشرقين غالوا في كتاباتهم في السيرة النبوية ، وأجهدوا أنفسهم في اثارة الشكوك في السيرة • وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجودالنبي • وطريقة مثل هذه دفعتهم الى الاستعانة

---

(٢٢) محمد رسول الله ـ المقدمة (٤٧ ـ ٤٨) •

(٢٣) تاريخ العرب في الاسلام ١/٩ ـ ١١ •

بالشاذ والغريب ، فقدموه على المعروف المشهور : استعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً ، أو كان من النوع الذى استغربه النقدة وأشاروا الى نشوزه ، تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك . ومهما قالوا في نسبة التاريخ الصحيح في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فان سيرة الرسول هي أوضح وأطول سيرة نعرفها بين سير جميع الرسل والأنبياء[٢٤]» . ويقول : « فلقد كان كيتانى ذا رأى وفكرة ، وضع رأيه وكوّنه في السيرة قبل الشروع في تدوينها ، فلما شرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به ، ضعيفها وقويها ، وتمسك بها كلها ، ولاسيما ما يلائم رأيه ، لم يبال بالخبر الضعيف ، بل قواه وأسنده وعده حجة ، وبنى حكمه عليه . ومن يدرى ؟ فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء ، ولكنه غفا عنهم وغض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها ، لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت ، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها ان ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث ؟! »[٢٥] ..... « ان كيتاني ، وهو من كبار المستشرقين الأوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يعتمد منهجاً (معكوساً) في البحث يذكرنا بكثير من المختصين الجدد في حقل التاريخ الاسلامى ، والذين يعملون وفق منهج خاطىء من أساسه ، اذ أنهم يبيتون فكرة مسبقة ، ثم يجيئون الى وقائع التاريخ لكى يستلوا منها ما يؤيد فكرتهم ، ويستبعدون مادون ذلك » .

ويحدثنا الدكتور صالح أحمد العلى ، كيف أن بداية الحركة الاستشراقية في مواقفها الظنية والعاطفية من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد كانت جانفت العلم كثيراً ، ثم بدأت تعتدل شيئاً فشيئاً : « لقد تناول المستشرقون الغربيون حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما تناولوا

---

(٢٤) تاريخ العرب في الاسلام (١/٩٥) .

(٢٥) تاريخ العرب في الاسلام (١/٩٥) .

من الأبحاث عن التاريخ الاسلامى . ولاشــك أن التعصب والتحامل كانا يطغيان على كتابات المستشرقين القدامى ، نظراً لتأثرهم بروح التعصب الدينى الذى كان مسيطراً ومتبلوراً بتأثير الحروب الصليبية ، ونظراً لضعفهم باللغـة العربية ، وقلة المصادر المتوفرة لديهم . غير أنه لم يخل الغرب منذ أوائـل العصور الحديثة من مفكرين معتدلين امتدحوا الاسلام[٢٦] ، ولـكن منذ القرن التاسع عشر بـدأ الاهتمام بدراسـة المخطوطات العربية وطبعها ، وأخذ المستشرقون يدرسون تاريخ الشرق لذاته متبعين الطريقة العلمية التى كانت قد قطعت شوطاً كبيراً في التقدم من الغرب .... ومع أن فريقاً منهم لم يتعمد كل ذلك ، الا أن عدداً غير قليل كان يتميز بسعة الاطلاع ، وبعـد النظر ، وعمق التفكير ، مما ساعدهـم على انتـاج مباحث تستثير التفكير والتقدير ، رغم أنه لايمكن القول بأن أحكامهم نهائية »[٢٧] .

ويحدثنا المستشرق البريطانى المعاصر مونتكمرى واط في كتابـه : (محمد في مكة) ، كيف : « أن عزيمة محمد في تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته ، والخلق السامى للرجال الذين آمنوا به ، وكان لهم بمثابة القائد ، وأخيراً عظمة محمـد في منجزاته الأخيرة ، وكل ذلك يشهد باستقامته التى لاتتزعزع ، فاتهام محمد بأنه دجال يثير من المشاكل أكثر مما يحل ، ومـع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حط من قدرها في الغرب كمحمد ، فقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوإ الأمور عن محمد ، وكلمـا ظهر أى تفسير نقدى لواقعة من الوقائع ممكناً قبلوه » . ثم يقدم واط قاعدة منهجية تكاد تكون بديهة من بداهات المنهج الأساسية ، الا انها في موقف الغربيين ازاء شخصية محمد تضيع ويوقف العمل بها .... « فاذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضى بصدده ، فيجب علينا في كل حالة من

---

(٢٦) انظر عنهم : تور اندريه ــ محمد (٢٤٣ ــ ٢٤٧) .
(٢٧) محاضرات في تاريخ العرب (١/٢٥٥ ــ ٢٥٦) .

الحالات ، لايقوم الدليل القاطع على ضدها ، أن تتمسك بصلابة بصدقه ، ويجب علينا ألا ننسى أيضاً أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكناً ، وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه »[٢٨] .

وفي موضع آخر يضرب واط بالمستشرق الفرنسي لامانس مثلا على الانحرافات المنهجية التي يمارسها كثير من المستشرقين ، وبخاصة ذلك (الخطأ) الذي سبق ذكـره والذي يقوم على جعل الوقائـع التاريخية مجالا انتقائياً للتدليل على فكرة مسبقة أو اتجاه محدد سـلفاً . ان لامانس : « للأسف يتجاوز الأدلة كثيراً في ناحية أخرى ، اذ أن طريقته العابثة في المعالجة ليست طريقة علمية ، فهو يرفض هذا الرأى ويقبل الآخـر حسب أفكاره الخاصة ومعتقداته ، دون أن يعبأ بالموضوعية . ففى عبارة : (الأحابيش وعبيد أهل مكة)تجد أن (الواو) تفسيرية تشير الى أن الأحابيش من ضمن العبيد ، بينما تجد في عبارة : (الأحابيش ومن أطاعهم — أى القرشيين — من قبائل كنانة وأهل تهامة) أن (الواو) تدل على تمييز تام . ولكن ، لماذا يفعل لامانس ذلك ؟ ! يبدو أنه يؤكد حقيقة النظر التي يحاول التدليل عليها »[٢٩] .

ودر منغم يشير هو الآخر ، وبوضوح أشد ، الى الأزمنة المنهجية التى تعرض معظم المستشرقين الغربيين عن حياة الرسول صلى الله عليه وسـلم لأخطاء لن يغفرها العـلم ، وكيف أنهـا في العقود الأخيرة — بدأت تخف تدريجيـاً : « ان سيرتـه — يقـول درمنغم — تحاط في زماننا بكثير من التحفظات ، ولا ريب في مجاوزة النقد للمد أحياناً على وجوه مختلفة مـع الأسف ، ولكن من المؤكد أنه لايحدث اليوم عن حياة بتعابير ووجهات نظر كالتى جاءت في كتب التراجم الأخيرة التى ظهرت في المكتبة الفرنسية منذ خمسين سنة ، ككتاب واشنجتون أرفنج » . ويمضى درمنغم الى القول ،

---

(٢٨) محمد في مكة (٩٤) .
(٢٩) محمد في مكة (٢٤٢ — ٢٤٣) .

بأنه : « جد في البحث العلمي بين العلماء في القرن التاسع عشر ومنهم كوسان وديرسفال وموير وميثل ومرجليوث ونولدكه وشبرنجر وهيرغرنجه ودوزي ، ثم تناوله ــ أى النبي صلى الله عليه وسلم ــ مؤخراً كيتانى وماسنيون ومونته وكازانوفا وبيل وهوار وهوداس وأرنولد ومارسين وغريم وكولد زيهر وغودفروا ومونبيه وغيرهم • ومن المؤسف حقاً أن غالى بعض هؤلاء المتخصصين في النقد أحياناً ، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص • ومن المحزن ألا تزال النتائج التى انتهى اليها المستشرقون سلبية ناقصة ، ولن تقوم سيرة على النفى • وليس من مقاصد كتابى أن يقوم على سلسلة من المجادلات المتناقضة .•••• ومن دواعى الأسف أن كان الأب لامانس ، الذى هو من أفضل المستشرقين المعاصرين ، من أشدهم تعصباً ، وأنه شوه كتبه الرائعة الدقيقة وأفسدها بكرهه للاسلام ونبي الاسلام ، فعند هذا العالم اليسوعى أن الحديث اذا وافق القرآن كان منقولا عن القرآن ، فلا أدرى كيف يمكن تأليف التاريخ اذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة ، بدلا من أن يؤيد أحدهما الآخر »[٣٠] •

وهذا يقودنا الى موقف بعض المستشرقين من القرآن الكريم مصدراً أساسياً من مصادر السيرة ، فقد نفى بعض هؤلاء الكثير من أحداث السيرة ، مادامت لم ترد في القرآن الكريم ، كأن القرآن الكريم كتاب تاريخى خاص بتفاصيل حياة محمد عليه الصلاة والسلام !! وهذا مكن هؤلاء من عملية انتقاء مغرضة ذات طابع سلبي معاكس ، وهى التشكيك ورفض كل رواية لاترد مؤيداتها في القرآن الكريم ، اذا كان في هذه الرواية تمجيد للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو اذا كان في نفيها تأكيد لصدق وجهات النظر الاستشراقية[٣١] . مثلا نجد أن شبرنجر يرى أن اسم النبي ورد في أربع

---

(٣٠) حياة محمد ــ المقدمة (٨ ، ١٠ ــ ١١) •

(٣١) د. عمادالدين خليل ــ دراسة في السيرة ــ (١٨) ــ بيروت ــ ١٣٩٤هـ .
١٣٩٤هـ •

سور من القرآن ، هي : آل‌عمران ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، وكلها سور مدنية ، ومن ثم فان لفظة (محمد) لم تكن اسم علم للرسول قبل الهجرة ، وانما اتخذه بتأثير قراءته للانجيل واتصاله بالنصارى[٣٢] . واذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد التقط اسم : (محمد) من خلال قراءاته لنبوءات الانجيل ، فأين ذهب اذاً (محمد) الحقيقى الذى بشر به العهدان القديم والجديد ؟؟ .

وهنالك مثل آخر ، هو أن اسرائيل ولفنسون يشير ، بصدد مهاجمة المسلمين يهود بنى النضير ، الى أن مؤرخى المسلمين ، يذكرون سبباً آخر لاعلان الحرب على هذه الطائفة اليهودية ، ذلك هو محاولتهم اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ولكن المستشرقين ــ يقول ولفنسون ــ ينكرون صحة هذه الرواية ويستدلون على كذبها ، بعدم وجود ذكر لها في سورة الحشر التى نزلت بعد اجلاء بنى النضير .... والذى يظهر لكل ذى عينين ، أن بنى النضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبي واغتياله على مثل هذه الصورة ، لأنهم كانوا يخشون عاقبة فعلتهم هذه من أنصاره ، ولو أنهم كانوا ينوون اغتياله غدراً لما كانت هناك ضرورة لالقاء الصخرة عليه من فوق الحائط ، كان باستطاعتهم أن يفاجئوه وهو يحادثهم ، اذ لم يكن معه غير قليل من أصحابه »[٣٣] . ويبدو أن ولفنسون يغفل هنا مسألة التركيب النفسي لليهودى وتجنبه المعروف لأية مجابهة حقيقية ما استطاع الى ذلك سبيلا !! .

إننا في الانتقاء والتفسير والنفى الاعتباطى الذى يمارسه المستشرقون ، نرجع مرة أخرى الى عبارة واط الذكية التى قالها في هذا الصدد ، لكنه لم يلتزم العمل بها دائماً !! .... « إذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضى حول وجود محمد ، فيجب علينا في كل حالة من الحالات لايقوم

---

(٣٢) تاريخ العرب في الاسلام (١/١/٧) وهوامشها .
(٣٣) تاريخ اليهود ــ (١٣٥ ــ ١٣٧) .

الدليل القاطع على ضدها ، أن تتمسك بصلابة صدقه ، ويجب الا تنسى أيضاً أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكناً ، وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه »(٣٤) .

وفضلا عن هذا ، نجد أن الطابع العلمانى ، الوضعى للمناهج الغربية في تعاملها مع السيرة النبوية بخاصة والتاريخ الاسلامى بعامة ، قد أوقع المستشرقين في خطأ آخر ، مفاده أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يكن يخطو خطوة واحدة ، وهو يعلم مسبقاً ما الذى يليها ! أى أن نشاطه كانت توحى به الظروف الراهنة ومطالبها ولوازمها . وأبرز مثل في هذا المجال ، ما ذكره فلهاوزن وعدد من رفاقه حول محلية الدعوة الاسلامية في عصرها المكى ، وانها لم تنتقل الى المرحلة العالمية في العصر المدنى الا بعد أن أتاحت لها الظروف ذلك ، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ليفكر بذلك من قبل ، وما قالوه حول اعتماد الرسول عليه الصلاة والسلام أسلوب (اللاعنف) في العصر المكي ، وتحوله الى القوة بعد أن شكل دولة في المدينة وتجمع حوله المقاتلون : « لقد كان في وسع محمد ــ يقول فلهاوزن ــ من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التى ترسمها رابطة الدم ، أن يحطم رابطة الدم هذه ، لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها ، ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة ، هذا هو الذى جعلها لاتتسع لقبول عنصر غريب عنها ، ولكن محمداً لم يرد ذلك . ومن الجائز أيضاً أنه لم يكن يستطيع أن يتصور امكان رابطة دينية في حدود غير حدود رابطة الدم »(٣٥) .

ويرفض سير توماس أرنولد في كتابه : (الدعوة الى الاسلام) ، هذه الرؤية الخاطئة فيقول : « من الغريب أن ينكر بعض المؤرخين أن الاسلام قد قصد به مؤسسه في بادىء الأمر أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الآيات

---

(٣٤) محمد في مكة (٩٤) .
(٣٥) الدولة العربية وسقوطها (٤) .

البينات[٣٦] ، ومن بينهم السير وليم موير اذ يقول : ان فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد ، وان هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها ، لم يفكر فيها محمد نفسه ، وعلى فرض أنه فكر فيها ، فقد كانت الفكرة غامضة ، فان عالمه الذى كان يفكر فيه انما كان بلاد العرب ، كما أن هذا الدين الجديد لم يتهيأ الا لها،وان محمداً لم يوجه دعوته،منذ بعث إلى أن مات ، الا للعرب دون غيرهم • وهكذا نرى أن نواة عالمية الاسلام قد غرست ، ولكنها اذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك ، فانما يرجع هذا الى الظروف والاحوال أكثر منه الى الخطط والمناهج »[٣٧] •

وفي مكان آخر يقول أرنولد : « لم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل ان للعالم أجمع نصيباً فيها ، ولم يكن هناك غير إله واحد ، كذلك لايكون هناك غير دين واحد ، يدعى اليه الناس كافة »[٣٨] •

ولم يقف أرنولد وحده بمواجهة هذا الخطأ الواضح ، انما هناك كولدزيهر[٣٩] ونولدكه[٤٠] وسنماو[٤١] الذي يؤكد : « ان الرسالة الالهية ليست مقصورة على العرب ، بل ان ارادة الله تشمل جميع المخلوقات ، ومعنى ذلك خضوع الانسانية كلها خضوعاً مطلقاً • وقد كان لمحمد بوصفه رسولا من الله ، حق المطالبة بهذه الطاعة ، وقد كان عليه أن يطالب بها ، وهذا ماظهر

---

(٣٦) يستشهد أرنولد بالآيات التالية : سورة ٣٦ آية ٦٩ ــ ٧٠ ، سورة ٢١ آية ١٠٧ ، سورة ٢٥ آية ١ ، سورة ٢٤ آية ٧ ، سورة ٦١ اية ٩ ... الـــــخ ....

(٣٧) وكيتاني آخر مـن يؤكـد هـذا الراي ، انظر هامش (٢) ص (٤٩ ــ ٥٠) .

(٣٨) المصدر السابق (٤٨) .

(٣٩) عن أرنولد : الدعوة الى الاسلام ــ هامش (١) ص (٤٨)
Voles ungen wber den Islam, P. 25.

(٤٠) عن المصدر السابق ــ نفس الصفحة والهامش
WZKM, Vol. XXI, PP. 303 - 308, PP. 203 - 204.

(٤١) عن المصدر السابق ــ نفس الصفحة والهامش .

من أول الأمر جزء لاينفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادىء...»[٤٢] .

ويرفض أرنولد الخطأ الآخر الذي يرى أن محمداً قد تحول الى القوة بمجرد أن واتته الظروف ، وهو رأي قد صرح به ـ نقلا عن فلهاوزن ـ بعض الباحثين ، ولاسيما ميور عندما تحدث عن مذبحة بني قريظة فقال : « ان الدعائم التي سار عليها محمد قدما كانت سياسية محضة ، إذ أنه لم يكن قد أقر حتى ذلك الحين طريقة إكراه الناس على اعتناق الاسلام أو معاقبتهم على رفضه»[٤٣] . إذ يقول أرنولد : « إنما المهم أن تتبين كيف أن محمداً ، عندما رأى أنه على رأس جماعة مسلحة من أتباعه ، لم يتحول دفعة واحدة ، كما قد يريدنا البعض على الاعتقاد ، من داعية مسلم الى متعصب يحمل سيفه بيده ويفرض دينه على كل من استطاع ، وقد أكد الكتّاب الأوربيون على ذلك مراراً »[٤٤] .

غير أن أسوأ نموذج يمكن أن نجده لهذا الانحراف المنهجي ، حول مسألة تأثر الرسول صلى الله عليه وسلم بالظروف الراهنة ، وتحركه وفق مستلزماتها ، ماذكره بندلي جوزي أحد رواد التفسير المادي للتاريخ الاسلامي، في كتابه : (من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام) حيث يقول : «إن سياسة النبي مع المكيين قد تغيرت كثيرا في المدينة تحت تأثير عوامل جديدة ولأسباب عديدة أوجدتها الظروف وأدى اليها الاختيار وحب النبي لوطنه الأصلي وأهله وذويه الى غير ذلك من الانفعالات النفسية التي ظهرت بعد موقعتي بدر وأحُد وحصار المدينة ، وكان من نتائجها أن النبي أخذ يتلطّف من سياسته نحو إخوانه المكيين ، كما أن أصحاب السلطة في مكة رأوا ـ بعدما أصابهم في موقعة بدر ، وبعد مالحق تجارتهم من الخسائر ـ أن يتساهلوا في أمور كثيرة مع النبي على شروط تضمن لهم بقاء الكعبة والحج وعكاظ على ماكانت عليه

---

(٤٢) ارنولد ـ الدعوة الى الاسلام ـ هامش (١) ص (٤٨) .
(٤٣) ارنولد ـ الدعوة الى الاسلام ـ هامش (١) ص (٥٤) .
(٤٤) ارنولد ـ الدعوة الى الاسلام (٥٣ ـ ٥٤) .

قبل الاسلام ، وأن يشملهم بالعفو ــ إلا بعض أشخاص ــ ويشركهم في عمله الجديد الذي أخذوا يتوقعون منه خيرا لأنفسهم ــ وربما كان من شروط التفاهم أن يبقى النبي في المدينة وألا يتعرض في كلامه لأمورهم المالية ، فكانت الحديبية وسياسة (تأليف القلوب) أو بعبارة أخرى سياسة التسامح والتساهل المتبادل ، فصار الناس (يدخلون في دين الله أفواجا) لا عن اعتقاد بصحة الدين الجديد الذي لم يكونوا يعرفون عنه الا الشيء القليل، بل عن رغبة في التقرب من أصحاب السلطة الجدد ، وحفظاً لمراكزهم القديمة وثروتهم المجموعة في أجيال . يُخيل لي ــ يقول جوزي ــ أن من جملة الشروط التي اتفق عليها الطرفان في الحديبية أو في زمان ومكان آخرين ، أن يكف النبي عن الطعن في الملأ المكي ، وأن لايحرض صعاليك العاصمة الحجازية وأرقاءها عليه ، وهذا على مايظهر لي أحد أهم أسباب خلو السّور المدنية ، وسيما تلك التي نزلت في الدور الأخير ، من العبارات القارصة والطعن في سكان مكة[٤٥] ، وهناك سبب آخر لايقل خطورة عن الذي ذكرناه الآن ، وهو أن حالة النبي الاجتماعية في المدينة تغيّرت ــ كما هو معلوم ــ تغيراً ظاهراً أدى الى تغيير نفسيته . فكان من نتائج هذا التغيير ومن الأسباب التي ذكرنا بعضها وغيرها مما لم نذكر ، أن بعض إصلاحات النبي الاجتماعية والدينية جاءت مبتورة ، وفيها شيء مما يدعوه الأوربيون : التساهل »[٤٦] .

ويقول بروكلمان : «وكان على محمد أن يعوض خسارة (أحُد) التي أصابت مجده العسكري من طريق آخر ، ففكر في القضاء على يهود ، فهاجم بني النضير لسبب واه »[٤٧] .

---

(٤٥) هذه غاية مايمكن ان يصل اليه مؤرخ من خروج على مستلزمات البحث العلمى ، وعبث صريح بالوقائع التاريخية ، والا ففى اى زمان ومكان وضعت هذه الشروط ! واين هى من شروط صلح الحديبية التى تواترت بنصوصها الحرفية في المصادر والمراجع كافة ؟ .

(٤٦) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام (٤٩ ــ ٥٠) .

(٤٧) تاريخ الشعوب الاسلامية (٥٢) .

ويقول : «وفي سنة ٦٢٨م (= ٧هـ) حاول النبي أن يعوض فشله الظاهري في الحديبية ، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خيبر »[٤٨] .

ويقول دوزي : «كان محمد يشاطر بني جلدته نظرتهم (القائمة على الاحتقار) الى اليمنيين والزراع ، حتى ليؤثر عنه أنه سمع رجلا ينشد بيتا يشير فيه الى أنه حِميري وليس من أسلافه من ربيعة ولا مُضر ، فقال له ما معناه : أفٍ لك ، إن هذا نسب يبعدك عن الله ورسوله . ويقال أيضا إنه رأى محراثا في بيت رجل من أهل المدينة ، فذكر له أنه مادخل دار قوم الا دخلها الذل . إلا أنه لما يئس من حمل أهل جنسه من التجار والبدو على اعتناق مبادئه ، ولما رأى أنه مهدد في حياته منذ أن مات عمه وحاميه أبو طالب ، فقد اضطر لتناسى هذه النظرة وقبول كل مساعدة من أي جانب صدرت عنه ، فرحب بوفود عرب المدينة الذين عطفوا عليه وأكرموه لما أنزل به المكيون من الاضطهاد والتنكيل»[٤٩] . «وطال أمد النضال بينهم وبين مشركي مكة حتى استغرق ثماني سنوات ، نشرت خلالها جيوش المسلمين الرعب في شتى بقاع شبه الجزيرة ، مما حمل كثيرا من القبائل على اعتناق الدين الجديد ... وانتهى الأمر أخيرا بفتح مكة ، الذي يصور الذروة التي آلت اليها قوة محمد . ففي هذا اليوم تطلع أهل المدينة للأخذ بثأرهم من هؤلاء التجار المتكبرين الساخرين بهم ... غير أن أحلامهم تلاشت ، إذ أمر الرسول قواده باصطناع الرأفة البالغة ، وساعده المكيون ــ صامتين ــ في تحطيم أصنامهم المنصوبة في الكعبة ... تعبدها شتى القبائل التي اعترفت بمحمد رسولا لله ، والغيظ يملأ قلبها ، وكتمت في نفسها الانتقام الى يوم تسنح لها فيه الفرصة من هؤلاء الأجلاف : يهود المدينة(!!) الذين دنّسوا الشرف بغزوهم لبلدهم . وبعد أن تم فتح مكة ، رأت القبائل الباقية على شركها عدم جدوى المقاومة ،

---

(٤٨) تاريخ الشعوب الاسلامية (٥٦) .
(٤٩) تاريخ مسلمي الاندلس (١/٢٧) .

واعتنقت الاسلام تحت عامل الخوف من حرب مهلكة ، إذ كان قواد محمد يدعون للدين ، حاملين القرآن في يدٍ والسيف في أخرى »[٥٠] .

ويقول فلهاوزن : «ولم يبق الاسلام على تسامحه ــ بعد بدر ، بل شرع في الأخذ بسياسة الارهاب في داخل المدينة ، وكانت إثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول ... أما يهود فقد حاول أن يُظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد ، وفي غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية أو قضي عليها في الواحات المحيطة بالمدينة ، حيث كانوا يكوّنون جماعات متماسكة كالقبائل العربية ، وقد التمس لذلك أسبابا واهية ...»[٥١] .

ويقول مرجليوث : «عاش محمد في السنين الست ، بعد هجرته الى المدينة ، على التلصص والسلب والنهب ، ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه ، وكذلك بالنسبة الى القبائل اليهودية بالمدينة ، فقد كان هناك على أي حال سبب ما ــ حقيقيا كان أم مصطنعا ــ يدعو الى انتقامه منهم ، إلا أن خيبر التي تبعد عن المدينة كل هذا البعد ، لم يرتكب أهلها في حقه ولا في حق أتباعه خطأ يعتبر تعديا منهم جميعا ، لأن قتل أحدهم رسول محمد لايصح أن يكون ذريعة للانتقام... وهذا يبين لنا التطور العظيم الذي طرأ على سياسة محمد ، ففي أيامه الأولى في المدينة ، أعلن معاملة اليهود كمعاملة المسلمين ، لكنه الآن (بعد سنة ٦هـ) أصبح يخالف تماما موقفه ذاك ، فقد أصبح مجرد القول بأن جماعة ما غير مسلمة يعتبر كافيا لشن الغارة عليها... وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التي سيطرت على نفس محمد ، والتي دفعته على شن غارات متتابعة ، كما سيطرت على نفس الاسكندر من قبل ونابليون من بعد ... إن استيلاء محمد على خيبر يبين لنا الى أي حد قد أصبح الاسلام خطرا على العالم »[٥٢] .

---

(٥٠) تاريخ مسلمي الاندلس (١/٢٧ ــ ٢٨) .
(٥١) الدولة العربية وسقوطها (١٥ ــ ١٦) .
(٥٢) مرجليوث ــ محمد وقيام الاسلام (٢٦٢ ــ ٢٦٣) ، عن فتحي عثمان ــ أضواء على التاريخ الاسلامي (١٦٩ ــ ١٧٠) .

ويقول نولدكه : «لو أن القبائل العربية استطاعت أن تعقد بينها محالفات حربية دقيقة ضد محمد للدفاع عن طقوسهم وشعائرهم الدينية والذود عن استقلالهم ، لأصبح جهاد محمد ضدهم غير مُجد ، الا أن عجز العربي عن أن يجمع شتات القبائل المتفرقة قد سمح له أن يخضعهم لدينه ، القبيلة تلو القبيلة الاخرى ، وأن ينتصر عليهم بكل وسيلة ، فتارة بالقوة والقهر ، وتارة بالمحالفات الودية والوسائل السلمية»(٥٣) . « كان محمد لايتحرج في اختيار الوسائل التي تضمن له النجاح والظفر في الوقت الذي كان خياليا ، ولم يكن له سلطان على خياله وعواطفه »(٥٤) .

ويقول بندلي جوزي : «لاشك أن النبي العربي لم يقصد بأقواله وأفعاله في مكة والمدينة الى أن يستأصل أسباب الشر الاجتماعي ، ويقتل جميع جراثيمه ، كما يحاول أن يفعل اليوم جماعة الاشتراكيين على اختلاف أسمائهم ونزعاتهم . بل كانت غايته الكبرى أن يخفف من وطأة تلك الأمراض على بعض طبقات الناس ممن خلقوا بعد قسمة الأرزاق أو وقعوا في الفقر والرقّ لأسباب لم يقوَ على مقاومتها . وإلا فلو أراد أن يقتل جراثيم الأمراض الاجتماعية كلها لكان لجأ بعد أن أصبح صاحب الأمر والنهي في جزيرة العرب، الى وسائل غير تلك التي ذكرناها . وما مثل النبي من هذا الوجه الا كمثل سائر الأنبياء الذين سبقوه ، ولا سيما أنبياء بني إسرائيل ، أي أنه فضل الوسائل الأدبية ــ الا فيما ندر من الظروف ــ على غيرها من الطرق التي لجأ اليها بعصرنا بعض مصلحي وسياسيي أوروبا كلنين وموسوليني وغيرهما... وعليه يمكننا أن نقول : إن محمدا أجاد في وصف الأمراض الاجتماعية العربية وتعدادها أكثر منه في علاجها واستئصال جراثيمها ...»(٥٥) .

ويقول مونتكمري واط : «إن زيارة محمد لحراء ، وهو جبل قريب من

---

(٥٣) تاريخ العالم للمؤرخين (١١/٨) ، عن فتحي عثمان ــ اضواء على التاريخ الاسلامي (١٧٠) .

(٥٤) عن فتحي عثمان ــ اضواء على التاريخ الاسلامي (١٧١ ــ ١٧٢) .

(٥٥) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام (٤٤ ــ ٤٥) .

مكة ، بصحبة عائلته أو بدونها ، ليست مستحيلة ، ويمكن أن يكون ذلك للفرار من أتون المدينة خلال فصل الصيف للذين لايستطيعون التوجه ، الى الطائف ، ويمكن للتأثير اليهودي ــ المسيحي ولاسيما مثل الرهبان ، أو تجربة شخصية لمحمد ، أن يكون قد أثار في نفسه الحاجة للخلوة والرغبة فيها»[٥٦].

«تعتبر كلمة ناموس مشتقة من كلمة (Nomos) اليونانية ، وهي تعني إذن : (الشريعة) أو (الكتب المقدسة) ، وهذا يتفق تماما مع ذكر موسى ، وقد أبدى ورقة (ورقة بن نوفل) ملاحظة بعد أن أخذ محمد يتلقى الوحي ، وهي تعني أن مانزل على محمد مماثل لكتب اليهود والنصارى المقدسة . كما أن محمدا سمع ما يوهمه بأنه مؤسس أمة ومشرّع لها ، واذا كان محمد ، كما يبدو ، مترددا بطبعه ، فان هذا التشجيع باقامة بناء ضخم على تجاربه يرتدي أكبر أهمية لتطوره الداخلي... وقد تأثرت التعاليم الاسلامية اللاحقة كثيرا بأفكار ورقة »[٥٧] .

وفي مكان آخر من كتاب واط نقرأ هذه العبارات : «إدعى كيتاني أن سكان المدينة رضخوا لمحمد ككاهن أعلى فقط ، لأنهم كانوا بحاجة الى الاستقرار الداخلي في المدينة ، وليس لأنهم يقبلون تعاليم القرآن بأكملها ، وبعضهم كانوا مسلمين حقا .... ومن الممكن أيضا أن يكون محمد ، نوعا ما، حاملا للأفكار اليهودية النصرانية في القرآن ، بألفاظ عربية جاهلية ، ولهذا أساء فهمها ــ كما يقول كيتاني ــ ولكن المدنيين الذين كانوا يدافعون عن محمد كانوا يفهمون مبادىء الاسلام الأساسية ويؤمنون بها . فالله خالق الكون وسيد العالم ، وهو الحكم في اليوم الأخير ، ومحمد حامل رسالة الله الى العرب . وكان المسلمون يقيمون مجتمعا جديدا في المدينة ، وكان هذا المجتمع يتطلب أساسا فكريا واضحا ومحددا . ومن الممكن أن يكون القليل من

---

(٥٦) محمد في مكة (٨١) .
(٥٧) محمد في مكة (٩٢ ــ ٩٣) .

المسلمين في المدينة يدفعه حماسة دينية قوية ، ولكنهم كانوا جميعا مؤمنين بالروابط الدينية ، ليشاركوا في بناء مجتمع يقوم على هذه الروابط بدلا من روابط النسب »[٥٨] .

ويقول واط : «لم يكن الاسلام حركة رجال من طبقة مستضعفة من حثالة الناس أو من طفيليين صعاليك حطوا رحالهم في مكة ، ولم يستمد الاسلام قوته من رجال الدرجة السفلى من السلم الاجتماعي ، بل من أولئك الذين كانوا في الوسط وأدركوا الفرق بينهم وبين أصحاب الامتيازات في الذروة ، فأخذوا يقنعون أنفسهم بأنهم أقل امتيازا منهم ، فنشأ صراع ليس بين الملاكين والمعوزين ، بل بين الملاكين والذين هم أقل منهم »[٥٩] .

ويقول : «وكان الأشخاص الذين اتصل بهم محمد (في الطائف) ، وهم عبد ياليل وإخوته ، ينتمون لقبيلة عمرو بن عمير المنتمية للأحلاف ، فكانوا بذلك أنصار قريش ،وربما راود محمدا الأمل باستمالتهم اليه بالتلويح لهم بتحريرهم من سيطرة مخزوم المالية »[٦٠] .

أما الأب لامانس ، فقد ضاق ذرعا برؤية الاسلام ينتشر شيئا فشيئا ، ويبسط ظله يوما فيوما على أنحاء المعمورة ، فيضيق صدر الأب لامانس ، فاذا به يسخط حتى على القدر نفسه ويقول : «لماذا جاء القرآن فجأة ، ليقضي على التأثير اللطيف الذي كان الأنجيل قد أخذ يحدثه في ابن البادية !! » .

ولم يقتصر حقد لامانس على السيرة النبوية، فقد شمل حقده الذي انطلق كعاصفة هوجاء يحطم كل أخيار المسلمين : أبا بكر ، عمر ، عثمان ، عليا ، فاطمة ، حفصة ، وغيرهم ، وغيرهم .

---

(٥٨) محمد في مكة (٢٣٤ ـ ٢٣٥) .
(٥٩) محمد في مكة (١٥٩ ـ ١٦٠) .
(٦٠) محمد في مكة (٢٢١) عن لامانس ـ الطائف (٢١٢ و ٢١٧) .

أما اذا تحدث عن أعداء الاسلام ، كأبي جهل ، وأبي لهب ، أما اذا ما تحدث عن المنافقين ، فانه يشيد ماشاء له هواه ، ويمدح ما أمكنه المدح ، ويطري ما وسعه الاطراء ، ويلبسهم ثوب الفضيلة لامعا خلابا .

المنافقون هم أبطال الوطنية عند هذا القسيس . واذا تساءلت : من هو هذا الدخيل الذي لم تنبته الجزيرة العربية ، والذي يقف أمامه «أبطال الوطنية القومية» فانك لاتجد من هذا القسيس الا صمتا !! أكان محمد فارسيا غازيا للجزيرة العربية ؟ أكان روميا يهاجمها ؟ أم هو عربي يحب وطنه ويعمل على جمع شتاته في وحدة تكون قدوة ومثلا أعلى لكل من يشرئب بصره نحو الكمال ؟

واذا أردنا أن نعدد أخطاء لامانس ، فاننا لانقف عند حد ، إنه مثلا يتعمد أن يعطي للألفاظ معنى آخر غير المعنى الذي تعطيه لغويا أو اصطلاحيا ، وكأنه بذلك موكل بقلب الحقائق .

ان « الردة » في نظره معناها «الانفصال» ، و «المرتدون» هم «الانفصاليون» . و«المنافقون» هم «المشككون» ، وهم «أبطال الوطنية القومية». واذا قرأت في القرآن الآية القرآنية الكريمة : (إن الله مع الصابرين)[61] ، فسترى أن لامانس يشرحها شرحاً أبعد ما يكون عن السمو وعن المكانة العليا التي هي لله تعالى في الاسلام ، إنه يفسرها بـ : «إن الله مع الساكتين على سياسة محمد المتناقضة » .

وهذا القسيس يفسد متعمدا الصور التاريخية ، انه يحدثنا عن مكة والمدينة في عهد الرسول ، فيعطينا صورة أوروبية حديثة ، وكأنه يحدثنا عن باريس ولندن . وعندما يتحدث عن الماليين في الجزيرة العربية : بنك مكة ، مليار ، النقابة القرشية ، الضريبة على الدخل ، طبقة العمال ، جائزة مونتينيون ،

---

(٦١) سورة البقرة : الآية : (١٥٣) .

إبلاغ الرسالة الى محل الاقامة ، ديوان ذي الجلال ، وزارة الله ، الى آخر هذه التعبيرات الحديثة التي تفسد الصورة ولا تصوّر الحقيقة .

ومع ذلك ، فلا مانس جريء ، انه جريء جرأة نادرة ، وتتمثل هذه الجرأة في أنه اذا لم يعثر خلال أبحاثه الطويلة ، على خبر واحد يؤيد زعمه وهواه ، استغنى عن الخبر ، وثبت على مزاعمه الباطلة التي يسوقها الى القراء برشاقة بالغة ، وأحيانا يقول : «ان هذا أمر عنّى رجال الحديث والأخبار بكتمانه» .

وبينما يحترم المسلمون السيد المسيح عليه السلام ويجلونه ، نجد أن لامانس يصف مؤسس الاسلام بأبشع مايمكن أن يظهره الحقد والكراهية ، حتى لكأننا نسمع أسلوب رهبان القرون الوسطى الذين لم يكن في جعبتهم الا السباب والشتائم (٦٢) .

إنّه لمن الغريب حقاً — والأمر كذلك — أن يفتن قسم من المسلمين بالمستشرقين ، مع مايرون من كراهيتهم للاسلام وتعصبهم ضده ، وجهلهم أو تجاهلهم من أجل حاجات في أنفسهم ، انهم يشككون ويخطئون جهلا أو متجاهلين . لقد وصل بهم الأمر الى تجريد الرسول صلى الله عليه وسلم من اسمه ، زاعمين أنه لم يدع محمداً قط ، وأن حقيقة اسمه ستظل من الألغاز التي لاحل لها ، وحجتهم : أن كلمة محمد نعت ذو معنى خاص ، لذلك يؤكدون أنه لقب ليس الا (٦٣) .

كذلك يزعم بعض المستشرقين ، أن : « الرحمن » اسم علم لله ! ! ويترجمون البسملة ترجمة تدل على هذا الرأى السقيم : باسم الاله «الرحمن» الرحيم .

ولما كانت ثلاثة أرباع أسماء الأعلام العربية نعوتاً ، فأنت ترى مافي

---

(٦٢) محمد رسول الله — المقدمة (٣٧ — ٤٦) ، وانظر كتاب لامانس — هل كان محمد صادقا .

(٦٣) هوار — تاريخ العرب (١/ ٩٠) .

دراسة الأعلام من منابع غزيرة تصدر عنها مخيلة المستشرقين [٦٤] .

أما أبو بكر رضي الله عنه ، فقد سمى « أبو بكر » لأنه أبو البنت البكر !! والصعيد معناها : السعيد ، كما في دائرة المعارف البريطانية .

ولعل فيما ذكرناه ما يخفف من غلواء الإعجاب بالمستشرقين [٦٥] .

وقد ضربنا بعض الامثلة ، للنتائج التي توصل اليها المستشرقون في أبحاثهم التى يزعمونها علمية صحيحة ، ولو كانت علمية حقا لما اختلفت ولما تعارضت ، ولما كان مصيرها التلاشي .

وأتوقف عن سرد هذه النماذج للاخطاء الموضوعية التي قادت اليها الثغرات العديدة في مناهج البحث الاستشراقية لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهى كثيرة لايحصيها عد . وأنتقل الى جواب هذا السؤال : هل يستحق الاستشراق والمستشرقون منا هذا الجهد والبحث في مناهجهم ؟ في دراسة مؤلفاتهم ؟ والجواب بلا تردد : نعم ، على أن تكون الدراسة والبحث بحذر ووعي شديدين ، وعلى أن نعرف كيف ندرسهم وما نأخذ منهم وما ندع .

وقضايا السيرة النبوية بخاصة والقضايا الاسلامية بعامة ، ولغة القرآن الكريم أيضا ، العرب والمسلمون أولى الناس بتعليمها للناس كافة ، وهم أقدر الناس على فهمها ، والمطلوب أن يتحمل العرب والمسلمون هذا الواجب بكفاية واقتدار ، وليس المطلوب من غيرهم تحمل هذا الواجب ، فقد أثبتت الأحداث والأيام أنهم لم يكونوا أمناء في دراساتهم ولم يكونوا محايدين ولا علميين من قريب أو بعيد .

---

(٦٤) الشرق في نظر الغرب ــ دينيه ــ تعريب عمر فاخوري ــ نقلا من : محمد رسول الله (٤٦) .

(٦٥) محمد رسول الله ــ المقدمة (٤٦) .

ان القاعدة في المستشرقين الذين ألفوا في الاسلام والعربية الانحراف والتعصب ، والاستثناء فيهم الأمانة والحياد .

وتلك آثارهم تدل عليهم ، فانظروا قبل ذلك وبعد ذلك الى الآثار .

٢ ـ **السفارات والرسائل النبوية بصورة خاصة :**

أ . تظهر حملة التشكيك في صحة السفارات والرسائل النبوية في كتابات قسم من المستشرقين ، نخص بالذكر منهم المستشرق الانكليزى السير وليام ميور في كتابيه : (حياة محمد)[٦٦] و (الخلافة)[٦٧] ، والمستشرق الايطالي ليون كيتاني في كتابه : (حوليات الاسلام)[٦٨] ، والمستشرق اليهودي مرجليوث في كتابه : (محمد)[٦٩] .

ولكن قسماً آخر من المستشرقين ، لم يساير هذه الحملة التشكيكية ، بل سلم بصحة السفارات والرسائل النبوية وأكد عالمية الدعوة الاسلامية ، كما فعل المستشرق الانكليزى سير توماس أرنولد في كتابه : (الدعوة الى الاسلام)[٧٠] ، والمستشرق الألماني نولدكه الذي ذهب الى حد التسليم بأصالة الوثيقة التي عثر عليها في مطلع هذا القرن والتي يُرجح أنها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط [٧١] .

---

(٦٦) وليام ميور ـ حياة محمد ـ (٣٥٤ ـ ٣٥٧) .
The Life of Mohamed, PP. 354 - 357.

(٦٧) وليام ميور ـ الخلافة ـ (٤٣ ـ ٤٤)
The Caliphate, PP. 43 - 44.

(٦٨) ليون كيتاني ـ حوليات الاسلام (٧٢٥/١) وما بعدها
Caetani, Annali dell Islam, v 1 P. 725.

(٦٩) مرجليوث ـ محمد (٣٦٤) وما بعدها .
Margoliouth, Mohammed, PP. 364.

(٧٠) توماس ارنولد ـ الدعوة الى الاسلام (٤٨) وما بعدها .

(٧١) دبلوماسية محمد (٨٣) .

وفي كتاب : (فتح العرب لمصر)[٧٢] لألفرد بتلر الذي عرّبه محمد فريد أبو حديد[٧٣] ، ذكر المؤلف مانصه : « وكان النبي قبل ذلك ، رأى أنه قد آن له أن يرسل الى أمراء العالم يدعوهم الى الاسلام ، فبعث كتبا اليهم في سنة ٦٢٧م وختمها بخاتمه على ماجرت عليه عادة أهل الشرق ، وكان نقش ذلك الخاتم : «محمد رسول الله»، وكانت الكتب جميعها تدعو الى الدخول في الاسلام والشهادة بأن محمدا عبد الله ورسوله ، وأرسلت تلك الكتب الى أمراء اليمن وعمان واليمامة والبحرين ، والى الحارث (ابن أبى شمر الغساني) أمير العرب على حدود الشام ، والى (جرج) وسمى (المقوقس) في الكتاب خطأ، وهو حاكم الاسكندرية ونائب الملك في مصر ، والى نجاشي الحبشة ، والى كسرى ملك الفرس ، والى هرقل ملك الروم. فأما أمراء العرب ، فقد ردّ اثنان ردا حسنا وأسلما وهما أمير اليمامة وأمير البحرين. وأما أمير اليمن وعمان فقد ردا ردا فاحشا ، فدعا عليهما النبي . وأما النجاشي ، فقد أجاب جوابا حسنا ولم يتبعد ولكنه لم يسلم[٧٤] ، ولعل هذا موضع لأن نقول : إن الحبشة هي البلاد التي لم يفتحها الاسلام دون كل البلاد التي أرسل النبي اليها الرسل. وأما عظيم القبط فقد وعد أن يرى لنفسه رأيا في الأمر وأكرم الرسول وهو

---

(٧٢) Batler, M., Arab Conquest of Egypt, PP. 139.

(٧٣) الفريد ج بتلر ــ فتح العرب لمصر ــ تعريب محمد فريد ابو حديد (١٢٤ ــ ١٢٨) ــ مطبعة دار الكتب بالقاهرة ــ ١٣٥١هـ .

(٧٤) اخطأ المؤلف في ذلك ، اذ ان النجاشي قد اسلم كما هو معلوم ، يراجع بحث : اسلام النجاشي ، في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ــ للمؤلف ــ مخطوط .

حاطب بن أبى بلتعة اللخمي ، وبعث معه هدية عظيمة كان فيها جاريتان : مارية وشيرين ، وبغلة سماها النبي (دلدل) ويزعم بعضهم خطأ أنها أول بغلة عرفت في بلاد العرب ، وكذلك كان بين ما أهدى حمار اسمه (نفور)[٧٥] ومقدار من المال • فأما مارية فقد أسلمت وتزوجها النبي عليه الصلاة والسلام وأحبها وماتت سنة ٦٣٦م ، فلم تشهد فتح مصر وخضوعها للعرب •

«وأما ردّ كسرى ، فقد كان على طريقة أخرى ، اذ شق كتاب النبي ومزقه وهو غضبان قد تولى كبره ، وكتب الى بازان[٧٦] عامله على اقليم حمير يأمره : ابعث الي برأس هذا الرجل الذي بالحجاز ، فقال النبي عندما بلغه مافعله كسرى بكتابه : مزق ملكه ! فكانت نبوءة ودعوة عليه ، وما مضى بعد ذلك الا زمن قصير حتى تحققت » •

«أما ماكان من أمر هرقل ، فلسنا ندري ماكان يدور في نفسه ، اذ هو خارج من مواكب الاحتفال عند مقدمه الى عاصمة ملكه بعد فتوحه في آسيا ، أو عندما كان يسير وفي ركابه الظفر يشق بلاد الشام نحو بيت المقدس ، حاملا معه الصليب الأعظم ، أكان عند ذلك يذكر ما وقع له وهو في معسكره منذ حين ، اذ طلع عليه جماعة من فرسان البدو وعليهم رئيسهم (دحية بن خليفة الكلبي) يحمل اليه كتاب النبي ؟ ولاشك أن الامبراطور قد سمع بما أجاب به من قبل ملك الفرس ، ولعله كان عند ذلك قد أتاه مقتل رسول النبي في مؤتة[٧٧] ، ولكنه مع ذلك أرسل ردا حسنا ، حتى أن بعض مؤرخي العرب خلق من ذلك قصة منمّقة سخيفة عجيبة ، يذكر بها اسلام هرقل ، ولم يكن شيء أبعد من ذلك الأمر عنه، وماذا عسى كان يدفعه الى تصديق ما أتى به

---

(٧٥) اسمه : يعفور .

(٧٦) الصواب أن اسمه : باذان لا بازان .

(٧٧) لايمكن أن يكون المقصود هو دحية الكلبي ، فانه عاد الى النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن ادى رسالته الى قيصر . وقد استشهد سفير نبوي في تبوك ، ولكن بعد عودة دحية من واجبه ، فاختلط ذلك على المؤلف .

زعيم عربي لم يعرفه ، وذلك في حين كان ملكا سيد الكتائب الكثيرة التي عركتها الحرب فأصبحت ضارية صعبة المراس »[٧٨] •

لقد اعترف بتلر بالسفارات والرسائل النبوية من حيث المبدأ ، ولكنه أخطأ في التفاصيل أخطاء واضحة نبهت على قسم منها في الهامش ، والدارس للذي دونه بتلر يلمح حماسته الشديدة في رفض اسلام النجاشي ، واسلامه حق لاريب فيه ، ولكنه لايقره بتلر لأن النجاشي مسيحي وبتلر مسيحي ، فهو يدافع بالحق أو بالباطل عن دينه تلقائياء ولكن درجة حماسته تصاعدت حين ذكر ادعاء بعض مؤرخي العرب بأن هرقل قد أسلم ، لأن هرقل كان زعيم العالم المسيحي يومئذ ، واسلامه يزعزع الكيان المسيحي في حينه ، وجمهور مؤرخي العرب لم يدّعوا أن هرقل أسلم حتى يغضب بتلر هذه الغضبة المضرية ، ومن المحتمل أن بتلر افتعل الادعاء باسلامه كذبا ليظهر شعوره دفاعا عن دينه متعصبا تعصبا أعمى ، وما ذكره مؤرخو العرب والمسلمين، هو أن هرقل عامل الرسول النبوي بالحسنى ، ولم يعامله بالقسوة ، وأراد أن يتأكد من حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم وحقيقة رسالته ، فسأل أبا سفيان بن حرب ومن معه من تجار قريش عن ذلك ، وانتهى الأمر عند هذه الحدوده ومعاملة هرقل لرسول النبي صلى الله عليه وسلم الموفد اليه بالحسنى دليل على رجاحة عقله واتزانه وحصافته ، وسؤاله عن حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم وحقيقة دعوته من قومه الذين يعرفونه حق المعرفة دون أن يؤمنوا برسالته ويتبعوه ، دليل آخر على رجاحة عقله واتزانه وحصافته ، كما أن معاملة الرسل بالحسنى والحفاظ على حياتهم وأمنهم مظهر حضاري لاشك فيه ، وكان من تقاليد العرب في الجاهلية أن الرسل لايقتلون ، فلما جاء الاسلام أقر هذا المبدأ وأمر بتطبيقه نصا وروحا • وأرى أن مسلك هرقل في تصرفه مع السفير النبوي كان مسلكا حضاريا ، ولا مسوغ لاعتراض بتلر على ذلك التصرف بحجة أو بأخرى ، ولا أن يحمله فوق مايحتمل ، ولكنه لم يستطع أن يتخلى عن تحيزه الديني

---

(٧٨) فتح العرب لمصر (١٢٤ ـ ١٣٨) •

وانحيازه لعاطفته الدينية ، أسوة بغيره من المستشرقين ، ولو أنه أقل منهم تحيزا وانحيازا ، فهو على الأقل قد أقر بالسفارات النبوية من حيث المبدأ ، ولم ينكرها أو يتنكر لها كغيره ، أما ما وقع فيه في التفاصيل من أخطاء ، فلا يفهم تاريخ العرب والمسلمين كما ينبغي كالعرب والمسلمين ، والادعاء المخالف لايقره الواقع ولا البحث العلمي الدقيق .

ب . واعترف واشنجتون أرفنج في كتابه : (حياة محمد) بالسفارات النبوية ، فقال : ... فقد رأى أيضا (يريد النبي صلى الله عليه وسلم) أن يتبع الوسائل السلمية الدبلوماسية ، فأرسل كتبا الى بعض الملوك والأمراء يدعوهم الى اعتناق الاسلام .

«من أبرز الملوك الذين كتب الرسول اليهم ، خسرو الثاني كسرى فارس، وهرقل قيصر الروم ، وكانت قد نشبت حروب طويلة بين الرومان والفرس من أجل السيطرة على الشرق الذي تداول كل من الفريقين الحكم فيه طوال القرون الماضية. وفي احدى هذه الحروب ، تقدم خسرو على رأس ثلاثة جيوش يبلغ عددهم خمسين ألفا من ذوي الحراب الذهبية ، وتمكنوا من الاستيلاء على فلسطين وبعض المقاطعات الغنية التابعة للرومان ، وأعلن خسرو نفسه حاكما على فلسطين ، وحمل معه الصليب المقدس الى فارس ، كما غزا أفريقية فاستولى على ليبيا ومصر، وامتدت فتوحاته وانتصاراته الى قرطاجنة» .

«وسط هذه الانتصارات ، قدم رسول من محمد يحمل كتابا اليه . واستدعى خسرو أحد كتابه ، وأمره بقراءة الكتاب الذي جاء فيه : (من محمد رسول الله . الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله عز وجل ، فاني رسول الله الى الناس كافة ، ولأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . وأسلم تسلم ، فان توليت فان إثم المجوس عليك » .

«غضب كسرى اذ كتب الرسول اسمه قبل اسم كسرى ، وقال : يكتب

إليّ هذا وهو عبدي ! وأمسك بالخطاب وقطعه اربا اربا ، وكتب الى حاكمه باليمن : ابعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين ، فليأتياني به • وحينما علم الرسول بتمزيق كسرى لكتابه قال : مزق الله ملكه » •

«أما كتاب الرسول الى هرقل ، فقد قبله القيصر قبولا حسنا • وجاء في هذا الكتاب : (من محمد عبدالله ورسوله الى هرقل قيصر الروم • السلام على من اتّبع الهدى • أما بعد ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن تتول فان إثم الأكارين عليك : (يا أهل الكتاب ، تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) » •

«يقال ان قيصر تلقى الخطاب بقبول حسن ، وأكرم وفادة الرسول الذي حمل اليه الخطاب ، فمنحه كثيرا من الهدايا • ولما كان قيصر مشغولا بحروبه مع الفرس ، فانه لم يتخذ قرارا حاسما بشأن هذا الكتاب ، فقد شغلته هذه الحروب عن قبائل الصحراء » •

«بعث الرسول كتابا آخر الى المقوقس ، حاكم مصر ، الذي بعثه هرقل الى مصر لجمع الجزية ليستعين بها على الحروب المستمرة بين الفرس والرومان• وأحسن المقوقس استقبال رسول محمد ، وقال له : قد كنت أعلم أن نبيا قد بقي ، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام ، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ، فأراه قد خرج في العرب في أرض جهد وبؤس ، والقبط لاتطاوعني في اتباعه ، ولا أحبّ أن يُعلم بمحاورتي إياك ! » •

«وبعث المقوقس الى محمد كثيرا من الهدايا ، منها بعض الجواهر الكريمة والحرير المصري ، والعسل ، والزبد ، وبغلة شهباء تسمى دلدل ، وبغل أشهب يسمى يعفور ، وزوج من الخيل ، ولكنّ أهمّ هذه الهدايا جاريتان شقيقتان هما : مارية وسيرين [٧٩] » •

---

(٧٩) واشنجتون ارفنج ـ حياة محمد ـ ترجمة وتعليق الدكتور علي حسني الخربوطلي (٢٠٥ ـ ٢٠٨) ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٠م •

وبصرف النظر عن الاختلافات الواردة في نصّي الكتابين النبويين الى كسرى وقيصر مع نصيهما الواردين في المصادر العربية الاسلامية المعتمدة ، وبصرف النظر عن المعلومات الواردة خطأ في التفاصيل أو في عدم دقتها ، إلا أن واشنجتون أرفنج سلم بالسفارات النبوية من حيث المبدأ ، ولكنه ذكرها بايجاز مُخل ، ولعل عذره هو صغر حجم كتابه ، فهو لايتسع للتفاصيل والاسهاب .

جـ . أما المستشرق ر. ف. بودلي في كتابه : (الرسول) الذي ترجمه محمد محمد فرج وعبدالحميد جودة السحار ، فقد أقر بالسفارات النبوية إقرارا كاملا من حيث المبدأ أيضا ، وأخطأ في التفاصيل كما أخطأوا ، فقال : «لم يعش محمد ليرى عظمة الامبراطورية الاسلامية ، ولم يكن عنده في أثناء حياته أية أصول حقيقية تجعله يشعر بأنه ستكون هناك مثل هذه الامبراطورية، ولكنه كان يؤمن بها بنفس الطريقة التي آمن بها بالوحي الذي يوحي اليه لما كان يتبعه أربعة فقط . والآن وقد رأى اسلام الأفراد والقبائل الذي أعقب عودته من الحديبية ، أصبح مقتنعا بأن الوقت الذي سيتهيأ فيه العالم للاسلام ليس ببعيد ، ومن الحقيقي أن هناك بعض جماعات محلية تُعارض سلطانه ، ولكنه سيعاملها بلباقة ، وان الذين يفكر فيهم الآن هم الشعوب الخارجة عن دولته ، وكان يحس أن هذه الشعوب إنما كانت في حاجة الى كلمة ترغيب لتصبح مسلمة .

«فاختار لذلك الرسل ، لتنطلق لتقدم ذلك الترغيب ، وتروي بعض الأحاديث[80] أن سفراء محمد قد وجدوا أنهم مُنحوا هبة خارقة في اللغات ، بنفس الطريقة التي وجد رسل المسيح أنفسهم قادرين على التحدث بلغات كثيرة في يوم العنصرة ، وهذا ما قد حدث ، فان محمدا قد اختار مندوبيه من بين من كانوا تجارا رُحّالا ، فان هؤلاء الرجال قد كانوا في الخارج ، فهم

---

(٨٠) يقصد الاحاديث النبوية .

يعرفون عادات الغرباء ، فلن يصبحوا في حيرة وارتباك في بلاد الغُربة ، كما قد يصبح أبو بكر وعمر اذا وجدا أنفسهما خارج أوضاع الصحراء التي ألفاها، وإنهم ليمكنهم أن ينصحوا عما يجول في أنفسهم للروم والفرس واليونان» .

«كان لمحمد ختم كبير من فضة ، نُقش عليه : «محمد رسول الله» ، فأعطاه السفراء ، فكان كاعتماد لهم ، وكان الختم فكرة بسيطة لا فن فيها. وقد كان موضوع تسلية عظيمة لعبدالله بن أُبَيّ وأصحابه ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يصبح يعنى بعد ذلك أكثر مما يعنى النسر الروماني» .

«وقد ذهب الرسول الأول الى هرقل ، وقد أوقف في بُصرى ، وأخذ حاكم بُصرى الرسالة وقدمها للامبراطور ، وقد اهتم هرقل بالختم الفضي ، ونادى المترجم فترجم له الرسالة ، وما كان أشد دهشته حينما سمع بدعوة المسيح ومريم واعتناق الدين الحق ، دين التوحيد ، فاحتفظ هرقل بالكتاب والختم ، حبا في الاستطلاع ، ولم يتخذ أي اجراء آخر »[٨١] .

«وذهب السفير الثاني الى البلاط الفارسي ، وقد قُتل كسرى ، قتله ابنه شيرويه ، وهو الذي استلم وثيقة محمد الغريبة[٨٢] . وقد أثارت الرسالة الشاه ، فقد جاء فيها : (من محمد بن عبدالله رسول الله ، الى كسرى (كان يعتقد أنه لازال على قيد الحياة) عظيم الفرس ...). وقد أطار صواب شيرويه جرأة عربي الصحراء على وضع اسمه قبل اسم الشاه ، فمزق الرسالة، وكتب الى باذان وهو على اليمن : «هناك في المدينة مجنون من قريش يزعم

---

(٨١) انظر كيف فهم هذا المستشرق ختم الكتاب بالخاتم النبوي الذي كان باصبعه ، فجعل السفير النبوي يحمل هذا الختم الفضي ، ويسلمه الى هرقل الذي يحتفظ به حبا في الاستطلاع ! لو وقع مؤلف عربي مسلم بهذا الخلط العجيب ، لأصبح أضحوكة أن هب ودب ! .

(٨٢) لم يكن كسرى قد قتل بعد ، وهو الذي تسلم الرسالة النبوية وليس ابنه الذي قتله بعد ذلك بقليل ، كما زعم هذا المستشرق .

أنه نبي ، فردّه الى عقله ، أو ابعث إليّ برأسه »(٨٣) .

«فهز محمد كتفيه استهزاء لما بلغه هذا ، وكان كل ما قاله حين بلغه أن كسرى شق كتابه : مزق الله ملكه. وقد تحققت النبوءة سريعا ، ففي أقل من عشرين سنة ، كانت فارس دولة ممزقة تحت حكم المسلمين ، وكان حاكمها أحد الرجال الذين دربهم الرجل المجنون » .

«وقابل زعيم بني حنيفة ، وهي قبيلة مسيحية في وسط جزيرة العرب، الرسل بالترحاب ، وأعطاهم هدايا ، وأظهر أنه على استعداد للدخول في الاسلام اذا كان له نصيب في الحكم ، فأجاب محمد بأنه ماكان ليعطيه شق تمرة اذا سألها ، ولعنه النبي. والظاهر أن لعنته كانت فعّالة ، فما لبث الزعيم الطموح عاما بعد ذلك حتى مات » .

«وقد أمضى الرسل في الحبشة وقتا طيبا ، فقد صادق النجاشي المسلمين منذ أيام الوحي الأولى ، وقد وجدوا عنده ملجأ ، وكان هناك الى الآن ستون مسلما يعيشون في بلاطه ، كان منهم جعفر بن أبي طالب أخو علي من أبيه(٨٤)، وان هذا لم يمنع محمدا أن يرسل الى النجاشي نفس الرسالة التي بعثها الى الرومان والفرس . وقد قيل : ان النجاشي قد قبل الاسلام ، ولكن لايوجد مايثبت ذلك تاريخيا(٨٥) ، فحين كان الأحباش يحترمون محمدا وما ينادي

---

(٨٣) لم يكتب كسرى مثل هذه الرسالة الى باذان ، بل كتب اليه : « ابعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين ، فيأتياني به ، انظر التفاصيل حول ذلك في السفارة الى كسرى .

(٨٤) هذا خطأ ، فجعفر وعلي اخوان من الأب والأم ، فأمهما فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، انظر التفاصيل في سيرة : جعفر بن ابي طالب ، في الجزء الأول من هذا الكتاب (سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

(٨٥) وهذا خطأ أيضا ، فقد أسلم النجاشي وكل المصادر العربية الاسلامية تذكر اسلامه ، انظر بحث : اسلام النجاشي في : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ـ للمؤلف ـ مخطوط .

به أعمق الاحترام ، كانوا مسيحيين نسطوريين • وقد كانت عقائدهم الأساسية تختلف في قليل عن عقائد المسلمين ، وان الأحباش الى الآن مسيحيون ، وان ما حدث بين المسلمين والأحباش كان صفاء وودا كله » •

«وكان أمام السفير مهمة أخرى في الحبشة ، فقد كان هناك مسلمات كثيرات يعشن في أديس أبابا ، كانت أم حبيبة بنت أبي سفيــان من بينهن ، وكانت أرملة عبيدالله بن جحش ، وهو أحد المؤمنين الأولين ، وأحد المهاجرين الأولين من مكة، وكانت أم عبيدالله أخت عبدالمطلب ، وعلى ذلك فقد كان ابن عمة لمحمد ، وكان أخا زينب الذي سبب طلاقها من زيد وزواجها من محمد تلك الضجة ، فاذا لم يكن في كل ذلك روابط عائلية كافية ، فان محمدا قد شاء أن يضيف الى ذلك رباطا آخر بزواجه من قريبته الأرمــلة ، لقد كان يهدف الى اذلال أبي سفيان[86] فيقوى بذلك مركزه في مكة ، وقد يفسخ أبو سفيان هذا الرباط ، ولكن ذلك يجعله يسلم بأن الخطيب المنبوذ زوج ابنته ، وان كل ما قاله أبو سفيان لما بلغه هذا الزواج : ذلك الفحل لايقرع أنفه» •

«وقد سرت أم حبيبة لزواجها من محمد ، وقد خطب النجاشي عــلى رسول اللهصلى الله عليه وسلم ، فلما تم ذلك تأهب جعفر واللاجئون الآخرون لصحبة العروس الى المدينة » •

«وأرسل رسولاً آخر الى مصر ، وقد تسلم الحاكم الروماني رسالة محمد في احترام ، واستقبل الرسل بما يجب لهم من إكرام ، ولم يعتنق الاسلام • وقبل أن يبدأ الرسل العودة ، بعث معهم بهدايا قيّمة لزعيمهم ، كان مــن ضمنها حلي ، وتيل مصر ، وعسل ، وزبد ، وبغلة بيضاء ، وحمارة ، وفرس أصيلة ، وقد بعث مع هذه الهدايا التقليدية بجاريتين أختين قبطيتين ، عــلى

---

(٨٦) وهذا خطأ ايضا ، فقد كان يهدف الى جمع الصفوف بالمصــاهرة ، لا الى اذلال احــد .

جانب عظيم من الجمال ، هما مارية وسيرين ...»[87] .

ومهما يكن من أمر ، فان هذا المستشرق اعترف بالسفارات والرسائل النبوية اعترافا كاملا من حيث المبدأ ، ووافق ابن سعد[88] والسيوطي[89] في أن السفراء النبويين أصبحوا وكل واحد منهم يعرف لغة الملك الموفد اليه، وكان ذلك على سبيل المعجزة[90] . وحين لا أستبعد حدوث المعجزة ووقوعها ، لأن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة الأنبياء قبله مليئة بالمعجزات وخوارق العادات ، وانكارها من المكابرة ، ولكنني أرجح أن ذلك كان مبنيا على الحكمة وحسن الاختيار من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن من يُحسن اللغة الرومية والفارسية ولغة الأقباط في مصر ولغة أهل الحبشة غريبا ، لكثرة اختلاط العرب بهذه الأمم الأربع وكثرة رحلاتهم التجارية الى هذه الأقطار وتنقلاتهم فيها ، وكانت القضية محدودة في هذه اللغات الأربع ، اذ كان لغة أمراء الجزيرة العربية ورؤساء القبائل الذين كتب اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه ، ودعاهم الى الاسلام ، اللغة العربية[91] ، ولكن الغريب في الأمر كله هو تسليم هذا المستشرق بأن ماحدث كان على سبيل المعجزة. بل ذهب هذا المستشرق الى مدى أبعد ، فقد سلّم بالنبوءة الخاصة بكسرى ، فطبقها على مصير الامبراطورية الساسانية التي انهارت بسرعة بالفتوح الاسلامية ، بينما طبقها المؤلفون المسلمون المعتمدون على كسرى أبرويز حسب ، في مصيره الذي حاق به على يد ولده ، فكانت النبوءة عامة بالنسبة لهذا المستشرق أصابت الامبراطورية الساسانية كلها ، وكانت النبوءة خاصة بالنسبة للمصادر الاسلامية المعتمدة أصابت كسرى وحده ، كما سلّم

---

(87) د. ف. بودلي ــ الرسول ــ ترجمة محمد محمد فرج وعبدالحميد جوده السحار (٢٣٤ ــ ٢٣٧) ــ القاهرة ــ بلا تاريخ .

(88) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨) .

(89) الخصائص الكبرى للسيوطي (٢/١١) .

(90) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨) والخصائص الكبرى (٢/١١) .

(91) السيرة النبوية للندوي (٣٢٣ ــ ٣٢٤) ، الهامش (٢) في ص (٣٢٣) .

بالنبوءة التي حاقت بأمير اليمامة وبني حنيفة كما سلمت بها المصادر الاسلامية المعتمدة ، ويبدو أن هذا المستشرق اعتمد كتاب الخصائص الكبرى للسيوطي في تأليف هذا الفصل من كتابه ، واستسلم للمعلومات الواردة فيه استسلاما كاملا . ولكنه حين اصطدم بخبر اسلام النجاشي ، نكص على عقبيه نكوصا يدل على عصبيته وتعصبه وانحيازه وتحيزه ، ولايدل على الاتزان العلمي والبحث الموضوعي ، فقال مانصه : «وقد قيل : ان النجاشي قد قبل الاسلام، ولكن لايوجد مايثبت ذلك تاريخيا ، فحين كان الأحباش يحترمون محمدا وما ينادي به أعمق الاحترام ، كانوا مسيحيين نسطوريين »(٩٢) ، وقد ثبت اسلام النجاشي في كل المصادر التاريخية الاسلامية وغير التاريخية أيضا ، بدون استثناء ، واسلامه حظي باجماع المصادر المعتمدة التي نصت على إثباته ، ولكن أنكره بودلي بعصبية ظاهرة دون إقامة الدليل على أسباب إنكاره واستنكاره أيضا ، الا أن يكون النجاشي مسيحيا نسطوريا ، كأن المسيحي النسطوري لايعتنق الاسلام .

كما أن بودلي وقع في أخطاء تاريخية نبّهنا على بعضها في مكانها ، وهذه الأخطاء تدل على ضعفه في التاريخ الاسلامي ، ولو وقع بمثل أخطائه مؤرخ عربي مبتدىء ، لاعتبرت أخطاؤه دليلا على جهله الفاضح بأبسط أساليب البحث والتدقيق .

وعلى الرغم من أن بودلي عاش بين العرب المسلمين في الصحراء سبع سنين في خيمة من خيام البدو : «أصبحت الخيمة المصنوعة من وبر الجمل داري ، والبدو أصدقائي ، والصحراء المترامية بلادي... سمعت القرآن في اللغة العربية المكية العظيمة ، وأحسست دون أن أصبح مسلما روعة هذا الدين الذي يخلى بين العبد وخالقه في الصحراء، وسمعت عن محمد ، الرجل

---

(٩٢) الرسول ــ بودلي (٢٣٦) .

الذي وحد حفنة من القبائل المتنافرة المتنافسة ، وجعلهم دعامة امبراطورية من أعظم إمبراطوريات العالم ... »[٩٣] هكذا تهيأت له أسباب فهم تاريخ الاسلام والمسلمين ، ولكنه لم تتهيأ له أسباب التخلي عن تعصبه لدينه ، فجعلته ينحاز لدينه اذا مس دينه أحد بسوء أو بما يظن أنه سوء ، وينصف في القضايا الأخرى ما استطاع الى ذلك سبيلا ، بما هداه اليه عقله أولا ، وبحثه المحدود عن الحقيقة ثانيا وأخيرا .

د ــ ويختلف المستشرقون في أمر السفارات والرسائل النبوية ، وقد ذكرت قسماً من الذين يرون أنها صحيحة ، ومنهم بالاضافة الى من ذكرنا بيورى صاحب التآليف العديدة في تاريخ الروم[٩٤] ، والمستشرق البريطانى سير توماس أرنولد في كتابه : (الدعوة الى الاسلام)[٩٥] ، والمستشرق الألمانى نولدكه[٩٦] وغيرهم كثير .

ولكن قسماً من المستشرقين يشككون في صحة السفارات والرسائل النبوية ، نخص بالذكر منهم المستشرق البريطانى السير وليام ميور في كتابيه : (حياة محمد) و (الخلافة)[٩٧] والمستشرق الايطالى ليون كيتانى في كتابه : (حوليات الاسلام)[٩٨] ، والمستشرق اليهودى مرجليوث في كتابه : (محمد)[٩٩] .

والحجة الرئيسة لمن يعترض على صحة السفارات والرسائل النبوية ، أن ابن اسحق أقدم من كتب في السيرة النبوية لايذكرها . ولكن لايخفى أن

---

(٩٣) الرسول (٣) .
(٩٤) Bury, J. B., Const., of Later Roman Empire, 11, 261.
(٩٥) الدعوة الى الاسلام (٤٨) وما بعدها .
(٩٦) دبلوماسية محمد (٨٣) .
(٩٧) وليام ميور ــ حياة محمد (٣٥٤ ــ ٣٥٧) ، والخلافة (٤٣ ــ ٤٤) .
(٩٨) Mohammed, PP. 364.
(٩٩) Annali d'ell Islam.

سكوت المصادر لايتخـذ حجة الا بشروط معينة[١٠٠] ، والبحث في صحة الرسائل النبوية يستوجب الرجوع الى القرآن الكريم نفسه ، لنرى إذا كان المراد به رسالة للعالمين أو رسالة خاصة بالعرب ، وهو في نظرنا رسالة للعالمين دون ريب ، والنبي الذى حمل هذه الرسالة بادىء ذى بـدء الى أفـراد قلائل من أقربائه ، أرادها في النهاية قوة تسيطر على العالم أجمع »[١٠١] .

أما قول كيتانى وغيره ، في أن القـرآن اُريد به رسالة للعـرب دون سواهم ، فانه قول ضعيف لايركن اليه[١٠٢] .

ويمكن تلخيص حجج المشككين والمتشككين التى ذكرت أهمهـا وشيكاً وذكرت ردّ أحد غير المسلمين عليها ، فلا بأس من ذكر الأهم والمهم من تلك الحجج وهى :

أولاً : دعواهم بأن الاسلام يخص الجزيرة العربية ، وخبر السفارات والرسائل النبوية يخرج به عن نطاقه المحلى الى نطاق عالمى .

ثانياً : دعواهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في حالة ضعف سياسى وعسكرى لايمكنه تحدى قوة العالم بالسفارات والرسائل النبوية .

ثالثاً : الزعم بأن ابن اسحق لم يذكر قصة الرسائل النبوية ، والاستدلال بذلك على ضعف التوثيق التاريخى للأخبار .

رابعاً : اشتمال أخبار السفارات النبوية على تفاصيل وصفت بأنهـا

---

(١٠٠) أسد رستم ــ مصطلح التاريخ (١٩٠ ــ ١٩٢) .

(١٠١) أسد رستم ــ الروم ــ (١/٢٣٦ ــ ٢٣٧) ، وانظر التفاصيل في :
Goldziher, I., Die Religion des Islam — Die Religion des Orients. III, 106.

(١٠٢)
Grimme, H., Mohammed, I, 123; Caetani, L., Studi di storia Oriental, III, 236, 257.

أسطورية ، مما يدعو الى رفض الأخبار برمتها .

خامساً : اشتمال بعض الرسائل النبوية على آية قرآنية ، قيل ان نزولها قد تأخر عن تاريخ ارسال تلك الرسائل نحو سنتين[١٠٣] .

ولا غرابة في هذا التشكيك لصدوره عن مستشرقين معروفين بتعصبهم على الاسلام ونبي الاسـلام ، ولكن الغرابة في انتقال هذا التشكيك نصاً وروحاً الى بعض الكتاب المسلمين ، فقد نقلوا حملة التشكيك الى المكتبة العربية[١٠٤] ، والى الجامعات العربية ، والى أجهزة الأعلام العربية ، أو نقل جزء من هذا التشكيك الى المكتبة العربية[١٠٥] والى مجالات الكلمة المقروءة والمسموعة ، مما أدى الى تسميم العقول والقلوب بغير حق ظلماً وعدوانا .

لذلك أصبح السكوت عن التشكيك والمشككين لامسوغ له ، مهما تكن دوافع اظهار الحق وازهاق الباطل ، في الرد على التشكيك والمشككين : حرصاً على عقول وقلوب العرب والمسلمين من التلوث ، أو نشراً للعلم من أجل العلم ، فالحكمة ضالة المؤمن ، والحق أحق أن يتبع ، وان أمكن إخفاء الحقيقة ساعة ، فمن المستحيل اخفاؤها الى قيام الساعة .

وبصرف النظر عما كتبه العـرب والمسلمون في الرد على التشكيك والمشككين بالرغم من أهمية ماكتبوه وأصالته وصدقـه ، الا أن كثيراً من المستشرقين المنصفين الذين نوهنا بأسـماء قسم منهم ، أقـروا بالسفارات

---

(١٠٣) د. عزالدين ابراهيم ـ الدراسات المتعلقة برسائل النبي صـلى اللـه عليه وسلم الى الملوك في عصره ـ مجلة المؤرخ العربي ـ العدد (٢٣) لسنة ١٩٨٣ ـ ص (٢٤٥) .

(١٠٤) نبيه عاقل ـ تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ـ ص (٥٣٧) ومـا بعدها ، وانظر دبلوماسية محمد ص (٥٧) وما بعدها .

(١٠٥) محمد عبدالله عنان ـ مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ـ ص (١٧٣) حول التشكيك باسلام النجاشي ـ القاهرة ـ ١٣٧١هـ ـ ط٣ .

والرسائل النبوية وردوا على المستشرقين غير المنصفين الذين شكوا في أمرها وشككوا في صحتها . ولست أجهل أن قسماً غير قليل من العرب والمسلمين متأثرون بالمستشرقين ليس الى حد الاعجاب حسب ، بل الى حد الانبهـار ، والى هؤلاء المبهورين بالمستشرقين من العرب والمسلمين أتساءل : اذا كان انبهاركم حقاً بالمستشرقين ، فلماذا تؤثرون الهدامين منهم على المنصفين ؟ ولماذا تقتبسون اقوال المشككين منهم ولا تقتسبون أقوال المصدقين ؟ .



بين اليقين والشك

١ ـ عالمية الاسلام :

بدأ الاسلام بمكة المكرمة ، وهى بلد سكانه من العرب ، وفيه بيت الله الحرام • وقد تطورت الدعوة الاسلامية كما نص على ذلك القرآن الكريم ، فبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بعشيرته ، قال تعالى : (وأنذر عشيرتك الاقربين)[١] ، ثم بقومه وبلده ، قال تعالى : (ولتنذر أم القرى ومن حولها)[٢] وقال تعالى : (وانه لذكر لك ولقومك)[٣] ، ثم كانت الدعوة عالمية : (ان هو الا ذكر للعالمين)[٤] ، وقال تعالى : (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون)[٥] ، وقال تعالى : (وما هو الا ذكر للعالمين)[٦] ، وقال تعالى : (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيرا)[٧] ، وقال تعالى : (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا)[٨] ، وقال تعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان ، على عبده ليكون للعالمين نذيراً)[٩] ، وقال تعالى : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق

---

(١) الآية الكريمة من سورة الشعراء (٢٦ : ٢١٤) .
(٢) الآية الكريمة من سورة الأنعام (٦ : ٩٢) .
(٣) الآية الكريمة من سورة الزخرف (٤٣ : ٤٤) .
(٤) الآية الكريمة من سورة يوسف (١٢ : ١٠٤) .
(٥) الآية الكريمة من سورة النحل (١٦ : ٤٤) .
(٦) الآية الكريمة من سورة القلم (٦٨ : ٥٢) .
(٧) الآية الكريمة من سورة سبأ (٣٤ : ٢٨) .
(٨) الآية الكريمة من سورة الأعراف (٧ : ١٥٨) .
(٩) الآية الكريمة من سورة الفرقان (٢٥ : ١) .

ليظهره على الدين كله)[10] .

ثم ان النـداء المتكرر في القرآن الكريم الى بني آدم ، والى أهـل الكتاب ، بل والى الانس والجن ، لايبقى أى شبهة في أن رسالة الاسلام عالمية التوجيه .

وما يقال عما ورد في القرآن الكريم ، حول عالمية الاسلام ، يقال عما ورد في الحديث النبوى الشريف ، فالأحاديث النبوية الصحيحة حول هذا الموضوع كثيرة جدا .

وقد كون الاسلام من المسلمين أمة واحـدة ، وحدتها قائمـة على العقيدة ، وهدفها الصالح العام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتفاضل فيها يجرى تبعاً لمدى تأدية الرسالة ، قال تعالى : (ان أكرمكم عند اللـه أتقاكم)[11] .

إنّ الدعوة الاسلامية كانت قائمـة في أساسها على العقيدة ، وعلى الشريعة والمثل العليا ، وهى انسانية في أساسها عالمية في نطاقها ، وهى للعالمين كافة لا لأمة من الأمم ولا لجنس من الأجناس ، هدفها اقامة مجتمع عالمى تكون فيه كلمة الله هى العليا ، تنظم مجتمعاً يتحلى بعقيدة موحدة الأساس ، ومبادىء أخلاقية شاملـة للعادات وهى مفتوحـة لجميع البشر دون شرط ولاقيد : « خير المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده »[12] .

تلك هي النصوص أو على الأصح جزء من النصوص والتعاليم التي تدل بوضوح لاتحتاج معه الى دليل ، على عالمية الاسلام . فاذا تتبعنا التطبيـق

---

(10) الآية الكريمة من سورة الفتح (٤٨ : ٢٨) .
(11) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٣) .
(12) حديث نبوى شريف ، وهو حديث صحيح ، رواه الامـام مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، انظر مختصر الجامـع الصغير للمناوى (١٢/٢) .

العملي لوضع عالمية الاسلام في حيز التطبيق. وجدنا ان السفارات والرسائل النبوية كانت مجرد مقدمة لسياحة الاسلام في العالم : دعوة ، وحضارة ، وجيوشا . واذا أخذنا بلاد الشام والروم مثلا ، فانه لم تمض سنة على الوفادات النبوية والرسائل ، حتى كانت غزوة (مؤتة)[١٣] في بلاد الشام بأدنى البلقاء في جمادي الأولى سنة ثمان الهجرية . وكان سبب هذه الغزوة المباشر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عُمير الأزدي[١٤] أحد بني لهب الى ملك بُصرى بكتاب ، فلما نزل مؤتة عرض له شُرحبيل بن عمرو الغساني فقتله ، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره ، فاشتد ذلك عليه فندب الناس فأسرعوا وعسكروا بالجرف[١٥] ، وهم ثلاثة آلاف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أمير الناس زيد بن حارثة[١٦]، فان قُتل فجعفر بن أبي طالب[١٧] ، فان قُتل فعبدالله بن رواحة[١٨] ، فان قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلا فجعلوه عليهم»[١٩] . وهناك عند مؤتة الواقعة على حدود البلقاء الى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت ، التقى المسلمون بقوات الروم المتفوقة على المسلمين تفوقا ساحقا .

---

(١٣) مؤتة : قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٠/٨) ، وهي بأدنى البلقاء ، والبلقاء دون دمشق ، انظر طبقات ابن سعد (١٢٨/٢) .

(١٤) انظر سيرته المفصلة في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ـ للمؤلف ـ مخطوط .

(١٥) الجرف : موضع على ثلاثة اميال من المدينة نحو الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٧/٣) .

(١٦) زيد بن حارثة الكلبي : انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة النبي صلى الله عليه وسلم ـ للمؤلف ـ مخطوط .

(١٧) جعفر بن أبي طالب : انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة النبي صلى الله عليه وسلم وسفراء النبي صلى الله عليه وسلم ـ للمؤلف ـ مخطوطان.

(١٨) عبد الله بن رواحة : انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة النبي صلى الله عليه وسلم ـ للمؤلف ـ مخطوط .

(١٩) طبقات ابن سعد (١٢٨/٢) .

ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها معركة مؤتة ، فان نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى ، فبينما رأى الروم تلك المعركة غارة من الغارات التي اعتاد البدو شنها للنهب والسلب ، كانت تلك المعركة في الحقيقة معركة من نوع جديد ، لم تقدر دولة الروم أهميتها وخطورتها ، فهي حرب منظمة كانت لها مهمة خاصة جعلت المسلمين يتطلعون جديا لفتح أرض الشام [٢٠] .

وفي العام التالي ، أي في السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠م) ، قاد النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك[٢١] ، ليصاول الروم وحلفاءهم في عقر دارهم ، فأظهر قوة المسلمين ، ثم عاد الى المدينة المنورة ظافرا منتصرا ، بعد أن أسلم عدد لايستهان به من حلفاء الروم ، وصالح الذين لم يسلموا منهم النبي صلى الله عليه وسلم على الجزية ، وتخلوا عن حلفائهم الروم، وأصبحوا موالين للمسلمين [٢٢] .

وفي السنة الحادية عشرة الهجرية (٦٣٢م) ، أعد النبي صلى الله عليه وسلم جيشا بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي[٢٣] لمهاجمة الروم في عقر دارهم ، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم التحق بالرفيق الأعلى في ربيع الأول من تلك السنة (كانون الاول ــ ديسمبر ٦٣٢م) قبل توجه جيش أسامة الى هدفه ، فترك عليه الصلاة والسلام لخلفائه خطة واضحة المعالم ، وولى وجوههم شطر قِبلة عيّنها لهم... وهكذا وقف الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بثاقب نظر على أن أشد الأخطار التي يمكن أن تحل ببلاد العرب وتناوىء دعوته ، إنما موطنها أرض الشام حيث الروم وعمالهم الغساسنة ، وقد أثبتت حوادث الفتح الاسلامي في بلاد الروم صدق هذه

---

(٢٠) الفاروق القائد (٥٧) ــ ط٤ .

(٢١) تبوك : موضع بين وادى القرى والشام ، وهو حصن به نخل وزروع وعين جارية ، انظر معجم البلدان (٢/٣٦٥) .

(٢٢) انظر التفاصيل في : الرسول القائد (٣٩٥ ــ ٤٠٣) ــ ط٥ .

(٢٣) انظر ترجمته في : قادة فتح ارض الشام ومصر (٣٣ ــ ٥١) .

الاشارة ، فكان الروم أشد المحاربين عنادا[٢٤] .

وكان أول عمل نفذه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، بعد توليه الخلافة، إنفاذ بعث أسامة ، فأدى أسامة واجبه وعاد الى المدينة منتصرا .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم المخطط الأول للفتح الاسلامي، فهو الذي رسم بنفسه الخطة التمهيدية التي حملت جيوش المسلمين على فتح أرض الشام وتأسيس أول ركن لدولة الاسلام خارج شبه الجزيرة العربية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقية ، ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام الى جانب تبليغه الدعوة الاسلامية الى قادة العالم في وقته ، كان قائدا ماهرا يقظا يدعم التبليغ بالتطبيق العملي ، لتكون كلمة الله هي العليا في العالم .

وقد أكمل أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما فتح الشام ومصر ، وكانا قلعتي الروم في المشرق .

وكان عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، هو عهد الفتح الاسلامي الذهبي ، فقد حالف النصر فيه أعلام المسلمين ، فامتدت دولتهم حتى جاوزت أفغانستان الى حدود الصين شرقا ، والأناضول وبحر قزوين شمالا ، وتونس وما وراءها من افريقية الشمالية غربا ، وبلاد النوبة جنوبا[٢٥]، وكل هذا الفتح أنجز خلال عشر سنوات[٢٦] .

إن الادعاء بخصوصية الاسلام لجزيرة العرب ، وعدم عالميته ، والاعتلال بذلك على عدم صحة أخبار السفارات والرسائل النبوية ، منهج خاطىء في الاستدلال التاريخي ، يكشف عن الدوافع الحقيقية لحملة التشكيك برمتها. ذلك أنه لايحكم على الوقائع التاريخية ، اثباتا أو نفيا ، بما يتصوره الباحث

---

(٢٤) الفارق القائد (٥٧ ــ ٥٨) .
(٢٥) د. محمد حسين هيكل ــ الفاروق عمر (٢/٢٠٠) .
(٢٦) انظر التفاصيل في : الفاروق القائد (٩٣ ــ ٩٤) .

عن طبيعة الدين الذي ترتبط به هذه الوقائع ، بل العكس هو الصحيح . وهو أن الوقائع نفسها مثبتة أو منفية استنادا على التحقيق التاريخي المجرد ، هي التي تدل الباحث على الطبيعة الحقيقية للدين .

ويبدو أن الذين زعموا أن الاسلام لجزيرة العرب وليس للعالم ، أخذوا بالآية الكريمة : (وإنه لذكر لك ولقومك)[27] ، ولم يأخذوا بالآيات الكريمة التي تدل بصراحة ووضوح على عالمية الاسلام ، والتي نزلت بعد الآية الكريمة: (وإنه لذكر لك ولقومك) ، وهو يشير الى تطور الدعوة الاسلامية : إنذار العشيرة ، وانذار قومه في مكة ومن حولها ، ثم دعوة العرب في جزيرتهم ، ثم دعوة الناس في العالم ، والاقتصار على دعوة العرب في جزيرتهم بعد نزول الآيات الكريمة التي تأمر باشاعة الدعوة لتكون عالمية ، دليل على سوء نية الباحث أو جهله ، أو سوء نيته وجهله معا .

وأي باحث منصف ، يتدارس آيات القرآن الكريم والحديث النبوي ، يشك أو يشكك في عالمية الاسلام ، لايمكن أن يتجاهل هذه الحقيقة الواضحة التي لايمكن الاختلاف فيها ، لذلك أيد صحة السفارات والرسائل النبوية مستشرقون كثيرون مثل بتلر صاحب كتاب فتح مصر ، وبيوري صاحب التآليف العديدة في تاريخ الروم[28] . « والنبي الذي حمل هذه الرسالة بادىء ذي بدء الى أفراد قلائل من أقربائه ، أرادها في النهاية قوة تسيطر على العالم أجمع»[29] . أما قول غريمه وكيتاني في أن القرآن أريد به رسالة للعرب دون سواهم فانه قول ضعيف لايركن اليه[30] .

---

(٢٧) الآية الكريمة من سورة الزخرف (٤٣ : ٤٤) .

(٢٨)

Butler, M., Arab Conquest of Egght, 139; Bury, J. B., Const of Later Roman Empire, 11, 261.

(٢٩) انظر تفصيل هذا في بحث للمستشرق كولدزيهر :

Goldziher., Die Religion des Islam- Die Religion des Orients, 111, 106.

(٣٠) د. اسعد رستم ــ الروم (١/٢٢٧) .

إن وقائع التاريخ ، تؤكد أن الاسلام قُدِّر له أن يصل الى العالمين كما ذكرت ، دعوة وحضارة ، وجيوشا ، فكيف يمكن أن تستل من هذا السياق المتابع من الأحداث واقعة السفارات النبوية والرسائل النبوية ، فتُكذَّب ؟!

واذا أكدت عالمية الاسلام نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ووقائع التاريخ ، فماذا يمكن أن نسمي إنكار عالمية الاسلام بعد كل هذا الوضوح في النصوص أولا ومن ثم وضع تلك النصوص في مجال التطبيق العملي دعوة وحضارة وفتوحا ؟!

إن عالمية الاسلام لايحتاج الى دليل ، لأنه واضح وضـوح الشمس ، وإنكار عالميته وصمة عار في جبين منكريه ، ووصمة عار في جبين من يصدقهم كائنـاً من يكون •

٢ ـ معنويات الرسالة :

أما الدعوى بأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان في حالة ضعـف سياسي وعسكري في أيام السفارات والرسائل النبوية ، وأنه في ضعفه السياسي والعسكري لايمكن أن يتطلع الى تحدي القوى العظمى من حوله وبخاصـة كسرى فارس وامبراطور الروم ، وهما أقوى قوتين عالميتين في حينه دون منازع ، فدعوى لايمكن التسليم بصوابها •

فلم تكن في السفارات النبوية أي تحد لسلطتي كسرى وقيصر في شيء ، وكل ما في الأمر هو عرض الاسلام عليهما ، ولهما حرية الاختيار في الاستجابة للدعوة أو رفضها •

ومع ذلك ، فان أصحاب الرسالات من الأنبياء والرسـل ، يتحلـون بمعنويات عالية ، تستسهل الصعب ، وتجتاز العقبات ، وليس في حسبانها الا تحقيق هدفها في نشر الدعوة • وقد استشهد قسم من الأنبياء والرسـل ، وعُذب قسم منهم ، وعوملوا معاملة قاسـية من قومهـم ، فما وهنـوا ولا

استكانوا، ولم يكن النبي عليه الصلاة والسلام بدعا من الأنبياء والرسل الذين سبقوه ولا أقل منهم جهادا واستبسالا في نشر الاسلام • إن الأنبياء والرسل يبلغون رسالة الله ويصدرون عن أمره تعالى ، ولا تهاون في رسالة الله تعالى وتبليغ أوامره مهما يتهددهم الخطر أو يتحملوا من صعاب ، فلا مجال في مقارنة معنويات الأنبياء والرسل بغيرهم من سائر الناس •

وبالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم بالذات ، فقد تعرض بعد بعثته لأخطار جسام قبل إيفاده سفراءه الى الملوك والأمراء ، ولعل السفارات النبوية من أقلها خطرا عليه وعلى الاسلام •

لقد كانت التقاليد السائدة في حينه ، أن السفراء لا يُقتلون ، ولم يُقتل للنبي صلى الله عليه وسلم غير سفير واحد ، أما سائر سفرائه فقد سلموا وعادوا الى المدينة بعد قيامهم بواجباتهم كاملة في سفاراتهم• فأين الخطر المحدق بحياة هؤلاء السفراء النبويين ، اذا قارنا ذلك الخطر المتوقع بالخطر الذي كان يتهدد الاسلام والمسلمين قبل نشوب القتال في غزوة بدر الكبرى مثلا التي كانت في السنة الثانية الهجرية ؟؟

لقد بلغ تعداد المسلمين الذين قاتلوا في بدر (٣٠٥) مجاهدا ، وكان تعداد المشركين (٩٥٠) مقاتلا •

وكان مع المسلمين فرسان فقط ، وكان مع المشركين مائتا فرس •

والنتيجة ، أن تفوق المشركين على المسلمين في العَدد والعُدد تفوق ساحق ، وبخاصة في المقاتلين ، اذ كان المسلمون ثلث المشركين ، وفي الخيل التي كانت تعتبر العُدة الضاربة في الحروب القديمة ، وسببا من الأسباب الحاسمة لانتصار المتفوق بها على خصمه ما كان تفوق المشركين على المسلمين في الخيل بنسبة واحد للمسلمين ومئة للمشركين ، أي أن تفوق المشركين في الخيل على المسلمين كان تفوقاً كاسحا •

وكان عليه الصلاة والسلام يدرك الأخطار المحدقة بالمسلمين والاسلام من جراء تفوق المشركين الساحق على المسلمين ، لذلك كان يردد في دعائه : «اللهم إن تُهلِك هذه العصابة لاتُعبد بعدها في الأرض»، ومع ذلك أقدم النبي صلى الله عليه وسلم على خوض هذه المعركة الحاسمة بشجاعة فائقة وإقدام نادر ، ثقة بالله تعالى وبنصره .

فأين أخطار قبول الزج بالمسلمين في معركة غير متكافئة لصالح المشركين على المسلمين كغزوة بدر الكبرى ، تلك الأخطار المصيرية التي قد تودي في حالة انتصار المشركين على المسلمين في تلك المعركة الحاسمة ، الى القضاء المبرم على الاسلام والمسلمين نهائيا وابادة المسلمين عن بكرة أبيهم ، أين أخطار تلك الغزوة المصيرية ، من أخطار ايفاد السفراء الى الملوك والأمراء ، والتي لاتزيد في أسوأ الأحوال والاحتمالات ، على قتل السفراء الذين لايزيد عددهم على عدد أصابع اليدين ، فلا يؤثر ذلك في مصير المسلمين ، في حاضرهم ومستقبلهم في شيء !

والذي يقبل أن يزج بالمسلمين في غزوة بدر في تلك الظروف القاسية والأخطار المحدقة ، ويُقدم على خوض معركتها مُقبلا غير مُدبر ، لايمكن أن يتأخر عن مهمة كالسفارات والرسائل النبوية ، لأن أخطار السفارات والرسائل النبوية لايمكن أن تُعد شيئا مذكورا بجانب أخطار الاقدام على غزوة بدر الكبرى ، مهما اختلفت الموازين والمقاييس المادية والمعنوية .

والذين تتبعوا بالدراسة والفهم حياة النبي صلى الله عليه وسلم منذ مبعثه حتى موعد ارسال السفراء النبويين الى الملوك والأمراء ، يلمس بوضوح أن الصعاب والعقبات التي تخطاها عليه الصلاة والسلام ، والأخطار والأهوال التي تقبلها صابرا محتسبا ، هي أكبر وأعظم من الأخطار المتوقعة من السفارات النبوية ، فالذي لم يكترث بكل تلك المعضلات الهائلة التي صادفته قبل ايفاد سفرائه ، لايمكن أن يُحجم في حال من الأحوال عن ايفاد سفرائه أو

يكترث بأخطار السفارات النبوية المحتملة •

ومع ذلك ، فقد كان في وقت ايفاد السفارات أقوى مما كان عليه قبل إيفادها ، وحياته العملية في ميداني السلام والجهاد خير دليل على ذلك •

ثم ان الدعوة الى الاسلام بطريق السفارات والرسائل النبوية ، هي من أعمال النبوات ومن صميم واجبهم ، وليست من قبيل التحدي العسكري أو السياسي ، فتخضع لمقاييسه الدنيوية • وقديما دعا موسى عليه السلام فرعون وهو في قمة تألهه ، كما واجه عيسى عليه السلام بني اسرائيل من يهود وواجه الرومان ، فما وجدنا من باحثي الغرب من استغرب ذلك عليهما •

ترى ! أكان موسى وعيسى عليهما السلام قويين حين واجها ما واجها من أخطار جسام !! •

كما أن الاسلام بعد صلح الحديبية ، أي بعد السنة السادسة الهجرية ، لم يعد ضعيفاً كما كان من قبل ، فالحديبية كانت بداية المد الاسلامي من المدينة المنورة الى داخل الجزيرة العربية وخارجها • واعقبت الحديبية عمرة القضاء ثم فتح مكة المكرمة ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام متثبتاً من موقفه متأكداً من نصر الله ، يتحلى بالمعنويات العالية التى لم تفارقه لحظة في حياته ، وقد بشره الله سبحانه وتعالى بالفتح القريب • ويظهر هذا التثبت واضحاً في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى هوذة بن على أمير اليمامة في شرقي الجزيرة العربية ، اذ يقول فيها : « واعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر»[٣١] ، أي الى أقصى حد تصل اليه الركائب ، ومثل هذا القول لايصدر عن ضعيف ، بل يصدر عن واثق بالله ثقة بغير حدود ، يتحلى بالمعنويات العالية التي يؤججها الدين الحنيف والعقيدة الراسخة والثقة بالله تعالى •

---

(٣١) القلقشندى (٦/٣٧٩) •

ولاصحة لادعاء ميور[٣٢] وأمثاله ، « بأن الدولة الرومانية الشرقية ، كانت تعانى من التمزق المذهبى بين الملكانيين واليعاقبة والنسطوريين » ، لذلك كانت الامبراطورية ضعيفة ، وأن القوى العظمى : الروم ، والفرس ، والحبشة ، لم تكن بالقوى المتخيلة لها في حينه ، اذ تتابعت الحروب بين الروم وفارس ، ومنيت فارس بهزيمة على يد هرقل في الأشهر التى سبقت عام الرسل النبويين[٣٣] !! فالواقع أن الاختلافات المذهبية كان لها أثر محدود على الروم ، ولذلك انتصروا على الفرس ، ولو كان لتلك الاختلافات أثرها الفاعل لما انتصر الروم على الفرس ، كما أن الفرس كانوا يحكمون من ملك يعتبر من أعاظم الأكاسرة ، وقد انتصر على الروم انتصارات عظيمة ، وهدد القسطنطينية بالسقوط في يديه ، كما أن الروم كانوا يحكمون من امبراطور يعتبر من أعظم أباطرتهم ، اذ قاد الامبراطورية الى النصر واستعاد البلاد التى استولت عليها فارس • والادعاء بضعف الدولتين العظميين في حينه : الروم ، وفارس ، وبضعف الحبشة ، هدفه سلب الاسلام أثره وتأثيره في العرب ، بحيث جعلهم يفتحون بلاد فارس كافة ويقضون على الامبراطورية الساسانية من جهة ، ويفتحون أهم البلاد التى كانت تحت حكم الامبراطورية البيزنطية : أرض الشام ، ومصر ، وليبيا ، وتونس • والا لو كانت الفرس والروم والاحباش ضعفاء ، فأين كان العرب قبل الاسلام ، ولماذا لم يفتحوا بلداً صغيراً أو كبيراً من بلادهم ، بل لماذا كان المناذرة في العراق ، والغساسنة في الشام ، وعرب اليمن ، يدينون للفرس والروم والاحباش ويخضعون لحكمهم وسيطرتهم ، اذا كان الروم والفرس والأحباش ضعفاء !!

انه انتصار الاسلام ، لا انتصار العرب حسب ، وهذا هو واقع التاريخ ،

---

(٣٢) وليام ميور ــ حياة محمد (٣٥٤) •

(٣٣) كنت من الذين صدقوا هذا الادعاء قبل ثلاثين سنة ، والآن ظهر لى خطأ هذا الرأى وبعده عن الواقع لذلك كتبت ماكتبت في رده وتصويبه .

والادعاء بضعف الروم والفرس والأحباش ضعفاً هيأ للعرب فتح بلادهم ، ليس ثناء على عبقرية العرب كما يظن ، بل غمط لأثر الاسلام في العرب وأثره في النصر .

انهم بهذا الادعاء لايحبون العرب ، ولكنهم يكرهون الاسلام ، وكان الثناء على العرب حرياً أن يسرني باعتباري عربياً أصيلا لامن قوارير ، ولكن العاطفة شيء ، وواقع التاريخ شيء آخر . وما مدح العرب من ذم الاسلام بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة .

لقد كان الروم والفرس أقوياء ، وكان الأحباش أقوياء أيضاً ، حين تسلموا الرسائل النبوية واستقبلوا سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، ومبادرة النبي عليه الصلاة والسلام بدعوتهم الى الاسلام وهم في أوج قوتهم دليل على صدق نبوته وعلى عالمية الاسلام ، وعلى تمتعه بالمعنويات العالية التى هى معنويات الأنبياء والرسل ، تلك المعنويات التى تبذل قصارى جهدها في تبليغ رسالة الله ، غير مكترثة بحسابات الزمان والمكان ، والقوة والضعف ، والنجاح والاخفاق ، فعليها التبليغ وحده ، والباقى على الله .

٣ ـ التوثيق التاريخى :

لعل من أغرب ما أورده المشككون في أمر السفارات والرسائل النبوية ، ما زعمه كيتانى من أن ابن هشام في سيرته النبوية ، لم يورد لابن اسحق مصدره الرئيس خبراً عن الرسائل النبوية ، واعتبر ذلك سكوتاً من ابن اسحق ، وبالتالى اضعافاً للخبر[٣٤] .

ولست أدري أية طبعة لابن هشام اعتمد عليها كيتانى ، لأن الطبعة التى بتحقيق السقا قد أوردت خبر السفارات النبوية والرسائل النبوية بروايتين :

---

(٣٤) كيتانى (١/٧٢٥) ، وانظر :

J. A. S., Jannary 1940, P. 59.

أحداهما لابن هشام بسنده عن أبى بكر الهذلي ، والثانية لابن اسحق بسنده عن أبى حبيب المصرى[٣٥] .

وما يقال عن السيرة النبوية بتحقيق السقا ، يقال عن السيرة النبوية بتحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد[٣٦] .

على أن خبر السفارات النبوية والرسائل النبوية ، قد استفاض كما ذكرت ذلك ، في كتب السيرة جميعاً ، بل وفي كتب الحديث كافة ، ومنها أمهات كتب الحديث التى تعلو كتب السيرة في مقام التوثيق كما هو معلوم .

كما أن السفارات والرسائل النبوية لها توثيقات من غير هذا الوجه ، لايستطيع كيتانى وأمثاله التشكيك فيها بحماسة واندفاع ، لأنها غير اسلامية !! .

من ذلك ، أن المراجع التاريخية غير العربية والاسلامية ، المختصة بتاريخ الجهات التى راسلها النبي صلى الله عليه وسلم ، قد أكدت هذه الأخبار . فخبر الكتابة الى هرقل يذكره جيبون في كتابه المعروف : (انهيار الدولة الرومانية وسقوطها) ، مستنداً في ذلك الى مصادر يونانية متعددة[٣٧] .

وخبر الكتابة الى المقوقس ، أورده أبو صالح الأرمنى في كتابه : (كنائس مصر وأديرتها) الذى كتبه في القرن السادس الهجرى[٣٨] .

ولا يجوز التقليل من أهمية الشهادة التى توردها هذه المراجع وأمثالها ،

---

(٣٥) ابن هشام ــ السيرة النبوية ــ تحقيق السقا (٢٥٤/٤ ــ ٢٥٥) .
(٣٦) السيرة النبوية ــ تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد (٤/ ٢٧٨ ــ ٢٧٩) .
(٣٧)
Gibbon., Decline and fall of the Roman Empire, Ch. 50.
وانظر بوجه خاص مصادره التي اعتمد عليها في ابراز الخبر .
(٣٨) أبو صالح الأرمنى ــ كنائس مصر واديرتها ــ تحقيق ايفات ــ ص (١٠٠)

ذلك لأنها تذكر مصادر لأخبارها غير المصادر العربية والاسلامية . ثم انها لايسكن أن تقر خبراً آتياً من مصدر عربي اسلامي لو وجدت ما يعارضه في مصادرها المحلية ، بل لو أنها لم تقتنع به اقتناعاً كاملا وكان متواتراً مشهوراً لاغبار عليه ، لما اثبتته في كتبها دون الشك أو التشكيك فيه ، وبخاصة هي غير اسلامية لاعلاقة لها بالحادث والحديث .

ومن التوثيقات أيضاً ، أن بعض التفصيلات التى تضمنتها أخبار السفارات والرسائل النبوية ، قد أكدها الواقع والعيان . مثال ذلك ما ورد من أن المقوقس أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاريتين هما مارية وسيرين أو (شيرين) ، فالمعروف بلا خلاف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج مارية وأنجب منها ابنه ابراهيم الذى توفى عام تبوك ، وأن سيرين قد تزوجها حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم فأولدها عبد الرحمن بن حسان ، فهو وابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنا خالة[٣٩] .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ورد في صحيح البخاري ، من أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على كسرى أن يمزقه الله تعالى كما مزق الرسالة النبوية ، وقد ثبت تاريخياً أن كسرى أبرويز (٥٩٠م ــ ٦٢٨م) الذى عناه النبي صلى الله عليه وسلم قد قتله ابنه شيرويه وتولى العرش مكان أبيه في نفس التاريخ الذى أوردته المصادر العربية والاسلامية[٤٠] ، ولم يرق مارجيلوث التوافق بين الواقع التاريخى وبين مدلول الدعاء النبوى وما ذكرته المصادر العربية الاسلامية حول هذا التوافق ، فعلل الأمر بأن عيون الرسول (عليه الصلاة والسلام) المبثوثة في كل مكان ، قد نقلت اليه الخبر[٤١] . وكل من له

---

(٣٩) أسد الغابة (٦/٢) .

(٤٠) الطبرى (٢١٥/٢ ــ ٢٢٩) ، وانظر ايران في عهد الساسانيين (٤٢٧ ــ ٤٧٧) وتاريخ سنى ملوك الارض والانبياء (٥٣ ــ ٥٤) .

(٤١) مارجليوث ــ محمد (٣٦٨) ، انظر :
Growne, Literary History of Persia, V. I, P. 183.

عقل ، يعرف أن ذلك لايمكن أن يحدث في العصور الغابرة قبل خمسة عشر قرناً ، وحتى في العصر الراهن ، بعد تطور الوسائط السلكية واللاسلكية ، وانتشار أجهزة المخابرات ، لايمكن أن يكون لاية دولة من الدول عيون مبثوثة في كل مكان !! .

والعجيب أن كيتانى قد قال في ابن اسحق مالم يقله مالك في الخمر ، واتهمه بالكذب والتزوير خلافاً للواقع ، فهو ثقة لاغبار على ثقته وصدقه ، ولكن كيتانى يحتج بابن اسحق حين يريد أن يبث سموم الشك والتشكيك في صحة السفارات النبوية والرسائل النبوية ، فكيف نوفق بين التشكيك في صدق ابن اسحق كما زعم كيتانى وأضرابه كذباً — والاحتجاج بابن اسحق في نفس الوقت ؟! .

ومع ذلك ، فقد كذب كيتانى بادعائه بأن ابن اسحق لـم يذكر قصة الرسائل النبوية ، فقد ذكرها ابن اسحق ، وهذه هى السيرة النبوية لابـن هشام ، في مختلف طبعاتها ، تسجل كذب كيتانى وأضرابه الصريح .

ويبقى هذا السؤال : لـماذا يقـدم هؤلاء على تحمل أوزار مثل هذا الكذب الصريح ! أيمكن أن نطلق على الكذب المكشوف غير هذه الصفة المخجلة التى يجب أن يترفع عنها العلماء ؟ ثم أيمكن أن نلبس مثل هذا الكذب ثوب الدراسات الموضوعية والبحوث العلمية والمنهجية في التأليف ؟ .

ولانستكثر على كيتانى وأمثاله مثل هذا الكذب المكشوف ، فكل دراساتهم مشحونة بالأكاذيب المبطنة أو المكشوفـة ، ولكننا نستكثر على المبهورين بهم من الدارسين العرب والمسلمين أن يبقوا مبهورين بهم بالرغم من انكشاف أمرهم ، ويعتبروا مؤلفاتهم مراجع معتمدة لهم ، وفيها ما فيها من تشكيك وتضليل وضلال وكذب وافتراء .

٤ ـ التفاصيل الأسطورية :

أما رفض أخبار السفارات والرسائل النبوية جملة وتفصيلا ، لاشتمالها على تفاصيل لايثبت بعضها للتمحيص التاريخي ، فغريب جداً ، لأن المفروض أن يبقى أصل الخبر ثابتاً ومسلماً به مادامت الأدلة قد قامت على صحته ، ثم يجتهد الباحث في تمحيص التفاصيل . وهذا المنهج في التحقيق هو الذى يتبعه علماء المسلمين في دراسة أخبار السيرة النبوية وغيرها ، اذ من المعلوم أن في السيرة النبوية أخباراً أساسية قد ثبتت اما بالكتاب ، واما بالسنة ، واما بالدليل التاريخى الواضح . فهذه هى أصول السيرة النبوية وأخبارها المعتمدة ، وفيها بعد ذلك أخبار وتفاصيل يجتهد الباحث في دراستها ، فيوثق أو يرجح أو يتحفظ وفقاً للأدلة المنطقية دون تحيز أو انحياز .

ومن الأمثلة التى أثيرت في هذا الصدد ، مسألة السفراء الذين أوفدهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف أنهم أصبحوا بعد ليلة التكليف بالسفارة وقد عرفوا لغات من أرسلوا اليهم عن غير سبق تعلم . يقول المشككون : ان هذا الخبر ورد هكذا في طبقات ابن سعد الذى يصرح بأن ماحدث كان معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما أن هذا الخبر ورد عند غير ابن سعد أيضاً ، وهم يستبعدون الخبر ويعتبرونه من صنع الرواة مضاهاة لخبر مشابه على السيد المسيح عليه السلام ، وقد أرسل حواريين لنشر تعاليمه ، فأصبحوا أيضاً وقد تعلموا لغة من أرسلوا اليهم[٤٢] .

وقد علق الأستاذ الشيخ الندوي على ذلك فقال مانصه : « يشير ابن سعد في الطبقات والسيوطى في الخصائص الكبرى ، الى أن ذلك كان على سبيل المعجزة ، فجاء فيما ساقاه من الرواية : .... فأصبح كل واحد يتكلم بلغة البلاد التى أرسل اليها .... »

---

(٤٢) دبلوماسية محمد (٥٨) .

« والمؤلف حين لا يستبعد وقوع المعجزة ، فسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة الأنبياء قبله مليئة بالمعجزات وخوارق العادات ، وانكارها من المكابرة يرجّح أن ذلك كان مبنياً على الحكمة وحسن الاختيار من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن وجود من يحسن اللغة الرومية ، واللغة الفارسية ، ولغة الأقباط في مصر ولغة أهل الحبشة ، غريباً : لكثرة اختلاط العرب بهذه الأمم الأربع ، وكثرة رحلاتهم التجارية الى هذه الأقطار وتنقلاتهم فيها ، وكانت القضية محدودة بهذه اللغات الأربع ، اذ كانت لغة أمراء الجزيرة العربية ورؤساء القبائل الذين كتب اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه ، ودعاهم . الى الاسلام ، اللغة العربية[٤٣] .

ولكن هذا الخبر ، في سيرة ابن هشام ، معزو الى حواريي المسيح عليه السلام وليس الى سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، اذ يقول ابن هشام : « .... فقال أصحاب الرسول : وكيف اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم ؟ قال : دعاهم الى الذى دعوتكم اليه ، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم ، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل ، فشكا ذلك عيسى الى الله ، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التى بعث لها »[٤٤] . فالذين أصبحوا يتكلمون لغات من أرسلوا اليهم ، وفقاً لهذا النص ، هم الحواريون بلا لبس . فاذا قبلنا رواية ابن هشام هذه ، وحملنا ماعداها من الروايات عليها ، انتهت المسألة ، ولم تقم شبهة التقليد[٤٥] ، لأن ابن هشام توفى سنة (٢١٥هـ) وابن سعد توفى سنة (٢٣٠هـ) وابن هشام متقدم على ابن سعد في التأليف .

---

(٤٣) السيرة النبوية (٣٢٣ ـ ٣٢٤) .
(٤٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢٥٤/٤ ـ ٢٥٥) .
(٤٥) المؤرخ العربى (٢٥١ ـ ٢٥٢) ـ العدد (٢٣) ـ ١٩٨٣ .

وقضية (التقليد) التي لايكاد قسم من المستشرقين يجدون تشابهاً بين الاسلام والمسيحية ، أو يسمعون قولا قاله النبي صلى الله عليه وسلم يشابه قول السيد المسيح عليه السلام ، أو يجدون عملا عمله النبي صلى الله عليه وسلم يوافق ما عمله السيد المسيح عليه السلام ، إلا اتهموا الاسلام بالتقليد وأنه مقتبس من النصرانية • ونسوا أن مصدر الدينين السماويين هو الله تعالى ، فأبقى من تعاليم المسيحية ماأبقى ونسخ مانسخ بحكم التطور الزمني ، وليبقى الاسلام صالحا لكل زمان ومكان ، وليكون النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين • وما يقال عن وجود بعض التشابه بين تعاليم الاسلام وتعاليم المسيحية ، يقال عن وجود بعض التشابه بين الأديان السماوية الاخرى ، لأن مصدرها واحد ، والتغيير بين السلف والخلف تغيير بحكم التطور الزمني ، فليس هناك تقليد كما يظن قسم من المستشرقين عن حسن نية أو عن سوء نية ، فالله أعلم بالسرائر • ومن الأمور الدينية التي لاتتطور ، وبقيت على ماكانت عليه منذ آدم عليه السلام أول الأنبياء ، الى النبي صلى الله عليه وسلم هي عقيدة التوحيد ، فهذه الحقيقة الأزلية باقية خالدة ، فما قلد الانبياء بعضهم بعضا في هذه العقيدة الخالدة والحقيقة الأزلية الباقية ، بل هي من عند الله يوحي بها الى أنبيائه ورسله بالتعاقب ، فلا يُقال : إن اعتناق عقيدة التوحيد تقليد • ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم قلد السيد المسيح حقا ، لما ذكر السيد المسيح عليه السلام وأخفى أمر تقليده ، ولكنه جاهر بها ، لأنها ليست من عنده بل من عند الله سبحانه وتعالى ، فالمصدر واحد ، والوحي واحد ، وليس هناك مقلَّد و مقلِّد بين الأنبياء ، وليس هناك تقليد ، كما يصر عليه قسم من المستشرقين خطأ لامسوغ له •

وفي حادثة السفارات النبوية بالذات ، التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان ما يشابهها في سفارات السيد المسيح ، اجتهد بعض المؤلفين المسلمين فجعلوا منها معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم كما كانت معجزة للسيد المسيح عليه السلام في حينه ، بينما اعتبرها بعض المؤلفين المسلمين

للعبرة حسب وليس فيها معجزة ، لأن قسما من حواريي السيد المسيح عليه السلام تثاقلوا وخالفوا ، ولم يكن بين سفراء النبي صلى الله عليه وسلم تثاقل ولا خلاف ، فليس في الأمر معجزة لايقاف المتثاقلين والمخالفين عند حدودهم ، وحثهم على التنفيذ ، فالأمر كله اجتهاد من المؤلفين وحدهم ، ولست مع الذين اعتبروا في الأمر معجزة ، مع اعترافي الصادق وايماني العميق بمعجزات الأنبياء ، لأن سياق الخبر لايدل على وجود معجزة من المعجزات ، كما لامسوغ للمعجزة في حالة السفراء النبويين ، لأنه لم يتثاقل منهم أحد ولم يخالف ، ولكن اذا اعتبرنا في الأمر معجزة ، فلماذا يُقر هذه المعجزة أولئك المستشرقون المشككون للسيد المسيح عليه السلام ، ولا يُقرونها للنبي صلى الله عليه وسلم !!

هكذا بكل بساطة ، يصح لدى قسم من المستشرقين ، أن يكون هناك شتاء وصيف ، في زمن واحد ، ومكان واحد ، وهم مستعدون على إثبات وجود النقيضين ، بأساليبهم في البحث العلمي المزعومة ، وبمناهجهم في الدراسات التاريخية المفتعلة ، مادام ذلك يؤمن لهم تفريغ حقدهم الدفين على الاسلام والمسلمين ، ويزرع الشك والتشكيك في عقول الدارسين والباحثين.

وعلى فرض توجيه هذا الخبر الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم عن عيسى عليه السلام ، الى سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، فان معظم من راسلهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا عربا من الجزيرة العربية ، فان المسألة تبقى محصورة في أربعة سفراء : الى كسرى ، وهرقل ، والمقوقس ، والنجاشي، وقد استدعى هرقل الترجمان ، كما استدعى المقوقس كاتبا يعرف العربية لكتابة الرد ، فلا يستبعد أن يكون قد قام بالترجمة أيضا .

أما عبد الله بن حذافة السهمي ، فقد وجه أولا الى المنذر بن ساوى حاكم البحرين لييسّر له قدومه على كسرى ، فلا يستبعد أن يكون المنذر

قد زوده بمن يترجم له ، والا فهل في معرفة أحد العرب بلغة فارس المتاخمة للبلاد العربية ما يدعو الى العجب !

أما الضمري الذي اختير سفيرا للحبشة ، فقد كثرت أسفاره الى أرض الحبشة ، فلا يستبعد أن يكون على إلمام بالحبشية .

وقد كان للفرس والروم والاقباط والأحباش ، علاقات مباشرة بالعرب ، لايستطيع أن ينكرها أحد : علاقات اقتصادية في التجارة بخاصة ، وعلاقات سياسية في تحالف الغساسنة مع الروم ، والمناذرة مع الفرس ، وعرب اليمن مع الأحباش ، فليس من المعقول ألا يكون مع كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس من يترجم لهم من العربية الى لغاتهم ، فلا مشكلة من ناحية التفاهم المطلق بين سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الملوك من غير العرب .

وسواء أصحّت رواية ابن هشام التي تصرف الخبر عن سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ، أم جرى اختيار السفراء النبويين عن حسن تدبير، فوُجّه الى كل جهة السفير الذي يعرف لغتها ، أم أن القصة تنطوي على معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم تشبه معجزة السيد المسيح عليه السلام ، فان الموضوع برمته من أمور التفصيلات ، التي إن صحت وان لم تصح ، فلا تأثير لها في صحة أصل خبر السفارة ، اذ يبقى الخبر صحيحا في الحالتين ، فالأصل باق حتى في حالة الاختلاف في التفاصيل[٤٦] .

وما يقال عن قصة اللغات ، يقال عن سائر التفصيلات .

٥ ـ اختلاف التوقيت :

والحجة الأخيرة التي أطلقها المستشرق (فيل Weil) ولكن عمّقها من تابعه من باحثي الغرب [٤٧] .

---

(٤٦) المؤرخ العربي ـ العدد (٢٣) لسنة ١٩٨٣ ـ (٢٥٠ ـ ٢٥٢) .
(٤٧) انظر وليام ميور ـ حياة محمد ـ (ص ٣٥٧ الهامش) ، ودبلوماسية محمد (١١) .

وخلاصتها ، أن ايفاد السفراء النبويين قد وقع في نهاية السنة السادسة الهجرية ، أو أوائل السنة السابعة الهجرية . ومع ذلك ، فان ثلاثا من الرسائل النبوية ، وهي رسائله صلى الله عليه وسلم الى هرقل والمقوقس والنجاشي ، قد تضمنت آية كريمة ، يقال إنها نزلت في السنة التاسعة الهجرية في وفد نصارى نجران ، وبها يحصل التناقض الذي يدعو الى الشك .

والآية الكريمة التي يشير اليها أصحاب هذا الرأي ، هي الآية (٦٤) من سورة آل عمران ، وهي قوله تعالى : (قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سَواءٍ بيننا وبينكم ألا نَعبُد إلا الله ولا نُشرِكَ به شيئاً ولا يتّخِذ بَعضُنا بعضاً أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[٤٨] .

والمصدر الذي يعتمدونه لبيان نزول الآية الكريمة في وفد نجران في السنة التاسعة الهجرية ، هو تفسير الطبري (ت ٣١٠هـ) وتفسير ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، ويستبعد المشككون القول بتعدد النزول .

أما أن ايفاد السفراء النبويين الى الملوك والأمراء قد حدث في السنة السادسة الهجرية ، فقول وارد ، وبه قال ابن سعد والواقدي ، وحددا لذلك شهر ذي الحجة من تلك السنة ، وان كان لقسم من المؤرخين اجتهادات أخرى في تقدير الزمن ، اذ لايستبعد ابن كثير التوقيت الذي ذكره ابن سعد والواقدي ويعتبره محتملا ، ولكنه يوسع المدة فيقول : «إن بدء ذلك كان قبل فتح مكة وبعد الحديبية» ، وابن اسحق يعتبر التوقيت : «فيما بعد الحديبية ووفاة الرسول» ، وفي دراسة للشيخ محمد أبو زهرة رجح المدة بين عُمرة القضاء في السنة السابعة الهجرية وغزوة مؤتة في السنة الثامنة الهجرية[٤٩] . والذي يتلخص لنا من ذلك أن الايفاد قد استغرق زمنا ، وأنه بعد الحديبية على أي

---

(٤٨) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ٦٤) .
(٤٩) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨) والسيرة لابن كثير (٣/٢٩٤) ، وخاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة (٢/١١٥٥) .

حال ، مما يجعل السنة السادسة الهجرية واردة في معرض هذا البحث ، ولو باعتبارها لبدء السفارات النبوية ، وفيها حُررت الرسائل النبوية أو بعضها.

وأما أن آية آل عمران التي وردت في الرسائل النبوية قد نزلت في وفد نصارى نجران في السنة التاسعة الهجرية ، فقول غير مُسَلَّم به ، لأن الطبري الذي اعتمد عليه أصحاب هذا الرأي قد ذكر ثلاثة أقوال في سبب النزول :

أولها :أنها نزلت في يهود .

وثانيها : أنها نزلت في نصارى نجران .

والثالث : وهو الراجح لديه ، أنها نزلت في يهود والنصارى جميعا .

قال أبو جعفر الطبري : «يعني بذلك جل ثناؤه ، قل يا محمد لأهل الكتاب ، وهم أهل التوراة وأهل الانجيل...» ، وقال بعضهم : « نزلت في يهود بني اسرائيل الذين كانوا حوالي المدينة» ، وذكر قتادة : «أن نبي الله صلى الله عليه وسلم دعا يهود أهل المدينة الى الكلمة السواء»[٥٠]. وقال : «بل نزلت في الوفد من نصارى نجران»[٥١] ، وهو رأي من بين آرائه الثلاثة، لم يرجحه على الرأيين الآخرين ، ولم يركّز عليه تركيزه على الرأيين الآخرين.

أما ابن كثير في تفسيره[٥٢] ، فيؤكد ، أن الخطاب : (قل يا أهل الكتاب) يعم أهل الكتاب من يهود ونصارى ومن جرى مجراهم[٥٣] ، وسأنقل نص ماقاله ابن كثير لفائدته : «هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ، (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة) ، والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا ، ثم وصفها بقوله : (سواء بيننا وبينكم) ،

---

(٥٠) تفسير الطبرى (١٩٣/٣ – ١٩٥) – القاهرة – بلا تاريخ ، وتفسير الطبرى بتحقيق شاكر (٤٨٣/٦ – ٤٨٥) .
(٥١) تفسير الطبرى (١٩٤/٣) ، وتفسير الطبرى بتحقيق شاكر (٤٨٤/٦)
(٥٢) ابن كثير – تفسير ابن كثير – مطبعة المنار بمصر – ١٣٤٣هـ .
(٥٣) تفسير ابن كثير (١٥٩/٢) .

أى عدل ونصف نستوى نحن وأنتم فيها ، ثم فسرها بقوله : (أن لا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا) ، لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً ، بل نفرد العبادة لله وحده لاشريك له ، وهذه دعوة جميع الرسل ، قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون)[٥٤] ، وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[٥٥] ، ثم قال تعالى : (ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) . وقال ابن جريج : يعنى بطيع بعضنا بعضاً في معصية الله . وقال عكرمة : يسجد بعضنا لبعض ، (فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) ، أى فان تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة فاشهدوا أنتم على استمراركم على الاسلام الذى شرعه الله لكم . وقد ذكرنا في شرح البخاري عند روايته عن طريق الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس عن أبى سفيان في قصته حين دخل على هرقل ، فسأله عن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن صفته ونعته وما يدعو اليه ، فأخبره بجميع ذلك على الجلية ، مع أن أبا سفيان اذ ذاك كان مشركاً لم يسلم الا بعد ، وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح كما هو مصرح به في الحديث ، ولانه لما سأله : هل يغدر ؟ قال : فقلت لا ، ونحن منه في مدة لاندرى ما هو صانع فيها ، قال : ولم يمكنى كلمة أزيد فيها شيئاً سوى هذه . والغرض انه قال : ثم جيء بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأه فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من : محمد رسول الله .

إلى : هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله

---

(٥٤) الآية الكريمة من سورة الأنبياء (٢١ : ٢٥) .

(٥٥) الآية الكريمة من سورة النحل : (١٦ : ٣٦) .

أجرك مرتين ، فان توليت فانما عليك إثم الأريسيين ، و (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لانعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

« وقد ذكر محمد بن اسحق وغير واحد ، أن صدر سورة آل‌عمران الى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران . وقال الزهرى : هم أول من بذل الجزية ، ولاخلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح ، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح الى هرقل في جملة الكتاب ، وبين ماذكره محمد بن إسحق والزهرى ؟ والجواب من وجوه : (أحدها) يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين ، مرة قبل الحديبية ، ومرة بعد الفتح . (الثانى) يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران الى هذه الآية ، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك ، ويكون قول ابن إسحق الى بضع وثمانين آية ليس بمحفوظ ، لدلالة حديث أبى سفيان . (الثالث) يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية ، وأن الذين بذلوه مصالحة عن المباهلة لاعلى وجه الجزية ، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة ، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك ، كما جاء فرض الخمس والأربعة أخماس وفق مافعله عبدالله بن جحش في تلك السرية قبل بدر ، ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك . (الرابع) يحتمل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمر بكتابة هذا في كتابه الى هرقل لم يكن نزل بعد ، ثم أنزل القرآن موافقة له صلى الله عليه وسلم كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب في الحجاب ، وفي الأسارى ، وفي عدم الصلاة على المنافقين ، وفي قوله : (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى)[56]، وفي قوله : (عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن)[57]الآية»[58] ،

---

(٥٦) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ١٢٥) .
(٥٧) الآية الكريمة من سورة التحريم (٦٦ : ٥) .
(٥٨) تفسير ابن كثير (٢/١٥٩ ـ ١٦١) .

وعلى ذلك فان ابن كثير يرى أن الآيات التى نزلت في وفد نجران من سورة آلعمران انتهت بالآية (٦٣) ، أى السابقة للآية المدروسة وهى الآية (٦٤) من سورة آل عمران • كما يرى احتمال نزول هذه الآية (٦٤) مرتين : مرة قبل الحديبية ، ومرة بعد الفتح •

والاحتمالات الأخرى التى ذكرها ابن كثير حول هذه الآية الكريمة واضحة •

وقد ذكر الامام البغوى (ت٥١٦هـ) في تفسيره ، نص كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل ، وذكر الآيـــة الكريمة في صلب الكتاب النبوى أيضا[٥٩] •

وفي تفسير : (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) ، للزمخشرى (ت٥٣٨هـ) ، ذكر في تفسير : (ياأهل الكتاب) ، قيل هم أهل الكتابين ، وقيل وفد نجران ، وقيل يهود المدينة[٦٠] ، فاذا قصد بهاأهل الكتابين أو يهود المدينة ، فمن المرجح نزول الآية قبل الحديبية ، لأن يهود المدينة بخاصة كانوا على خلاف مع المسلمين ومع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تعاونوا مـــع مشركى قريش على المسلمين ، وحشدوا الأحزاب في غزوة الخندق ، وكانوا مع الأحزاب على المسلمين في أيام حصار المدينة ، وكان للنبي صلى الله عليه وسلم على يهود حروب معروفة ، فمن المعقول نزول آية تعرض عليهم شروطاً تقر السلام وتضع نهاية للحـــرب والشغب ، ولم يتطرق الزمخشرى في تفسيره الى رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل •

---

(٥٩) البغوى ــ تفسير البغوى (١٥٩/٢ ــ ١٦١) ــ مطبوع في أسفل صفحات تفسير ابن كثير ــ مطبعة المنار بمصر ــ ١٣٤٣هـ .

(٦٠) الزمخشرى ــ تفسير الكشاف (٣٠٨/١) ــ مطبعة بولاق بالقاهرة ــ ١٣١٨هـ ــ ط٢ .

وذكر القرطبى (ت٦٧١هـ) في تفسيره : (الجامع لأحكام القرآن) في تفسير : (قل ياأهل الكتاب) ، « الخطاب في قول الحسن وابن زيد والسدى لأهل نجران • وفي قول قتادة وابن جريج وغيرهما ليهود المدينة ، خوطبوا بذلك لأنهم جعلوا أحبارهم في الطاعة لهم كالأرباب • وقيل : هو لليهود والنصارى جميعاً » ، ثم ذكر نص الكتاب النبوى الى هرقل ، وذكر الآية الكريمة في نص الكتاب النبوى[٦١] ، دون أن يثير شكاً أو شبهة حول توقيت تلك الآية الكريمة •

إنّ القول بأن تلك الآية الكريمة قد نزلت في السنة التاسعة الهجرية قول ضعيف ، وحتى الذين ذكروه لم يرجحوه • والراجح أنها قد نزلت قبل ذلك ، مما ينفى التناقض المزعوم في توقيت السفارات • والمقرر عند علماء التفسير ، أنه اذا كان النازل واحداً والأسباب متعددة ، أخذ بأرجح الأسباب ، لابأضعفها ، كما فعل أصحاب هذه الشبهة •

وأما استبعاد أصحاب الشبهة القول بتعدد نزول هذه الآية مرة قبل السنة التاسعة الهجرية ، ومرة في السنة التاسعة الهجرية ، وهو ما قال به بعض العلماء ، ووصف أصحاب الشبهة تعدد النزول بأنه من تخيلات علماء المسلمين ، فيدل على عدم تفهمهم الكامل لمعنى : (تعدد النزول) • ويكفى في هذا الموضع أن نقتبس قول الزركشى في كتابه : (البرهان) : « وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه وتذكيراً عند حدوث سببه ، خوف نسيانه»[٦٢] ، أي أن الآية الكريمة تنزل في مناسبتها الأولى ، ثم تجدّ مناسبة ثانية فتنزل ، بمعنى اعادة تطبيقها على الظرف الجديد ، للحكمة التى ذكرها

---

(٦١) القرطبى ـ الجامع لأحكام القرآن (١٠٥/٤ ـ ١٠٦) ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٣٦م •

(٦٢) الزركشى ـ البرهان (٢٩/١) ، والزرقانى ـ مناهل العرفان (١/ ١٠٩) وما بعدها •

لزركشي وذكرها غيره من علماء المسلمين[٦٣] .

ولا أتهم المستشرقين المشككين بأنهم يحبون ان يصطادوا بالماء العكر ، ولكن ذلك هو الحق الذى لاريب فيه ، والذى يقرره المستشرقون المنصفون أيضاً ، فما دام الأمر يعينهم على التشكيك ، فهو يضخمون الأمر ويقوون الضعيف ويوهنون القوى ، وما عملهم هذا بعلم ولا ببحث علمى ، بل هو تضليل مفضوح وضلال مبين .

وإذا كان هذا الواقع معروفاً في نطاق ضيق من الباحثين العرب والمسلمين في النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجرى ، فقد اتسع هذا النطاق في بداية القرن الخامس عشر الهجرى ، ولم يقتصر على الباحثين العرب والمسلمين حسب ، بل شمل كثيراً من المستشرقين المنصفين ، وأول الغيث قطر ثم ينهمر .



---

(٦٣) المؤرخ العربى ـ العدد (٢٣) سنة ١٩٨٣ ـ (٢٥٤ ـ ٢٥٥) .

الرسائل النبوية المكتشفة

ودراستها

(أ . الرســـائل المكتشفة)

أ ـ الرسالة النبوية الى المقوقس :

لم تذكر المصادر القديمة شيئا عما آلت اليه أصول الرسائل التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك والأمراء في أيامه ، باعتبار أنها استقرت لدى الجهات التي أرسلت اليها ، الا ما كان من إشارة السُهيلي من علمــاء القرن السادس الهجري ، الى انتقال رسالة هرقل الى بعض ملوك أسبانيا[1]، وتابع هذه الأشارة فيما بعد ، عالم مغربي معــاصر ، هو الشــيخ عبدالحي الكتــاني[2] .

إلا أنه منذ سنة (١٢٦٧هـ = ١٨٥٠م) ، بدأت بعض الرسائل النبويــة الموجهة الى الملوك والأمراء في الظهور ، فاكتشفت منها حتى الآن خمسة رقوق لرسائل نبوية ، دارت حولها دراسات لبيان مدى صحتها .

ففي ســنة (١٢٦٧هـ = ١٨٥٠م) كان المستشرق الفرنسي بــارتليمي Barthelemy يفحص بعض الكتب والأناجيل الموجودة في أحد الأديرة بناحية إخميم في صعيد مصر ، فعثر على رق جلدي قديم ، اتضح بالدراســة

(١) السهيلى ـ الروض الانف (١٩٧/٣) .
(٢) عبد الحى الكتانى ـ التراتيب الادارية ـ (١٤٦/١) .

أنه رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط في مصر ، وأسهم بلـين (Belin) في تحقيق الرسالة ومقارنة نصها ، بما ورد في الأصول، ثم أعلن بعد ذلك عن الثقة في أصالـة المخطوط ، ونشرت عن ذلك دراسـة في المجلة الآسيوية سنة (١٢٧١هـ = ١٨٥٤م)[٣] ، ثم في مجلة الهلال المصرية الصادرة سنة ١٩٠٤م[٤] ، ومجلة الاسلام (إسلاميك ريفيو Islamic Review التي تصدر في قصبة (ووكنك بانكلترا) ، والصادرة في كانون الثاني وشباط (يناير وفبراير) من سنة ١٩١٧م • كما نشر المرحوم الدكتور محمد حميدالله الحيدر آبادي بحثا مفصلا عن صحة أصل هذه الرسالة النبوية في (مجـلة عثمانية) الصادرة في حيدرآباد الدكن في شهر تموز (يونيو) من سنة ١٩٣٦م، وللرسالة النبوية الى المقوقس صورة طبق الأصل منشورة برفقة تلك المجلات المذكورة •

وقد اهتم الخليفـة العثماني السلطان عبدالمجيـد في الأمر ، فاقتنى مخطوط تلك الرسالة النبوية وأمر بحفظ المخطوط في صندوق ذهبي معروض حتى اليوم في الغرفة التي تضم ما نُسب الى النبي صلى الله عليه وسلم مـن آثار في متحف قصر باب المِدفع (سراي طوب قابو) باستنبول (القسطنطينية)•

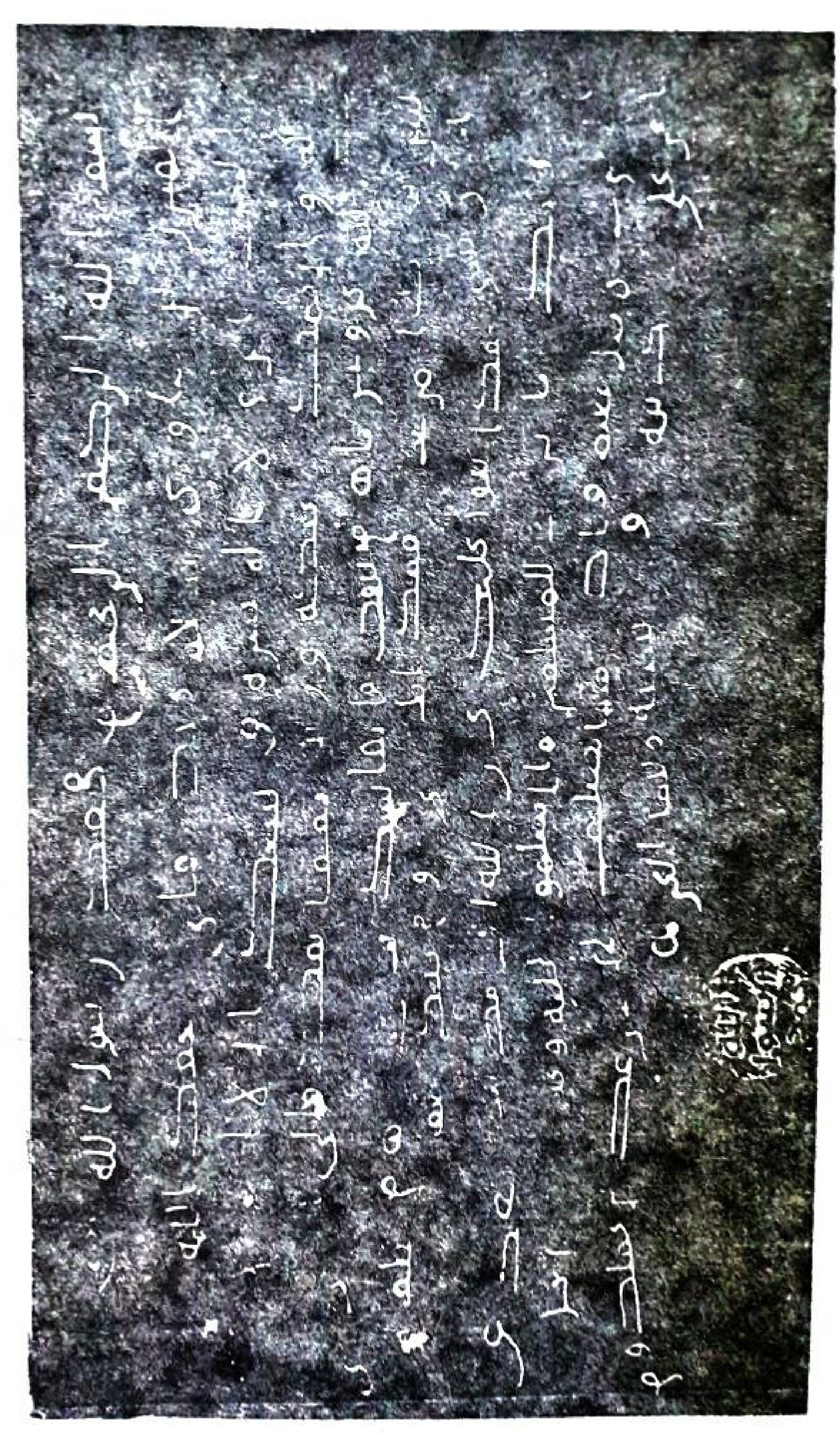
والرسالة تبدو داكنة ورقيقة ، وقد أصابها تشقق في وسطها ، ولكنهـا ما زالت مقروءة •

وقد أثار اكتشاف هذه الرسالة النبوية ردود فعل قوية بين المستشرقين، فمنهم من وثقها مثل نولدكه ، ومنهم من رفضها ورفض قصة الرسائل النبوية مثل كيتاني ، كما ذكرنا ذلك في هذه الدراسة •

---

(٣) جورنال آسياتيك Journal Asiatique ــ باريس ــ ١٨٥٤م ــ ص (٤٨٢ ــ ٤٩٨) •

(٤) كتبها جرجي زيدان ، الصادرة في تشرين اول وتشرين ثاني وكانون اول (اكتوبر ونوفمبر وديسمبر) •



الرسالة النبويــة الى المقوقس

وأهم الدراسات التي صدرت في هذا الموضوع ، عن عالم مسلم ، هي دراسة المرحوم الدكتور محمد حميدالله سنة ١٩٥٥م في مجلة (Arabica) .

ب ـ الرسالة النبوية الى المنذر بن ساوى :

وفي سنة (١٢٨٠هـ = ١٨٦٣م) نشر الدكتور بوش (Busch) الألماني مقالا في مجلة المستشرقين الألمان ، أعلن فيه العثور على مخطوط جلدي يحتمل أن يكون أصل الرسالة النبوية الى المنذر بن ساوى أمير البحرين ، وقد حمل هذا المخطوط الى وزير المعارف العثماني كمال أفندي ، ولكن قيل : إن درجة توثيقه لم تبلغ مبلغ سابقه .

وقد نشر صورة هذه الرسالة النبوية المستشرق الألماني فلايشر[٥] ، وكتب المرحوم الدكتور محمد حميدالله عن صحة هذه الرسالة النبوية مقالا في المجلة العثمانية الهندية الصادرة في شهر حزيران (يونيو) من سنة ١٩٣٦م ، وفي مجلة : (إسلاميك كلچر Islamic Culture الصادرة في حيدرآباد الهندية خلال شهر تشرين أول (أكتوبر) من سنة ١٩٣٩م[٦] .

ولا نعرف الآن مكان هذا المخطوط ، ولكن يُظن أنه لدى آل القوتلي أو آل المرادي في دمشق[٧] . وقد أمر سمو أمير البحرين الحالي بنقش صورة هذه الرسالة النبوية على قطعة من الرخام ثُبّتت في مطار البحرين الدولي .

والملاحظ أن خط هذه الرسالة النبوية يشبه الى حد كبير خط الرسالة النبوية المحفوظة في استنبول (القسطنطينية) في متحف قصر باب المدفع (سراي طوب قابو) ، فلو ثبتت أصالة هذه الرسالة النبوية ، فهي وسابقتها بلا شك مكتوبتان بيد واحدة ، والا فان كاتب رسالة المنذر بن ساوى قد احتذى

---

(٥) مجموعة الوثائق السياسية (يب ـ المقدمة) .
(٦) مجموعة الوثائق السياسية (بج ـ المقدمة) و (٨٠) .
(٧) الكتاني ـ التراتيب الادارية (١/١٦٦) .

بمهارة صفات الخط في رسالة المقوقس[8] .

ج ـ الرسالة النبوية الى النجاشي :

وفي سنة (١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م) نشر المستشرق البريطاني دانلوب (Dnnlop) مقالا في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، أعلن فيه أنه تحصّل على رق جلدي يملكه تاجر سوري ، يظن أنه رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى النجاشي ملك الحبشة ، وذكر أن المالك السوري تحصل على المخطوط من قسيس أثيوبي جاء الى دمشق أيام الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م ـ ١٩٤٥م) .

وقد نشر دانلوب صورة المخطوط وأوصافه ، ولكنه أكد شكّه في صحته ، بعد أن استشار عددا من خبراء المتحف البريطاني والمستشرقين وغيرهم . وإن كان قد نقل ايضا رأي المرحوم محمد حميدالله في احتمال كون المخطوط صورة من أصل قديم .

وقد أعاد دانلوب المخطوط الى مالكه ، ولا علم لنا الآن بمكانه وبالذي يملكه[9] .

د ـ الرسالة النبوية الى كسرى :

وفي شهر أيار (مايو) من سنة (١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م) نشر الدكتور صلاح الدين المنجّد مقالا في جريدة الحياة البيروتية ، أعلن فيه الكشف عن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى كسرى ملك فارس ، وذكر أن الأصل الجلدي لهذه الرسالة النبوية محفوظ لدى هنري فرعون أحد الوزراء اللبنانيين السابقين المعروف بهوايته لجمع الآثار والتحف .

---

(٨) المؤرخ العربى ـ العدد الثالث والعشرون لسنة ١٩٨٣ ـ (٢٥٦) .

(٩) المؤرخ العربى ـ العدد الثالث والعشرون لسنة ١٩٨٣ ـ (٢٥٧) ، وانظر (JRAS) ـ لندن ـ كانون الثانى (يناير) ١٩٤٠م ، وبحث للدكتور محمد حميد الله بالهندية ـ رسول أكرم كى سياسى زندلكى ـ كراتشى ـ ١٣٧٠هـ .

وقد اطّلع الدكتور عزالدين ابراهيم على أصل هذه الرسالة النبويـة ، وهو محفوظ بين لوحتين زجاجيتين ، وفيه تمزيق واضح من أعلى الوسـط يتجه الى يمين الرسالة والى أسفلها ، وقد خيّط هذا التمزيق بمهارة للمحافظة على مظهر الرسالة النبوية [10] .

وقد ورث هنري فرعون هذه الرسالة النبوية مع مخطوطات أخرى من والده الذي كان قد اشتراه من أحد الأتراك في وقت من أوقات الاضطرابـات السياسية في تركيا .

وبعد دراسة مستفيضة من الدكتور المنجّد لنص الرسـالة النبويـة وصفات الخط والرق ، أعلن ترجيح صحة المخطوط وأصالته .

هـ ـ الرسالة النبوية الى هرقل(١١) :

وفي سنة (١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م) كشف النقـاب عن وثيقـة خاصة هي الرسالة النبوية الى هرقل امبراطور الروم ، كانت لمدة غير قصيرة في حيـازة الملك عبدالله بن الحسين ملك الاردن الأسبق ، ثم آلت بعد وفاته الى أرملتـه الأميرة ناهدة حجازي . وقد رغبت الأميرة حجازي حين تقدمت بها السن ، أن تحفظ الوثيقة لدى أحد الحكام المسلمين ، فعلمت بذلك حكومة الكويت وحكومة الامارات العربية المتحدة ، وأجريت بسبب ذلك ثلاث دراسات عنها :

الأولى : في لندن مقر إقامة الأميرة ، أعدها الأستاذ ياسين حامد صفدي، رئيس قسم المخطوطات العربية بالمتحف البريطاني .

والثانية : في الكويت ، أعدتها لجنة من الأساتذة الدكتور حسين مؤنس والدكتور شاكر مصطفى والدكتور محمود علي مكي .

والثالثة : في أبو ظبي أعدها الأستاذ الدكتور عزالدين ابراهيم .

---

(١٠) المؤرخ العربى ـ العدد الثالث والعشرون لسنة ـ (٢٥٧) .
(١١) المؤرخ العربى ـ العدد الثالث والعشرون لسنة ١٩٨٣ ـ (٢٥٧ ـ ٢٥٨) .

الرسالة النبوية الى كسرى

درس الأستاذ صفدي نص الرسالة النبوية وصفات الجلد والخط ، وانتهى الى تأكيد أصالتها .

ودرست لجنة الكويت السند الذي وصلت به الرسالة النبويـة عبر التاريخ ، وكذلك صفات الخط ، وانتهت الى الشك بالوثيقة وعدم استبعاد كونها مزوّرة .

وقد راجع الأستاذ الدكتور عزالدين ابراهيم في دراسته موضوعي المتن والسند اللذين دُرسا من قبل ، وأضاف بُعدا جديدا في الدراسة هو الفحص المختبري الموسع ، متعاونا في ذلك مع خبراء المتحف البريطاني في لندن وخبير الجلد الدكتور ريد (Reed) من جامعة ليدز في انكلترا .

واشتمل الفحص على دراسة لخصائص الرق بالمكبرات وتحت الأشعة فوق البنفسجية ، وخصائص الحبر ، وكذلك على فحص الانكماش الجلـدي لتقدير عمر الوثيقة ، وهي طريقة تختلف عن الفحص الكربوني المعروفة .
وانتهى الدكتور عزالدين ابراهيم ، بأن الوثيقة قديمة جدا ، اذ يزيـد عمرها على ألف سنة ، وبأنها قد تكون أصيلة ، كما قد تكون نسخة قديمـة عن الأصل ، ونشر نتيجة دراسته في جريدة الاتحاد بأبوظبي في شهر أيـار (مايو) سنة ١٩٧٤م ، كما نشرت جريدة العلم المغربية في عددها الصادر في ١٧ كانون الثاني من سنة ١٩٧٥م محاضرة الدكتور عزالدين حول هذه الرسالة النبويـة .

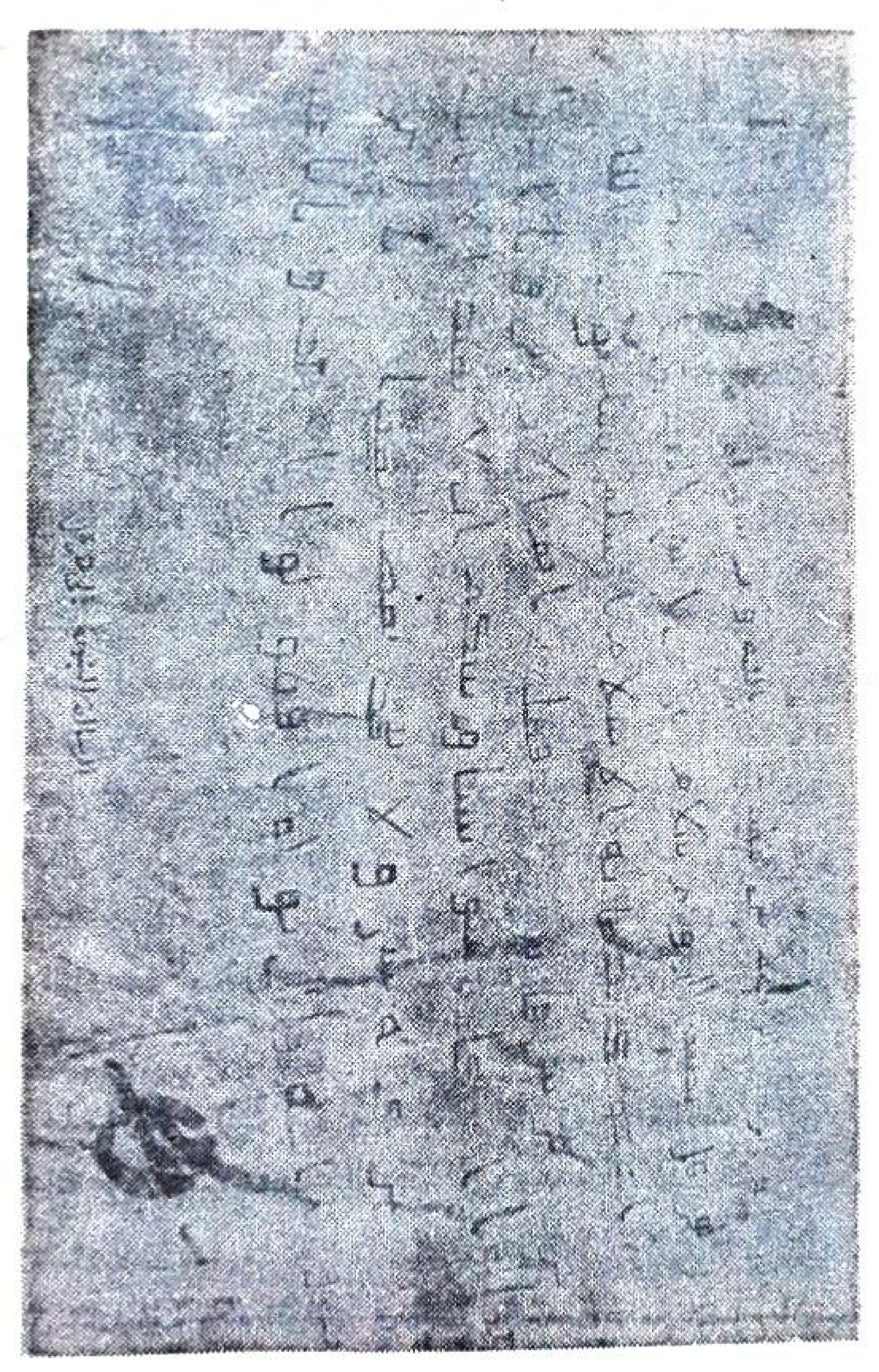
وهذه الرسالة النبوية ، قد أصبحت الآن في حيازة الملك حسين بن طلال ابن عبدالله بن الحسين ، ملك الأردن[١٢] ، وهذه هي نسـخة من صورتهـا الشمسية .

إن اكتشاف هذه الوثائق في العصر الحديث ، مع اتضاح أن بعضهـا

---

(١٢) المؤرخ العربي ـ العدد الثالث والعشرون لسنة ١٩٨٣ ـ (٢٥٧ ـ ٢٥٨) .

الرسالة النبوية الى هرقل



صحيح ، يضيف بُعدا جديدا في دراسات الرسائل النبوية ، اذ يساعد على توثيقها وتأكيد مدلولاتها .

٢ – منهاج الدراسة المقترح :

أ . وقد أتاحت للدكتور عزالدين ابراهيم دراسته الوثيقة النبوية الى هرقل خبرة عملية في دراسة الوثائق النبوية بخاصة ، فقدم منهاجا مقترحا للدراسة في مجال الرسائل النبوية ، يصلح أن يكون دليلا لمثل هذه الدراسات، والباب مفتوح على مصراعيه لاقتراحات إضافية تنفع الباحثين والدارسين المسلمين وغير المسلمين أيضا .

وهذا هو رأي الدكتور عزالدين ابراهيم الذي أؤيده فيه تأييدا كاملا. ينبغي التأكيد بأن الباحث المسلم ، يقبل على دراسة الرسائل النبوية ، ما اكتشف منها وما لم يكتشف ، من منطلق الثقة . فأصل الخبر بالنسبة له ثابت ، ونسبة شيء الى رسول الله عليه الصلاة والسلام من قول أو خبر أو رسالة ، يخضع لديه لقواعد التحقيق الصارمة التى تستهدى بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من كذب عليَّ متعمداً[١٣] ، فليتبوأ مقعده من النار »[١٤] ، فهو لايتعسف الأمر في اثبات أو نفي ، ولا يصطنع من الأدلة

---

(١٣) أخبر عني بشيء على خلاف ماهو عليه .

(١٤) رواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه واحمد في مسنده عن الزبير بن العوام ، ورواه مسلم عن أبى هريرة ، ورواه الترمذى عن على ابن ابى طالب ، ورواه احمد في مسنده وابن ماجه عن جابر وعن ابى سعيد ، ورواه الترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود ، ورواه احمد والحاكم عن خالد بن عرفطة وعن زيد ابن أرقم ، ورواه احمد عن سلمة ابن الاكوع وعن عقبة بن عامر وعن معاوية بن ابى سفيان ، ورواه الطبراني عن السائب بن يزيد وعن سلمان بن خالد الخزاعى وعن صهيب وعن طارق بن أشيم وعن طلحة بن عبيد الله وعن ابن عباس وعن ابن عمر وعن عتبة بن غزوان وعن العرس بن عميرة وعن عمار بن ياسر وعن عمران ابن حصين وعن عمرو بن حريث وعن عمرو بن عبسة وعن عمرو بن مرة =

الا ما يصح ، ولاينسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس منه . كما أنه من جهة أخرى يعتز بما يعثر عليه من أدلة التراث والتاريخ ، فلا يفرط فيه ، ولا يخفى أمره عن الناس بياناً للحقيقة .

وهذا يدعونا الى اعادة النظر في المنهج الذى اتبع حتى الان . في تحقيق الرسائل النبوية ، سواء من قبل الباحثين المسلمين . أم من قبل المستشرقين . بقصد ضبطه وتجويده ، لمضاعفة الثقة بنتائجه .

وبتأمل هذا المنهج ، نجد أنه باستثناء الرسالة النبوية الى هرقل . التى وجهت اليها دراسات متنوعة ، فان الدارسين يركزون على محتوى الرسائل النبوية ، بمقابلتها بما ورد في الأصول من النصوص ، وعلى هيئة الرقوق وما تظهره من علامات التقدم ، وصفات الخط ومدى توافقه مع ماعرف من خطوط الوثائق القديمة .

ولاشك ، في أن هذا المنهج ، بعناصره الثلاثة . يعين الى حد كبير على تقويم الوثائق المكتشفة خاصة ما كان منها في حالة لاتمكن من فحوص أخرى ، كما هو الحال مع وثيقة قصر باب المدفع (سراى طوب قابو) التى قدمت جداً ، وأصبحت معرضة لمزيد من التشقق ، وربما التفتت لو زاد مسها أو تكرر نقلها .

وهناك وثائق تاريخية لها أهمية بالغة لدى العالم الغربي والمسيحى ، لم يجر عليها من الدراسات التوثيقية أكثر مما ذكرنا ، وأعنى بوجه خاص

= الجهنى وعن المغيرة بن شعبة وعن يعلى بن مرة وعن ابى عبيدة بن الجراح وعن ابى موسى الأشعرى ؛ ورواه الطبرانى في الأوسط عن البراء وعن معاذ بن جبل وعن نبيط بن شريط وعن ابى ميمون ؛ ورواه الدار قطنى في الافراد عن ابى رمثة وعن ابن الزبير وعن ابى رافع وعن ام ايمن ، ورواه الخطيب وابن عساكر وابن صاعد وابو مسعود بن الفرات والبزار وابن عدى وابو نعيم والحاكم والعقيلى وابن الجوزى . حديث صحيح انظر : مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى (٢١٤/٢ ـ ٢١٥) .

الأناجيل الأربعة المعتبرة وهى أقدم ما عثر عليه من أناجيل ، والتى يوجد منها ثلاثة في المتحف البريطانى في لندن وواحد في الفاتيكان بروما[١٥] .

إلا أن هذا المنهج وحده لايعتبر كافيا ، ولابد من تعزيزه بأمرين :

أولهما : دراسة مستفيضة للسند الذى وصلت الوثيقة المكتشفة ، وفقاً له ، الى أيدى مكتشفيها .

وثانيهما : تطبيق وسائل البحث المختبرى التى تقدمت في أيامنا هذه الى حد كبير ، والاتجاه الحديث الآن لدى المحققين ، هو استخدام هذه الوسائل ، وهذا ما اتبع أخيراً في تحقيق مخطوطات البحر الميت التى يملكها الأردن[١٦] ، وما يطالب المحققون بتطبيقه على (ثوب تورينو) الذى ادعى من قديم أنه ثوب المسيح عليه السلام يوم ادعاء الصلب .

وأرى أن الفحص المختبرى يجب أن يسبق بقية الفحوص الأخرى ، ليتقرر أولا ما يسميه الباحثون : عذرية الوثيقة المفحوصة ، ويقصدون بذلك كونها أصيلة لعرضها ، وليست رقاً قديماً قد غسل بالمواد الكيمياوية ثم أعيدت الكتابة عليه ، ثم لتقرير العمر الزمنى التقريبى للوثيقة . والوثيقة التى لاتثبت عذريتها وقدمها ، لاتستحق أن تعرض لما عدا ذلك من الدراسات ، لأنها تكون بكل تأكيد مزورة .

وانني اذ أدعو الى ذلك ، أدرك تماماً ، أن الفحص المختبرى لايزال قاصراً ، وأن تقدير العمر الزمنى مازال تقريبياً ، ولكن هذا كله لايسوغ اهدار هذه الوسيلة من وسائل التحقيق .

---

(١٥) هذه الاناجيل معروفة في المتحف البريطانى بالاسماء الآتية :

— Codex Alexandinus.

— Codex Sinaiticus.

— Codex Vaticanus and Frangments of unknown gospel.

(١٦) انظر محمود العابدى ــ مخطوطات البحر الميت .

على أن الوثيقة المزورة لاتخلو من قيمة تاريخية اذا ثبت قدمها ، وأن تزويرها ليس حديثاً . ذلك أنها تشير الى صفات كانت شائعة في عصر تزويرها ، كما أنها قد تكون نسخة من أصل أقدم منها ، ولعل هذا ماقصد اليه الدكتور محمد حميد الله في تعليقه على الرق الذى يظن أنه الرسالة النبوية الى النجاشى .

وعلى ضوء ماذكرناه ، ونظراً لقلة مانعلمه عن الفحوص التى أجراها المستشرق بوش على الرسالة النبوية الى المنذر بن ساوى ، والمستشرق دنلوب على الرسالة النبوية الى النجاشى ، فنرى أن هاتين الرسالتين النبويتين يجب أن تدرسا من جديد[١٧] .

ب ــ وينبغى أن أذكر ، أن المسلم بالجنسية أو بالوراثة أو بالموقع الجغرافى ، أي المسلم الجغرافى ، لايكتفى بالتشكيك الذى دسه قسم من المستشرقين في مؤلفاتهم ، بل يحاول فلسفة هذا التشكيك وتعريبه ، ونشره في العربية عن جهل في أكثر الأحيان ، وعن علم ملغوم في أخرى ، محاولا اثبات تحرره وانطلاقه وانفتاحه وتفتحه .

والأخطر من ذلك ، أن أمثال هؤلاء المسلمين بالجنسية ، ينقلون أفكار المستشرقين المشككين من مؤلفاتهم المريبة ، التى لم يريدوا بها وجه الله ولا وجه العلم ولا الحق والانصاف ، بل أرادوا تحقيق نياتهم الخبيثة المبيتة في مهاجمة الاسلام وزعزعة عقيدة المسلمين ، فيعزو أولئك المسلمون المقلدون مانقلوه تارة الى أصحابه من المستشرقين ، وفي هذا أقل الضررين وأسهل الخطرين ، لأن الذى يقرأ آراءهم أو يسمعها يتشكك بها على الأقل ، فيحاول أن يطلع على الحقيقة بشكل أو بآخر . ويعزو أولئك المسلمون المقلدون تارة أخرى مانقلوه من المستشرقين الى أنفسهم ، كأنهم هم أصحاب الآراء

---

(١٧) المؤرخ العربي ــ العدد الثالث والعشرون لسنة ١٩٨٣ ــ (٢٥٩ ــ ٢٦١) .

الأصليون ، وكأن تلك الآراء من بنات أفكارهم لامن بنات أفكار المستشرقين المشككين ، وفي هذا أكثر الضررين وأصعب الخطرين ، لأن الذي يقرأ آراءهم أو يسمعها من المسلمين ، يظن بها خيراً ولا يتشكك بها ، على اعتبارها بأنها آراء اسلامية لامستوردة ، والحذر يؤتى من مأمنه كما يقول المثل العربي القديم • ولكن الأدهى من ذلك وأمر ، هو اقتباس قسم من المستشرقين ، تلك الآراء المنقولة منهم ، باعتبارهما آراء اسلامية تؤيد اتجاههم في التشكيك وتشهد على سلامتها ، وهم يعلمون أنهم مصدر تلك الآراء ، ولكنهم يتغاضون عن ذلك •

لذلك ليس كل باحث مسلم مؤهلا لدراسة الرسائل النبوية والوثائق التى تخص الاسلام والمسلمين ، بل المسلم المؤهل لذلك هو المسلم الحق ، العالم ، المتين في علمه ، الذى يقول الحق لوجه الحق وحده • أما المسلم الجغرافى ، فليس مؤهلا لمثل هذه الدراسة ، حتى ولو كان عالماً كبيرا ، لأن احتمال انحرافه لسبب من الأسباب وارد ، والواقع خير دليل •

بل المسلم الجغرافى ليس مؤهلا للدراسات الاسلامية عامة ، مادام يقتفى آثار المستشرقين المنحرفين ويقلدهم بانحرافهم دون تمحيص ••• فهو مستسلم لهم استسلاماً كاملا ، وخطره على الفكر الاسلامي أعظم من خطر المستشرقين المنحرفين ، وهو بذلك مستشرق صغير جداً ، كما — أقول لقسم منهم — حين ألمس تقليدهم الأعمى للانحراف واستسلامهم المطلق للمنحرفين ، أو هو مستغرب ، على وزن مستشرق ، لأنه مسلم بالجنسية ، ولكن عقله مستورد من الغرب •

من هؤلاء المسلمين الجغرافيين من شكك بالسفارات والرسائل النبوية جملة وتفصيلا ، ومنهم من شكك بجزء منها ، خالف فيه اجماع المسلمين كالتشكيك في اسلام النجاشى مثلا ، وهذا ما تطرقنا اليه من قبل ، فلا جدوى من اعادة ذكره من جديد •

هؤلاء المسلمون الجغرافيون ، غير مؤهلين للدراسات الاسلامية بعامة ، لأنهم مقلدون للمنحرفين من المستشرقين الذين لايلتزمون بالحق ولا بالواقع ولا بأساليب البحث العلمى السليمة ، وسيان أن يقوم المستشرقون المنحرفون بهذه الدراسات أو يقوم بها المسلمون الجغرافيون ، والفرق الوحيد بين الدراستين هو سمة التقليد الواضحة في دراسات المسلمين الجغرافيين ، بما فيها من تطرف في الانحراف ، كأنهم ملكيون أكثر من الملك ، كما يقول المثل الغربي المعروف •

وللمسلمين الملتزمين من العلماء ، أن يستعينوا بالخبراء الأجانب عند الحاجة الى ذلك ، والا فالاستعانة بالخبراء المسلمين أولى وأجدى •

والغريب أن الهيئات العالمية مثل اليونسكو ــ وهى هيئة دولية تشترك فيها الدول الاسلامية ، تستكتب المستشرقين بوصفهم متخصصين في الاسلاميات للكتابة عن الاسلام والمسلمين في الموسوعة الشاملة التى تصدرها عن تاريخ الجنس البشرى وتطوره الثقافى والعلمى ، وقد ثبت وقوع أولئك المستشرقين في أخطاء جسيمة جعلت ماكتبوه لاقيمة له من الناحية العلمية من ناحية ، وأدت الى تذمر المثقفين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من جهة ثانية ، والأجدر بمثل هذه الهيئات العالمية أن تستكتب العلماء المسلمين الملتزمين ، فأهل مكة أدرى بشعابها • أما أن تستكتب هذه الهيئات العالمية المستشرقين ، أو تستكتب المستغربين من المسلمين الجغرافيين ، الذين هم من مقلدى المستشرقين ومن المستسلمين لهم والمبهورين بنتاجهم والمرتبطين بهم بصلات مريبة في اكثر الأحيان ، فان ذلك من باب وضع الشىء في غير مكانه ، واعطاء القوس لغير باريها ، وتحيّز للانحراف وانحياز اليه لايأتى بخير ولا يؤدى الى خير ، كما حدث في دراسات المستشرقين للقضايا الاسلامية في الموسوعة الشاملة التى ذكرناها قبل قليل •

وليست بى حاجة ، الى أن أنبه الى أننى لاأريد في استكتاب العلماء

المسلمين الملتزمين ، أن يقولوا غير الحق في دراساتهم الاسلامية ، أو أن يزجوا الثناء العاطر للمسلمين والاسلام بمناسبة وبغير مناسبة وبحق وبغير حق ، فذلك مالا أريده ولا يريده غيرى من العلماء المسلمين . وما أريده ويريده غيرى ، هو قول الحق ولا شيء غير الحق ، والابتعاد عن الانحراف والتشكيك ، ووضع الأمور في نصابها ، والفهم السليم للاسلام ديناً والعربية لغة ، لتكون النتائج علماً ينفع الناس ويمكث في الأرض .

والعالم المسلم الملتزم ، من أول مزاياه الصدق في حياته العلمية والنظرية . أما بالنسبة للالتزام بالصدق بالنسبة لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله ، فهو ما لايمكن أن يحيد عنه العالم المسلم الملتزم قيد أنملة في مختلف الظروف والأحوال ، حتى ولو قرض بالمقاريض ونشر بالمناشير ، لأن الأمر خطير للغاية ، فذلك أهون عليه من أن يتبوأ مقعده من النار .

وما سرنى اعلان المستشرق الفرنسى بارتليمى عن أصالة الرق الجلدى القديم الذى اتضح بالدراسة أنه رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس ، وما سرنى توثيق المستشرق نولدكه لهذه الرسالة النبوية .

ولا ساءنى شك المستشرق دانلوب في المخطوط الجلدى الذي قيل انه رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوى حاكم البحرين ، لأن الخبر موثق في المصادر الاسلامية المعتمدة وغير الاسلامية المنصفة أيضاً ، ولا يحتاج هذا الخبر الى مزيد من التوثيق ، وبخاصة من المستشرقين الذين لايلتزمون بقول الحق دائما .

كما أن دراسات المستشرقين — وبخاصة المنحرفين منهم ، يكتنفها غبار كثيف . وما نحتاجه اليوم هو الدراسات التى لاغبار عليها ، بأقلام علماء مسلمين ملتزمين .

والمطلوب هو أن يثبت علماء المسلمين وجودهم بالدراسات الجادة ، فهذه بضاعتهم ردت اليهم ، وصيانتها بالدراسة الواعية من أول واجباتهم ، فهم أحق بحمل أعبائها بجدارة واقتدار .

الصراع الحضارى
الـــداء والـــدواء

١ - الجذور التاريخية للاستشراق :

لكي يتبين للعرب والمسلمين بوضوح وجلاء ، أسباب انحراف الدراسات الاستشراقية الخاصة بالعربية لغة وبالاسلام دينـا ، عن الطريـق السوي ، واهتمامها بغرس بذور الشك والتشكيك في نفوس العرب والمسلمين وعقولهم معا في أمر لغتهم التي هي لغة القرآن الكريم ، وبدينهم الذي يدينون به عقيدة وتشريعا ومثـلا عليا وحضارة ، لابد من معرفة الجذور التاريخية للاستشراق ، وأهداف المستشرقين في دراساتهم الاستشراقية ، وماذا على العرب والمسلمين أن يفعلوه في مصاولة هذا الصراع الحضـاري بينهم وبـين الدراسـات الاستشراقية ؟!

الاستشراق هو علـم الشرق ، أو علم العـالم الشرقي[١] ، وكلمـة : (مستشرق) بالمعنى العام تطلق على عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله : أقصاه ووسطه وأدناه ، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه . ولكننا هنا لانقصد هذا المفهوم الواسع ، وانما يعنينا هنا المعنى الخاص لمفهوم : (الاستشراق) الذي يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الاسلامي ، في لغاته وآدابـه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام . وهذا المعنى هو الـذي ينصرف اليه الذهن في عالمنا العربي الاسلامي ، عندما يطلق لفظ : (استشراق) أو (مستشرق) ، وهو الشائع أيضا في كتابات المستشرقين المعنيين[٢] .

---

(١) الدراسات الاسلامية والعربية في الجامعات الالمانية ص (١١) ـ رودي بارت ـ ترجمة : د. مصطفى ماهر ـ القاهرة ـ ١٩٦٧م .

(٢) د. محمود حمدي زقزوق ـ الاستشراق والخلفيـة الفكريـة للصراع الحضاري ـ (١٨) ـ كتاب الأمة ـ الدوحة ـ ١٤٠٤هـ .

ومن الصعب تحديد تاريخ معين لبداية الاستشراق ، وان كان بعض الباحثين يشير الى أن الغرب النصراني يؤرخ لبدء وجود : (الاستشراق الرسمي) ، بصدور قرار مجمع (فيينا) الكنسي في سنة ١٣١٢م بأنشاء عدد من كراسي اللغة العربية او عدد من الجامعات الأوربية[٣] . ولكن الاشارة هنا الى (الاستشراق الرسمي) تدل على أنه كان هناك استشراق غير رسمي قبل هذا التاريخ .

وليس هناك من شك ، في أن الانتشار السريع للاسلام في المشرق والمغرب ، قد لفت اليه بقوة أنظار رجالات اللاهوت النصراني ، ومن هنا بدأ اهتمامهم بالاسلام ودراسته .

ولا يتفق الباحثون الأجانب على مدة معينة من الزمن لبداية الاستشراق، فقسم منهم يذهب الى أن بدايته ترجع الى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي ، بينما يرى : (رودي بارت[٤] Rudi Paret) أن بدايات الدراسات الاسلامية العربية تعود الى القرن الثاني عشر الميلادي الذي تمت فيه لأول مرة ترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغة اللاتينية ، كما ظهر أيضا في القرن نفسه أول معجم لاتيني ــ عربي[٥] . وما ذهب اليه بارت سبقه إليه المستشرق جوستاف دوجا في كتابه : (تاريخ المستشرقين في أوروبا من القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر) ، الذي صدر في باريس في نهاية الستينات من القرن الماضي[٦] .

وهناك من الباحثين من يجعل بداية الاستشراق قبل ذلك بقرنين ، أي في القرن العاشر الميلادي ، بدءاً من الراهب الفرنسي جرير دي أورالياك (٩٣٨م ــ

---

(٣) الاستشراق ــ ادورد سعيد (٨٠) .
(٤) رودي بارت : مستشرق الماني معاصر ، وصاحب أحدث ترجمة المانية لمعاني القرآن الكريم .
(٥) بارت ــ الدراسات الاسلامية والعربية في الجامعات الالمانية ــ (٩) .
(٦) د. زقزوق ــ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (٢٠).

١٠٠٣م) الذي قصد الأندلس ، وتتلمذ على أساتذتها في اشبيلية وقرطبة ، حتى أصبح أوسع علماء عصره في أوروبا ثقافة بالعربية والرياضيات والفلك ، ثم تقلد فيما بعد منصب البابوية في روما باسم سلفستر الثاني (٩٩٩م — ١٠٠٣م)[٧] .

ولكن مفهوم : (مستشرق)[٨] لم تظهر في أوروبا الا في نهاية القرن الثاني عشر ، فقد ظهر في انكلترا في سنة ١٧٧٩م ، وفي فرنسا في سنة ١٧٩٩م، وأدرج مفهوم : (الاستشراق Orientalism) في معجم الأكاديمية الفرنسية في سنة ١٨٣٨م .

وليس المهم هو : متى ظهر مفهوم : (مستشرق) أو : (استشراق) ، وانما المهم هو : متى بدأت الدراسات العربية الاسلامية — سواء بالقبول أو الرفض — ، أما المصطلح ذاته فلا يعني شيئا أكثر من إقرار أمر واقع .

وأرى أن هذه الدراسات بدأت ببداية الاسلام ، فليس من المعقول أن يبقى النصارى بعيدين عن دراسة الدين الجديد ، وبخاصة بعد التماس المباشر بين المسلمين والمسيحيين بالسفارات النبوية الى هرقل والمقوقس والنجاشي في نهاية السنة السادسة الهجرية ، وتوالت على النطاق العسكري في مؤتة في السنة الثامنة الهجرية وغزوة تبوك في السنة التاسعة الهجرية ، وعلى النطاق السياسي في وفود أهل نجران النصارى الى النبي صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة الهجرية ، والمعاهدات التي عقدها الرسول عليه الصلاة والسلام مع نصارى منطقة تبوك وما حولها في السنة التاسعة الهجرية ، ثم ازداد مدّ هذا التماس بين النصارى والمسلمين بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى في مجال الفتح الاسلامي العظيم ، الذي شمل خلال سنين معدودة أرض الشام (سورية ، لبنان ، فلسطين ، الأردن) ومصر وليبيا وشمالي

---

(٧) العقيقي — المستشرقون (١/١٢٠) — ط ٣ — دار المعارف بالقاهرة — ١٩٦٤م. واسم هذا المستشرق (جربردي أوراليك Jerbert de oraliac)

(٨) مستشرق : (Orientalism).

افريقية التابعة للروم النصارى قبل الفتح الاسلامي • فليس من المعقول ولا من المنطق أن يبقى علماء النصارى وبخاصة رجال الدين المسيحي منهم بعيدين عن دراسة الظاهرة الاسلامية التي أصبحت تهددهم في عقر دارهم ، وضياع تلك الدراسات عن الاسلام أو اختفاؤها لايعني عدم وجودها • لذلك نرى أن الدراسات الاسلامية والعربية من علماء النصارى بدأت ببداية الاسلام ، ولكن تسجيلها تأخر من المستشرقين الذين أرخوا لتلك الدراسات ، والمطلوب هو اكتشاف الدراسات الاستشراقية المبكرة للاسلام والعربية •

والواقع أن المؤرخين الأجانب للدراسات الاستشراقية ، أرّخوا كما يبدو ــ للدراسات الرسمية التي برزت للعيان بوضوح ، أما الدراسات الفردية، التي أجراها علماء المسيحيين وبخاصة رجال الدين منهم ، فلم تحظ بما تستحق من دراسات ، مع أنها حرية بالبحث والتتبع والتدقيق •

ولكن اشتد أوار تلك الدراسات نتيجة للصراع الذي دار بين العالمين الاسلامي والمسيحي في الأندلس وصقلية ، كما كان للحروب الصليبية أثر كبير في اشتداد أوار تلك الدراسات •

لهذا يمكن القول بأن تاريخ الاستشراق في مراحله الأولى ، هو تاريخ للصراع بين الاسلام والمسيحية ، ثم اشتد هذا الصراع بين العالم النصراني الغربي والشرق الاسلامي على الصعيدين الديني والعقائدي في القرون الوسطى[٩] ، فقد كان الاسلام كما يقول (ساذرن Southern)) يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم النصراني في أوروبا على المستويات كافة •

فباعتباره مشكلة عملية ، استدعى الأمر الى اتخاذ اجراءات معينة كالصليبية والدعوة الى النصرانية والتبادل التجاري ، وباعتباره مشكلة لاهوتية تطلب بالحاح العديد من الاجابات على العديد من الاسئلة في هذا

(٩) C. E. Bosworth : Orientalism and Orientalists (in : Arab Islamic Biblligraphy) 1977, Great Britain.

الصدد ، وذلك يقتضي معرفة الحقائق التي لم يكن من السهل معرفتها. وهنا ظهرت مشكلة تاريخية صار من المتعذر حلها ، كما ندر إمكانية تناولها دون معرفة أدبيه ولغوية يصعب اكتسابها،وصارت المشكلة أكثر تعقيدا بسبب التعصب والرغبة القوية في عدم معرفتها خشية الدنس[١٠]. ويقصد تعصب المسيحيين وخشيتهم من تعرضهم للدنس الذي يحيق بهم من جراء دراساتهم الاسلامية!!!

وما وصل الينا من كتابات النصارى في القرون الوسطى ، يدل على الاغراق في الجهل والتعصب الأعمى ، فهناك حكايات في وصف الاسلام مغرقة في الخيال والضلال ، اخترعها خيال الكُتّاب ، مثل انشودة رولاند الشهيرة (The Song of Roland)وغيرها من آثار أدبية تصف المسلمين بأنهم عُبّاد أصنام ، أو أنهم يعبدون آلهة ثلاثة هي : (تير فاكان Tervagan ومحمد ، وأبو للّو) . وقد اعترف أعلم المؤلفين المسئولين عن هذا الأدب ، وهو (جيبير دي نوجنت Guibert de Nogent (ت ١١٢٤م) بأنه لايعتمد في كتاباته عن الاسلام على أية مصادر مكتوبة ، وأشار فقط الى آراء العامة ، وأنه لايوجد لديه أية وسيلة للتميز بين الخطأ والصواب ، ثم قال مسوغا كتاباته غير العلمية عن الاسلام ونبيّه : «لاجناح على المرء اذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء»[١١] .

وقد أطلق ساذرن على هذه العصور في كتابه : (نظرة الغرب الى الاسلام في القرون الوسطى) عنوان : (عصر الجهالة) ، وهو عصر كان أبعد مايكون عن روح العلم والموضوعية ، وفي ذلك يقول : «على أن الشيء الوحيد الذي يجب ألا تتوقعه في تلك العصور ، هو الروح المتحررة الأكاديمية ، أو البحث الانساني الذي تميّز به الكثير من البحوث التي تناولت الاسلام في المائة

---

(١٠) ساذرن ـ نظرة الغرب الى الاسلام في القرون الوسطى ـ ترجمة د. علي فهمي خشيم و د. صلاح الدين حسني (١٧) ـ طرابلس ـ ١٩٧٥م.
(١١) د. زقزوق ـ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (٢٢ ـ ٢٣).

سنة الأخـيرة »[١٢] .

وقد كانت هناك في القرن الثاني عشر الميلادي بعض المحاولات للتعرف على الاسلام بقدر من الموضوعية ، ولكن مع الهدف الواضح المعان ، وهو محاربة هذه التعاليم الاسلامية (الالحادية) . ومن أجل ذلك قام بطرس الموقر (ت ١١٥٦م) رئيس رهبان كلوني بتشكيل جماعة من المترجمين في اسبانيا ، يعملون كفريق واحد ، من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الاسلامي . وقد كان بطرس الموقر وراء ظهور أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم الى اللغة اللاتينية في سنة ١١٤٣م ، تلك الترجمة التي قام بها الانكليزي (روبرت أوف كيتون Robert of Ketton) [١٣] .

وقد حاول بطرس الموقر الذي كان يعتبر الاسلام هرطقة نصرانية ، أن يجد مسوغا للجهود التي يقوم بها في مجال الترجمة من أجل التعرف على الاسلام ، حتى يحظى هذا العمل بالقبول لدى اخوانه النصارى ، فقال : « اذا كان هذا العمل يبدو من النوافل الزائدة لأن العدو ليس عرضة للهجوم بمثل هذا السلاح ، فاني أرد بأن في بلاد ملك عظيم تكون بعض الأشياء للدفاع وبعضها للزينة وبعضها لكليهما معا . ان سليمان المسالم صنع الأسلحة للدفاع ، ولو أنها لم تكن ضرورية في زمانه . وداود صنع الزينات للهيكل ، ولو أنه لم تكن هناك وسائل لاستعمالها في عصره[١٤] ... وكذلك الحال مع هذا العمل ، فاذا لم يكن بالامكان تنصير المسلمين به ، فمن حق العالم على

---

(١٢) ساذرن ــ نظرة الغرب الى الاسلام في القرون الوسطى ــ ص (١٥ ، ١٧ ، ٤٨ ، ٤٩) وانظر أيضا تراث الاسلام (١/ ٣٤) .

(١٣) تراث الاسلام (١/ ٣٧ ــ ٣٩) .

(١٤) هكذا ورد في النص ، وهو مخالف لما ورد في القرآن الكريم من ان داود هو الذي كان يصنع الاسلحة ، وما هو معروف من ان سليمان هو الذي صنع الزينات للهيكل .

الأقل أن يساند إخوانه الضعفاء في الكنيسة الذين يسهل افتضاحهم بأشياء صغيرة »[١٥] .

ولم تجد (الموضوعية) التي كان يبحث عنها بطرس الموقر تجاوبا في ذلك الزمان ، على أنها لم تكن موضوعية بالمعنى الصحيح ، وإنما يمكن أن تُعد (موضوعية موجهة) إن صح التعبير .

ويقول رودي بارت : « حقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الاسلام ، وكانوا يتصلون بها على نطاق واسع ، ولكن كل محاولة لتقويم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعا ما ، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للنصرانية لايمكن أن يكون فيه خير ، وهكذا كان الناس لايولون تصديقهم الا لتلك المعلومات التي تتفق مع الرأي المتخذ من قبل ، وكانوا يتلقفون بنهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة الى النبي العربي والى دين الاسلام »[١٦] .

ويمكن القول بصفة عامة ، بأنه كان هناك في هذا الوقت من عمر الزمن، أي في القرون الوسطى ، اتجاهان مختلفان للاستشراق فيما يتعلق بالأهداف والمواقف إزاء الاسلام : الأول هو الاتجاه اللاهوتي المتطرف في جدله العقيم، ناظرا الى الاسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية. والثاني ، وكان نسبيا بالمقارنة الى الاتجاه الأول أقرب الى الموضوعية والعلمية، ونظر الى الاسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة ، ولكن الاتجاه الخرافي ظل حيا حتى القرن السابع عشر الميلادي وما بعده [١٧] . ولا يزال هذا الاتجاه حيا للأسف في العصر الحاضر في كتابات قسم من المستشرقين عن الاسلام ونبي الاسلام [١٨] .

---

(١٥) ساذرن (٥٦ ـ ٥٧) وتراث الاسلام (١/٣٨) .
(١٦) بارت ـ ص (٩ ـ ١٠) .
(١٧) انظر : (Bosworth) في بحثه الذي سبقت الاشارة اليه .
(١٨) د. زقزوق ـ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (٢٦) .

٢ . اهداف الاستشراق :

١ . الاستشراق والتنصير :

اذا كان الاستشراق لايقوم الا على أساس معرفة اللغات الشرقية التي هي الوسيلة للتعرف على عقائد الشرق وحضاراته ، فان التنصير يتفق مع الاستشراق في هذا الصدد ، ويُحتم أيضا معرفة لغات من يُراد تنصيرهم . وقد كان هناك اقتناع تام لدى دعاة التنصير في القرن الثالث عشر الميلادي بضرورة تعلم لغات المسلمين ، اذا أريد لمحاولات تنصير المسلمين أن تؤتي ثمارها بنجاح ، وقد كان هذا الاقتناع ــ الذي تُرجم فيما بعد الى خطة عمل ــ عاملا مهما بالنسبة لتطور الاستشراق، ولم يكن من السهل في ذلك الزمان فصل الاستشراق عن التنصير أو عن الدافع الديني بصفة عامة ، فالدافع الديني كان هو السبب الأول في نشأة الاستشراق .

وكان من بين الدعاة المتحمسين الذين طالبوا بضرورة تعلم لغات المسلمين لغرض التنصير (روجر بيكون ١٢١٤م ــ ١٢٩٤م) الذي كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحي ، ولبلوغ هذا الغرض لابد من توفر شروط ثلاثة هي :

أولا : معرفة اللغات الضرورية .

ثانيا : دراسة أنواع الكفر وتمييز بعضها عن بعض .

ثالثا : دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها [١٩] .

وقد شارك بيكون في أفكاره (رايموند لول Raymond Lull ــ ١٢٣٥م ــ ١٣١٦م) الذي ولد في جزيرة ميورقة الاسبانية ، وتعلم العربية على يد عبد عربي ، وكانت له جهود في إنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية في أماكن مختلفة ، وكان الهدف من كل هذه الجهود في ذلك العصر وفي

---

(١٩) ساذرن (٧٦) وزقزوق (٢٧ ــ ٢٨) .

العصور التالية هو التنصير ، وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الاسلام واجتذابهم الى الدين المسيحي[٢٠] .

وقد صادق مجمع فيينا الكنسي في سنة ١٣١٢م على أفكار بيكون وأفكار لول بشأن تعلم اللغات الاسلامية ، وتمت الموافقة على تعليم اللغة العربية في خمس جامعات أوروبية هي جامعات : باريس ، وأكسفورد ، وبولونيا ، وسلمنكا ، بالاضافة الى جامعة المدينة البابوية (Kurie) . وقدر لرايمون لول أن يعيش حتى يشهد تحقيق حلم طالما نادى به ، وكان يعتقد أن الوقت بذلك قد حان لاخضاع المسلمين عن طريق التنصير ، وبذلك تزول العقبة الكبيرة التي تقف في سبيل تحويل الانسانية كلها الى العقيدة الكاثوليكية[٢١] .

وقد ساعد على تقدم الدراسات الاستشراقية في نهاية العصر الوسيط ، تلك الصلات السياسية مع الدولة العثمانية التي اتسعت رقعتها حينذاك ، وكان للروابط الاقتصادية لكل من اسبانيا وايطاليا مع كل من تركية وسورية ومصر أثر كبير في دفع حركة الدراسات الاستشراقية .

وفي القرن السادس عشر الميلادي وما بعده ، أدت النزعة الانسانية في عصر النهضة الأوروبية الى دراسات أكثر موضوعية عن ذي قبل ، ومن ناحية أخرى شجعت البابوية دراسات لغات الشرق ، من أجل مصلحة التنصير .

وفي سنة ١٥٣٩م ، تم انشاء أول كرسي للغة العربية في الكوليج دي فرانس في باريس ، وشغل هذا الكرسي (جيوم بوستل Guillaume Postel ت ١٥٨١م) ، وقد أسهم كثيرا في إثراء دراسات اللغات والشعوب الشرقية في أوروبا . وقد سار على نهجه تلميذه (جوزيف اسكاليجر Joseph Scaliger ت ١٦٠٩م) .

---

(٢٠) رودي بارت (٩) .

(٢١) Johann Fueck : Die Arabischon Studien in Eoropa, Leipzig 1955, P. 21 — 22. نقلا عن د. زقزوق (٢٨) .

ولكن عمل بوستل لم يكن أبدا منقطع الصلة بجهود التنصير ، فهو يذكّر بقرار مجمع فيينا الكنسي ، ويُجمل قيمة معرفة اللغة العربية بقوله : « ... إنها تفيد بوصفها لغة عالمية في التعامل مع المغاربة والمصريين والسوريين والفرس والأتراك والتتار والهنود ، وتحتوي على أدب ثري ، ومن يجيدها يستطيع أن يطعن كل أعداء العقيدة النصرانية بسيف الكتاب المقدس ، وأن ينقضهم بمعتقداتهم التي يعتقدونها . وعن طريق معرفة لغة واحدة هي العربية ، يستطيع المرء أن يتعامل مع العالم كله » .

وقد كان يتباهى بأنه يستطيع عبور آسيا وبلوغ الصين دون مترجم[٢٢] .

وفي سنة ١٥٨٦م ، أصبح من السهل طباعة الكتب العربية في أوروبا عن طريق المطابع التي أقامها الكاردينال فرديناند المديسي Ferdinand de Midici دوق تسكانيا الكبير ، وقد تم حينذاك طباعة كتب عربية مختلفة من بينها مؤلفات ابن سينا في الطب والفلسفة[٢٣] .

وفي القرن السابع عشر الميلادي ، بدأ المستشرقون في جمع المخطوطات الاسلامية ، وأنشئت كراسي للغة العربية في أماكن مختلفة . ومن الجدير بالذكر ، أن قرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج سنة ١٦٣٦م قد نص صراحة على خدمة هدفين : أحدهما تجاري ، والآخر تنصيري ، فقد جاء في خطاب للمراجع الأكاديمية المسئولة في جامعة كمبردج بتاريخ ٩ أيار (مايو) ١٦٣٦م الى مؤسس هذا الكرسي مايلي : « ... ونحن ندرك أننا لانهدف من هذا العمل الى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة الى النور ، بدلا من احتباسه في نطاق هذه اللغة التي نسعى لتعلمها ، ولكننا نهدف أيضا الى تقديم خدمة نافعة الى الملك والدولة عن

---

(٢٢) المرجع السابق (٣٩ — ٤٠) ؛ وادوارد سعيد (٨١) .

(٢٣) Johan Fuek : OP. Cit. P. 53 — 54. Bosworth, OP. Cit.

طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية ، والى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة الى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات » •

ومن هذا يتضح أنه قد كان هناك تجاوب متبادل بين الاستشراق والتنصير •

ومن بين الشخصيات التي كان لها أثر كبير في إرساء دعائم الدراسات الاستشراقية العربية في أوروبا المستشرق (توماس إربنيوس Thomas Erpenius ١٥٨٤م ــ ١٦٢٤م) الذي كان أول أستاذ يشغل كرسي اللغة العربية في جامعة ليدن (١٦١٣م) ، وقد استطاع عن طريق جهوده العلمية ومؤلفاته في النحو العربي أن يجعل لهولندا مكان الصدارة في الدراسات العربية في أوروبا لما يقرب من قرنين من الزمان •

أما موقفه من الاسلام ، فانه على الرغم من أنه كان يرى أن القرآن يُعد قمة من حيث اللغة ، الا أنه كان يرى فيه من حيث المضمون تقليدا للكتاب المقدس • وكان رأيه في النبي صلى الله عليه وسلم وتعاليمه متفقا تماما مع ذلك النفور الذي كان سائدا حينذاك في الغرب إزاء النبي صلى الله عليه وسلم وتعاليمه [٢٤] •

إن دراسة قوائم المستشرقين منذ كان الاستشراق حتى اليوم ، يظهر أن معظم المستشرقين كانوا من المبشرين ، وهذا يكفي دليلا على صلة الاستشراق بالتنصير •

ب• الاستشراق والاستعمار :

كان للمد الاستعماري في العالم الاسلامي دور كبير في تحديد طبيعة النظرة الأوروبية الى الشرق ، وخصوصا بعد منتصف القرن التاسع عشر

---

(٢٤) Johan Fuck : OP. Cit. P. 68 — 69.

الميلادي • وقد أفاد الاستعمار من التراث الاستشراقي ، ومن ناحية أخـرى كان للسيطرة الغربيـة على الشرق دورهـا في تعزيز موقـف الاستشراق ، وتواكبت مرحلة التقدم الضخم في مؤسسات الاستشراق وفي مضمونه مـع مرحلة التوسع الأوروبي في الشرق(٢٥) •

وقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي استيلاء المستعمرين الغربيين على مناطق شاسعة من العالم الاسلامي •

ففي سنة ١٨٥٧م تم استيلاء الانكليز سياسيا على الهند ، وأصبحت الهند بذلك تابعة للتاج البريطاني رسميا ، بعد أن كانت حتى ذلك الحـين واقعة تحت نفوذ شركة الهند الشرقية منذ القرن السابع عشر الميلادي • وفي سنة ١٨٥٧م أيضا ؛ تم استيلاء فرنسا على الجزائر كلها بعد أن كان الفرنسيون قد بدأوا غزوها سنة ١٨٣٠م • كما احتلت هولندا قبل ذلك ، في بداية القرن السابع عشر الميلادي ــ جزر الهند الشرقية (أندنوسيا) عن طريـق شركة الهند الهولندية • واحتل الفرنسيون تونس سنة ١٨٨١م والمغرب سنة ١٩١١م، واحتل الايطاليون ليبيا سنة ١٩١١ • واحتل الانكليز العراق سنة ١٩١٧م وكذلك فلسطين والأردن ، كما احتل الفرنسيون سورية ولبنان أيضا • وظل الاستعمار يقطع أوصال البلاد الاسلامية شيئا فشيئا ويضعها تحت سيادته ، حتى استطاع في النهاية أن يطوّق العالم الاسلامي من الشرق والغرب ، وبعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م ــ ١٩١٨م) كان العالم الاسلامي كله تقريبا خاضعا لنفوذ الاستعمار الغربي(٢٦) •

وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضـه

---

(٢٥) تراث الاسلام (١/٨٣) ، والاستشراق لادورد سعيد (٧٢) .

(٢٦) د. محمد البهي ــ الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربـي (٢٩ ــ ٣٠) ، وانظر تاريخ المعجمات العسكرية العربية (٢) ــ القاهرة ــ ١٣٨٨هـ .

وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في بلاد المسلمين ، وهكذا نشأت رابطة رسمية وثيقة بين الاستشراق والاستعمار ، وانساق في هذا التيار عدد من المستشرقين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا آلة بيد المستعمر وأن يكون علمهم وسيلة لاذلال المسلمين واضعاف شأن الاسلام وقيمه ـ وهذا عمل يشعر إزاءه المستشرقون المنصفون بالخجل والمرارة • وفي ذلك يقول المستشرق الألماني المعاصر (استيفان فيلد Stephan Wild) : «••• والأقبح من ذلك ، أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين ، سخروا معلوماتهم عن الاسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الاسلام والمسلمين ، وهذا واقع مؤلم لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة »[٢٧] .

ومن بين الأمثلة العديدة لارتباط الاستشراق بالاستعمار ، نذكر المستشرق (كارل هينريش بيكر Karl Heinrich Beker ت ١٩٣٣م) مؤسس (مجلة الاسلام) الألمانية الذي قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في افريقية • فقد حصل الرايخ الألماني سنة ١٨٨٥م ـ ١٨٨٦م على مستعمرات في أفريقية تضم بعض مناطق سكانها من المسلمين ، وظلت تلك المناطق تحت السيادة الألمانية حتى سنة ١٩١٨م• وقد أدى ذلك الى تأسيس معهد اللغات الشرقية في برلين سنة ١٨٨٧م وهو معهد كانت مهمته تتلخص في الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية الحالية وبلدان الشرق الأقصى وعن شعوب هذه البلدان وثقافتها[٢٨] .

وفي هذا يقول المستشرق الألماني (أوليريش هارمان Ulrich Harmann) : « كانت الدراسات الألمانية حول العالم الاسلامي قبل سنة ١٩١٩م أقل براءة وصفاء نية ، قد كان كارل هينريش بيكر ـ وهو من كبار مستشرقينا ـ منغمساً في النشاطات السياسية حتى انه أصبح في

---

(٢٧) د. زقزوق ـ الاسلام في الفكر الغربي ـ (٦٠) .
(٢٨) بارت (٣١ ـ ٣٢) .

سنة ١٩١٤م شديد الحماسة لمخطط استخدام الاسلام في افريقية والهند كدرع سياسى في وجه البريطانيين »[٢٩] .

أما (بارتولد Barthold) ـ (ت ١٩٣٠م) مؤسس مجلة (عالم الاسلام) الروسية (Mir Islama)، فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى.

أما عالم الاسلاميات الهولندي الشهير (سنوك هورجرونيه ت ١٩٣٦م)، فانه في سبيل استعداده للعمل في خدمة الاستعمار ، توجه الى مكة سنة ١٨٨٥م بعد أن انتحل اسما اسلاميا هو : (عبدالغفار) ، وأقام هناك مايقرب نصف سنة ، وقد ساعده على ذلك أنه كان يجيد العربية كأحد أبنائها. وقد لعب هذا المستشرق دورا مهما في تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية في المناطق الهولندية من الهند الشرقية (أندونوسيا) ، وشغل مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية في أندونوسيا[٣٠] .

وفي فرنسا كان هناك عدد من المستشرقين يعملون مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية في شئون شمالي افريقية. وعلى سبيل المثال كان المستشرق الكبير (دي ساسي) اعتبارا من سنة ١٨٠٥م يشغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية ، وعندما غزا الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠م ، كان (دي ساسي) هو الذي ترجم البيان الموجه للجزائريين ، وكان يُستشار بانتظام في جميع المسائل المتعلقة بالشرق من قبل وزير الخارجية ، وفي حالات معينة من قبل وزير الحربية أيضا. والى عهد قريب كان ماسينون مستشارا للادارة الاستعمارية الفرنسية في الشئون الاسلامية[٣١] .

---

(٢٩) انظر في ذلك المقال الذي كتبه أولبريش هارمان عن الاستشراق الالماني في مجلة : (الباحث) ـ العدد ٢٥ ـ كانون الثاني (يناير) ـ شباط (فبراير) ١٩٨٣ ـ ص (١٤٥) .

(٣٠) بارت (٤٩) ، وانظر أيضا : Bosworth, OP. Cit.

(٣١) ادوارد سعيد (١٤٦ ، ٢٢١) .

ويكشف المستشرق الفرنسي (هانوتو ـ ت ١٩٤٤م) في مقال له بعنوان: (قد أصبحنا اليوم إزاء الاسلام والمسألة الاسلامية)، يكشف بوضوح عن مقترحاته لتوجيه سياسة فرنسا في مستعمراتها الافريقية الاسلامية، وما تهدف اليه هذه المقترحات من إضعاف المسلمين في عقيدتهم حتى يسهل قيادهم[٣٢].

أما المصالح البريطانية في العالم الاسلامي، فقد كان الدافع اليها هو ممارسة السيادة البريطانية على الهند وغيرها من البلاد الاسلامية التي استولت عليها. وقد كان (اللورد كيرزن Curzon) في أوائل القرن العشرين الميلادي من أشد المتحمسين في انكلترا لفكرة إنشاء مدرسة للدراسات الشرقية باعتبار أنها تُعد: «جزءاً ضرورياً من تأثيث الامبراطورية»، وتساعد على الاحتفاظ بالمواقع التي نالتها بريطانيا في الشرق. وقد تحولت المدرسة المذكورة فيما بعد الى مدرسة جامعة لندن للدراسات الشرقية والافريقية.

وقد كانت الحكومة البريطانية ـ من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية ـ ترسم سياستها في مستعمراتها في الشرق بعد التنسيق والتشاور مع فريق من المستشرقين الذين يقدّمون لها الدراسات المطلوبة. يقول الدكتور ابراهيم اللبان رحمه الله[٣٣]: «... والواقع أن رجال السياسة في الغرب على صلة وثيقة بأساتذة هذه الكليات (كليات اللغات الشرقية في أوروبا) والى آرائهم يرجعون قبل أن يتخذوا القرارات الهامة في الشئون السياسية الخاصة بالأمم العربية والاسلامية. وقد سمعت أحد كبار المستشرقين يتحدث أمامي فيذكر أن مستر (إيدن) كان قبل أن يضع قرارا سياسيا في شئون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين المستعربين ويستمع الى آرائهم، ثم يقرر ما يقرر في ضوء ما يسمعه منهم، هذا الى أن بعضهم كان يؤسس صلات صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية ويتخذ من هذه الصلات ستارا يقوم من ورائه بأعمال

---

(٣٢) د. محمد البهي ـ الفكر الاسلامي الحديث (٣٠ وما بعدها).
(٣٣) د. زقزوق ـ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (٤٦ ـ ٤٧).

التجسس في أثناء الحرب »[٣٤] .

هاملتون جب المستشرق البريطاني المشهور (١٨٩٥م – ١٩٧١م) كان له نشاط سياسي مرموق ، فقد ألقى محاضرات وكتب مقالات عن المشاكل السياسية للشرق الأوسط ، وعن السياسة البريطانية ، وكان في أولى سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م – ١٩٤٥م) رئيسا للقسم الشرق أوسطي في المنظمة الحربية التي أشادها المعهد الملكي للقضايا العالمية ، لتزوّد المكتب الأجنبي (Forein Office) بالمعلومات ، والذي أصبح يسمى لاحقا : قسم الأبحاث للمكتب الاجنبي ، وقد أثرت فيه السلطة والمسئولية شيئا ما ، وكان يوجه الحكومة البريطانية في الشرق الأوسط لئلا تفقد مصالحها في تلك البلاد ، وكانت له مخاوف مماثلة بالنسبة لسياسة فرنسا في سورية ، ولم ينتقد السياسة الفرنسية في شمالي افريقية ، حيث واجهت فرنسا مشاكل تختلف عن مشاكل الشرق الأوسط[٣٥] .

وما يقال عن تعاون جب مع السلطات الاستعمارية وسكوته عن الانحرافات السياسية للاستعمار ، حتى اذا ألحقت أبلغ الضرر بالعرب والمسلمين ، الا اذا خشي أن تؤدي تلك الانحرافات الى خسارة المستعمرين شيئاً من نفوذهم المادي أو المعنوي حاضرا أو مستقبلا في البلاد المستعمرة ، فانه يبدي رأيه لا محبة بالمستعمرين بل حرصاً على مصالح المستعمرين – ما يقال عن تعاون جب مع السلطات الاستعمارية البريطانية ، يقال عن تعاون المستشرقين البريطانيين الآخرين ، وليس ذلك سرا من الأسرار ، بل هو معلوم للمتتبعين ومسجل في الوثائق الرسمية وفي كثير من المقالات والبحوث والمؤلفات .

---

(٣٤) د. ابراهيم اللبان – المستشرقون والاسلام (١٨) ، وادوارد سعيد (٢٢٤).

(٣٥) البرت حوراني – هاملتون جب – ترجمة سلام فوزي (٢٨٢ – ٣٨٣) – مجلة الفكر العربي – العدد (٣١) – كانون ثاني (يناير) – آذار (مارس) ١٩٨٣ – بيروت.

وقد يجد المبهورون بالمستشرقين من العرب والمسلمين ، أن من الصعب عليهم تصديق هذه الصلة الوثيقة المريبة بين المستشرقين والاستعمار ، مما لا يُشرّف عالما ولا متعلما ، اذ كيف يصدقون أن قسما منهم أعانوا الظالم على المظلوم ، وسكتوا على إراقة دماء الأبرياء ونهب الثروات ، وعملوا جواسيس للمستعمر وأدلاء للاستعمار !!

لقد استطاعت بعض الدول العربية النفطية ، أن يشتروا بالمال ضمائر كثير من المستشرقين اللامعين ، فكتبوا وألفوا ما يخالف حتى عقائدهم الدينية، وطعنوا أسس عقيدتهم بالصميم ، وقالوا في مقدساتهم مالم يقله مالك في الخمر.

هذه بالنسبة للدول العربية النفطية ذات الاتجاه الديني ، أما بالنسبة للدول العربية النفطية التي دينها الرسمي الاسلام وكفى ، وهي معنية بالسياسة والدعاية والاعلام حسب ، فقد اشترت بالمال ضمائر كثير من المستشرقين ، فكتبوا وألفوا مايخالف الواقع ، وقلبوا الحقائق رأساً على عقب وهم يعلمون!!

فاذا كان هذا هو موقف كثير من المستشرقين مع أبناء غير وطنهم ومع غير مواطنيهم ، يكتبون ويؤلفون ما (يحب) دافع الأموال لهم أن يُكتب ويؤلف ، لا ما (يجب) بوازع العلم وكرامة العلماء أن يُكتب ويؤلف !! فكيف اذاً يتوقع المبهورون بهم من العرب والمسلمين ، أن يلتزم أمثالهم بالموضوعية وبمقتضيات البحث العلمي الأصيل ؟

وقد أصبح هؤلاء المرتزقة باسم العلم ، جزءاً من قطع الزينة في دعوات السفارات العربية النفطية ، وجزءاً من قطع الزينة أيضا في المؤتمرات القطرية العربية التي لها بداية وليس لها نهاية ، والتي تجمع شمل المتناقضات الا ماينفع الناس ويمكث في الأرض.

والصحف العربية تطالعنا كثيرا بأسماء هؤلاء المستشرقين (اللامعين) وتصاويرهم في الحفلات والدعوات والمؤتمرات ، وتطالعنا بأنباء بحوثهم

ومؤلفاتهم (الموجهة) التي تشم منها رائحة الريال والدينار أكثر مما تشم منها رائحة العلم .

وبهذه المناسبة ، فهناك بعض المثقفين العرب والمسلمين أو من المحسوبين على الثقافة والعلم ظلما وعدوانا ، لاينفكون يفاخرون بصلاتهم المباشرة أو غير المباشرة بمثل هؤلاء المستشرقين ، فيسجل لهم أدعياء الصحافة والاعلام الذين ظهروا في غفلة من غفلات الزمن ، لأولئك المثقفين من العرب والمسلمين مايتباهون به من تلك الصلات على أنها مفاخر شخصية لأولئك المثقفين وأدلة على رسوخهم في العلم .

والواقع أن هؤلاء المستشرقين لايتصلون الا بأشخاص لهم سمات معينة لاتشرف أحداً في أكثر الأحيان ، واتصالاتهم تنصب في تحقيق مصالحهم المكشوفة أو المستورة التى هى جزء من أهدافهم المرسومة ، فليس من مصلحة العرب والمسلمين الاتصال بهم الا ضمن نطاق محدود وبعلم ممن لاغبار على اخلاصهم وخبرتهم وعلمهم وباشرافهم الدقيق .

إنّ الاستعمار في حقيقة أمره ، هو امتداد للحروب الصليبية التى كانت في ظاهرها حروباً دينية ، وفي باطنها حروباً استعمارية . وكانت العودة الى احتلال بلاد العرب وديار الاسلام حلماً ظل يراود الغربيين منذ هزيمة الصليبيين هزيمة نكراء في البلاد العربية والاسلامية : « فاتجهوا الى دراسة هذه البلاد في كل شئونها من عقائد وعادات وأعراف وأخلاق وثروات ، ليتعرفوا على مواطن القوة فيها فيضعفوها ، والى مواطن الضعف فيغتنموه »(٣٦) .

ولم تكن علاقة الاستعمار بالاستشراق ــ كما يظن ــ هى مجرد

---

(٣٦) ادوارد سعيد ــ الاستشراق (٦٨ ، ٧٠) .

إضفاء طابع التسويغ العقلي على المبدأ الاستعماري ، بل كان الأمر – كما يقول إدوارد سعيد أيضاً – أبعد من ذلك وأعمق ، فالتسويغ الاستشراقي للاستعمار في شعاب الشرق وأوديته من أجل فرض السيطرة على الشرق وإخضاع شعوبه وإذلالها ، لأن التسويغ الاستشراقي للسيادة الاستعمارية قد تم قبل حدوث السيطرة الاستعمارية على الشرق ، وليس بعد حدوثها ، فكان التراث الاستشراقي بمثابة دليل للاستعمار : مهد له السبل ، وأنار له الطرق ، وذلل له العقبات : « فالمعرفة تمنح القوة ، ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة ، فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية »[٣٧] .

ولم يكتف المستشرقون بما قدموه للاستعمار من معلومات قبل السيطرة الاستعمارية ، بل تعاونوا معه تعاوناً وثيقاً في أثناء فرض السيطرة الاستعمارية ، وبقوا متعاونين معه على عهد الاستعمار . فلما ولى عهد الاستعمار العسكرى والسياسى ، توجهوا وجهات أخرى ، ومنها الاتصالات بالدول العربية النفطية ، كما هو معروف .

وهكذا اتجه الاستشراق المتعاون مع الاستعمار – بعد الاستيلاء العسكرى والسياسى على بلاد المسلمين – الى اضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين ، بتشكيك المسلمين في معتقداتهم وتراثهم وطاقاتهم ، حتى يتم للاستعمار اخضاع المسلمين اخضاعاً تاماً للحضارة الغربية والثقافة الغربية ، وهى حضارة وثقافة مسيحية بلا جدال .

وهكذا خرج الاستعمار العسكرى والسياسى من الباب ، ليدخل باستعمار أخطر وأشد فتكاً ، هو الاستعمار الفكرى من الشباك .

---

(٣٧) د. البهي – الفكر الاسلامي الحديث – ص (٥٣٤) .

جـ. الاستشراق ويهود :

موقف يهود من الاسلام والنبي صلى الله عليه وسلم معروف ، وعداوتهم للاسلام والمسلمين وللنبي صلى الله عليه وسلم معروفة ، وأهدافهم التخريبية التى مارسوها على الاسلام والمسلمين منذ جاء الاسلام مكشوفة ، وكل ذلك مسجل في المصادر الاسلامية المعتمدة وغير الاسلامية أيضا .

لقد حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم بالاشاعات والدسائس والفتن والمؤامرات ، وحرضوا عليه مشركي قريش والأحزاب ، وخانوا العهود ونقضوا العقود ، واستقتلوا في حرب النبي صلى الله عليه وسلم والاسلام والمسلمين ، وحاولوا اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم مرات ، وقاتلوا المسلمين في المدينة وخارجها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في أربع غزوات : غزوة بنى قينقاع في السنة الثانية الهجرية ، وغزوة بنى النضير في السنة الرابعة الهجرية ، وغزوة بنى قريظة في السنة الخامسة الهجرية ، وغزوة خيبر في السنة السابعة الهجرية[٣٨] .

وبعد أن التحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى سنة إحدى عشرة الهجرية ، لم يكف يهود عن محاولاتهم التخريبية على الاسلام والمسلمين ، مع أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمح لهم بالعودة الى القدس ، وكان الروم قد حرموهم من هذا الحق ، وعاشوا في ظل الحكم الاسلامي ورعاية المسلمين حياة لم يكونوا يحلمون بها من قبل ، وحظوا برعاية خاصة في الأندلس لايزالون يذكرونها ويتذكرونها في بحوثهم ومؤلفاتهم ، فلما أفل نجم المسلمين في الأندلس اضطهدهم النصارى اضطهاداً عظيما .

وقد تولوا في الدولة الاسلامية مناصب مهمة ، كالادارات المالية

---

(٣٨) الرسول القائد (١٥٣ ـ ١٥٥ ، ٢٠٥ ـ ٢٠٩ ، ٢٤٤ ـ ٢٤٧ ، ٢٩٣ ـ ٢٩٨) ـ ط ٥ ـ دار الفكر في بيروت ـ ١٣٩٤هـ .

وغيرها ، وكانوا أحراراً في معاملاتهم المالية ، فأثرى كثير فهم ثراء فاحشا ، وامتلكوا الأرض والبساتين والمزارع والانعام .

ومع ذلك دأبوا على الدس والتخريب ، ونشروا الاسرائيليات حتى في قسم من التفاسير ، وحرضوا على الفتن والقلاقل والاضطرابات ، ودسوا في الدين ، وأشاعوا المذاهب المنحرفة والآراء التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وكان سبيلهم الى ذلك تظاهرهم بالاسلام ، وهم يعملون على تخريب الاسلام .

هذا غيض من فيض في جهود يهود التخريبية على الاسلام والمسلمين ، لم أدونها على سبيل الحصر ، بل على سبيل التذكير حسب . فالمقالات والدراسات والبحوث والمؤلفات حول الموضوع أكثر من أن تحصى ، وصدق الله العظيم : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)[٣٩] .

فما هي الأسباب التى دفعت بعض يهود على الاقبال الى الدراسات الاستشراقية ؟ وما هو الدور الذى قاموا به في اطار الحركة الاستشراقية ؟ .

والجواب على ذلك سهل وصعب في آن واحد ، سهل ، لأن آثارهم التخريبية تدل عليهم . وصعب ، لأن المراجع التى تتحدث عن الاستشراق وتطوره قد أغفلت الحديث عن هذا الجانب . وسبب اغفال الحديث عن هذا الموضوع ، يرجع الى أن المستشرقين من يهود قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصراً أساسياً في اطار الحركة الاستشراقية الأوروبية النصرانية ، فقد دخلوا الميدان بوصفهم الأوروبي لابوصفهم اليهودى . وقد استطاع كولدزيهر في عصره ، وهو يهودى مجرى ، أن يصبح زعيم علماء الاسلاميات في أوروبا بلا منازع ، ولا تزال كتبه حتى اليوم تحظى بالتقدير والاحترام من كل فئات المستشرقين .

---

(٣٩) الآية الكريمة من سورة المائدة (٥ : ٨٢) .

وهكذا لم يرد يهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهوداً ، حتى لايعزلوا أنفسهم ، وبالتالى يقل تأثيرهم • ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوروبيين ، وبذلك كسبوا مرتين : كسبوا أولاً فرض أنفسهم على الحركة الاشتراقية كلها ، وكسبوا ثانياً تحقيق أهدافهم في النيل من الاسلام ، وهى أهداف تلتقى مع أهداف غالبية المستشرقين النصارى[٤٠] ، ولو أنها تفوقها حقداً وخبثاً وامعاناً في التخريب •

ويشير الأستاذ الدكتور محمد البهى رحمه الله في كتابه : (الفكر الاسلامى الحديث) ، الى ملاحظة لبعض الباحثين حول تفسير أسباب اقبال يهود على الاستشراق • وتتلخص تلك الملاحظة ، في أنهم أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية وسياسية • أما الاسباب الدينية ، فانها تتمثل في محاولة اضعاف الاسلام والتشكيك في قيمه باثبات فضل يهود عليه ، وذلك بالادعاء أن اليهودية – في نظرهم – هى مصدر الاسلام الأول • أما الاسباب السياسية فانها تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولاً ، ودولة ثانياً •

ويرى الدكتور البهى ، أن وجهة النظر هذه على الرغم من أنها لاتعتمد على مصدر مكتوب يؤيدها ، فان الظروف العامة والظواهر المترادفة في كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه ، وتضفى عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمى[٤١] •

والواقع المشهود أبلغ من كل مصدر مكتوب وأصدق ، لأن المصدر المكتوب يمكن أن يمازجه الكذب والاختلاق ، أما الواقع المشهود فلا كذب فيه ولا اختلاق •

من أمثلة ما حاوله المستشرقون من يهود في التشكيك في الدين الاسلامى ، محاولة كبيرهم الذى علمهم السحر كولدزيهر ، فهو أول

---

(٤٠) د. زقزوق – الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (٤٨ – ٤٩) •
(٤١) مجلة الباحث (١٤٤) •

مستشرق قام بمحاولة واسعة شاملة للتشكيك في الحديث النبوى الشريف .
ويلخص بفانمولر عمل كولدزيهر في هذا المجال فيقول : « .... وقد قادته المعايشة العميقة لمادة الحديث الهائلة الى الشك في الحديث ، ولم يعد يثق فيه مثلما كان دوزى لايزال يفعل ذلك في كتابه : (مقال في تاريخ الاسلام) .
وبالأحرى كان كولدزيهر يعتبر القسم الأعظم من الحديث بمثابة نتيجة لتطور الاسلام الدينى والتاريخى والاجتماعى في القرن الأول والثانى ، فالحديث بالنسبة له لايعد وثيقة لتاريخ الاسلام في عهده الأول : عهد طفولته ، وانما هو أثر من آثار الجهود التى ظهرت في المجتمع الاسلامى في عصور المراحل الناضجة لتطور الاسلام » ، وقد ورد ذلك في كتاب : (دراسات اسلامية) لكولدزيهر[٤٢] .

واذا أمعنت النظر في حرص الصحابة على حفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقله وحرص التابعين وتابعى التابعين فمن بعدهم ، على نقل هذا الحديث وجمعه ، وتنقيته من شوائب التحريف والتزيد ، وما قام به علماء السنة المطهرة من جهود جبارة في تتبع الكذابين والوضاعين ، وفضح نواياهم ودخائلهم ، وبيان مازادوه في السنة من أحاديث مكذوبة ، حتى جمعت السنة في كتب صحيحة ، وأشبعها النقاد بحثاً وتمحيصا ، ثم خرجوا من ذلك الى الاعتراف بصحتها والتسليم بها .... اذا أمعنت النظر في ذلك كله ، أيقنت أن هؤلاء المستشرقين يخبطون في أودية الأوهام ، ويتأثرون بأهوائهم وتعصبهم في الحكم على حقائق يعتبر العبث بها في نظر المحقق المنصف اسفافاً وتلاعباً بالعلم ، واخضاعاً لحقائق التاريخ الى نظريات الهوى والعصبية[٤٣] .

---

(٤٢) د. علي حسن عبدالقادر ــ نظرة عامة في الفقه (١٢٦) ، والدكتور مصطفى السباعي ــ السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي (٣٦٧) ، والدكتور زقزوق ــ الاستشراق والخلفية الفكرية (١٠١) .

(٤٣) د. مصطفى السباعي ــ السنة ــ (٣٧٣) ، وانظر تفاصيل الرد على =

والأمر الذى لاشك فيه ، أن علماء المسلمين الذين اهتموا بجمع الحديث النبوى الشريف ، لم يفرطوا اطلاقاً في ضرورة التدقيق الذى لاحد لـه في رواية الحديث ورواية الحقائق ، فقد وضع القرآن الكريم أمامهم أهـم قاعدة من قواعـد النقد التاريخى في قولـه تعالى : (ياأيها الذيـن آمنوا إنْ جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)[٤٤] . وتتمثل هذه القاعدة ، في أن أخلاق الراوي تعد عاملاً مهماً في الحكم على روايته . وقد أفـاد المسلمون إفادة عظيمة من هذه القاعـدة وطبقوها على رواة الأحاديث النبوية ، وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدى على رواة الأحاديث ، هو الذى تطورت عنـه بالتدريج قواعد النقد التاريخى[٤٥] .

ولعلماء الحديث باع طويـل في نقـد الرواة وبيان حالهم من صدق أو كذب ، فقد وصلوا في هذا الباب الى أبعد مدى ، وأبلوا فيه بلاءً حسنا ، وتتبعوا الرواة ودرسوا حياتهـم وتاريخهم وسيرتهم وما خفى من أمرهـم وما ظهر ، ولم تأخذهم في قول الحق فيهم لومة لائم ، ولامنعهم عن تجريح الرواة والتشهيـر بهم ورع ولا حرج . قيـل ليحى بن سـعيد القطـان : « أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله ﷻ » ، فقال : « لأن يكون هؤلاء خصمى ، أحب الى من أن يكون خصمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لم لم تذب الكذب عن حديثى »[٤٦] .

وقد وضع رجال الحديث القواعد الدقيقة التى ساروا عليها ، فيمن يؤخذ منه ومن لايؤخذ منـه ، ومن يكتب عنـه ومن لايكتب . ويعلـم

=
كولدزيهر في كتاب السنة (٣٧٤ ـ ٤٠٠) ، من أراد الاطلاع على تلـك التفاصيل ، فليرجع الى ذلك المرجع ، فقد افاض في الرد على كولدزيهر بما لا مزيد عليه .

(٤٤) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٦ : ٦) .

(٤٥) د. محمد اقبال ـ تجديد التفكير الديني في الاسلام ـ (١٦٠ وما بعدها) .

(٤٦) د. السباعي ـ السنة (١٠٨) .

كولدزيهر وغيره من المستشرقين ذلك حق العلم ، ويعلمون أيضاً أن مابذله المسلمون في توثيق الحديث لم يبذل أحد من أتباع النصرانية واليهودية عشر معشاره في سبيل توثيق العهدين القديم والجديد ، ويعلمون أيضاً أن إماماً من أئمة الحديث مثل البخاري لم يأخذ في صحيحه بعد حذف المكرر الاحوالى أربعة آلاف حديث فقط من مجموع حوالى نصف مليون حديث قام بجمعها وغربلتها ، حتى انتقى منها هذه الآلاف القليلة نتيجة للمناهج العلمية الدقيقة التى وضعها المحدثون . ولم يكن المسلمون في وقت من الأوقات بحاجة الى من يعلّمهم ذلك من أمثال كولدزيهر ومن سار على نهجه ومن اقتفى آراءه من المستشرقين والمستغربين[٤٧] .

ولايزال علماء المسلمين حتى اليوم ، يدققون في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشرون دراساتهم وبحوثهم ومؤلفاتهم ، وماكتبوه أكثر من أن يحصى ، وأعرف من أن يعرّف .

ولم يقتصر المستشرقون من يهود على التشكيك في الحديث النبوى الشريف ، بل تعداه الى المصدر الأول للاسلام ، وهو القرآن الكريم ، فقد بذل يهود قصارى جهدهم للتشكيك في القرآن والدس في تفسيره ، ولما اخترعت المطابع حاولوا تحريف القرآن الكريم وتحوير بعض آياته وحذف قسم منها ، وأصدروا طبعات من القرآن الكريم ووزعوها في افريقية خاصة وفي الدول غير العربية عامة ، ولكن علماء المسلمين كانوا لهم بالمرصاد ، ففضحوا تلك الطبعات المزورة من القرآن الكريم ، وكشفوا ما جاء فيها من أخطاء ، وحذروا المسلمين من الاعتماد عليها أو قراءتها . ثم صدرت قرارات علماء المسلمين في الاعتماد على الطبعات القرآنية المطبوعة باشراف هيئات اسلامية معتمدة ، بعد اقرارها من هيئات علمية معتمدة أيضا ، كمجمع البحوث الاسلامية في الأزهر الشريف مثلاً ، وعدم الاعتماد على طبعات

---

(٤٧) د. زقزوق ــ الاستشراق (١٠٤) .

القرآن الكريم غير المصدق عليها من الهيئات الاسلامية العلمية المعتمدة ، وحرق ماتيسر من تلك الطبعات غير المعتمدة خوفاً من التزوير الذي يتولى كبره مستشرقو يهود عمداً وعن سبق إصرار •

حتى في مجال العلوم والآداب والفنون التي في فلسطين ، نسبوها لأنفسهم زورا وبهتانا ، وجعلوا العرب والمسلمين دخلاء على المنطقة دون الالتفات الى آلاف القرون التي كان العرب فيها من سكان فلسطين الأصليين قبل الاسلام وبعده ، فدسوا في التاريخ وجعلوا عملاءهم يدسون أيضا لقاء أجر معلوم ، فقلبوا الحقائق رأساً على عقب ، وشوهوا الصورة العربية الاسلامية بالنسبة للأجانب بخاصة ، ومن المؤسف أن هذا التشويه أخذ ينتقل بالعدوى الى العقول العربية والاسلامية ويغزو الجامعات والمعاهد الثقافية وأجهزة الاعلام العربية والاسلامية بشكل أو بآخر ، وظهر أنه كان ليهود والصهاينة عملاء بين مفكري العرب والمسلمين ، وكان ظهورهم خاصة بعد توقيع اتفاقية (كامب ديفيد) بين السادات والعدو الصهيوني ، فأصبح للكيان الصهيوني سفارة معتمدة في القاهرة بلد الأزهر الشريف ، وأصبح للقاهرة سفارة معتمدة في تل أبيب !!

أما الأسباب السياسية لاقبال يهود على الاستشراق ، فقد بذلوا قصارى جهدهم عالميا لاثبات أن فلسطين لهم لا للعرب والمسلمين ، وذلك قبل زرع الكيان الصهيوني في الأرض المقدسة فلسطين سنة (١٣٦٨هـ = ١٩٤٨م) ، وأصدروا دراسات لاتعد ولا تحصى حول هذا الموضوع ، وجعلوا لكل مدينة وقرية وسهل وجبل وواد في فلسطين اسما عبريا ، فلما حققوا أهدافهم في إنشاء الوطن القومي في فلسطين ، ثم توسعوا بالتدريج ، ألغوا الأسماء العربية الشائعة منذ قرون ووضعوا مكانها الاسماء العبرية ، وهكذا هودوا فلسطين العربية الاسلامية ، وفرضوا تزويرهم بالقوة •

وقد استقدمت جامعة الدول العربية الى القاهرة في أوائل السبعينات

يهوديا يزعم أنه ليس صهيونيا ، فألقى خطابا في قاعة من قاعات جامعة الدول العربية في حشد حاشد من المثقفين والسياسيين العرب المسلمين، وكنت يومها في القاهرة رئيسا للجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربيـة ، فشهدت تلك المحاضرة ، ولما أنهى المحاضر محاضرته ، سأله ممثل السعودية في لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية تنفيذا لرغبتي وبتشجيع مني : « هل توافق على رحيل الصهاينة عن فلسطين ، وإعادتهـا لأصحـابها الشرعيين من العرب والمسلمين ؟ » ، فأجاب اليهودي غير الصهيوني : « لا ، ان اسرائيل وجدت لتبقى ! »، وكنت ولا أزال وسأبقى لا أرى فرقا جوهريـا بين اليهودي والصهيوني ، لأن الصهيوني الجيد هو اليهودي الجيد[٤٨] ، ولكن اجابة ذلك اليهودي غير الصهيوني عززت رأيي الذي لم يكن بحاجـة الى تعزيز . والمهم أن يتيقن من هذه الحقيقة الناصعة من لايزال يعتقد أن اليهودية شيء والصهيونية شيء آخر ، والواقع أنهما وجهان لعملة واحدة : الأصل اليهودية ، والفرع السياسي الصهيونية ، كما أن لليهودية وجوهاً كثيرة غير الصهيونية بأسماء شتى : سياسية ، واجتماعية ، وانسانية ، كالماسـونية ونوادي الروتري والمايونيز ، فهي روافد تصب في اليهودية وتعمل لخدمتها .

وكما أنه لافرق بين اليهودي والصهيوني الا في عقول المغرر بهم ، فلا فرق أيضا بين يهودي تقدمي ويهودي رجعي الا في عقول المغرر بهم أيضا ، فما وقف يوم يهودي تقدمي ضد مصالح اسرائيل العليا، ولا كان على يهود مع العرب ، وما فرقت قنابل الصهاينة في الحروب العربية الصهيونيـة بين عربي تقدمي وبين عربي رجعي ، بل صبت حممها على التقدميين العرب والرجعيين، ولكن هذه الشعارات الزائفة يرفعها يهود في أيام السلام ليقتتل بها العرب والمسلمون فيما بينهم ، ولينشب الخلاف والصراع بين صفـوفهم ، ولـكي

---

(٤٨) هذا هو نص مقولة ابن غوريون ، رئيس وزراء اسرائيل الاسـبق ، واهل مكة أعرف بشعابها .

لايجتمعوا على حرب الصهاينة ويتخذوا منها عدوهم الأول ، لأن هذه الشعارات فرقتهم بددا وشرذمتهم عددا ، وجعلت بأسهم بينهم شديدا ، فلم يبق العدو الصهيوني في نظرهم العدو الأول ، بل أصبح لكل فئة منهم عدو له أسبقية على العدو الصهيوني ، والمستفيد الوحيد أولا وأخيرا هو العدو الصهيوني بلا مراء من هذا الاقتتال .

ولو تتبعنا كل جذور الفساد ، ليس بالنسبة للعرب والمسلمين حسب ، بل بالنسبة للعالم كله ، لوجدنا أنه يهودي الفكر والمنبت والانتشار ، فهم وراء خلق الربا ، ونشر الرذيلة ، وإشاعة الفحشاء ، وتبني الفساد ، وخلق المؤامرات ، وترويج الفتن ، والسعي الى خراب الذمم وتخريب العمار ، واختلاق التشكيك والدس والأكاذيب ، وصدق الله العظيم : (الذين يُفسِدون في الأرض ولا يُصلِحون)[٤٩] .

ولا ضرورة للتمادي بالشرح والتعليل ، فليس المسلمون بحاجة الى إثبات كراهية يهود للاسلام .

وقد ظل يهود طوال تاريخهم يتحينون كل فرصة متاحة ليكيدوا للاسلام والمسلمين ، بشتى الطرق والأساليب ، ومنها مجال الاستشراق ، اذ وجدوا فيه بابا ينفثون منه سمومهم على العرب والمسلمين والاسلام ، فدخلوا هذا المجال مستخفين تحت رداء العلم ، كما وجدوا في الصهيونية بابا آخر يفرضون منه سيطرتهم على العرب والمسلمين ، بالقوة ، وبالسياسة ، وبالاعلام .

د . العمل في مجال المجابهة :

أولاً : كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة ــ التي كانت تمثل تحديا للاسلام والفكر الاسلامي الأصيل في عصور الاسلام الزاهرة ــ كانت حافزا للمسلمين في تلك الأيام الخوالي ، للوقوف أمامها بقوة وصلابة . وقد

---

(٤٩) الآية الكريمة من سورة النمل (٢٧ : ٤٨) .

كانت المواجهة على مستوى التحدي بل تفوقه ، اذ هضم الفكر الاسلامي تلك التيارات هضما كاملا واستوعبها استيعابا تاما ، ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبالأسلحة الفكرية نفسها .

فالمواجهة اذاً ، كانت مواجهة فكرية .

والتاريخ اليوم يُعيد نفسه ، فالحرب اليوم بين الاسلام والتيارات المناوئة له حرب أفكار ، والمعركة معركة فكرية ، ولهذه المعركة أدواتها التي يجب التسلح بها ، لأن الخسران في هذه المعركة أشد وطأة وأقوى تأثيراً وأعظم فتكاً من خسارة أية معركة حربية أياً كان حجمها المادي والمعنوي ، لأن ذلك التأثير يدوم ساعة ، والتأثير الفكري قد يدوم الى قيام الساعة .

لننظر مثلاً مثالا رائداً في تاريخ الفكر الاسلامي ... انه حجة الاسلام الغزالي الذي خاض غمار معارك فكرية عديدة وخرج منها جميعا منتصرا ، فماذا كان يفعل ؟ يقول الامام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال)[50] : «... إنه لايقف على فساد نوع من العلوم من لايقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعلمهم من أهل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطّلع عليه صاحب العلم ... واذ ذاك يمكن أن يكون مايدّعيه من فساده حقاً »[51] .

إن استيعاب الانتاج الاستشراقي حول الاسلام ودراسته دراسة عميقة، هو الخطوة الأولى لنقده نقدا صحيحا وإثبات ما يتضمنه من تهافت أو زيف ، الأمر الذي يجعل المستشرقين المنحرفين عن الصواب ، يفكرون ألف مرة قبل أن يكتبوا ، تحسباً لما قد يواجههم من نقد علمي يعريهم ويكشف زيف ادعاءاتهم .

---

(٥٠) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (١٢٤ ــ ١٢٥) .
(٥١) الغزالي ــ المنقذ من الضلال ــ تحقيق الشيخ عبدالحليم محمود (١٠٣) ــ القاهرة ــ بدون تاريخ .

ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون ، حين يشير الى أن النقد الأوروبي ربما يكون غير عادل في نقاط معينة ، ولكن القيام بتفنيد هذا النقد يقتضي بدوره دراسته أولا ، اذ لايمكن نقضه الا على الأساس نفسه الذي قام عليه [٥٢] .

ويجب أن يرتبط نقدنا لانتاج المستشرقين بنقد ذاتي حقيقي بشكل مستمر ، ويجب أن نواجه أنفسنا مواجهة حقيقية بعيوبنا وتقصيرنا ، وأن نكون على وعي حقيقي بالمشكلات التي تواجهنا في هذا العالم المعاصر [٥٣] ، فمعرفة الداء وتشخيصه هو السبيل الى وصف الدواء الذي يؤدي الى الشفاء . أما التكتم على الداء ، فيؤدي الى الخطأ في وصف الدواء ، والنتيجة تبقى في ضياع فرصة الوصول الى الشفاء .

ثانياً : والاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء بين المسلمين ، فهناك من يؤيده ويتحمس له الى اقصى حد ، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا ويلعن كل من يشتغل به لعنا كبيراً بوصفه عدوا لدودا للاسلام والمسلمين .

والواقع الذي لايمكن انكاره ، هو أن الاستشراق له تأثيراته القوية في الفكر الاسلامي الحديث إيجابا أو سلبا أردنا أم لم نرد ، ولهذا فاننا لانستطيع أن نتجاهله أو نكتفي بمجرد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة .

وفي هذا الصدد ، لابد من التأكيد على أن التزام الموضوعية هو دائما في صالح الاسلام ، فاذا افتقد الاسلام لدى أتباعه الوعي السليم والفهم الصحيح لأصوله وغاياته ، فان مواقف هؤلاء الأتباع ـ مهما حسنت النيات ـ لن تخرج عن مواقف الصديق الجاهل الذي هو أضر بالاسلام من العدو

---

(٥٢) M. Rodininson : Mohammed, Frankfurt M. 1975, P. 8.

(٥٣) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (١٢٦) .

العاقل (٥٤) .

ولكن ينبغي أن نتحرر من : (عقدة التخلف) التي تسيطر علينا في جميع مناحي حياتنا . فقد تحرر العرب والمسلمون من جميع أنواع الاستعمار الا الاستعمار الفكري ، فلا يزالون يرزحون تحت وطأته . ويبدو أن : (عقدة الخواجة) والتقدير الفائق لقدرات الأجنبي أمر ضارب بأطنابه في نفوسنا : فلابد من تغيير جذري في مناهج التعليم . ولابد من اعادة النظر في ثقافتنا وفي تفكيرنا .

إن مناهج التعليم وضعها المستعمر ، وهي التي أدت الى تعميق الاستعمار الفكري في عقول العرب والمسلمين ونفوسهم معاً ، فاذا كان المستعمر وضع هذه المناهج لتحقيق أهدافه في استعباد قلوبنا وعقولنا ، وكانت مصلحته في وضع مثل هذه المناهج ، فلماذا يُبقي عليها العرب والمسلمون بعد أن رحل المستعمر عن بلادهم الى غير رجعة باذن الله ؟!

والعجيب أن أيتام المستعمر من العرب والمسلمين وهم المستغربون : يصرون على بقاء هذه المناهج ويدعون اليها ، بل يضيفون على انحرافها القديم من عند أنفسهم انحرافا جديدا .

فهل نحن حريصون حقا على الحفاظ على هويتنا وعقائدنا وتراثنا واستقلالية شخصيتنا الاسلامية ؟!

إذا كانت الاجابة بالايجاب ، فنحن أصحاب (قضية) يجب أن نعمل من أجلها بكل طاقاتنا ... وهي قضية مصيرية من أجل إثبات الذات ... قضية صراع حضاري مرير .

والاستشراق طرف في هذه القضية ، لأن كثيرا من الدراسات الاستشراقية

---

(٥٤) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (١٤ ــ ١٦) .

في مجال الاسلاميات ، تهدف بطريق مباشر أو غير مباشر الى طمس معالم هويتنا ، والتشكيك في عقائدنا وتراثنا ، والنيل من استقلالية شخصيتنا العربية والاسلامية . والتصدي لذلك من جانبنا له أساليب مختلفة ترتكز كلها على شرط جوهري لابد من توفره قبل أن نخطو خطوة واحدة في هذا السبيل، ويتمثل هذا الشرط في الثقة بالنفس والايمان بالهدف(٥٥) .

إن المناهج التعليمية التي وضعها دانلوب وأساتذته وطلابه في مصر ، كانت مناهج غربية في كل خصائصها وتفاصيلها ، لاتتلاءم مع طبيعة المجتمع المسلم ، فهي تؤدي الى تغريب المجتمع المسلم لدرجة الذوبان الكامل والفناء التام فكرا وعقيدة ونظاما اجتماعيا في الحضارة الغربية ، لذلك أنتجت مثقفين يعرفون عن نابليون أكثر مما يعرفون عن خالد بن الوليد ، وعن شكسبير أكثر مما يعرفون عن الجاحظ ، ويسمعون السباب علنا في لغتهم ودينهم ثم لايستنكرون هذا السباب ولا يضيقون به ذرعا !!

بل يذهب قسم من المستغربين العرب والمسلمين الى مدى أبعد من ذلك ، اذ يترجمون سباب المستشرقين وتشكيكهم وأخطاءهم وانحرافاتهم ، ثم يملأون عقول طلابهم وتلاميذهم وقرائهم بها ، دون تكلف الرد عليها أو تصحيح أخطائها أو تقويم انحرافاتها ، مما يدل على أنهم يتفقون مع المشككين في تشكيكهم ويقرون أخطاءهم ويؤيدون انحرافهم ، فهم عون للأجنبي على باطله في مهاجمة قومهم وأبناء دينهم على حقهم الواضح الصريح.

ثالثاً : إن المواجهة الفكرية الجادة ، هي السبيل الوحيد لمجابهة أية تيارات مناوئة للاسلام والمسلمين ، فلابد من الانكباب على دراسة الاستشراق دراسة عميقة واعية ، وتأليف موسوعة في الرد على المستشرقين .

وينبغي أن يكون تناولنا للموضوعات التي تشمل عليها الموسوعة

---

(٥٥) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (١٣٠) .

الاسلامية المقترحة ، تناولا موضوعيا مدعما بالحقائق العلمية والشواهد التاريخية والبراهين العقلية ، وكذلك بالأسانيد الدينية فيما يتعلق بالعلوم النقلية التي يعترف المستشرقون بالمناهج التي استخدمت فيها .

ويتطلب الرد على الشبهات والطعون التي أثارها المستشرقون ، عرض هذه الشبهات والرد عليها تفصيليا بعيدا عن الأساليب الهجومية ، حتى يكون لهذا العمل العلمي أثره الأيجابي لدى المثقفين من كل الطبقات مسلمين وغير مسلمين ، وحتى يكون دافعا للمستشرقين الى إعادة النظر في أقوالهم وعونا لهم على تصحيح اتجاهاتهم حول الاسلام وتاريخه وحضارته ؛ اذا كان هؤلاء المستشرقون صادقين في ادعائهم أنهم مع الحق على الباطل ومع العلم على الجهل ،فاذا ظهر لهم الحق في العلم انصاعوا له وأذعنوا وعادوا الى الطريق السوي . وفي النهاية ، يكون هذا العمل العلمي ، بمثابة تعريف بالاسلام ، لكل راغب في التعرف عليه .

وينبغي أن تقتصر هذه الموسوعة على الموضوعات التي كانت مثار أخذ ورد وجدل لدى المستشرقين ، وبصفة أساسية في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين .

ومن المعروف أن المستشرقين لايشكلون اتجاها واحدا في كل المسائل الاسلامية التي تعرضوا لها ، فهناك مسائل يختلفون فيها بين مؤيد ومعارض، لذلك ينبغي إبراز ردود بعض المستشرقين على بعضهم الآخر بصدد بعض الشبهات التي أثاروها حول الاسلام والحضارة الاسلامية واللغة العربية .

وينبغي أن تصدر الموسوعة بدراسة حول الاستشراق بوجه عام ، على أن تبين هذه الدراسة أهداف الاستشراق ومناهجه والأسباب التي دعت الى الدراسات الاستشراقية وأدت الى إثارة الطعون والشبهات حول الاسلام وتاريخه وحضارته .

رابعاً : لقد طرق المستشرقون في دراستهم كل فروع العلوم الاسلامية والفكر الاسلامي بصفة عامة ، وركزوا على بعض القضايا الهامة التي تتصل باصالة الدين الاسلامي وأصالة الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية . ويمكن تقسيم المجالات العلمية التي ستكون محورا للتناول في هذه الموسوعة الى مجالين رئيسين يندرج تحتهما فروع مختلفة : أولا ، علوم دينية ، وتشمل دراسات المستشرقين حول الدين الاسلامي بصفة عامة ، وحول القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بصفة خاصة ، مع العناية بدراسة الترجمات المختلفة التي قاموا بها للقرآن الكريم ، وتقويم هذه الترجمات . وتشمل كذلك الدراسات المتعلقة بالتفسير وعلوم القرآن والحديث وعلومه والفقه الاسلامي ، وعلم الكلام والتصوف وأصول الفقه . مع الاهتمام بتقويم مناهج المستشرقين في هذه الدراسات ووضعها في ميزان النقد العلمي، وبيان ملاءمتها أو عدم ملاءمتها لهذه الدراسات. وثانيا : علوم انسانية ، وتشمل علوم الفلسفة واللغة وعلومها والأدب وتاريخه والنقد الأدبي والسيرة النبوية والتاريخ الاسلامي والجغرافيا والعمارة والفنون الاسلامية ، كما تشمل أيضا الحساب والجبر والهندسة والفلك وعلوم الكيمياء والفنون والطب والصيدلة والنبات والحيوان . مع الاهتمام بمدى اصالة المسلمين وابداعهم في كل هذه المجالات ، ومدى ما أسهموا به وقدموه للحضارة الانسانية .

خامساً : يجب في البداية القيام بحصر شامل لكتابات المستشرقين عن المجالات سالفة الذكر في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين بصفة أساسية باللغات : الانكليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والاسبانية ، والايطالية، والروسية ، ويشمل هذا الحصر الكتب والمجلات والدوريات ... الخ...

والقيام بعملية حصر هذه الأعمال الاستشراقية ، يحتاج الى خبير في كل لغة من هذه اللغات الست وبالعلوم التي يجري حصرها ، والى عدد من المساعدين في مجال كل لغة من تلك اللغات ، على أن يُستعان في هذا الحصر

بالمتخصصين في المجال الاستشراقي ممن اعتنقوا الاسلام في أوروبا وغيرها من القــارات •

ويقوم جهاز متعاون من الخبراء في اللغات الست المشار اليها ، بتحضير المادة وتصنيف الموضوعات ، وضم المادة التي يتكرر الحديث عنها في لغــات مختلفة تحت موضوع واحد ، حتى يتم الرد عليها جملة واحدة •

وتقدم المادة للعلماء الذين سيقومون باعداد الردود العلمية ، ويُراعى عند تقديم هذه المادة لهم أن تترجم لهم الأفكار الأساسية للقضايا المطلوب الكتابة فيها من اللغات التي لايجيدون القراءة بها ، حتى يكون لديهم تصور كامل شامل لكل ماقيل حول القضية المطروحة ، وحتى يغطي التناول للموضوع وجهات النظر التي قيلت فيه •

ومن المهم جدا أن يكون الخبراء والعلماء الذين يُختارون للرد عــلى المستشرقين أن يكونوا من الملتزمين بتعاليم الاسلام ، فقد ثبت أن الذيــن سايروا المستشرقين في انحرافهم ونقلوا أخطاءهم الى العرب والمسلمين ، كلهم لم يدخلوا في حياتهم مسجدا ولم يصلوا لله صلاة واحدة •

هؤلاء الملتزمون بالاسلام ، لهم (قضية) يحرصون على الدفاع عنها ، ولا أزيد ، وهم القادرون على الرد العلمي المتزن على انحرافات المستشرقين •

والعبرة ليس بكثرة الخبراء والعلماء المختارين للرد على المستشرقين ، بل العبرة بحسن الاختيار أولا وتفرغهم الكامل لهذا العمل ثانيا ، ومتانتهم العلمية وعملهم بعلمهم وإخلاصهم في عملهم واعتبارهم العلم عبــادة من أجلّ العبادات لاتجارة من أربح التجارات •

ويتم تحرير الموضوعات باللغة العربية ، وفي الحالات التي لايُجيد فيها أحد العلماء المسلمين اللغة العربية ، يمكن الكتابة باحدى اللغات الأجنبية ، على أن يتم ترجمة الموضوع الى العربية فور وصوله •

وعند وصول رد من الردود ، يُحال الى لجنة مختصة بالمراجعة والتدقيق، تحصر مهمتها في فحص الرد من جميع جوانبه الدينية والعلمية والتاريخية... الخ ... ومدى وفائه بالغرض المطلوب ، وهو استيعابه التام للرد على الشبهة المراد الرد عليها وتفنيد حججها بالأدلة الدامغة .

وعندما تعتمد لجنة المراجعة رداً من الردود ، يتم تصويره وتوزيعه على مجموعة من العلماء المتخصصين على مستوى العالم الاسلامي ، لاقراره واعتماده اعتمادا نهائيا ، أو بيان ما قد يكون عليه من ملاحظات ، لتلافي ما فيه من هفوات بموجب تلك الملاحظات .

وبعد مرحلة اعتماد الرد اعتمادا نهائيا ، يتم إعداده للطباعة في إطار مجال من مجالات الفروع الاسلامية والفكر الاسلامي السابق الاشارة اليها ، وفي الوقت نفسه تبدأ مجموعة من الخبراء في ترجمته الى اللغات الأجنبية الست التي ذكرناها ، ويمكن أن يتم النشر في وقت واحد باللغة العربية وبتلك اللغات (٥٦) .

وقد آن الأوان للتفكير ــ على مستوى العالم الاسلامي ــ في إقامة مؤسسة اسلامية علمية عالمية ، لاتنتمي بالولاء لقطر معين ، بل يكون ولاؤها الأول والأخير للاسلام وحده ، كما لاتنتمي بالولاء لمذهب سياسي أو فكري أو ديني معين ، بل يكون ولاؤها كله لله وحده ولرسوله عليه الصلاة والسلام، وتستطيع استقطاب الكفايات العلمية الاسلامية في شتى أنحاء العالم ، وتقف على قدم المساواة مع الحركة الاستشراقية ، ويكون لها دوريات ومجلات علمية ذات مستوى رفيع ، تنشر بحوثها بلغات مختلفة ، وتعمل على استعادة اصالتنا الفكرية واستقلالنا في ميدان الأفكار ، فهذا هو الطريق الصحيح الى الاستقلال الاقتصادي والسياسي ، اذ أن المجتمع الذي لايصنع أفكاره الرئيسة

---

(٥٦) انظر التفاصيل في : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (١٣٠ ــ ١٣٦) .

لايمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه (٥٧) .

سادساً : ولست أجهل الصعوبات التى تحول دون إخراج هذا الاقتراح من حيز الفكر الى حيز التطبيق العملي ، وليست بى حاجة الى تجاهل تلك الصعوبات ، ومن أهم تلك الصعوبات مايخلقه المستشرقون ومن وراءهم من قوى الاستعمار والصهيونية العالمية والعدو الصهيوني ، والمستفيدون من بقاء الاستعمار الفكرى مسيطراً على عقول العرب والمسلمين وقلوبهم ، وما يخلقه أذناب المستشرقين من مستغربين وعملاء ومغرربهم وجهلاء وشعوبيين يكرهون الاسلام بالتظاهر بحب العرب ، أو يكرهون العرب بالتظاهر بحب الاسلام و : « لايكره العرب الا منافق »(٥٨) ، و : « اذا ذلت العرب ذل الاسلام »(٥٩) ، و : « حب العرب ايمان وبغضهم نفاق »(٦٠) ، : « ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم »(٦١) ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، والشعوبى من يكره العرب ومن يكره الاسلام أيضاً .

ولا ينبغي أن ننسى المثبطين من الذين لايعملون ولايحبون أن يعمل غيرهم ، فهم من تلك الصعوبات التي ينبغي تجاوزها أيضاً بالعمل على التغلب عليها وتذليلها . وأول عامل يقود هذا المشروع الى النجاح الكامل ، بل الى الامتياز بالنجاح ، هو اختيار المسئول الأول عن الموسوعة ، وترك

---

(٥٧) انتاج المستشرقين — مالك بن نبي — (٦٢) .
(٥٨) رواه الامام أحمد بن حنبل ، انظر مفتاح كنوز السنة (٣٣٩) .
(٥٩) رواه ابو ليلى في مسنده ، كما رواه ابو يعلى في مسنده ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (١/٤٠) .
(٦٠) رواه الدارقطني عن ابن عمر ، انظر : قادة فتح بلاد الشام ومصر (٣٤٦) .
(٦١) رواه الطبري ، انظر : قادة فتح بلاد الشام ومصر ، وكتاب : الأحاديث النبوية في فضل الامة العربية (١١) و (١٢) .

الحرية الكاملة له : لاختيار العلماء والخبراء والعاملين في مشروع الموسوعة ، على أن يكون عالماً حقاً ، عاملاً بعلمه ، مخلصاً بعمله ، غير مرتزق ولا تاجر علم ، محافظاً على كرامة العلم والعلماء ، لـه قابلية على التخطيط والتنفيذ والادارة •

ولم تنجح جامعة الدول العربية منذ تأسيسها حتى اليوم ، في مشروع علمي أو غير علمي ، الا في مشروع توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية باصدار أربعة معجمات عسكرية موحدة ، ولولا رئيس توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية ، لتفرقت اللجنة قبل أن تنجز شيئاً ، لأن عشرات المشاكل والعقبات قاومت اللجنة ، أكثرها من جامعة الدول العربية بالذات ، ولكن توفيق الله كان مع رئيس اللجنة ، فتغلب على تلك المشاكل والعقبات •

وياحبذا لو تبنت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مشروع هذه الموسوعة ، ليكتب في إخراجها صفحة ناصعة في صفحات المنظمة تبقى على الدهر ، اذ لا أكتم المنظمة أن صفحاتها لاتزال بيضاء لم يسجل عليها مايسر العدو أو يسوء الصديق ، فقد كثرت مؤتمراتها ووعودها ، فسمعنا جعجعة بلا طحن ، وأملنا أن نلمس بعد أن سمعنا جعجعتها طحناً ، علماً نافعاً ينفع الناس ويمكث في الأرض •

فاذا لم تقدم هذه المنظمة على تبنى هذا المشروع ، فان أية دولة عربية نفطية وحتى غير نفطية أيضاً ، تستطيع أن تتبنى هذا المشروع • بل يمكن أن يتبناه أحد أغنياء العرب والمسلمين ، فقد أنعم الله سبحانه وتعالى على كثير من العرب والمسلمين بالثراء والخير • وسيكون للدولة العربية أو الاسلامية التي تتبنى هذا المشروع شأن أي شأن في صفحات الفكر العربي والاسلامي بخاصة ، وفي صفحات الفكر العالمي بعامة ، وحسبه أن يظهر الحق ويزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا •

لقد ذكر هيرتزل في مذكراته ، أنه أنفق الملايين لتشويه سمعة السلطان عبد الحميد وازاحته عن عرشه ، وتشويه الحقائـق الاسلامية ، فصدرت المؤلفات والبحوث والنشرات والمقالات المأجورة لقلب الحقائق رأساً على عقب .

ذلك مااعترف به هيرتزل في مذكراته ، ولا نريد أن تنفق الأمـوال لتشويه سمعة أحد ، أو قلب الحقائق ، بل كل مانريده هو الدفاع عن العربية لغة والاسلام ديناً باظهار الحق وكشف الباطل والرد على التجنى والافتراء والتدليس .

ان الاستشراق يشكل الجذور الحقيقية التي كانت ولاتزال تقدم المدد للتنصير والاستعمار ، وتغذي الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، وتشكل المناخ الملائم من أجل فرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الاسـلامى واخضاع شعوبه ، فالاستشراق هو المنجم والمصنع الفكرى الذى يمد المنصرين والمستعمرين بالمواد يسوقونها في العالم الاسلامى لتحطيم عقيدته ، وهـدم أفكاره ، وتهوين شأنه ، وتبديـد الثقة بنفسه ، والاعتماد على المستعمر ، والثقة به دون سواه . وقد جاء هذا الغزو الثقافى ثمرة من ثمرات اخفاق الغزو العسكرى وسقوطه ، ولتربية أجيال مابعد الاستعمار .

ولاشك في أن الغزو الثقافى أخطر من الغزو العسكرى ، فلا ينبغى السكوت عنه ولا التقليل من أخطاره أو التهوين من شأنه .

ولو كان العرب أكثر قوة وكان المسلمون أكثر تماسكاً واتحاداً ، لـما استكانوا للغزو الفكرى واستسلموا له ، ولكان لهم شأن آخر مع هذا الغزو ، ولكن الضعيف عرضة لاستهانة القوى به ، ومن أشد أنواع هذه الاستهانة وطأة الاستهانة بفكر الضعيف ، حتى اذا كان فكراً متميزاً على أفكار الأقوياء.

وطالما تساءلت : لو استعمل علماء العرب والمسلمين مقاييس النقـد

التى وضعها هؤلاء الغربيون ، في نقد ماعند هؤلاء الغربيين أنفسهم من عقيدة ولغة وعلوم ، فماذا سيبقى للغربيين من عقيدة ولغة وحضارة !؟ .

ترى ! لو استعمل المسلمون معايير النقد العلمى التى يستعملها المستشرقون في نقد القرآن والسنة واللغة العربية والتاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، في نقد كتب المستشرقين المقدسة ، فماذا كان يبقى لهذه الكتب المقدسة والعلوم التاريخية عندهم من قوة !؟ وماذا يكون فيها من ثبوت ؟! .

ترى ! لو استعمل المسلمون أسلوب المستشرقين من تتبع الأخبار الساقطة ، وفهم النصوص على غير حقيقتها ، وقلب المحاسن الى سيئات ، والتشكيك في كل خبر يصدر عن هؤلاء الغربيين ، في الكتابة عن الحضارة الغربية وتاريخ علمائها ، لو حصل هذا لخرجت منه صورة لهذه الحضارة ولرجالها مضحكة مخزية ينكرها المستشرقون قبل غيرهم[٦٢] .

ولكننى لا أتمنى أن أضع هذه التساؤلات في حيز التطبيق العملى ، فالمسلمون يؤمنون بالرسل والأنبياء جميعاً ، ولا يسرهم أن يلحق الأذى بسمعتهم الطاهرة ، كما أنهم دأبوا على اظهار الحق والحرص على مقوماته لا الاعتداء والتجنى وتسقط العيوب وكشف العورات ، لأن الاسلام يأمر بعدم الاعتداء وينهى عن التجنى وتسقط العيوب ، ويأمر بستر العورات والالتزام بالصدق في مختلف الظروف والأحوال .

وما الرد على المستشرقين ، الا لون من ألوان دفع الزور والبهتان ، واعادة الحق الى نصابه ، لأنه يقتصر على الدفاع عن مقدساتنا ولغتنا وتاريخنا وحضارتنا باظهار الحق وازهاق الباطل .

والسفارات النبوية والرسائل النبوية ، جزء لايتجزأ من السنة المطهرة ،

---

(٦٢) انظر : الاستشراق والمستشرقون ـ د. مصطفى السباعي ـ (٦٦ ـ ٦٧) .

وهذا الموضوع موثّق في المصادر توثيقاً يجعله من المسلمات التاريخية التي لاتحتمل الشك .

وحملات التشكيك التى بدأها المستشرقون ، لاتثبت للمناقشة ، وربما كان دافعها الرئيس نفى صفة العالمية عن الدين الاسلامى ، وهى صفة واضحة لايمكن جحودها . واكتشاف الرسائل النبوية ابتداء من سنة (١٢٦٧هـ — ١٨٥٠م) أضاف بعداً جديداً وساعد على المزيد من التوثيق .

والحمد لله الذى وفقنى لهذه الدراسة وأعانني عليها ، وصلى الله على سيدنا ومولانا رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين .

ورضى الله عن قادة الفتح وجنوده ، وقادة الفكر وطلابه ، وعن جميع من أخلص الخدمة للعربية لغة وللاسلام دينا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين[٦٣] .

* ★ *

---

(٦٣) المؤرخ العربي — العدد ٢٣ الصادر سنة (١٩٨٣ — ٣٦١) .

المصادر والمراجع

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبى الكرم محمد بن محمد بن الأثير الجزري الملقب بعزالدين) .

١ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ طهران ـ ١٣٧٧هـ .

٢ـ تجريد أسماء الصحابة ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣١٥هـ .

٣ـ الكامل في التاريخ ـ بيروت ـ ١٣٨٥هـ .

ابن الأثير (أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن الأثير الجزري الملقب بمجدالدين) .

٤ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ـ القاهرة ـ ١٣٦٨هـ .

٥ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ـ القاهرة ـ ط ١ ـ بلا تاريخ .

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي):

٦ـ النجوم الزاهرة ـ القاهرة ـ ١٣٤٨هـ .

ابن تيمية (أبو العباس تقي الدين احمد بن عبدالحليم بن تيمية) :

٧ـ القواعد النورانية ـ القاهرة ـ ١٣٧٠هـ .

ابن تيمية (مجدالدين أبو البركات عبدالسلام بن تيمية الحراني):

٨ـ المنتقى من أخبار المصطفى صلى الله عليه وسلم تحقيق محمد حامد الفقي ـ القاهرة ـ ١٣٥٠هـ .

ابن الجوزي (أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي) :

٩ـ تاريخ عمر ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

١٠ـ صفة الصفوة ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٢٧هـ .

ابن حبيب (محمد بن حبيب) :
١١ـ المحبر ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٦١هـ .
ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني) :
١٢ـ الاصابة في تمييز الصحابة ـ القاهرة ـ ١٣٢٥هـ .
١٣ـ تهذيب التهذيب ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٢٧هـ .
١٤ـ فتح الباري بشرح البخاري ـ مطبعة بولاق ـ القاهرة ـ ١٣٠١هـ .
ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي) :
١٥ـ أسماء الصحابة الرواة ـ تحقيق احسان عباس وناصر الدين الأسد ـ ملحق بجوامع السيرة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .
١٦ـ أصحاب الفتيا ـ تحقيق احسان عباس وناصر الدين الأسد ـ ملحق بجوامع السيرة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .
١٧ـ جوامع السيرة ـ تحقيق احسان عباس وناصر الدين الأسد ومراجعة أحمد محمد شاكر ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .
١٨ـ المحلى ـ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ـ القاهرة ـ ١٣٤٧هـ .
ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خرداذبة) :
١٩ـ المسالك والممالك ـ أعادت مكتبة المثنى طبعة بالأوفسيت بطهران ـ ١٩٦٣م .
ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) :
٢٠ـ العبر في التاريخ ـ القاهرة ـ مطبعة بولاق ـ ١٢٨٤هـ .
٢١ـ مقدمة ابن خلدون ـ القاهرة ـ المطبعة التجارية ـ بلا تاريخ .
ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان):
٢٢ـ وفيات الأعيان ـ تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٤٨م .
ابن دحلان (السيد أحمد بن زيني دحلان) :

٢٣ـ الفتوحات الاسلامية ـ القاهرة ـ ١٣٤٥هـ .
ابن الديبع الشيباني (عبدالرحمن بن علي) :
٢٤ـ تيسير الوصول الى جامع الأصول ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ القاهرة ـ ١٣٤٦هـ .
ابن سعد (أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري) :
٢٥ـ الطبقات الكبرى ـ بيروت ـ ١٣٧٦هـ .
ابن سيد الناس اليعمري (فتحالله أبو الفتح محمد بن محمد بن عبدالله ابن محمد بن يحيى سيد الناس) :
٢٦ـ عيون الأثر ـ القاهرة ـ ١٣٥٦هـ .
ابن طولون (محمد بن طولون الدمشقي) :
٢٧ـ اعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ـ حققه محمود الأرنؤط ـ بيروت ـ بلا تاريخ .
ابن عبدالبر (ابو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر) :
٢٨ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ تحقيق محمد البجاوي ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .
٢٩ـ الدرر ـ القاهرة ـ ١٣٨٦هـ .
ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبةالله بن عبدالله بن الحسين بن عساكر الشافعي) :
٣٠ـ التاريخ الكبير ـ تهذيب ابن عساكر ـ دمشق ـ ١٣٢٩هـ .
ابن عبدالحكم (عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم بن أعين بن ليث المصري أبو القاسم) :
٣١ـ فتوح مصر وأخبارها ـ القاهرة ـ ١٩١٤م .
٣٢ـ فتوح مصر والمغرب ـ تحقيق عبدالمنعم عامر ـ القاهرة ـ ١٩٦١م .
ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني) :

٣٣ـ مختصر كتاب البلدان ـ لايدن ـ ١٨٨٥م .
ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري) :
٣٤ـ عيون الأخبار ـ القاهرة ـ ١٣٨٣هـ .
٣٥ـ المعارف ـ تحقيق ثروت عكاشة ـ ١٩٦٠م .
ابن كثير (عمادالدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي):
٣٦ـ البداية والنهاية في التاريخ ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .
٣٧ـ تفسير ابن كثير ـ القاهرة ـ ١٣٤٧هـ .
ابن ماجة (محمد بن يزيد بن ماجة القزويني) :
٣٨ـ سنن ابن ماجة ـ القاهرة ـ ١٣١٣هـ .
ابن منظور (جمال‌الدين محمد بن مكرم الأنصاري) :
٣٩ـ لسان العرب ـ طبعة بولاق بالقاهرة ـ ١٣٠٠هـ ـ ١٣٠٨هـ .
ابن هشام (أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري) :
٤٠ـ السيرة النبوية ـ تحقيق الشيخ محمد محي‌الدين عبدالحميد ـ القاهرة ـ ١٣٥٦هـ .
أبو داود (سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو بن عامر السجستاني) :
٤١ـ سنن أبي داود ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .
أبو زهرة (الشيخ محمد أبو زهرة) :
٤٢ـ خاتم النبيين ـ طبعة دولة قطر ـ ١٩٧٩م .
أبو الفدا (اسماعيل بن علي عمادالدين صاحب حماة) :
٤٣ـ تقويم البلدان ـ باريس ـ ١٨٤٠م .
٤٤ـ المختصر من أخبار البشر ـ القاهرة ـ ١٣٢٥هـ .
أحمد بن حنبل (الامام أحمد بن حنبل) :
٤٥ـ مسند الامام أحمد بن حنبل ـ القاهرة ـ ١٣١٣هـ .
أحمد رضا (الشيخ أحمد رضا) :
٤٦ـ معجم متن اللغة ـ بيروت ـ ١٣٧٧هـ .

أحمد عطية الله :

٤٧ـ القاموس الاسلامي ـ القاهرة ـ ١٣٨٣هـ .

أسـد رستم :

٤٩ـ الروم ـ بيروت ـ ١٩٥٦م .

الأصبهاني (أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني) :

٤٩ـ حلية الأولياء ـ القاهرة ـ ١٣٥٦هـ .

الأصفهاني (حمزة بن حسن الأصفهاني) :

٥٠ـ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٦١م.

الأصفهاني (أبو الفرج الأصفهاني) :

٥١ـ الأغاني ـ القاهرة ـ ١٣٩٤هـ .

الأصطخري (أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي) :

٥٢ـ المسالك والممالك ـ تحقيق محمد جابر عبدالعال الحسيني ـ ١٣٨١هـ .

بتلر (الدكتور الفريد ج. بتلر) :

٥٣ـ فتح العرب لمصر ـ عربه محمد فريد أبو حديد ـ القاهرة ـ ١٣٥١هـ .

البخاري (أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري) :

٥٤ـ صحيح البخاري ـ بولاق بالقاهرة ـ ١٣٠٠هـ .

البشاري (المقدسي المعروف بالبشاري) :

٥٥ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ لايدن ـ ١٩٠٦م .

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري) :

٥٦ـ أنساب الأشراف ـ الجزء الأول ـ تحقيق الدكتور محمد حميدالله ـ القاهرة ـ ١٩٥٩م .

٥٧ـ فتوح البلدان ـ بيروت ـ ١٣٧٧هـ .

البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل البلخي) :
٥٨ــ البدء والتاريخ ــ مطهر بن طاهر المقدسي ــ نشر كلمان هوار ــ باريس ــ ١٨٩٩م .
البغوى (أبو محمد البغوى) :
٥٩ــ تفسير البغوي ــ مع تفسير ابن كثير ــ القاهرة ــ ١٣٤٧هـ .
٦٠ــ شرح السنة ــ بيروت ــ بلا تاريخ .
البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي) :
٦١ــ دلائل النبوة ــ القاهرة ــ ١٩٧٠م .
حسن فتح الباب :
٦٢ــ مقومات السفراء في الاسلام ــ القاهرة ــ ١٣٩٠هـ .
الحسين بن المبارك (أبو العباس زين الدين أحمد بن أحمد بن عبداللطيف الشرجي الزبيدي المعروف بالحسين بن المبارك) :
٦٣ــ التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ــ القاهرة ــ ١٣٤٧هـ .
الحلبي (علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي) :
٦٤ــ انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون ــ القاهرة ــ بلا تاريخ .
حميدالله (محمد حميدالله الحيدرآبادي) :
٦٥ــ الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ــ القاهرة ــ ط ٢ ــ ١٣٧٦هـ .
الحنبلي (أبو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي) :
٦٦ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ــ القاهرة ــ ١٣٥٠هـ .
الخزرجي (أحمد بن عبدالله الخزرجي) :
٦٧ــ خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال ــ القاهرة ــ ١٣٢٢هـ .
خطاب (محمود شيت خطاب) :
٦٨ــ الرسول القائد ــ ط٣ ــ القاهرة ــ ١٩٦٤م .
٦٩ــ سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ــ مخطوط .

٧٠ـ قادة النبي صلى الله عليه وسلم ـ مخطوط .
٧١ـ قادة فتح العراق والجزيرة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٣٩٣هـ .
٧٢ـ قادة فتح بلاد فارس ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٣٩٤هـ .
٧٣ـ ومضات من نور المصطفى ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٣٩٩هـ .

الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي) :
٧٤ـ تاريخ بغداد ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي ـ بلا تاريخ .

خلاف (الشيخ عبدالوهاب خلاف) :
٧٥ـ الفقه على المذاهب الأربعة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

خليفة بن خيـاط :
٧٦ـ تاريخ خليفة بن خياط ـ تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ـ النجف ـ ١٣٨٦هـ .

الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري) :
٧٧ـ تاريخ الخميس ـ القاهرة ـ ١٣٠٢هـ .

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي) :
٧٨ـ تاريخ الاسلام ـ القاهرة ـ ١٣٦٨هـ .
٧٩ـ سير أعلام النبلاء ـ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .
٨٠ـ العِبَر ـ تحقيق فؤاد السيد ـ الكويت ـ ١٩٦١م .
٨١ـ ميزان الاعتدال ـ القاهرة ـ ١٣٢٤هـ .

الزبيري (أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري) :
٨٢ـ نسب قريش ـ نشره ليفي بروفنسال ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

الزركلي (خيرالدين الزركلي) :
٨٣ـ الاعلام ـ ط ٢ ـ القاهرة ـ ١٣٧٣ ـ ١٣٧٨هـ .

الزمخشري (أبو القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري) :
٨٤ـ تفسير الكشاف ـ بولاق بالقاهرة ـ ط ٢ ـ ١٣١٩هـ .

سحنون (سحنون بن سعيد التنوخي) :
٨٥ـ المدونة الكبرى ـ القاهرة ـ ١٣٢٣هـ .
سيد (سيد قطب) :
٨٦ـ في ظلال القرآن ـ طبعة وزارة أوقاف الكويت ـ ١٣٨٦هـ .
الشوكاني (محمد بن علي الشوكاني) :
٨٧ـ ارشاد الفحول ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٣٢٧هـ .
٨٨ـ الدراري المضيئة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .
الشافعي (أبو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي) :
٨٩ـ الرسالة ـ ط ١ ـ بولاق بالقاهرة ـ ١٣٢١هـ .
الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) :
٩٠ـ تاريخ الأمم والملوك ـ القاهرة ـ ١٩٦٠م .
٩١ـ تفسير الطبري ـ تحقيق محمود محمد شاكر ـ القاهرة ـ ١٩٧٢م .
٩٢ـ المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين ـ القاهرة ـ ١٣٥٨هـ .
عبدالرحمن بن عبدالله (أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله الخثعمي السهيلي):
٩٣ـ الروض الأنف ـ شرح السيرة النبوية لابن هشام ـ القاهرة ـ ١٣٣٣هـ .
عزالدين ابراهيم (الدكتور) :
٩٤ـ الدراسات المتعلقة برسائل النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك في عصره ـ مجلة المؤرخ العربي ـ العدد ٢٣ سنة ١٩٨٥م .
العصامي (عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي) :
٩٥ـ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ـ القاهرة ـ ١٣٧٩هـ .
عنان (محمد عبدالله عنان) :

٩٦ــ مواقف حاسمة ــ القاهرة ــ ١٣٤٥هـ .
القرطبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي) :
٩٧ــ الجامع لأحكام القرآن ــ القاهرة ــ ١٣٥٤هـ .
القزويني (يحيى بن آدم القزويني) :
٩٨ــ آثار البلاد وأخبار العباد ــ بيروت ــ ١٣٨٠هـ .
القلقشندي (أبو العباس أحمد القلقشندي) :
٩٩ــ صبح الأعشى ــ القاهرة ــ ١٩١٣م .
كرستنسن (المستر كرستنسن) :
١٠٠ــ ايران في عهد الساسانيين ــ ترجمة يحيى الخشاب ــ مراجعة عبدالوهاب عزام ــ القاهرة ــ ١٩٥٧م.
المحب الطبري (أبو جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري) :
١٠١ــ الرياض النضرة في مناقب العشرة ــ القاهرة ــ ط ٢ ــ ١٣٧٢هـ.
محمد رشيد رضا :
١٠٢ــ تفسير المنار ــ القاهرة ــ ١٣٢٥هـ .
محمد فؤاد عبدالباقي :
١٠٣ــ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ طبعة وزارة أوقاف الكويت ــ ١٣٩٧هـ .
المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي) :
١٠٤ــ مروج الذهب ومعادن الجوهر ــ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ــ القاهرة ــ ط ٤ ــ ١٩٦٤م .
المقريزي (أحمد بن علي بن عبدالقادر أبو العباس الحسيني العبيدي المقريزي):
١٠٥ــ إمتاع الاسماع ــ القاهرة ــ ١٩٤١م .
الندوي (السيد أبو الحسن الندوي) :
١٠٦ــ السيرة النبوية ــ طبعة دولة قطر ــ ١٩٧٩م .
النويري (شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب) :

١٠٧ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .
النووي (أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي) :
١٠٨ـ تهذيب الأسماء واللغات ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .
١٠٩ـ شرح النووي على مسلم ـ القاهرة ـ ١٣٠٣هـ .
نورمان بينز :
١١٠ـ الامبراطورية البيزنطية ـ تعريب دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٥٧م .
هيكل (الدكتور محمد حسين هيكل) :
١١١ـ الفاروق عمر ـ القاهرة ـ ١٣٦٤هـ .
الواقدي (محمد بن عمر بن واقد) :
١١٢ـ كتاب المغازي ـ تحقيق الدكتور مارسدن جونس ـ اوكسفورد ـ ١٩٦٦م .
وجدي (محمد فريد وجدي) :
١١٣ـ دائرة معارف القرن العشرين ـ بيروت ـ بلا تاريخ .
ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي) :
١١٤ـ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ـ لايدن ـ ١٨٤٦م .
١١٥ـ معجم البلدان ـ القاهرة ـ ١٣٢٣هـ .
اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الأخباري) :
١١٦ـ تاريخ اليعقوبي ـ النجف ـ ١٣٥٨هـ .
١١٧ـ البلدان ـ لايدن ـ ١٨٩٢م .

ملحوظة :

لم نذكر قسماً من المصادر والمراجع ، لقلة الاعتماد عليها ، واكتفينا بذكرها في الهامش .

المراجع الاجنبيـــة

اقتصرنا على اهمها ، والباقي اشرت اليها في صفحات الكتاب

1. Bell. The Qr'an, Translated with a critical Kearrangement of the Sorahs. 2 vols (Edinbourg 1937 - 1939).

2. Margaliuth : The Early development of Mohammedanism. (London 1914).
   Mohammed and the Rise of Islam (London 1905).
   The Relations between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam. (London 1924).

3. Mignel. Asin : Islam and the Divine Cimedy. Tr. H. Sunderland. (London 1926).

4. Muir. William : The Caliphate, its Rise. decline and Fall. (London 1891).
   Life of Mohamet (London 1858 - 1861).

5. The Encycloeadia of Islam (London and Leyden 1913).

6. Chambers Encyclopedia (London 1908).

7. Encyciopaedia Brittanica, 1974. New York.

ملحوظـــة :

تفاصيل المراجع الأجنبية مسجلة في هوامش هذا الكتاب ، ولم نعد الى ذكرها للاختصار جهد الامكان ، واقتصرنا على ذكر المهم منها حسب .

الفهارس

الاعـــلام

(ب)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(هـ)

ملحوظة :

وضعنا الاسم الذى اشتهر بـه الاسم الوارد في نص الكتاب ، دون أن نذكر تفاصيل الاسم (كنيته واسم ابيه وجده) ، فمن اراد الاطلاع على هذه التفاصيل ، فهي متيسرة غالبا في اسماء مؤلفي المصادر والمراجع الواردة في مصادر هذا الكتاب ومراجعـه ، فلم ار مسوغا لتكرار هذه التفاصيل هنا من جديد ، لذلك اقتضى التنبيه .

★ ★ ★

الامــاكن

(ب)

(ت)

(ج)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

القبائل والملل والنحل والمعاهد

(هـ)

(و)

(ي)

* * *

نسخ الرسائل النبوية المصورة وختم النبي صلى الله عليه وسلم

والخرائط والصور

التصويبات

التسلسل	الخطا	الصفحة	السطر	الصواب
١	لم يكتب النص	٢٥	٥	Armah
٢	فاحتاج	٣٠	١٩	فاجتاح
٣	أصحة	٣٢	١٧	أصحمة
٤	المسلمين	٣٣	٥	المسلمون
٥	ريب	١٣	١٨	قريب
٦	الرم	٣٤	١٥	الرقم
٧	وقاد	٣٤	١٧	وعاد
٨	ميص	٣٥	١٢	قميص
٩	وقو	٣٦	٦	وقد
١٠	الست	٣٦	١٢	الستة
١١	الآئب	٣٧	٦	الغائب
١٢	لوجاشي	٣٧	٧	النجاشي
١٣	بالاحافة	٣٧	فقرة (٦٠) في الهامش ـ السطر ٣	بالاضافة
١٤	الانب	٣٨	١٠	الغائب
١٥	١٤	أسفل الصفحة	آخر سطر	٤١
١٦	حمل الكتب	٤٢	السطر قبل الأخير من الهامش	حمل من الكتب
١٧	وامتك	٥٣	١٦	وآمنك
١٨	متك	٥٣	١١	منك
١٩	أريحا	٥٤	السطر قبل الأخير	أرها
٢٠	بقيض	٥٨	١٦	نقيض
٢١	وغدر	٥٨	١٩	وعذر
٢٢	الرم	٥٩	٤	الروم
٢٣	افريقيه	٥٩	٨	افريقية
٢٤	من	٦١	١٠	في

التسلسل	الخطأ	الصفحة	السطر	الصواب
٢٥	المراجع :	٦٤	الهامش (٤) في آخر الصفحة	لم تذكر المراجع وهي :

1. Baynes, N. H. : The Byzantin Empire. London 1926.
2. Qstrowski, G. : History of the Byzantine. Trans. Joen Hussey. Oxford 1956.
3. Vasiliev, A. : The Byzantin Empire : Madisan 1952.

التسلسل	الخطأ	الصفحة	السطر	الصواب
٢٦	فقالوا	٦٦	السطر قبل الأخير	فقولوا
٢٧	والمخلو	٦٨	السطر التاسع من الأسفل	والمخلوق
٢٧	ووراؤه	٦٨	السطر السابع من الأسفل	وآراؤه
٢٨	خال يضاف اليه	٦٩	٦ من الهامش	(From Christ to Constantine)
٢٩	خال يضاف اليه	٦٩	٧ من الهامش	(Alexander)
٣٠	وكان	٦٩	١٧ من الهامش	وكاد
٣١	مقـال	٦٩	١٩ من الهامش	(٧٧٧/١) مقال (Arianism)
٣٢	عـن	٦٩	٢١ من الهامش	عشر
٣٣	سجلا	٦٩	٢٧ من الهامش	سجالا
٣٤	خال يضاف اليه	٦٩	السطر الرابع من اسفل الصفحة للهامش	(Theosodius the Great)
٣٥	بالتوحية	٧٠	السطر ٤ من الهامش	التوحيد
٣٦	لقـاؤه	٧٣	٥	لقـاءه
٣٧	باستقضاء	٧٣	١١	باستقصاء
٣٨	قيضر	٧٤	٦	قيصر
٣٩	طريقـه	٧٧	السطر ٤ من الأسفل	طريقة
٤٠	وات	٨٢	١	قوات
٤١	انوشروان	٨٤	في الشرح	ابرويز
٤٢	القرسى	٨٥	٤	القرشي
٤٣	مزق كتابي	٨٩	٣	مكررة ترفع احداهما
٤٤	فانـا	٩٠	٤	فامـا

التسلسل	الخطأ	الصفحة	السطر	الصواب
٤٦	وصد	٩٣	٩	وقصد
٤٧	والوا	٩٤	٩	وقالوا
٤٨	حاوا	٩٥	١	جاءوا
٤٨	ال	٩٥	٢٠	الا
٤٩	لتم	٩٦	٢١	قلتم
٥٠	سيء	٩٨	٩	يجيىء
٥١	سرع	٩٩	٩	شرع
٥٢	ومباده	١٠١	٧	ومبادؤه
٥٣	الهجوم	١٠١	١٥	الهموم
٥٤	قريباً قريباً	١٠٢	٤	مكررة تشطب احداهما
٥٥	فماله	١٠٣	٦	فماله لم
٥٦	يدننوا	١٠٥	٥	يدينوا
٥٧	أم ابراهيم	١٠٥	السطر الأخير	أم ابراهيم ابن رسول الله
٥٨	حبهم	١٠٦	٤	جهم
٥٩	صلد	١٠٧	١٤	صلى
٦٠	المادر	١٠٨	٩	المصادر
٦١	بصف	١٠٨	١٣	تصف
٦٢	يرون	١٠٨	١٨	يروون
٦٣	بى بكر	١٠٩	١٤	أبو بكر
٦٤	فأعطواه	١٠٩	١٦	فأعطوه
٦٥	المسلمين	١٠٩	١٨	المسلمون
٦٦	نسبة الى غسان مكررة	١١٠	٩	ترفع احداهما
٦٧	امارؤ	١١٦	١	امرؤ
٦٨	ينذكر	١١٧	١٧	يتذكر
٦٩	بالحضيرات	١٢٣	٢	التحضرات
٧٠	وقص	١٣٢	٦	وقصة
٧١	وكان قبل هدنة	١٣٣	١٧	ترفع كلمة كان لأنها زائدة
٧١	فراغ وهو عنوان البحث	١٤٤	٤	الى المنذر بن ساوى صاحب البحرين
٧٢	بذوم	١٦٤	١	يوم
٧٣	سته	١٦٤	١٧	ستة
٧٤	جة	٣٦٣	١٠	جراة

محتويات الكتاب

الفصل الثاني

كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وموادهم الكتابية

٢٢٣ ـ ٢٦٤

الكتاب : ٢٢٨ ـ ٢٤٧

سمات السفراء

٣٢١ ـ ٣٨٤

الرسائل النبوية المكتشفة

ودراســـتها

٥٠٨ ــ ٥١٧

الصراع الحضاري

الداء والدواء

٥٢٤ ــ ٥٦٤



رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٨٠٩ لسنة ١٩٨٩